الفقه التربوي الإسلامي





عيد إسماعيل على

أصول الفقه التربوي الإسلامي

السنة النبوية ﷺ

رؤية تربوية

الدكتور سعيد إسماعيل علي
كلية التربية - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤ ، فاكس : ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

أكتب هذه المقدمة فى شهر أكتوبر من عام ٢٠٠١ ، والعالم كله يموج بفيضان لم يحدث له مثيل من قبل ، عن الحديث عن الإرهاب بعد ما تعرضت له الولايات المتحدة الأمـريكيـة من ضـربات داخل نيـويورك وواشنطن طالت رمـزى القـوة الأمـريكيـة : الاقتصـادية المتمثلة فى (مركز التـجارة العالمى) ، والقوة العسكرية المتـمثلة فى (مبنى البنتاجون) ، وما تبع ذلك من تجـييش الجيوش متعددة الأنواع والوسـائل للمواجهة ، ذلك أن هذا السُّعار الحادث ، قـد واكبـه حديث عن مـواجهـة حضاريـة بين الإسلام والمسلمين ، وبين الغـربيين ، وتُهم يُرمى بهـا الإسلام والمـسلمون ، إلى الدرجـة التى دفـعت عددا مـن القادة السـيـاسيـين الكبار فى الـغرب (بوش الأمـريكى ، وتاتشـر الإنجليزية، وبيرلسكونى الإيطالى) إلى ترديد عبـارات من زمن ما كان يعرف بالحروب الصليبية !!

وسرت حمى التـعصب مسرى النار فى الهشيم ، لتكشف حـقدا دفينا ، وقلوبا سوداء عميت عن أن ترى الحقيقة ، فـراحت تنفث تصريحات وكتابات شيطانية ، منها على سبيـل المثال ما كتبـته (أوريانا فالاتشى) الكاتبـة والصحفية الإيطالـية فى جريدة (الموندو الإسبانية) ، بعد أن تسرد عددا من مظـاهر الجذور الحضارية الغربية فى اليونان وما بعدها فى روما ، تقول :

« أنا ما أزال أحيا حتى الآن بفضل العلم وليس بفضل دين محمد!!»

وهى تواصل قولها أنهم وصلوا بفضل العلم إلى القمر ، وقريبا سيصعدون فوق المريخ ، وأن العلم بـدّل مـلامح الكوكب عن طريق الكهـربـاء والراديو والتليـفـون ، والتليفزيون ، ومن ثم ففى رأيها أن الوقت قد حان لتطرح التساؤل الذى تصفه بالقاتل : إلى ماذا تستند الثـقافة الأخرى ؟ والثقافة الأخـرى التى تعنيها هى الثقافـة الإسلامية ، فتؤكد أنها بحثت وبحثت فلم تعثر سوى على محمد بقرآنه (!!) وابن رشد !

وبغض النظر عن سوء تعبيرها بالنظر إلى القرآن بأنه قرآن محمد لا كتاب الله ، فياليتها حقا بحثت فيه وفهمته واستوعبته !

فى وسط هذه الأعاصير التى لا نقول بدأت تهب على الإسلام والمسلمين ، والتى تتخذ الآن صورة حرب مسلحة فعلية ، وإنما هى متواصلة على وجه التقريب منذ قرون ، ما أشد حاجتنا إلى أن نقف وقفة صدق مع النفس ، بحثا عن سلبياتنا ، ومظاهر التقصير فى تفكيرنا وحياتنا ، وكيفية الالتزام الفعلى والفكرى بالشريعة الخاتمة، بعقيدة الإسلام ، بعقل مفتوح ، وقلب عطوف ، حتى نستطيع أن نواجه هذه الأعاصير العاتية، لا بمجرد الانفعال والتعصب المقابل ، ولا بمجرد خسة الرد وهمجية الفعل ، وإنما بما يليق بتعاليم الإسلام من رقى وعلو شأن وعفة لسان وعقل راجح .

وفى ضوء هذا تجىء أهمية أن يعكف أبناء وعلماء وخبراء كل مجال من مجالات الحياة والعلم على ما يخصهم بحثا وتفكيرا ، وترجمة سلوكية ، وفى مقدمة هذه المجالات ، التربية الإسلامية ، التى هى خط الدفاع الأول ، لأنها تعنى ببناء الشخصية الملتزمة بعقيدة الإسلام .

ولعل أول الخطوات على هذا الطريق ، القيام بعملية تأصيل لهذه التربية ، وهو الأمر الذى قمنا بخطوة أولى فيه ، عندما أخرجنا كتابنا (القرآن الكريم ، رؤية تربوية) باعتباره اللبنة الأولى على طريق بناء (**أصول فقه تربوى إسلامى**) .

وها قد وفقنا الله- عز وجل- إلى إتمام الخطوة الثانية ، بتقديم اللبنة الحالية فى بناء فقه تربوى إسلامى ، تتمثل فى تقديم صورة للسنة والسيرة النبوية من منظور تربوى، حيث أعانتنا على ذلك مجموعة من الجهود العلمية السابقة ، عالية المستوى ، عميقة التناول ، بذلها نفر مخلص من علماء هذه الأمة ، ولعلى أذكر منها على سبيل المثال : كتابات الدكتور يوسف القرضاوى ، والشيخ محمد الغزالى ، والدكاترة : نور الدين عتر ، ورفعت فوزى ، ومحمد عجاج الخطيب ، ومحمد الصادق عرجون ، والدكتور هيكل ، ومحمد فريد وجدى ، وغيرهم ممن سيلمس القارئ بين ثنايا الكتاب كيف كان سيستحيل الأمر علينا ، إذا لم تتوافر بين أيدينا هذه الأعمال .

هذا فضلا عن جهود أسبق قام بها علماء السنة الكرام ، أمثال جلال الدين السيوطى ، والخطيب البغدادى ، والقاضى عياض ، وابن الصلاح ، والسخاوى ، وابن جماعة ، والسمعانى .. إلخ . وقبل هؤلاء وهؤلاء ، تلك الكوكبة من الرجال الأفذاذ حقا الذين جمعوا أحاديث النبى ﷺ أمثال البخارى، ومسلم، وابن حنبل، والترمذى، والنسائى، والطبرانى، وأبى داود، والإمام مالك .

وبعد .....

إنها صورة جهد ، نقول فيها ما نقوله إزاء كل عمل نخرجه ، مجرد خطوة على الطريق ، قد تصيب وقد تخطئ ، تصيب فى أمور وتخطئ فى أمور ، وواجب القارئ ، أن ينبهنا إلى هذا وذاك لعلنا نستطيع تلافى ما أخطأنا فيه ، ونعزز ما أصبنا ، إذا كان فى العمر بقية .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا على طريق الحق والخير ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى ٢٨ من رجب ، ١٤٢٢ هـ

الموافق ١٥من أكتوبر ، ٢٠٠١ م

دكتور/ سعيد إسماعيل على



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمــة	٣
تمهيـــد	١١
الفصل الأول	
السنة النبوية مصدرا للتربية	٢٥
مقدمة .	٢٥
معنى السنة .	٢٥
معنى الحديث .	٣٢
الخبر والأثر .	٣٤
الحديث القدسى .	٣٥
تدوين السنة .	٣٦
وضع الحديث وتزييفه .	٤٨
مقاومة الوضع .	٥٦
مصادر الحديث النبوى .	٦٣
نشأة علم الحديث .	٧١
أنواع السنة .	٨٠
منزلة السنة بالنسبة للقرآن الكريم .	١٠٠
وجوب العمل بالسنة النبوية .	١٠٩
الفصل الثانى	
البنية التربوية للشخصية المحمدية	١١٩
مقدمة .	١١٩
المقوم المكانى .	١٢٠
الأصول الاجتماعية .	١٢٥

الموضوع	الصفحة

اختياره نبيا ورسولا . ١٣٢

ابتلاءات . ١٤٣

التوجيه الربانى . ١٥٣

الدعوة إلى الحق . ١٦٢

الجهاد المسلح فى سبيل الله . ١٧٦

حكمـة القيادة المحمدية وفاعليتها . ١٨٧

تكوين الرجال . ١٩٧

تكوين الأمة وتأسيس الدولة . ٢٠٧

البناء الأسرى . ٢١٧

الفصل الثالث

قضايا ومبادئ تربوية ٢٣١

مقدمة . ٢٣١

التقدير النبوى للتعلم للتأسيس الحضارى . ٢٣٢

فلنكن بناة بشر . ٢٤٧

تقدير العلماء ودورهم فى البحث والتعليـم . ٢٦٠

الشخصية المؤمنة . ٢٧١

بث دماء قوة فى عـروق الأمة . ٢٨٤

وإنك لعلى خلق عظيم . ٢٩٥

التذوق الجمالى . ٣٠٦

المؤمن القوى . ٣١٥

تعليم النساء . ٣٢٦

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
طرق التعليم وأساليبه ٣٤٣

مقدمة . ٣٤٣
القصة . ٣٤٤
القدوة . ٣٥٦
ضرب المثل . ٣٧٠
الوسائل التعليمية من أجل تعليم جيد . ٣٨١
لابد من تفكير سليم . ٣٩٤
الحوار والتساؤل . ٤٠٦
الممارسة والبيان العملى . ٤١٨
قواعد ومبادئ تربوية عامة . ٤٣٢

الفصل الخامس
تعليم السنة وتعلمها ٤٤٣

ضرورة دينية وتربوية . ٤٥٣
مبادئ وشروط تعليم السنة . ٤٤٣
آداب تعلم السنة . ٤٦٣
طرق تعلم السنة . ٤٨٠
دور الصحابة فى تعلم السنة وتعليمها . ٤٩٧
السنة النبوية فى تعليم الأمة فى العصر الحديث . ٥٠٨
استخدام تقنيات المعلومات لخدمة تعليم السنة وتعلمها . ٥١٣



تمهيد

حاجة الإنسان إلى الأنبياء

من المعلوم ، خبرة وبداهة فى عـالم الإنسان أن الأفعال الاختيارية منهـا ما تحمد عاقبته ، فيجمل بالعاقل فعله والحرص عليه ، ولو ناله فى سبيل تحصيله حرج ومشقة، وأصابه منه فى عاجل أمره كثير من الآلام ، ومنها ما تسـوء مغبته ، فيجدر بالعاقل أن يتماسك دونه ، وأن يتنكب طريقه خشية شره ، وطلبا للسلامة من ضره، وإن كان فيه ما فيه من اللذات العاجلة التى تـغرى الإنسان بفعله ، وتخدعه عما فيه سـلامته ، غير أن العقل قد يقصـر فى كثير من شئونه عن التميـيز بين حسن الأفعال وقبيحـها ونافعها وضارها ، فلابد له من معين يساعده على إدراك ما قـصر عنه إدراكه . وقد يعجز كليا عن العلم بما يجب عليه علـمه ؛ لأنه ليس فى محيط عـقله ، ولا دائرة فكره ، مع ما فى علمه به من صـلاحه وسعادته وذلك مما هـو متصل بعالم الغـيب ، كمعرفـته بالله واليوم الآخـر والملائكة تفصـيلا ، فكان فى ضـرورة إلى من يهديه الطريـق فى أصول دينه، وقد يتردد فى أمر إما لعارض هوى وشهوة أو لتـزاحم الدواعى واختلافها فيحتاج إلى من ينقـذه من الحيـرة ، ويكشف له عن حجـاب الضلالة بنور الـهدى فبـان بذلك حاجة العالم إلى رسول يخرجهم من الظلمـات إلى النور ، ويكملهم بمعرفة ما قصرت عنه أفهامهم ، ويوقـفهم على حقيقة ما عجزوا عنه ، ويدفـع عنهم آلام الحيرة ومضرة الشكوك [1].

كذلك فقـد قضت مشيـئة المولى عز وجل أن يخلق الإنسان حـاملا فى تكوينه اتجاهين متعادلين ، فـقد خلق الإنسان من جسد وروح[2] ، وللجسد مطالبه ، وللروح مطالبها ، فمطالب الجسد التمتع عن طريق الشهوات التى من أهمها ما تصرخ به معدته من طلب للطعام والمـاء ، وما تصرخ به النزعـة الجنسية من طلب للإشـباع ، ومطالب الروح : السمو والخلود وطريقها إلى ذلك طاعـة الله والتقرب إليه ، ووضعت الشرائع

---

(١) عبد الرازق عفيفى : الحكمة من إرسال الرسل ، القاهرة ، مطبعة المدنى ، ١٩٩٦ ، ص٥٨ .

(٢) مـوسى شـاهين لاشين و صـلاح الدين يوسف شلبى : دراسـات فى السيـرة وعلوم السنة ، القاهرة، مطبعة الفجر الجديد ، ١٩٨٤ ،ص١١ .

منذ أن هبط آدم إلى الأرض حدودا لمطالب الجسد لا يتجاوزها إلا معتد أثيم ، يقول عز من قال : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ... (٧٧) ﴾ [القصص]، وقال : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ [النازعات] .

ولم يكن من العدالة والرحمة الإلهية أن يوجه إلى بنى آدم جنود إبليس أجمعون مع ما طبعوا عليه من شهوات النفس الأمارة بالسوء دون تقوية للمقاومة فى جانب الخير . لقد شاءت حكمة الله ورحمته بالإنسان الذى تسلح جانب الشر فيه بهذه الأسلحة أن يمنحه أسلحة مضادة واقية وأن يرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين ، يحذرونه من اتباع الشيطان ومخالفة أمر الرحمن[1] ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٧] ، ويفتحون أمامه باب التوبة والرجوع إلى الله ليغفر ذنبه ويستر عيبه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) ﴾ [الزمر] .

وأمام هذه العدالة والمعادلة ، بل أمام هذه الرحمة والإحسان تسقط الحجة ولا يبقى عذر لمعتذر[2]، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]، ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص:٥٩] ، ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾ [طه] .

---

(١) دراسات فى السيرة وعلوم السنة ، ص ١١ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ولأن الرسالة هى محض فضل من الله سبحانه وهى خصوصية إلهية ، وهى اصطفاء واختيار لخيار البشر ، فهى لا تعنى مجرد الكتب أو الصحف ، بل إن للرسالة معنى شاملا يتضمن الوسيلة والغاية والمؤمن بها وإثباتها فى الوقت نفسه . . .

فالرسالة وسيلة الهداية والعلم والمعرفة والشريعة والأمر الإلهى .

والرسالة هى الغاية من الوجود البشرى لقيامه بحق العبادة لله وتحقيق السعادة للإنسان فى دنياه وأخراه[1] .

والرسالة لابد من إثباتها والإيمان بها والعمل بما جاء فيها والتصديق بحاملها ومبلغها عن الله سبحانه وهو الرسول ﷺ .

ولهذا فالرسالة التى يجب إثباتها والإيمان بها هى الموقف والحكمة والهدف ، وهى الآداب والأحكام ووسيلة الإصلاح والأمر المبلغ عن الله للبشر بواسطة الرسل . إنها العلم والعمل ، إنها الوحى والبشرى . . إنها الأمل والنور والهدى ، إنها الحكمة الخالدة [2] .

والمثبتون للرسالات جزاؤهم عند الله عظيم يبشرهم به الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء] .

أما الذين أنكروا الرسالات ولم يؤمنوا بالحق الذى أرسل به الرسل فجزاؤهم عند الله مهين وأليم يحذرهم وينذرهم به الحق فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء] .

ونمضى فى تأمل سنن الله فى خلقه ، فنجد أنه سبحانه خلق عباده على طرائق شتى فى أفكارهم ومذاهب متباينة فى مداركهم ، فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه واطلع من الكون على كثير من أسراره ، حتى وصل بما منحه الله من ثاقب الفكر ويسّر

---

(١) عبد الحميد درويش : إثبات الرسالة وصفات الرسل ، دراسة فى النبوات ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٠ ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ .

له من التجارب إلى أن اخترع للناس ما رفع إليه من أجله أولو الألباب رؤوسهم إعجابا به ، وشهادة له بالمهارة ، وأنكره عليه صغار العقول ، وعدوه شعوذة وكهانة أو ضربا من ضروب السحر ، ولم يزالوا كذلك حتى استبان لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفى عليهم فأذعنوا له وأيقنوا بما كانوا به يكذبون [١] .

ومنهم من ضعف عقله ، وضاقت مداركه فعميت عليه الحقائق واشتبه عليه الواضح منها ، فأنكر البديهيات ، ورد الآيات البينات ، ومنهم من انتهى به انحراف مزاجه واضطراب تفكيره إلى أن أنكر ما تدركه الحواس كطوائف السوفسطائية .

فمن شاهد ما مضت به سنة الله فى عباده من التفاوت بينهم فى مداركهم وقواهم وإرادتهم ، وغير ذلك من أحوالهم لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع ، ويستيقن أن الله ينبئ من شاء من خلقه ويصطفى من أراد من عباده ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ [النساء] .

كذلك ، لكى نقف على حاجة الإنسان إلى الرسل ، يجب أن نصل بين مفهوم النبوة ومفهوم الخلق ، فالنبوة عمرها من عمر الإنسان ، لماذا ؟ لأن بقية مخلوقات الله خاضعة تماما ومسلمة لله عز وجل ، فالحجر عندما يسقط ، والشجر عندما ينمو ، والحيوان بغرائزه ، كل هذه المخلوقات تطيع قانون الخالق الجبار .

أما الإنسان فهو وحده الذى قد يعصى أو يتمرد . هذا هو ما يذكرنا به القرآن الكريم عندما يشير الحق جل وعلا للملائكة بأنه قد عهد للإنسان بخلافته على الأرض: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] .

هذا هو التناقض الجوهرى فى حياة الإنسان ، فهو المخلوق الذى يمكنه أن يعصى أوامر الله ، وكذلك فيمكنه أن يطيعها إنه كان ظلوما جهولا ، كما يقول المولى عز وجل ، وفى الوقت نفسه فقد ولى خليفة لله فى الأرض ، أى أنه قد آلت إليه إدارة العالم حسب تعاليم الخالق الجبار [٢] .

---

(١) الحكمة من إرسال الرسل ، ص ٥٣ .

(٢) روچيه جارودى : سنة الله ومحمد خاتم الأنبياء ، ترجمة رجاء ياقوت فى : الأزهر ، مجمع البحوث الإسلامية ، المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٥ ، ص٣ .

ومما لا شك فيه أن المعرفة الصحيحة هى الشرط الأساسى لحسن تعامل الإنسان مع الكون والحياة ، وذلك لأن أى عمل يباشره الإنسان إنما يندفع إليه بعامل غاية يهدف إليها ، ولا تزدهر الأهداف الغائية للأعمال إلا إثر معرفة تنشأ فى ساحة الذهن .

وهكذا فإن المعرفة هى منطلق السلوك فى حياة الإنسان ، غير أنه من الضرورى جدا أن تكون المعرفة صحيحة ، حتى لا يتنكب السلوك بصاحبه عن الهدف المرسوم ، ولكى تكون المعرفة صحيحة مطابقة للواقع لابد أن تكون منضبطة بمنهج ، أى بميزان يحدد معالم الطريق إلى المعرفة الصحيحة ويمنع الانحراف فى تيار المتاهات والملابسات الخاطئة[1] .

والحديث عن هذا المنهج وأحكامه طويل ، ولكن الذى يهمنا منه - فى هذا المقام- أن نذكر بأن موضوع المعرفة عندما يكون مسألة خاضعة للتجربة والمشاهدة ، فإن المنهج إليها لابد أن يكون محصورا فى التجربة والمشاهدة ، ولكن عندما يكون موضوعها المطروح للبحث مسألة غيبية ، كأن تكون عائدة إلى ماض سحيق ، أو متوقعة الحصول فى المستقبل البعيد ، فإن المنهج إلى معرفة هذه المسألة أحد طريقين :

أولهما : وهو الأصل والمنطلق ، الوقوف على الخبر اليقينى الصادق المتصل بالمصدر الموثوق به ثقة علمية ، والذى يمكن أن يكشف عن خبيئة هذه المسألة .

ثانيهما : (وهو سبيل فرعى ، ينتج فى ظروف محددة وضمن شروط معينة) الاعتماد على قانون التلازم ، أى تتبع المستلزمات الفعلية التى لابد أن تنتج عن فرضية غيبية ما ، فيما لو قدرنا أنها واقعة صحيحة[2] .

وإنما نريد أن نلقى مزيدا من الضوء على الطريق الأساسى الأول الذى هو الخبر اليقينى الصحيح ، فنحن ، بعد أن يتكامل إيماننا بوجود الله عز وجل، لا نشك فى أنه هو مصدر الخبر اليقينى الصحيح ، لكل معضلة كونية مدفونة فى غياهب الغيب الماضى أو المستقبل ، ومن ثم فلا مندوحة لنا - فى طريق معاناتنا من أجل المعرفة - من

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطى : السنة مصدرا للتشريع ومنهج الاحتجاج بها ، فى : ندوة السنة النبوية ومنهجها فى بناء المعرفة والحضارة ، عمان ، المؤتمر العام السابع للمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية ، يونية ١٩٨٩ ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

أن نصغى جيدا إلى ما يقوله هذا الصانع ، معرفا بمصنوعاته ومنبها إلى كل ما هو جدير بالمعرفة عنها ،. الشأن فى ذلك شأن أى جهـاز أنتجته شركة ما ، من حيث إنه لابد لمن يريد أن يقـتنى هذا الجهـاز ويعلم شـيئـا عن دخائلـه ، من الرجوع إلى ذلك الكتـيب الإخبـارى (الكتالوج) الذى يتحدث بلسـان صانعى ذلك الجهـاز عن طبيعتـه وفوائده وطريقة استعماله وصيانته [١] .

وهكذا فإن المعرفـة العلمية الصحيحـة لقصة هذا الكون ، كما هى متـوقفة على الفعل الإنسانى المدرك ، متوقفـة فى الوقت ذاته على بلاغات إخبارية ترد إلينا عبر قناة علمية دقيقة ، من صانع هذا الكون ، تكشف عن مكنون كثير من مغيباته وغنى عن البيان أن المعرفة لا تتحقق إلا إذا ألقح العـقل الإنسانى هذه البلاغات ، فلا يغنى واحد عن الآخر على طريق معرفة الأمور الغيبيـة فى هذا الكون ، مهما حاول الإنسان ومهما جاهد .

وهكذا يتـبين لنا أن الله تعـالى لم يكل الإنســان - فى المعـرفـة - إلى حواسـه وحدها، وإلى قدراته بمفـردها ، فكانت رسالات السموات مصادر للمـعرفة ، لا تلغى المعارف المحـسوسـة المشاهدة ، ولا تقلل من شـأن أدوات إدراكها ، وإنما تـضيف إلى المعرفة الإنسانية مـعارف يقينية لا تثمرها المادة وتستقل بإدراكهـا الحواس ، لأنها معارف عوالم غير مادية ، وإنباء عن مقادير من علم هذه العوالم ، تفضل بها على هذا الإنسان عالم الغيب والـشهادة ، وذلك حتى لا يظل هذا الإنســان - المكون من روح وجسد - بمعزل عن غذاء الروح ، وحبيسا للمعارف المادية دون سواها [٢] .

وكانت معارف الرسالات السماوية :

- تأكيدا للمعـارف الصادقة ، يطمئن الإنسان العاقل إلى صـدق ما وصل إليه بعقله الإنسانى ، عندما وصل ذاتيا إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح .
- وتصحـيحا لأحكام وتصورات الحـواس ومنها العقل الإنســانى - التى لم تصادف الحق والصواب - لنسبية قدرات هذه الحواس ومحدودية آفاقها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤ .

(٢) محمد عمـارة : السنة النبوية مصدرا للمعرفة ، فى ندوة السنة النبوية ومنهـجها فى بناء المعرفة والحضارة ، ص٣ .

- وإعانة لهـذا الإنسان على معـرفة وإدراك المقاديـر الضرورية لترشـيد مسـيرته من المعارف والعلوم التى لا يستطيع عقله أن يستقل بإدراكها .

- ودعوة لـه كى يغوص فـيمـا لا تدركه حـواسه ، مما سكتت هذه الرسـالات عن تفصيل خبره من المغيبات ومن الأحكام التعبدية .

وقد يتساءل الذين يتشككون فى هذه الحقيقة : أنى للإنسان الذى يدرك بالحواس المادية ، ويعقل بعقله ، أن يتيقن بمعارف مـصادرها غير مادية ، أو لا تستطيع الأدوات المادية للإنسان أن تختبر صدقها وتتحقق من درجة يقينها ، وألا يكون تكليف الإنسان- وهذا حاله - بالتصديق اليقينى بمعارف لا تستطيع أدواته اختبارها لونا من ألوان التكليف بما لا يطاق[1]؟

لكننا ننبه على أن المعرفـة بالمنطلقات الإيمانية الإسلامية تنفى وجـود الحاجة لهذا التساؤل من الأساس ، ذلك أن المسلم يدرك حقيقة وجود إله - غير مادى - خالق لهذا العالم وقـائم على رعايته . . . يدرك ذلك بالعقل الـناظر فى الصنعة والمصنوع ، وفى آيات الوجـود وكتـاب الكون المادى المفتـوح ، فبـالاستنبـاط العقـلى يؤمن المسلم بالله المستجمع للكمالات المطلقة والقدرات المطلقة ، وبما أن رعاية الخالق لمخلوقاته هى بعض من كـمـالات هذا الخـالق ، كـان اللطف الإلهـى ، المتـمـثل فى الرسل والرسـالات السماوية، هداية للإنسان وتصويبا لخطاه على درب الخلافة ، وإعانة لعقله وحواسه على إدراك الضرورى من المعارف التى لا تسـتقل قدراته بإدراكها ، ولا ينفرد عـقله بإدراكها وفهمها .

إذن فمصدر هذه المعارف السمعية التى نتلقاها بالوحى ، لا يقل فى المعقولية عن المصادر المادية للمعارف المستفادة بالمنهج التجـريبى ؛ لأن هذه المصادر الغيبية هى مصادر معقولة عـقلها الإنسان العاقل بالمنهج الاستنبـاطى ، فليست هى من الميتافيـزيقا والخيال الغريبين عن العقل ويقـينه ، كما يحسب الوضعـيون الغربيون ، فإذا توافـرت للأخبار السـمعـيـة (عن طريق الوحى) شـروط الصدق ، رواية ودراية ، بـعد أن رأينا توفـر معقولية مصادرها ، رغم لا ماديتها ورغم غيبيتها ، فإنها تكون قد استجمعت وامتلكت كل شروط اليقين الذى يتطلع إليه العقل الإنسانى ويتطلبه من المعارف اليقينية [2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧ .

وإذا كانت الحياة لم تعرف حدا لرقى الفرد فى الجماعة البشرية ينتهى إليه ، فأحرى ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده فى رقيها ، فالحياة متجددة ، والمعارف الإنسانية متزايدة والعقل البشرى دائب العمل ، وخزائن الكون لا تزال مغلقة ، وأسراره ما برحت محجبة وحقائقه ما فتئت مجهولة[1] .

وكيف يقف رقى الفرد أو الجماعة عند حد، ومهمة العقل فى الحياة هى كشف تلك الأسرار الكونية ، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها فى إفادة الإنسانية ؟ ومن الغرور العقلى أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقربه من الكمال المقدور للبشرية ، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جدا مما عرف ، لا يزال الكثير منه مستخدما فى الحياة على غير جهته التى تفيد منها الحياة ، فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الآفاق .

لكن هذه المعارف العقلية التى لا تنتهى عند حد فى الأفراد والجماعات ، هى فى الواقع المشهود محدودة المنزع ، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون

وهنا يأتى دور من أدوار الرسالات الإلهية فى قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطويها ومداخل الوجود وبواطن الحياة ، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها ، إلى الخالق جل شأنه ، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه وبالغ حكمته ، وواسع علمه ، وهيمنة إرادته ، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل - بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة ، ومنافع متتابعة -على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسان وجوده ولطائف تدبيره [2] .

ومع الأسف الشديد فقد غرّت الفلسفة المادية كثيرين فوقفوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين ظنوا أنه ليس فى الوجود شىء فوق ما يعرفون ، متأثرين فى ذلك بما أحرزه العلم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة خاصة ، بينما أكدت بحوث علمية ، وخاصة منذ أواخر النصف الأول من القرن العشرين ، وحتى الآن صدق المقولة القرآنية : ﴿ وما أُوتيتُم مِّن الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] .

---

(١) محمد الصادق عرجون محمد ، من نبعته إلى بعثته ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٤١ ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٣ .

ونستعين هنا بما أورده محمد فريد وجدى منذ أكثر من نصف قرن من شهادات لبعض المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، فمن ذلك شهادة السير وليم كروكس ، وهو الحاصل على الكثير من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمى البريطانى ، حيث قال فى خطبة له فيه ، كما ورد فى مجموعة خطبه ، ص ٨[1]:

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذللت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادى الراسخ الصحيح بجهلى ، وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم» .

إلى أن قال : «ولست بآسف من الحدود التى تضعها الجهالة الإنسانية ، بل إنى أعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا وليس أحد سواى أهلا لأن نحكم بأن شيئا بعينه ليس بموجود فى الكون» .

وهناك أيضا (شارل ريشيه) الذى كان عضو المجمع العلمى ومدرس الفسيولوچيا فى جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور ماكسويل النائب العام فى بوردو من فرنسا ، قال : «يجب على الإنسان ، مع احترامه العظيم للعلم العصرى ، أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصرى ، مهما بلغ من الصحة ، فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا» .

ثم قال : «لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ، ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟» إلى أن قال : «فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد . . متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه» .

ويخلص فريد وجدى من كل هذا ، إلى أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسهم من الموجودات ، أما كنه تلك الموجودات وحقيقة

---

(١) محمد فريد وجدى : السيرة المحمدية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٦٤ .

النواميس التى تدبره ، فلا يزال أمرهما مجهولا ، وقد تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات [1].

وهكذا نجد أن المنطق والعقل واستقراء تاريخ حياة الإنسان يؤكد بغير شك مدى حاجة البشر فى كل عصر من عصورهم إلى الرسالات السماوية ، وتلك الحقيقة يثبتها الحق سبحانه وتعالى فى قوله- عز وجل- : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)** ﴾ [التوبة].

وفى قوله : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)** ﴾ [النساء].

وقال : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)** ﴾ [الحديد].

وقال : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)** ﴾ [التوبة].

وإذا كان الله- سبحانه وتعالى- يختار رسلا يبلغون رسالاته إلى البشر ، فإن هذا إنما يكون عن طريق الوحى ، الذى حدد صوره وأشكاله فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)** ﴾ [الشورى]، وبالتالى فإن هذه الصور الثلاث يمكن بيانها كالتالى [2]:

١ - تكون بإلقاء الله المعنى فى قلب نبيه يقظة أو مناما ، مع جعله يشعر شعورا كاملا واضحا بأن هذا المعنى من عند الله ، فليس بمطلق الإلهام الغامض غير

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥

(٢) الحسينى عبد المجيد هاشم : الوحى الإلهى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية (٢٣٦) ، مارس ١٩٧٠ ، ص ١٢ .

معروف المصدر ، بل إذا سميته إلهاما ، فهو إلهام واضح متميز عن غيره بأنه يقينى المعرفة ، معلوم مصدره لدى النبى- عليه السلام- بأنه من عند الله ؛ ولذا دفعت هذه الرؤيا المنامية سيدنا إبراهيم- عليه السلام- إلى تنفيذ المعنى الملقى إليه وإن كان شاقا عادة ، فسارع لذبح ابنه وفلذة كبده وصارحه بذلك قائلا : ﴿ ...يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات].

ويشعر سيدنا إسماعيل بقداسة الوحى وبأنه أمر يجب أن يطاع ، فيقول : ياأبت افعل ما تؤمر، وكان الاستسلام لله بأدق معنى، ولما أسلما وحصلت الطاعة لأمر الوحى وصدقت الرؤيا وكانا من المحسنين كان جزاء الإحسان الإحسان فجاء الفداء.

ومثل ذلك رؤية نبينا محمد ﷺ بأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح].

٢ - أن يكلم الله نبيه من وراء حجاب مثل ما حصل لموسى- عليه السلام- عندما كان مع أهله فى ليلة باردة [١] ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) ﴾ [طه].

٣ - أن يرسل الله ملكا رسولا وهو أمين سر الوحى جبريل- عليه السلام- . إنه ، على حد تعبير ورقة بن نوفل : الناموس الذى كان ينزل على موسى ، وهو بتعبير القرآن الكريم الروح الأمين ، فينزل ولكن بأمر الله ، وبوحى ولكن بإذن الله وما يشاؤه الله [٢].

---

(١) الحسينى هاشم ، الوحى الإلهى ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

وقد اقتضت مهمة النبوة أن يعصم الله رسله من الذنوب سواء كانت كبائر أو صغائر ، فبالنسبة للكبائر نجد أنها إما أن تكون كفرا أو كذبا أو غيرهما ، وبالنسبة للكفر هناك إجماع يتفق مع المنطق والعقل على أن الأنبياء معصومون منه قبل النبوة وبعدها .

وأما الكذب ، فقد أجمع أصحاب الملل والشرائع على أنه من غير المعقول أن يصدر عن الأنبياء عمدا ، فضلا على أن يصدر سهوا ونسيانا عند كثير من الأئمة . ويمكن حصر الأدلة على عصمة الأنبياء من الكذب فيما يلى[1] :

فمن الأدلة النقلية :

قوله- عز وجل-: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]، أى أن ما ينطق به لا يعبر عن رأيه، بل هو بوحى من الله-سبحانه وتعالى-.

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة].

وجاء فى الحديث الشريف أن الرسول ﷺ قال : «**والله ما يخرج من هذا الفم إلا الحق**»[2].

ومن الأدلة العقلية[3] :

-نظرا لأن الكذب يعد معصية ، فلابد أن يكونوا معصومين منها .

-لو كذب الأنبياء وعرف الناس منهم ذلك لانعدمت قيمة الرسالة ولأدار الناس ظهورهم لهم ، إذ كيف ينهى الرسول عن خلق ويأتى مثله؟

-لو جاز عليهم الكذب والافتراء ، للزم الكذب فى الخبر عن الله- سبحانه وتعالى-، وهذا محال؛ لأنه صدقهم بالمعجزات .

ولكن : هل يجوز أن يكونوا غير عالمين بشىء مما لم ينزل عليهم[4] ؟

---

(١) محمد إبراهيم الحفناوى : دراسات أصولية فى السنة النبوية ، المنصورة ، دار الوفاء ، ١٩٩١ ، ص ٢٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ، ٢/ ١٦٢ ، وأبو داود فى سننه ، كتاب العلم ، ٣/ ٢١٨

(٣) دراسات أصولية فى السنة النبوية ، ص ٤٣ .

(٤) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، واشنطن ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٨٦ ، ص ١٤٣ .

الحق أنه لا يشترط فى حق الأنبياء العصمة من عدم معرفتهم ببعض أمور الدنيا، مما لم ينزل عليهم : كالحرف والصنائع ، وما يتعلق بالزراعة والعلوم الرياضية ، ولا العصمة من اعتقادهم شيئا منها على خلاف ما هو عليه ، ولا عيب فى ذلك حيث إن هممهم متعلقة بالآخرة وأنبائها ، وأمور الشريعة وقوانينها ، وأمور الدنيا تضادها ، بخلاف غيرهم من أهل الدنيا الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم].

بيد أنه لا يصح القول بأنهم لا يعلمون شيئا من أمور الدنيا بالكلية ، فإن ذلك يؤدى إلى الغفلة والبله ، وهم المنزّهون عنه ، بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا وقلدوا سياستهم وهدايتهم والنظر فى مصالح دينهم ودنياهم ، وهذا لا يكون مع عدم العلم بالكلية ، وأحوال الأنبياء وسيرهم فى هذا الشأن معلومة ، ومعرفتهم بذلك مشهورة .

كذلك يجوز عقلا أن يكون النبى منهم غير عالم بشرائع من تقدمه من الأنبياء ، وأن يكون غير عالم بلغات كل من بعث إليهم إلا لغة قومه ، وأن يكون غير عالم ببعض المسائل التى يفرعها الفقهاء والمتكلمون ، التى لا يخل عدم العلم بها بمعرفة التوحيد (١).

والمتأمل للعملية التربوية يستطيع أن يلمس كيف أنها بطبيعتها تنفيذية ، كما أكدنا على ذلك فى العديد من كتاباتنا ، وخاصة فى التربية الإسلامية ، وأن هذه الطبيعة التنفيذية الإجرائية تستلزم الاستناد إلى نظرية أو إيديولوجية أو إطار فكرى عام ، أو عقيدة أو إلى غير هذا وذاك من أسماء يمكن أن تتعدد ، ولكن يظل المسمى واحدا ألا وهو الموجه ، والمرشد ، والمخطط للمعالم الأساسية التى ينبغى أن تكون عليها شخصية الإنسان .

ولما كنا ممن يؤمنون بأن الله وحده . سبحانه وتعالى ـ هو الخالق ، فلابد أن يستتبع هذا ضرورة أن يكون هو المصدر لكل ما يمكن أن يوجه العمل التربوى ، وتكون معرفتنا بذلك عن طريق رسله الذين يصطفيهم لرسالته .

ولما كنا نؤمن بأن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل ، وهو المبعوث من لدن الرحمة الإلهية بالرسالة الإسلامية للبشر جميعا ، كان من الطبيعى أن نتجه إليه : فى فعله وفى قوله نستلهمه الموجهات الأساسية لما ينبغى أن يكون عليه العمل التربوى .

---

(١) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص ١٤٤ .



الفصل الأول
السنة النبوية مصدرا للتربية

مقدمـــة :

إذا كنا نتعامل مع السنة النبـوية الشريفة باعتبارها الأصل الثـانى ، بعد القرآن ، الذى لابد أن تستمد منه التربية الإسلامـية ، فإن الأمر يقتضى من دارس هذه التربية أن يقف على بعض الأساسيـات المتصلة بهذا الأصل الجوهرى، وخـاصة أنه أصبح يشكل نسقا معرفيا ضخما يتميز بالعراقة والأصالة والعمق والمنهجية العلمية، وتنوع الاجتهادات يضم عددا من العلوم الفرعية ، وبالتالى يمكن أن يتوافر للباحث التربوى قدر من الوعى العلمى الدينى الذى يؤسس للبحث التربوى الإسلامى ، فـيقوم هذا البحث على أسس راسخة .

معنـــى السنة :

السنة فى اللغة تطلق على السيرة والطريقة [1] ، حسنة كانت أو قبـيحة ، قال ﷺ[2] : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، عمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شئ ، ومن سن سنة سيئة ، فعمل بها بعده ، كتب له مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شئ » .

وقال خالد بن عقبة الهذلى [3] :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ... فأول راض سنة من يسيرها

فكأن السنة تطلق على الطريقة التى تنظم حركة إنسان ما ، فإذا كنت أسلك سلوكا خاصا فى أمر معين ، فهـذه سنتى فيه ، من غير أن أدين هذا السلوك أو أقرظه ؛ ولذا

---

(1) قال فى القـاموس (فى مادة سار) : السـيرة : الطريقة ، يقال : سـار الولى فى رعيتـه سيرة حسنة ، وأحسن السير ، وهذا فى سيـرة الأولين ، وقال فى مادة (طرق) : الطريقة : السيرة والمذهب وكل مسلك يسلكه الإنسان فى فعل محمودا كان أو مذموما فهذان لفظان مترادفان .

(2) صحيح مسلم .

(3) عبد الغنى عبـد الخالق : حجية السنة ، المعهد العـالمى للفكر الإسلامى ، واشنطن ، بيروت ، دار القرآن الكريم ، ١٩٨٦ ، ص ٤٥ .

فلكل قوم سنة ، ولا نعدوا الحقيقة إذا زعمنا أن لكل إنسان سنة ، وعلى هذا جاء قول الشاعر الجاهلى مالك بن عجلان [1]:

لا نقبل الدهر دون سنتنا فينا ، ولا دون ذلك منصرف

وقال الأزهرى : السنة : الطريقة المحمودة المستقيمة ؛ ولذلك قيل : فلان من أهل السنة ، معناها : من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة . وقال الخطابى : «أصلها : الطريقة المحمودة ، فإذا أطلقت انصرفت إليها ، وقد تستعمل فى غيرها مقيدة كقوله : من سن سنة سيئة» .

وفيما ذكر كل من الأزهرى والخطابى ما يستحق المناقشة : أما قول الأزهرى لذلك قيل فلان من أهل السنة . . . إلخ فلا دلالة فيه على أنها تطلق لغة حقيقة إلا على الطريقة المحمودة ، فإن قولهم فلان من أهل السنة ، استعمال عرفى لأهل الشرع، لا لغوى ، والمراد بالسنة فيه : ما قابل البدعة والاعتزال . وأما قول الخطابى : إنها إذا أطلقت (أى لغة) انصرفت إلى المحمودة ، ففى محل المنع ، واستعمالها فى السيئة مقيدة لا يدل على أنها فيها مجاز لغة ، وإنما هو لبيان أن المراد نوع من المعنى الحقيقى وكيف يدل على ما ذكر : وقد استعملت فى المحمودة مقيدة أيضا كما فى الحديث المتقدم ، فإن أراد أنها لا تستعمل فى السيئة إلا مقيدة ، بخلاف استعمالها فى الحسنة ، فإنها تارة تكون مقيدة وتارة مطلقة ، منع له هذا الحصر ببيت خالد المتقدم ، فالحق ما عليه جمهور اللغة[2].

وقد تطلق السنة على الشىء الجديد [3] ، تقول : سننت الشىء أى بدأته ؛ ولذا جاز لنا أن نطلقها على السنة المحمدية؛ لأنها تشريعات جديدة على المجتمع العربى آنذاك، ومن هنا فمن الممكن أن يصدر عن صحابى أمر جديد يلقى قبولا من العرف الإسلامى أو من الرسول ﷺ فيعتبر سنة [4] .

---

(١) عباس بيومى عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦ ، ص ١٢ .

(٢) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص٤٦ .

(٣) سن فلان السنة ، وضعها ، وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعده ، فهو الذى سنه ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة .

(٤) عباس عجلان ، دراسات فى الحديث النبوى ، ص١٣ .

ومن هذا ما ورد من أن الصحابة كانوا إذا دخلوا فى الصلاة ، ثم أتى أحدهم بعد ذلك يسأل من يقف بجواره على عدد الركعات التى صليت فيسرع السائل بأدائها، ثم ينتظم بعد ذلك مع الجماعة ، حتى رفض معاذ بن جبل هذا الفعل ، ولم يسأل أحدا حين أتى متأخرا وصلى مع الجماعة ما شهده ثم أكمل ما فاته ، وتعجب القوم لهذا ، ولكن رسول الله ﷺ راقه ما فعل معاذ فقال معقبا : «قد سن لكم معاذ فاتبعوه».

فالسنة تطلق على الفعل الأول ، نعنى الحدث الجديد ؛ ولذا فقد تقابل بالارتياح أو النفور ، ويمكن أن نستأنس فى هذا بقول « نصيب» حين لقى إنكارا واستهجانا لسلوكه [1] :

كأنى سننت الحب أول عاشق ... من الناس إذ أحببت من بينهم وحدى

وقد استعملت السنة فى القرآن بمعنى الطريقة ، قال الراغب : «وسنة الله قد تقال لطريقة حكمته ، وطريقة طاعته ، نحو : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الفتح]، ﴿ ... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) ﴾ [فاطر]، فنبه على أن فروع الشرائع ، وإن اختلفت صورها ، فالغرض المقصود منها لا يختلف عليه ولا يتبدل ، وهو : تطهير النفس وترشيحها إلى ثواب الله تعالى وجواره» [2] ، ولا شك أن المناسب لقوله: «فنبه على أن فروع الشرائع ... إلخ» أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) ﴾ [النساء] أو بقوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾، [الأحزاب]. وأما الآيتان اللتان ذكرهما ، فالمراد من السنة فيهما : طريقة حكمته وعادته ، من الانتقام من مكذبى الرسل وإنزال العذاب فيهم [3] .

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص٤٦ .

(٣) المرجع السابق، ص٤٧ .

وإذا رجعنا إلى الاستعمالات الأولى للسنة وجدنا أنهم يريدون بها عمل رسول الله ﷺ وطريقته [1]، فقد روى البخارى فى صحيحه حديث ابن شهاب ، عن سالم ابن عبد الله عن أبيه فى قصته مع الحجاج حين قال له : «إن كنت تريد السنة فهجّر بالصلاة» [2] قال ابن شهاب : فقلت لسالم : أفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : وهل يعنون بذلك إلا سنته ؟ ! ويعلق السيوطى على ذلك بقوله : «فنقل سالم ، وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وأحد الحفاظ من التابعين عن الصحابة أنهم إذا أطلقوا السنة لا يريدون بذلك إلا سنة النبى ﷺ» [3] .

ومن هذا قول أبى قلابة : «عن أنس : من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعا » . قال أبو قلابة : «لو شئت لقلت : إن أنسا رفعه إلى النبى ﷺ»، أى لو قلت لم أكذب ؛ لأن قوله : من السنة هذا معناه .

وأخرج الحاكم فى المستدرك عن زياد بن عبد الله النخعى قال : «كنا جلوسا مع على- رضى الله عنه- فى المسجد الأعظم ، فجاء المؤذن ، فقال : الصلاة يا أمير المؤمنين . فقال : اجلس ، فجلس ، ثم عاد فقال له ذلك ، فقال على : هذا الكلب يعلمنا السنة ؟! فقام على ، وصلى بنا العصر ثم انصرفنا ، فرجعنا إلى المكان الذى كنا فيه جلوسا ، فجثونا للركب لتزوَرَّ الشمس للمغيب نتراءاها» [4] .

وقد أطلقها عمر- رضى الله عنه- وذكرها ابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وعائشة - رضوان الله عليهم - وأرادوا بها سنة رسول الله ﷺ [5] ؛ ولهذا قال الشافعى : مطلق السنة يتناول سنة رسول الله ﷺ فقط [6] .

---

(١) رفعت فوزى عبد المطلب . توثيق السنة فى القرن الثانى الهجرى ، أسسه واتجاهاته ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨١ ، ١٢

(٢) فى القاموس المحيط . هجّر (بتشديد الجيم) إلى الشىء : بكّر وبادر إليه .

(٣) السيوطى ، جلال الدين . تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٩ ج١ ، ص ١٨٨ .

(٤) الحاكم ، أبو عبد الله محمد . المستدرك على الصحيحين فى الحديث ، الرياض ، مكتبة النصر الحديثة ، ج١ ، ص ١٩٢

(٥) تدريب الراوى ، ج١ ، ص١٨٩ .

(٦) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص١٣ .

والسنة فى اصطلاح المحدثين : ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية وخُلُـقية أو سيرة ، سواء قبل البعثـة أو بعدها ، وهى بهذا ترادف الحديث عند بعضهم.

فى اصطلاح الأصـوليين نجد أنهـا : ما نـقل عن النبى ﷺ من قول أو فـعل أو تقرير [١]:

فمـثال القول ، ما تحـدث به النبى ﷺ فى مختلف المناسـبات مما يتعلق بتـشريع الأحكام كـقوله ﷺ: «إنما الأعـمال بالنيـات» [٢] ، وقوله : «البـيعـان بالخيـار ما لم يتفرقا» [٣].

ومثال الفعل : ما نقله الصحابة من أفـعال النبى ﷺ فى شئون العبادة وغيرها ، كأداء الصلوات ، ومنـاسك الحج ، وآداب الصيام وفـضائه ، ومن أمثـلة ذلك حديث عمرو بن أمية الضمرى ، قال : «رأيت النبى ﷺ يمسح على عمامته وخفيه» ، وحديث جابر ، قال : «كان النبى ﷺ يصلى على راحلته حـيث توجهت به ، فإذا أراد فريضة نزل فاستقبل القبلة».

ومثـال التقـرير : ما أقـره الرسول ﷺ من أفـعال صـدرت عن بعض أصحـابه بسكوت منه مع دلالة الرضى ، أو بإظهار اسـتحسان وتأييـد ، فمن الأول: إقراره ﷺ لاجتهاد الصحابة فى أمر صـلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قال لهم : «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» [٤] فقد فهم بعضهم هذا النهى على حـقيقته فأخرها إلى ما بعـد المغرب ، وفـهمه بعـضهم على أن المقصـود حث الصحـابة على الإسراع فصلاها فى وقتهـا ، وبلغ النبى ﷺ ما فعل الفريقان فأقرهمـا ولم ينكر عليهما. ومن الثـانى : أن خالـد بن الوليد- رضى اللـه عنه- أكل ضبـا قـدم إلى النبى ﷺ دون أن يأكله، فقال بعض الصحابة : أو يحرم أكله يا رسول الله ؟ فقال : «لا ولكنه ليس فى أرض قومى فأجدنى أعافه» [٥] .

---

(١) مصطفـى السباعى : السـنة ومكانتهـا فى التشريع الإسـلامى ، بيروت ، المكتـب الإسلامى ، ١٩٨٢ ، ص ٤٧

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن عمر .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عباس .

ويضيف البعض نوعا رابعا ، وهو ما نذكر فيه أوصاف النبى ﷺ الخلقية أو ما حدث عند ولادته أو مراحل حياته ﷺ ، كتاريخ ولادته ، أو الحديث عن رضاعه أو وفاة والدته أو كفالة جده أو مرضه أو وفاته ، ومن أمثلة ذلك : فقد وصف على- رضى الله عنه- جانبا من جوانبه الخلقية فقال [١]:

«كان رسول الله ﷺ أبيض اللون ، مشربا حمرة ، أدعج العينين، سبط الشعر ، كث اللحية ، سهل الخد ، إذا مشى كأنما يتقلع من صخر ، وإذا التفت التفت جميعا ، كأن عرقه فى وجهه اللؤلؤ ، ولريح عرقه أطيب من المسك، ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بالعاجز ، ولا اللئيم ، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ».

وليس يعنى تصنيف السنة إلى هذه الأنواع أن كل سنة لابد أن تكون واحدا من هذه الأنواع الأربعة فقط ، فلا تكون إلا قولا من أقوال الرسول ﷺ أو فعلا ، أو تقريرا ، أو صفة ، بل قد يشمل الحديث الواحد على وصفين من هذه الأربعة أو أكثر، فمن حديث أم معبد[٢] :

«عن أبى معبد الخزامى أن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبوبكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثى ، فمروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة ، برزة (أى تجالس الرجال) ، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك ، وإذا القوم مرملون ، مسنتون ، فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزهم القرى (قرى الضيف : أكرمه) ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك ، قال: أتأذنين لى أن أحلبها ؟ فقالت : نعم بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حليبا ، فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها فى شاتها . قال : فتفاجت ودرت واجترت ، فدعا إناء لها بربض الرهط فحلب فيه ثجا (ثج الماء : سال) حتى غلبه الثمال (أثمل اللبن : كثرت رغوته) فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه، حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم وقال : ساقى القوم آخرهم ، فشربوا جميعا عللا

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث للمرحلة الثانوية للمعاهد العلمية ، الجمهورية العربية اليمنية ، الهيئة العامة للمعاهد الدينية ، صنعاء ، ١٩٨٨ ، ص ١٠ .

(٢) محمد عبد الرءوف : نظرات فى الحديث وتدوينه ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد ١٠٨ ، ذى الحجة ١٣٩٣هـ، ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٢٢ .

(علل فلان : سقى مرة بعد مرة) بعد نهل ، حتى أراضوا ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ، فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها» .

فهـذا الحديث يحـتوى على كـثيـر من فعال النـبى ﷺ وبعض أقواله وخـصاله الكريمة، كما احتوى فى الجزء الأخير على وصف أم مـعبد للرسول ﷺ لعدم اعتراضه على الطريقة التى كانت تعيش عليها أم معبد .

وقـد تطلق السنة عندهم على مـا دل عليـه دليل شـرعى ، سواء كـان ذلك فى الكتاب العزيز ، أو عن النبى ﷺ ، أو اجتهد فيه الصحابة ، كجمع المصحف، وحمل الناس على القراءة بحرف واحد ، وتدوين الدواوين ، ويقـابل ذلك البدعة ، ومنه قوله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى» [١].

وفى اصطلاح الفقهـاء : ما ثبت عن النبى ﷺ من غير افـتراض ولا وجوب ، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسـة ، وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة ، ومنه قولهم : طلاق السنة كذا ، وطلاق البدعة كذا[٢] .

ويختلف معنى السنة فى اصطلاح المتشرعين حسب اختلاف فنونهم وأغراضهم ، فهى عند الأصـوليين غيرها عنـد المحدثين والفقـهاء ؛ ولذلك نرى مدلولهـا من خلال أبحاثهم[٣] .

أ - فعلماء الحـديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهـادى الذى أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة فنقلوا كل مـا يتصل به من سيرة وخلق وشمـائل وأخبار وأقوال وأفعال ، سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا .

ب - وعلماء الأصول إنما بـحثوا عن رسول الله ﷺ المشرع الذى يـضع القواعد للمجتهدين من بعده ويبين للناس دستـور الحياة ؛ ولذلك عنوا بأقواله وأفعاله وتقديراته التى تثبت الأحكام وتقررها .

ج - وعلماء الفـقه إنما بحثـوا عن رسول الله ﷺ الذى تدل أفـعاله على حكم شرعى ، وهم يبحثون عن حكم الشرع فى أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى .

(٢) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ص ٤٨ .

(٣) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠ ، ص ١٠ .

ويقرب من السنة فى المعنى كلمات : السبيل، والصراط، والطريقة، والطريق المستقيم [1]، مثل قوله تعالى : ﴿ ... ويتبع غير سبيل المؤمنين ... (١١٥) ﴾ [النساء]، ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢٥) ﴾ [يونس]، ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (١٦) ﴾ [الجن] ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ...(١٥٣) ﴾ [الأنعام].

والسنة عند الشيعة لها إطلاق يختلف إلى حد كبير عن كل هذا ، لأنها عندهم قول النبى ﷺ أو فعله أو تقريره ، وقول كل واحد من المعصومين أو فعله أو تقريره ، أو بعبارة أخرى قول المعصوم أو فعله أو تقريره ؛ وذلك لأن المعصوم من آل البيت يجرى قوله مجرى قول النبى ﷺ من كونه حجة على العباد واجب الاتباع، والأئمة من آل البيت عندهم ليسوا من قبيل الرواة عن النبى ﷺ والمحدثين عنه ليكون قولهم حجة من جهة أنهم ثقات فى الرواية ؛ لأنهم هم المنصوبون من الله تعالى على لسان النبى لتبليغ الأحكام ... وذلك عن طريق الإلهام كالنبى من طريق الوحى ، أو من طريق التلقى من المعصوم قبله[2].

وسوف نسير فى كتابنا الحالى على نهج المحدثين الذين يعنون بالسنة - كما بينا - كل ما أثر عن النبى ﷺ؛ وذلك لأن التوثيق للسنة اتجه هذا المعنى ، وعليه وضعت الأسس لمعرفة الصحيح الذى ينسب إلى الرسول ﷺ أو ما يتعلق به حقا ، من زيفه الذى ينسب إليه كذبا أو ضعيفه الذى يشك فى نسبته إليه ﷺ.

معنى الحديث :

لكن ، إذا كان هناك من يستخدم مصطلح الحديث ، فهل يرادف هذا المصطلح السنة ؟ أم أن هناك اختلافا بينهما ؟

إن كلمة الحديث تعنى فى اللغة : الجديد ، والخبر ، نقول : هذا بناء حديث، وثوب حديث ، وكتاب صدر حديثا ، وكذلك نقول : سمعت من صاحبى حديثا سرنى ، وحدثته بحديث أخذ بمجامعه ... وهكذا[3] . ويقول أبو هريرة للأنصار : «أتريدون أن أمتعكم بحديث من أحاديثكم» ؟ ، ويحدثهم عن يوم من أيام الجاهلية ،

---

(١) بدران أبو العينين : أصول الفقه ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ ، ص ٧٢ .

(٢) محمد رضا المظفر : أصول الفقه ، النجف ، دار النعمان ، ١٩٧١ ، ج٣ ، ص ٦١ .

(٣) بكرى شيخ أمين : أدب الحديث النبوى ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٣ ، ص ٩ .

ثم تطور هذا الاستعمال وأصبح يطلق على نوع خاص من الأخبار فى الأوساط الدينية بدون أن يخرجه هذا عن معناه العام . يقول ابن مسعود : «إن أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ» . هكذا أصبح القرآن أحسن الحديث ، ثم حدد أخيرا بأخبار النبى ﷺ ، سأل أبو هريرة رسول الله فقال : يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال الرسول ﷺ : «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على هذا الحديث»[1].

فإذا كان الحديث هو ما حدث به النبى ﷺ ، فإن السنة هى- بقطع النظر عن كون هذا التحديث موجودا أو غير موجود - العادة الدينية التى كانت موجودة فعلا عند المسلمين قديما ، وبناء على هذا قد تكون القاعدة أو المبدأ الموجود فى الحديث سنة كما فى قول أحمد بن حنبل : «وفى هذا الحديث خمس سنن» ، وليس من الضرورى أن تكون السنة موافقة للحديث ، فيقال مثلا : هذا الحديث مخالف للقياس والسنة والإجماع[2].

وهكذا نرى أن الفرق بينهما أن الحديث أمر عملى نظرى ، وأن السنة أمر عملى، وإن كانت معرفة كل منهما ترجع إلى الرواية ، ويدل لذلك ما روى عن عبد الرحمن بن مهدى عندما سئل عن سفيان الثورى والأوزاعى ومالك ، فقال مجيبا: سفيان الثورى إمام فى الحديث ، وليس بإمام فى السنة ، والأوزاعى إمام فى السنة وليس بإمام فى الحديث ، ومالك فيهما جميعا [3] . وما روى من أن أبا يوسف كان صاحب حديث وصاحب سنة ، كما نجد هذا الفرق موجودا فى كتب الحديث مثل ما قاله أبو داود عن حديث رفعه إلى أنس بن مالك إذا كان الراوى قد رفعه إلى الرسول ﷺ فذاك ، ولكنه قال : السنة كذا ، فدل على أن السنة غير الحديث.

وعلى كل ، فمهما دقق العلماء فى مدلول كل من اللفظين ، فإن الشعور بتساويهما فى الدلالة أو تقاربهما على الأقل ، كان يساور نقاد الحديث ، فهل السنة

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق .

(٢) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ، القاهرة ، القاهرة الحديثة ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٢ .

(٣) شرح الزرقانى على موطأ مالك ، ج١ ، ص ٣ .

العملية إن هى إلا الطريقة النبوية التى كان الرسول الكريم ﷺ يؤيدها بأقوالـه الحكيمة وأحاديثه الرشيدة الموجهة ؟ وهل موضوع الحديث يغاير موضوع السنة ؟ ألا يدور كلاهما حول محور واحد ؟ ألا ينتهيان أخيرا إلى النبى الكريم ﷺ فى أقواله المؤيدة لأفعاله، وفى أفعاله المؤيدة لأقواله ؟

حين جالت هذه الأسئلة فى أذهان النقاد ، لم يجدوا بأسا فى أن يصرحوا بحقيقة لا ترد : إذا تناسينا موردى التسميتين كان الحديث والسنة شيئا واحدا ، فليقل أكثر المحدثين : إنهما مترادفان (١) !

ويبدو أن مصطلح الحديث كان يطلق على الكلام الخاص ، وليس كل كلام حديثا ، فالكلام إذا اكتسب أهمية ، أو حظى بعناية ، أو آثار، فهو حديث . وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ [الضحى] ، وقوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ⑨ ﴾ [طه] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① ﴾ [الغاشية]، و ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... ⑲ ﴾ [سبأ]، فأمر موسى جد خطير ، وقصة لا تزال تروى فهى لذلك حديث ، وكذلك أهوال يوم القيامة وبعض مواقف لأمم سابقة . هذه أمور لا تزال أذن الدهر تسمع روايتها ويتحدث بها الناس ، فهى أمور مشهورة ، سائرة ، ذات وقع وأثر ، ومن هنا عبر القرآن عنها «بحديث» وأحاديث(٢) .

وهناك مصطلحان آخران يتصلان بموضوعنا ألا وهما : الخبر ، و الأثر ، فما معنى كل منهما ؟

الخبر والأثر:

الخبر أجدر من السنة أن يرادف الحديث ، فما التحديث إلا الإخبار ، وما حديث النبى ﷺ إلا الخبر المروى عنه ، المرفوع إليه . غير أن إطلاق اسم مثل الإخبارى على من يشتغل بالتواريخ ونحوها ، حمل بعض العلماء على تخصيص المشتغل بلقب

---

(١) بكرى شيخ أمين ، أدب الحديث النبوى ، ص ١١ .

(٢) عجلان ، دراسات فى الحديث النبوى ، ص ٢١ .

المحدث لتمييزه من الإخباري ، وعلى تسمية ما جاء عنه حديثا لتمييزه من الخبر الذى يجيء عن غيره ، وهذا يفسر قولهم فى ذلك : بين الحديث والخبر عموم وخصوص مطلق ، فكل حديث خبر ، وليس كل خبر حديثا .

وقد لاحظ المحدثون الذين انتصروا لترادف الحديث والخبر - إلى جانب المدلول اللغوى بين اللفظين - أن الرواة لم يكتفوا بنقل الحديث المروى على لسان رسول الله ﷺ وحده ، بل عنوا معه بنقل ما روى على ألسنة الصحابة والتابعين، وما دامت الرواية قد شملت ما جاء على لسان النبى ﷺ وغيره فهى أخبار هنا وهناك ؛ ولذلك فلا ضير فى تسمية الحديث خبرا ، والخبر حديثا .

ومن خلال هذه الرواية نفسها ، نظروا إلى الأثر ، فهو مرادف للخبر والسنة والحديث ، يقال : أثرت الحديث بمعنى : رويته ، ويسمى المحدث أثريا نسبة للأثر [1].

الحديث القدسى :

وكل حديث يضيف فيه رسول الله ﷺ قولا إلى الله- عز وجل- يسمى بالحديث القدسى أو الإلهى . والأحاديث القدسية أكثر من مائة حديث ، وقد جمعها بعضهم فى جزء كبير ، أما نسبة الحديث إلى القدسى وهو الطهارة والتنزيه وإلى الإله أو إلى الرب ؛ لأنه صادر عن الله- تبارك وتعالى- : من حيث إنه المتكلم به أولا ، المنشئ له . أما كونه حديثا، فلأن الرسول ﷺ هو الحاكى له عن ربه- عز وجل [2] .

والفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن [3] .

١ - أن الأحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبى ﷺ على رأى البعض ، ومعناها من عند الله بإلهام أو بالمنام بوحى جلى أو لا . وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى ، بمعنى : أن ينزل به جبريل- عليه السلام- من عند الله- سبحانه- فى اليقظة وليس فى المنام ولا بإلهام .

٢ - الأحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى أما القرآن فتحرم روايته بالمعنى .

---

(١) بكرى شيخ أمين ، أدب الحديث النبوى ، ص ١٢ .

(٢) محمد عجاج الخطيب ، السنة قبل التدوين ، ص ٢٢ .

(٣) أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، القاهرة ، الفتح للإعلام العربى ، د.ت ، ص٢٢ .

٣ - الأحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها ، أما القرآن فيتعبد بقراءته ويتعين فى الصلاة ، ولا كذلك الأحاديث القدسية .

٤ - أن القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ فى كلماته وحروفه وأساليبه ، أما الأحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة .

٥ - أن القرآن يحرم على المحْدِث مسه ، وعلى الجنب تلاوته ، بخلاف الأحاديث القدسية .

أما الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى ، فهو أن الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله ، لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته إلى الله بقول الرسول ﷺ : قال الله تعالى كذا ... ؛ فلذا سمى قدسيا ، وأما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص؛ لأن منه ما هو توفيقى مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون ، وهذا ليس كلام الله ، ومنه ما هو توقيفى ، جاء به الوحى إلى الرسول ﷺ فبينه للناس بكلامه ، وهذا القسم ، وإن كان مرجعه إلى الله تعالى ، الملهم ، المعلم ، إلا أنه لما كان من قول الرسول ﷺ ووضعه كان حَرِيًّا أن ينسب إليه ، ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع[١].

تدوين السنة :

يدل التاريخ على أن العرب - قبل الإسلام - لم يكونوا يعتمدون على الكتابة فى حفظ أشعارهم وخطبهم وقصص آبائهم وأنسابهم ، بل كانوا يعتمدون على الذاكرة والحفظ حتى أن شعراءهم كانوا يفخرون بحفظهم وقوة ذاكرتهم [٢]، ولكن هذا لا يعنى عدم وجود من كان يعرف الكتابة بينهم ؛ ذلك لأن مجتمع مكة التجارى يحتاج إلى معرفة بالكتابة والحساب ، ولكن الكتابة كانت قليلة فى العرب ؛ ولذلك وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أميون ، فقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، وفى الحديث الشريف : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[٣].

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) أحمد عبد العزيز آل مبارك : مراحل تدوين الحديث والسنة النبوية ، مجلة منار الإسلام ، أبوظبى ، العدد (٥) السنة الخامسة ، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ ، أبريل ١٩٨٠ ، ص ٨.

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الصيام .

ولا شك أن الكتابة قد انتشرت فى عصر النبى ﷺ أوسع مما كانت عليه فى عهد الجاهلية؛ لأن القرآن الكريم قد حثهم على التعلم ، واهتم الرسول ﷺ بتعليم المسلمين الكتابة .

كان الإسلام فى حاجة إلى القارئين والكاتبين ، والقرآن يحتاج إلى الكتابة ، وأمور الدولة من مواعيد ومواثيق تحتاج إلى الكتابة ، حتى صار عدد الكتّاب لا بأس به فى عهد النبوة ، وقد ذكر بعض المؤرخين عدد كتاب النبى ﷺ ثلاثة وثلاثين ، وذكر بعضهم عدد كتاب الوحى زهاء الأربعين كاتبا ، ناهيك عن كتّاب الصدقات والعهود[1].

ومع وجود عدد من الكتّاب فى حياة الرسول ﷺ ، فإن الحديث لم يدون كما دون القرآن الكريم فى عصر الرسول ﷺ ، وما عين كتبة يكتبونه كما اهتم بتعيين الكتّاب للقرآن ، حيث كانوا يكتبون آياته عند نزولها ، وما ذلك إلا لأن القرآن وحى بألفاظه ومعانيه ، فلا يجوز إبدال لفظ مكان لفظ آخر ، وإن كان مرادفا له، وأما الحديث ، فإن معظم المقصود به معرفة الحكم منه لا غير .

فلو دونت السنة كما دون القرآن الكريم ، وهى واسعة كثيرة النواحى ، شاملة لأعمال الرسول ﷺ التشريعية وأقواله وتقريراته وصفاته منذ بدء رسالته إلى أن لحق بربه، يلزم انكبابهم على حفظ السنة مع حفظ القرآن وفيه من الحرج ما فيه ، عدا خوف اختلاط بعض أقوال النبى ﷺ الموجزة الحكيمة بالقرآن سهوا من غير عمد ، ولو تم ذلك لكان فيه خطر على كتاب الله ، يفتح باب الشك فيه لأعداء الإسلام ، كما يفتح لهم ثغرة ينفذون منها إلى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه والتفلت من سلطانه.

ولعل هذا يفسر هذا الذى شاع من أن النبى ﷺ قد نهى عن كتابة الحديث نهيا مطلقا ، فمن ذلك ما رواه زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى،-رضى الله- عنه أن النبى ﷺ قال : «لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن ، فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه» ، وفى رواية : «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده

(١) أحمد آل مبارك ، مراحل تدوين الحديث والسنة ، ص٨.

من النار »، وكـذلك مـا رواه عبـد الرحـمن بن زيد بن أسلم عن أبيـه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضى الله عنه قـال : «استأذنت النبى ﷺ أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى»، وفى رواية : «استأذنا النبى ﷺ فى الكتاب فأبى أن يأذن لنا» . كما روى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيـه ، عن عطاء عن أبى هريرة قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال : «مـا هذا الذى تكتبون ؟» قلنا: أحاديث سمعناها منك . قال : «أكتابا غيـر كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتـتبوا من الكتـب مع كتاب الله» . قـال أبو هريرة : أنتحدث عـنك يا رسول الله ؟ قال: «نعم ، تحـدثوا عنى ، ولا حرج ، فمن كذب على مـتعمدا فليـتبوأ مقـعده من النار» . وفى رواية : «فجمعناها فى صعيد واحد فألقيناها فى النار . وفى رواية أخرى: «أكتابا مع كتاب الله؟ امحضوا كتـاب الله وأخلصوه» ، (أمحضه الحديث : صدقه)، وهناك روايات أخرى عن أبى هريرة تفيد كلها هذا المعنى [1].

وأخرج الحاكم عن القاسم بن محمد أنه قال : قالت عائشة : جمع أبى الحديث عن رسول الله ﷺ فكانـت خمسمـائة حديث ، فبـات ليلة يتقلب كـثيرا، فـغمّنى ، فقلت: تتقلب لشكوى أو لشيء بلغك ؟ فلما أصـبح قال : أى بنية ، هلمى الأحاديث التى عندك ، فجئتـه بها ، فدعا بنار فأحرقها ، وقـال : خشيت أن أموت وهى عندك فيكون فيـها أحاديث عن رجل ائتمنتـه ووثقت به ، ولم يكن كما حدثنى ، فـأكون قد تقلدت ذلك . وأخرجه أيضا أبو أميـة الأحوص بن المفضل الغلابى، عن القاسم ، أو ابنه عبد الرحمن ، وزاد : ويكون قد بقى حديث لم أجده، فيقال : لو كان قاله رسول الله ﷺ ما خفى على أبى بكر . إنى حدثتكم الحديث ولا أدرى لـعلى لم أسمعه حرفا حرفا، ذكره فى منتخب كنز العمال [2].

لكن عددا غـير قليل من الباحـثين والمحققين شكك فى مـعظم ما أشيـر إليه من أحاديث مرفـوعة إلى النبى ﷺ، ما عدا الحديث الذى نسب إلى زيد بن ثابت مـرفوعا إلى النبى ﷺ، وهذا الحديث نفسه ينزل عن درجة الصحيح إلى درجة الضعيف ، ففى سنده كثيـر بن زيد ، وروى ابن أبى حاتم فى كتابه الجرح والتعـديل أن يحيى بن معين

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٤٣ .

(٢) محمد بن محمد أبو شهبة : دفاع عن السنة ، القاهرة ، مكتبة السنة ، ١٩٨٩ ، ص ٤٠٧ .

سئل عنه فقال : ليس بالقوى . وقال النسائى فيه : ضعيف ، وقال أبو زرعة : صدوق فيه لين . كما روى الذهبى فى الميزان حديثا فيه نكارة ، وفيه علة فوق نكارته ، فلا يحتج به إذن . بالإضافة إلى أن المطلب الذى روى عنه كثير هذا الحديث لم يدرك زيد بن ثابت ، فهو منقطع [١] .

بل يمكن القول أن المعول عليه فى المحافظة على ما هو حجة وصيانته من التبديل والخطأ هو أن يحمله الثقة العدل حتى يوصله لمن هو مثله فى هذه الصفة ، وهكذا ، سواء كان الحمل له على سبيل الحفظ للفظه أو الكتابة له أو الفهم لمعناه فهما دقيقا مع التعبير عن ذلك بلفظ واضح الدلالة عليه بدون لبس ولا إبهام ، فأى نوع من هذه الأنواع الثلاثة يكفى فى الصيانة ما دامت صفة العدالة متحققة ، فإذا اجتمعت الأنواع الثلاثة كان ذلك الغاية والنهاية فى المحافظة ، وإذا اجتمعت وانتفت العدالة لم يجد اجتماعهما نفعا ولم يغن فتيلا ، ولم نأمن حينئذ من التبديل والعبث بالحجة . ومن باب أولى ما إذا انفردت الكتابة عن الحفظ والفهم وعدالة الكاتب أو الحامل للمكتوب ، فإنا لا نثق حينئذ بشىء من المكتوب[٢] .

والمرجح أن الرسول ﷺ لما اطمأن إلى أن القرآن قد استقر فى القلوب والعقول حتى أشرب المؤمنون حبه وذاقوا حلاوته ، تعرفوا على بلاغته ، وأحسوا بإعجاز نسقه وتردد على سمعهم كلام النبى ﷺ ، وأدركوا مكانه فى القرآن الكريم ، ولما تأكد لديه ﷺ أن المسلمين أصبحوا فى مأمن من أن يخلطوا كلام الله المعجز بكلامه ﷺ، بعد أن عايشوا هذه المعايشة ، ووضحت لهم معالم الأسلوب القرآنى وخصائصه ، وبرزت صفاته وسماته التى تميزه عن كلام المخلوقين ، وخصوصا أن الآيات الكريمة كانت تتنزل فتتلى وتردد تلاوتها فى الصلاة ، وتحفظ فى الصدور ، وتدون فى الألواح والصحائف، فتعددت وسائل حماية القرآن الكريم وحفظه من كتابة وتلاوة وترتيل [٣] .

---

(١) رفعت فوزى ، توثيق السنة ، ص ٤٦ .

(٢) محمد أبو شهبة ، دفاع عن السنة ، ص ٤١٣ .

(٣) إبراهيم عوضين : التعريف بالسنة وعلومها ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢ .

عندئذ وجد الرسول ﷺ أنه لم يعد هناك ما يمنع من كتابة حديثه ، فأباح للصحابة ما كان منعه فى أول الأمر ، على ما رواه البخارى فى صحيحه، وأبو داود فى سننه عن عبد الله بن عمرو- رضى الله عنهما- أنه قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش وقالوا : تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه ، فقال: «اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا الحق».

وهكذا بدأ الصحابة- رضوان الله عليهم- يكتبون سننه ﷺ ، فكان ذلك بدء مرحلة جديدة لحفظ السنة ، بعد أن كان يكتفى فى حفظها بالاقتداء والرواية ، حيث ضمت الكتابة إلى الاقتداء والرواية [1]. إلا أن هذه المرحلة إنما بدأت فى أخريات حياته ﷺ ، إذ كانت بعد السنة السابعة من الهجرة؛ لأن عبد الله بن عمرو بن العاص إنما اتصل بالنبى ﷺ بعد صلح الحديبية . ومع وضوح الرؤية، وتميز القرآن من الحديث ، كان عبد الله بن عمرو حريصا على أن يفرد كتابة الحديث فى صحيفة سماها (الصادقة) ، واستمر على تدوين السنة حتى توفى الرسول ﷺ.

ولم يكن ابن عمرو فى هذا منفردا ، فقد كان معه على الطريق نفسه بعض الصحابة الكاتبين ، مثل على بن أبى طالب وجابر بن عبد الله ، غير أن كتابة السنة فى حياته ﷺ كانت نشاطا فردياً ، ليس على سبيل التدوين الرسمى ، ولا على سبيل التدوين العام المستقصى ، كما كان الشأن فى تدوين القرآن الكريم[2] .

بيد أن النصوص التى صرحت بالنهى عن الكتابة فى أول الأمر ظلت محفوظة أو نقلها السلف على أنها جزء مما تلقوه عن رسول الله ﷺ ، والنصوص التى حثت على الكتابة محفوظة أيضا ، وهذا ما أوهم الاختلاف والتناقض بين النصوص [3]:

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق .

(٣) عبد المهدى بن عبد القادر بن عبد الهادى : السنة المحمدية ، كتابتها وتدوينها وتصنيفها ، القاهرة ، مجلة الأزهر ، الأزهر الشريف ، ج٤ ربيع الآخر ١٤٠٦هـ / يناير ١٩٨٦ ، ص ٥٤٨.

١ - روى عن أبى هريرة- رضى الله عنه- أنه قال : «ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثا عنه منى ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[١].

٢ - وعن عبد الله بن عمرو- رضى الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ، : «قيدوا العلم . قلت : وما تقييده ؟ قال كتابته» [٢] .

٣ - عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال : كان رجل يشهد حديث النبى ﷺ ، فلا يحفظه ، فيسألنى فأحدثه فشكا قلة حفظه إلى رسول الله ﷺ فقال له النبى ﷺ: «استعن على حفظك بيمينك»[٣]، يعنى الكتابة .

٤ - روى عن رافع بن خديج أنه قال :قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : «اكتبوا ولا حرج» [٤].

وطوال الفترة التى امتدت بعد وفاة رسول الله ﷺ مدة سبعين عاما ، فإن من الجلى الواضح أن الصحابة وقفوا من كتابة الحديث موقف المتردد ، يتنازعهم عاملان : الأول ، عامل الرغبة فى الكتابة لما لها من ثمرات واضحة ، والآخر هو الخوف على سلامة الكتاب الكريم إذا تداول الناس صحف الحديث بجانب صحف القرآن [٥] .

وموقف التردد هذا يتضح بصفة جلية من فحوى ما روى من أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- أراد أن يكتب السنن ، فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليها أن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله شهرا ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنن ، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا ، وروى عن صحابة آخرين أنهم كتبوا صحفا ثم محوها أو حرقوها .

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم ، باب كتاب العلم ، والترمذى فى العلم ، باب الرخصة فيه .

(٢) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٦ ، وضعفه البعض .

(٣) أخرجه الترمذى فى العلم ، باب الرخصة فيه ٧/ ٤٢٧ .

(٤) عن : المهدى بن عبد القادر ، ص ٥٤٩ .

(٥) محمد عبد الرءوف : نظرات فى الحديث وتدوينه ، ص ٢٤ .

والذى يبدو لنا هو أن الحرج كان فى نسخ الصحف وإكثارها للتداول والنشر . لم يكن الحرج قويا فى كتابة المرء لنفسه ، ولذلك نجد أمهات الكتب تتحدث عن صحف كانت لدى عدد من الصحابة ، وقد تتبع الدكتور محمد مصطفى الأعظمى فى كتابه المسمى (دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه) الذى نشر فى بيروت عام ١٩٦٨ ما ورد من هذه الإشارات وعد خمسين صحابيا كان كل منهم عنده صحيفة أو كراسة من الأحاديث ، وأشار إلى مصادر ما أتى به [١].

وقد أشار باحثون آخرون إلى أن الكتابة فى عهده ﷺ تناولت قسما كبيرا من الحديث يبلغ فى مجموعه ما يضاهى مصنفا كبيرا من المصنفات الحديثة ، ومما ورد كتابته من الحديث [٢]:

١ - **الصحيفة الصادقة** ، التى كتبها عبد الله عمرو بن العاص ، وسبق أن أشرنا إليها فى فقرة سابقة من الجزء الحالى . قال عبد الله بن عمرو حفظت عن النبى ﷺ ألف مثل ، وكان عبد الله يعتز بها يقول : ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط (أرض وقفها أبوه فى الطائف كان عبد الله يقوم برعايتها) . وقد انتقلت هذه الصحيفة إلى حفيده عمرو بن شعيب . وأخرج الإمام أحمد فى مسند عبد الله بن عمرو من كتابه المسند قسما كبيرا من أحاديث هذه الصحيفة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

٢ - **صحيفة على بن أبى طالب** ، وهى صحيفة صغيرة تشتمل على العقل (أى مقادير الديات) وهى أحكام فكاك الأسير . أخرج نبأها البخارى[٣] وغيره عن أبى جحيفة ، قال : قلت : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة . قال : قلت : فما هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٩٧ ، ص ٤٥ .

(٣) صحيح البخارى ، باب العلم ، كتاب العلم .

٣ - **صحيفة سعد بن عبادة الصحابى الجليل (١٥هـ)** · أخرج الترمذى فى سننه، عن أبى سعد بن عبادة : وجدنا فى كتاب سعد أن النبى ﷺ قضى باليمين والشاهد · لكن لم نعثر على غير هذا الحديث من هذا الكتاب ، ولعل كثيرا من الأحاديث التى رويت عن سعد من هذا الكتاب [١].

٤ - **كتبه ﷺ إلى أمرائه وعماله** فيما يتعلق بتدبير شؤون الأقاليم الإسلامية وأحوالها، وفى بيان أحكام الدين ، وهى كتب كثيرة تشتمل على مهمات أحكام الإسلام وعقائده ، وخطوطه العريضة ، وبيان الأنصبة والمقادير الشرعية للزكاة ، والديات ، والحدود والمحرمات وغير ذلك ، ومن هذه الكتب [٢] :

أ - كتاب الزكاة والديات الذى كتب به أبو بكر الصديق وأخرجه البخارى فى صحيحه، فقد روى أبو داود والترمذى أن رسول الله ﷺ كتب كتاب الصدقة فلم يخرجه حتى قبض ·

ب - كتابه لعمرو بن حزم عامله على اليمن وفيه أصول الإسلام ، وطريق الدعوة إليه، والعبادات ، وأنصبة الزكاة ، والجزية ، والديات ·

ج - كتابه إلى وائل بن حجر لقومه فى حضرموت فيه الأصول العامة للإسلام، وأهم المحرمات ·

٥ - **كتبه ﷺ إلى الملوك والعظماء** ، وإلى أمراء العرب ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ككتابه إلى هرقل ملك الروم ، وإلى المقوقس بمصر ، وغير هؤلاء ·

٦ - **عقوده ومعاهداته** التى أبرمها مع الكفار ، كصلح الحديبية ، وصلح تبوك ، وصحيفة المعاهدة التى أبرمت فى دستور التعايش بين المسلمين فى المدينة وبين من جاورهم من اليهود وغيرهم ·

٧ - **كتب أمر بها ﷺ** لأفراد من أصحابه لمناسبات ومقتضيات مختلفة ، مثل كتابة خطبته لأبى شاه اليمانى [٣] ·

---

(١) نور الدين عتر ، منهج النقد فى علوم الحديث ، ٤٦ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ ·

وإذا كان هناك حرج فى كتابة الحديث أثناء الفترة الوسطى من المرحلة الأولى من تاريخ تدوين الحديث ، فإن أسبابا تجمعت وغيرت الحال قبل نهاية القرن الأول بنحو عشرين عاما ، فبعد مضى سبعين عاما على وفاة الرسول ﷺ ، كانت المخاوف على سلامة القرآن قد تبددت ، فلقد حفظه مئات الآلاف من شتى الألوان والأجناس فى صدورهم، وتلقته أجيال جيلا عن جيل دون حدوث خلل أو خلاف أو تغيير ، كما كانت المصاحف قد كثرت واتسع تداولها ، ثم جدت أحداث حملت على كتابة الحديث حرصا على عدم ضياعه وخوفا من اختلاطه بالأكاذيب والموضوعات [١].

وتبدأ مرحلة التدوين حين أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز أمرا إلى عماله على الأمصار المختلفة يقول فيه : «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه » . وكان فيما كتبه إلى أهل المدينة كذلك[٢]: « انظروا حديث رسول الله ﷺ فإنى خفت دروس (اختفاء) العلم وذهاب أهله» .

وكما وجه كتبا إلى الأمصار ، فلقد وجه كتبا إلى الأئمة الأعلام ، فكتب إلى أمير المدينة أبى بكر بن عمرو بن حزم ، وهو الذى قال فيه مالك : «لم يكن لدينا أحد بالمدينة عنده علم القضاء ما كان عند أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم »، وكان قاضيا ولاه عمر بن عبد العزيز وكتب إليه أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن، والقاسم بن محمد ، فكتبه له ، ولم يكن على المدينة أمير غير أبى بكر بن حزم وكان قاضيا ، ووجه إليه كتابه وفيه : «اكتب بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد ، فإنى خشيت دروس العلم وذهابه»[٣] .

وكتب أيضا إلى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ والذى قال فيه أبو الزياد : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس . كتب إليه يأمره بجمع السنن ، ولذا قال : أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها فى دفاتر فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا .

---

(١) محمد عبد الرءوف : نظرات فى الحديث وتدوينه ، ص ٢٦ .

(٢) عبد المهدى بن عبد القادر : مرجع سابق ، ص ٥٥٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥١ .

وما إن صدر هذا الأمر من الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلا شمر الأئمة عن ساعد الجد ، فلقد آن أوان جمع السنة بعد أن كانت مبعثرة صحيفة هنا وصحيفة هناك، أحاديث يحفظها هذا وأحاديث يحفظها ذاك ، وهذا الجمع وهذا التدوين ، كثيرا ما تمنوه ، وكثيرا ما أملوه ، فبدأ جمع الصحف ونسخها ، وإرسال النسخ إلى الخليفة ومن لم يكتب فقد كتب ، ومن عنده صحف نسخ منها ما يرسله إلى الخليفة ، والخليفة يرسل إلى كل مصر دفترا ، وشهدت فترة خلافة عمر بن عبد العزيز ثم ما بعدها حركة علمية فى ميدان السنة أسفرت عن كتابة السنة ، وجمع كل ما كتب - وهو ما يعرف بالتدوين - ثم تبويب وتصنيف هذا الجمع من الحديث[1] .

وبالإضافة إلى ما سبق أن أثبتناه ، يمكن الإشارة إلى جملة أسباب أخرى أدت إلى اعتبار تدوين السنة فى عصر التابعين أمرا ضروريا فيما يلى[2] :

أولا - انتقال الإسلام وأهله من حال يغلب عليه البداوة ، والعمل على نشر الإسلام ، وفتح البلدان والأقطار ، إلى عصر كثر فيه العمران ، وعظمت الحضارة ، وأخذ المسلمون ينعمون بالحضارة المستقرة المطمئنة ، فكان من الطبيعى الانصراف إلى العلوم ومواردها يجمعونها ، ويعملون عقولهم فى تحصيلها وتصنيفها ، وتلك ظاهرة نراها فى الأمم عامة حين تنتقل من البداوة إلى الحضارة ، أو حين تذهب حضارتها ويضمحل أمرها ، ويرى ناسها أنهم صاروا مضطرين إلى الاهتمام قبل كل شيء بتحصيل معاشهم وتأمين حياتهم .

ثانيا - انتشار الكتابة بين العرب والاعتماد عليها فى تسجيل كثير من المعارف المختلفة ، ومن شأن هذا أن تضعف ملكة الحفظ عندهم ، هذا فضلا عن دخول غير العرب فى الإسلام بكثرة لم تعرف فى دين سابق من الأديان المختلفة ، وهؤلاء هم الذين عرفوا بالموالى فى التاريخ الإسلامى ، وهم لم يرزقوا بطبيعتهم ما للعرب من ملكة الحفظ وقوة الذاكرة .

ثالثا - ظهور الخطأ غير المتعمد على كثير من أحاديث الرسول ﷺ وسنته بسبب الاعتماد فقط على حفظ الراوى ، ثم ظهور الكذب على الرسول ﷺ وشيوعه عن عمد

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) بدران أبو العينين بدران : الحديث النبوى الشريف ، تاريخه ، ومصطلحاته ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٧ .

أحيانا من كثير ممن دخلوا الإسلام مكرهين دون أن يخالط الإيمان قلوبهم أو تتشربه نفوسهم .

ويلخص باحثون تطور تدوين الحديث عند أهل السنة من خلال المراحل التالية[1]:

١ - مرحلة الجمع ، فقد ذكر أبو نعيم فى الحلية أن كبار أهل الطبقة الثالثة قاموا فى منتصف القرن الثانى فدونوا الأحكام ، فصنف الإمام مالك (الموطأ) وتوخى فيه القوى من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم . وقد جمع مالك موطأه بتكليف من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، ويقال أنه مكث فى تأليفه أربعين سنة ، ثم عرضه على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فواطأوه ووافقوه عليه ، فسمى الموطأ ، وكان منهج مالك يقوم على ذكر الحديث المرفوع إلى النبى ﷺ أولا ثم يثنى فى الباب ما روى الصحابة والتابعين ، واعتمد على أهل المدينة ، وندر روايته لغيرهم ، بل أحيانا يعتمد فى كتابه ما عليه أهل المدينة [2].

وقد اعتنى العلماء قديما وحديثا بهذا الكتاب دراسة ونقدا ودفاعا وشرحا ، واختلف العلماء فى عدد أحاديثه ، فقال بعضهم : جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين ألف وسبعمائة وعشرون حديثا، المسند منها ستمائة حديث ، والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثا ، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر . وقال بعضهم : فى الموطأ خمسمائة حديث ونيف مسندا ، وثلاثمائة حديث ونيف مرسلا ، وفيه بضع وسبعون حديثا قد ترك مالك نفسه العمل بها ، وفى هذه الأحاديث ما هو ضعيف ضعفا واهيا عند الجمهور . وسبب اختلاف العلماء فى عدد أحاديث الموطأ رواياته الكثيرة التى اشتهر منها أكثر من ثلاثين رواية .

وصنف ابن جريج بمكة ، والأوزاعى بالشام ، وسفيان الثورى بالكوفة ، وحماد ابن أبى سليمان بالبصرة وهشيم بواسط ، ومعمر باليمن ، وابن المبارك بخراسان ، وجرير بن عبد الحميد بالرى . وكان هؤلاء فى عصر واحد بحيث يعسر إثبات أيهم أسبق ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم فى النسج على منوالهم .

---

(١) عبد الهادى الفضلى : أصول الحديث ، بيروت دار المؤرخ العربى ، ١٩٩٣ ، ص ٤٢ .

(٢) موسى شاهين لا شين ، وصلاح الدين يوسف شلبى ، دراسات فى السيرة وعلوم السنة ، القاهرة ، مطبعة الفجر الجديد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢ .

٢ - مرحلة المسانيد ، وهى التى أفردت فيها أحاديث النبى ﷺ من سواها ، يقول ابن حجر فى (فتح البارى) : رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبى ﷺ خاصة ، وذلك على رأس المائتين ، فصنف عبيد الله بن موسى العبسى الكوفى مسندا ، وصنف مسدد بن مسرهد البصرى مسندا ، وصنف أسد بن موسى الأموى مسندا ، وصنف نعيم بن حماد الخزاعى نزيل مصر مسندا ·

ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم ، فقل إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد كالإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وعثمان بن شيبة وغيرهم من النبلاء·

ولأصحاب المسانيد مناهج مختلفة ، فمنهم ما يسرد أحاديث الصحابى دون نظر إلى موضوعاتها ولا إلى ترتيب أبوابها ، ومنهم من يرتب أحاديث كل صحابى على الأبواب الفقهية ، ومنهم من يرتب الصحابة ترتيبا أبجديا ، ومنهم من يرتبهم ترتيبا قبليا ، فيقدم مثلا بنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب نسبا إلى رسول الله ﷺ ، ومنهم من يرتبهم على السبق فى الإسلام ، فيقدم العشرة المشهود لهم بالجنة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل الحديبية ، ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح ، ثم أصاغر الصحابة سنا ، ثم النساء ، ومنهم من لم يراع شيئا من ذلك ، ومنهم من اقتصر على جمع الأحاديث ولم يبين درجتها ، ومنهم من بين الطرق واختلاف الرواة وبين حال أسانيدها [١] .

٣ - مرحلة الصحاح ، وهى مرحلة إفراد الصحيح من حديث رسول الله ﷺ من غير الصحيح مما روى عنه · وأول من اتجه هذا الاتجاه البخارى (١٩٤-٢٥٦هـ)، يقول ابن حجر : ولما رأى البخارى هذه التصانيف ورواها وجدها جامعة للصحيح والحسن ، والكثير منها يشمله التضعيف ، فحرك همته لجمع الحديث الصحيح ، وقوى ذلك همته لذلك ما سمعه من أستاذه إسحاق بن راهويه حيث قال لمن عنده والبخارى فيهم : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ ... ، قال البخارى : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح [٢].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢١ ·

(٢) عبد الهادى الفضلى ، أصول الحديث ، ص ٤٤ ·

وهكذا كانت طرائق الحديث ذات أساليب متعددة ، يتبع كل إمام المنحى الذى رآه أنفع للمسلمين فى نظره على حسب عصره ، مع ذكر سند الحديث ، ولكل طريقة ميزتها ، فقد نرى الحديث فى كتاب من الكتب مرويا عن أحد من الصحابة كأبى بكر ، أو عمر أو عثمان أو ابن عباس ، أو عائشة ، أو أبى هريرة ، ونريد التثبت منه فتسعفنا فى ذلك كتب الأسانيد ، وقد نريد بحث موضوع واستيعاب القول فيه ، فيسعفنا فى ذلك الكتب التى رتبت على الأبواب (تنتظمها وحدة الموضوع) فهى فى ذلك أسهل مأخذا وأقرب منالا [1] .

ثم جاء قوم فبدا لهم طريق فى الجمع يخالف طريق السابقين ، وهو أن يتركوا سند الحديث ويقتصروا على ذكر الصحابى ، غير أن منهم من جعل همه قصر هذا العمل على كتاب واحد من كتب الحديث كما فعل الإمام الحافظ أبو العباس زين الدين أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الزبيدى ، فإنه قد فعل هذا فى صحيح البخارى ، فضلا عن أنه حذف المكرر من كتب الأحاديث وحذف ما لم يكن مرويا عن الرسول ﷺ من أخبار الصحابة فمن بعدهم مما لا تعلق له بالحديث وسماه التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، ومنهم من جمع ما فى عدة كتب من كتب السنة ، كما فعل مجد الدين بن الأثير الجزرى ، فإنه ألف كتابا جمع فيه صحيحى البخارى ومسلم، وموطأ الإمام مالك ، وجامع أبى عيسى الترمذى وسنن أبى داود السجستانى ، وسنن عبد الرحمن النسائى وسماه (جامع أحاديث الرسول ﷺ) ، ولم يذكر ما كان من أقوال التابعين إلا القليل .

وضع الحديث وتزييفه :

وهى قضية خطيرة قد يتصور البعض أن مناقشتها فى كتاب تربية يعتبر تزيدا وترفا لا داعى له ، وهذا غير صحيح ، ذلك أن الجمهرة الكبرى من التربويين الذين يكتبون أو يشيرون إلى تربية إسلامية ، يسارعون بالاستشهاد بأحاديث غير صحيحة من غير أن يقصدوا إلى ذلك بطبيعة الحال ، بحكم قلة العلم بعلوم الحديث ، وهذا يوجب علينا معرفة كيف نشأ الوضع والكذب والتزييف لأحاديث نسبت إلى رسول الله ﷺ ، هذا من الناحية السلبية ، ثم لننتقل بعد ذلك إلى الجانب الإيجابى المتصل بصحيح السنة ومعايير ذلك .

---

(١) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث ، الكويت ، مكتبة الفلاح ، ١٩٧٩ ، ص٢١٥ .

وقد تعددت صور الكذب على رسول الله ﷺ ، وقد عرض لها بتفصيل جيد (رفعت فوزى) ، فمن هذه الصور [1]:

١ - أن يحدث الرجل عن آخر أنه سمعه ولم يدركه ؛ لأنه توفى مثلا قبل أن يولد، أو قبل أن يكبر ويميز سماع الأحاديث ، أو عن رجل أدركه ، ثم لوحظ أنه لم يسمع منه . ومما يستدل على كذب الراوى فى هذه الحالة معرفة تاريخ المروى عنه ومولد الراوى والأمكنة التى ارتحل إليها والتى لم يرتحل إليها .

٢ - أن يكثر الراوى من الروايات التى تخالف الأئمة المعروفين بالصدق والضبط[2].

٣ - أن يحدث الراوى عن شيخ ، ثم يسأل هذا الشيخ فيروى خلاف ما روى هذا الراوى عنه، وإذا لم يكن المروى عنه حيا فإنهم يلجأون إلى أصحابه القدامى الذين استوعبوا أحاديثه وحفظوها ، فيسألون عما نسب إلى صاحبهم من أحاديث [3].

٤ - أن يحدث الراوى بغير المعقول من الروايات ، فإن ذلك دليل على الوضع والكذب ؛ لأن حديث رسول الله ﷺ منطقى ومعقول ، سئل الشافعى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فضعفه ، وقال : إنه أتاه رجل فقال : أحدثك أبوك أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا ، وصلت خلف المقام ركعتين ؟ فقال : نعم ... ولا يقال : إن هذا حدث بهذا عن أبيه فتكون العهدة عليه ؛ لأن أباه زيد بن أسلم ليس من الوضاعين الكذابين ، ولكنه اخترع نسبة الحديث إلى أبيه، كما اخترع الحديث [4] .

٥ - أن يسمع التلميذ من الشيخ بعض الأحاديث ، فيغير من ألفاظها عند إملائها ، يقول الإمام أحمد عن إبراهيم بن بشار الرمادى : كان يحضر معنا عند سفيان، ثم يملى على الناس ما سمعوه من سفيان ، وربما أملى عليهم ما لم يسمعوا من

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

سفيان ، كأنه يغير الألفاظ ، فتكون زيادة ليست فى الحديث ، فقلت : ألا تتقى الله ! تملى عليهم ما لم يسمعوا ، وذمه فى ذلك ذما شديدا[1].

لكن ما الذى دعا إلى قيام هذه الظاهرة (الوضع) فى الحديث النبوى ؟

لقد مضى زمن النبى ﷺ، وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان أبو بكر وعمر- رضى الله عنهما- بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم، وما كان من اختلاف قليل ورد إليهما وقضى الأمر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت هناك حاجة إلى الاستشارة. وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه، ويفوضون فيما يوهم التشبيه، ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ[2].

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله ، فهوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن على صراطه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وفُتِحَ للناس بابٌ لتعدى الحدود التى حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين فى هذه الفتنة عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم وأظهر الغلو فى حب على- كرم الله وجهه- ، حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان فنفاه إلى مصر ، فوجد فيها أعوانا على فتنته ، إلى أن كان ما كان، ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده[3].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤

(٢) محمد عبده : رسالة التوحيد ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣

توالت الأحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع على بن أبى طالب ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين · غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأي خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى تأويل القرآن والرواية فى الحديث·

من هنا بدأنا نرى أحاديث كثيرة لا نكاد نشك ونحن نقرؤها أنها وضعت لتأييد الأمويين أو العباسيين أو العلويين أو الحط منهم .

وكانت الرافضة أكثر الفرق كذبا ، سئل مالك عن الرافضة ، فقال : لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون · ويقول شريك بن عبد الله القاضى - وقد كان معتدلا فى تشيعه - : أحمل على كل من لقيت إلا الرافضة ، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا · ويقول حماد بن سلمة : حدثنى شيخ لهم - يعنى الرافضة - قال : كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئا جعلناه حديثا ، ويقول الشافعى : ما رأيت فى أهل الأهواء قوما أشهد بالزور من الرافضة [1]·

وأهل السنة يستشهدون بما وضعه هؤلاء من الأحاديث بحديث الوصية فى (غد يرخم) ، وخلاصته : أن النبى ﷺ فى رجوعه من حجة الوداع ، جمع الصحابة فى مكان يقال له : غد يرخم ، وأخذ بيد على- رضى الله عنه- ، ووقف به على الصحابة جميعا ، وهم يشهدون ، وقال : هذا وصيى ، وأخى ، والخليفة من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، قال أهل السنة : حديث مكذوب بلا شك ، وضعته الرافضة ·

ولقد كان الرافضة أكثرهم من الفرس ، الذين تستروا بالتشيع لينقضوا عرى الإسلام ، أو ممن أسلموا ولا تزال فى قلوبهم آثار دياناتهم القديمة ، فانتقلوا إلى الإسلام بعقليتهم الوثنية ، التى لا تتورع عن الكذب على صاحب الرسالة ، لتشبع حبا دفينا فى أفئدتها ·

ومن المؤسف أن ينبرى إليهم فريق من جهلة أهل السنة ، فيقابلوا كذبا بكذب ، وإن كان كذبهم أضيق نطاقا ، ومن ذلك : ما فى الجنة شجرة مكتوب على ورقة منها لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق ، عثمان ذو النورين [2]!

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون ، مصطلح الحديث ، ص ٦٧ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ ·

كذلك فعل المتعصبون لمعاوية ، مثل قولهم : الأمناء ثلاثة : أنا ، وجبريل ، ومعاوية . وقام المؤيدون للعباسيين بمثل ذلك ، ونسبوا إلى النبى ﷺ قوله : العباس وصيى ، ووارثى ، وأنه قال للعباس : إذا كان سنة خمس وثلاثين، فهى لك ، ولولدك السفاح ، والمنصور ، والمهدى !!!

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الواضعون فى تفضيل القبائل العربية ، ذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر والشرف فوجدوا فى الأحاديث ما يدخلون منه إلى المفاخرة ، كالذى وجدوه فى الشعر ، وتروى فى هذا أحاديث كثيرة موضوعة، من ذلك ما روى من أن الرسول ﷺ قال : خير الناس العرب ، وخير العرب قريش ، وخير قريش بنو هاشم ! [1]، ومن ذلك أن رجلا قتل بالمدينة ، لا يدرى من قتله ؟ فقال النبى ﷺ : أبعده الله، إنه كان يبغض قريشا ! ولا ريب فى أن مصدر مثل هذين الحديثين إنما هو الهوى الضيق القبلى، ففى قريش من كان يناصب الإسلام العداء ، وفى القبائل الأخرى من كان يترك أهله وماله فى سبيل الله ورسوله . وكيف يدعو الرسول ﷺ إلى عصبية وقد بعث إلى الناس كافة ؟ وكيف يخلق بين الناس العداوة ويوجد الحسد وهما من عوامل الشقاء والعذاب وقد بعث رحمة مهداة[2]؟!

وكم من حديث وضع فى تفضيل العرب على العجم والروم فقابلها هؤلاء بوضع أحاديث فى فضل العجم والروم والحبشة والترك . ومثل ذلك فى العصبية للبلد ، فلا نكاد نجد بلدا كبيرا إلا وفيه حديث ، بل أحاديث فى فضله [3]، ومن النماذج التى يمكن سوقها على هذا الطريق ما ينسب إلى النبى ﷺ من أنه قال : «إذا خرجت الرايات السود فاستوصوا بالفرس خيرا ، فإن دولتنا معهم» ! وهذا حكم سياسى يرفع من قدر الفرس ، ويهيب بالسواد أن ينضم إليهم ، ولا يخفى أثر الدعاة فى هذا، وقوله : «دعونى من السودان ، إنما الأسود لبطنه وفرجه» ![4] ، فهذا غض من قدر قوم، ودحر لأعمالهم ، وانتقاص من قدرهم ، وهو يخالف سنن الرسول ﷺ فى

---

(١) عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٧

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ص ٢١٣ .

(٤) عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، ١٠٥ .

القول ودمائته فى التعبير ، وكيف يقول الرسول ﷺ ذلك ؟ ويحكم هذا الحكم ثم يصادر على أفعالهم فيوقعهم فى الخطيئة بحكمه ؟ ومن الممكن أن يحتج المبطلون منهم بمثل هذا الحديث غير الموضوع .

كذلك تساهل بعضهم فى باب الفضائل والترغيب والترهيب ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال واستباحتهم الوضع فيها ، فملأوا كتب الحديث بفضائل الأشخاص حتى من لم يرهم النبى ﷺ ، وبفضائل آيات القرآن وسوره ، فالقرآن الكريم ذو مكانة فى نفوس المسلمين ، ويبدو أن الناس انصرفوا عن تلاوته وحفظه إلى حفظ الماجن من الشعر ، ورواية المنكر من القول ، والكلف بالمناظرة ، فأراد العباد أن يحببوا الناس فى القرآن فكذبوا على رسول الله ﷺ واختلقوا أحاديث عن فضائل القرآن سورة سورة ، وبالغوا فى الثواب. وإذا كان الدافع لهذا العمل نبيلا فليس بمانع من خطئه ، وهذه النية الطيبة قد اقترفت عملا سيئا باستباحتها الكذب ، وتعمدها التقوُّل على رسول الله ﷺ [1] .

ومثل هذا فى كتب الأخلاق والتصوف من أحاديث فى الترغيب والترهيب لا يحصى لها عد [2] ، حيث قام بعض الجهلة بالدين الذين كانوا على جانب من الصلاح والزهد بوضع أحاديث فى هذا الباب حين ساءهم وجود بعض الناس المتكالبين على الدنيا والذين تركوا آخرتهم فوضعوا بعض الأحاديث التى ترغبهم فى الآخرة وتخوفهم من عذاب الله ، ومن هؤلاء غلام خليل ، وهو أحمد بن محمد بن غالب الباهلى ، كان معروفا بالزهد وتوفى فى رجب سنة ٢٧٥ هـ . قال له أبو عبد الله النهاوندى : ما هذه الرقائق التى تحدث بها ؟ قال : وضعناها لنرقق بها قلوب العامة ، وهؤلاء من أشد الوضاعين ضررا وأفدح خطرا لأن أحاديثهم المختلقة كانت تجد قبولا عند بعض الناس لما كانوا عليه من الزهد والصلاح ؛ ولهذا قال يحيى القطان : ما رأيت الكذب فى أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير [3].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٢) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢١٥ .

(٣) أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، ص ٩٠ .

ولعل من أسباب وضع هؤلاء ، الغفلة عن الحفظ اشتغالا عنه بالزهد والانقطاع للعبادة ، هؤلاء العباد والصوفية ، يحسنون الظن بالناس ، ويعدون الجرح من الغيبة المحرمة ؛ ولذلك راجت عليهم الأكاذيب وحدثوا من غير معرفة ولا بصيرة[1].

ويخيل إلينا أن من أهم أسباب الوضع أيضا، مغالاة الناس إذ ذاك فى أنهم لا يقبلون من العلم إلا ما اتصل بكتاب الله وسنة رسوله اتصالا وثيقا ، وما عدا ذلك ، فليس له قيمة كبيرة ، فأحكام الحلال والحرام ، إذا كانت مؤسسة على مجرد الاجتهاد، لم يكن لها قيمة ما أسس على الحديث ، ولا ما يقرب منه · بل كثير من العلماء فى ذلك العهد كان يرفضها ولا يمنحها أية قيمة ، بل بعضهم كان يشنع على ما ينحو هذا النحو ، والحكمة والموعظة الحسنة إذا كانت من هندى أو يونانى أو فارسى ، أو من شروح من التوراة أو الإنجيل لم يؤبه لها ، فحمل ذلك كثيرا من الناس أن يصبغوا هذه الأحاديث كلها صبغة دينية حتى يقبلوا عليها ، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه ، فدخلوا منه على الناس ، ولم يتقوا الله فيما صنعوا ، فكان من ذلك أن نرى فى الحديث الحكم الفقهى المصنوع ، والحكمة الهندية ، والفلسفة الزرادشتية ، والموعظة الإسرائيلية أو النصرانية [2] !

وهناك ، قصد التقرب من الملوك والسلاطين والأمراء ، كما نص على ذلك غير واحد من الحفاظ ، وكما كذب علماء السوء على الرسول ﷺ لأجل السلاطين ، كذبوا كذلك فى وضع الأحكام ، والفروع الفقهية لأجلهم ، ومن الأحاديث الموضوعة فى هذا الباب ما اشتمل على مدح السلاطين وتعظيم شأنهم ، وهو ما يتملق به الجهال فى هذا العصر ، كما تلقوا لهم فيما قبله [3] .

وهناك الخطأ والسهو ، وقع هذا لقوم ، ومنهم من ظهر له الصواب ، ولم يرجع إليه أنفة واستنكافا أن ينسب إليهم الغلط ، ولم تعرف رقة دين هؤلاء وعدم إخلاصهم فى الاشتغال برواية الحديث إلا بعد أن وقع لهم ما وقع ·

---

(١) محمود أبو رية : أضواء على السنة المحمدية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٩٥.

(٢) احمد امين : فجر الإسلام ، ص ٢١٥ ·

(٣) محمود أبو رية ، اضواء على السنة المحمدية ، ص ٩٦ ·

وأيضا الظهور على الخصم فى المناظرة ولا سيما إذا كانت فى الملأ ، وهو غير الوضع لنصرة المذاهب ، قال ابن الجوزى : ومن أسباب الوضع ، ما يقع ممن لا دين له عند المناظرة فى المجامع من استدلال على ما يقوله كما يطابق هواه تنسيقا لجداله وتقويما لمقاله ، واستطالة على خصمه ، ومحبة للغلب وطلبا للرياسة وفرارا من الفضيحة إذا ظهر عليه من يناظره [١].

وهناك أيضا إرضاء الناس وابتغاء القبول عندهم واستمالتهم لحضور مجالسهم الوعظية ، وتوسيع دائرة حلقاتهم ، وقد ألصق المحدثون هذا السبب بالقصاص ، ولعل ابن الجوزى ما تصدى لتأليف كتابه فى الموضوعات إلا بعد ما زاول الوعظ واختبر ما أفسد الوعاظ من دين الناس ، وقد ذكر عنه نفسه ، إن الأحاديث كانت ترد عليه فى مجلس وعظه فيردها فيحقد عليه سائر القصاص[٢]. والحق أن بعض الجهلة ومدعى العلم ، قد احترفوا قص القصص ؛ بهدف التكسب بإغراء الناس وتزوير القول، وتوفير المادة المشوقة والمثيرة لمشاعر السامعين الذين هم فى الأغلب من عامة الناس ؛ لأن المثقفين عادة ينشغلون بالجد والعلوم ، وقد اتخذ القصاص المساجد يجلسون فيها ويلتف الناس حولهم ، يرققون القلوب أحيانا بما يصورون وما ينسجه خيالهم مسندين ذلك إلى رسول الله ﷺ، فإذا ذكروا الجنة مثلا ، زعموا أن الله يبوئ وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون مقصورة ، فى كل مقصورة سبعون ألف قبة ، فى كل قبة سبعون ألف خادم .. إلخ ، ويبالغون فى الخيال أحيانا [٣] .

وقد جاهد العلماء فى محاربة القصاصين ، لدرجة أنهم كانوا يمتنعون عن تحديثهم مخافة أن يضيفوا إلى الحقيقة التى يأخذونها عنهم مائة كذبة من عند أنفسهم ، فقد روى ابن الجوزى أن شعبة دنا منه شاب فسأله عن حديث ، فقال له : أنت قاص ؟ قال : نعم ، قال : : اذهب فإنا لا نحدث القُصّاص ، فقيل له : لِمَ لَمْ تحدثه ؟ قال: يأخذون الحديث منا شبرا فيجعلونه ذراعا ، نعم كان العلماء يحذرون الناس والشباب

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) موسى لاشين وزميله ، دراسات فى السيرة وعلوم السنة ، ٢٣١ .

من الجلوس إلى القصاصين وكانوا يفضحونهم فى مجالسهم ويكذبونهم فى أقوالهم ، ولكن انخداع العامة بهم مكنهم من الاستمرار والاستزادة من قصصهم ، لدرجة أن بعض الجهلة لم يكونوا يصدقون العلماء فى فتاويهم ، ويستوثقون من القصاص[1]! .

مقاومة الوضع :

وقد قيض الله- سبحانه وتعالى- لسنة نبيه رجالا أمناء صدقوا فى إخلاصهم لله ولرسوله ونصبوا أنفسهم للذب عن السنة الشريفة ، فأفنوا أعمارهم فى التمييز بين الصحيح والباطل صيانة للسنة النبوية وحفاظا على الإسلام من الدس والتحريف . وفى سبيل تنقيح السنة وتنقيتها من الوضع ، بذل علماء الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم جهودا مخلصة فوضعوا قواعد الجرح والتعديل ، وكان من ثمرة أعمالهم علم مصطلح الحديث ، وهو يشتمل على أدق الطرق العلمية للتحقيق والتوثيق واقومها فى التمحيص والنقد [2]، وكانت القواعد التى اتبعوها فى جهودهم تقوم على الآتى :

أولا - إسناد الحديث : لم يكن صحابة رسول الله ﷺ بعد وفاته يشك بعضهم فى بعض ، ولم يكن التابعون يتوقفون عن قبول أى حديث يرويه صحابى عن رسول الله ﷺ ، حتى وقعت الفتنة . عندئذ بدأ العلماء من الصحابة والتابعين يتحرون فى نقل الأحاديث ، ولا يقبلون منها إلا ما عرفوا طريقها ورواتها ، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم ، ومن هذا ما يرويه الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بعدى من أمتى- أو سيكون بعدى من أمتى- قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيهم ، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ... » ، قال عبد الله بن الصامت ، فلقيت رابع بن عمرو الغفارى أخا الحكم الغفارى ، قلت : ما حديث سمعته من أبى ذر ، كذا وكذا.. ، فذكرت له هذا الحديث ، قال : وأنا سمعته من رسول الله ﷺ [3] ، يقول ابن سيرين فيما يرويه عنه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢) أحمد عمر هاشم ، السنة النبوية وعلومها ، ص ٩١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج٣ ، ص ١٢٠ .

الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[1] .

وطغى الإسناد فى أوائل القرن الثانى الهجرى والتزم به المحدثون بحيث أصبح قبول الحديث منوطا بذكر الإسناد ، قال شعبة (ت١٦٠هـ) : كل حديث ليس فيه أنا وثنا فهو خل وبقل ، أى أنه كالطعام الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وفى هذا المعنى قال شعبة أيضا : كل حديث ليس فيه حدثنا وحدثنا ، فهو مثل الرجل بالفلاة معه البعير ليس له خطام (زمام) [2].

فلا غرابة إذا ما أصبح السؤال عن الإسناد أمرا شائعا لا يقتصر على أرباب العلم بل يهتم به غيرهم أيضا ، فهذا أعرابى قدم على سفيان بن عيينة يسأله: ما تقول فى امرأة من الحاج ، حاضت قبل أن تطوف بالبيت ؟ فأجابه سفيان : تفعل ما يفعل الحاج غير أنها لا تطوف بالبيت ، فقال الأعرابى : هل من قدوة ؟ قال : نعم ، عائشة حاضت قبل أن تطوف بالبيت فأمرها النبى ﷺ أن تفعل ما يفعل الحاج غير الطواف ، قال الأعرابى : هل من بلاغ عنها ؟ قال : نعم ، حدثنى عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة بذلك ، قال الأعرابى : لقد استسنمت القدوة وأحسنت البلاغ والله لك بالرشاد . وهكذا لم يكتف الأعرابى حتى سأل عن سند الرواية كاملا ، ولم يجد ابن عيينة فى سؤاله بأسا [3] .

ثانيا - التوثق من الأحاديث ، وذلك بالرجوع إلى الصحابة والتابعين وأئمة هذا الفن ، فلقد كان من عناية الله بسنة نبيه أن مد فى عمر عدد من أقطاب الصحابة وفقهائهم ليكونوا مرجعا يهتدى الناس بهديهم ، فلما وقع الكذب لجأ الناس إلى هؤلاء الصحابة يسألونهم ما عندهم أولا ، ويستفتونهم فيما يسمعونه من أحاديث وآثار ، ولهذا الغرض كثرت رحلات التابعين ، بل بعض الصحابة أيضا من بلد لآخر ليسمعوا الأحاديث الثابتة من الرواة الثقات [4].

---

(١) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ص ٩٠ .

(٢) أكرم ضياء العمرى : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ، ١٩٨٤ ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٤) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها ، ص ٩١ .

وفى سبيل التثبت كانوا يتذاكرون الحديث فيما بينهم لمعرفة ما يأخذونه منها ، وترك ما ينكرونه ، كما كانوا على جانب كبير من الوعى والحيطة بحيث يحفظون الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة خشية أن تختلط عليهم وحتى يستطيعوا التمييز بين الصحيح وغيره بدقة فائقة وحيطة بالغة ، وروى أبو بكر بن الأثرم أن أحمد ابن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء فى زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس ، فإذا طلع عليه إنسان كتمه ، فقال له أحمد بن حنبل : تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس وتعلم أنها موضوعة ، فلو قال لك قائل : إنك تتكلم فى أبان ثم تكتب حديثه على الوجه ؟ فقال : رحمك الله يا أبا عبد الله · أكتب هذه الصحيفة عن عبدالرازق عن معمر فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجىء بعده إنسان فيجعل بدل إبان ثابتا ، ويرويها عن معمر عن أنس بن مالك ، فأقول له كذب إنما هى عن معمر عن أبان لا عن ثابت[1] ·

ثالثا - نقد الرواة ، وبيان حالهم من صدق أو كذب ، وهذا باب عظيم وصل منه العلماء إلى تمييز الصحيح من المكذوب والقوى من الضعيف ، وقد أبلوا فيه بلاء حسنا وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفى من أمرهم وما ظهر · ولم تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج ، قيل ليحيى بن سعيد القطان : « أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ؟ فقال : لأن يكون هؤلاء خصمى أحب إلى من أن يكون خصمى رسول الله ﷺ يقول : لِمَ لَمْ تَذُبّ الكذب عن حديثى؟»[2] ·

وقد اهتم التابعون بدراسة الرجال ، ومن تكلم فى ذلك مما يذكره ابن عدى - ونقله عنه السخاوى - الأئمة : الشعبى ، وابن سيرين ، وابن جبير ، وإن كان كلامهم قليلا ؛ لأن التابعين أكثرهم عدول ، ولا يكاد يوجد فى القرن الأول الذى انقرض بوفاة الصحابة وكبار التابعين ضعيف إلا الواحد بعد الواحد [3] ، وذلك لقرب العهد من رسول الله ﷺ ، ولشيوع الورع والتقوى تأسيا بصحابة رسول الله الذين كان إيمانهم قويا عميقا ، ظاهرا فى سكناتهم وحركاتهم ·

---

(١) أحمد عمر هاشم ، السنة النبوية وعلومها ، ص ٩٢ ·

(٢) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها ، ص ٩٢ ·

(٣) السخاوى ، شمس الدين محمد : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت ، القاهرة ، مكتبة ابن سينا ، ١٩٨٩ ، ص ١٤٤ ·

وقد وضع علماء الحديث بعد ذلك قواعد ساروا عليها بالنسبة لمن يؤخذ منه ومن لا يؤخذ ، ومن يكتب عنه ومن لا يكتب .

وقد ذكر بعض الباحثين بحق أن الأمم الأخرى من غير المسلمين لما أرادت أن تجمع فى أطوار نهضتها أقوال رجالها وروايتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضى وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ، ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم.

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات كالحقائق التاريخية المدونة فى الكتب ، وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت كثير من الكتب الأدبية مما يتعلق بالأمم الخوالى وشئونها والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها. أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها ، وأصولا متقنة يتمسكون بها[1].

رابعا - وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييزه ، وذلك أنهم قسموا الحديث إلى ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف ، مما سيأتى بيانه فيما بعد .

خامسا - تتبع الكذابين ، فإلى جانب احتياط العلماء وتثبتهم فى قبول الأخبار ، كان بعضهم يحاربون الكذابين علانية ويمنعونهم من التحديث ، ويستعدُون عليهم السلطان ، فقد كان عامر الشعبى يمر بأبى صالح صاحب التفسير فيأخذ بأذنه ويقول : ويحك ! كيف تفسر القرآن وأنت لا تحسن أن تقرأ ! وقال الشافعى: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق ، كان يجىء إلى الرجل فيقول : لا تُحدّثْ وإلا استعْدَيْتُ عليك السلطان[2] .

وكان بعض المحدثين لا يتحملون كذب هؤلاء فيضربونهم ويهددونهم بالقتل ، روى الإمام مسلم بإسناده المتصل عن حمزة الزيات : قال : سمع مرة الهمدانى من

---

(١) عبد الحليم محمود : السنة فى مكانتها وفى تاريخها ، القاهرة ، المكتبة الثقافية ، دار الكاتب العربى ، أول يناير ١٩٦٧ ، ٧٨ .

(٢) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ٢٣٠ .

الحارث (الأعور) شيئا فقال له : اقعد بالباب ، قال : فدخل مُرة وأخذ سيفه ، قال: وأحس الحارث بالشر فذهب .

وإذا كان علماء الحديث قد وضعوا القواعد الأساسية لضمان توافر شرطى العدالة والضبط بالنسبة لرواة الحديث ، فإن من المهم أن نلاحظ ما يلى[1] :

١ - لا يصح الاستغناء عن واحد منهما فى تقويم الراوى ، وإن كانت العدالة مقدمة على الضبط ؛ لأن بعض الضبط ينجبر ضعفه بكثرة الرواة ، وهو ما يسمونه اجتماع طرق الحديث يقوى بعضه بعضا ، أما زوال العدالة فلا ينجبر ، فماذا نصنع بخبر أخبر به عشرة من الكذابين ؟

٢ - التوثيق درجات متفاوتة ، وقد استخدم المحدثون تعبيرات دقيقة لهذا الأمر فهناك من يقال عنه ثقة ثبت أو ثقة ثقة أو ثقة متقن ، وهو الضابط الجيد الضبط، كقول ابن مهدى فى رجل : ثقة ثقة مأمون حجة صاحب حديث، فهذه مرتبة عليا فى التوثيق ، ومثل هذا الرجل يطمأن إلى الأخذ عنه . وفى هذه المرتبة من يقال عنه : أوثق الناس ، إليه المنتهى فى التثبت ، ثم درجة من التوثيق أقل من هذه وهى قولهم عن الرجل ثقة أو حجة أو عدل ضابط وهؤلاء حديثهم صحيح ، ثم مرتبة أدنى حين يقال فى الرجل إنه مأمون خيار، ومن ذلك قول أبى داود حين سئل عن سليمان بن بنت شرحبيل قال : ثقة يخطئ كما يخطئ الناس ، وهؤلاء حديثهم مقبول أيضا ، إلا إذا خالفت روايتهم رواية من هو أثبت منهم ، ثم تأتى درجة من الثقات متواضعة عن هذه الدرجات ، وغالبا ماتدل على صدق الموصوف بها دون ضبطه ،كقولهم صدوق أو محله الصدق ، ليس به بأس ، صالح ، صويلح ، ثم صدوق يخطئ ، صدوق يهم ، عنده أوهام ، وهذه أدنى درجات التوثيق ، وقد عد حديث هذه المرتبة من الحديث الحسن .

٣ - لا تثبت عدالة الرجل إلا بالشهرة أو التزكية ، أما رواية الثقة عن أحد الشيوخ فلا دليل فيها على أن هذا الشيخ عدل ، سواء كان هذا الشيخ (المروى عنه) مجروحا أو مجهولا فأما إذا كان مجروحا فهو أمر ظاهر، فكم من رجل ثقة صاحب سنة روى عن ضعفاء ولكن ذلك لم يقو أمرهم شيئا ، ومن ذلك رواية

---

(١) محمد عبد الحكيم القاضى : الثقة عند علماء الحديث ، ابو ظبى ، مجلة منار الإسلام ، يوليو ١٩٨٥ ، ص ٢١ .

الثورى (الثقة الحجة الإمام) عن ابن السائب الكلبى ، وهو ضعيف ، فلم ينفعه شيئا .

ونتيجة جهود المحدثين وعلماء الحديث أصبح من الممكن التعرف على أن الحديث موضوع من خلال عدد من الأمور[1]:

أ - إقرار واضع الحديث ، كما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى بأنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن ، وأنه وضع سبعين حديثا فى فضل على .

ب - أن يحصل من الواضع ما يقوم مقام إقراره بالوضع ، وذلك كما وجدنا من القاص الذى كان بمسجد الرصافة يحدث بالسند المتصل إلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، فلما واجهاه بأنهما لا يقولا ما تحدث به ، بهت لكنه قال : كأنه ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيرهما !

ج - أن توجد فى الراوى قرائن أو المروى أو فيهما معا تدل على وضعه ، من ذلك، أن يكون الراوى متعصبا لمذهب ، فيروى من الأحاديث ما يقويه ، وكذلك أن يكون الحديث ركيك المعنى أوالمعنى واللفظ بحيث لا يستساغ صدوره عن النبى ﷺ ، أو يكون مما يخالف العقل . ومن ذلك ما رواه الحاكم عن سيف بن عمر التميمى أنه قال : كنت عند سعيد بن طريف ، فجاءه ابنه من الكُتاب يبكى ، فقال له : مالك ؟ فرد : ضربنى المعلم . قال : لأخزينهم اليوم: حدثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : «معلموا صبيانكم شراركم أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين» [2].

د - هذا، وقد يأخذ واضع الحديث ما وضعه من كلام بعض الحكماء ، مثل : المعدة بيت الداء .

وكان نتيجة هذا أن توارى كثير من الكذابين ، وكفوا كذبهم ، كما أصبح عند العامة وعى جيد يميزون به بين المتطفلين على الحديث وأهله ورجاله الثقات ، ويدل على هذا ما رواه ابن حجر عن يزيد بن هارون قال : «كان جعفر بن الزبير وعمران بن حدير فى مسجد واحد مصلاهما ، وكان الزحام على جعفر بن الزبير وليس عند عمران أحد، وكان شعبة يمر بهما فيقول : يا عجبا للناس اجتمعوا على أكذب الناس وتركوا

---

(١) بدران أبو العينين : الحديث النبوى الشريف ، ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ٦٧ .

أصدق الناس . قال يزيد : فما أتى عليه قليل حتى رأيت ذلك الزحام على عمران وتركوا جعفرا وليس عنده أحد . وكان الناس لا يجرؤون على الكذب فى زمن سفيان الثورى لأنه كان شديدا على الكذابين يكشف عنهم ويبين عوارهم ، وفيه قال قتيبة بن سعد : لولا سفيان الثورى لمات الورع »[1]!

ومن أهم أصناف المتروكين الذين لا يؤخذ بحديثهم[2] :

١ - الكذابون على رسول الله ﷺ.

٢ - الكذابون فى أحاديثهم العامة .

٣ - أصحاب البدع والأهواء .

٤ - الزنادقة والفساق والمغفلون الذين لا يفهمون ما يحدثون .

٥- والرواة الذين يتوقف فى قبول روايتهم أصناف ، من أهمهم :

أ- من اختلف فى تجريحه وتعديله .

ب - من كثر خطؤه وخالف الأئمة الثقات فى مروياتهم .

جـ- من كثر نسيانه .

د - من ساء حفظه .

هـ- من اختلط آخر عمره .

و- من أخذ عن الثقات والضعفاء ولا يتحرى .

وقبل أن نترك هذا الجزء لابد أن نشير إلى ما تسرب إلى عملية الوضع من إسرائيليات ، أى أفكار وأخبار مصدرها غير إسلامى ، وخاصة اليهود ، ذلك أن الإسلام عندما جاء ، وجاء كتابه الخالد بعلومه وتعاليمه ، وكانت دعوة الإسلام أول ما ظهرت وانتشرت بين سكان الجزيرة العربية ، وكانت عاصمة الإسلام دار الهجرة (المدينة) ، وفى مسجد المدينة كانت تعقد مجالس الرسول ﷺ لتعليم أصحابه ، وفى المدينة وما حولها وعلى بعد منها ، كانت تقيم طوائف يهودية كبنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر ، وتيماء ، وفدك[3] .

---

(١) محمد عجاج الخطيب ، السنة قبل التدوين ، ص ٢٣٢ .

(٢) مصطفى السباعى ، ، ص ٩٢ ، وما بعدها .

(٣) محمد السيد حسين الذهبى : الإسرائيليات فى التفسير والحديث ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، الكتاب السابع والثلاثون ، أكتوبر ١٩٧١ ، ص ٢٥ .

وكانت - بحكم هذا الجوار بين اليهود والمسلمين - تتم لقاءات بينهم لا تخلو عادة من تبادل العلوم والمعارف : كان النبى ﷺ يلقى اليهود وغيرهم من أهل الكتاب ليعرض عليهم دينه ، وكان اليهود يلقون الرسول ﷺ ليحكموه فيما شجر بينهم ، أو ليسألوه عن بعض ما يعنّ لهم السؤال عنه ، إما تحديا وتعجيزا ، وإما امتحانا واختبارا لصدق نبوته ، وقد حكى القرآن كثيرا من ذلك .

كذلك كانت تتم لقاءات بين بعض المسلمين وبعض اليهود ، تدور فيها مناقشات ومجادلات ، وتقع فيها سؤالات واستفسارات ، ثم كان هناك ما هو أهم من ذلك كله، وهو دخول جماعات من علماء اليهود وأحبارهم فى الإسلام كعبد الله بن سلام، وعبد الله بن صوريا ، وكعب الأحبار ، وغيرهم ممن كانت لهم ثقافات يهودية واسعة، وكانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة ومركز ملحوظ ، وبهذا كله التحمت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية بصورة أوسع ، وعلى نطاق أرحب [1] .

والتفسير والحديث ، كلاهما تأثر إلى حد كبير بثقافات أهل الكتاب ، على ما فيها من أمور غير صحيحة ، وكان للإسرائيليات فيها أثر سيئ حيث تقبلها العامة بشغف ظاهر ، وتناقلها بعض الخاصة فى تساهل يصل أحيانا ، إلى حد التسليم بها ، على ما فيها من سخف بين وكذب صريح ، الأمر الذى كاد يفسد على كثير من المسلمين عقائدهم وجعل الإسلام فى نظر أعدائه دين خرافات وتُرّهات [2].

مصادر الحديث النبوى :

عندما يريد الباحث أن يستعين بأحاديث الرسول ﷺ عند دراسة قضية من قضايا التربية الإسلامية ، فإن عليه أن يطلع على الأعمال التى تخصصت فى جمع هذه الأحاديث وفقا للأسس والقواعد التى تم الاتفاق عليها بين المتخصصين فى التحديث وفى علوم الحديث .

وأشهر الكتب المدونة فى الحديث بالإسناد صحيحا البخارى ومسلم ، وموطأ الإمام مالك ، وسنن أبى داود ، وسنن الترمذى (ويسمى أيضا الجامع الصحيح) ، وسنن النسائى ، وسنن ابن ماجه ، وسنن البيهقى ، وسنن الدارمى ، ومسند الإمام أحمد[3] . على أن الذى اشتهر بين العلماء أن الأصول من هذه الكتب ستة : صحيح

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٣) محمد الزفزاف ، التعريف بالقرآن والحديث ، ص ٢١٦ .

البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه .

١- صحيح البخاري : ويعتبر الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ للإمام محمد بن إسماعيل البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل، وقد انتقاه البخاري من ستمائة ألف حديث . ولا شك أن معظم هذه الأحاديث كانت مدونة في كتب المسانيد ومصنفات الحديث الأخرى التي دونها علماء القرن الثاني الهجري وسمعها البخاري عن شيوخه بأسانيدهم إلى مصنفيها . وإذا كان البخاري قد اقتصرعلى الحديث الصحيح إلا أنه صرح بأن ما تركه من الحديث الصحيح أكثر مما أثبت لئلا يطول الكتاب[١] .

وقد اشتهر البخاري بدقة التراجم حتى عد من كبار أئمة الفقهاء المجتهدين ، فهو يضع عنوانا للحديث أو الأحاديث مستنبطا منها بعبارة دالة على المطابقة ، أو بعبارة دالة على حكم عام مستنبط من حديث يعطي حكما خاصا أو بالعكس للإشارة إلى أن الحديث الخاص مراد به العموم ، أو أن العموم الوارد في الحديث مراد به الخصوص[٢] .

ومما يروى دلالة على عمق علم البخاري بالأحاديث الصحيحة ما رواه أبو أحمد ابن عدى الحافظ عن البخاري ، قال[٣] : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشر أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

ولما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري : لا أعرفه . فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ ، والبخاري يقول : لا أعرفه . وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض

---

(١) أكرم العمرى ، بحوث في تاريخ السنة ، ص ٢٤٤ .

(٢) موسى لا شين وزميله ، دراسات في السيرة وعلوم السنة ، ص ٢٢٤ .

(٣) عبد الحليم محمود : السنة في مكانتها وفي تاريخها ، ص ٧٨ .

ويقولون : فهم الرجل ! ومن كان لا يدرى القصة ، يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ ·

ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه ! فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه · فما زال يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته ، والبخارى يقول : لا أعرفه ·

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : لا أعرفه ·

فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا ، والثالث والرابع ·· إلخ ، حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل ·

ولم يحظ كتاب من كتب الحديث بعناية الأمة الإسلامية مثل ما حظى به (الجامع الصحيح) للبخارى ، فقد اعتنى علماء الأمة به شرحا له ، واستنباطا للأحكام منه ، وتكلما على رجاله وتعاليقه ، وشرحا لغريبه ، وبيانا لمشكلات إعرابه ·· إلى غير ذلك[1] وقد تكاثرت شروحه حتى قال صاحب (كشف الظنون) : إنها تنيف على اثنين وثمانين شرحا وذلك عدا ما ألف بعد عصر صاحب الكشف ، ولعل أبرز شروح صحيح البخارى :

أ - شرح العلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن على الكرمانى المتوفى سنة ٧٨٦هـ سماه : (الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى) ·

ب - شرح ابن حجر العسقلانى المولود عام ٧٧٣ وتوفى عام ٨٥٢ هـ وأسماه (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ، وهو أحسن الشروح وأوفاها ·

٢ - صحيح مسلم : وهو للإمام: أبو الحسن بن الحجاج ، ولد بمدينة نيسابور بخراسان ، وكان مولده (على الأرجح) سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٦١ هـ · وقد تحرى الإمام مسلم فى كتابه تمحيص الروايات والموازنة بينها وتحرير ألفاظها وقطع فى سبيل

---

(١) محمد محمد أبو شهبة : الكتب الصحاح الستة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة السادسة والعشرون ، الكتاب الثالث ، ١٩٩٥ ، ص ٩٦ ·

ذلك الرحلات الواسعة واستعان ببعض تلاميذه فى كتاباته وتحريره حتى جاء الكتاب ثمرة طيبة للجهاد والاجتهاد الذى بذله هذا الإمام ، واستغرق فى تأليفه خمس عشرة سنة . ولشدة حيطته فيما دون قام بعد الفراغ من تأليفه بعرضه على أئمة المحدثين لينقدوه وليروا فيه رأى الحق [١].

ويحتوى على نحو أربعة آلاف حديث من غير المكرر ، وبالمكرر نحو ٧٢٧٠ (ذكر الحافظ ابن حجر أن عدد ما فى صحيح البخارى من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧ سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات ، وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢).

وكما امتاز البخارى بدقة التراجم وفقهها ، امتاز صحيح مسلم بجمع الاحاديث المتناسبة فى مكان واحد ، ويذكر طرق الحديث التى اختارها ، مرتبا لها على أبواب الفقه وإن لم يذكر تراجم الأبواب ، وقد أجاد الإمام النووى فى شرحه فى تعيين تراجم هذه الأبواب .

ومما ينبغى أن يعلم أن مسلما لم يضع لكتابه تراجم للأبواب بالفعل ، وإنما جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد فى مكان فجاء كتابه فى قوة المبوب . ولعل مسلما فعل ذلك ليشحذ القارئ ذهنه ويعمل فكره في البحث والاستنباط ، والكشف عن مقاصد الأحاديث ومدلولاتها . وأما ما نراه من ذكر العناوين للكتاب والأبواب فى بعض النسخ المطبوعة فليس من صنع المؤلف وإنما هو من صنع من جاء بعده من الشراح[٢].

ولصحيح مسلم مقدمة قيمة ، عرض فيها لتقسيم الأخبار وما يخرجه فى صحيحه منها ، وأحوال الرواة ، والكشف عن معايبهم ، وبيان حرمة الكذب على رسول الله ﷺ ، والحث على التثبت فى الرواية ، والنهى عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ، وبيان أن الإسناد من الدين ، وأفاض فى بيان الاحتجاج بالحديث المعنعن، وهى تعتبر من المؤلفات القيمة فى علم أصول الحديث.

وقد اختلف العلماء فى أى الكتابين (صحيح البخارى وصحيح مسلم) أرجح من الآخر ، فمن ذلك ما أشار إليه الحافظ ابن حجر من استناد ترجيح صحيح البخارى على أدلة [٣] :

---

(١) أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، ص ١٩٨ .

(٢) محمد أبو شهبة ، الكتب الصحاح الستة ، ص ١١٦ .

(٣) ابن حجر : هدى السارى مقدمة فتح البارى ، ص١ - ٧ .

١ - أن البخـارى يشتـرط فى المعنعن ثبوت اللقى بين الراويين لكى يحـكم باتصال السند ، أما مـسلم فإنه يكتفى بإمكـان اللقى مع انتفاء التـدليس ، ومن هنا كان شرط البخارى أشد من شرط مسلم ، فيكون أصح ·

٢ - أن البخارى يخـرج عن الثقات من الدرجة الأولى البالغـة فى الحفظ والإتقان، ويخرج عن طبقة تليها فى التثبت ، ومسلم يخرج عن هذه أكثر من البخارى·

٣ - أن ما طعن على البخـارى من الأحاديث والرواة الذين أخرج لهم أقل مما طعن على مسلم ، وهذه الطعون ، وإن أجاب عنها العلماء ، لكن السلامة من الطعن أولى ، فالبخارى أعلى صحة لكونه أبعد،وأقل تعرضا للنقد من مسلم ·

وأما وجهة نظر الذين فضلوا صحيح مـسلم ، فمن وجهة ما اعتنى به مسلم من منهج التأليف فى كتابه ، وما استتبعه من المزايا ، كما أوضح الحافظ ابن حجر[1]: · · · أن مسلمـا صنف كتابه فى بلده بحضـور أصوله ، فى حياة كـثير من مشـايخه ، فكان يتحرز فى الألفاظ ويتحرى فى السياق ، ولا يتصدى لما يتصدى له البخارى من استنباط الأحكام ليبوِّب عليـها ، ولزم من ذلك تقطيعه للحـديث فى أبوابه ·- قال نور الدين: وإخراجه إياه فى غير مظنته -، بل جمع مـسلم الطرق كلها فى مكان واحد ، واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات فلم يعرج عليها إلا فى بعض المواضع تبعا لا مقصودا · يعنى أن هذا جعل كتاب مسلم أيسر تناولا للوصول إلى الحديث فيه ، وأنفع للفقيه فى التعرف على اختلاف الرواة فى بعض ألفاظ الحديث[2] .

ومن المهم أن يتنبه القارئ إلى أن هذا التفضيل إنما هو على سبيل الإجمال ، ولا يعنى بأى حال من الأحوال أن كل حديث فى البخارى أصح من أى حديث فى مسلم·

٣ - سنن أبى داود السجستانى ، وهو مولود فى سجستان بخراسان ، سنة ٢٠٢ وتوفى سنة ٢٧٥هـ· وكـانت الكتب المصنفة قـبل سنن أبى داود يدون فيهـا أصحـابها الأحاديث فى شتـى الموضوعات من أحكام وآداب وفضائل ومـواعظ وقصص ، إلى أن جاء أبو داود فصنف كتـابه وسار فيه على طريق التخصص ، فحـدد جانبا من جوانب السنة المطهرة وهو الجانـب الفقهى ، فجمع فـيه السنن والأحكام وانتقاه من خمـسمائة

---

(١) المرجع السابق ،ص ١ - ٨ ·

(٢) نور الدين عتر ، منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢٥٧ ·

ألف حديث ، وبلغت أحاديثه أربعة آلاف وثمانمائة حديث كلها فى الأحكام، حتى جاء الكتاب حافلا بأبواب الفقه وبالأحاديث التى يحتاج إليها الفقهاء فى استدلالهم ، وسمى مصنفه (السنن) لأنه جمع أحاديثه من وجهة نظر فقهية فلم يضمنه غير أحاديث الفقه والتشريع مما ورد فى الأخلاق والكلام والزهد ونحو ذلك[1].

وإذا كانت عدة السنن ٤٨٠٠ حديث ، إلا أن بعضهم عدها ٥٢٧٤ حديثا وذلك راجع إلى أن بعض العادين قد يعتبر الحديث المكرر حديثا واحدا ، وقد يعتبره البعض حديثين أو أكثر ، والطريقتان معروفتان عند المحدثين . وقد قسم أبو داود كتابه إلى كتب ، والكتب إلى أبواب ، وعدة الكتب ٣٥ كتابا منها ثلاثة كتب لم يبوب فيها أبوابا، وعدة الأبواب ١٨٧١ بابا .

وقد وضعت عليه شروح متعددة ، نذكر منها[2] :

شرح الإمام أبى سليمان أحمد بن إبراهيم بن خطاب البستى الخطابى وسمى (معالم السنن)

شرح الشيخ شرف الحق الشهير بمحمد أشرف بن على حيدر الصديقى العظيم آبادى (عون المعبود على سنن أبى داود) .. وغيرهما .

٤ - **جامع الترمذى** : لمحمد بن عيسى الترمذى ولد سنة ٢٠٩ وتوفى سنة ٢٧٩هـ، وقد قال عن كتابه الجامع : صنفت هذا الكتاب (يعنى الجامع) فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان ورضوا به ، ومن كان فى بيته هذا الكتاب فكأنما فى بيته نبى يتكلم [3] .

ولم يلتزم الترمذى فى جامعه تخريج الصحيح وحده بل ذكر الصحيح والحسن ، والضعيف ، والغريب ، والمعلل ، وأبان عن علته . نعم قد التزم أن لا يخرج فى كتابه إلا حديثا عمل به فقيه أو احتج به محتج ، وهذا شرط واسع فإنه على هذا خرج كل حديث بهذه المثابة سواء صح الطريق إليه أو لم يصح ، لكنه تكلم على كل حديث بما يليق بحاله [4] وأغلب الأحاديث الضعاف والمناكير التى وقعت فى كتابه إنما هى فى باب الفضائل ، والفضائل يتسامح فيها ما يتسامح فى الحلال والحرام .

---

(١) أحمد عمر هاشم ، السنة النبوية وعلومها ، ص ٢٢٩ .

(٢) محمد أبو شهبة ، الكتب الصحاح الستة ، ص ١٤٢ .

(٣) بدران أبو العينين : الحديث النبوى الشريف ، ص ١٩٩ .

(٤) محمد أبو شهبة ، الكتب الصحاح الستة ، ص ١٥٣ .

٥ - **سنن النسائى** : وصاحبها هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب على ... النسائى ، نسبة إلى نُساء من خراسان ، ولد سنة ٢١٥ وتوفى سنة ٣٠٣ هـ. وإذا أطلق اسم (سنن النسائى) عنى به السنن الصغرى المسمى المجتبى ، وهو مختصر من كتابه السنن الكبرى ، قيل : إنه لما صنف السنن الكبرى أهداه إلى أمير الرملة ، فقال له : أكل ما فى هذا صحيح ؟ قال : لا قال : فجرد الصحيح منه ، فصنف له المجتبى [1].

قالوا : وكتاب المجتبى أقل السنن حديثا ضعيفا وأقلهم فى الرجال المجروحين ، ودرجته فى الحديث بعد الصحيحين ، فهو مقدم على سنن أبى داود ، وسنن الترمذى، لأن النسائى يمتاز عنهما بشدة التحرى فى الرجال ، حتى قال عنه الحافظ ابن حجر : كم من رجل أخرج له أبو داود والترمذى تجنبْ النسائى إخراج حديثه ، بل تجنب النسائى إخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين .

٦ - **سنن ابن ماجه** ، وصاحبها أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى ، ولد عام ٢٠٩ ، وتوفى عام ٢٧٣ هـ . وقد أخرج ابن ماجه فى سننه الحديث الصحيح والحسن والضعيف ، بما فى ذلك بعض المناكير والموضوعات القليلة لذلك ، فهو دون بقية الكتب الخمسة . ويبلغ عدد أحاديث ابن ماجه ٤٣٤١ حديثا ، منها ٣٠٠٢ حديث أخرجها أصحاب الكتب الخمسة كلهم أو بعضهم وبقيتها ، وهى ١٣٣٩ حديثا هى الزوائد على الكتب الخمسة ، ومن هذه الزوائد ٤٢٨ حديثا صحيحة الإسناد ، ومنها ٦١٣ حديثا ضعيفة الإسناد ، و٩٩ حديثا ما بين واهية الإسناد أو منكرة أو مكذوبة [2].

وأول من اعتبر سنن ابن ماجه سادس كتب السنة الحافظ أبو الفضل محمد ابن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧هـ ، فى كتابه (أطراف الكتب الستة) ورسالته (شروط الأئمة الستة)، ثم الحافظ عبد الغنى بن الواحد القدسى المتوفى سنة ٦٠٠هـ فى كتابه (الإكمال فى أسماء الرجال) وتابعهما كثير من المتأخرين [3] . وإنما قدم هؤلاء سنن ابن ماجه واعتبروها سادس الستة ولم يعتبروا موطأ الإمام مالك هو السادس - مع أنه أصح منها - لكثرة زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة، بخلاف الموطأ فإن أحاديثه - إلا القليل منها - موجودة فى الكتب الخمسة مندمجة فيها . ومن العلماء من جعل موطأ الإمام مالك أحد الأصول الستة ، ولم يضم إليها سنن ابن ماجه.

---

(١) موسى لاشين وزميله ، دراسات فى السيرة والسنة ، ص ٢٤٧ .

(٢) أكرم العمرى : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ، ص ٢٥٣ .

(٣) محمد أبو شهبة : الكتب الصحاح ، ص ١٧٥ .

وقد اهتم علماء الحديث بالمقارنة بين الكتب الستة والحرص على ترتيبها وفقا لمعايير وشروط اجتهد كل منها فى التفكير فيها ، ودون دخول فى تفاصيل ذلك فإن الراجح الترتيب التالى[1]:

١ - الجامع الصحيح للإمام البخارى .

٢ - المسند الصحيح للإمام مسلم .

٣ - سنن أبى داود .

٤ - سنن النسائى .

٥ - جامع الترمذى .

٦ - سنن ابن ماجه

نقول هذا مع ضرورة التنبيه إلى ما يأتى :

أ - أن الشروط التى اشترطها العلماء لهؤلاء الأئمة قد تبين من سبّر كتبهم واستقراء طرقهم فى تدوين الحديث وترتيبهم لمصنفاتهم أن كل ذلك اجتهاد منهم فى دراسة هذه الأعمال الجليلة والمؤلفات النفيسة التى اضطلع بها هؤلاء الأعلام، وأن هذا إنما يدل على تقدير اللاحقين لجهود المتقدمين ، ولا يعنى تأخير واحد منهم عن ركب هؤلاء الأئمة ، ولا إهمال مصنف من هذه المصنفات .

ب - أن ترجيح كل كتاب من هذه الكتب وتقديمه على ما بعده فى المرتبة ، إنما المراد به ترجيح الجملة ، لا ترجيح كل فرد من أحاديثه على كل فرد من أحاديث الآخر، فقد يسوغ ترجيح حديث فى مسلم على آخر فى البخارى . . . وهكذا .

وللإخوة الشيعة رأى فى هذه الكتب ، إذ هم لا يعتمدونها ، وبدلا منها لهم كتب أخرى يعدونها مصدرا لأحاديث الرسول ﷺ ، ولسنا فى موقف يتيح لنا مناقشة هذا الاختلاف ، فكتابنا هذا هو كتاب فى التربية بالدرجة الأولى ، وليس لنا من التخصص المتعمق فى العلوم الشرعية وعلوم الحديث بصفة خاصة ما يمكننا من ذلك ، والكتب التى أثبتناها مصدرا للحديث النبوى هى ما نعتمده ، لكن هذا لا يمنع من أن نثبت هنا أهم المصادر الشيعية للحديث النبوى ، حتى ولو كان ذلك على خلاف ما نعتقد ؛ لإيماننا بوجوب الوقوف على الآراء والاجتهادات المختلفة ، بغض النظر عن موافقتنا عليها أو لا :

---

(١) أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، ص ٢٨٤ .

١ - الكافى : صنفه أبو جعفر محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى عام ٣٢٨هـ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأصول ، والفروع ، والروضة ، وهو من أجل الكتب عندهم ويشتمل على ١٦٠٩٩ حديثا ، قسمها البعض إلى [١]:

الحديث الحسن	٥٠٧٢
الموثق	٣٠٢
الحسن	١١١٨
الضعيف	٩٤٨٥

وإن كان مجموع هذه الأعداد يختلف عن المجموع الكلى لأحاديث الكتاب .

٢ - من لا يحضره الفقيه : وهو من تصنيف الشيخ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين القمى المتوفى عام ٣٨١ هـ ، الملقب بالشيخ الصدوق ، وقد صاغ اسم كتابه على منوال كتاب الطبيب المعروف الرازى المسمى (من لا يحضره الطبيب) . وقد جزاه مؤلفه أربعة أجزاء ، وبوبه ٦٦٦ بابا ، وضمنه ٥٩٩٨ حديثا [٢].

٣ - تهذيب الأحكام: لأبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى ، المتوفى عام ٤٦٠هـ ، ذكر الفضلى أن أبوابه ٣٩٣ بابا ، وعدد أحاديثه ١٣٥٩٠ حديثا [٣] ، بينما ذكر عجلان أن عدد أبوابه ٩٣ ، ومجموع أحاديثه ١٢٥٩٠ حديثا [٤].

٤ - الاستبصار فيما اختلف من الأخبار : لأبى جعفر الطوسى أيضا ، ويقع فى ثلاثة أجزاء ، جزءان منه فى العبادات ، والثالث فى بقية أبواب الفقه من العقود والإيقاعات والأحكام إلى الحدود والديات ، وعدد أحاديثه ٥٥١١ حديثا [٥] .

---

(١) عجلان : دراسات فى الحديث الشريف ، ص ٩٠ .

(٢) عبد الهادى الفضلى ، أصول الحديث ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) عجلان : دراسات فى الحديث الشريف ، ص ٩٢ .

(٥) عبد الهادى الفضلى : أصول الحديث ، ص ٥٦ .

نشأة علم الحديث :

ولو أن أحاديث رسول الله ﷺ كانت قد كتبت كلها عندما كان ينطق بها ، وحفظ ما كتب على وجه الدهر منها ، لتلقاها الناس كما تلقوا كتاب الله بغير بحث فى صحتها ، ولا تنقيب عن حقيقتها ، ولكن عدم تدوينها فى عهد صاحب الرسالة وأصحابه ، أو تأخر ذلك ، وإتيانها من ناحية الرواية قد ألزم العلماء أن يبحثوا فى أمرها لكى يعرفوا الصحيح والموضوع منها وغير ذلك من موضوعات هذا العلم .

ويطلق اسم (علم الحديث) ويراد منه معنيان [1]:

الأول : العلم بالقوانين التى يعرف بها حال الراوى للحديث ، وحال الحديث نفسه : من جهة صلاحية الراوين للرواية ، وعدم صلاحيتهم ، وعلو سلسلة الراوين ونزولها ، وصحة الحديث أو ضعفه أو حسنه ، وكونه مرفوعا أو موقوفا أو مقطوعا ، وكونه مقبولا أو غير مقبول ، وما أشبه ذلك مما يتعلق بأنواع الرواية وأحوال الرواية والحديث ، وهذا النوع يقال له : علم مصطلح الأثر ، أو علم دراية الحديث ، أو علم مصطلح الحديث .

الثانى : العلم بما نقل عن الرسول ﷺ قولا أو فعلا أو تقريرا ، وبضبطه وتحريره، وقد علمنا أن أضبط ما نقل من ذلك صحيحا البخارى ومسلم ، وهذا يسمى علم رواية الحديث ..

وقد جرت عادة علماء الحديث بأنهم إذا أطلقوا كلمة علم الحديث فإنهم يريدون علم الحديث دراية ؛ ولذا سمى بعضهم كتابه الذى ألفه فى مصطلح الحديث : علوم الحديث، كما فعل ابن الصلاح ، وهو المشهور باسم مقدمة ابن الصلاح .

وإذا كان علم الحديث علما يبحث فى سند الحديث ، ومتنه ، من حيث القبول والرد ، يكون المراد بسند الحديث : الرواة الذين رووا الحديث ، وهو فى عرف أهل الحديث : طريق متن الحديث . وسمى سندا لاعتماد الحفاظ عليه فى صحة الحديث ووضعه . وقد يقال للطريق: الوجه ، فيقال : هذا الحديث لا يعرف إلا من هذا الوجه. ويكون المراد بمتن الحديث : النص المروى[2]، وقد استعمل فى العرف بما ينتهى

---

(١) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث ، ص ٢٣٣ .

(٢) يوسف القرضاوى وآخرون، : مصطلح الحديث ، ص ٢٥ .

إليه السند ، مثال ذلك قول يحيى : أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «لا يبع بعضكم على بيع بعض»، فسند الحديث هم الرواة ، ومتنه : ولا يبع بعضكم .

مثال آخر ، ما رواه مسلم فى صحيحه ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سهيل ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول: لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ».

فالذين نقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ وهم : أبو هريرة ، ثم أبو صالح ، ثم عبد الله بن دينار ، ثم سهيل ، ثم جرير ، ثم زهير بن حرب ، الذى روى عنه الإمام مسلم ، هؤلاء يسمون سند الحديث ، أى : الرجال الذين استند إليهم الإمام مسلم فى رواية النص .

ثم إن من أول قول النبى ﷺ : الإيمان بضع .. إلخ ، يسمى : متن الحديث ، أى نص كلام النبى ﷺ.

وقال ابن خلدون فى فصل (علوم الحديث) من مقدمته[1]:

«ومن علوم الحديث ، النظر فى الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط ؛ لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله ﷺ ، فيجتهد فى الطريقة التى تحصل ذلك الظن ، وهو معرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط ... إلخ» .

وقال النووى فى شرح خطبة مسلم : إن المراد من علم الحديث ، تحقيق معانى المتون وتحقيق علم الإسناد والمعلل . والمعلل عبارة عن معنى فى الحديث خفى يقتضى ضعف الحديث مع أن ظاهره السلامة منها ، وتكون العلة تارة فى المتن ، وتارة فى الإسناد ، وليس المراد من هذا العلم مجرد السماع ولا الإسماع ولا الكتابة ، بل الاعتناء بتحقيقه والبحث عن خَفِىّ معانى المتون والأسانيد والفكر فى ذلك ودوام الاعتناء به ومراجعة أهل المعرفة ومطالَعة كتب أهل التحقيق فيه »[2] .

أما بالنسبة لبدء ظهور هذا العلم ، فقد قال الحافظ ابن حجر : «أول من صنف فى الاصطلاحات ، القاضى أبو محمد الرامهرازى (المتوفى سنة ٣٦٠هـ من بلاد فارس) ، فعمل كتاب (المحدث الفاصل بين الراوى والواعى) ولكنه لم يستوعب ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ، طبعة الشعب ، ص ٤١٧ .

(٢) محمود أبو رية : أضواء على السنة المحمدية ، ٢٤٧ .

وهو أكبر كتاب وضع فى علوم الحديث حتى ذلك العصر ، استوفى فيه مؤلفه البحث فى آداب الراوى والمحدث وطرق التحمل والأداء واجتهاد المحدثين فى حمل الحديث ، وما يتعلق بهذا الفن من الأمور ، فهو فى الحقيقة من كتب علوم الحديث بمعناه الإضافى لا باعتبار كونه اسما ولقبا للعلم الخاص المعروف . وهناك أيضا جهد الحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥هـ ، ولكنه لم يرتب ، وتلاه أبونعيم الأصفهانى (٤٣٠هـ) فعمل على كتابه مستخرجا وأبقى أشياء لمن تتبع هذا البحث، ثم جاء بعدهم الخطيب البغدادى (٤٦٣هـ) فصنف فى قوانين الرواية كتابا أسماه (الكفاية)، وفى آدابها كتابا أسماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) ، وقد أفرد لكل من فنون الحديث مصنفا خاصا ، ثم جاء بعده القاضى عياض (٥٤٤هـ) فألف كتابه (الإلماع) مستمدا بحوثه من كتب الخطيب»[1].

وكان طابع الجمع فى هذه التآليف بارزا ظاهرا ، فقد عمد المصنفون إلى نقل أقوال أئمة الفن فى كل مسألة بأسانيدهم ، ووضعوا لكل مجموعة منها عنوانا يدل على مضمونها معتمدين على القارئ فى فهمها وإدراك مراميها ، سوى شيء يسير من الإيضاح أو المناقشة ، إلا أن الحاكم قصد ضبط القواعد ، لكن فاته كما ذكر العلماء : أمران ، استيعاب أنواع الحديث ، وتهذيب العبارات وضبطها حتى يتضح المراد من التعريف [2] .

إلى أن جاء الحافظ الإمام تقى الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح (٦٤٣هـ) فجمع كتابه المشهور فهذب فنونه ، وأملاه على تلاميذه بالمدرسة الأشرفية فى دمشق ، من غير ترتيب محكم ، إلا أنه كتاب شامل لكل ما تفرق فى غيره من كتب المتقدمين ، وبالتالى فقد تميز [3] :

بالاستنباط الدقيق لمذاهب العلماء وقواعدهم من أقوالهم المأثورة عنهم .

أنه ضبط التعاريف التى سبق بها وحررها ، وأوضح تعاريف لم يصرح بها من قبله .

أنه عقب على أقوال العلماء بتحقيقاته واجتهاداته .

ولهذا عكف الناس عليه ، وساروا بسيره ، فمنهم المختصر له ، كالنووى فى تقريبه ، والناظم له كالعراقى (٨٠٦هـ) .

---

(١) مصطفى السباعى : السنة ومكانتها ، ص ١٠٩ .

(٢) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

ومن المتون الجامعة من كتب هذا العلم (نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر) للإمام ابن حجر العسقلانى ، وقد شرحها بكتابه (نزهة النظر فى توضيح نخبة الفكر)، وهو شرح وجيز جليل ، وعليه حاشية للشيخ أبى الإمداد إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقانى المالكى المتوفى سنة ١٠٤١هـ ، سماها (قضاء الوطر من نزهة النظر) وعليها شروح عديدة ، منها (نتيجة النظر فى شرح نخبة الفكر) لولده كمال الدين محمد بن أحمد بن حجر العسقلانى ، ونظم النخبة جماعة منهم كمال الدين الشمنى ، ثم شرح هذا النظم ولده تقى الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشمنى القسطنطينى الإسكندرى المولد القاهرى المنشأ وسماه (العالى الرتبة فى شرح نظم النخبة)[١].

لكن الملاحظ فى هذه الجهود المتأخرة أنها إنما تعبر عن عصر الركود والجمود ، والذى امتد من القرن العاشر إلى مطلع القرن الرابع عشر ، ففى هذا الدور توقف الاجتهاد فى مسائل العلوم والابتكار فى التصنيف ، وكثرت المختصرات فى علوم الحديث شعرا ونثرا ، وشغل الكاتبون بمناقشات لفظية لعبارات المؤلفين دون الدخول فى عمق الموضوع تحقيقا أو اجتهادا .

هذا، ولقد قام هذا العلم لتحقيق أغراض غاية فى الأهمية والخطورة ، نذكر منها[٢] :

١ - أنه تم بذلك حفظ الدين الإسلامى من التحريف والتبديل ، فقد نقلت الأمة الحديث النبوى بالأسانيد ، وميزت به الصحيح عن السقيم ، ولولا هذا العلم لالتبس الحديث الصحيح بالضعيف والموضوع ولاختلط كلام الرسول ﷺ بكلام غيره .

٢ - أن قواعد هذا العلم تجنب العالم خطر الوعيد العظيم الذى يقع على من يتساهل فى رواية الحديث؛ وذلك لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح المستفيض عنه : «من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب ، فهو أحد الكاذبين»[٣] ، وقوله ﷺ فى الحديث المتواتر : «من كذب على فليتبوأ مقعده من النار ».

---

(١) الفارسى ، أبو الفيض محمد : جواهر الأصول فى علم حديث الرسول ، تحقيق صلاح محمد محمد عويضة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ص ٩٢ .

(٢) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٣٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه .

٣ - أن هذا العلم قد أجدى فائدة عظيمة فى تنقية الأذهان من الخرافات ، وذلك أن الإسرائيليين وغيرهم - كما سبق أن بينا - قد حاولوا نشر ما لديهم من الأقاصيص والخرافات الكاذبة والأباطيل ، وهذه الأمور داء وبيل يفت فى عضد الشعوب ويمزق الأمم .

وقد نهج على نهج علماء الحديث ، علماء السلف فى الميادين العلمية الأخرى ، كالتاريخ والفقه والتفسير واللغة والأدب وغيرها ، فكانت المؤلفات العلمية فى العصور الأولى مسندة بالسند المتصل إلى قائلها فى كل مسألة وفى كل بحث ، حتى أن كتب العلماء ذاتها تناقلها تلاميذهم منهم بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، فنحن لا نشك فى أن صحيح البخارى مثلا المتداول الآن بين المسلمين ألفه الإمام البخارى لأنه روى عنه بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، وهذه ميزة لا توجد فى مؤلفات العلماء من الأمم الأخرى[١] .

وقد ألف أحد علماء التاريخ فى العصر الحاضر كتابا فى أصول الرواية التاريخية اعتمد فيه على قواعد مصطلح الحديث ، واعترف بأنها أصح طريقة علمية حديثة لتصحيح الأخبار والروايات ، فقد قال فى الباب السادس (العدالة والضبط) ، بعد أن ذكر وجوب التحقق من عدالة الراوى ، والأمانة فى خبره : «ومما يذكر مع فريد الإعجاب والتقدير ما توصل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين فى هذا الباب ، وإليك بعض ما جاء فى مصنفاتهم نورده بحروفه وحذافيره ، تنويها بتدقيقهم العلمى ، واعترافا بفضلهم على التاريخ ..» ، ثم أخذ فى نقل نصوص عن الإمام مالك ، والإمام مسلم صاحب الصحيح ، والغزالى ، والقاضى عياض ، وأبى عمرو بن الصلاح [٢] .

وقد لفت هذا أيضا نظر باحث محقق فاضل هو د. محمد رجب البيومى [٣]، فعرض نقلا مطولا من كتاب أسد رستم كان أبرز ما فيه قول أسد :

«أول من نظم نقد الروايات التاريخية ، ووضع القواعد لذلك ، هم علماء الدين الإسلامى ، فإنهم اضطروا اضطرارا إلى الاعتناء بأقوال النبى وأفعاله ، وتوزيع العدل

---

(١) مصطفى السباعى : السنة ومكانتها ، ص ١٠٧ .

(٢) أسد رستم : مصطلح التاريخ ، صيدا ، المكتبة العصرية ، الطبعة الثانية ، ص ٦٧ -٨٣

(٣) محمد رجب البيومى : مصطلح التاريخ النبوى ، منهج يحتذيه المؤرخون ، مجلة الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، يونية ٢٠٠١ ، ص ٦٧ .

فقالوا إن هو إلا وحى يوحى ، ما تلى منه فهو القرآن ، وما لم يتل فهو السنة ، فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها ، فألحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال فى أسسها وجوهرها محترمة فى الأوساط العلمية حتى يومنا هذا» ..

وبعد أن سرد اهتمامه بالتاريخ ودرس قواعده فى جامعات الغرب وتدريسها فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، قال : «لقد اضطررت أن أرجع إلى مصطلح الحديث لسببين، أولهما : الاستعانة باصطلاحات المحدثين ، وثانيهما : ربط ما أضعه لأول مرة بما سبق تأليفه فى عصور الأئمة المحدثين ... ومن أهم ما وجدت نسخة من رسالة القاضى عياض فى علم المصطلح (طبعت هذه الرسالة فيما بعد) فاستنسختها وبدأت فى درسها وتفهم معانيها ، فإذا هى من أنفس ما صنف فى موضوعها ، وقد سما بها القاضى عياض إلى أعلى درجات العلم فى عصره . والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها فى بعض نواحيها ، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها ، فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج تحت عنوان(تحرى الرواية والمجىء باللفظ) يضاهى ما ورد فى الموضوع نفسه فى كتب الفرنجة فى أوربا وامريكا ، ولو أن مؤرخى أوربا فى العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا فى تأسيس علم الميثودولوجية حتى أواخر القرن الماضى ، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا فى الغرب فنؤكد لهم بأن ما يفخرون به من هذا القبيل ، نشأ وترعرع فى بلادنا ونحن أحق الناس بتعليمه ، والعمل باسمه وقواعده . ولعلى أول من حاول أن يربط ما توصل إليه علماء الحديث بما وضعه علماء الغرب فى هذا الحل من العمل » .

ويقع فى هذا الباب أيضا ما هو معروف باسم (مختلف الحديث) ، وكذلك (مشكل الحديث) ، فبالنسبة للأول نجد أن مختلف الحديث ، علم يتناول الحديثين اللذين يبدو فى ظاهرهما الاختلاف والتعارض والتضاد ، فإذا بحثهما العلماء أزالوا تعارضهما من حيث إمكان الجمع بينهما ، وذلك ببيان العام والخاص ، أو المطلق والمقيد أو ما شابه ذلك ، أو ببيان الناسخ والمنسوخ ، أو بترجيح أحدهما [1].

---

(١) نافذ حسين حماد : مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، المنصورة ، دار الوفاء ، ١٩٩٣ ، ص ١٤ .

وإلى قريب من هذا يرى صبحى الصالح : وهو علم يبحث عن الأحاديث التى ظاهرها التناقض من حيث إمكان الجمع بينها ، إما بتقييد مطلقها أو بتخصيص عامها ، أو بحملها على تعدد الحادثة ، أو غير ذلك ، ويطلق عليه علم تلفيق [1] الحديث [2].

وبالنسبة لمشكل الحديث ، فهو الآثار المروية عن رسول الله ﷺ بالأسانيد المقبولة التى نقلها ذوو التثبت فيها والأمانة عليها ، وحسن الأداء لها ، ويوجد فيها أشياء سقطت معرفتها ، والعلم بما فيها عن أكثر الناس[3] .

وقد جعل بعض العلماء اختلاف الحديث ومشكله نوعا واحدا ، قال محمد بن جعفر الكتانى فى معرض حديثه عن الكتب المؤلفة فى هذا الفن : « ومنها كتب فى اختلاف الحديث ، أو تقول فى تأويل مختلف الحديث ، أو تقول فى مشكل الحديث ، أو تقول فى مناقضة الأحاديث» [4] .

لكن من الممكن هنا أن يشير القارئ تساؤلا : كيف يتأتى وجود مختلف فى الأحاديث ، بينما نحن نعلم أن السنة هى إما وحى من الله ليحكم به الرسول ﷺ، أو اجتهاد من رسول الله يقره الله عليه ، وبالتالى فمن المفروض أن تكون خالية فى الحقيقة والواقع من كل تعارض وتناقض ، وإلا يخالف بعضها بعضا ، لاستلزامها العجز والجهل المحالين على الله- سبحانه وتعالى- ، كذلك فإن الله- سبحانه- لا يقر رسوله ﷺ على خطأ أو اجتهاد متناقض؟

---

(١) المعنى المقصود هنا هو نفسه المعنى اللغوى ، والذى يختلف كثيرا عن المشهور بين كثيرين عن هذه الكلمة ، حيث تعنى عند هؤلاء معنى ضم أشياء بعضها مع بعض بغير اتساق وتكامل ، كما يعنون بها فى هذا السياق نفسه إحداث أمر بغير وجه حق فنقول أن فلانا لفقت له تهمة مثلا، بينما المعنى اللغوى يبين لنا من أن لفق الثوب يعنى ضم إحدى الشقتين إلى الأخرى وخياطتهما ، انظر المعجم الوسيط .

(٢) صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ، ص١١١ .

(٣) ابن فورك ، الحافظ أبو بكر : مشكل الحديث وبيانه ، تحقيق موسى محمد على ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٩ ، مقدمة المحقق .

(٤) نافذ حسين حماد : مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين ، ص ١٦ .

الحق أن الاختلاف فى الحديث ، والتعارض بين الدليلين ليس حقيقيا ، وإنما هو اختلاف وتعارض ظاهرى ، يرجع لاختلاف بعض الناظرين فى الأدلة ، واختلافهم فى تطبيق النصوص على الوقائع ، بسبب عجزهم وعدم معرفتهم المراد من قبل الشارع الحكيم [1].

كذلك كان من أبرز الجهود العلمية لعلماء الحديث ، ما عرف بعلم (الجرح والتعديل) ، وهو علم يتعلق ببيان مرتبة الرواة من حيث تضعيفهم أو توثيقهم بتعبيرات فنية متعارف عليها عند العلماء ، وهى دقيقة الصياغة ومحددة الدلالة مما له أهمية فى نقد إسناد الحديث [2]، وقد استجاز العلماء ذكر عيوب رواة الحديث عند جرحهم لهم، ولم يعتبروا ذلك من الغيبة المحرمة واستدلوا على ذلك بقول النبى ﷺ فى رجل: «بئس أخو العشيرة» [3] ، وفى كلامه ﷺ فى معاوية بن أبى سفيان وأبى جهم حين سألته فاطمة بنت قيس عنهما وقد خطباها فقال : أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له . ورغم أن كلام النبى ﷺ هنا ليس إلا محض مشورة فى قضية شخصية فقد اتخذ دليلا على إجازة القدح فى الضعفاء لبيان حالهم لأن إظهار القدح فى أمر يتصل بالحرام والحلال وهو الحديث أولى من بيان القدح فى مشورة خاصة[4].

ولم يكن الأئمة الذين عنوا بهذا الفن على استواء واحد في مقاييس النقد الذى يوجهونه للرواة ، بل كان منهم المتشدد ومنهم المتساهل ، ومنهم المتوسط المعتدل ، فمن المتشددين : ابن معين ، ويحيى بن سعيد القطان ، وابن حبان ، وأبو حاتم الرازى ، ومن المتساهلين : الترمذى ، والحاكم ، وابن مهدى . ومن المعتدلين : أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وبذلك تباينت الآراء فى بعض الرواة ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه ، وما ذلك إلا لاختلاف الأنظار والمقاييس التى وضعها كل إمام فى نقده ، بل قد ينقل عن العالم الواحد رأيان مختلفان فى راو واحد ، فقد يراه اليوم ثقة، ثم يرى منه بعد ذلك ما يضطره للعدول عن حكمه ، وقد يكون الأمر عكس

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) أكرم العمرى : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ، ص ٨٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب فى ما يكون من الظن ٨/ ٢٤ .

(٤) أكرم العمرى : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ، ص ٨٤ .

ذلك، ولا شك أن السبب الرئيسى للاختلاف فى الجرح والتعديل اختلاف منازع الفقهاء فى الاجتهاد ، فالنزاع بين أهل الحديث وأهل الرأى مشهور معروف[1].

أنواع السنة:

تنقسم السنة من حيث صدورها عن النبى ﷺ إلى ثلاثة أنواع : سنة قولية ، وسنة فعلية ، وسنة تقريرية ، مما سبق أن أشرنا إليه من قبل .

ونضيف إلى ما سبق أن أفعال الرسول ﷺ على ثلاثة أنواع[2] :

١ - جِبلِّى : كالأكل والشرب والنوم واللبس وما شاكلها .

٢ - قُرَبَ ، كالصلاة والصوم والصدقة وما ماثلها .

٣ - معاملات ، كالبيع والزواج والمزارعة والمعاملة وغيرها .

فأما الأفعال الجبلية ، فإن فعله لا يقتضى أكثر من إباحتها اتفاقا ، وأما غيرها فإن ثبت خصوصيته بها بدليل ، كانت خاصة به ، وليست أمته فيها مثله ، كزواج أكثر من أربع ، وجواز النكاح بغير مهر ، ومواصلة الصوم ، وإن لم تكن مختصة به ، فإن تبين أنها بيان لمجمل من الكتاب ، أو تقييد لمطلق ، أو تخصيص لعام ، التحقت بيانا به ، وكان حكمها حكم ما تبين ، ويعرف كونها بيانا بدليل قولى ، كقوله فى الصلاة: صلوا كما رأيتمونى أصلى ، وفى الحج : خذوا عنى مناسككم ، أو بقرينة حال كصدوره عند الحاجة إلى بيان لفظ مجمل الفعل صالح لبيانه ، كالتيمم إلى المرفقين ، وكالقطع عند الكوع فى السرقة ، فهو بيان لأيتهما عند من يثبت إجمالهما ، فإن لم يظهر كونه خاصا أو مبينا، فإن عرفت صفته من وجوب [3]، أو ندب[4] ، أو إباحة[5]،

---

(١) مصطفى السباعى : السنة ومكانتها ، ص ١١٢ .

(٢) محمد الخضرى : أصول الفقه ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦٢ .

(٣) الواجب ، هو ما إذا فعله الإنسان أثيب ، وإذا ما تركه عوقب ، ومثاله فى مجال التعليم نجد أن الطالب يكلف فى كل مادة بموضوعات محددة ، إذا لم يذاكرها رسب ، وإذا ذاكرها نجح .

(٤) المندوب ، هو ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، ومن ثم كان الأفضل القيام به ، ومثال ذلك فى المجال التربوى ، لو قرأ طالب فى المدرسة الثانوية كتبا أخرى تتصل بالموضوعات المقررة فى مادة دراسية ما ، فإن مثل هذا الفعل ينبغى أن يثاب عليه ، لكنه إذا لم يفعل ذلك فى هذه المرحلة الدراسية فلا ينبغى أن يعاقب ، ونحن بالطبع نستحسن أن يقوم بهذه القراءة .

(٥) المباح ، هو ما يتساوى فيه الفعل والترك .

فإن أمته فى ذلك مثله ، ودليل ذلك أن الصحابة كانوا يرجعون إلى فعله احتجاجا واقتداء ، كما قبل عمر بن الخطاب الحجر الأسود ، وقال : «لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» ، وقول الله- عز وجل- : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] والتأسى هو أن نفعل مثل ما يفعل على الوجه الذى فعله لأجل الاقتداء به.

فإن جهلت الصفة ، وكان الفعل من جنس القرب ، كصلاة ركعتين لم يواظب عليهما ، دل ذلك على الندب ، وإن لم يكن من جنسها ، دل ذلك على الإباحة ، وفى هذه المسألة خلاف طويل .

وللحديث تقسيم معروف ، باعتبار عدد الرجال الذين رووه ، وبيان ذلك :

أن الحديث ، إما أن يرويه واحد عن واحد فى جميع الطبقات ، أو فى طبقة، أو أكثر منه ، ويسمى : «الغريب» .

وإما أن يرويه اثنان عن اثنين فى جميع الطبقات ، أو فى طبقة منه ، أو أكثر، ويسمى «العزيز».

وإما أن يرويه ثلاثة عن ثلاثة فى جميع الطبقات ، أو فى طبقة منه ، أو أكثر، بشرط ألا يقل فى طبقة من طبقاته عن ثلاثة ، ويسمى « المشهور » .

وإما أن يروى الحديث فى جميع الطبقات ، جمع كثير يستحيل اتفاقهم على الكذب ، ويسمى ذلك الحديث : «المتواتر».

وكل من الغريب ، والعزيز ، والمشهور ، يسمى : « الآحاد » .

إذن ، باعتبار عدد رواته ، ينقسم إلى قسمين : متواتر ، وآحاد . والآحاد ينقسم إلى ثلاثة أقسام : غريب ، وعزيز ، ومشهور . وهذا شيء من التفصيل :

أولا – المتواتر : فعندما نقول حديث متواتر يكون معنى ذلك أن هذا الحديث قد رواه عدد من الصحابة ورواه عنهم على الصفة التى ذكرنا جمع من التابعين ، كما رواه عن التابعين ، عدد من تابعى التابعين . . . وهكذا ، إلى نهاية السند ، والخبر الذى رووه مما يدرك بالحس ، ومستند الرواة المخبرين هو الإحساس به على وجه اليقين ، وكل جماعة من هؤلاء بلغت من الكثرة مبلغا يؤمن معه اتفاقها على الكذب عادة .

وهل يشترط للتواتر عدد معين ؟ لقد ذهب العلماء فى ذلك مذاهب ، ولكن الجمهور على عدم اشتراط عدد معين ، والضابط : توافر عدد يحصل معه اليقين بصدق المنقول عن رسول الله ﷺ . وقد جرت العادة بحصول العلم عند توافر الكثرة دون بحث عن العدد ، والعقل يحكم بذلك . على أن العلماء ذكروا أن العدد يتفاوت قلة وكثرة حسبما يتوافر للطبقة الناقلة للخبر من الثقة والعدالة والضبط وما إلى ذلك ، وعلى أية حال ، فالجمع المطلوب للتواتر ينحصر طلبه فى العصور الثلاثة الأولى [(١)]: عصور الصحابة والتابعين ، وتابعى التابعين ، أما فى العصور التالية ، فلا يطلب هذا الجمع ؛ لأن السنة بعد التدوين ، أصبح من السهل تواترها وانتشارها لتوافر الدواعى لذلك .

والمتواتر نوعان : متواتر لفظا ، ومتواتر معنى [(٢)]

فالمتواتر اللفظى ، هو ما يبدو من معناه أن يتفق رواته على كل لفظ من ألفاظه عند روايته ، بحيث لا يحصل منهم اختلاف بتغيير لفظ بمرادفه ، ولا تقديم بعض الألفاظ على بعض . ولكن هذا جد عسير ، ولذلك توسع العلماء فى المتواتر اللفظى بما يجعله شاملا لما اتفقت فيه الروايات على كل معانيه وإن اختلفت بعض ألفاظه فعرفوه بأنه ما اتفقت ألفاظ الرواة فيه على المعنى المقصود منه تماما مع صراحتها فيه كأن يقولوا فتح فلان مدينة كذا أو فتح فلان بلدة كذا ، مما يحدد المعنى المقصود تمام التحديد، ولو تتبعنا الأحاديث التى قالوا إنها متواترة - وهم إذا قالوا ذلك يريدون المتواتر اللفظى - لوجدناها تختلف فى ألفاظها ، كحديث : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار »، ولكنها كلها تتفق فى المعنى المقصود [(٣)] .

والمتواتر المعنوى ، ما تختلف ألفاظ الرواة فيه ، ولكنها تشتمل كلها على قدر مشترك يكون هو المتواتر ، ولا يلزم أن يكون أصحاب كل رواية على حدتها قد بلغوا حد التواتر ، بل يصح أن يكون رواة كل رواية آحادا . ومتى بلغ مجموع رواة الروايات كلها حد التواتر يصبح الأمر الذى اتفقوا عليه متواترا معنويا ، ومن أمثال ذلك :

---

(١) محمد أديب صالح : لمحات فى أصول الحديث ، دمشق ، المكتب الإسلامى ، ١٣٩٣هـ ، ص٨٨-٨٩ .

(٢) بدران أبو العينين : أصول الفقه ، ص ٧٣ .

(٣) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث ، ص ٢٣٨ .

«الأعمال بالنيات» ، فقد استفيد هذا المعنى من عدة أحاديث ، منها ما روى البخارى عن عمر- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الأعمال بالنيات» الحديث ، وما روى مسلم عن عائشة وأم سلمة عن رسول الله ﷺ «يبعثون على نياتهم» ، وما روى عن ابن عباس عن النبى ﷺ « لكل جهاد ونية» ، وما روى « رب قتيل بين صفين الله أعلم بنيته» . . إلى غير ذلك من أحاديث مختلفة الطرق غير متفقة فى اللفظ ، إلا أنها كلها تشترك فى الدلالة على قضية واحدة هى أن المرء إنما يؤاخذ بنيته فيما يعمل .

ومن التواتر المعنوى : السنن العملية التى نقلت إلينا منذ عصر الرسالة إلى اليوم، واتفقت عليها الأمة جيلا بعد جيل ، كعدد الصلوات ، وعدد ركعاتها ، وكيفياتها ، وإقامتها ، وهيئاتها ، ومناسك الحج ، وما يتعلق به كل ذلك ، روته الأجيال عن الأجيال ، مما يقطع بتواتره واستحالة الكذب فيه .

وقد اختلف العلماء فى نفى وقوع المتواتر اللفظى ، أو ندرته ، أو كثرته ، ويرجع ذلك الخلاف إلى أمرين [1]:

الأول : تحديد المتواتر اللفظى ، فلعل الذى قال بعدم وقوعه يرى أن المتواتر اللفظى يجب فيه الاتفاق فى الألفاظ ، ثم نظر فى الأحاديث التى قيل إنها متواترة فلم يجدها متفقة الألفاظ والترتيب فحكم بعدم وقوعه . ومن قال إنه يكون إذا روى الحديث بعبارات مختلفة ولكنه يشتمل على قضايا متحدة ويدل عليها صراحة ، ثم نظر فى تلك الأحاديث فوجدها كذلك ، فإنه يرى أن ذلك واقع ، ثم يختلف هذا الفريق فى الندرة والكثرة بحسب اطلاعه .

الثانى : أنه من المعروف عندهم أن الإسناد ليس من شأن المتواتر ، إذ استفاضة المتواتر ، وروايته حسب الشروط التى ذكرت فيه تجعل إسناده غير منظور إليه ، فإذا وجدوا حديثا قد روى عن المحدثين مسندا ربما فهم بعضهم من ذلك أنه ليس متواترا ، إذ الإسناد ليس من شأنه .

والمؤلفات فى الحديث المتواتر اللفظى والمعنوى كثيرة ، لعل أجمعها كتاب السيوطى الذى قال فيه [2]: «قد ألفت فى هذا النوع كتابا لم أسبق إلى مثله سميته :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

(٢) السيوطى ، جلال الدين : تدريب الراوى ، شرح تقريب النواوى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، ١٩٥٩ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة) ، مرتبا على الأبواب أوردت فيه كل حديث بأسانيد من خرجه وطرقه ، ثم لخصته فى جزء لطيف سميته (قطف الأزهار) اقتصرت فيه على عزو كل طريق لمن أخرجها من الأئمة ، وأوردت فيه أحاديث كثيرة ، منها : حديث الحوض من رواية نيف وخمسين صحابيا ، وحديث المسح على الخفين ، من رواية سبعين صحابيا ، وحديث رفع اليدين فى الصلاة ، من رواية نحو خمسين ، وحديث : «نضر الله امرءا سمع مقالتى» من رواية نحو ثلاثين ... فى أحاديث جمة أودعناها كتابنا المذكور .

وقد قال جمهور العلماء أن السنة المتواترة توجب العلم اليقينى الضرورى ، كالعلم الناشئ من العيان ، وقد احتجوا بأن الناس قد تواضعوا على ذلك بمقتضى فطرهم ، فإن الناس يعرفون آباءهم بالأخبار المتواترة ، كما يعرفون أبناءهم بالعيان ، ويعرفون بالتواتر نشأتهم صغارا ، ثم صيرورتهم كبارا ، كما يرون ذلك عيانا فى أولادهم . وقد أثبت التحقيق المنطقى صحة ما تواضع الناس على صدقه منذ القدم ؛ وذلك؛ لأن الناس خلقوا على مشارب متباينة وطبائع مختلفة لا يتفقون ، فإن اتفقوا فى خبر فإما عن سماع أو اختراع ، واتفاقهم على الاختراع باطل لأن كثرتهم وعدم إحصائهم يجعل اتفاقهم على ما يخترعون مستحيلا ، فلم يبق إلا أن الاتفاق كان مبنيا على السماع [1].

ثانيا -أحادية ، وهى التى لا تتوافر فيها خصائص المتواتر من حيث كثرة رواته كثرة لا يتصور عندها تواطؤهم على الكذب ، وهو مع هذا ليس على وتيرة من حيث رواته ، ولهذا قسموه إلى : مشهور ، وعزيز ، وغريب :

١ - **مشهور** : وهو ما رواه عن النبى ﷺ واحد أو عدد قليل لا يصل إلى حد التواتر ، ثم استفاض بعد ذلك فى عصر التابعين وأتباع التابعين ، بحيث رواه منهم جمع من جموع التواتر ، ومثله حديث : «إنما الأعمال بالنيات »، فإن الذى رواه عن الرسول عمر بن الخطاب ، لكنه استفاض فى عصر التابعين حتى لقد رواه منهم الجم الغفير ، كذلك كان شأنه فى عصر أتباع التابعين . ومن هنا يتبين أن الفرق بين الحديث المشهور والحديث المتواتر أن المتواتر الذى رواه جمع من جموع التواتر فى الطبقات الثلاث : طبقة الصحابة ، وطبقة التابعين ، وطبقة أتباع التابعين ، أما المشهور ، فإنه

---

(١) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، ص ١٠٨

الذى لم يتوافر فيه التواتر فى الطبقة الأولى ، وتحقق فيه التواتر فى الطبقتين التاليتين[1] .

ويشير نور الدين عتر إلى تقسيم الحديث المشهور بالنظر إلى الأوساط التى يذيع فيها وينتشر ، فقد يطلق المشهور على ما ذاع بين أهل الحديث وغيرهم من العلماء والعامة ، وقد يطلق على ما اشتهر على ألسنة الناس ، ولو روى بإسناد واحد ، بل لو لم يكن له إسناد أصلا ، ويسوق لذلك الأمثلة التالية[2] :

المشهور عند أهل الحديث خاصة ، مثل حديث أنس : «أن رسول الله ﷺ قنت شهرا بعد الركوع يدعو على رعل وذكوان»، أخرجه الشيخان [3] من رواية سليمان التيمى عن أبى مجلز عن أنس ، وقد رواه عن أنس غير أبى مجلز ، وعن أبى مجلز غير سليمان ، وعن سليمان جماعة . وهو مشهور بين أهل الحديث ، وقد يستغربه غيرهم ؛ لأن الغالب على رواية التيمى عن أنس كونها بلا واسطة .

-المشهور عند المحدثين والعلماء والعوام: مثل حديث: «المسلم أخو المسلم»[4].

-المشهور عند الفقهاء ، مثل حديث : «لا ضرر ولا ضرار» [5]، وحديث : «المسلمون على شروطهم» [6]، وحديث : « نهى عن بيع الغرر»[7].

-المشهور عند الأصوليين : مثل حديث : « إذا حكم الحاكم اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» [8].

-المشهور عند علماء العربية ، مثل حديث :«نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه »، وليس له إسناد، وحديث : «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش»، ومعناه حق لكن ليس هذا اللفظ إسناد إلى النبى ﷺ [9].

---

(١) محمد الحسينى حنفى : المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٧١ ، ص ٢٣٠ .

(٢) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٤١٠ .

(٣) البخارى فى الوتر ، ١ : ٢٦ ، والمغازى : ٥ : ١٠٥ ، ومسلم : ٢ : ١٣٦ .

(٤) البخارى فى المظالم : ٣ : ١٢٨ ، ومسلم فى البر والصلة : ٨ : ١٨ .

(٥) أخرجه ابن ماجه عن عبادة منقطعا ، ص ٧٨٤ رقم ٢٣٤٠ .

(٦) الترمذى فى الأحكام : ٣ : ٦٣٤ .

(٧) أخرجه مسلم : ٥ : ٣ .

(٨) البخارى فى الاعتصام : ٩ : ١٠٨ ، ومسلم فى الأقضية : ٥ : ١٣١ .

(٩) نور الدين عتر: منهج النقد فى علوم الحديث ، ٤١١ .

-المشهور بين الأدباء ، مثل حديث : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، وهذا مؤكد بطبيعة الحال ، لكن إسناده ضعيف .

- المشهور بين العامة ، مثل حديث : « السفر قطعة من العذاب» [1]، وحديث: «من غشنا فليس منا »[2].

ونظرا لكثرة ما اشتهر على ألسنة الناس وليس له أصل صحيح ، قام بعض علماء الحديث بكشف الزائف منه ، منبهين إلى حقيقته ، فألف الحافظ السخاوى كتابه (المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) ، وقد اختصره ابن الديبع الزبيدى - صاحب كتاب تيسير الوصول - فى كتاب سماه (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث) ، وألف العجلونى كتاب (كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) ، وكذا ألف السيوطى كتاب (اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة) ، وفيه كثير من مثل هذا[3] .

والسنة المشهورة لا تفيد القطع واليقين بروايتها عن الرسول ﷺ، وإنما تفيد الطمأنينة والظن القريب من اليقين بروايتها عنه ، فنزلت مرتبتها قليلا عن السنة المتواترة، وإنما لم تفد الجزم والقطع كالسنة المتواترة ، لعدم تحقق التواتر فيمن سمعوا من الرسول ﷺ ، ولم تفد الظن العادى فقط لأنها مقطوع بروايتها عن الصحابى أو الصحابة ، وهم ثقات أمناء فى الرواية عن الرسول ﷺ ، فكانت فى حكم المتواترة فى وجوب العمل بها [4].

٢ - **العزيز** ، وهذا الوصف يفيد علو الشأن ، كما يفيد الندرة ، فهو الحديث الذى رواه اثنان عن اثنين ، ولو فى طبقة واحدة ، بشرط ألا يقل الباقى عن اثنين اثنين، ومثاله ، حديث : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده »، فقد رواه من الصحابة : أنس ، وأبو هريرة ، ورواه عن أنس اثنان من التابعين ، هما قتادة ، وعبد العزيز بن صهيب ، ورواه عن قتادة اثنان هما : شعبة ، وسعيد . ورواه عن عبد العزيز اثنان ، هما : إسماعيل بن عُلية ، وعبد الوارث ، ورواه عن كل من هذين جماعة .

---

(١) البخارى آخر العمرة : ٣ : ٨ ، ومسلم فى الإمارة : ٦ : ٥٥ .

(٢) مسلم فى الإيمان : ١ : ٦٩ .

(٣) محمد الزفزاف : تعريف بالقرآن والحديث ، ص ٢٤٦ .

(٤) زكريا البرى : أصول الفقه الإسلامى ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٧١ ، ص ٥١ .

وحديث : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، فقد رواه من الصحابة اثنان هما : حذيفة ابن اليمان ، وأبو هريرة ، ثم رواه عن أبى هريرة سبعة[1].

٣ - الغريب : وهذا وصف كثيرا ما نجده فى كتب الفقه وغيرها من كتب العلوم الشرعية ، ويكون المقصود بهذا أنه قد انفرد بروايته فى إحدى الطبقات بعد الصحابى راو واحد ، فإن كانت الغرابة فى التابعى ، سواء أكانت فيه فقط أم فيه وفيمن يليه فقط، أم فى جميع من بعد الصحابى ، أم فى أكثر السند بعد الصحابى ، فإنه يسمى غريبا مطلقا ، وذلك كقوله ﷺ : « الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يباع ولا يوهب ولا يورث »، فقد انفرد عبد الله بن دينار بروايته عن ابن عمر . أما إذا كان الانفراد بعد التابعى ، سواء أكان ذلك فى أثناء السند أم فى آخره ، فإنه يسمى بالغريب النسبى، وإنما سمى نسبيا لأن التفرد فيه قد حصل بالنسبة إلى راو معين وإن كان الحديث عزيزا أو مشهورا فى نفس الأمر بأن يكون قد جاء من طريق آخر لم ينفرد فيها راو بروايته ، ومثال ذلك ما روى أنه ﷺ قال : «لا يبع حاضر لباد» فقد انفرد الشافعى بروايته عن الإمام مالك ، ثم انفرد بروايته عن الشافعى الربيع بن سليمان ، مع أن مالكا إذ رواه عن نافع لم ينفرد بروايته عنه ، بل رواه عنه جماعة غيره ، فهو غريب بالنسبة لرواية الشافعى عن مالك ، ومشهور بالنسبة للرواية عن نافع[2].

وفى الواقع فإن معظم السنة من قبيل الآحاد ، وهذا النوع لا يفيد اليقين ولا العلم وإنما يفيد الظن ، ويتفاوت الفقهاء والعلماء فى مدى ضرورة الأخذ به ، وكذلك يختلفون فى الشروط التى يجب توافرها ، لذلك يقولون : إن الاتصال بالنبى ﷺ فيه شبهة[3] ، ولهذه الشبهة فى إسناد الحديث بالرسول قالوا إنه يجب العمل به إن لم يعارضه معارض ، ولكن لا يؤخذ به فى الاعتقاد لأن الأمور الاعتقادية تبنى على الجزم واليقين ولا تبنى على الظن لو كان راجحا [4] .

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٣٨ .

(٢) محمد الزفزاف ، التعريف بالقرآن والحديث ، ص ٢٤٩ .

(٣) عبد العزيز البخارى : كشف الأسرار على أصول الإمام فخر الإسلام على بن محمد البزدوى ، طبعة حسن حلمى الريزى ، القاهرة ، ١٣٠٧ هـ ج٤ ، باب تقسيم السنة .

(٤) الشافعى ، محمد بن إدريس : الرسالة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٠ ، ص ٣٢ ، وسيف الدين الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٤ ، ج١ ، ص ٢٤٥ .

أما فى الأمور غير الاعتقادية ، فهناك أدلة متعددة توجب العمل به ، وهى تستند إلى الكتاب والسنة والإجماع ، كما يلى :

فأما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]، فإنه يدل على صحة أخذ العلم عن الطائفة ، وهى تصدق بالواحد والاثنين لأنها جزء من الفرقة التى هى ثلاثة فأكثر[1]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات] ، فإنه أمر بالتبين عند مجىء الفاسق بالنبأ ، فدل على أن الخبر إذا جاء به العدل كان مقبولا من غير تبين .

وأما السنة ، فمنها ما روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: «نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها وبلّغها من لم يسمعها ، ألا فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» .

ومنها ما كان يفعله النبى ﷺ من إرسال أفراد من الصحابة لدعوة الناس إلى الدين وتعليمهم تعاليمه ومبادئه .

وإذا كانت رواية الحوادث الجزئية أحادية ، فهى فى مجموعها متفقة على المعنى المطلوب ، فتكون متواترة المعنى ، وبمثلها تثبت القواعد الأصولية ، وقد روى أن رسول الله ﷺ قبل خبر سلمان فى الصدقة والهدية ، إذ جاء بطبق فيه رطب وقال : هذا صدقة ، فلم يأكل منه النبى ﷺ وأمر أصحابه بالأكل منه ، ثم جاء بطبق آخر وقال : هذا هدية، فأكل منه ، وأمر أصحابه بالأكل منه .

وأما الإجماع ، فما روى عن الصحابة من العمل بأخبار الآحاد فى حوادث من الكثرة حد التواتر المعنوى ، وإن كانت الرواية لكل حادثة منها أحادية ، ومن ذلك ما

---

(١) يرى البعض أن هذا كلام غير مقنع لعدم الدليل على أن الفرقة هنا ثلاثة لتكون الطائفة على الواحد ، وكل ما يؤخذ من هذا السياق أن الطائفة أقل من الفرقة ؛ لأن الأولى جزء من الثانية ، والأشبه بالطائفة فى الآية أن تكون جمعا ؛ لأنها مرجع الجمع فى قوله ليتفقهوا ، فتكون الآية دليلا على وجوب العمل بالمستفيض ، وهو الذى رواه فى كل عصر من العصور الثلاثة ، ثلاثة فأكثر دون أن يصل إلى حد التواتر ، ويستفاد منه وجوب العمل بالتواتر من باب أولى .

روى أن عمر بن الخطاب قال : «كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن يزيد - وهم من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول على النبى ﷺ ، فأنزل يوما ، وينزل يوما، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك الحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[١].

كذلك فإن الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- ، كانوا يقبلون خبر الواحد ، ويقطعون بمضمونه [٢]، وقبله موسى عليه السلام من الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى قائلا له ، كما جاء بالقرآن الكريم ، ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** (٢٠) ﴾ [القصص].

كما قبل أيضا خبر بنت صاحب مدين حين قالت له - كما جاء بالقرآن الكريم : ﴿ ... **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ... (٢٥) ﴾ [القصص].

وقبل يوسف- عليه السلام- خبر الرسول الذى جاء من عند الملك يطلب منه الذهاب إليه ولكنه رفض وقال : ﴿ ... **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** (٥٠) ﴾ [يوسف].

لكن هناك نفرا آخر من العلماء والفقهاء ينكرون ذلك ، ويستندون فى هذا إلى عدد من الأدلة ، جملتها كما يلى [٣]:

الأول - لو كان خبر الواحد يوجب العلم لأوجب خبر كل واحد ، ولو كان كذلك لوجب أن يقع العلم بخبر من يدعى النبوة ، ومن يدعى مالا على غيره ، ولما لم يقل أحد هذا دل على أنه ليس فيه ما يوجب العلم .

الثانى - لو كان خبر الواحد يوجب العلم لما اعتبر فيه صفات المخبر من الإسلام والعدالة وغيرهما ، كما لم يعتبر ذلك فى أخبار التواتر .

---

(١) على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ٤٤-٤٥ .

(٢) محمد إبراهيم الحفناوى : دراسات أصولية فى السنة النبوية ، المنصورة ، دار الوفاء ، ١٩٩١ ، ص ١٧٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٩ .

الثالث - لو كان يوجب العلم لوجب إذا عارضه خبـر متواتر أن يتعارضا ، ولما ثبت أنه يقدم عليه المتواتر دل على أنه غير موجب للعلم ·

الرابع - أنه يجوز السهو والخطأ والكذب على الواحـد فيما نقله ، ومن هنا فلا يجوز أن يقع العلم بخبر الواحد ·

الخامس - لو أفاد خبر الـواحد العلم لصدقنا كل خبر نسمـعه ، لكنا لا نصدق كل خبر نسمعه ، وعليه فهو لا يفيد العلم ·

السادس - لو كان خبر الواحد يفيد العلم لما وجـدنا خبرين متعارضين ؛ لأن ما يفيد العلم لا يتعارض ، لكنا رأينا التعارض كـثيرا فى أخبار الآحاد ، فدل على أنها لا تفيد العلم ·

السابع - لو كان خبر الواحد يفيـد العلم لجاز نسخ القرآن والسنة المتواترة به عند التعارض ، وتعذر الجمع والترجيح لكونه بمنزلتهما فى إفادة العلم ، لكن نسخ القرآن ، والسنة المتواترة به لا يجوز ، لضعفه عنهما ، فدل ذلك على أنه لا يفيد العلم ·

الثامن - لو أفاد خبـر الواحد العلم لجاز الحكم بشاهد واحد ، ولم يحـتج معه إلى شاهد آخر ، ولا إلى يمين عند عدمه ، ولا على الزيادة على واحد فى الشهادة على الزنا واللواط ؛ لأن العلم بشهادة الواحد حاصل ، وليس بعد حصول العلم مطلوب ، لكن الحكم بشهادة واحد بمجرده لا يجوز ، وذلك يدل على أنه لا يفيد العلم[1] ·

ومن حيث الدرجة : فإن الحديث ينـقسم إلى : صحيح، وحسـن، وضعيف ، وفيما يلى بيان ذلك :

١ - **أما الحديث الصحيح** ، فهو فيما يقول ابن الصلاح[2]: الحديث المسند الذى يتصل إسناده بنقل العـدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتـهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا ·

وهكذا نجد أن شـروط الحديث الصحـيح خمسـة ، اشتمـل عليها التـعريف وهى[3] :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٠ ·

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، تحقيق وشـرح نور الدين عتر ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٤ ، ص ١١ ·

(٣) المرجع السابق ، شرح المحقق ، هامش ، ص ١٢ ·

أ - اتصال السـند ، أفاده قوله الذى يـتصل إسناده ... ، ومعـنى الاتصال : أن يكون كل واحد مـن رواة الحديث قد تلقـاه من فوقـه بطريق مقبـول عن طريق التلقى ، فـخـرج بذلك المرسل والمنقطع بـأى نوع من أنواع الانقطاع ، كـالمعلق والمعضل والمدلس والمرسل الخفى ؛ لأنه إذا كان متصلا فمعناه أنه سقط من سنده واسطة أو أكـثر ، ويحـتمل أن يكون الـواسطة المحذوف ضـعيـفا ، فـلا يكون الحديث صحيحا .

ب - العدالة فى الرواة ، هى ركن هام فى قبـول الرواية لأنها القوة التى تحث على التقوى وتحجـز صاحبها عن المعاصى والكذب ومـا يخل بالمروءة ، فخرج بذلك الشرط : الحـديث والموضوع ، وما ضـعف ، لاتهام الراوى بالفـسق والإخلال بالمروءة وغير ذلك .

ج - الضبط ، ومعناه أن يحفظ الراوى الحديث فى صدره أو كـتابة ، ثم يستحضره عند الأداء ، وهذا الشـرط يسـتدعى عـدم غفلـته وعـدم تساهلـه عند التحـمل والأداء .

د - عدم الشـذوذ ، والشذوذ هو مخـالفة الراوى الثقـة لمن هو أقوى منه ؛ لأنه إذا خالفه من هو أولى منه بقوة حفظ أو كثرة عدد ، كان مقدما عليه وكان المرجوح شاذا ، وتبين بشذوذه وقوع وهم فى رواية الحديث .

والحقيقـة أن نفى الشذوذ يتحقق بالشروط السابقة ، لكنهم صـرحوا بانتفائه لأن الضبط قوة عامة بالنسبة لجملة أحاديث الراوى ، إلا أنه قد يحتمل أن يقع منه وهم فى حديث ما دون أن يفقد صفة الضبط لسائر حديثه ، فهذا يخل بصفة الحديث الذى وهم فيه فقط ؛ لذلك صرحوا بنفى الشذوذ .

هـ- عدم الإعلال ، ومعناه سلامة الحديث من علة تقدح فى صحته ، أى خلوه من وصف خفى قادح فى صحة الحديث والظاهر السـلامة منه ، فخرج بهذا الشرط الحديث المعلل ، فلا يكون صحيحا [1].

ووجه الدلالة فى هذه الشرط الخـمسة على صحة الحـديث ، أن العدالة والضبط يحققـان أداء الحديث كما سمع من قـائله ، واتصال السند على هذا الوصف فى الرواة يمنع اختلال ذلك فى أثناء السند ، وعدم الشـذوذ يحقق ويؤكد ضبط هذا الحديث الذى نبحثه بعـينه وأنه لم يدخله وهم ، وعدم الإعلال يدل على سلامته من الثغـرات الخفية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ .

بعد أن استدللنا بسائر الشروط على سلامته من الثغرات الظاهرة ، فكان الحديث بذلك صحيحا لتوافر عامل النقل الصحيح وانتفاء الثغرات الظاهرة والخفية ، فيحكم له بالإجماع .

مثال ذلك : روى الإمام أحمد ، قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم ، عن أبى بكر الصديق ، قال :«أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ [المائدة]، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقابه» .

فهذا حديث صحيح توافرت فيه شروط القبول كلها فرواته كلهم من الإمام أحمد إلى أبى بكر- رضى الله عنهما- ، معروفون بالعدالة ، وتمام الضبط ، وكل منهم سمع ممن روى عنه ، وليس فيه شذوذ ، ولا علة .

ويتنوع الصحيح إلى نوعين :

الأول : صحيح لذاته وهو ما تقدم .

الثانى : صحيح لغيره وهو ما صحح لأمر أجنبى عنه ، إذ لم يشتمل من صفات القبول على أعلاها كالحسن إذا روى من غير وجه فإنه يرتقى إلى درجة الصحيح لغيره[1] .

وللصحيح أقسام داخلية [2] ، فأعلى مرتبة ما اتفق عليه البخارى ومسلم ، وهذا ما جعل محمد فؤاد عبد الباقى يؤلف كتابه (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان)، فالحديث الموجود فى البخارى ومسلم ملزم ، وهو أصح الصحيح ، وهذا معنى مصطلح متفق عليه ، ويليه ما انفرد به البخارى ، ثم ما انفرد به مسلم ، ثم ما جاء على الشروط التى وضعها البخارى ، ثم مسلم وما صح عند غيرهما ، وهذا القول محمول على الثقة بالإمامين الجليلين : البخارى ومسلم على التعميم ، وإلا فقد رفض بعض العلماء رواة البخارى ، ونبهوا على الضعيف عند مسلم : وقد عيب على مسلم

---

(١) الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ١٧٣ .

(٢) عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، ص ٣٥ .

روايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين الذين ليسوا من شرط الصحيح[1].

والصحيح يتنوع أيضا إلى متفق عليه ومختلف فيه ، ويتنوع إلى : مشهور ، وغريب ، وبين ذلك. ثم إن درجات الصحيح تتفاوت فى القوة بحسب تمكن الحديث من الصفات المذكورة التى تنبنى الصحة عليها ، وتنقسم باعتبار ذلك إلى أقسام يستعصى إحصاؤها [2] .

وإذا وجدنا فيما يروى من أجزاء الحديث وغيرها حديثا صحيح الإسناد ، ولم نجده فى أحد الصحيحين ولا منصوصا على صحته فى شىء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة ، فلا يجب أن نتجاسر على جزم الحكم بصحته [3] .

وقد أجمع العلماء من أهل الحديث ومن يعتد به من الفقهاء والأصوليين على أن الحديث الصحيح حجة يجب العمل به ، سواء كان راويه واحدا لم يروه غيره ، أو رواه معه راو آخر ، أو اشتهر بروايته ثلاثة فأكثر ولم يتواتر[4] .

وهذا أمر بدهى تقضى به الفطرة الإنسانية لا يحتاج إلى كثير من الاستدلالات والبراهين ، فما من إنسان إلا وهو يعول فى إبرام شؤونه فى العمل ، أو التجارة ، أو الدراسة ، أو غيرها على ما يخبره به واحد موثوق من الناس ، حيث يقع فى نفسه صدق المخبر ويغلب على احتمال الغلط أو احتمال الكذب . بل إن الشؤون الكبرى فى مصير الأمم يعتمد فيها على أخبار الآحاد الثقات كالسفراء ، أو المبعوثين من قبل الحكومات ، فالتوقف عن قبول خبر الواحد يفضى إلى تعطيل الدين والدنيا .

وذهب بعض العلماء من أهل السنة وابن حزم الظاهرى إلى أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعى ويوجب الاعتقاد ، وأن هذا العلم القطعى علم نظرى برهانى لا يحصل إلا للعالم المتبحر فى الحديث العارف بأحوال الرواة والعلل ، وقوى بعض الكاتبين هذا المذهب تبعا لميله إلى ابن حزم الظاهرى[5].

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٤) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢٤٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

ثم إن العلماء ، بعد أن اتفقوا على وجوب العمل بالحديث الصحيح الآحادى فى أحكام الحلال والحرام اختلفوا فى إثبات العقائد ووجوبها به ، فذهب أكثر العلماء إلى أن الاعتقاد لا يثبت إلا بدليل يقينى قطعى هو نص القرآن أو الحديث المتواتر .

٢ - الحسن : ولما كان الحديث الحسن وسطا بين الصحيح والضعيف فى نظر الناظر لا فى حقيقته هو ، فقد عسر تحديد المراد منه بعض الشىء عند كثير من العلماء، وذلك لأن الحكم على أن هذا الحديث هو دون الصحيح وفوق الضعيف أمر نسبى ، لما أنه يعتمد على شىء قد ينقدح فى ذهن الحافظ ، وربما تقصر عبارته عنه .

ومن جملة ما قيل فى تعريفه ، يمكن القول بأن الحسن هو الحديث الذى نقله العدل الضابط ضبطا أخف من ضبط الصحيح أو كان متصل السند غير معلل ولا شاذ[1]، فهو كما نرى لا يفترق عن الصحيح إلا بهذه النقطة ، وهى خفة الضبط فى الراوى العدل ، بينما يشتركان فى بقية الأمور ، ومن أمثلة الحديث الحسن : «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »، فهذا حديث حسن ، رواه محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة . وقد تحققت فيه شرط القبول كلها من العدالة ، واتصال السند ، والسلامة من الشذوذ ، والعلة ، إلا أن أحد رواته وهو محمد بن عمرو متهم فى قوة حفظه ، وتمام ضبطه ، مع أنه صادق ثقة [2].

ومثله : ما روى عن أبى هريرة ، قال : مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال : «لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فقال : لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما . الا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة (ما بين الحلبتين ، لأن الناقة تحلب ، ثم تراح حتى تدر ، ثم تحلب) وجبت له الجنة» [3] .

والحديث الحسن ، يمكن أن يرقى إلى مرتبة الصحيح ، إذا روى عن طريق آخر، فإن ذلك يقويه ، ويزيل عنه ما يحتمل أن يكون قد أصابه من ضعف حفظ راويه ، أو

---

(١) محمد أديب صالح : لمحات فى أصول الحديث ، ص ١٦٧ .

(٢) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٣٠ .

(٣) أخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

قلة ضبطه ، وذلك كالحديث قبل السابق ، فقد روى من طريق أخرى ، رواه عن أبى هريرة كثيرون ، منهم الأعرج بن هرمز ، وسعيد المقبرى ·

والحديث الصحيح إنما حكم عليه بالصحة لوجود جميع شروط القبول فيه ، فلم يحتج إلى شيء يقويه ، فإن قوته من ذاته ، أما الحسن الذى رقى إلى الصحيح ، فقد اكتسب ذلك من غيره ، فتقوى بذلك[1].

وأكثر الأحاديث يمكن إدراجه فى مرتبة الحسن ، وهو كالصحيح فى الاحتجاج به ، والعمل عليه [2]وهذا يحتاج إلى نظرة نقدية ، ورؤية شاملة · وكما قال الجاحظ : قد يكون الأمران حسنين ، وأحدهما أحسن ، وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح [3] .

وللعلماء أحكام معلومة فى كتب الحديث ، فأحيانا يقولون : حديث حسن ، وحسن الإسناد ، أو صحيح الإسناد ، وحسن صحيح ·

فأما حديث حسن صحيح ، فمعناه أن له إسنادين ، أحدهما يصل إلى مرتبة الحسن والآخر يصل إلى مرتبة الصحيح ، وهذا من أقوى الأحكام فى الحسن · وأما صحيح الإسناد أو حسن الإسناد ، فهو أدنى الدرجات ، فهو يدل على أن الحديث حسن إسناده فقط ، وأما متنه فربما كان فيه شذوذ أو علة ، أو لوحظ عليه شيء من العلماء ، فإذا قالوا حديث حسن ، فهم يعنون المعنى الذى تقدم[4].

والحديث الحسن مقبول عند الفقهاء كلهم فى الاحتجاج والعمل به وعليه معظم المحدثين والأصوليين ؛ وذلك لأنه قد عرف صدق راويه وسلامة انتقاله بالسند ، وخفة الضبط كما عرفنا لا تخرجه عن الأهلية للأداء كما سمع ؛ لأن المقصود أنه درجة أدنى من الصحيح ، من غير اختلال فى ضبطه ، وما كان كذلك فإن النفس تميل إلى قبوله، ولا يأباه القلب ، والظن يحسن بسلامته فيكون مقبولا [5].

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٣٠ ·

(٢) عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، ص ٣٧ ·

(٣) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، حجج النبوة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٧٩، ج٣ ، ص ٣٣١ ·

(٤) عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، ص ٣٧ ·

(٥) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢٦٦ ·

٣ - ضعيف : وحين نذكر الشروط التى اشترطها العلماء لكل من القسمين الأولين ، وهما الحديث الصحيح والحديث الحسن ، ندرك أن ما لم يستوف تلك الشروط فهو الحديث الضعيف ، وذلك قول الإمام النووى : الضعيف هو ما لم يجمع صفة الصحيح أو الحسن · ومن أنواع الضعيف :

- المرسل : وهو ماسقط من آخر إسناده الصحابى ، وإنما سمى مرسلا لأن راويه أرسله وأطلقه ، فلم يقيده بالصحابى الذى تحمله من رسول الله ﷺ ، ومثاله : روى مسلم ، قال : حدثنى محمد بن رافع ، حدثنا حجين ، حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ : «نهى عن المزابنة»، وهى بيع ما لا يعلم كيلا أو عددا ، أو وزنا ، بمعلوم المقدار ·

وبتأمل هذا الإسناد ، نرى أنه قد سقط راو من آخره ، وهو الصحابى ؛ لأن سعيد بن المسيب تابعى وليس بصحابى[١]·

وفى حجية المرسل خلاف بين الفقهاء ، أما المحدثون فقد اتفقت آراؤهم على ألا يعمل به ، قال الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه : إن المرسل فى أصل قولنا وأهل العلم بالأخبار ليس بحجة · وقال الشيخ الحافظ أبو عمرو بن الصلاح : وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو الذى استقر عليه آراء جماعة حفاظ الحديث ونقاد الأثر وتداولوه فى تصانيفهم .

ولا شك أن هذا مبلغ الاحتياط فى دين الله وحفظ سنة رسوله ، فإنهم كانوا مع اتفاقهم على عدالة الصحابة ، اتفقوا على ضعف المرسل ، مع أنه لم يسقط منه إلا الصحابى ، واحتمالا أن يكون الصحابى قد رواه عن تابعى احتمال ضعيف جدا لم يقع، ولو وقع لبينه الصحابى ، فإذا كان التابعى الثقة أسقط الصحابى ، وهم كلهم عدول ، فما الذى يضير الحديث ؟ ولكنه الضبط والاحتياط اللذان عرف بهما علماء هذه الأمة [٢].

-ومنه : المنقطع ، وهو أن يسقط من الإسناد رجل غير الصحابى ، ومثاله : روى مسلم عن حميد الطويل ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة : أنه لقى النبى ﷺ

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٤١ ·

(٢) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها ، ص ١١٢ ·

فى بعض طرق المدينة . وبالنظر فى هذا الإسناد نرى أنه قد سقط راو من وسطه؛ لأن حميدا لم يعاصر أبا رافع. وقد يطلق المنقطع أيضا على ما ذكر فيه رجل مبهم ، ومثاله حديث : «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر» الذى رواه أبو العلاء بن عبد الله بن الشخير عن رجلين، عن شداد بن أوس ، فمن هما هذان الرجلان ؟ إنهما مبهمان[1].

-ومنه : المعضل ، وهو ما سقط من سنده اثنان فصاعدا ، ومثاله : روى مالك قال : بلغنى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». وبالنظر إلى هذا الإسناد ، نرى أنه قد سقط اثنان من وسطه على التوالى لأن بين مالك وأبى هريرة اثنين . وهو أشد استغلاقا وإبهاما من المنقطع .

ومن المعضل : ما أرسله تابع التابعى ، مثال ذلك ، ما رواه الأعمش عن الشعبى ، قال : « يقال للرجل يوم القيامة : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : لا ، فيختم على فيه» ؛ لأن الشعبى إنما رواه عن أنس ، وأنس رواه عن رسول الله ﷺ ، فقد أعضل الأعمش الحديث بإسقاطه أنسا ، ورسول الله ﷺ من إسناده .

- ومنه : الشاذ ، ولقد عرفه الشافعى بأن يروى الثقة حديثا يخالف ما روى الناس، فهذا يتوقف فيه ، وعرفه حفاظ الحديث بأنه ما ليس له إلا إسناد واحد يشذ به ثقة أو غير ثقة ، فيتوقف فيما شذ به الثقة ولا يحتج به ، ويرد ما شذ به غير الثقة . ولكن تعريف الشافعى أولى لأنه يلزم على التعريف الثانى التوقف فى أحاديث كثيرة لا يرويها إلا راو واحد من الثقات ، كيف وقد قال مسلم : للزهرى تسعون حرفا لا يرويها غيره[2].

والحديث الشاذ يقابله الحديث المحفوظ ، ومما يوضح الفرق بينهما :

روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه بسندهم ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عوسجة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، «أن رجلا توفى على عهد رسول الله ﷺ : ولم يدع وارثا إلا مولى هو أعتقه ، فدفع رسول الله ﷺ ميراثه إليه».

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٤٢ .

(٢) مصطفى السباعى : السنة ومكانتها ، ١١٣ .

وكذلك روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه بسندهم، عن ابن جريج ، عن عمرو بن دينار، عن عوسجة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رجلا توفى. إلخ.

ولكن خالف ابن عيينة ، وابن جريج ، حماد بن زيد ، فروى الحديث عن عمر ابن دينار ، عن عوسجة : أن رجلا توفى ... إلخ ، فأرسل الحديث ، وأسقط ابن عباس .

فابن عيينة ، وابن جريج ، وحماد ، ثقات ، ولكن حمادا خالف ابن عيينة ، وابن جريج ، فأرسل الحديث ، وهما قد وصلاه بذكر الصحابى ، وبما أنهما أرجح منه عددا ، فحديثهما يسمى المحفوظ ، وحديثه يسمى الشاذ . ومن هنا نعلم أن : المحفوظ ، هو ما رواه الأرجح عددا ، أو صفة ، مخالفا الراجح ، وأن الشاذ ، هو ما رواه الراجح ، مخالفا للأرجح منه عددا ، أو صفة[1].

-ومنه : المنكر ، وهو ما شذ به الراوى الذى ليس بعدل ولا ضابط ، فإنه لا يرد ولا يقبل ، ويقابله المعروف ، ومما يوضح الفرق بينهم المثال التالى :

روى حبيب بن حبيب الزيات - وهو غير ثقة - عن أبى إسحاق ، عن العيزاز ابن حريث ، عن ابن عباس- رضى الله عنهما-، عن النبى ﷺ ، قال : «من أقام الصلاة، وآتى الزكاة ، وقرى الضيف ، دخل الجنة».

روى بعض الثقات هذا الحديث عن أبى إسحاق ، عن العيزار بن حريث ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، موقوفا ، لم يرفعه إلى النبى ﷺ .

فحبيب غير ثقة ، وقد رفع الحديث ، وبعض الثقات قد وقفه ، فقد تخالفا ، فالحديث عن طريق الثقة يسمى : معروفا ، ومن طريق غيره ، يسمى منكرا ، ومن هذا نعرف أن الحديث المعروف ، هو ما رواه الراجح الثقة ، مخالفا للمرجوح غير الثقة، وأن الحديث المنكر ، هو ما رواه المرجوح ، مخالفا للراجح[2].

- ومنه : المضطرب ، وهو أن تختلف روايات الحديث فى متنه أو سنده ، ولا يمكن ترجيح أحدهما على الباقية لاستوائها جميعا فى الصحة ورواية الثقات وهو ضعيف ، إلا أنه إذا كان الاختلاف فى اسم واحد أو اسم أبيه أو نسبته ويكون الراوى ثقة ، فعندئذ يحكم للحديث بالصحة .

---

(١) يوسف القرضاوى وآخرون : مصطلح الحديث ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

-المعلق : وهو ما سقط من أول سنده راو أو أكثر ، ومثاله : روى البخارى عن الماجشون ، عن عبد الله بن الفضل ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ، قال : «لا تفاضلوا بين الأنبياء»، وبالنظر فى هذا الإسناد نرى أنه قد سقط راو من أوله ، لأن البخارى لم يعاصر الماجشون[1].

وقد اختلف العلماء فى العمل بالضعيف وذهبوا فى ذلك عدة مذاهب [2]:

الأول - الرافضون العمل به مطلقا لا فى الأحكام ولا فى الفضائل : وفى هذا حكى ابن سيد الناس ، عن يحيى بن معين ، ونسبه جلال الدين السيوطى [3] إلى أبى بكر بن العربى . والظاهر أن هذا الاتجاه للبخارى ومسلم أيضا ، حيث لم يخرجا فى صحيحيهما شيئا منه . كما اتفق مع هذا الرأى ابن حزم [4]، فعندما كتب ذاكرا وجود النقل عند المسلمين لكتابهم ودينهم : الخامس : شئ نقل كما ذكرنا إما بنقل أهل المشرق والمغرب أو كافة عن كافة أو ثقة عن ثقة ، حتى يبلغ إلى النبى ﷺ ، إلا أن فى الطريق رجلا مجروحا يكذب أو غفلة أو مجهول الحال ، فهذا أيضا يقول به بعض المسلمين ، ولا يحل عندنا القول به ولا تصديقه ولا الأخذ بشيء منه .

الثانى - المؤيدون للعمل به مطلقا ، فقد قال السيوطى : وعزى ذلك إلى أبى داود وأحمد ؛ لأنهما يريان ذلك أقوى من رأى الرجال .

الثالث - القائلون بالعمل به فى فضائل الأعمال ، فقد قال الحاكم : سمعت أبا زكريا العنبرى يقول : الخبر إذا ورد لم يحرم حلالا ولم يحل حراما ، ولم يوجب حكما ، وكان فى ترغيب أو ترهيب ، أغمض عنه وتسوهل فى رواته .

وقال ابن مهدى : إذا روينا عن النبى ﷺ فى الحلال والحرام والأحكام شددنا فى الأسانيد وانتقدنا فى الرجال ، وإذا روينا فى الفضائل والثواب والعقاب ، سهلنا فى الأسانيد وتسامحنا فى الرجال [5] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٢) الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ٣٠٢ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى ١/ ٢٩٩ .

(٤) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٢/ ٨٤.

(٥) الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ٣٠٣ .

ولما كان الحديث الضعيف ذا أثر خطير فى الدين ، فقد عنى أئمة الحديث بالتأليف فى التنبيه عليه وبيان أسباب ضعفه ، ليظهر ما يصلح للتقوية أو يؤخذ به فى الفضائل وما لا يصلح لشىء من ذلك ، ومن هذا المصادر التالية [1]:

١ - الكتب التى صنفها العلماء فى الضعفاء من الرواة ، فإنهم يوردون لمناسبة الكلام على الراوى أحاديث من مروياته تنبيها على ضعفها ، أو استدلالا بها على ضعفه ، فهى الصق بما غلب عليه إطلاق الضعيف ، وهو الذى ضعف لجرح راويه ·

٢ - مصادر نص العلماء على أن تفردها بحديث أمارة على ضعفه ، قال السيوطى فى ديباجة كتابه الجامع الكبير [2]: « · · · كل ما عزى لهؤلاء الأربعة - يعنى العقيلى فى الضعفاء ، وابن عدى فى الكامل فى الضعفاء ، والخطيب البغدادى، وابن عساكر - أو عزى للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، أو للحاكم فى تاريخه ، أو الديلمى فى مسند الفردوس ، فهو ضعيف ، فيستغنى بالعزو إليهما، أو إلى بعضها عن بيان ضعفه» · ونحوها: «حلية الأولياء» لأبى نعيم ·

وهذه المصادر لا يختص فيها الضعف باختلال شروط الرواة ، بل يوجد فيها ما يضعف لقادح آخر فى السند أو المتن ·

٣ - المصادر التى ألفها العلماء فى أنواع من الحديث الضعيف ضعفت لغير جرح الرجال ، مثل الكتب المصنفة فى المراسيل ، والمدرج ، والمصحَّف ، والعلل ، وغير ذلك مما ذكرنا وما لم نذكر [3] .

منزلة السنة بالنسبة للقرآن الكريم :

السنة هى الأصل الثانى من الأصول الإسلامية للتربية ، فالقرآن مقدم ، وهى تالية له ؛ لأن القرآن كلام الله- تعالى- الموحى به إلى رسوله ﷺ ، والتعبد بتلاوته ، والمنقول إلينا بالتواتر ، فهو وحى بلفظه ومعناه ، ومقطوع به جملة وتفصيلا ، وهو ينبوع الله ومصدر الشريعة ، وأصل التربية ، أما السنة فلفظها غير متعبد به ، والمقطوع

---

(١) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢٩٧ ·

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٨ ·

به جملتها لا تفصيلها ، وإليه مرجع الاعتداد بها ، ثم هى بيان للكتاب ، ولا شك أن البيان مؤخر عن المبيّن[1].

وأما نسبة السنة إلى القرآن من جهة ما ورد فيها من القضايا ، فإنها لا تعدو واحدا من ثلاثة :

١ - إما أن تكون سنة مقررة ومؤكدة رأيا جاء فى القرآن فيكون الرأى له مصدران وعليه دليلان ، دليل مثبت من آيات القرآن ، ودليل مؤيد من سنة الرسول ﷺ . ومن هذا النوع ، الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، والنهى عن الشرك بالله ، والشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، وغير ذلك من قضايا دلت عليها آيات القرآن ، وأيدتها سنن الرسول ويقوم عليها الدليل منها [2] .

ومن النصوص الدالة على ذلك [3] قول الرسول ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، والحج ، وصوم رمضان» ، فإنه يوافق قوله تعالى : ﴿ ... وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ... (٨٣) ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى : ﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ... (٩٧) ﴾ [آل عمران].

وأكثر من هذا أننا لو نظرنا فى أى حديث من أحاديث الرسول ﷺ ، لوجدنا ترتيب مقاصده موافقا تماما لترتيب هذه المقاصد ذاتها فى الآيات الخاصة بها فى القرآن الكريم[4]، ومن دلائل ذلك ، وهى كثيرة ، أن قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾[البقرة] ، مرتبة مقاصده بحيث نجد الإيمان أولا ، ثم الصلاة بعده ، ثم الإنفاق الذى يشمل كل أنواع الزكاة فى نهاية الآية ، وفى

---

(١) على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ، ص ٣٧ .

(٢) عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٠ ، ص ٢٩ .

(٣) عن : أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، ص ٣١ .

(٤) محمد عفيفى : التراسل بين القرآن والسنة من حيث الشكل والمضمون ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد ٢٠١ ، يوليو ١٩٨١ ، رمضان ١٤٠١ هـ ، ص ٧ .

الحديث النبوى الذى سبق أن أوردناه : «بنى الإسلام ...» مرتبة مقاصده الثلاثة الأولى على مقتضى الترتيب القرآنى فى الآية السابقة .

وجاء حديث الله عز وجل عن الحج ضمنا لأول مرة فى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ... (١٢٥) ﴾ [البقرة]، أما الصوم ، فقد جاء فى الآية الخاصة التى أشرنا إليها بعد ذلك (آية ١٨٣/ البقرة) .

كذلك نجد السنة العملية ترتبط مقاصدها مع ترتيب المقاصد الخاصة بها فى آيات القرآن وسوره ، فمن ذلك ، ما جاء فى صفة الوضوء فى قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ... (٦) ﴾ [المائدة] فترتيب أعمال الوضوء فرض من فرائضه ، ودليله قوله ﷺ للصحابة فى شأن الوضوء «ابدأوا بما بدأ الله به» . رواه مسلم .

والأمر نفسه نجده فيما جاء فى حديث جعفر بن محمد أن رسول الله ﷺ دنا من الصفا فى حجه فقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨] ، ثم قال : «أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه» ، رواه مسلم . فهذا الجزء من الحديث يبين لنا أن ترتيب الرسول فى عباداته وأحكامه التى هى تطبيق عملى للقرآن، إنما هو ترتيب وثيق الصلة بأحكام القرآن وتفصيله، وترتيب آياته فى سوره وكلماته فى آياته[١].

٢ - ما كان بيانا لما ورد فى القرآن ، وإظهارا للمراد منه ، وإزالة لما فيه من خفاء، وتوضيحا وشرحا لما غمض منه ، وهذا ما تبينه الآية الكريمة : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] وكان عمر- رضى الله عنه- يقول : سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله- عز وجل .

وقال على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس ، حينما بعثه إلى الخوارج : «...ولا تخاصمهم بالقرآن ، فإنه حمال ذو وجوه ، ولكن حاججهم بالسنة ، فإنهم

(١) محمد عفيفى : التراسل بين القرآن والسنة ، ص ٩٠.

لن يجدوا عنها محيصا »؛ ولذلك ، لما استدل الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة بظواهر بعض النصوص ، كقوله تعالى ، بعد الأمر بالحج : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ، لم يجد علـى أبلغ من الرد عليهم من السنة ، إذ قـال : « . . . وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزانى المحصن ، ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع (يعنى يد السارق) ، وجلد الزانى غير المحصن ، ثم قسم عليهما من الفئ ونكح المسلمـات ، فآخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله»[1].

وقد تلقى المسلمون عن رسول اللـه ﷺ مشافهة فى عصر الصحـابة نقلا متواترا فى العصور التالية ، وللرسول مهمة أخرى غير تبليغ كتاب الله إلى الناس ، وهى تبيين هذا الكتاب وشرح آياته ، وتفـصيل المجمل من أحكامه ، وبيان مـا أنزله الله فى كتابه من قواعد عامة أو أحكام مجملة أو غير ذلك .

ومن هنا كان المسلمون فى حاجة إلى معـرفة بيان رسول الله ﷺ ، مع حاجتهم إلى معرفـة كتاب الله ، ولا يمكن أن يفهم القـرآن على حقيقتـه وأن يعلم مراد الله من كثير من آيات الأحكام فيـه إلا بالرجوع إلى رسول الله ﷺ الذى أنزل الله عليه الكتاب ليبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم[2] .

ويمكن بيان السنة للقرآن على وجوه :

أ - تفصيل المجمل ، ومثال السنة المبينة لمجمل القرآن ، بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج الواردة فى القرآن ، فإن الله- تعالى- أمر بالصلاة فى كتابه من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها ، فجـاءت السنة النبوية مبينة لذلك ، فصلى رسول الله ﷺ : «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، كما ورد الحج فـى القرآن من غير بيان مناسكه ، فجاءت السنة مـبينة ذلك ، قـال رسول الله ﷺ : «خـذوا عنى مناسككم» ، وأيضـا ورد فى وجوب الزكاة من غير بيان لما تجب فيه ، أو المقدار الواجب ، فبينت السنة ذلك ، فقال ﷺ فى زكاة النقدين : «هاتوا ربع عشر أموالكم».

---

(١) على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ، ص ٣٨ - ٣٩

(٢) مصطفى السباعى : السنة ومكانتها ، ص ٣٧٦ .

ومن الآيات المجملة التى بينتهـا السنة قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]، فإن السنة بينت ذلك أن المراد بالخيط الأبيض بياض النهار ، والمراد بالخيط الأسود سواد الليل .

ب - توضيح ما أشكل من ألفاظ القرآن : وهذا يشير إلى أن فى آيات الله ألفاظا مبهمة تحتاج إلى توضيح حتى يفهمـها المؤمنون فهما صحيحا ، وقد قال الرسول ﷺ بذلك ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، فـعندما نزلت هذه الآية ، لم يـستطع الصحابة رضـوان الله عليهم أن يفهمـوا المعنى الصحيح لكلمة ظلم وفـهموها فهما غيـر ما أراده الله تعالى منها ، فهموها على أن المراد بهـذا التقصير فى أى حق من الحقوق ، ولذلـك أصاب كثيرا منهم اليـأس ، وقالوا : أينا لم يظلم ؟ فبين لهم النبى ﷺ أن المراد بالظلم هنا ، الشرك ، واسـتدل على ذلك بقوله فى آية أخرى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقـمان]، وبهـذا انتـشلهم ﷺ من يأسهم وردهم إلى الفهم الصحيح لكتاب الله العزيز[١].

ومن أمثلتها أيضـا أنه لما قال النبى ﷺ : «من حوسب عُذب» [٢]، أشكل على السيدة عائشـة- رضى الله عنها- قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقـاق]، فراجعت النبى ﷺ فى ذلـك فقال لهـا : « ذاك العَرْض ، إنه من نوقش الحساب عُذب » ، فالسيدة عائشة حين سمعت الرسول يقول : « من نوقش الحساب - أو من حـوسب - عُذب » ، قـالت : يا رسـول الله ، أليس الله يقـول : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ أشكل عليهـا ، فقال لها عليـه الصلاة والسلام : «ذاك العرض ، إنه من نوقش الحساب عذب» [٣].

وفى رواية : أن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : «اللهم حاسبنى حسابا يـسيرا» ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر فى كـتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك» [٤].

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة (طبعة ١٩٧٨)، ص ١١ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه، ٤/ ٢٢٠٤ .

(٣) الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ٥١ .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك .

جـ - تخصيص العام ، ومن ذلك أن الله تعالى أمر أن يرث الأولاد الآباء أو الأمهات على نحو ما بين فى قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ... ⑪﴾ [النساء] الآية ، فكان هذا الحكم عاما فى كل موروث ، وكل ولد وارث ، فقصرت السنة الأصل الموروث على غير الآباء بقوله ﷺ: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

ويتصل بهذا أيضا (تقييد مطلق القرآن) ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ... ㊳﴾ [المائدة] فإن قطع اليد لم يقيد فى الآية بموضع خاص ، ولكن السنة قيدته بأنه من الرسغ ، كذلك قوله تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ㉙﴾ [الحج] ، قد أوجب الطواف مطلقا ، ولكن السنة الفعلية قيدته بالطهارة .

٣ - قضايا جديدة ، لا أصل لها فى القرآن ، وهذا رأى فريق من العلماء ، ومثلوا بذلك بتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، وتحريم الذهب والحرير للرجال ، وحد شرب الخمر ، والأحكام الخاصة بهذه القضايا لا تتناقض مع أحكام القرآن ، بل تلتقى معها ؛ ولهذا جاءت الأوامر القرآنية بطاعة الرسول استقلالا ، يقول العلماء : أعاد القرآن لفظ أطيعوا فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] بالنسبة للرسول ﷺ، ولم يعده بالنسبة لأولى الأمر، إشارة إلى أن طاعة الرسول واجبة استقلالا ، أما طاعة أولى الأمر فواجبة تبعا لا استقلالا[١].

ويرى آخرون أن كل ما جاءت به السنة له أصل فى القرآن ، وأن هذه الأحكام التى يظن أنها جديدة ، هى نتيجة إلحاق فرع بأصله ، الموجود فى القرآن يخفى إلحاقه به، ومثال ذلك أن الله- تعالى- يقول: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فألحقت السنة اليمين مع الشاهد بشهادة الشاهدين ؛ لأن لليمين فى إثبات الحقوق مكانا، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران:٧٧] ومن ذلك أن الله- سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

(١) زكريا البرى : أصول الفقه الإسلامى ، ٤٧ .

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، ومن الأشياء ما يشتبه إلحاقه بالطيبات أو بالخبائث، كما ألحقت الضب والحبارى [1] بالطيبات ، والشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة لتحليل الله شرب ما لا يسكر ، ومثاله أيضا قوله عز وجل : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣] فألحقت السنة الأم والأخت الرضاعية ، سائر القرابات من الرضاعة بقوله ﷺ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ، تطبيقا لما اقتضاه النص القرآنى ، أو هى نتيجة الإلحاق بأحد أصلين موجودين فى القرآن، لا يظهر وجه الإلحاق بأحدهما .

والرسول ﷺ حرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها؛ لأن مثله قد حرمه الله ، وهو الجمع بين الأختين فى كتاب الله ، فالمصلحة فيهما واحدة ، وهى قطع صلة الرحم وبث عوامل التفكك فى الأسر التى يريد الإسلام لها أن تتماسك وتتراحم ، ولهذا نص عليه الصلاة والسلام على هذه المصلحة عندما نهى عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، فقال : «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»[2].

والذى يهمنا هنا أمران :

الأول : أن ما جاءت به السنة من هذا القبيل واجب الاتباع ، وهو ما يعترف به الفريقان مع اختلاف وجهة نظرهما فى كونه مندرجا تحت ما جاء فى كتاب الله- عز وجل- أو جديدا لم ينص عليه فيه .

الثانى : أن السنة على كلتا الوجهتين أضافت شيئا نحن فى حاجة إليه سواء أسميناه بيانا أم جديدا، ولن نستطيع أن نهتدى إليه من عند أنفسنا ومن غير هدى نبينا ﷺ .

على أن رسول الله ﷺ لا يقول ولا يفعل ولا يقر ما يخالف القرآن ، فهو المبلغ عن ربه ، والخبير بمقاصد الشريعة ، والمعصوم من الخطأ[3] .

قال الشافعى [4]: فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى ﷺ من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان :

---

(١) الحبارى : طائر على شكل الأوزة طويل العنق ، رمادى اللون ، (المصباح المنير) .

(٢) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ١٥ .

(٣) ابن القيم أبو عبد الله محمد بن أبى بكر : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، القاهرة ، إدارة الطباعة المنيرية .

(٤) الإمام الشافعى : الرسالة ، ص ٩١ .

أحدهما : ما أنزل الله فيه نص كتـاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب ،
والآخر : ما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين عن الله معنى ما أراد .

وهذان الوجهان ، اللذان لم يختلفوا فيهما .

الوجه الثالث : ما سن رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص كتاب :

١ - فمنهم من قال : جعل الله له بما افترض من طاعـته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه ، أن يسن فيما ليس فيـه نص كتاب . قال الإمام الشوكانى[(١)]: «اعلم أنه قـد اتفق من يعتد به من أهل العلـم على أن السنة المطهـرة مسـتقـلة بتشـريع الأحكام، وأنها كالقرآن الكريم فى تحليل الحـلال وتحريم الحرام» ، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : « ألا إنى أوتيت الـقرآن ، ومثله مـعه» [(٢)] ، أى أوتيت القرآن ، وأوتيت مثله من السنة التى لم ينطق بها القرآن ، وذلك كتحريم الحمر الأهلية ، وتحريم كل ذى ناب من الـسباع ، ومـخلب من الطير ، وغيـر ذلك مما لم يأت عليه الحصر» .

٢ - ومنهم من قال : لم يسن قط إلا ولها أصل فى الكتاب ، كما كانت سنته لتبين عدد الصـلاة ، وعملهـا على أصل جملة فـرض الصلاة ، وكذلـك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ ... لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء]، وقال : ﴿ ... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة]، فما أحل وحرم فإنما بين فيه عن الله كما بين الصلاة .

٣ - ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله فأثبت سنته بفرض الله .

٤ - ومنهم من قـال : ألقى فى روعـه كل ما سن ، وسنتـه الحكمـة التى ألقى فى روعه عن الله فكان ما ألقى فى روعه سنته .

والظاهر أن الخلاف بين العلماء حول استقلال السنة بالتشريع خلاف لفظى فقط؛ لأن الكل متـفق على أن هناك أحكاما جديدة ، وردت فى الـسنة ولم ترد فى القرآن ، غيـر أن الجمهور يسـمى ما ورد فى السنة فقط أحكـاما استقلت السنـة بتشريعهـا لأنها أحكام جديدة لم ينص عليها فى القـرآن ، فى حين يرى بعض العلماء أنها داخلة تحت نصوص القرآن بوجه من الوجوه[(٣)].

---

(١) الشوكانى : إرشاد الفحول، ص ٣٣ .

(٢) اخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة .

(٣) الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ٥٣ .

وكان مالك يرى [1] جواز تخصيص القرآن الكريم بالسنة المتواترة وبخبر الآحاد أيضا . وقد كان مالك يرى أيضا أن السنة يمكن أن تستقل بحكم جديد لم يرد أصلا فى القرآن مثل قبول الحكم باليمين مع الشاهد لحديث جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد [2] ، وهو حديث مرسل تأيد عند الشافعى بأحاديث وآثار أخرى [3].

لكن مالكا - من ناحية أخرى - لم يكن يعمل بكل ما يروى له من أحاديث ، فإلى جانب مقاييسه فى الرواة ، نجد من استقراء فقهه أنه قد رفض أيضا بعض أخبار الآحاد لمخالفة مضمونها لأمور واعتبارات تشريعية ، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأمور على أنها مقاييس للنقد الداخلى للسنة ، تضاف إلى مقاييس النقد الخارجى للرواة .

ويجب أن ننبه على أننا لم نجد أن مالكا قد ترك شيئا من السنة لمطلق القياس العقلى ؛ ذلك أن الأخبار التى تركها يرجع سبب الترك فيها إما إلى فقد رواتها لشروط صحة الرواية عنده - أو بعضها - وإما إلى مخالفتها لشيء من الأمور والاعتبارات التشريعية التى قد يستخلص من بعضها بعض الأقيسة ، إلا أن هذه الأقيسة ليست فى ذاتها سبب ترك مالك للخبر ، بل يعود سبب الترك فى الحقيقة إلى الأصول والقواعد التشريعية القطعية المقررة المستنبطة من مجموع النصوص والأحكام المتضافرة التى تعتبر هى المعارض الحقيقى [4].

وقد يسأل البعض السؤال التالى : لماذا لم يحتو كتاب الله عز وجل تفصيلا على مثل هذه الأمور التى تركها لبيان الرسول ﷺ ؟

والجواب أن كتاب الله عز وجل لو اهتم بهذه التفصيلات لاستطال استطالة تجعل من الحرج على المؤمنين أن يستقصوه ويحفظوه ويرتلوه ، وكل هذا واجب عليهم ، هذا بالإضافة إلى أنه كتاب هداية يضم كل ما يهدى المؤمنين فى كل وقت ، ومثل هذه التفصيلات لا نعتقد أن الذى يتلوها لو كانت فى كتاب الله ، تشع فى نفسه تلك الهداية التى يستشعرها المؤمن فى كل آية يتلوها من كتاب الله الكريم .

---

(١) محمد البلتاجى : بحوث مختارة فى السنة ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٩ ، ص ٥٥ .

(٢) موطأ الإمام مالك ، ٢ / ٧٢١ .

(٣) الإمام الشافعى : الأم ، ٦ / ٢٧٣ -٢٧٥ .

(٤) محمد البلتاجى: بحوث مخارة فى السنة ، ص ٦٣ .

وأيضا لإظهار رحمة الرسول ﷺ بأمته ، فهو بهم ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] ، كما قال الله- عز وجل- ، وهذه الرحمة تظهر فى بيان كتاب الله حين لا يترك المؤمنين حيرى فى فهم وتطبيق نصوص كتاب الله العزيز .

وحتى تتحقق القدوة بالرسول ﷺ ، لابد من الاقتناع العقلى ، وهذا يتمثل فى أن يرى المسلمون أن هذا الرسول ليس شخصا فقط وإنما هو جزء من دينهم الذى جاء به من عند الله وأساس رئيسى من أسس الرسالة الإلهية الإسلامية ، ولن يتحقق هذا الجزء، ولن يثبت هذا الأساس إلا باتباع نبيهم فى الصلوات وغيرها ، وإلا فكيف يصلى المؤمن دون تنفيذ ما أتى به الرسول فى هذا المجال ؟ إن هذا مستحيل عقلا[1].

وجوب العمل بالسنة النبوية :

لكى نعرف مكانة السنة النبوية فى بناء التربية الإسلامية ، مما يوجب العمل بها ، يجب أن نعرف مهمة رسول الإسلام ﷺ [2] . . .

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وهذه الآية التى تكرر معناها أيضا فى سورة أخرى تبين بوضوح أن مهمة الرسول ﷺ لا تنحصر فى تبليغ الكتاب الذى يتضمن كلام الله -تعالى- إلى الناس وتلاوة آياته ، بل من مهمته أيضا ثلاث نواح أخرى مهمة هى :

أ - تعليم هذا الكتاب ، أى تفهيم الناس معانى آياته ، ومقاصد نصوصه وأوامره ونواهيه ، وكشف معالم الطريق التى يدعو الناس إليها وتحديد حدودها ، ليمكن المؤمنين من تطبيق نصوصه بصورة تحقق أغراضها العامة الإصلاحية وتحافظ على روحها .

ب - تعليم الحكمة وإيضاح طرقها وأساليبها فى القول وفى العمل وفقا لقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ؛ ذلك لأن العمل بأوامر القرآن وتطبيق ما جاء فيه يحتاج إلى الحكمة التى هى الثمرة التجريبية للعقل الناضج فى الإدارة والتدبير ،

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ١٥ .

(٢) مصطفى أحمد الزرقاء : فى الحديث النبوى ، دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٦ ، ص ١٠ .

فالحكمة هى الكفيلة بحسن التطبيق والمحافظة على المقاصد الأساسية العامة فى التربية والتشريع .

ج -تطهير قلوب المؤمنين وأعمالهم من الملابسات التى قد تشوبها فتفسدها ، وذلك بزرع الإخلاص فى نفوسهم والإيثار وحب الخير ، ووزن الأمور بميزان المصلحة العامة لا بميزان الأهواء والمصالح الخاصة ، وهذا معنى تزكيتهم .

فهذه المهمات الثلاث التى قام بها الرسول ﷺ ، والتى هى منبثة فى صفحات حياته ومراحلها كلها ، فى أقواله وأفعاله ، يجب على المؤمنين ، فى جميع العصور ، معرفتها ؛ لأنها ترسم الطريقة الصحيحة فى فهم التربية وتطبيقها ، وليس لها مصدر يرجع إليه إلا فى السنة النبوية ، لأن الرسول ﷺ وحده هو فيها القدوة ، وللمؤمنين فيه الأسوة .

والبراهين على وجوب العمل بالسنة عديدة ، يمكن أن نذكر منها ما يلى :

١ - القرآن الكريم ، فقد حوت آياته العديدة ، كثيرا من الأدلة الموجبة على العمل بالسنة ، يمكن أن نشير إليها فيما يلى[١] :

أ- ما يدل على وجوب الإيمان به ﷺ ، والإيمان به معناه التصديق والإذعان برسالته وبجميع ما جاء به من عند الله ، سواء أورد فى القرآن أم لا ، أو يدل على أن عدم اتباعه والرضا بحكمه ، يتنافى مع الإيمان ، قال تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]، وقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن].

قال القاضى عياض : فالإيمان بالنبى ﷺ واجب متعين ، لا يتم إيمان إلا به ، ولا يصح إسلام إلا معه[٢] ، قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات].

---

(١) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٢ .

قال الشافعى : فجعل كمال ابتداء الإيمان - الذى ما سواه تبع له - الإيمان بالله ثم برسوله ، فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله ، لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدا ، حتى يؤمن برسوله معه [1].

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب] ، قال ابن القيم [2]: فأخبر- سبحانه- أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله ، ومن تخير بعد ذلك ، فقد ضل ضلالا مبينا .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] وأيضا : ﴿ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... (٧) ﴾ [الحشر].

ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول ﷺ والتسليم لحكمه واتباعه، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ كما سبق أن عرضنا ، حيث كان يبين لهم ما أنزل إليهم وحيث كان يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع لهم الحوادث التى لم ينص عليها القرآن[3] ، فهو إذن كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وإذا كانت الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ، فإنه أيضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته ، لأنه ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما[4] .

---

(١) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤ .

(٣) أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، ص ٢٨ .

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩ .

ب - ما يدل على أن الرسول مبين للكتاب ، وشارح له شرحا معتبرا عنده تعالى، مطابقا لما حكم به على العباد ، وأنه يعلم أمته الكتاب والحكمة التى يفسرها الشافعى وغيره بأنها السنة ، وعلى تسليم أنها الكتاب ، فتعليم الأمة - كما سبق أن بينا - إياه معناه شرحه وبيان مجمله ، وتوضيح مشكله ، وذلك يستلزم حجية بيان للكتاب بقوله أو فعله أو تقريره [1]، قال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (١٥١) ﴾ [البقرة]، ويقول تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (٢) ﴾ [الجمعة].

ويشرح الشافعى هاتين الآيتين وغيرهما مما سار مجراهما بأن الحكمة هى السنة ، ويستند فى هذا إلى أن الله فى الآيات المشار إليها ، يعطفها على الكتاب ، وذلك يقتضى المغايرة ، فهى ليست إياه ، ثم لا يصح أن تكون شيئا آخر - غير الكتاب والسنة - لأن الله تعالى قد من علينا بتعليمها ، والمن لا يكون إلا بما هو صواب وحق مطابق لما عنده، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالكتاب وخصوصا أن الله قد قرنها به ، وهو لم يوجب علينا فى سائر كتابه إلا اتباع كتابه وسنة نبيه ، فتعين أن تكون الحكمة حينئذ هى السنة[2].

ج - ما يدل على وجوب طاعته ﷺ طاعة مطلقة فيما يأمر به وينهى عنه ، وعلى أن طاعته طاعة لله ، وعلى التحذير من مخالفته وتبديل سنته ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (٥٩) ﴾ [النساء].

وانتبه ابن القيم إلى ما انتبه إليه آخرون من تكرار الأمر بالطاعة ، مرة بالنسبة لله -سبحانه وتعالى- ومرة بالنسبة للرسول ﷺ[3] : «فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله،

---

(١) عبد الغنى عبد الخالق : حجية السنة ، ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٠ .

وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر ، وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا - كما قدمنا - بل حذف الفعل وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول ، إيذانا بأنهم إنما يطاعون تبعا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول ، وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع ولا طاعة ، كما صح عنه ﷺ أنه قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

د - ما يدل على وجوب اتباعه ﷺ فى جميع ما يصدر عنه والتأسى فى ذلك به، وعلى أن اتباعه لازم لمحبة الله ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب].

هـ ما يدل على أن الله قد كلفه ﷺ باتباع ما يوحى إليه متلوا أوغير متلو ، وبتبليغ جميع ما أنزل عليه ونهاه عن التقصير فى شىء منه أو تغييره أو تبديله ، وعلى أنه قد عصمه من الناس الذين يريدون منه تغييرا أو كتمانا بشىء مما أنزل عليه[1] قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة]، ثم يقول: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى].

٢ - وأما السنة ، فمنها حديث معاذ حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن ، ومنها ما ورد عن أنس بن مالك وزيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خاطبهم بمسجد الخيف الموجود فى منى ، فقال: « نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها»، وما روى عن الإمام أحمد وغيره عن أبى نجيح العرباض بن سارية السلمى أنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال : «أوصيكم بتقوى الله

---

(١) حجية السنة ، ص ٣٠٥ .

والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى ... وعضوا عليها بالنواجذ ».

وكذلك ما روى الإمام أحمد والترمذى وأبو داود عن المقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ بعد أن حرم أكل بعض الحيوانات يوم خيبر ، قال : «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكة يحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله»(١).

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أنه قال: «إنى ما آمركم إلا ما أمركم به الله ، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه ، فأجملوا فى الطلب ، فوالذى نفس أبى قاسم بيده : إن أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله ، فإن تعسر عليكم منه شىء فاطلبوه بطاعة الله عز وجل».

وروى البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : «مثلى ومثل ما بعثنى الله تعالى به ، كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاة ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم، فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق» (٢) .

وروى الترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، عن عمرو بن عوف المزنى أن النبى ﷺ قال لبلال بن الحارث : «اعلم يا بلال ، قال : ما أعلم يا رسول الله ؟ قال : اعلم أن من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى ، فإن له من الأجر مثل من عمل بها ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله ، كان عليه مثل آثام من عمل بها ، ولا ينقص من أوزار الناس شيئا».

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «دعونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم».

---

(١) الإمام الشافعى : الرسالة ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٢) حجية السنة ، ص ٣١٣ .

وروى الطبرانى - فى الكبير - عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « من كذب على متعمدا ، فليتبوأ بيتا فى النار، ومن رد حديثا سمعه منى فأنا مخاصمه يوم القيامة» .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «إنى رأيت فى المنام ملائكة جاءونى ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا: أولوها له يفقهها ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ، والداعى محمد ﷺ»[1] .

٣ - إجماع الصحابة فى حياته ﷺ على وجوب اتباع سنته ، فكانوا فى حياته يمتثلون لأوامره ونواهيه وتحليله وتحريمه ولا يفرقون فى وجوب الاتباع بين حكم أوحى إليه فى القرآن ، ورأى صدر عن الرسول ﷺ نفسه ، وكانوا بعد وفاته ، إذا لم يجدوا فى كتاب الله حكم ما نزل بهم ، يرجعون إلى سنة رسول الله ﷺ .. فأبو بكر كان إذا لم يحفظ فى الواقعة سنة ، خرج فسأل المسلمين : هل فيكم من يحفظ فى هذا الأمر سنة عن نبينا ؟ وقصة الجدة التى جاءته رضى الله عنه تطلب ميراثها من ولد بنتها واضحة فى ذلك ، حيث قال لها رضى الله عنه : ما لك فى كتاب الله شىء وما علمت لك فى سنة رسول الله ﷺ شيئا ، فارجعى حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس ، فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن سلمة- رضى الله عنه- فقال مثل ما قال المغيرة ، فأنفذه لها أبو بكر -رضى الله عنه- [2] .

وكذلك يفعل عمر وغيره ممن تصدى للفتيا والقضاء من الصحابة ، ومن سلك سبيلهم من تابعيهم وتابعى تابعيهم بحيث لم يعلم أن أحدا منهم يعتد به خالف فى أن سنة رسول الله ﷺ إذا صح نقلها وجب اتباعها .

(١) عن الحفناوى : دراسات أصولية ، ص ٣٠ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ، وأحمد فى مسنده .

وها هو ذا أبو بكر الصديق يعقد لواء أسامة بن زيد ، ويأبى أن يحتفظ بجيشه وهو فى أشد الحاجة إليه ويقول : ما كان لى أن أحل لواء عقده رسول الله ﷺ ، ويعقد اللواء لخالد بن الوليد ليقاتل المرتدين ، ويقول : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، وسيف من سيوف الله سله الله -عز وجل- على الكفار والمنافقين [1].

وعن السائب بن يزيد ابن أخت نمر أن حويطب بن عبد العُزى أخبره أن عبد الله ابن السعدى أخبره : أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته ، فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالا ، فإذا أعطيت العمالة كرهتها ؟ قال فقلت : بلى ، فقال عمر فما تريد إلى ذلك ؟ ، قال : قلت : إن لى أفراسا وأعبدا وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين ، فقال عمر : فلا تفعل ، فإنى قد كنت أردتُ الذى أردتَ ، فكان النبى ﷺ يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منى ، حتى أعطانى مرة مالا ، فقلت أعطه أفقر إليه منى ، قال : فقال له النبى ﷺ : «خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال ، وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك»[2].

وهكذا كان الصحابة- رضى الله عنهم- لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله ﷺ ولا يقبلون مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه ومهما علت مكانته ، بل كانوا يغضبون غضبا شديدا ، وينكرون إنكارا قويا على من لا يستجيب لسنة سنها الرسول الكريم ، أو لخلق تخلق به .

وقد استند البعض على عدد من المواقف التى سبق أن أشرنا إليها مما يفيد نهى الرسول ﷺ عن كتابة السنة ، باعتبار ذلك دليلا على عدم ضرورة الاستناد إلى السنة وجوبا ، لكن بعض الباحثين ناقش هذه القضية بشىء من التفصيل فى مقارنة بين الكتابة والحفظ على أساس تقديم الثانى على الأول من حيث قوة الدليل ، وأن الكتابة ليست من لوازم حجية السنة . ومثل هذا الأمر قد يثير لبسا خاصة ونحن نعرضه فى كتاب تربوى ، ففى العلوم التربوية ، وكذلك فى التقاليد والأعراف التربوية هناك نقد مرير للحفظ ، وحث على أهمية القراءة والكتابة .

---

(١) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٨١ .

إن ما يمكن أن يزيل اللبس هنا هو أن الحكم مستند إلى السياق الثقافى للقضية ، ففى صدر الإسلام ، على الرغم من حث الإسلام ، قرآنا وسنة على تعلم القراءة والكتابة ، لكن الواقع الثقافى كان ما زال أسيرا للحفظ والنظر إليه بعين الاعتبار أكثر من الكتابة من حيث قوة الدليل .

لقد كانت العرب كما نعلم أمة أمية ، يندر فيهم من يعرف الكتابة ، ومن يعرفها منهم قد لا يتقنها ، فيتطرق إلى مكتوبه احتمال الخطأ احتمالا قويا ، وإذا أتقنها الكاتب فقد لا يتقن قراءتها القارئ منهم ، فيقع فى اللبس والخطأ ، خصوصا قبل وضع قواعد النقط والشكل والتمييز بين الحروف المعجمة والمهملة ، الذى لم يحدث قبل عهد عبد الملك بن مروان ، ولذلك كان جل اعتمادهم فى تواريخهم وأخبارهم ومعارضاتهم وسائر أحوالهم على الحفظ حتى قويت هذه المهارة عندهم ، وندر أن يقع منهم خطأ أو نسيان لشىء مما حفظوه ، بخلاف من يعتمد على الكتابة من الأمم المتعلمة المتمرنة عليها، فإنه تضعف فيهم مهارة الحفظ ويكثر عندهم الخطأ والنسيان لما حفظوه .

ولعل هذه الحال مشاهدة فيما بيننا ، فإنا نجد الأعمى أقوى حفظا لما يسمعه من البصير ، لأنه جعل كل اعتماده على مهارة الحفظ ، بخلاف البصير ، فإنه يعتمد على الكتاب وأنه سينظر فيه عند الحاجة . وكذلك التاجر الأمى ، قد يعقد من الصفقات فى اليوم الواحد نحو المائة ، ومع ذلك نجده يحفظ جميع ماله عند الغير وما عليه له بدون ما خطأ أو نسيان ، بخلاف التاجر المتعلم الذى اتخذ الدفاتر فى متجره واعتمد عليها فى معرفة الصفقات وما له وما عليه : فإنا نجده سريع النسيان لما لم يكتبه كثير الخطأ فيه . ونظير ذلك حاسة السمع عند الأعمى ، فإنها أقوى منها بكثير عند البصير ، لأن الأول لما فقد بصره استعمل سمعه فى إدراك أشياء كثيرة كان يميزها بالبصر لو كان بصيرا، فقوى عنده السمع . وكذلك نجد حواس الحيوانات المفترسة من شم وسمع وبصر أقوى منها فى الإنسان بمراحل لأنها تعتمد على هذه الحواس فى حياتها أكثر من اعتماد الإنسان عليها [1].

---

(١) محمد محمد أبو شهبة : دفاع عن السنة ، ص ٤١٧ .



الفصل الثانى

البنية التربوية للشخصية المحمدية

مقدمة :

لا نقصد من الفصل الحالى أن نروى سيرة الرسول ﷺ ، فهناك من الكتابات ما قد يصعب علينا حصره مما قام بهذه المهمة ، إلى الدرجة التى تجعل من الصعب علينا أن نأتى بجديد يختلف تماما عما سبق أن بذل من جهود ، لكننا قصدنا أن نتوقف أمام بعض الوقائع والأحداث ، والجوانب المنتقاة ، باعتبار أن كلا منها كان له دوره الذى لا ينكر فى تشكيل لبنة فى بناء هذه الشخصية النموذج .

وإذا كانت العادة قد جرت عند التأريخ للفكر التربوى لأى شخصية من الشخصيات التى حفل بها تاريخ التربية فى العالم أن نتوقف عند معالم البيئة التى نشأ صاحبها فيها والمراحل التى مرت بحياته اتساقا مع المقولة الشهيرة التى تؤكد أن فكر المفكر إنما هو صورة تعكس البيئة التى نشأ فيها وما بها من أحداث ، إلا أن الموقف هنا يختلف إلى حد كبير ، فما جاء به الرسول ﷺ من أفكار لم يكن ابتكارا وإبداعا منه بصفته الشخصية ، وإنما هو مبلغ بما أوحى به إليه المولى- عز وجل -. أما من ناحية المواقف العملية والإجراءات المتخذة حيال الأحداث ، فها هنا يمكن لنا أن نجد الموقف مختلفا إلا إذا كان التصرف العملى جاء وحيا من الله- عز وجل .

لكننا من ناحية أخرى نتوقف أمام شخصية الرسول ﷺ على أساس أن العبرة فيما يقدم من فكر تربوى ليست مجرد وجاهته واتساقه المنطقى ومعقوليته ، وإنما العبرة هنا فى مقدار قابليته للتحقق والتنفيذ ، وأساس إثبات ذلك هو التوقف أمام الشخصية المحمدية لنتبين كيف أنها كانت تجسيدا حيا ونموذجا فعليا لكل ما كانت تدعو إليه من أسس وتوجهات ومبادئ ووسائل لابد منها حتى يمكن أن نربى الإنسان كى يحقق ما كلف بها من خالقه- سبحانه وتعالى .

وأمر مثل هذا لا نتطلبه ولا يحدث بالنسبة لسائر هؤلاء المربين الكبار الذين ندرسهم ، وعلى سبيل المثال فالذى يستقرئ حياة مرب مثل «جان جاك روسو» فسوف يجد عددا غير قليل من الصفحات المشينة أخلاقيا ، ومع ذلك تدرس أفكاره ويكتب

عنها ، بل ويبحث البعض عـما يمكن الاستفادة به منها ، وهكذا قُلْ بالنسبـة للجمهرة الكبرى من المفكرين التربويين .

ومن هنا نتوقـف فى الفصل الحالى أمـام بعض الجوانب والأحـداث والوقائع لا بغرض المعرفة فى حد ذاتهـا ، وإنما بغرض الوقوف على كيفية تشكيلهـا لشخصية ننظر إليهـا على أساس أنهـا نموذج وقدوة مطلوب من كل مـسلم ، بل ومن كل من يبـتغى النهج على الصراط المستقيم ، أن يحذو حذوها ، ويهتدى بما كانت عليه .

المقوم المكانـــى :

لسنا من القائلين بالحـتمية الجغـرافية ، لأننا نؤمن بأن الله- عـز وجل- قد وفر للإنسـان إرادة تمكنه من أن يغيـر ويبدل فى ظروف المـكان ، لكننا فى الوقت نفسـه لا نسـتطيع أن نتغـافل عن دور المكان ، بما يحـيط به من ظروف طبـيعـيـة ، فى تكوين الشخصـية ، وليس فى الأمر تناقض ، فمـثل هذه الظروف المكانية تضع لبنات ، لكن إرادة الإنسان هـى التى ترسم الشكل العام لما يمكن أن تـكونه هذه اللبنات ، وهى التى تضع الوظيفـة التى يقوم بهـا هذا الشكل العام ، فمـا بالنا لو كنا أمام شـخصيـة نبوية تختصها العناية الإلهية بالاختيار والتوجيه والرعاية ؟

والبيئة الطبـيعية لحياة محـمد ﷺ هى الجزيرة العربية كلها بوجـه عام ، سماؤها وأرضها ، شمالها وجنوبها ، جبالهـا ووديانها ، نجودها وتهائمها ، وهى بوجه خاص شـمـال تلك الجـزيرة المعـروف بأرض الحـجـاز ، وهى بوجـه أخص- مكة من أرض الحجاز[1] .

وفى وسط طريق القوافل المحاذى للبحر الأحمر ، ما بين اليمن وفلسطين ، تقوم عدة سلاسل من الجبال تبعد ثمانين كيلومترا من الشاطئ ، وهى تحيط بواد غير فسيح ، تكاد تحصره لولا منافذ ثلاثة ، يصله أحـدها بطريق اليمن ، ويصله الثانى بطريق قريب من البحـر الأحمر (بحر القـلزم) عند مرفأ جدة ، ويصلـه الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين . فى هذا الوادى المحصـور بين الجبال تقوم مكة . ومن الـعسير معـرفة تاريخ قيامها ، وأكثر الظن أنه يرجع إلى ألوف سنين خلت . والثابت أن واديها اتخذ من قبل أن تبنى موئلا لراحة رجـال القوافل ، بسبب ما كان به من بعض العـيون ، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجـعلون منها مضارب لخـيامهم ، سواء منهم القادمـون من ناحية

(١) محمد الصادق عرجـون : محمد من نبعته إلى بعثته ، القاهرة ، مجـمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، الكتاب الحادى والأربعون ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٣٩ .

اليمن قاصدين فلسطين والقادمون من فلسطين متجهين إلى اليمن . والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام- أول من اتخذها مقاما وسكنا ، بعد أن كانت مجرد محطة للقوافل وسوقا للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب الجزيرة والمنحدرين من شمالها[1].

والتاريخ الطبيعى عرف للجزيرة العربية فى جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها ، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال ، وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز ، وخصائص امتازت بها مكة فى موقعها من أرض الحجاز .

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آمادا طويلة ، وأحقابا متعددة ، تدخل مع التاريخ فى أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التى لم تتبين له معالمها ولم تزل تمخضها الحوادث وتدافعها الأحداث ، وتمر مع الزمن فى أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال فمزجته به ، فى خصائصه حتى صار كأنه هو ، جدبا وشظف عيش ، وقسوة طبيعية ، وجفوة حياة واكفهرار منظر ، وعبوس جو ، ولفح سموم ، وكثرة تقلبات وقلق إقامة وتطلعا إلى السماء رجاء غيث ، وتوثبا فى أرجاء الأرض طلبا لمرعى [2].

وإزاء حرارتها شديدة القسوة ، وصف ابن بطوطة الرحالة هذه الحرارة بأن حصباء مكة تشبه صفائح محماة ، وليس فيها ولا بقربها ماء جار ؛ ولذلك ليس فيها نخيل واحات الحجاز ولا أزهارها ، فهى وما حولها من الجبال جرداء ، ويقل فيها الماء قلة شديدة ، لولا بئر زمزم الذى يسقى من يلوذ بها ، وهو ما جعل سقاية الحجاج فيها فيما بعد من الوظائف المقدسة [3] .

وطبيعى ألا يكون للمملكة النباتية فى مكة مكان ، إذ لا نبات فيها إلا بعض أشجار البادية . والوحشة والعزلة شديدتان فوق جبالها ومنحدراتها إلى صحراء نجد ، ولا تسمع صوتا مطربا لطائر ، فأنت لا تسمع هناك إلا صفير الرياح يصك أذنيك ،

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة ، دار المعارف ، ط١٦ ، ١٩٨١ ، ص ١٠١ .

(٢) محمد الصادق عرجون ، مرجع سابق ، ص ٤٠.

(٣) شوقى ضيف : محمد خاتم الرسل ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٠٠٠ ، ص ٤٧ .

ولا ترى إلا صخور الجبال السوداء ، وكأنها فحم احترق من طول تلظيه بلهب حرارة الصيف الكاوية [١] .

وقد قضت البيئة الطبيعية والفوضى الدينية وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسباب لإشعال نيران الحروب وإيقاد جذوة التطاحن قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم، ولا يغلو من يقول إن حياة العرب فى جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام ، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل ، وكأنما ضنت عليها الطبيعة بما يروى غلتها ويخصب أوديتها من غير الماء فجادت عليها بأنهار دماء ، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس[٢] ، فمن العسير جدا على التاريخ أن يجد يوما من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال ، فإذا لم يكن فى الجنوب كان فى الشمال ، وإذا لم يكن فى نجد كان فى تهامة ، وإذا لم يكن بين قبائل حمير كان بين نزار ، وإذا لم يكن فى ربيعة كان فى قيس · وقد عدد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى فى الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها ، فإذا بها راجعة ، فى الغالب والأعم إلى تغالب على مرعى ، أو حماية جار ، أو أخذ ثار ، أو مساعدة حليف ، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب لبثت أعواما يصطلى أوارها الناس[٣] .

لكن مكة ، بلد النبى ﷺ ، لم تترك للطبيعة تحبسها فى واديها الأجرد بين جبالها السود المكفهرة القاسية ، بل تداركتها العناية الإلهية فأهدت إليها (الكعبة) بيت الله الحرام ، فصارت بها مكة ، بلد الله الحرام ، وكان الذى أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، وإبراهيم جد العرب الذى تنتهى إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم ، وقد تعرب منذ كان ، فلم يعرف غير العرب شعبا ، ولا غير جزيرة العرب وطنا ، ولا غير مكة بلدا[٤] .

وهكذا استجاب المولى عز وجل لدعاء نبيه إبراهيم : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨ ·

(٢) محمد الصادق عرجون ، ص ٥٥ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ ·

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤ :

وبئس المصير (١٢٦) وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ﴾ [البقرة].

ومع أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب خصبها وحسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها ، لم تكن مع ذلك مطمح النظر لأهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ، ولم يكن إلى معابدها حجهم ، وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابة الحاج ، إليها كانت تشد الرحال وتشخص الأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها ، كانت تراعى الأشهر الحرم ، لذلك ولمركزها الممتاز فى تجارة العرب كلها ، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة ، ثم أراد المولى عز وجل أن تكون مسقط رأس رسول الله محمد ﷺ ، فتكون بذلك متجه نظر العالم على توالى القرون، ويظل لبيتها العتيق تقديسه ، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية ، وإن ظلت وظلوا جميعا أدنى إلى خشونة البداوة التى كانوا عليها منذ عشرات القرون [١] .

وكانت مكة فى تلك الفترة التى شهدت مولد المصطفى مدينة كبيرة مزدهرة أعدت منذ زمن بعيد محطة للتجارة ، وزودت بكل ما يصلح لاستقبال التجار وإقامتهم ، وكانت تقع فى شمالها دولة للفرس ودولة للرومان ، دولتان تعيشان فى حرب مستمرة، وتستنصر كل واحدة منهما على الأخرى بأعراب أطراف الصحراء . وإذا كان انتظام القوافل يحتاج إلى تأمين المواصلات ، فقد أثرت الحروب المتصلة بين الروم والفرس على خطوط القوافل التى كانت تحفل بألوان البضائع من أدنى الأرض إلى أقصاها تحت تهديد حروب الفرس والروم والقبائل التابعة لهذا الفريق أو ذاك [٢] .

وهكذا بدأت مكة تتحول من محطة تجارية تستريح عندها القوافل إلى مركز تجارى تصدر إليه القوافل وترد ، حيث تقام أسواق ضخمة يتبادل فيها التجار من مختلف أنحاء البلاد بضائع آسيا الوسطى والشام واليمن ومصر والهند والعراق والحبشة، والفرس والروم ، ثم أخذ تجار مكة فى تجهيز القوافل لحسابهم الخاص .

وإذ كانت مكة فى واد غير ذى زرع ، فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة ، وأصبحت يوما بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها الكثير من مظاهر العلاقات الاجتماعية ، وأقيم بناؤها الدينى قبل الإسلام والثقافى على أساس البيع والشراء

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ١٠٠ .

(٢) عبد الرحمن الشرقاوى : محمد رسول الحرية ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال العدد ٢٠١ ، ديسمبر ١٩٧٦ ، ص ١٣ .

والربح، وأصبح التجار الكبار فيها هم الحاكمون ، فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات .

وعاما بعد عام امتلأت الكعبة بأصنام ترمز إلى الآلهة التى تعبدها كل القبائل التى تتعامل مع مكة ، وأصبح أهل مكة جميعا إما تجارا يستوردون ويصدرون ويبيعون لأهل الواحات والمدن المنتشرة فى الجزيرة العربية ، وإما وسطاء فى المبادلات بين التجار العابرين ، وإما أصحاب مصارف يوظفون أموالهم فى إقراض التجار الصغار نظير حصة من الأرباح ، وإما مرابين يكسبون من الربا ما يراكم ثرواتهم [1] .

فإذا ما تمعنا فى دلالات هذه الظروف الجغرافية فى أن تكون هى الرحم البيئى الطبيعى لظهور الرسالة الإسلامية عن طريق الرسول ﷺ ، فسوف نلاحظ أن معظم الرسالات الإلهية كانت فى أرض على مقربة من البوادى[2] ؛ لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة فى مداركها:

١ - إذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحى الإلهى ، وفيها المدارك المتقبلة التى تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها وتستخرج من ماضيها ما ينير لها حاضرها ، من غير إعنات فكرى ولا إجهاد نفسى ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضها ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، إذ ليست غائرة فى النفوس ، بل إنها على سطح القلوب .

٢ - وإن المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة وتقاليد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكى تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، إذ إن العلوم وما يتصل بها من فلسفات ، سواء أكانت حقا أم كانت باطلا تملؤها ، وإذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جد لهم ، وأقل أبواب المصادمات المجادلة ، والمجادلة مع المتعصبين تضيع فيها الحقائق .

وقد يقال إن أهل البادية لهم عادات وتقاليد ، كما أن أهل الحضارات لهم ذلك، بيد أننا يجب ألا ننسى أن تقاليد البدو لا ترتكز على عناصر فكرية تتغلغل فى الأذهان،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) محمد أبو زهرة :خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٣ ج١ ، ص ٥٥ .

وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء فى بلاد الحضارات ، وما يكون فى دائرة العمل من غير تغلغل لا يكون - غالبا - راكزا ثابتا ، مثل الذى يكون منشؤه التفكير العميق.

٣ - وإن أى دين لابد له من ناس يحملونه ، ويسيرون به ، وأهل البادية الذين يكون عندهم من التفكير والرقى النفسى يكونون أقوى نفسا ، وأشد جلادا ، ولقد رجح كثير من الاجتماعيين أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد فى سبيل ما يعتقدون ، ما دامت أوضاع الحضارة لم تصب قلوبهم ، بل فيهم بأس وقوة احتمال[١].

الأصول الاجتماعية :

ونحن عندما نحاول اقتفاء الأصول التى انحدر منها الرسول ﷺ لا نقصد الانحياز الكامل إلى القول بالحتم البيولوجى وإرجاع الأثر إلى الأصول الوراثية ، والتشيع إلى النظر الطبقى ، وإنما الذى لا نستطيع غض النظر عنه هو ما يرتبط بالأصل من قيم واتجاهات وأساليب عمل وتفكير ومفاهيم ، وهو الأمر الذى عبرت عنه التقاليد الشعبية فى استخدامها لكلمة الأصل عند السعى لإقامة روابط تزاوج .

وقد شاءت إرادة المولى- عز وجل- أن يختار محمدا ﷺ من أفضل القبائل العربية شرفا ومكانة بين العرب ، وأفضل البطون وأطهر الأصلاب ، فما تسلل شىء من أدران الجاهلية إلى نسبه ﷺ[٢]، قال رسول الله ﷺ عن نفسه : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم»[٣] . وفى هذا الشأن تحدث أبو سفيان بن حرب مع هرقل بعد أن ظهر أمر محمد ﷺ ، وشاعت دعوته ، وسمع الرومان برسالته ، فقال أبو سفيان لهرقل ردا على سؤاله عن نسب النبى ﷺ ، وكان يومها خصما شديد الخصومة للنبى ﷺ ، فقال غير كاذب : إنه من أوسط قريش ، أى أعلاهم ، لأن الوسط هو الأعلى والأشرف ، فقال هرقل : هكذا يبعث الأنبياء من أشرف الناس نسبا !

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) موسى شاهين لاشين ، وصلاح الدين يوسف شلبى : دراسات فى السيرة وعلوم السنة ، القاهرة ، مطبعة الفجر الجديد ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤ .

(٣) حديث صحيح اخرجه مسلم .

وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فإن المال لا يكون نسبا ، وقد كان عمه أبو طالب كبير البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك قليل المال ، والنبى ﷺ مع علو نسبه بين العرب كان فقيرا وكان يتيما ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال أو قوة البطش أو عظمة السلطان ، إنما شرف النسب أن يكون من وسط يخلو من نواقص السلوك [1] .

إن النبى الذى ليس فيه رفعة الأصل ، وانتماؤه إلى أسرة ذات تقاليد فاضلة ، فإنه يكون أكثر تعرضا للرد ، واستقراء تاريخ الأنبياء يؤكد لنا أنهم كانوا يعيرون بأن أتباعهم هم من أراذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوى النسب ، ويتخذون هذا سببا لرفض الدعوة ، وإن جانبهم الصواب فى هذا بطبيعة الحال ، ولعل حديث القرآن الكريم عما لاقاه نوح عليه السلام من قومه لأبرز مظهر لهذا الذى نقول : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [هود].

ورسول الله ﷺ هو نتاج اجتماع فرعين زاكيين من الدوحة الكبرى ، دوحة قريش ، فأبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه آمنة بنت وهب الذى ينتسب إلى (زهرة) بن كلاب من صميم قريش ، وهو الأخ الأكبر لقصى والد عبد مناف . وهذا الترابط الذى كان بين زهرة وعبد مناف هو الذى يوحى بجعل فرعيهما فى قريش ملتقى ما تنقله الأصول الوراثية من الخصائص الإنسانية .

لكن هناك فرقا بين فرعى عبد مناف وزهرة فى مقدار ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع ، والتاريخ يذكر لبنى عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكارم وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة ، وهى

(١) محمد أبو زهرة ، المرجع فى السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٧٣ .

خصائص كانت كلها متوافرة فى قصى جدهم الأعلى ، فأخذها منه تأثرا ابنه عبد مناف وأروثها عبد مناف بنيه من بعده . ويذكر لبنى زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء ، وهى خصال كانت ملازمة لأبيهم زهرة بن كلاب ، ومنه تحدرت إلى ولده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعدادات[1].

ويروى ابن عباس عن قصى ، الجد الأكبر ، أنه : أصاب ملكا أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها ، فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم ، حتى أن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها إلا فيها ، ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ، ولا فى قوم غيرهم إلا فى دار الندوة : يعقده لهم قصى، ولا يعذر (يختن) لهم غلام إلا فى دار الندوة ، ولا تخرج عير (قافلة) من قريش فيرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة بفضله ، ويتبعون أمره كالدين المتبع : لا يعمل بغيره فى حياته وبعد موته ، وكانت إليه الحجابة (سدانة البيت) والسقاية (سقيا الحجاج) والرفادة (إطعام الحجيج) واللواء (للحرب) والندوة (للمشورة) ، وحكم مكة كله ، وكان يعشر (يأخذ منهم العشر) من دخل مكة سوى أهلها [2].

نسب شريف طاهر من آباء طاهرين وأمهات طاهرات ، لم يزل محمد بن عبدالله ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء ، ولم يصبه سفاح الجاهلية حتى اختاره الله رسولا واصطفاه نبيا ، روى الشيخ الإمام عليش فى شرحه عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء ، ما ولدنى إلا نكاح الإسلام» ، يعنى أن كل نكاح فى نسبه الطاهر كان شرعيا كالنكاح فى الإسلام، وذلك على حسب الأصول المتبعة فى عرف العرب ، ولا شك أن شرف النسب وطهارته من شروط النبوة [3] .

---

(١) محمد الصادق عرجون ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الحليم محمود : الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٧٣ ، مارس ١٩٧٤ ، ص ٤٣ .

(٣) أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى : نبذة من السيرة النبوية ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٥٧ ، أكتوبر ١٩٧٢ ، ص ٢١ .

وقد اتسمت آمنة كما يبدو من أخبارها بأنهـا كانت صبورا ، وكانت تشبه البتول فى سموها ، وفى اصطفاء الله تعـالى لها فى أن تكون أما لسيد البشر مـحمد ﷺ كما اصطفى مريم البـتول لتكون أما للـمسيح- عليـه السلام- ، ولكن آمنة ولدت محـمدا وحملت به كسـائر البشر . وكانت شبيـهة بالبتول فى الصبر ، وفى خـلاصها من فتن الزواج ، وكونها حملت صاحب أكبر رسالة فى هذا الوجود[1] .

لكن الزوج غادر ليجلب رزقا لقومه ، فعاجله الموت !

فهذه الأم الصبور على فراق زوجها الشاب فى سبيل نفع قومها ، والمرأة الفاضلة ترضى باغتراب من تحـب إذا كان الاغتراب لإصلاح الحـال العام ، وارتضت صابرة أن يولد ولدها الحبـيب فى غيبـة زوجها الحبـيب الذى لم يلبث أن نالته حتى بعـد عنها ، فكان الرضا بالانتساب إليه يغنى عن المتعـة بقربه ، واكتفت من متعة هذا الزواج الطاهر بمتعة قرة عينها ولدها الحبيب محمد ﷺ ، وعاشت مطمئنة إلى أمل اللقاء ، وأن يجمع الله تعالى الشمل المتـفرق كما أراد رب العالمين ، ولكن الله جلت قدرتـه أراد اختبارها فأفقدها زوجها فى غربته ، فكانـت الصابرة الكريمة القائمة على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها من غير أن يعرف عنها تململ بحياتها وعيشها .

وإذا كان عبد الله قد مـات بعد زواجـه بآمنة بوقت قصير ، والرسول صلى الله عليه لم يـزل بعد فى رحم أمه ، فـإن هذا يلفت نظرنا إلى اتفاق عـجيب فى حـيوات الأنبيـاء الأربعة : إسماعـيل ، وموسى ، وعيـسى ، ومحمد ، عـليهم جميـعا أزكى الصلاة والسـلام ، أما هذا الاتفاق العـجيب فهو أنهم قـد عهد بهم فى طفـولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه . ولا ترى عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) غرابة فى ذلك ولا مصادفة ولا اتفاقا [2] ، إذ الأمومة فى عاطفتها الجياشة وإيثارها الرائع ، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسـالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كـانت السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها العتيد : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم].

---

(١) محمد أبو زهرة ، المرجع فى السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٩١ .

(٢) بنت الشـاطئ : أم الرسول مـحـمد آمنة بنت وهب ، القـاهرة ، دار الهـلال ، سلسلة كتـاب الهلال، العدد ٢٦، مايو ١٩٥٣ ، ص ٣٤ .

ولم تك إلا فترة قصيرة بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد ، وقد حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر . وعن ابن عباس أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان فى عام الفيل . وكانت مكة - حين ذاعت بشرى المولد - ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز أن ثويبة الأسلمية ، جارية أبى لهب بن عبد المطلب، لم تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمى اليتيم ، برسالة السماء[1] ، ويصدق قول شوقى :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والسدرة العصماء

وأسرع جده عبد المطلب يحمله إلى الكعبة ، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه ، وقال فيما قال :

الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد فى المهد على الغلمان ... أعيذه بالله ذى الأركان

حتى أراه بالغ البنيان ... أعيذه من شر ذى شنآن

من حاسد مضطرب العنان[2]

ثم عاد ودفعه إلى أمه وسماه محمدا ، فقيل له : كيف سميت بهذا الاسم ، وليس لأحد من آبائك ؟ فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

وأقبلت آمنة على ابنها تحنو عليه فى انتظار المراضع المقبلات من البادية يتلمسن تربية أولاد الأشراف ، والأعرابيات اللاتى يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار ، ولم يكن لمحمد ترقب عطاياه ، أو غنى تغرى جدواه ، فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره[3] .

---

(١) بنت الشاطئ : أم الرسول محمد ، ص ١٤١ .

(٢) طبقات ابن سعد ، ج١ ، ص ٦٤ .

(٣) محمد الغزالى : فقه السيرة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٢ .

وكانت حليمة ابنة أبى ذؤيب من قبيلة بنى سعد إحدى القادمات إلى مكة ابتغاء العودة برضيع تستعين على العيش بحضانته ، ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يتيم إلا أنها لم تجد طلبتها واستحيت أن تعود صفر اليدين ، فرجعت إلى آمنة تأخذ منها محمدا .

وتنشئة الأولاد فى البادية ليمرحوا فى كنف الطبيعة ، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل ، أدنى إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف[1].

ولعل هذا يدعونا إلى قدر غير قليل من التحسر على ما أصبح أبناؤنا المعاصرون يعيشونه حيث الشقق الضيقة فى عمارات متلاصقة كأنها زنازين تغلق على مساجين ، مما كان دافعا لبعض المربين أن يلحوا على ضرورة أن نربى أبناءنا بين أحضان الطبيعة .

وهكذا نجد أنه ﷺ قد حرم عاطفة الأبوة المشفقة ، وبوعد من عاطفة الأمومة الحانية ، ونشأ بعيدا عن بلده وقومه ، وبلده حاضرة البلاد العربية ، لها من طبيعة الحواضر ما يسمها فى بعض جوانبها بميسم اللين والدعة ، وقومه أهل شرف وسيادة فى بلده ، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبع وتوجيه الغرائز والسلوك ، نشأ فى بادية بين قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان ، وفصاحة اللسان ، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون ، يعيشون فى بادية تصهرها الشمس إذا طلعت ، وتتلألأ فى سماء لياليها النجوم الزاهرة ، ويضيئها القمر المنير ، ويزمجر فى أرجائها الرعد ، ويلمع فى آفاقها البرق ، وتهدر فى وديانها العواصف وتطبعها الحياة بطابع قاس متقلب ، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوى إليها الناس إذا أقبل الليل ، أو قيظ النهار ، يسرحون بالأغنام والإبل يرتادون لها المراعى وظلال الشجر وعيون المياه ومجارى الوديان ومجتمع الأنهار ومساقط الغيث ومنابت الكلأ ، وذلك هو كل ما يشغل أهل البيئة ، وفيما سواه فراغ لا يملأه من العمل كثير ولا قليل ، فهى بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر وتقليب النظر فى ملكوت الله تعالى ومظاهر الوجود لدى من آتاه الله النظر الثاقب والعقل الراجح والأفق الواسع والقلب الطاهر الصافى[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٢) محمد الصادق عرجون ، ص ٢٢٨ .

وعندما عاد لأمه ، وذهبت به وهو فى سن السادسة على وجه التقريب لتعود أهلها فى المدينة ، وشرعت فى العودة إلى مكة ، وافاها الأجل فى الطريق ، فتعهدته جارية حبشية إلى أن أوصلته إلى جده عبد المطلب كى يوالى رعايته .

وإن ارتباط حياته الطاهرة بجارية حبشية تزويد من الله تعالى له بزاد إنسانى ، ليشعره بأن الناس سواسية ، وأن كل الفضل فيمن يحسن فى عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وإنها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التى لا يستغنى عنها محمد ﷺ أمة حبشية؛ لأنها تربيه تربية ربانية على المساواة الإنسانية ، وأنه لا شرف إلا بالنفع والعاطفة؛ لذلك لم يكن غريبا من الذى حضنته جارية حبشية أذاقته حب الأمومة ، وإن كان دون حبها ، وأوصلته إلى جده محوطا بعناية الله وعطفها - أن يكون نصير الأرقاء والمانع للرق الإنسانى ـ فليس غريبا أن يغضب أشد الغضب عندما يسمع بعض صحابته يعيِّر آخر بقوله: « يا ابن السوداء» ، ويقول فى قوة : لقد طفح الكيل . لقد طفح الكيل . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى ، فمحمد ابن البيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا [1].

وراح الطفل إلى جده عبد المطلب ، وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه، يرأمه ويعطف عليه ، ويوفر له أسباب الهناءة والسعادة ، ويملأ قلبه بالرضا والارتياح ، ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لا يزال يشعر بالفراغ الواسع الذى تخلف عن فقده لأبيه وأمه . وعلى الرغم من الانكسار الذى كان يلازمه ، ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائما أبدا يشعر أنه يعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، ويحيا فى عالم غير هذا العالم الذى يرفع درجات أهله بالمادة الحقيرة ، والحطام الفانى ، والعرض الزائل ، وما رآه من زملائه وأقرانه إلا وحمله ترفعه عن السفاسف ، وبعده عن الدنايا على أن يحترمه احتراما يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ، ويطلبون السؤدد [2] .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه والحمد لله ، وبفضل تدبيره ورعايته وتوجيهه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذى سيقفه من تلك الخرافات ، من حيث بيان تهافتها والتأكيد على مجافاتها للحقيقة ،

---

(١) محمد أبو زهرة : المرجع فى السيرة النبوية ، ج١ ، ص ١١٧ .

(٢) إبراهيم أبو الخشب : من فيض الرسالة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٦٣ ، أبريل ١٩٧٣ ، ص ٣٤ .

وهذه الحرب التى سيعلنها على تلك الخزعبلات ، فكان سلوكه الذى يسلكه ، ومعاملته التى يعامل بها من حوله ، على طراز نادر من الأدب ، ومثال رفيع من الكمال ·

اختياره نبيا ورسولا :

كان من الملاحظ أن محمدا يميل إلى الوحدة والعزلة ، فلم كان هذا الميل ؟

إنه على الرغم مما وهبه العرب من مزايا فقد أصبحوا قبل نزول الوحى برسالة الإسلام غارقين فى طوفان من الضلالات · · ·

لقد نسوا نسيانا تاما دين التوحيد ، الذى نشره فيهم جدهم إبراهيم ، وإن كانوا قد استمروا فى تقديس الكعبة التى بناها بيديه ، فقد اتخذوا لله شركاء بزعمهم ، من أصنام تحظى عادة بتفضيلهم ، وكان لكل قبيلة ، بل لكل أسرة صنم تؤثره عما عداه ، وأصبحت الكعبة مباءة لعشرات الأصنام من خشب أو من حجارة ، تعبد من دون الله[1] .

أنصاب وأزلام ، وسكر ، واستعمال للسحر والرقى · · · كل هذا كان يهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعدادا فطريا رائعا · لقد تركوا لأنفسهم الحبل على الغارب ، وأسرفوا فى فهم الحرية ، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء أكبر عدد يمكنه تغذيته ، وكان من تقاليدهم : أن النساء تورث كما يورث العقار ، فقد كان الابن بعد موت أبيه يتصل اتصالا جنسيا بمن ورثهن من زوجات والده ·

ذلك ، لا شك بشع مخجل ، بيد أن البشاعة قد بلغت أقصى مراتبها فى وأد البنات · لقد تغالى العرب وأسرفوا فى كل ما يتصل بالشرف ، وذهب بهم هذا الإسراف إلى تخيل احتمال أن يؤذى شرفهم بسبب سوء سلوك فتاة أو بسبب اغتصابها ، وجسم الخيال ذلك لبعض الآباء الذين أفسدت المغالاة طبائعهم ، فتوهموا ، ثم ظنوا وتخيلوا ، ثم خالوا ، وخافوا ففضلوا القضاء على بناتهم منذ أن يتنسمن الحياة ·

ولقد كان ميل العرب إلى التباهى ، وحساسيتهم المرهفة فيما يتعلق بالكرامة وكبريائهم ، من أكبر العقبات التى تمنعهم من الخضوع للنظام ، لذلك كان كل ارتباط ، أو تقدم أو تنظيم اجتماعى ، مستحيل التحقيق ، وكان من الطبيعى أن تستمر الحرب فلا تنقطع ، وأن يحل الثأر ، الذى لا هوادة فيه ولا رحمة ، محل التقاضى ، فتسيل الدماء فى كثير من البقاع ·

---

(١) أتيين دينيه ، وسليمان بن إبراهيم : محمد رسول الله ، ترجمة عبد الحليم محمود ، ومحمد عبد الحليم محمود ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣ ، ١٩٨٦ ، ص١٠٤ ·

ذلك هو الضلال الذى أحزن محمدا وأرقه وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته[1].

من هنا كان هذا الوقت الطويل الذى يستغرقه فى الانقطاع عن الناس فى غار حراء متأملا مفكرا ، وخاصة فى شهر رمضان ...

ولم يكن فى حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شؤون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقا ، فما هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ؟ وهبل واللات والعزى ، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة فى جوف الكعبة أو حولها ، لم تخلق يوما ذبابة ولا جادت مكة بخير . ولكن ، أين الحق إذن ؟ أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه وسمواته ونجومه ؟ أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى الناس النور والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ، فتكون للناس ، ولأهل الأرض كافة من خلائق ، حياة بالماء والنور والدفء ؟ كلا ، فما هذه الكواكب إلا أفلاك من أثير لا حد ولا نهاية له ؟ ولكن ، ما الأثير ؟ وهذه الحياة التى نحيا اليوم فتنقضى غدا ، ما أصلها وما مصدرها؟ أمصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ؟ لكن للأرض وللحياة سننا ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها[2] . وما يأتى الناس من خير أو شر ، أفيأتونه طواعية واختيارا ، أم هو بعض سليقتهم ، فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء .

وفى ليلة من ليالى رمضان ، نامت الدنيا ، لا تلقى بالا إلى هذا الرجل من بنى هاشم ، ابن امرأة كانت تأكل القديد ، قد أوى إلى غار حراء مستغرقا فى تأمله ، يلتمس فى العتمة شعاعا من نور الحق ، وينشد فى خلوته أنس الهدى وراحة اليقين ، وخواطره تحوم حول البيت العتيق الذى رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فلم يلبث أن صار مع الزمن مثوى لأوثان ممسوخة شتى [3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ١٤٦ .

(٣) بنت الشاطئ : مع المصطفى فى عصر المبعث ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ ، العدد ٣٢٣ ، نوفمبر ١٩٦٩ ، ص ١٥ .

وغير بعيد من غار حراء ، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الدينى الغابر وقد طوته وثنية عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلق الوعى ، ثم لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الباهظة ، لا تحسب حسابا لهذا المعتكف فى الغار ، وقد تعودت أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع ، عازفا عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه ، لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

ومع نور الفجر الوليد من الليلة الغراء ، تجلى الوحى على المصطفى فى الغار ، والقى إليه الكلمة : اقرأ ، ليبدأ تحول ضخم فى مجرى التاريخ البشرى .. نعم لقد بعث محمد نبيا ورسولا .

ومما يمكن ملاحظته عند دراسة نبوة محمد ﷺ أنها برأت من مثل تلك الشوائب التى لصقت ببعض الديانات والعقائد السابقة ، وخلصت من بقايا السحر والكهانة ، كما خلصت من شعوذة الإيهام الخيالى وبدوات الجنون الذى كانوا يسمونه قديما بالجنون المقدس ، لاعتقادهم أن المصابين به يخلطون هذيانهم بوحى الأرواح العلوية التى تستولى عليهم ، وتمت نبوة الإسلام تماءها الأوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات ، وهى آية النبوة الكبرى فى عرف الأقدمين[1] .

ولا نظن أن النبوة يمكن أن تعظم بكرامة أكرم لها من التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية بهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما سبق فى الأوهام من قيام النبوة كلها بدعوى الخوارق والإنباء بالمغيبات :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾ [يونس].

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾ [الأعراف].

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ [الأنعام].

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ١٦٩ ، أبريل ١٩٦٥ ، ص ٦١.

بهذه الفكرة الرشيدة يفرق الإسلام بين طريقين شاسعتين فى تاريخ الأديان : طريق موغلة فى القدم تنحدر إلى مهد النبوات الوثنية حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة ثم تتقدم فى خطوات وئيدة يلتقى فيها الخبل باليقظة ، وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة ، وطريق تليها موغلة فى المستقبل يفتتحها صاحب النبوة الأخيرة فيعلن أنه يفند السحر والكهانة ويزرى بقداسة الجنون أو جنون القداسة ، ويروض بصيرة الإنسان على قبول الهداية وإن لم ترضها له روعة الخوارق ودهشة الغيب المجهول ، إنه يروض البصيرة الإنسانية على أن تنظر وتبصر ، ولا يستوى الأعمى والبصير [1] .

ولعل تأمل هذا الفارق بين الطريقين الشاسعتين فى تاريخ الأديان يفسر كون النبوة المحمدية هى خاتم النبوات ، إذ يصبح الإصلاح بعدها منوطا بدعوات يستطيعها من لا يدعى خارقة تفوق طاقة الإنسان ولا يهول العقول بالكشف عن غيب من الغيوب لا يدريه الإنسان .

ولما كان إعمال العقل هو السبيل للبرهنة والتمييز والفهم والحكم فإن التأمل العقلى الفاهم هو السبيل لإثبات الرسالات وتصديق الرسل ، فدور العقل هو التأمل والحكم : هل هذه الرسالة بمضمونها وجوهرها موافق لمصالح العباد وفطرهم ومتطابق مع احتياجاتهم أم لا ؟ فإذا كان الجوهر بمحتواه كاملا ومترابطا ومتناسقا وليس فيه ضعف ولا تناقض ولا مخالفة للفطرة والصواب والمنطق كانت بالفعل هذه رسالة صادقة والمبعوث بها صادقا وكانت بالفعل وحيا من الله سبحانه[2] .

وبما أن جوهر الرسالة واحد وغير متعدد ولا متناقض ، فالرسالة فى جوهرها دعوة لعبادة الله الواحد ، وهى دعوة عامة للجميع لقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى على لسان نبيه الكريم : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنعام].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٢) عبد الحميد درويش : إثبات الرسالة وصفات الرسل ، دراسة فى النبوات ، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٠، ص ٢٣ .

وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [آل عمران].

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾ [الرعد].

وقوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾ [الزمر].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافروم].

ولم يثبت العقل تناقضا أو خللا فى مبنى ومحتوى وجوهر الرسالة المحمدية ، بل وجد أن دوامها وحفظها وسلامتها واتساقها دليل على صدق جوهرها ودليل على كمالها وصدق النبى محمد ﷺ ، فجوهر الرسالة المحمدية هو القرآن الكريم وما يحتويه من آيات وقصص وأخبار وأحكام ودلائل كلها شاهدة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذى أوحى بهذه الرسالة ، فسلامة الجوهر وصدقه وسلامته تعكس وتدل على قدرة الإرادة الإلهية الخالقة الباعثة(١).

فجوهر الرسالة لا يدانيه جوهر آخر فى صدقه وتماسكه وعلمه ولهذا كان التحدى مستمرا والدليل قائما على سلامة هذا الجوهر وعظمته فيقرر الحق سبحانه ذلك على لسان نبيه الكريم في قوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء].

وتميزت رسالة محمد ﷺ بأنها عامة ودائمة ، وبالتالى فلم يكن الرسول إماما لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ، فلما انتهى ذهبوا معه فى خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير لها فى عالم المعانى ما لاكتشاف البخار والكهرباء فى عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور فى الوجود الإنسانى ، كان البشر قبلها فى وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده ، وجاء الخطاب الإلهى إليه - عن طريق محمد ﷺ يشرح له كيف يعيش فى الأرض ، وكيف يعود إلى السماء ، فإذا بقى محمد ﷺ أو ذهب فلن ينقص ذلك من

---

(١) عبد الحميد درويش : ص ٢٣٠.

جوهر رسالته . إن رسالته تفتيح الأعين والآذان ، وتجلية البصائر والأذهان ، وذلك مودع فى تراثه الضخم من كتاب وسنة[1] .

إنه لم يبعث ليجمع حوله أناسا قلوا أو كثروا ، إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذى يصح به وجودهم ، والنور الذى يبصرون به غايتهم ، فمن عرف فى حياته الحق، وكان له نور يمشى به فى الناس ، فقد عرف محمدا ﷺ واستظل بلوائه وإن لم ير شبحه ويعش معه مباشرة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾ [النساء].

وإذا كنا قد أكدنا على عصمة الأنبياء ، فلابد لنا فى هذا المقام أن نشير إلى مثال واحد دفعا لشبهة أن يكون رسول الله ﷺ قد ابتعد عن هذا المبدأ الأساسى فى بعض المواقف والأحوال . ونحن إذ نكتفى هنا بمثال واحد على أساس أن الموضوعات التالية لابد أن تحفل بالكثير مما يماثله .

فقد قال- سبحانه وتعالى-: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) ﴾ [عبس] .

فالأعمى هو سيدنا عبد الله ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين- رضى الله عنها- ، وهو من أجلاء الصحابة ، وقد دعا إلى الإسلام بين الأنصار مع سيدنا مصعب بن عمير قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بلال رضى الله عنه يؤذن بليل ، وابن أم مكتوم يؤذن للفجر ، وهو بذلك من أصهار الرسول ﷺ وفرد من أفراد أسرته الشريفة ، وكان رسول الله ﷺ يعزه ، وقد ولاه على المدينة مرتين فى أثناء غيابه عنها فى غزوتين [2] .

وجاء فى التفاسير أن رسول الله ﷺ كان يخاطب بعض عظماء قريش طمعا فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم ، فجعل يسأل رسول الله

---

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٢١ .

(٢) حسن كامل الملطاوى : رسول الله فى القرآن الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٩ ، ص٢٨٦ .

ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وود النبى ﷺ أن لو كف عن سؤاله ليتمكن من هداية الكافر إلى الإسلام ، فأعرض عن الرد عن ابن أم مكتوم وأقبل على الرجل الآخر فنزلت تلك الآيات ، فكان النبى بعد ذلك إذا رآه يبسط له رداءه ويقول : «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى» .

وهو وإن كان عتابا ، فإنما يعاتب الحبيب حبيبه إعزازا له وإكراما وإرشادا لأمته وبيانا ، ألست تراه تعالى يقول : عبس ، ولم يقل عبست ؟ وقال : وتولى ، ولم يقل: وتوليت ، اكتفاء بسرعة إدراكه ﷺ ، كما يقول: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ [عبس: ١١١] ولم يقل إنها مؤاخذة ، وفى ذلك من الرقة والرعاية ما فيه . وحاشا أن يكون تشاغل النبى ﷺ ازدراء لابن أم مكتوم لفقره ، فإنه ﷺ اختار فى حياته فقر المال على الغنى حين عرض عليه ربه أن يحول له جبال مكة ذهبا وقال : «لا يارب، أجوع يوما وأشبع يوما ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك» (١).

واتساقا مع المهام التى كلف الله- سبحانه وتعالى- بها رسله الكرام ، كان على الرسول محمد ﷺ أن يقوم بهذه المهام التربوية على النحو التالى :

١ - التبليغ : فما دامت هناك رسالة أراد المولى عز وجل أن تصل إلى الناس عن طريق رسوله ، كان من الطبيعى أن تكون المهمة الأولى هى تبليغ الناس بمضمون الرسالة حتى ينهجوا فى تفكيرهم وسلوكهم وفقا لهذا المضمون ، ومن هنا تجىء آيات القرآن الكريم واضحة :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة].

وقوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

وقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

ويتجه الرسـول ﷺ من خلال هذه المهمة إلى تبليغ الناس بتوحـيد الله عز وجل وضرورة أن يـنهج كل منهم فى هذه الحيـاة منهج العـبد الصـالح الذى ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، ويخشى الله فى فعله وقوله ويقـوم بالعبادات المفروضة من حيث هى قنوات للاتصال بالله عز وجل ورفع شأن الفرد وتعزيز ذات الأمة .

والقيـام بمثل هذه المهمة يـتطلب نهجا يقـوم على مخاطبـة العقل وإثارة التـفكير وتنميته والجـدال بالتى هى أحسن والحرص على الأمانة والتزام الصدق والـعمل بمقتضى ما يبلغ به قبل غيره من الناس حتى يكون خير قدوة .

٢ - البيان : والبيان من النبى ﷺ على أقسام[1] :

- بيان نفس الوحى بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيا .

- بيان معناه وتفسـيره لمن احتاج إلى ذلك ، كمـا بين أن الظلم المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ...** ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك ، وأن الحساب اليسير هو العرض ، وأن الخيط الأبيض والأسود هو بـياض النهار ، وسواد الليل ، وأن الذى رآه نزلة أخرى عند سـدرة المنتهى هو جبـريل ، كما فسـر قوله : ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ..** (١٥٨) ﴾ [الأنعام] ، وما فسر قوله عز وجل : و﴿ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ...** ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، بأنهـا النخلة ، وكمـا فسر إدبار النجـوم بأنه الركعـتان بعـد المغرب ، ونظائر ذلك .

- بيان بالفعل ، كما بين أوقات الصلاة .

- بيان ما سـئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن ، فنزل القرآن ببـيانها ، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

- بيان مـا سئل عنه بالوحى وإن لم يكن قـرآنا ، كما سـئل عن رجل أحرم فى جبـة بعد ما تمخض بالخلوق (استـعمل ضربا من الطيب) ، فـجاء الوحى بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

- بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك .

- بيـانه للأمة جـواز الشىء بإقـراره لهم على فعله وهـو يشاهده ، أو يعلمـهم يفعلونه .

---

(١) حسن كامل الملطاوى ، ص ٨٩ .

- بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه ، وإن لم يأذن فيه نطقا ·

- أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته ، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود مخصوصة وأحوال وأوصاف ، فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله بيانه ، كقوله تعالى : ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ، فالحل موقوف على شرط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل ، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائدا على النص ، فيكون نسخا له وإن كان رفعا لظاهر إطلاقه[1] ·،

٣ - التشريع : فأحيانا ما كان رسول الله ﷺ يشرع بعض الأمور التى يراها مكملة وربما يؤدى إهمالها إلى الوقوع فى مخالفة روح الشريعة أو التناقض مع مبادئها العامة ، فمن ذلك الأمثلة التالية[2]:

- تحريم الزواج بالأقارب من الرضاعة مثل المحرمات من النسب ·

- إعطاء الجدة السدس فى الميراث ·

- تحريم الذهب والحرير ، مع أنه من الزينة التى أباحها الله لعباده : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف].

وقد اتصف محمد ﷺ بما يصعب حصره من الخصائص والصفات التى تضعه فى مقدمة مربى الأمة ، سوف يزخر كتابنا بالعديد منها ، لكن اكتمال صورة الموضوع الذى نعرضه فى هذا الجزء يقتضى منا عرض بعض هذه الخصائص والصفات :

- فهو المصلح المنصف ، يحارب الترف فى صوره الخليعة ، ويصل كل محتاج، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وإفشاء السلام ، وتشميت العاطس ، وإبرار المقسم ، ونصرة المظلوم ، وإجابة الداعى، ونهانا عن تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة ، وعن المياثر الحمر والقسى ، وعن لبس الحرير والاستبرق (نوع من الحرير) والديباج [3] ·

- وهو الذى يحب أن يستمع إلى آيات ربه تتلى عليه من فم غيره ، ليزداد فيها تأملا ، ففى معنى الحديث: «اقرأ على القرآن يا ابن مسعود» ، قال: أأقرأ عليك وعليك نزل ؟ قال : «إنى أحب أن أسمعه من غيرى » · فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى بلغ

---

(١) لمرجع السابق ، ص ٩٠ ·

(٢) عباس بيومى عجلان : دراسات فى الحديث النبوى ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٩ ·

(٣) صحيح البخارى ، ج١ ، الجنائز ·

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [النساء]، فرفع رأسه إذ النبى مستغرق فى البكاء[١].

- وهو الذى يعرف قدر نعمة الله عليه فيقوم بشكره ويقول للمتسائلين عن حاله وقد غفر الله له، يقول : « أفلا أكون عبدا شكورا ؟»[٢]

- وكم بلغت به الكياسة والفطنة إلى حد لم يجعل نفسه يوما موضع شبهة فيتهم، وإن كان هو المعصوم عند الله وعند الناس . كان ذات ليلة معتكفا فدخلت عليه إحدى زوجاته وقام يودعها فى الظلام فرآه رجلان من أصحابه وعرفاه ، فحولا بصرهما عنه وعن المرأة فناداهما : إنها صفية! فتعجب الرجلان ، فقال مشفقا عليهما : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا»[٣] .

- اتسمت تصرفاته ﷺ بالفطنة والذكاء ، فمن ذلك فقبل نبوته عرف العرب فطانته عندما استطاع إصلاح زعماء القبائل المتخاصمة حول رفع الحجر الأسود إلى جدار الكعبة ، فنجح ﷺ فى إقناعهم وحل خلافهم وجعلهم يشتركون معا فى رفعه ، فكان دليلا على ذكائه وفطنته[٤]. وفى صباه أيضا ، وقبل بعثته توجه بفطرته وفطنته وقلبه إلى خالق السماء يتأمل الكون العظيم من حوله متوجها إلى الخالق- سبحانه- ورفض أن يعبد الأصنام والأوثان كما كان يفعل أهله وقومه وأقرانه ، ولسان حاله فى صباه يقول : كيف أعبد حجرا لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع ؟ وظهرت فطنته فى بداية دعوته وطريقته فى نشر الدعوة بين العرب وغير العرب ، فكان من الفطنة أن أمر بعض المسلمين الأول بالهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة حفاظا على الدين ونشره فى مناطق جديدة ، فكان ذلك من الفطنة قبل أن يأمره الله- سبحانه- بالهجرة أو الجهر بالدعوة .

وإذا كان هذا هو إيماننا بنبوة محمد ﷺ ، وما تقوم عليه من أسانيد وما تهدف إليه ، فماذا كانت نظرة المستشرقين إليها ؟

بداية ، فهناك الجحد والإنكار المسبقين مما لابد أن يلونا رؤية كل منهم ويسوقاها إلى طريق آخر ، ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذه القضية ، ولكنا استحسنا ألا ننتهى من هذا الجزء قبل أن نشير إلى رأى اثنين من المستشرقين كنموذج ، وهناك غيرهما ، أما

---

(١) صحيح البخارى ، ج٢ ، تفسير القرآن ، ص ١٠٣ .

(٢) صحيح البخارى ، ج١ ، التهجد ، ص ٨١ .

(٣) صحيح البخارى ، ج١ ، الاعتكاف ، ص١٢٧ .

(٤) عبد الحميد درويش ، ص ١٠٨ .

أولهما فهو مونتجومرى وات Watt ، فهو يعزو نبوة الرسول ﷺ إلى التخيل الخلاق : Creative Imagination ، أى أن النبوة هنا ليست اصطفاء من الله سبحانه وتعالى لمحمد لأداء رسالته ، وإنما هى من إبداع عقلية النبى . ولكى تكتمل الرؤية فإن وات استبعد رؤية النبى ﷺ لجبريل على أساس أنها لا يمكن أن تكون تاريخية ، ويشكك وات فى أمر الوحى ذاته[١].

والمستشرق الثانى هو «بروكلمان» الذى نظر إلى نبوة محمد ﷺ نظرة عادية مجردة من بعدها الدينى ، فذهب إلى أن محمدا تحققت عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنيين فارغة، فكان يعتمل فى أعماقه هذا السؤال : إلى متى يمدهم الله فى ضلالهم ما دام هو- عز وجل- قد تجلى آخر الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟ وهكذا نضجت فى نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء رسالة النبوة ، وتجلى له طائف هو الملك جبريل على ما زعم أن الرسول تمثله فيما بعد ، فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة [٢].

والحق أن عملية الوحى الإلهى ثابتة تاريخيا ومتواترة فى الروايات ، فقد روت السيدة عائشة- رضى الله عنها- : كان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصباح . قالت ، فمكث على ذلك ما شاء الله ، وحبب إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه منها [٣] .

أما الآيات القرآنية الدالة على الوحى فهى كثيرة .

لكن الأمر لم يخل من بعض آخر - وإن كانوا قلة - قد أنصفوا نبوة الرسول ﷺ إلى حد ما ، فمن ذلك ما نقله لنا العقاد عن كتاب أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظمى ، حيث كتب- إدوارد جورج- صاحب الفصل المخصص للدين الإسلامى : إن إيمانه الذى لا يتزعزع برسالته الإلهية وصدق دعوته يقيمه مثلا فريدا فى التاريخ ، وإن اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو اللحمة التى تنسج حولها بشارته وعظاته ، ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورة عاجلة ملحة ، وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة إلى محمد ، وبغيرها لا يتأتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الإسلام[٤].

---

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم : الاستشراق فى السيرة النبوية ، هيرندن ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٧ ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) طبقات ابن سعد ، ج١ ، ص ١٩٤ .

(٤) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ٢٣٧ ، نوفمبر ١٩٧٠ ، ص ٣١ .

ابتـــلاءات !

من حقـائق التاريـخ والاجتمـاع والنفس الإنسانـية ، أن المحن والابتـلاءات تعد مصـدرا هاما للتربية وصـقل الشخصـية ، على الرغم مما تحمله من صـور عذاب وألم وحرمان ، بل إنها قد تحمل دماء تسيل ، وإصابات فى الجسد ، فهى فرصة للإرادة كى تمارس فعلها ، فكلـما كثرت العقـبات وتنوعت ، كان ذلك أكثر اسـتدعاء للإرادة كى تظهر قوتها وفاعليتها .

والمحن والابتـلاءات كـذلك مصـدر هام للتـعلم ، فـهى تكشف لمن يـتعـرض للابتلاء، العدو من الصديق ، وهى فـرصة لاختبار الأعوان الحقيقـيين الذين يستطيعون تحمل مشقة الطريق .

وهى اختبار واضح لمدى صدق الإيمان بالله والثقة بما وعد به عباده السائرين على طريقه ، ومن هنا فلم يبالغ فى كثيـر أو فى قليل هذا الذى أطلق مقولة ذات دلالة هامة الا وهى أن المحن هى التى تصنع الرجال .

ومن هنا فإن اسـتقراء التاريخ يبين أنـه ما من رسول أو نبى أو مصلح قـام يدعو قومـه إلى استـقامة الطريق ، إلا وقـد تعرض لما يصـعب حصره مـن المحن والعذابات والآلام والابتلاءات ، وما كان لدعوة أى منهم أن تنجـح فى إنقاذ البشرية مما تكون قد تردت إليه إلا بفضل ما كانوا عليه من قوة صمود ، وقدرة على المقاومة .

وما تعرض له رسول الله ﷺ من صور ابتلاء ومحن تزخر بها مئات الكتب التى عرضت لسيرته ، نعـرض لنماذج منها على اعتبار أنهـا بالفعل ذات دلالة لا تخفى فى إنضاج الشخصية وتزويدها بقوة الإرادة والعزم واليقين .

فمنذ مولده ﷺ ، افتقد الأب الذى يمكن أن يمده بفيوضات الأبوة ومشاعر الأمن والطمأنينة والحماية .

ولم يلبث وهو بعد فى سنوات الطفولة المبكرة أن يفـقد المصدر الثانى ، ألا وهو الأم بكل ما تحمله من طاقة حب وحنان وتوجيه ورعاية .

وهو إذ يجد يد جده عبد المطلب تتلقفه لتعوضه عما فقده من حنان الأب والأم، إذ به بعد عامين على وجه التقريب ينتـقل كذلك إلى رحمة الله ، والطفل قد بلغ فقط سن الثمانية من العمر ، حـيث أكدت الروايات أنه ﷺ قد بكى لموت جده ، وكيـف لا يبكى وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش وشريفها وهو فى طفولته التى هى فى مسيس الحاجة إلى اليد الحانية والنفس العاطفة والقلب المشفق ؟ .

وعندما بدأت الدعوة للإسلام ، بدأ طريق العذاب والابتلاء ...

إن آخر ما يلجأ إليه المغيظ المحنق ، أن يعمد إلى التعذيب البدنى ، ويتفنن فى إلحاق الأذى بمن يخالفه ، تحرقا بالنار ، أو كيا باللهب ، أو طرحا على الرمل الملتهب ، أو تغريقا فى الماء ، وقد يستعمل وسائل أخرى لا تخطر على بال ، كوضع حجر ثقيل على الصدر فى حمارة القيظ ... وهكذا . ولا شك أنه لا يلجأ إلى ذلك إلا بعد استنفاد الوسائل العادية بحيث تكون هذه المرحلة هى الأخيرة ، والطغاة المتمرسون بالغطرسة والفجور يخترعون ألوانا من التعذيب يفتنون به الفئة المؤمنة : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج].

وكلما ازدادوا فى الإيذاء ازداد المؤمنون تمسكا بعقيدتهم ، وتوهجت شعلة الإيمان فى قلوبهم ، لأن الدنيا فى نظرهم قنطرة عبور إلى الآخرة ، دار النعيم والكرامة ، ودار العدل الإلهى التى يوفى الصابرون فيها أجرهم بغير حساب . إن حلاوة الإيمان الغامر لتطغى على مرارة العذاب الوحشى فتبدد آثارها . وتاريخ الطغاة حافل بصنوف التعذيب الوحشى لكل من يخالفهم فى الرأى ، أو العقيدة كأنما يريدون أن يتحول البشر إلى دمى جامدة لا تفكر فى أمر ، ولا تناقش فى مبدأ . لكن سيرة هؤلاء الرجال الذين صمدوا فى إيمانهم ستظل تلهم الحياة رشدها وتعطر أجواءها بعطور الإيمان ، وتعلم الأجيال من بعدهم أنه كلما كثرت القرابين على مذابح الحق ازداد نفاسة وسما طهرا وقداسة ، ولابد على أية حال من دفع الثمن لتسلم العقائد والمبادئ والحقوق [1].
وإذا أردنا أن نرى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت فى جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فلنقرأ ما وصف به الله تعالى موقفهم من رسول الله ﷺ فى قوله الكريم :
﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج].

فهم يعبرون بذلك الجدل العقيم عن ضيق فى النظر ومحدودية فى الأفق فلا يتصورون أن يكون الرسول بشرا ، تجرى عليه سنن الجنس البشرى ، وإن تصوروه بشرا فلابد أن يكون من القمم الغنية ، ممن يمتلكون الرياض والقصور ، بينما هذه هى حكمة

---

(١) توفيق محمد سبع : أضواء على الهجرة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلام ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٦١ ، فبراير ١٩٧٣ ، ص ١٤٠ .

المولى عز وجل أن يكون فردا من أفـراد الناس يشعر بشعورهم ويخبر مـا تمتلئ به الحياة من محن ، وأن يكون من البسطاء مـالا وإن كان من المتميزين أصـلا ونسبا ، ومن هنا فسبحانه وتعـالى يرد على هذا بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا (٢٠) ﴾ [الفرقان].

وكانت قـصص التعـذيب لمن يقبل عـلى دعوة الحق ، كـالمؤامرة العامـة ، التى تحالفوا على إنجازها من غير محابـاة ولا استثناء ، ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتهـا ، ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى (عـمر بن الخطاب) ، انحدر إلى ذلك قبل أن يـسلم ، فنكل بجارية له ، وبالغ فى تعـذيبهـا وطلب إليهـا أن تعود إلى عبادة اللات والعزى ، ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء أبى بكر لها [١] .

أما آل ياسر عمـار وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للفداء ، والتضحـية ، والثبات على المبدأ ، والتمسك بالحق ، والتفانى فى ذات الله ، والاسـتهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب وتملأ الصدر ، وتحيـا بها الروح فى دنيا من السعادة والبهجة ، والرضا والارتياح ، اسـتبد بهم بنو مخـزوم ، يسومونهم سوء العـذاب ، ويحملونهم على الكفر ، وينكلون بهم التنكيـل الذى تأباه الإنسانية ، وتعافه الكـرامة ، وتنفر منه الأخلاق ، والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس ، وحرارة الرمضاء ، الأمر الذى لم تقو عليه بنيـة الرجل المتهدم ياسر أبو عمـار فلفظ أنفاسه فى زفير الحـر ، وظمأ الكبد وجوع البطن ، وإيلام الروح ، ونصب النفس ، ولا سيمـا وقد رأى زوجته يطعنها أبو جهل اللعين فى قلبـها الطعنة النجـلاء التى تودى بحياتهـا ، وليس بعد ذلك كله أسى تجىء به نفوس ناكبة عن الرشد ، جانحة إلى الباطل ، منغمسة فى الشر[٢] .

وهناك أمية بن خلـف ، الذى علم بإسلام عبده بلال بن حمـامة ، فلم يكن له من هم إلا التفـنن المخجل فى إذاقتـه العذاب ألوانا ؟ لقـد أحاط عنقه بحبل من ليف النخـيل الخشن ، وأسلمـه إلى أيدى الصبيـان الذين لا سبـيل للرحمـة إلى قلوبهم ، فأخذوا يعبثون بجره كالحـيوان ، إلى أمام وإلى خلف ، يمينا ويسارا ، والحبل فى عنقه حتى حفر فيه مجرى داميـا ، غير أن بلالا ، رغم كل ذلك ، لم يبد عليه التأثر ، فما كان من أمـية إلا أن منع عنه الطعام والشـراب ، وكان يخرجـه إذا حميت الظهـيرة ،

---

(١) إبراهيم على أبو الخشب ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، على هذا الرمل الذى جعلته حرارة الشمس كالجمر(١) .

وكان النبى الكريم يسمع ، وهو فى شدة الألم ، بما ينصبّ من العذاب على من آمن من القرشيين ، وكان يرى ويسمع ما يصيب العبيد والموالى من التنكيل الذى تنخلع له القلوب ، فكان يحزن أشد الحزن لما يصيبهم ، ويبتئس لما ينزل بهم ، حتى كانت فتنة شديدة أصاب زلزالها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، فافتتن من هولها بعض الضعفاء الذين كانوا لم يثبتوا بعد على الإسلام ، وعصم الله من شرها من صبر(٢) ، وكان أكثر هؤلاء من السابقين الأولين إلى اعتناق دين الله ، وكان الرسول طوال هذه الفتنة يلجأ إلى الله القوى العزيز مستغيثا ، ويدعوه متضرعا أن يجعل للمؤمنين من أمرهم يسرا ، ومن هذا العذاب مخرجا ، وأن يكفيهم شر الطغاة المتكبرين (٣) ، ولم ييأس فى الوقت نفسه من أن يطلب من الله أن يهدى أولئك القساة الذين أفقدتهم الكراهية والحقد صوابهم ، وأعماهم الكبرياء فضلوا سواء السبيل ، فكان لا ينفك يدعو الله أن يوفقهم إلى عبادته وطاعته والدخول فى دينه ، فقد كان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليهم عنتهم ، حتى وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

واجتمع الملأ من المعاندين له ﷺ من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم الرسول ﷺ سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم (٤) .

قالوا : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ،

---

(١) اتين دينيه : محمد رسول الله ، ص ١٤٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٥٥ج١ ، ص ٣١٧ .

(٣) عبد المنعم محمد عمر : خديجة أم المؤمنين ، القاهرة ، دار الريان للتراث ، ١٩٨٨ ، ص١٩٤ .

(٤) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ﷺ ، ج١ ، ص ٣٣٨ .

وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تطلب ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ·

قال ﷺ : «ما بى ما تقولون ، ما جئتكم بما جئت أطلب أموالكم والشرف فيكم، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »·

وكما نرى فى عصرنا الحاضر من قيادة الولايات المتحدة الأمريكية قوى البغى للتضييق الشديد على الأمم التى لا تسير فى ذيلها وترضى بموقع التبعية ، فتقود مجلس الأمن لفرض الحصار والمقاطعة ، نجد صورة من ذلك فى هذا الزمن الذى شهد سنوات الدعوة الإسلامية الأولى ، فقد تمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم أو يحمى أحدا منهم حزبا واحدا دون سائر الناس، ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئا ، وألا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم ، وكتبوا فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيدا لنصوصها[1] ·

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة لجحوا فى فرض رأيهم وإشباع ضغنهم ، فاضطر الرسول ﷺ ومن معه إلى الاحتباس فى شعب بنى هاشم ، وانحاز إليهم بنو عبد المطلب ، كافرهم ومؤمنهم على سواء : ما عدا أبا لهب فقد آزر قريشا فى خصومتها لقومه ·

وضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعضتهم الأزمات العصيبة حتى رثى لحالهم بعض الخصوم ، ومع اكفهرار الجو فى وجوههم ، فقد تحملوا فى ذات الله الويلات ·

ولم تفتر حدة الوثنيين فى الحملة على الإسلام ورجاله ، وفى تأليب العرب عليهم من كل فج · فقد كانت الصحابة ، إذا قدمت عير إلى مكة ، يأتى أحدهم

---

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ١٢٣ ·

السوق ليشترى شيئا من الطعام قوتا لعياله ، فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتألمون من الجوع ، وليس فى يده شىء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا [1].

وروى يونس عن سعد بن أبى وقاص ، قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها وفتها بالماء ، فقويت بها ثلاثا !

ونزل رسول الله ﷺ الطائف ، وقصد نفرا من ثقيف هم سادتها وأشرافها ، لكنه لم يجد لديهم إلا الصد والمعاندة والإنكار ، فقام من عندهم يائسا من دخول ثقيف فى الإسلام ، وخشى أن يُعلموا قريشا بما كان من أمره ، فتقدم إليهم راجيا أن يكتموا عليه ما كان بينه وبينهم من دعوته لهم إلى الإسلام ونصرته ضد قريش . ويبدو أنهم كانوا حريصين على إذاعة الأمر إرضاء لسادة قريش ، وقد أسرعوا فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما سار بين صفيهم محاولا المرور جعل لا يرفع رجلا عن الأرض إلا رشقوها بالحجارة ، حتى دميت رجلاه وتخضبت نعلاه بالدماء . وكان إذا أزلقته الحجارة ، قعد إلى الأرض ، فيأخذونه بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى عادوا إلى رجمه بالحجارة ضاحكين . وخلص منهم ورجلاه تسيلان دما ، واحتمى منهم ببستان من بساتين الطائف ، فاستظل بشجرة وهو مكدود موجع ، وكان البستان ملكا لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ورآهما فيه ، فكره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله [2].

ولما اطمأن فى مكانه اتجه إلى ربه بالدعاء ضارعا شاكيا قائلا : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك أو تُحل على سُخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »!!

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) شوقى ضيف ، محمد خاتم الرسل ، ص ١٢٤ .

هذه الفترة من فترات حياة الرسول ﷺ هى من أشد ما عرف التاريخ الإنسانى روعة فى العصور جميعا ، فما كان الرسول والذين اتبعوه طلاب مال ولا جاه ولا حكم ولا سلطان ، إنما كانوا طلاب حق وإيمان به ، وكان ﷺ طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى وتحرير لهم من ربقة الوثنية الوضيعة التى تنحدر بالنفس الإنسانية إلى خزى المذلة والهوان · فى سبيل هذه الغاية الروحية السامية ، لا فى سبيل شىء آخر · كان الأذى يصله ، وكان الشعراء يسبونه ، وكانت قريش تأتمر به حتى حاول رجل قتله عند الكعبة ، وكان منزله يرجم ، وكان أهله وأتباعه يهددون ، فلا يزيده ذلك إلا صبرا وإمعانا فى الدعوة ، وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله عليه الصلاة والسلام : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »، وهانت عليهم جميعا التضحيات الجسام ، وهان عليهم الموت فى سبيل الحق وهداية قريش له[1].

ومع ذلك لم تذعن قريش ، بل اشتد خوفها من انتشار دعوة محمد بين قبائل العرب الذين يأتون للتجارة والحج ، بعد أن انتشرت بمكة ، فبدأت تلجأ إلى سلاح الدعاية : الدعاية بكل ما تنطوى عليه من مجادلة بغير حق ، وحجج ومهاترة وترويج إشاعات وتوهين لحجة الخصم · الدعاية على العقيدة وعلى صاحب العقيدة واتهامه فيها واتهامها لذاتها ، الدعاية التى لا تقف عند حدود مكة ·

فلما فكر الرسول ﷺ فى مبادأة الحجاج من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله ، اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون : ماذا عسى أن يقولوا فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج ، حتى لا يختلف بعضهم مع بعض ويكذب بعضهم بعضا · واقترح بعضهم أن يقولوا : إن محمدا كاهن ، فعارض الوليد هذا الرأى على أساس أن ما يقوله محمد ليس بكلام الكهان وسجعهم · واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا مجنون ، فعارض الوليد هذا الرأى بأنه لا تبدو عليه أى علامة لهذا · واقترح غيرهم أن يتهموا محمدا بالسحر ، فرد الوليد بأن محمدا لا ينفث فى العقد ولا يأتى من عمل السحرة شيئا ، · وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب إن هذا الرجل ساحر البيان ، وأن ما يقوله سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته · وكان لهم عند

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ١٦٤ ·

العرب من الحجة على قولهم هذا ما أصابهم في مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعد أن كانت مكة مضرب المثل في العصبية وفي قوة الرابطة[1] .

وإذا كانت الحروب تمثل موقعا مركزيا للمحن والابتلاءات ، إلا أنها كانت بالنسبة للمسلمين مواسم فرح بالجهاد في سبيل الله ، لكن ما حدث في غزوة أحد كان موقعا مختلفا ... فلقد هُزم المسلمون ، ويعود الرسول ﷺ إلى المدينة ، بعد أن استطاعت أيدي الأعداء أن تنال منه برغم الفدائية العالية التي أبداها المسلمون ، ووصلت إليه حجارتهم حتى وقع على الأرض ، وكسرت رباعيته وشج وجهه ، وجرحت شفتاه ودخلت حلقات المغفر في وجنته ، وسال دمه الشريف فجعل يمسحه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله قوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾ [آل عمران] .

يعود بعد أن شهد مصرع حمزة ، وشهد مصارع سبعين من أصحابه ، في حين كان قتلى قريش وحلفائها اثنين وعشرين . يعود بعد أن خالف الرماة أمره ، وعرضوا الجيش لهزيمة دفع الجميع ثمنها دماء واستشهادا وبلاء وصبرا[2] .

وينظر إلى أصحابه وعامتهم جرحى ، وأعظمهم مصابا بنو سلمة ، وبنو عبد الأشهل ، وتعود النساء المؤمنات اللاتي شهدن المعركة : من فقدت زوجها وولدها وأخاها .. من دافعت عن رسول الله بنفسها .. من سقت الجرحى .. ويرتفع صوت الرسول ﷺ : « اصطفوا فنثني على الله » !

بعد الجهاد والاستشهاد والدماء والمخالفة واليقظة والدفاع المرير ، بعد الشهداء الثاوين إلى جوار جبل أحد .. بعد هذا كله ، يرتفع صوت النبوة : اصطفوا فنثني على الله !!

ويصطف الرجال صفين خلفهم النساء ، ويدعو الرسول ﷺ فيقول :

« اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت . اللهم إنى أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك . اللهم إنى أسألك الأمن يوم الخوف ، والغنى يوم الفاقة ، عائذا بك من شر ما أنطيتنا (أعطيتنا وهى لغة يمنية) ، وشر ما منعت منا . اللهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

(٢) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة أحد ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٨٣ ، ص٩٨ .

توفنا مسلمين . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين»[1].

وواجه الإسلام تحديا من نوع آخر ، وابتلى المسلمون ببلاء من قوم تظاهروا بالإسلام بينما ظلت قلوبهم تمتلئ بالحقد الأسود .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وهؤلاء كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى على الرسول ﷺ وبعض أصحابه ، ولكنه كان يقبل منهم ظاهرهم ، واكلا سرائرهم إلى الله ، ما داموا خاضعين لحكومته ، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته ، فكان ضررهم ينحصر فى حل عزائم المؤمنين ، إذا دعاهم الرسول للجهاد ، ينفث الذعر فى قلوبهم ، وبث اليأس فى نفوسهم ، بالتهويل فى قوى أعدائهم ، والمبالغة فى عددهم ، فإذا لم تفلح وسائلهم فى صرفهم ، عمدوا إلى ما هو أفعل فى إفشالهم ، فخرجوا معهم ، حتى إذا تلاقى الجمعان فى ساحة الوغى تبادروا إلى الهزيمة ليجروا المؤمنين معهم ، وهو تدبير خطير يؤثر فى القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير ، فكان النبى ﷺ يغض الطرف عن فعلهم ، ويقبل واهن أعذارهم[2].

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد المسلمون إلى بلدهم ، عادوا إلى سابق إرجافهم ، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم ، وروجوا من سيئ المبادئ وسقيم الآراء ما تتسمم به النفوس ، وترتبك العقول ، فكانوا أشد على النبى وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته ، كل هذا والرسول ﷺ لا يأذن فى الاصطدام بهم لاتقاء شرهم ، لمخالفة ذلك للمبدأ الإسلامى العظيم من قبول الظاهر ، وترك الباطن لعلام السرائر ، وهذا مبدأ بعيد الأثر فى تربية الأمم على احترام الحياة البشرية ، وعدم الإسراف فى سفك الدماء جريا وراء الظنون ، والأمة التى تربى على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول تمضى فى تطبيقه فى كل أدوارها ، كتقليد من تقاليدها الاجتماعية ، فتتقى شرور التناحر فى حياتها المدنية ، حيث تختلف المبادئ ، وتتباين المذاهب ، فلا تتصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر ، وهذا الضبط للنفس من أجل ما تتصف به الأمم الرشيدة[3].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) محمد فريد وجدى : السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

ويصور القرآن الكريم جانبا من جوانب هؤلاء المنافقين الذين ابتلي بهم المسلمون بقوله- عز وجل- : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة].

أما اليهود ، فقد كانت مؤامراتهم ابتلاء آخر من الابتلاءات التى واجهها المسلمون، فأمرهم معروف فى خيانة العهود ونقضهم ما يصلون فيه مع آخرين من مواثيق ، كان الرسول ﷺ قد عاهدهم وآمنهم على دينهم وأموالهم في كتاب عهد بين المهاجرين والأنصار ، اشترط فيه على اليهود وشرط لهم ، ثم إذا بهم يبدأون فى نقض العهد .

فعندما انتصر المسلمون فى أول مواجهة عسكرية مع كفار مكة فى غزوة بدر تكشف أمر اليهود ، وبدأوا يظهرون ما كانوا يضمرون ، ففى غمرة المفاجأة المذهلة حيث كانوا يمنّون انفسهم بهزيمة المسلمين على أيدى وثنى مكة ، أخذوا يشيعون فى المدينة أنباء هزيمة محمد ﷺ فى بدر قبل عودته منها ويتغامزون ويأتمرون بعد عودته حتى فاضت نفوسهم بالحقد أى فيض ، وبلغ من هذيانهم أن يقدموا على عمل صبيانى، إذ قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم - وكانوا صاغة - فجعلوا يراودونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها مستخفيا فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى أعلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وطلب الرسول ﷺ إلى بنى قينقاع أن يكفوا عن أذى المسلمين ، وأن يحفظوا عهد الموادعة ، ولكنهم استخفوا به وأجابوا : لا يغرنّك يا محمد أنك لاقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس [١].

---

(١) يوسف عبد الهادى الشال : خاتم المرسلين ، حياة ورسالة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٤٨ ، أبريل ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣ .

وقد تمخض حادث المرأة عن إجلاء يهود قينقاع عن المدينة ، وإن لم يكن وحده هو السبب الدافع إلى إجلائهم ، ذلك أن يهود المدينة وضواحيها كانوا على اتجاه واحد من الإغراء بالمسلمين ، والتحريض عليهم بمختلف الأساليب ، بيد أن بنى قينقاع ، هم الذين قدموا الدليل المادى بعملهم هذا وتهديدهم للرسول ﷺ .

ولاح أيضا موقف اليهود المخزى أثناء معركة أحد ، حيث لم يكونوا على النصر ضد من حارب أهل هذه الصحيفة كما نص على ذلك العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، بل كانوا يذيعون ما يظهر شماتتهم فى المسلمين حين هزموا فى أحد ، فقالوا : انهزم محمد وأصحابه ويقول إنه نبى مرسل ! لو كان نبيا ما انتصر عليه الوثنيون !

ثم هموا أن يغتالوا الرسول ﷺ[1] !

فقد خرج ﷺ يوما إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وكان بينهم وبين بنى النضير حلف وجوار . قال اليهود : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت . ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - والرسول إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ . وصعد يهودى فألقى الصخرة ، لكن بعد أن كان المصطفى ﷺ قد تحرك من مكانه ، ولم تزده فعلتهم علما بغدرهم ، لكنها زادته تصميما على حسم شرهم .

وعاد إليهم ﷺ ، فحاصرهم ست ليال من شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة .. ، واستسلموا ، بغير قتال ، فحكم الرسول ﷺ عليهم بالجلاء ، وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل ، فسمح لهم ، وبلغ بهم الحرص أن راحوا ينتزعون الأخشاب من دورهم ليحملوها معهم ، ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع إلى عشيرتهم فى خيبر ، ولم يكن دورهم قد حان بعد[2] !

التوجيه الربانى :

ولم تكن شخصية الرسول ﷺ مجرد نتاج لجملة الظروف والمتغيرات التى أحاطت به ، وشكلته ، وإنما اختُص بتربية ربانية تمثلت فى عديد من المظاهر التى تؤكد

---

(١) بنت الشاطئ : مع المصطفى ، ص ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

كيف أن رعاية الله كانت تظلله ، فضلا عن التزامه ﷺ التزاما كأقصى ما يكون الالتزام بكل ما كان سبحانه وتعالى يوجهه به ·

وربما يتساءل البعض : إذا كانت تربية الرسول ﷺ فى كثير منها إنما هى تربية ربانية ، ورعاية إلهية ، فكيف ندرجها هنا على اعتبار أن تكون موجها ومصدرا لكل من يبتغي تربية إسلامية ، بينما تربية الرسول كانت تربية اختص هو بها ؟ وجوابنا على ذلك أن الشخصية الكاملة إنما هى مثل أعلى نسترشد به ونتوجه ، نتخذه معيارا للحكم على القول والعمل ، ما إذا كان صحيحا أو غير صحيح ، وليس معنى عدم استطاعتنا الوصول إليه أن نترك التوجه به والاستهداء بهديه ·

وفضلا عن ذلك ، فإن استقراء هذا الجانب ، يشير إلينا أنه بالقدر الذى نقترب فيه من الله ، ونلتزم بالصراط المستقيم الذى أرشد إليه ، بقدر ما تجيئنا رحمته وتغمرنا مغفرته ، وتظللنا رعايته·

وإن رسولنا ﷺ بشر ، ولكن عناية الله الخاصة رعته وأحاطته فى تصرفاته ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا... ﴾ [الطور:٤٨]، وإذا أردنا أن نعرف على سبيل المثال كيف كانت تلك العناية الربانية تحوطه ، فلنتدبر- قوله عز وجل- : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ [النساء] ، وكذلك قوله- سبحانه وتعالى- : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ [النساء]·

فقوله تعالى :﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ يفيد أنه ﷺ مؤيد فى أحكامه بين الناس بوحى ونص، أو برأى يجرى على نهج الوحى ، فرأيه دائما صائب ، والعصمة مكفولة له فيما يراه ، لأنه يراه بعون الله وإرشاده ، وهو بذلك يغاير المجتهدين الذين يجتهدون ما وسعهم التفكير ، ولا يقطعون بأن ما وصلوا إليه هو الصواب الحتم ، بل يقولون ما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى اجتهاده : فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر[١]·

ولنتدبر قوله سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾ [الإسراء]· وظاهر أن تثبيت الله له حال

---

(١) حسن كامل الملطاوى ، رسول الله فى القرآن الكريم ، ص ٢٥٠ ·

دون الركون إليهم ، فلم يقع منه شيء ﷺ ، وهو ما يوضح أن الله تعالى لا يتركه لنفسه البشرية كغيره من المؤمنين ، بل يتولاه بالرعاية والتوفيق في كل شئونه[1].

ويتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه في كثير من سوره ، يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ﴾ [الأحزاب] ، ويقول سبحانه أيضا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء] ، ويقول عز وجل - كذلك : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) ﴾ [آل عمران] .

من أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله ، ﷺ أرشدنا الله - عز وجل - إلى اتخاذ الرسول أسوة فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب] . بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهي عما نهانا عنه ، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك فقال : ﴿ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر] .

ورسول الله ﷺ لأنه يمثل الأخلاق القرآنية في ذروتها وسنامها جعل الله - سبحانه وتعالى - ، له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه - لأنه تمثل القرآن وحققه ، وأصبح قرآنا - أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق بعمله ، فلا ينطق عن الهوى ، ولا يعمل بالهوى[2].

يقول - سبحانه - معبرا عن هذه الحقيقة أروع تعبير : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ ... (٥٣) ﴾ [الشورى] ، ويقول - تعالى - لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

والحق أن الإفادة الشاملة عن أخلاق المصطفى ﷺ العظيمة ومبادئه الحكيمة مما أعجز الأقدمين ، وأعيا المتأخرين ، وقد أصاب الشاعر فيما يقول[3] :

لم يبق للمداح فضل بعدما	نطقت به الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافي أنجما	أيروم مخلوق ثناءك بعدما

أثنى على أخلاقك الخلاق ؟!

---

(١) حسن كامل الملطاوي ، ص ٢٥١ .

(٢) عبد الحليم محمود : الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص ٢٧٤ .

(٣) أبو النصر الطرازي الحسيني ، ص ١٢ .

والحقيقة أن أى فرد من العقلاء المنصفين النبلاء ، إذا فكر فيما وصفه الله به من آياته ، وأثنى عليه فى أسلوب كلماته ، وحقق فى معانيها تحقيقا ، لاكتفى به عما سواه، ولنا أن نتأمل فى هذه المجموعة من آيات القرآن الكريم وصفا للرسول ﷺ :

-﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم].

- ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة].

-﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب].

-﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف].

- ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [الأعراف].

-﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأعراف].

-﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبأ].

لقد حمى الله- تعالى- محمدا ﷺ فى نشأته فكفله محبوه ، فلم ترهق أعصابه، ولم يرهق فى يتمه ، فنبت نباتا حسنا محبوبا أليفا مألوفا ، وحمى نفسه من أن تتردى في مهاوى الانحراف .

فلقد كانت طبيعة العمل الذى اختاره الرسول ﷺ لأنه أسهل الأعمال إليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم والعبيد ، فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذى لا يعد من معالى الأعمال ، بل يعد من صغارها، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه عن عزتها من غير

استعلاء ، فكان يجذبه إلى العلا شرف نسبه وطيب محتده ، ما يراه فى أسرته من سمو وسيادة ، وما يكمن فى طبعه الكريم من حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار للضعفاء ، ويجذبه إلى الرضا بالقليل صغر العمل فى ذاته من غير نظر إلى ثمراته ، وأثره فى تربية النفس على حسن المعاملة والرفق بالناس[1].

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم وأولياؤهم فى الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البرىء ، وغير البرىء ، ومنهم من ينزع إلى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد فى المجتمع إذا شدا وترعرع وبلغ أشده ، وإذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع إلى الحب الخالص البرىء ، فهؤلاء يدفعون إلى المجون ، والمجون يهدى إلى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدى إلى الفساد ، والصحبة تجعل السقيم يعدى البرىء ، فكان أشد ما يخشى على محمد ﷺ فى صباه هو عدوى المجون ، إذ هو محبب إلى نفوس الغلمان فى سن المراهقة ، ومحمد ﷺ كان مراهقا فى هذه السن، ولكنه تربية الله ، فجنبه ذلك وأبعده[2]، وفى ذلك تروى واقعتان رواهما النبى بنفسه :

روى ابن إسحاق والبيهقى والطبرى عن محمد ابن الحنفية ، عن أبيه على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول[3] : «ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله- عز وجل- فيهما .. قلت لبعض فتيان مكة - ونحن فى رعاء غنم أهلها : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ! فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى (حيث نام) ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر،

---

(١) محمد أبو زهرة : المرجع فى السيرة النبوية ، ج١ ، ص ١٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٣) محمد الصادق عرجون ، ص ٢٩٢ .

فضرب الله على أذنى ؛ فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمنى الله- عز وجل- بنبوته»[1] .

وبأمر الله ومشيئته إذا بمحمد ﷺ يرى ما يرى فى مكة ، قبل أن يبعث ، فلا يستسيغه ، وتعافه نفسه، وعلى العكس من ذلك تهفو نفسه إلى فئة أخرى غاية فى القدرة والندرة : لقد سمع أن رجالا من مكة رفضوا الكثير مما كان يحدث من مباذل وسيئات ، وخرجوا على قومهم ، منهم ورقة بن نوفل الذى كان قد عرفه وهو صغير فى مكة ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى أعلن صرخة احتجاج فى وجه قوى الظلام ولعن اللات والعزى وهبل ، وتوقع الناس أن يصاب بالبرص ، كما يحدث لمن يلعن الآلهة ، فلم يحدث له شيء ، وظل يطالب تجار قومه بأن يعدلوا مع من يتعاملون معهم، فبدأوا يتعرضون له . ومنهم زيد بن عمرو الذى طالب الرجال ألا يئدوا البنات، وحثهم على أن ينقذوا أنفسهم من العار ، فلا يسلموا المرابين أجساد النساء وفاء للديون ، ولكن المستضعفين لم يستطيعوا أن يستجيبوا له ، ونفاه التجار الكبار إلى خارج مكة[2] .

وقال محمد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما ، حتى ما أسموه فى قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[3] .

روى ابن سعد فى طبقاته من طريق شيخه الواقدى عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تحضره قريش تعظمه ، تنسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى الرسول ﷺ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٢) عبد الرحمن الشرقاوى ، محمد رسول الحرية ، ص ٢٩ .

(٣) السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ٢٥٠ .

ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا، قالت أم أيمن : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا ، فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال : إنى أخشى أن يكون بى لمم ، فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟ قال : رأيت أنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد ، لا تمسه ، قالت أم أيمن : فما عاد إلى عيد حتى تنبأ (بعث نبيا)[1].

وقد ترددت فى عديد من المصادر قصة بحيرا الراهب ، أنه لما رأى قريشا تحلف باللات والعزى ، سأل رسول الله ﷺ بهما ، فقال له الرسول ﷺ : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما . وكذلك تناقلت المصادر حديث البخارى فى بناء الكعبة ، وتعريه مع عمه العباس لنقل الحجارة ، فسقط به ، فلما قام شد عليه إزاره ، فقال له عمه : ما شأنك ؟ فقال :إنى نهيت أن أمشى عريانا ·ويتصل بهذا ما روى عن الرسول ﷺ فيما يتصل بمرحلة طفولته قال : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم لا أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك فأخذته فشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى[2] .

فلم يكن حفظ الله- تعالى- عن بعض معايب الجاهلية ليصرفه عن مشاركة أقرانه من الغلمان والأطفال مع رعاية ما يرشد إليه من الخير والأدب ، ففى هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادى والريف ، وهى عادة التكشف والتعرى فى ألعابهم ورياضتهم وبعض أعمالهم ، وهى عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية وتنكرها أعراف المجتمعات الفاضلة ، ومحمد ﷺ أرادته المقادير الإلهية ليكون فى تمام رجولته هاديا ومرشدا ، والهداة المرشدون أكمل الناس أدبا وأرقاهم عادة وأحسنهم صنعا ، فطرة يفطرهم الله عليها، وتأديبا يؤدبهم الله به، وإعدادا صالحا يعدهم له فى منشئهم ومرباهم ، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التى فطرهم الله عليها[3] .

---

(١) حامد بن محمود بن محمد بن منصور ليمود : منتقى النقول فى سيرة أعظم رسول ، مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامى ، ١٩٨٢ ، ص ١١٦ .

(٢) محمد الصادق عرجون ، ص ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

وروى البيهقى عن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح له المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله ﷺ (أى بالكعبة) ، وطفت معه ، فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله ﷺ : لا تمسه ، قال زيد : فطفنا ، فقلت فى نفسى : لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته ، فقال رسول الله ﷺ: ألم تنه ؟ قال زيد : فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه[1].

وسبق لنا أن عرضنا لتعبده قبل نزول الوحى فى غار حراء ، وكان هذا من ضمن مراحل التمهيد والإعداد التربوى من قبل الله -سبحانه وتعالى - للرسول ﷺ ، وكانت فترة الانقطاع للعبادة زمنا كل عام بعيدا عن الناس فى خلوة تقربا لله سبحانه وتعالى تسمي تحنفا أو تحنثا . وقد درس ابن هشام[2] لفظى التحنث و التحنف ، فقال : تقول العرب: التحنث والتحنف ، يريدون الحنيفية ، فيبدلون الفاء من الثاء ، كما قالوا جدث وجدف ، يريدون القبر . وفى الرد على ابن هشام قال أبو ذر : ... والجيد فيه أن يكون فيه التحنث هو الخروج من الحنث ، أى الإثم ، كما يكون التأثم ، الخروج عن الإثم ؛ لأن تَفعّل قد تستعمل فى الخروج من الشيء، فى الانسلاخ عنه ، ولا يحتاج فيه إلى الإبدال الذى ذكره ابن هشام .

وقد وصف المؤرخ الطبرى تحنث الرسول ﷺ ، فى غار حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ، والتحنث التبرر ، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كانت الكعبة أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله- عز وجل- فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ...[3].

إن هذه النفس الحائرة الثائرة ، التى لم تجد فى العالم المحسوس ما تعول عليه ، وتركن إليه ، فأخذت تلتمس إطفاء ظمئها ، فى عزلة الكهوف ، وظلمة المغاور ، وهى محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب ، ومتع المكاسب والمآرب ، لهى نفس لم تطبع على

---

(١) منتقى النقول ، ص ١١٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج١ ، ص ١٥١ .

(٣) تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص٤٨.

غرار هذه النفوس العادية ، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها فى محاولاتها اليومية ، وإلا فماذا كان ينقص محمدا ﷺ بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأصبح له زوجة وأطفال ، وعمل شريف يتكسب منه ، حتى يؤثر على لذات الحياة البيتية ، ومتع المحاولات الاجتماعية فى سن استكمال القوة ، واستتمام الفتوة ، حياة الانقطاع عن الناس ، وتجنب معاملتهم فى الفترات التى تسمح له بها أعماله المادية ؟ أكان يتطلع من وراء هذا التزهد لزيادة موارده المادية ، وتحقيق مطامعه الاجتماعية ؟ إن تحقيق هذين المطلبين لا يكون إلا فى الأسواق العامة ، حيث يكتظ الباعة والشارون ، وفى المجامع والأندية حيث يجتمع العقلاء ويتشاورون ، لا فى غار على رأس جبل لا يرقى إليه الطير[1].

لم تكن البيئة العربية بالبيئة التى تحفل بالمسائل الروحية وتعظم مدعى تمثيلها بين الناس ، فلم يكن فيهم متبتلة ، ولا متزهدة يعظهم الناس ، ويتلمسون بدعائهم البركات ، ولا عباد انقطعوا للعبادة فى الصوامع على نحو ما كان عليه أهل الكتاب ، وكل ما كان لديهم من هذا القبيل كهان يدعون الاتصال بالجان ، وما كان لهم من كبير شأن عند العرب ، حتى يطمع امرؤ فى أن يعد من زمرتهم .

هنا يحار الفيلسوف فى تعليل لجوء محمد بن عبد الله ، وقد مهد له طريق الحياة، إلى غار يمضى فيه أياما كثيرة ، فى بيئة مادية محضة ، ليس فيها ما يغرى بالانقطاع للعبادة ولا بالتفرغ للتفكير[2].

ماذا كان يريد محمد بن عبد الله من وراء هذه العزلة الشاقة والعناء الكبير ؟ لا تجد الفلسفة إلا جوابا واحدا ، وهو أنه كان نافرا مما عليه قومه من الضلال البعيد ، كارها أن يشاطرهم هذه الحياة الحيوانية ، فلم ير إلا أن يلجأ للتفكير طلبا للهداية إلى سواء السبيل .. مطلب بعيد .. ولكن القلوب الكبيرة تلهم أنها مستقر قواها الكامنة ، وما كان هذا وذاك إلا بتوجيه ربانى .

ولما واجه الرسول ﷺ ما واجهه من الحرب الشرسة التى تعددت صورها ، من الوثنيين محاولة منهم لثنيه عن دعوة الحق ، كانت هناك دائما رعاية الله- عز وجل- تقدم له المؤازرة والتسكين والطمأنة والمواساة ، وهذا مما حفلت به آيات قرآنية كثيرة ، نذكر منها :

---

(١) محمد فريد وجدى ، ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٩ .

-﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ... (41) ﴾ [الأنعام].

-﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (10) ﴾ [الأنعام].

-﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) ﴾[الحجر].

-﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام: ٣٤].

-﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ... ﴾ [النمل : ٧٠].

-﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (13) ﴾ [محمد].

الدعوة إلى الحق :

الدعوة فى جوهرها إنما هى عمل تربوى من طراز خاص ، ذلك أن الدعوة هنا هى إلى عقيدة ، ليست إلى مجرد مقرر أو خصلة أخلاقية بعينها أو مهارة بذاتها ، وإنما إلى ذلك الجذر الذى يحدث انقلابا كبيرا شاملا فى مختلف جوانب الشخصية ، ومن هنا فإن عرضنا لصور من جهد الرسول ﷺ وبعض صحابته للدعوة إلى دين الحق ، هى من غير شك زاد ضخم ، لابد أن يعين كل من يريد أن يبنى شخصية وفقا للتصور الإسلامى .

والذى اتفق فى رسالة محمد ﷺ كان أعجب أعاجيب الاتفاق ، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات ، لأنها ، مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه [1]. . .

فكان ﷺ مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إبلاغ كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ . كانت له فصاحة اللسان واللغة . وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة . وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها .

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، ط٢ ، يونية ١٩٥٢ ، ص ٢٨ .

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب ، أما فصاحة محمد، فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه[1] .

ولما آمن الرسول ﷺ بالرسالة التى دعاه سبحانه وتعالى إلى التبشير بها ، لم يهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق وجزع حتى اطمأن ، وخطر له فى فترة من الوحى أن الله قد أعرض عنه ، ولم يأذن له فى دعوة الناس إلى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من وحى ربه ومن وحى قلبه ومن وحى صحبه ، فصدع بما أمر ، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية ، ومع ما بينه وبينهم من فارق فى الرتبة ، وما بين زمانهم وزمانه من فارق فى الحاجة إلى الإصلاح ، ومن هنا فلا عجب أن يكون محمد صاحب دعوة[2] .

كانت الشخصية الأولى فى الدنيا التى تلقت دعوة الرسول هى زوجته السيدة خديجة ، أم المؤمنين ، ثم آمن ثلاثة آخرون : اثنان منهم فتيان فى مستهل الصبا ، كان محمد ﷺ ينزلهما من بيته منزلة الأبناء ، أولهما : على بن أبى طالب ، حيث كان الرسول قد ضمه إلى بيته وأسرته تخفيفا للعبء عن أبيه العم أبى طالب ، أما الثانى ، فهو مولاه زيد بن حارثة[3] .

أما الثالث فهو أبو بكر بن قحافة ، والذى كان له شأن آخر ، إذ لم يكن من عشيرة المصطفى وذوى قرباه ، ولا كان فى فتوة الصبا كعلى وزيد ، وإنما هو من رجال بنى تميم بن مرة بن كعب ، وقد بلغ سن الكهولة وأخذ مكانته فى المجتمع القرشى سيدا مهيبا وقورا ، مشهودا له بالفضل والمروءة ودماثة الخلق ورجاحة العقل ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم بأخبارها ، فلما دخل فى دين الإسلام بمجرد أن دعاه الرسول إليه ، توقعت قريش أن يكون لهذا الأمر ما بعده .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣) بنت الشاطئ ، مع المصطفى ، ص ٢٣ .

وصح ما توقعت : استطاع أبو بكر بجاذبية شخصيته ووقار حلمه ونضج رأيه أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الأعلام : عثمان بن عفان الأموى ، والزبير بن العوام بن خويلد الأسدى المخزومى ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبيد الله التميمى [١].

وقد بدأت الدعوة فى مكة فى إطار من السرية الكاملة ، وقد اقتصرت كما رأينا على أهل بيته ﷺ وأقرب الناس إلى نفسه ، وكانت دار الأرقم بن الأرقم الأنصارى ، هى المدرسة الأولى للدعوة المحمدية ، ملتقى يجتمع فيها المسلمون يعبدون الله عز وجل ويتدارسون مع رسول الله ما ينزل عليه من الوحى . وفى هذه الدار كان الرسول ﷺ يتعهد أصحابه بالتربية والتوجيه حتى استطاع فى فترة وجيزة - إن قيست بحسابات الزمن - أن يكون من تلك الفئة القليلة التى آمنت به رجالا كان لهم الفضل الأكبر على الأمة الإسلامية ، فمن دار الأرقم تخرج أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم ممن كانوا مصابيح وهداية وأعلاما شامخة حملت - بصدق وإيمان لواء الدعوة فزادت عنه ، وكانت تضحياتها العديدة مثلا عليا للبطولة والجهاد فى سبيل دعوة الحق [٢].

وقد ظلت الدعوة سرية حينا من الزمن إلى أن تلقى رسول الله ﷺ من ربه- عز وجل- الأمر بالجهر بها ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤْمرُ وأَعْرِضْ عن الْمُشْرِكين (٩٤) ﴾ [الحجر] .

وكان التركيز فى مرحلة السرية هو على بناء العقيدة ، فحيث إن العقيدة الكافرة كانت قد ملأت على الناس حياتهم ، فلابد من تصحيح هذه العقيدة وبناء العقيدة السليمة بشكل هادئ لأن العقيدة الصحيحة هى التى ينبثق منها العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح ، وهى التى تضمن فى الوقت نفسه الثبات على الحق ، وتحمل التضحيات فى سبيله عندما تطلب من المسلم أن يؤديها ، وكل ما نراه عادة من التراجع والتذبذب والنفاق والتخلى عن طريق الحق ، مرده ضعف هذه العقيدة وتزعزعها وعدم تمكنها من القلب المسلم [٣]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) حسن عبد الحميد حسن : منهج الدعوة فى العهد المدنى ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤ ، ص ١١

(٣) منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، ١٩٩٢ ، ثلاثة أجزاء ، ج١ ، ص ٣٠ .

ولأمر ما اختــار الإسلام - كلمة الإيمان - للدلالة على العقيــدة ، فالإيمان يباشر العقل والقلب معــا ويربط الفكر بالوجدان ربطا وثيقا ، فليس الأمر قضــية قناعة فكرية باردة وليس الأمر قضية دفعة عاطفية خاوية من القناعة العقلية ، بل هو الالتحام الكامل بين الجانبين حيث يصعب التمييز بينهما[1].

وعندما نحاول معرفة الخطوط العامة لما دعا الرسول ﷺ الناس إليه ، لجد شيخنا الغزالى يلخصها فى النقاط الأربع التالية [2]:

١- **الوحدانية المطلقة** ، فالإنسان ليس عبدا لكائن فى الأرض أو عنصر فى السماء، لأن كل شىء فى الســمــاء والأرض عبــد لله ، يعنو لجــلاله ويذل فى ســاحتــه ويخضع لحكــمه ، وليس هناك شركــاء ولا شفعــاء ولا وسطاء ، ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربــه رأسا غير مســتصحب معــه خلقا آخر ، كبــر أو حقر ، وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحــدود إن كانوا بشرا أو مــا سوى ذلك ، ويجب أن تبنى جمــيع الصلات الفردية والجــماعيــة على أساس تفرد الله فــى ملكوته بهذه الوحدانية التامة .

٢- **الدار الآخرة** ، فهناك يوم لا شك في قدومه ، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حسابا دقيقا على حياتهم الأولى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨** ﴾ [الزلزلة]. والنظر إلى الدار الآخرة فى كل عــمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الــصحيح فى الإســلام ، فكما أن راكب القطار مــوقن بأنه ســينزل فى مــحط قادم، فكــذلك المسلم يعلم أن الأيام الجــارية، به ستقف - حتما - لترده إلى مولاه، حيث يلقى جزاء العمر ، ويجنى ما غرست يداه .

٣- **تزكية النفس** ، وذلك بلزوم عبادات معينة شــرعها الله عز وجل ، وترك أمور أخرى حذرا من عواقبها : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا**

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٩٧ .

نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام].

٤- **حفظ كيان الجماعة المسلمة** باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون ، وذلك يقتضى نصرة المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفى سورة (المدثر) - وهى أول سورة أمر الرسول ﷺ فيها بالبلاغ - نقرأ قول الله تعالى : ﴿**قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)**﴾ [المدثر].

وعندما بدأ الرسول ﷺ يصدع بما أمر ويجهر بالدعوة ، صعد على الصفا ، يعلن لأهل مكة دعوته إلى الدين الجديد ونادى : يا معشر قريش ... وتدهش قريش لهذا النداء ، ولكنها تسرع لترى ما وراءه ، فيقول لهم الرسول : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوننى ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط . ويقول لهم النبى ﷺ : فإننى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.. يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، ، يا بنى تميم، يا بنى مخزوم ، يا بنى أسد ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله»(١).

كان مغزى هذا البلاغ أن الرسول ﷺ قد حدد موقفه من القوم ووضح معالم رسالته، وكان معناه : أن الدعوة قد انتقلت من الهمس الخافت إلى البلاغ الجاهر ، وقد ألقى- صلوات الله وسلامه- عليه بالحقيقة كاملة على مسامع القوم دون تردد أو تهيب أو مجاملة . إنه لا يملك أن يحجب منها شيئا وإنما عليه أن يصدع بأمر ربه ، وكان معنى ذلك - أيضا - أن هذا الرجل الذى جمع قريشا فى حشد عام وصارح بحقيقة رسالته ووظيفته يملك من الشجاعة والجرأة قدرا عظيما ، أقل ما يوصفان به أنهما لن يخذلاه فى أى موقف من مواقفه المقبلة ، وأنه لن يلين أو يساوم أو يتردد ، وربما أحست قريش بوجدانها الواعى أن هذا الرجل سيستميت فى إنجاح دعوته؛ لأنه لم يرع

(١) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف : فى رحاب السيرة ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية ، ٢٠٠٠ ، ص ٥٠ .

فى إعلان مبادئها قرابة ولا شفاعة ولا صداقة ، ألم يعلن أمام الجماهير المحتشدة أنه رسول قريش خاصة ورسول الناس عامة ؟[1].

أليس فى هذا الإعلان الجرىء ما يهدد مصالحهم ويلغى امتيازهم ، ويضع حدا لأطماعهم وشهواتهم ، ويقضى على سيادتهم ؟ لذا بدا على القوم من الوجوم الكئيب ما أذهلهم ، وأذهب عقولهم . ويبدو أن المفاجأة المذهلة كانت مثيرة للغاية ، وأعجب من ذلك أن أسلوب محمد فى التحدث إليهم كان آية فى البراعة ، فقد تدرج معهم بمقدمة منطقية لطيفة أفضت إلى نتيجة قاطعة تتمثل فى قولهم : ما جربنا عليك كذبا أبدا ، وكفى بها شهادة لمحمد ﷺ تضعه فى ذروة الفضل والنبل من قومه ، وباعترافهم[2]!!

ويندفع أبو لهب فى عناده وشركه وحسده وعصبيته ليقول للرسول ﷺ : تبا لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ وينظر صلى الله عليه وسلم إلى عمه فى إشفاق وأسف وقد حزن لموقفه المشين أمام جمع مكة وقد أعماه الجهل عن أمر وحى السماء ولم يدر بمددها الذى تبعثه لنصرة الرسول ﷺ ، فها هو الوحى يجئ بالرأى الحاسم : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد] !

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن الكريم ، بعد النبى ﷺ، يروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ بمكة المكرمة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعونه ؟ قال ابن مسعود : أنا أسمعهم ، قالوا إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من العدو إذا أرادوه ، فقال : دعونى ، فإن الله تعالى سيمنعنى ، فعاد ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا صوته :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] ، ثم استقبلهم يقرأها ، قال فتأملوه ، فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد ، ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه

---

(١) توفيق محمد سبع ، ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

فى وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأعاودنهم بمثلها غدا ، قالوا : حسبك حسبك أسمعتهم ما يكرهون

ويستخلص شيخنا أبو زهرة من هذه الواقعة دلالات هامة[1]

أولها :الاستخفاء بالعبادة إلا ما كان من أمر النبى ﷺ ، فقد كان حريصا على أن يجهر بصلاته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يجهر بالقرآن الكريم ما وسعه ذلك، غير ممتنع ، ولا متردد ، لأن الأمر جاء إليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهر أن المشركين ، وإن كانوا يتضايقون من ذلك ، لم يكونوا يمنعونه ، وإن حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعون ، فكانوا يعمدون إلى الاستهزاء به آنا وإيذائه آنا ، والإعراض عنه دائما ، وفى كل وقت ؛ لأنهم قد جعلوا فى قلوبهم وقرا، فلا يستمعون ، وقد كان المشركون يشتدون فى أذاهم

ثانيها : أن الأذى الذى كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينل من عزمهم ، ولم يضعف من أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر فى قراءته ، وهم يستمرون فى ضربه حتى يبلغ ما شاء الله أن يبلغه غير ملق اهتماما إلى ضربهم ؛

ثالثها : أن المشركين حين كانوا يسمعون القرآن الكريم من النبى ﷺ يتميز غيظهم، وإن كان الغيظ ثابتا ، إذ يتبعه إيذاء أحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عندما يسمعونه من غيره ؛ لأنهم بذلك يعلمون سريان الدعوة ، وزيادة الأتباع حينا بعد حين، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن الكريم ، بل إنه منه ، ومن نمو عدد المستجيبين ، فالأمر إذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية ، وينذر أعداءه بالعاقبة المريرة .

ولقد سبق أن مر بنا حديث عتبة بن ربيعة الذى ناب عن وثنى مكة فى محاولة إغراء الرسول ﷺ بالمال والجاه والملك وكيف كانت الإجابة بالرفض بطبيعة الحال ، ومع ذلك فلم يترك النبى ﷺ هذه الفرصة تفلت دون أن يواصل جهده فى الدعوة إلى الحق، فإذا كان هؤلاء قد أرسلوا له من يدعوه إلى الدنيا ونعيمها الزائل ، فها هو ذا

---

(١) محمد أبو زهرة : خاتم النبيين، ج١ ، ص ٣٢٨

يدعوهم إلى الله- سبحانه وتعالى- ؛ ولذلك فحالما انتهى عتبة من عرضه ، قال رسول الله : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال الرسول ﷺ ، فاسمع منى .. قال عتبة: أفعل، فجعل رسول الله ﷺ يتلو:

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿حمٓ (١) تنزيلٌ من الرحمن الرحيم (٢) كتابٌ فُصِّلت آياتُهُ قُرآنا عربيًا لقومٍ يعلمُون (٣) بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرُهُمْ فهُمْ لا يسمعُون (٤)﴾ [فصلت] ، وظل الرسول ﷺ يتلو حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فإنْ أعرضُوا فقُل أنذرتُكُم صاعقةً مثْل صاعقة عادٍ وثمُود (١٣) ﴾ [فصلت]، فوثب عتبة ووضع يده على فم النبى ﷺ وناشده الله والرحم ليسكتن . فلما قطع رسول الله ﷺ القراءة، قال: يا أبا الوليد ، قد سمعت الذى قرأت عليك ، فأنت وذاك .

وانصرف عتبة إلى قريش فى ناديها ، فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم ، ثم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى . خلوا محمدا وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن ملكه ملككم ، وشرفه شرفكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد .. قال : هذا رأيى لكم فاصنعوا ما شئتم[1].

وعندما ضاقت الحياة بالمسلمين فى سنوات الدعوة الأولى بمكة ، لم يكن هذا ليثنى الرسول ﷺ وأصحابه عن الاستمرار على الطريق ، وإذا كانت مكة قد ضاقت بهم ، فإن أرض الله واسعة ، وخاصة أن الرسالة الإسلامية لم تجئ لهداية أهل مكة وحدهم. فكان التوجيه بالهجرة إلى الحبشة ، يقول عز من قال : ﴿ إنَّ الَّذين توَفَّاهُمُ الْملائكةُ ظالمي أنفُسهمْ قَالُوا فيم كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعفين في الأرْض قَالُوا أَلَمْ تكُن أَرْضُ اللَّه واسعةً فتُهاجرُوا فيها فأُولئك مأْواهُمْ جهنَّمُ وساءتْ مصيرا (٩٧) إلاَّ الْمُسْتَضْعفين من الرِّجال والنِّساء والْولْدان لا يسْتطيعُون حيلةً ولا يهْتدُون سبيلاً (٩٨) فأُولئك عسى اللَّهُ أن يعْفُو عنْهُمْ وكان اللَّهُ عفُوًّا غفُورا (٩٩) ﴾ [النساء] .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٨٥ ، ج١٥ ، ص٣٣٨-٣٣٩ .

والحق أن من أبرز ما يمكن أن تشير إليه عمليات الهجرة أن وطن المؤمن ليس بلدا خاصا محدودا بحواجز ، أو محاطا بأسوار أو محصورا فى بقعة من الأرض ، فذلك هو ما تجتمع عليه البهائم من أرض وكلأ وماء وسياج ، أما المؤمن فوطنه الحق حيث تعز عقيدته ، أى أن عقيدة المؤمن هى الوطن والسكن والحمى والأهل ، فإذا لم تكن العقيدة فلا قيمة لوطن ولا سكن ولا أهل ولا جوار ، بل لا قيمة للحياة كلها . إنها الوشيجة المتينة ، التى تلتقى عندها صلات الناس وتستوثق [1] .

ومن هنا لم يعرف عنه ﷺ أنه سكت عن الدعوة إلى العقيدة الإسلامية التى أصبحت هى وطنه ووطن كل من آمن بها، كما لم يعرف عنه تهاون فى أداء الرسالة ، ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد ، لا يثنيه صعب ، ولا يرده مستعصى ، ولا يثنى عزيمته غليظ قلب . وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق فى وجهه سبيلا مهّد هو بجلده وكفاحه سبيلا آخر ، حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد [2].

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له ، وحاولوا أن يعوقوا ركبه وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه فى كل قصد يقصده ، وكل طريق يبتدئ منه الخطى ، فإن علموا أن وافدا جاء يسأل عنه ، أو غريبا يسعى فى طلبه ، أخبروه عنه الأخبار الكاذبة ، وحدثوه الأحاديث الملفقة ، حتى لا يصل إليه أو يؤمن به .

وفى الأسواق التى يقيمونها للتجارة وللأدب مثل عكاظ ، وذى المجنة ، كان يدب فى أزقتها ، ويندس فى طرقاتها ، ويمشى فى مسالكها ليدعو إلى دينه ، وينوه برسالته ، ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة ، حتى ولو أعرض عنه الناس ، أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث ، فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم وذويهم بما صادفوه فى أسفارهم ، وما لاقوه فى غربتهم ، ولذلك كانت الأبواق من كل جهة ، وفى كل مكان ، تتحدث عن حدث جديد ، ورسالة جديدة ، وكان ذلك بمثابة التمهيد لما سيكون من تبليغ ومعرفة وإذعان وقبول[3] .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الإسلام ، ودخول دعوته فى مرحلة جادة قوية ، فى أفق أوسع ، ونطاق أرحب ، كان من بيعة العقبة ، وهى منسك من مناسك

---

(١) توفيق محمد سبع ، ص ٣٦ .

(٢) إبراهيم أبو الخشب ، ص ١٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

الحج ، حيث ترمى الجمار وهى عقبة أولى وثانية وثالثة . وتفصيل ذلك أنه ﷺ ، كما كان يدعو فى الأسواق ، كان كذلك فى أيام الحج ، فيلتقى بالناس فى موسم الحج، ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة فى أهليهم وعشيرتهم . ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من الأوس بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم ، وكان هذا النفر ستة فقط .

وبعد أن عاد المبايعون إلى المدينة ، أرسل رسول الله ﷺ صحابيين جليلين: وهما : مصعب بن عمير العبدى ، وعبد الله ابن أم مكتوم ، وإنما ذلك لتعليم القرآن وقراءته وتفقيههم فى أحكام الدين الإسلامى ، وبهذا بدأ تعليم القرآن وتفقيه المسلمين بالمدينة لأول مرة [1].

فنزل مصعب مع صاحبه على أحد أولئك المبايعين وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة، وأخذ يدعو بقية الأوس والخزرج إلى الإسلام عن طريق قراءة القرآن عليهم والموعظة الحسنة . وبينما كان مصعب فى بستان مع أسعد بن زرارة قام لهما أسيد بن حضير وقال لهما - وبيده حربته -: ما جاء بكم؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ انعزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ! فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا رضيته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكرهه ، فجلس أسيد وقرأ عليه مصعب شيئا من القرآن فرضيه واستحسن دين الإسلام حيث هداه الله إليه ، فتشهد بالشهادتين .

ثم رجع أسيد إلى سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس ، وهو ابن عمه ، وكان سعد هو الذى أثار أسيدا على مصعب وصاحبه ، وقص له ما فعل وقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا ، فغضب سعد حتى قام بنفسه إليهما فقابله مصعب بمثل ما قابل به أسيدا حتى اهتدى سعد أيضا وأسلم وتشهد بالشهادتين ، ثم رجع سعد إلى رجال بنى عبد الأشهل - وهم بطن من الأوس - فقال لهم : ما تعدوننى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، فقال سعد كلاما حاسما لا كلام بعده وهو : كلام رجالكم ونسائكم حرام على حتى تسلموا ! فاستجابوا له ، ولم يبق بيت من بيوت بنى عبدالأشهل إلا وقد أسلم[2].

وعاد مصعب إلى رسول الله ﷺ بمكة قبيل الموسم الحافل يخبره بما لقى الإسلام من قبول حسن فى يثرب ، ويبشره بأن جموعا غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مس شغافهم وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقرّ به العين .

---

(١) أبو النصر الطرازى الحسينى ، ص ١٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

وبطبيعة الحال فإن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا من غير شك تاريخه القريب ، والصعاب الهائلة التى واجهها ، وحز فى أنفسهم أن يستضعف إخوانهم فى مكة وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم كفور ! ولذلك تساءلوا - وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ (١)

ولقد بلغ الإيمان أوجه فى هذه القلوب الفتية ، وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية ، فرحل إليه سبعون رجلا حتى قدموا عليه فى الموسم ، وواعدوه شعب العقبة وتمت البيعة الكبرى ، بعد أن دارت محاورات وعُقدت مواثيق .

إن روح اليقين والفداء والاستبسال هى التى سادت هذا الجمع وتمشت فى كل كلمة قيلت ، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التى توجه الحديث أو تملى العهود، كلا ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة(٢)!

لقد كان هؤلاء السبعون مثلا لانتشار الإسلام ، عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخاص ، فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان ، وملبين داعى التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبى ﷺ كانت لمحة عابرة ، لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة ، والثقة . إنه القرآن . فلئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لماما ، فإن الوحى المشع من السماء داخل آيات القرآن أضاء لهم الطريق وأوضح لهم الغاية .

وعلى الرغم مما كان عليه أمر الفرس والروم من رهبة ، حيث مثلا القوَّتين الأعظم فى هذه الفترة ، بينما كان العرب قبائل متناثرة متناحرة يقعون بين شقى رحى الإمبراطوريتين ، فإن رسول الله ﷺ لم يتردد فى أن يدعو ملوكهما إلى دين الحق ، بل خرج يوما على أصحابه فقال : «أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم» . قال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال : «دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وتثاقل» . ثم ذكر لهم أنه

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ١٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميرى ، ملك اليمن ، وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام[1].

وأجابه أصحابه إلى ما أراد ، فصنع له خاتم من فضة نقش عليه (محمد رسول الله) ، وبعث بكتبه يقول فيها ما يمكن أن نضع منه مثلا ،كتابه إلى هرقل ، إذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت ، فإنما عليك إثم الأريسيين (أى يكون مسئولا عن إثم رعيته لصده إياهم عن الدين) . ﴿ **يا أَهْلَ الْكتاب تعالَوْا إلَىٰ كَلمَة سَوَاء بَيْنَنَا وبيْنَكُمْ أَلاَّ نعْبُد إلاَّ اللَّه ولا نُشْرك به شيْئًا ولا يتَّخذ بَعْضُنا بعْضًا أرْبابًا مّن دُون اللَّه فإن تولَّوْا فقولُوا اشْهدُوا بأنَّا مُسْلمُون** (٦٤) ﴾ [آل عمران]» .

ودفع بكتاب هرقل إلى دحية بن خليفة الكلبي ، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حذافة السهمى ، وبكتاب النجاشى إلى عمرو بن أمية الضمرى ، وبكتاب المقوقس إلى حاطب بن أبى بلتعة ، وبكتاب ملكى عمان إلى عمرو بن العاص السهمى ، وبكتاب ملكى اليمامة إلى سليط بن عمرو ، وبكتاب ملك البحرين إلى العلاء بن الحضرمى ، وبكتاب الحارث الغساني ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب الأسدى ، وبكتاب الحارث الحميرى ملك اليمن إلى المهاجر بن أمية المخزومى[2].

ولم تمض ثلاثون عاما إلا وقد دانت كل هذه المناطق بالإسلام .

ومن قنوات الدعوة إلى الحق أيضا تلك الوفود العديدة التى جاءت إلى رسول الله ﷺ للتعرف على حقيقة الرسالة ، منها ما أسلم فحسن إسلامه ومنها ما ساوم على الدخول فى الإسلام واشترط شروطا رفضها الرسول ﷺ ، ومن تلك الوفود : وفد بنى تميم، وفد بنى عبد القيس ، ووفد بنى حنيفة ، وأهل نجران ، وطيئ وعدى بن حاتم . . إلخ ، ومن استقراء الوقائع والأحداث الخاصة بهذه الوفود يمكن لنا أن نخرج بما يلى[3] :

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٣٩٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩١ .

(٣) حسن عبد الحميد ، منهج الدعوة فى العهد المدنى ، ٣٦ .

١-حكمة الرسول ﷺ وسياسته وقوة صبره ورحابة صدره ، فهذا وفد بنى تميم يعترض على انشغال الرسول ﷺ عنهم بأداء الصلاة وينادونه من وراء الحجرات، ويغضب الرسول لذلك ، ثم ينزل عليه الوحى معنفا وموبخا لأولئك الذين لم يصبروا حتى يخرج الرسول إليهم فقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)** ﴾ [الحجرات].

ومع ذلك لم يضق الرسول ﷺ بهم ذرعا فقابلهم ، بل إنه استجاب لهم حينما طلبوا إليه أن يفاخروه بالخطابة والشعر ، فترك خطيبهم وشاعرهم يلقى أشعاره على مسامع القوم ، ثم خطب ثابت بن القيس عن المسلمين ، وألقى حسان بن ثابت قصيدة يرد بها عليهم ، فاقتنعوا ودخلوا الإسلام طواعية ، وعادوا إلى أقوامهم ينشرون الإسلام ويدعون إليه .

٢- استخدم الرسول ﷺ أساليب الجدل وإقامة الحجة والبرهان فى الدعوة إلى الله من خلال لقاءاته بالوفود ومناقشاته معهم ، فقد قال له وفد نجران النصارى : مالك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد الله ، فأجابهم الرسول ﷺ : «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» (١) . فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله . فأنزل الله تعالى عليه قوله : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩)** ﴾ [آل عمران] . وكانت حجة دامغة حقا ، شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه .

٣- الإسلام دين عزة ومنعة ، ولا شك أن من أهم مظاهر العزة والمنعة أن يأتوه الناس مختارين طالبين له لا أن يقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم عنوة ، ومن ثم فقد كان من الضرورى ألا يكره الناس على اعتناقه ، ويرفض مبدأ المساومة على ذلك ، فهذا هو عامر بن الطفيل رئيس وفد بنى عامر يساوم الرسول ﷺ على الدخول فى الإسلام فى مقابل أن يجعل له شيئا ، يقول مخاطبا الرسول ﷺ : يا محمد ، ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فيجيبه الرسول ﷺ : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، فيقول عامر : أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك ؟ فيرد الرسول ﷺ : ليس ذاك لك ، ولا لقومك (٢) .

---

(١) حسن عبد الحميد ، منهج الدعوة ، ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨ .

والمستقرئ لعدد الوفود والعناصر التى كانت تتكون منها ، ونوعية شخصياتها واتجاهاتهم ، يمكن له أن يلاحظ ما يأتى [1] :

أولا - أن أكثر هذه الوفود كان من جنوب اليمن وحضرموت وما يدانيها من نجران والقبائل العربية التى لم تشترك فى مناوأة الرسول ممالأة قريش أو متحزبين معهم، أو يرون مثل رأيهم فى عبادة الأوثان ، أو يرونه ، ولكن لا يتشددون ، فلم تكن لديهم مقاومة نفسية من اتباع الآباء والأجداد الذين يقولون : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة].

كذلك لم يقف حاجزا بينهم وبين الإقبال على الإسلام ما يتصل بالإمارة أو الرياسة ، خصوصا بعد أن سن النبى سنة إبقاء الأمير على إمارته إن دخل فى الإسلام مؤمنا وكان عدلا يرضى أهل إمارته حكمه ، ولا يشكون منه شيئا ، فإن هذه السنة جعلت الرؤساء والأمراء لا يفرضون فى الدعوة المحمدية خصما يناوأ ويحارب ، وذلك لأن الذاتية يكون لها دخل فى تحريك النفوس ، ولم يكن أمرهم ككفار قريش فى أول دعوة الحق ، إذ فرضوا من أول الأمر أن الاستجابة تذهب بزعامتهم ورياستهم ، فكانت الذاتية أو الأثرة محركة لخصومتهم .

ثانيا - أن الوفود كانت تجئ إلى الرسول ﷺ معلنة إسلامها وطالبة تعليم الفرائض وليشاهدوا النبى وليقتبسوا من نور النبوة فى مجالسه ﷺ . إنهم إذ يعلنون إسلامهم ويخبرون عمن وراءهم بأنهم ارتضوا الإسلام دينا ومحمدا رسولا ، من غير عوجاء ، وإن كان فيهم من تلكأ أو تردد ، فإن كثرة المسلمين فيهم كافية لأن تجعل هؤلاء يتبعون ولا يخرجون .

ومن استقراء جملة المراحل التى مرت بها الدعوة إلى دين الحق نجد أنها - فيما لاحظ ابن القيم فى زاد المعاد قد مرت بخمس مراتب[2]:

الأولى : النبوة ، إذ لا يدعو إلى الحق الذى نزل من عند الله- سبحانه وتعالى- إلا نبى ، وإن كان من العسير النظر إلى النبوة باعتبارها مرتبة ، إذ هى فى الحقيقة كيان الدعوة ، فلا دعوة إلى الإيمان برسالة إلا من نبى مرسل ، فهى دعامة ، وليست مرتبة، بل هى الأصل ولب الدعوة .

---

(١) محمد أبو زهرة ،خاتم النبيين ، ج٣ ، ص ١٠٢٨ .

(٢) المرجع السابق، ج١ ، ص ٢٨٦ .

الثانية : إنذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ [الشعراء]، وقد مر بنا ما قام به الرسول ﷺ تنفيذا لهذا الأمر الإلهى .

الثالثة : إنذار قومه ، وقد سلك محمد ﷺ ذلك المنهاج الذى انتقل فيه من الحيز الضيق إلى ما هو أوسع ، ثم ما هو أكثر اتساعا ، فانتقل من إنذار عشيرته الأقربين إلى قومه من قريش قريبهم وبعيدهم . وقد أنذر ﷺ فى هذه المرتبة سكان مكة المكرمة جميعا وما حولها .

الرابعة: عبر عنها ابن القيم بقوله ، إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله إلا كانوا به مؤمنين، وهؤلاء هم العرب فى الجزيرة العربية قاصيهم ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية من غير تفرقة بين قريب وبعيد .

الخامسة : تبليغ الدعوة إلى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم وبكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التى تدفع من هجموا أوحاولوا الهجوم ، أو حاولوا أن يحولوا بين الإسلام وبين دعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته ، فكان الجهاد ليتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال .

الجهاد المسلح فى سبيل الله :

وربما يبدو لأول وهلة أن الحرب ، واستخدام القوة والعنف هى أمور منافية للعمل التربوى الذى يستحسن الحوار والمناقشة والتفكير والتنمية والتعاون .. إلخ ، لكن كما سوف نرى ، فإن ما قام به الرسول ﷺ من إرسال السرايا والقيام بالغزوات فإنه بذلك قد زود التربية الإسلامية بالعديد من القيم والأساليب والاتجاهات التى تكمل تكوين الشخصية ، تلك الشخصية التى يريدها الإسلام قوية ذات إرادة لا تلين أمام الخطوب ولا تهن أمام عدوان الآخرين ، وتفرض كلمة الله وتشق طريقها بكل قوة لبناء مجتمع إسلامى ينهج نهجا ربانيا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الإنسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا نظن قارئا يجهل ما اكتشفه دارون وغيره من العلماء من سنة تنازع البقاء ، وبنوا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسانية أيضا [١] . وقد

---

(١) محمد فريد وجدى ، ١٦٤ .

أشار- سبحانه وتعالى- إلى خطر هذا القانون العظيم بقوله فيما يتصل بالإنسان : ﴿ ... ولوْلا دفْعُ اللّه النّاس بعْضهُم ببعْضٍ لّفسدت الأرْضُ ولكنّ اللّه ذُو فضْلٍ على الْعالمين (٢٥١) ﴾ [البقرة].

والحق أن الأرض تكون معرضة للفساد أكثر ، عندما يتغلب الأشرار ، ويتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم ، وقد صرح- سبحانه وتعالى- بهذه الحقيقة في قوله : ﴿ ...ولوْلا دفْعُ اللّه النّاس بعْضهُم ببعْضٍ لّهُدّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكرُ فيها اسْمُ اللّه كثيرًا ... (٤٠) ﴾ [الحج] . ولعل من الأمثلة التى يمكن أن نسوقها بهذا الصدد ما هو معروف من تصدى خصوم الدين المسيحى للمسيح- عليه السلام- وما كان يدعو إلا للإصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الإمبراطور قسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالمسيحية ، فلما ولى الملك ، أعمل السيف فى الوثنيين، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم[1].

وكانت دعوة الرسول ﷺ فى أول أمرها سلمية ، وظل يسالم أعداءه ، ويصبر على ما يلقى هو وأصحابه من أذاهم السنوات الطوال ، ذلك الأذى الذى تفنن فيه الأعداء من ضرب وشتم ومقاطعة وإخراج وحصار ، وكل ذلك والرسول صابر محتسب ، يعفو ويصفح الصفح الجميل بأمر ربه ، ولكن أعداءه لكفرهم وخستهم لم يزدهم صفحه إلا عتوا وغرورا ، ونسوا أن يوما ما سوف يجئ بالضرورة لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى[2].

ثم أباح الله للمؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم وجها لوجه ، ووعدهم بالنصر على أعدائهم ، فقال تعالى : ﴿ أُذن للّذين يُقاتلُون بأنّهُمْ ظُلمُوا وإنّ اللّه علىٰ نصْرهمْ لقديرٌ (٣٩) الّذين أُخْرجُوا من ديارهم بغيْر حقٍّ إلاّ أن يقُولُوا ربُّنا اللّهُ ... (٤٠) ﴾ [الحج] . ثم إنه تعالى يحذر المؤمنين من التباطؤ فى التجمع للقتال فى سبيله تحت راية الرسول ﷺ ، فيقول : ﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا ما لكُمْ إذا قيل لكُمُ انفرُوا في سبيل اللّه اثّاقلْتُمْ إلى الأرْض أرضيتُم بالْحياة الدُّنْيا من الآخرة فما متاعُ الْحياة الدُّنْيا في الآخرة إلاّ قليلٌ (٣٨) إلاّ تنفرُوا يُعذّبْكُمْ عذابًا أليمًا

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٢) حسن الملطاوى ، ص ٢٢٩ .

ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا والله على كل شيء قدير (٣٩) ﴾ [التوبة] . ويقول عز من قال كذلك : ﴿ ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ﴾ [التوبة] .

والآية التى كان فيها الإذن بالقتال فيها دلالات هامة[1] :

أولاها ، أن فيها الإذن بالقتال ، ولكنه لم يصرح بها ، إذ إنه صرح بأشد ما يبعث عليه وهو أن القتال من جانب الأعداء قد وقع فعلا ، لأنه سبحانه وتعالى عبر بقوله يقاتلون بالبناء للمجهول ، أى أن المشركين قاتلوا المؤمنين فعلا ، فقد آذوهم وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل كما قال عز وجل ، وحاولوا قتل النبى ﷺ ، وحاولوا أن يقتلوا المبايعين فى بيعة العقبة الثانية ، فكان التعبير بالبناء للمفعول دليلا على أن قتال المؤمنين فى مقابل أنهم ابتدأوا ، وهو دفع للأذى وللفساد فى الأرض .

ثانيها ، أن الله صرح بأن القتال دفع للظلم أو منع لاستمراره .

ثالثها ، أن أهل الإيمان هم أهل الحق ، فإن قاتلوا فهو دفاع عنه وعن التوحيد والإيمان به ، فهو قتال يحمل فى باعثه ، وفى ذاته ، الدعوة إلى الله .

رابعها ، أن القتال فيه تمكين للحقائق الإسلامية ، فنتيجة القتال تمكين للذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فالقتال من نتيجته أنه يمكن أهل الحق من الدعوة إليه بالقول وبالعمل ، وبذلك تقوم شريعة الله سبحانه[2] .

ولا شك أن القتال فى سبيل الله فريضة شاقة ذات أعباء باهظة لا ينهض بها إلا من روّض نفسه على الطاعة والتضحية ، وقد سجلت هذه الحقيقة الآية القرآنية الكريمة : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) ﴾ [البقرة] وكون القتال مكروها لا ينافى الإيمان ، لأن تلك الكراهية طبيعة لما فيه من القتل والأسر ، وإفناء البدن وتلف المال [3] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ج٢ ، ص ٥٠٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠٥ .

(٣) محمد لقمان الأعظمى الندوى : مجتمع المدينة المنورة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٨٩ ، ص ١١٣ .

فعندما علم بالمشكلة منهم بسط رداءه ، وقال : ليأخذ رجل من كل قبيلة بناحية من الرداء ففعلوا ، ثم وضع الحجر الأسود فى الرداء بيده وأمرهم أن يرفعوه إلى ركن الحجر ، ففعلوا ، وبالتالى اشترك الجميع فى رفع الحجر الأسود ، ولم يبق هناك تنافس!

وما عرض أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها إلى السلم والإرضاء .

فقد صنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة لضعيف إيمانهم على أناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها ، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والإقناع فى وقت واحد : «أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة (اللعاعة : البقية اليسيرة) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» [١] .

وكان الرسول ﷺ المثل الأعلى فى القوة على الحياة ، قوة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده ، حتى قال أحدهم : إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . ولكى لا يكون لشىء مما فى الحياة سلطان عليه ، وليكون له هو كل السلطان عليها . كان شديد الزهد فى مادتها ، على شدة رغبته فى الإحاطة بها وفى معرفة أسرارها ، وشوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فى فراشه الذى ينام عليه أدما حشوه ليف ، وأنه لم يشبع قط ، ولم يطعم خبز الشعير يومين متتاليين ، وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه . وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله . ولقد عانى الجوع غير مرة ، حتى كان يشد على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته . ذلك كان المعروف عنه فى طعامه[٢] .

وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام . . .

ولم يكن هذا الزهد ، ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا للتقشف ، ولا كانا من فرائض الدين ، فقد جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ...كُلُوا من طيّبات ما رزقْناكُمْ ... ﴾ [البقرة : ٥٧]، وجاء : ﴿ وابتغ فيما آتاك اللَّهُ الدَّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدُّنْيا

---

(١) عبقرية محمد ، ٩١

(٢) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٢٤٥

وأحْسن كما أحْسن اللهُ إليك ولا تبغِ الفساد في الأرْض إنّ الله لا يُحبُّ الْمُفْسدين (٧٧)﴾ [البقرة]، لكن محمدا أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة ، قوة لا يتطرق إليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أى مما يجعل لغير الله عليه سيادة(١)

وكان من مقومات قيادته وإدارته شئون المسلمين ، تواضع تواترت الأخبار المتعددة بها ، فعن ابن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى له حاجته(٢) وعن أنس قال كان ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم (٣)

وعن سهل بن حنيف قال كان ﷺ يأتى الضعفاء من المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم(٤)

وكان لحلمه وقدرته على دفع السيئة بالحسنة أثرهما فى إمالة القلوب إلى دعوة الحق ، فهذا زيد بن سعنة ، قال أنه ذهب إلى الرسول ﷺ ، فقلت له يا محمد ، هل لك أن تبيعنى تمرا - معلوما لى - فباعنى فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب ، فلما حل الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه وهو فى جنازة مع أصحابه ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت له يا محمد ، ألا تقضينى حقى ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب إلا مُطْلا (من المماطلة) ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران فى وجهه ، ثم رمانى ببصره ، فقال يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتصنع به ما أرى؟ فلولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك

حدث هذا ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة ، وقال أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر مكان ما روعته فذهب بى عمر فأعطاني حقى وزادنى عشرين صاعا وقال لى : ما دعاك إلى أن فعلت ما فعلت وقلت ما قلت ؟ قلت ، يا عمر ، لم يكن من علامات النبوة شيء إلا عرفته فى وجه

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٢٤٦

(٢) رواه النسائى والحاكم وقال على شرطهما وأقره الذهبى ، ورواه الترمذى فى العلل عنه ، وذكر أنه سأل عنه البخارى فقال هو حديث تفرد به الحسين بن واقد

(٣) رواه البخارى ، واللفظ له ومسلم

(٤) رواه أبو يعلى والطبرانى والحاكم بسند ضعيف

بيد أن هذا الظن لا يرتكز على نص ولا فحوى من تعاليم الإسلام ، فالمسلمون متفقون على أن الإسلام لا يكون إلا عن رضا واختيار ، والقرآن - مكيه ومدنيه - يرفض فكرة الإكراه ، ففى المكى يقول : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** (٩٩) ﴾ [يونس] وفى المدنى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ... (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . إلى غير ذلك من الشواهد العملية التى تضرب المثل على أن الإسلام يعتمد أول ما يعتمد على الاقتناع الفكرى والاطمئنان القلبى لا قهر فيه ولا حقد[1]

ولأن المسلمين لم يعمدوا قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الإقناع، لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ؛ ولذلك حاربوا الفرس لأن كسرى أرسل إلى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى ﷺ أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه . وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك فبادرهم النبى ﷺ بتجريد السرية المشهورة إلى تخوم الحجاز الشمالية ، وعادت السرية بغير قتال حين وجدت فى تبوك أن الروم لا يتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام[2] .

وإذا كان الرسول ﷺ قد بدأ بالدعوة السلمية للدولتين الكبريين ، فإن الحروب لم تقع بين المسلمين وجنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز وإعدادهم العدة لقتال المسلمين . وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة ، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية فى بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها أو التحصن دونها .

ولعله من المفيد أن نلقى نظرة عامة على خريطة العالم الحالية لنعلم أن السيف لم يعمل فى انتشار الإسلام إلا القليل مما عمله الإقناع والقدوة الحسنة ، فإن البلاد التى قلت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى يقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد إندونيسيا وماليزيا وباكستان ومناطق ضخمة فى شرق الصين والجمهوريات الإسلامية الواقعة جنوب روسيا وبعض البلدان الإفريقية ، مثل نيجريا والسودان وغيرهما ، فإن عدد المسلمين فيها مئات الملايين ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلدان إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الملايين عن دينهم ،

(١) موسى لاشين وزميله ، دراسات فى السيرة ، ص ٩٦ .

(٢) عباس محمود العقاد ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢٢٨ .

ونقارن بين هذه البلدان والبلدان التى اتجهت إليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الإسلامية ، وهى بلاد العراق والشام بصفة خاصة ، فنجد أن عدد المسلمين فيها لا يزيد عن بضع قليلة من عشرات الملايين ، بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين[١] .

ومع ذلك فإن مستشرقا مثل «وات» يرى أن اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل الضاربة فى الشمال عن طريق سوريا لم يكن صدفة، على أساس أن هذه القبائل باعتبارها مسيحية فقد كانت أكثر ميلا لقبول الإسلام من مشركى الجنوب . كما رأى أن يكون سبب اهتمام الرسول ﷺ أهمية التجارة السورية فى الاقتصاد المكى، حيث كان عليه أن يقدم للمسلمين متنفسا لطاقاتهم الحربية ، ولزيادة عدد السكان، وكان هذا المتنفس فى رأيه يقع فى طريق الشمال، حيث بدت الحياة فى سوريا البيزنطية أكثر فى الرفاهية المادية مما كانت عليه الحياة فى المناطق الصحراوية الغالبة على كل من المدينة ومكة[٢] .

ويلاحظ (النعيم) ما فى منطق «وات» من تناقض ، فوات ذكر أن حكام النصارى كانوا أقوياء ، فمن المستبعد بناء على هذا أن يدعوهم محمد إلى الإسلام ، وربما طلب عقد معاهدات حياد أو مجرد منع المكيين من الحصول على المساعدة الخارجية . ولم يكن الرسول ﷺ فى أبريل عام ٦٢٨م فى وضع قوى يمكنه من طلب قبول الإسلام . أى أن الرسول ﷺ كان ضعيفا بحيث إنه لا يستطيع إيصال مضمون دعوته للملوك النصارى ، ولو فى رسالة . ولكن وات هنا يحدثنا عن محمد آخر له من القوة ما يجعله يتحدى الغساسنة وبيزنطة ذاتها ، بحيث يتوغل فى الأراضى السورية من جانب، ومن جانب آخر يوفر لأتباعه الرفاهية !![٣] .

ومن الأصوات الغربية المخففة صوت الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج Karen Armstrong ، إذ كتبت تقول : إن الجهاد ليس أحد أركان الإسلام الخمسة ، وتنبه إلى أنه خلافا للرأى السائد فى الغرب ، فهو أيضا ليس دعامة الإسلام المحورية ، لكن ، يظل من واجب المسلمين أن يلتزموا بالنضال على جميع الجبهات ، الأخلاقية منها والسياسية والروحية من أجل إيجاد مجتمع عادل كريم جدير بالاحترام ، يعيش فيه الإنسان وفقا لإرادة الله ، ولا يستغل فى ظله الفقراء وغير المحصنين ، وقد تكون

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢) الاستشراق فى السيرة النبوية ، ص ٢٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

الحرب والقتال ضرورة فى بعض الأحيان ، لكن ذلك جزء ثانوى من الجهاد أو النضال، وتشير الكاتبة إلى ما نقل عن الرسول ﷺ بعد العودة من إحدى الغزوات أنهم إنما عادوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، أى أن الجهاد الأكثر صعوبة وحسما هو هزيمة قوى الشر فى نفس الإنسان ، وفى مجتمع الإنسان ، فى جميع تفاصيل الحياة اليومية[1] .

وتمشيا مع توجيه الوحى وسياسة الواقع ، وحفاظا على حق الله وحق الحياة ، درب الرسول رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم فى التمارين والمناورات وعد السعى فى هذه الميادين خطوات إلى أجل القرب وأقدس العبادات ، لعله بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين أذاه [2] : **﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) ﴾** [النساء] .

عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى »[3] . والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم فى كسب المعارك . والرمى أعم من أن يكون بالسهام أو بالرصاص أو بالقنابل ، وعن فقيم اللخمى : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين - تتردد بينهما - وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه . قال : وما ذاك ؟ قال : سمعته يقول : «من تعلم الرمى وتركه فليس منا »[4] .

فهكذا نجد كيف يبقى الشيوخ على دربتهم فى إصابة الهدف ، ومهارة اليد ، ونشاط الحركة ، فالإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعا .

ومن المعروف أن الرسول ﷺ قد بدأ طريق الجهاد المسلح عن طريق ما سمى «بالسرايا»، والتى كان الغرض من تسييرها مطاردة القوافل التجارية التى يملكها مشركو

---

(١) كارين أرمسترونج : محمد ، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عنانى ، القاهرة ، كتاب سطور ، ١٩٩٧ ، ص ٢٥٣ .

(٢) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٢٢٤

(٣) صحيح مسلم ، ج٦ ، ص ٥٢

(٤) المرجع السابق .

مكة ومصادرتها لصالح المسلمين عند ذهابها إلى بلاد الشام أو عودتها منها وقتل الذين يقومون بحراسة هذه القوافل من مشركى مكة أو أسرهم ، وكان فى ذلك شفاء لصدور المؤمنين الذين كانوا يعيشون فى بلدهم مكة آمنين مطمئنين ، فأخرجوا منها بغير حق حتى لا يقولوا ربنا الله ، وكان فيه أيضا تعويض لهم عما فقدوه من أموال انتهبها المشركون منهم ظلما وعدوانا»[١].

ولعل هذا هو السر فى أن جميع السرايا التى بعثها النبى قبل غزوة بدر للإغارة على تجارة قريش ، كان جميع أفرادها من المهاجرين دون الأنصار ، لأن المهاجرين هم الذين اكتووا بنار قريش وظلمها وبطشها ، أما الأنصار فقد كانوا عاهدوا الرسول ﷺ فى بيعة العقبة على نصرته إذا ما داهم المشركون المدينة .

كذلك كان فى هذه السرايا رسالة عملية موجهة إلى قريش تقول بأن عهود الضعف التى كان المسلمون يعيشونها فى مكة قد ولت إلى غير رجعة ، وأنهم أقاموا فى المدينة دولة قوية عزيزة تستطيع أن ترهب قريشا ، وأن تزلزل كيانها ، وأن تلحق بها الأضرار الفادحة ، فعلى قريش أن تثوب إلى رشدها ، وأن تتفاهم مع المسلمين تفاهما يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء ، ويكفل للدعوة الإسلامية أن تأخذ مكانها تحت الشمس بحرية وأمان وانطلاق ، ويبيح للمسلمين فى كل مكان أن يدخلوا مكة وأن يطوفوا بالبيت العتيق[٢] .

وكان من أهدافها أيضا التعرف على أحوال الأعداء ، ورصد تحركاتهم ، واستكشاف ميولهم واتجاهاتهم ، بذلك يكون المسلمون قد فهموا طبيعة أعدائهم ، وما هم عليه من قوة أو ضعف ، فيتمكنوا من إعداد السلاح الذى يكفل لهم النصر . ولقد كان هذا المقصد واضحا فى وصايا الرسول لبعض سراياه ، فعندما بعث صلوات الله وسلامه عليه ، عبد الله بن جحش للتعرض لغير قريش ، أعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وكان فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم»[٣] .

بالإضافة إلى هذا فقد كانت السرايا ميدانا للتجربة العملية فى المواقع التى سوف تدور فيها مستقبلا رحى الحرب بين المسلمين والمشركين ، فأتاحت لرجالها دراسة هذه

---

(١) محمد السيد طنطاوى : السرايا الحربية فى العهد النبوى ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٤ ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

المواقع على الطبيعة من حيث المناخ والتضاريس وما عسى أن يوجد بها من أماكن تصلح نقطا للوثوب أو مراكز للانطلاق أو للتحصن أو لرمى السهام أو لتخزين المؤن والأسلحة أو لغير ذلك من الأغراض الحربية[1] ، وكذلك دراسة العناصر الأخرى والمحيطة بالبيئة مثل المجموعات البشرية التى تقيم فيها أو حولها أو على مقربة منها .

فإذا جئنا إلى أول الغزوات ، كمثال ، وهى غزوة بدر يمكن لنا أن نلمس بعض المواقف الإنسانية الكريمة من الرسول ﷺ ، موقف ينبئ عن مدى الرحمة التى فطر عليها والحفاظ على كرامة الإنسان من أن تهان أو ينكل بها ، فهذا هو عمر بن الخطاب يتصدى بمكرز بن حفص ، وقد وفد على الرسول ﷺ يفتدى سهيل بن عمرو فعز على عمر أن ينجو ذلك الأسير الذى طالما استغل فصاحته فى هجاء المسلمين ولا يصيبه مكروه ، فقال : يا رسول الله، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو فيدلع لسانه (يخرج) فلا يقوم علينا خطيبا فى موطن أبدا ، فيجيبه الرسول ﷺ، وعمر من هو فى مكانته ومنزلته «لا أمثل به فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيا»، وتلك عليا مراتب الأنبياء[2] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى موقف الإسلام من التخلف الثقافى ودعوته إلى القضاء عليه من طريق اتخاذ الخطوات الإيجابية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف الأساسى وأولها محو الأمية ، فقد عرض الرسول ﷺ على المشركين إطلاق سراح من يفدى منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وفحوى ذلك العرض أن يشترى الأسير حريته بثمن يتكافأ معها ، وهو أن يعلم عشرة من الجيل الصاعد للمسلمين ، وهو النشء للنهوض بأكبر المسئوليات فى المرحلة المقبلة من تاريخ الدعوة الإسلامية ، ففى هذا التعليم إحياء لنفوس الطليعة من أبناء المسلمين لأن الجهل موت معنوى ، وبعث أمة وتحرير شعب إنما يرتجى فى المقام الأول بتحرير أبنائها من عبودية الجهالة وإضاءة بصيرتها بنور المعرفة حتى يصبحوا جميعا أعضاء صالحين فى جسد المجتمع أشداء على أعدائهم رحماء بينهم[3] .

ولم تكن حروب الرسول ﷺ مطلقة بل قيدت منذ أول الأمر بقوانين رحيمة ، وكان أول قانون فيها ما سبق أن أشرنا إليه من ألا تكون عدوانا وأن تكون حروب دفع

---

(١) حسن فتح الباب : القيم الخلقية والإنسانية فى الغزوات ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٣٦ ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

لا حروب اعتداء كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠)﴾ [البقرة] ، وهو تحذير شديد من الاعتداء والبدء بالعدوان وقتال الأعداء[١].

وكان الرسول ﷺ ينهى عن قتل الأسرى والتمثيل بهم ، وكان يقول لأتباعه حين يخرجون للغزو "اخرجوا باسم الله ، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، لا تعتدوا، ولا تمثلوا ، أى لا تنكلوا بقتيل من أعدائكم فتقطعوا بعض أعضائه كما حدث في غزوة أحد لعم الرسول ﷺ ، حمزة ، إذ لما رأى نسوة قريش زوجة أبى سفيان هند وقد شقت بطن حمزة وأخرجت كبده وأخذت تلوك منها قطعا بأسنانها ، قلدنها فأخذن يمثلن بموتى المسلمين ويقطعن أنوفهم وآذانهم وأصابعهم ، ويتخذن منها قلائد وأقراطا ، وكان تحريم الرسول ﷺ للمسلمين أن يفعلوا مثل هذا هو القانون الثانى[٢]

وقال الرسول ﷺ فى الحديث السابق الذى رواه البخارى «ولا تغلوا» من الغل وهو الطوق من الحديد ، يوضع فى رقبة العدو الأسير إذلالا له ، والرسول ينهى عن وضع الأغلال فى رقاب الأسرى حفاظا على كرامتهم وحقوقهم الإنسانية ، وهذا هو القانون الثالث الرحيم من قوانين حربه وحين انتصر فى غزوة بدر وأسر الصحابة فيها سبعين من صناديد قريش أمر الرسول ﷺ الصحابة - كما يقول ابن عباس - أن لا يؤذوهم وأن يكرموهم ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء ، وهذا هو القانون الرابع، وهو الحفاظ على كرامة الأسرى وحقوقهم الإنسانية

وحرم الرسول ﷺ على المسلمين تحريما باتا قتل الأطفال والصبية والشيوخ والرهبان ، فلم يقتلوا طفلا ولا صبيا ولا شيخا عجوزا ولا راهبا فى حرب من حروبهم مع أعدائهم فى زمن الرسول ﷺ ولا فى أى عصر من عصورهم[٣] .

وحرم الرسول ﷺ فى حروب الأعداء النهب ، وأن لا يستولى المسلمون المحاربون من زروع أعدائهم إلا بقدر ما يكفيهم وما يحتاجون إليه لطعامهم وطعام دوابهم ، ونهى المسلمين فى الحرب أن يقطعوا للأعداء شجرا أو يتلفوا زروعا أو يفتكوا ببعض حيواناتهم

---

(١) شوقى ضيف ، ص ١٩٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٣

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٥

حكمة القيادة المحمدية وفاعليتها :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وكأننا بهذا الشاعر العربى يلخص الموضوع الذى نريد أن نكتب فيه ، فلا يمكن أن يستقيم أمر أمة منظمة إلا إذا توافر لها أمران : **الأول** عقيدة ترسم لها الغايات وتحدد لها المسارات ، وتربط بين أفرادها فى وحدة عضوية كلية ، وتتيح فرصة التكامل بين جهود أفرادها ، فلا ينقصها مجهود فى جانب من جوانب حياتها ، وإنما يكمل جهد كل جماعة صغيرة من جماعاتها وكل فرد من أفرادها جهد الجماعات الأخرى والأفراد الآخرين . **والثانى** ، أن توجه هذه الجهود المتكاملة بحيث تضبط العقيدة إيقاع الحياة المجتمعية .

وفى المجتمعات البشرية ، لا يستقيم أمر كل إنسان بمفرده ، ولا يستقيم أمر جماعة إلا بالتعاون ، أما العزلة والانفراد والاستئثار والانطواء ، وما ينعطف عليها كلها، فمن أضداد المجتمع والاجتماع وما إليهما ، وكل شيء يعمله الإنسان منفردا يمكن أن يتم بشكل أحسن فى ظل التعاون والتآزر ، وبتوجيه قيادة نادرة فى تاريخ البشر .

والدارس للسيرة النبوية يستطيع أن يلمس العديد من النماذج والأمثلة التى تؤكد أننا أمام قيادة توافر لها من الكفايات والمهارات والقدرات ، ما لم يتوافر لبشر على مر التاريخ البشرى ، بحيث تصبح معينا لا ينضب يمكن للإنسان أن يغترف منه ما شاء على طريق بناء الشخصية بناء تربويا إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من السواء .

ولا شك أننا لو تأملنا نماذج القيادة والحكم المختلفة ، فسوف نجد أمامنا ثلاثة نماذج[1] :

فهناك الحكم بسلطان الدنيا ، وهناك الحكم بسلطان الآخرة ، وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة .

وكل أولئك كان للرسول ﷺ الحق فيها : فقد كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين فى رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون ، وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب .

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، ص ١٢ .

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر ، بسلطان الحب والرضا والاختيار وفقا لتعبيرات العقاد البصيرة الدقيقة .

كان الرسول أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الإمامة فى الحكم ، بل فى العبادة ، فالإمام المكروه لا ترضى له صلاة .

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه ، فروى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل يا رسول الله ، على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال ﷺ وعلى جمع الحطب ، فقالوا : يا رسول الله، نكفيك العمل قال «علمت أنكم تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم . إن الله -سبحانه وتعالى- يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه» (١).

وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال «إن لله عبادا اختصهم بحوائج الناس يفرع إليهم الناس فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله» .

وأوضح ما تكون المهارة القيادية للرسول تلك العلامات المبشرة بعظمة القيادة حتى قبل نزول الوحى ، فقد حدث ، وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره أن رجال قريش أرادوا تجديد بناء البيت العتيق ، ولما أتموا ما أتموا من البناء وهم متفقون ، اختلفوا حينما أرادوا وضع الحجر الأسود فى موضعه ، لأن أشراف قريش تنافسوا فى ذلك لمكانته المقدسة فى الجاهلية أيضا ، وكان الاختلاف الناشئ من التنافس شديدا حتى كاد أن يوقع بينهم حربا تشب نارها عليهم وتقضى على اتفاق كلمتهم ، ودام الخلاف أربعة أيام ، حتى قال قائلهم ، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومى الذى كان أكبر رجال قريش فى السن : يا قوم ، لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه(٢) . فقالت قريش : نكل الأمر لأول داخل . وحينما كانوا ينتظرون لذلك ، دخل عليهم محمد بن عبد الله الذى سبق لهم أن وصفوه بـ «الأمين» ، فاستبشروا ، فإذا بالحل العبقرى يأتى على يديه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٢) أبو النصر الطرازى الحسينى ، ص ٣٧ .

والإسلام يحسب حساب الفطرة ويأخذها بعين الاعتبار فلا ينكر على النفس إحساسها الفطرى لكراهيتها وثقلها ، ولكن القرآن يعالج هذه الناحية بالمناقشة والمنطق والعقل فيوجه النفس الإنسانية إلى تفهم معانى الجهاد والموت فيقول : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ...** ﴾ [النساء: ٧٨]، فمن هذه الآية وأمثالها نلمس موطن الخوف ، فإذا كان لكل نفس أجل ولن تموت حتى تستوفيه ، فلم الخوف والهلع والحرص والتخلف من الإقدام ؟ والقرآن يربى النفس الإنسانية بضرب الأمثال والقصص كى تتحرر من الخوف والفزع ، كما فى قوله ﴿ **قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨)** ﴾ [الجمعة] .

كذلك فإن الله سبحانه عندما يخاطب المؤمنين بقوله : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٢٥٦)** ﴾ [البقرة]، فإن المقصود هنا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله ودينه ، وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر ، الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى ، فإذا أراد أحد أن يفتن رجلا عن رأيه بالدعاية وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بإدحاض حجته وتفنيد منطقه ، لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب رأى عن رأيه ، وجب دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلا ، ذلك بأن كرامة الإنسان تتلخص فى كلمة واحدة : عقيدته[١] .

فالعقيدة أثمن ، عند من يقدر معنى الإنسانية ، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياة نفسها ، من هذه الحياة المادية التى يشترك الإنسان والحيوان فيها ، يأكلون ويشربون ، وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم . والعقيدة هى هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان ، والصلة الروحية بين المرء وربه ، وهى هذا الحظ الذى يمتاز به الإنسان على سائر الحيوان مما فى الحياة ، والذى يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصة ، ويتصل بالكون كله ليعمل دائبا كى يبلغ الكون ما قدر الله له من غايات[٢] .

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

وحقا ما قاله العقاد عندما نبه إلى أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ، ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين إسماع المستعدين للإصغاء إليه ، لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى إخضاعها عن القوة[1]

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف ، وتلك حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه وقصد النبى ﷺ بالدعوة كما رأينا عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الإسلامية فيمتنع القتال[2]

ومن هنا كان الجهاد فى الإسلام عنصرا أصيلا وتكليفا يقوم به المسلمون دفاعا عن عقيدتهم وعن ديارهم لأنه الوسيلة الإيجابية لدرء الشر فى مكامنه ، سواء كان نابعا من النفس أو وافدا من الخارج ، فالخير والشر متجاوران فى دنيا البشر ، بل وفى أعماق الإنسان ، وما دام الإسلام هو الحق والخير فلن تهدأ للجهاد دائرة ، ولن ينتهى له آن

فلابد لأصحاب الحق من شوكة ترد أذى المعتدين وتقف فى وجه الباطل وأهله حتى يبقى الخير ، ويذهب الشر : وإذا كان الذين يدعون إلى الإثم والعدوان لا ينفكون عن اعتداءاتهم ، فيجب أن يوقفوا عند حدهم ، ولذلك أذن الله بالقتال دفاعا عن الفضيلة بعد أن وجه الله نداءه على لسان رسوله ليتبع الناس الحق والخير ويعترفوا بأن الله واحد فى ملكه وأنه الواحد فى عبادته[3] .

ويظن بعض الناس - من المستشرقين خاصة - أن معنى إعلاء كلمة الله هو تصويب السهام إلى صدور الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فالجهاد فى نظرهم قهر وبطش وإرهاب ، والفتوحات التى تمت على يد المجاهدين لم تكن عن اقتناع وفكر

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، ص ٤١

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢

(٣) موسى لاشين وزميله : دراسات فى السيرة وعلوم السنة ، ص ٩٦ .

النبى ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وقد خبرتهما ، فأشهدك يا عمر أنى قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا [١]!

وهكذا حرص الرسول ﷺ على أن يقدم دائما النموذج والقدوة على أهمية التآخى بين الناس ، ولعل هذا ما دعا كاتبة مثل كارين أرمسترونج أن تقر بأن هذا الرجل الذى كان أعداؤه يرتعدون خوفا منه ، كان يحظى بحب عميق بين أفراد الأمة ، والتى كانت ، رغم الخطر الدائم الذى كانت تواجهه ، تمثل مجتمعا ينعم بسعادة غامرة، فقد كان الرسول ﷺ يرفض أن يقيم فجوة من الاعتبارات الشكلية أو الرسمية بينه وبين غيره من المسلمين ، وكان يكره أن يخاطبه أحد بألقاب التشريف الطنانة ، وكثيرا ما كان يشاهد وهو جالس على سجيته ودون تكلف على الأرض فى المسجد[٢].

وتختار أرمسترونج جانبا إنسانيا على درجة عالية من الأهمية دلالة على قدرة النبى الفائقة على التعامل مع المسلمين بكل ما يمكن تصوره من حنو وعطف ، مما كان لابد معه أن ينقادوا إلى ما يقول ويتمثلوا ما يفعل ، وهذا الجانب هو المتعلق بمعاملة الحيوان ، إذ تشير كاتبتنا أنه كان محبا للحيوان ، إذا رأى قطة نائمة على بردته تركها وكره أن يقلقها . وقد قيل إن أحد معايير تقدم المجتمع هو موقفه من الحيوان ، وجميع الأديان تحث الناس على حب العالم الطبيعى واحترامه ، وكان محمد يحاول تعليم المسلمين هذا السلوك ، وقد حظر وصم الحيوانات وصما يتسبب فى إيلامها ، وحظر تنظيم مسابقات اقتتال الحيوان ، وجاء فى الأثر أن رجلا دخل الجنة لأنه سقى كلبا كان يعانى من شدة العطش[٣] .

إن هذا يبين بالفرق الجوهرى بين صاحب الأقوال وصاحب الأعمال ، فالجمهرة الكبرى من المصلحين والزعماء والمفكرين الذين تمتلئ بهم صفحات التاريخ - كما سبق أن أشرنا ، ربما غلب عليهم القول والحديث والنصح والإرشاد ، لكننا نجد الرسول ﷺ ربما سلك قبل أن يعظ ، وعمل ربما قبل أن ينبه ، وطبق قبل أن يوجه ويشير . والحق أن هذه سمة يختص بها الأنبياء على وجه العموم ، ذلك أن رسالة الأنبياء لو اقتصرت على إلقاء المواعظ والنصائح دون أن يكافحوا فى سبيل إنهاض بنى الإنسان وتقويم

(١) سيرة ابن كثير ، ج١، ص ٢٩٥-٢٩٦

(٢) ارمسترونج ، ص ٣٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

أخلاقهم ما استطاع أحد أن يفهم الحاجة إلى الرسالة والرسل ، لأن المواعظ والحكم تجئ على ألسنة العلماء ممن يدعوا الرسالة ، وفى بعض ما قالوه يرتفع إلى ذروة من الحكمة والرقى ، ولكن الانتفاع بالأقوال - وجدها - قليل ، أما الأعمال فمحك اختبار النجاح ، والقاعدة فى اختيار الهداة هى الأعمال ، إذ لا دليل على أن الإنسان يستشعر ما يدعو إليه من الفضائل إلا اتصافه التام بما يقول [1].

وقد نجح الرسول ﷺ لأنه كان النموذج الذى يدعو إليه من الفضائل ، وقد بعث كل رسول ممن تقدموا محمدا لتهذيب معشره فحسب ، فكان مثل هؤلاء مثل المصابيح التى يوضع كل منها فى حجرة لا تضىء سواها ، أما محمد ، فقد جاء لتهذيب الإنسانية ، وتنمية الفطرة الصحيحة واستخدام مهاراتهم وقدراتهم فامتلأت حياته الكريمة بالمثل الصالحة لهذا التهذيب العام .

ومن هنا فإنه ﷺ لم يقم نفسه ملكا على يثرب عندما بدأ يقيم دولة المسلمين ، كما أراد له المتحمسون من أنصاره ، ولم يعف نفسه من العمل ، ولكنه خرج بنفسه ليتعلم الزراعة بعد أن تجاوز الثالثة والخمسين ، وهى مهنة جديدة غريبة عليه ، وطلب النبى من النساء أن يعملن أيضا كما يعمل الرجال ، فخرج كثير منهن ، حتى اللواتى تعودن أن يعشن فى مكة من قبل ، ناعمات مستغنيات وراء جدران بيوتهن . وكان الرسول ﷺ ، وهو يعمل فى الحقول بين الرجال والنساء يوصى الرجال أن يخففوا عن النساء عبء العمل ، ولقد شاهد أسماء بنت أبى بكر تعمل وتثقل رأسها بما تحمله أثناء العمل فى الحقل[2].

وإذا كنا قد سقنا أمثلة على اخشوشان الرسول ﷺ ، فمن الضرورى التأكيد على أن مثل هذا السلوك لم يكن فعل من لا يجد ، بل على العكس ، فلو فتحت إلى بيوت هذا النبى نافذة تطل على بحبوحة الحياة الرغدة ، لاستمتع واكتنز واستمتع نسوته وابتهجن . لقد كان قادرا على أن يحتجز من المال الذى يمر به ويحكم فيه ، ما يشاء ، لو يشاء ، لكن هذا النبى السمح ، كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان هدفا أسمى ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكر - قبل كل شىء - فى إشباع نهم الناس منها [3].

---

(١) محمد رجب البيومى : السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين ، القاهرة ، الأزهر الشريف ، ١٩٩١ ، ص ٧٠ .

(٢) عبد الرحمن الشرقاوى ، محمد رسول الحرية ، ص ١٤٤ .

(٣) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ٤٧٩ .

عن أبى ذر قال : كنت أمشـى مع النبى ﷺ فى حرَّة المدينة ، فاستـقبلنا أُحد ، فقال : يا أبا ذر ، قلت : لبـيك يا رسول الله · قال : ما يسـرنى أن عندى مثل أحد ذهبا ، تمضى على ثلاثة وعندى منه دينار - إلا شيـئا أرصده لدين - إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهـكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه· ثم مـشى ، فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيـامة ، إلا من قال ، هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه ، وعن شماله ، ومن خلفه ، وقليل ما هم[1]!!

ومع ما كان عليه الصلاة والسلام من تـواضع كريم غير ذليل ، إلا أنه ذا هيبة فى القلوب أشـد ما تكون هيـبة الـرجل الذى اختـاره الله رسولا للعـالمين ، وما كـان تواضعه إلا لما يعلمه من فرط هيبته ، فليلطفـها بذلك التواضع ، بل إنهما نبعا من هيئة واحدة ، فهما متآخيتان ، بل إنه لا يتواضع هذا التواضع إلا من يكون قويا فى نفسه ·

ولقد وصف الواصفون مجلس النبى ﷺ بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته، وقوة وقاره ، وسمته ، فقد كـان مجلسه ﷺ يحفه الوقار ، لا يتكلمون إلا إذا أذن فى القول ، فإذا صمت لا يخرجون عن قوله ، ولا يبعدون عن إرادته ، ولكن فى تواضع واطمئنان ، وإن أخبار هيبته فى مبدأ البعث لها صور ووقائع ، ولكن ما كان ﷺ يسلط هذه الهيبـة التى تفرض صاحبهـا إلا نادرا ، لتكون استجابة الدعـوة عن الاقتناع المجرد الذى لا يدخله رهبة ولا ترغيب إلا ما يكون من رضا الله- تعالى- يوم القيامة [2]·

ومن الأمثلـة التى يمكن الاستـدلال بها على ذلك ، تلك الواقـعة الخاصـة بأبى جهل، كان فاجـرا ، لا شرف فى القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعـه ، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبى ﷺ يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت فى اندفـاعه إلى الشر وصبـره له ، ولقد كان لبعض العـرب دين عليه ، فمـاطل ، ثم امتنع عـن السداد ، فرأى أن يسـتعين ببـعض زعمـاء مكة ممن هم على شاكلته ليحصل على دينه ، فأحالوه تهكما على محمد ، فذهب الرجل إليه يستعين به، فذهب النبى ﷺ إلى بيت أبى جـهل ، وطرق الباب فخرج إليه ، وفـرائصه ترتعد من هول الهيبـة المحمدية ، فقـال له الرسول ﷺ : «أد للرجل دينه»، فذل كبـرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغرا[3] ·

---

(١) أخرجه البخارى ،١١/ ٢٢٠، ومسلم ،٣/ ٧٥، عن أبى ذر ·

(٢) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ج١ ، ص ١٨١ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ·

ومن مقومات قيادته ، ما عرف بتكافؤ الخلق فى شخصيته ، والمقصود بالتكافؤ الخلقى هنا أن أخلاقه ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متساوية متفقة ، فصبره مثل شجاعته ، وشجاعته مثل كرمه ، وكرمه مثل حلمه ، وحلمه مثل رحمته ، ورحمته مثل مروءته ، وهكذا لا تجد له خلقا فى موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر فى موضعه منه .

وكان شجاعا بأدق وأشمل ما تحمل هذه الكلمة من مدلول ، وما من شجاع إلا كانت له هفوة ، أو حفظت له كبوة ، إلا رسول الله ﷺ ، قال ابن عمر : ما رأيت أشجع، ولا أنجد ، ولا أجود ، ولا أرضى من رسول الله ﷺ . وقال على بن أبى طالب : إنا كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا [(١)] .

وعندما تشبع المسلمون بمعانى القدوة ، بدأت تنمو فيهم روح الطاعة للقيادة ، وكانت هذه نقلة كبيرة للغاية ، فقد كانت الطاعة وكان الولاء دائما للقبيلة ، فأصبح لأول مسرة فى التاريخ العربى يكون الولاء للعقيدة ، وبالتالى تكون الطاعة ويكون الانقياد للرسول المبشر بهذه العقيدة .

لكن هذه الطاعة كانت طاعة تلتزم الحق دائما . روى البخارى عن ابن عباس تعليقا على الآية الكريمة :﴿ **يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلي الأَمْرِ منكُمْ**﴾ [النساء:٥٩]، قال: إنها نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى ، إذ بعثه رسول الله ﷺ فى سرية ، وقال الإمام أحمد عن على قال بعث رسول الله ﷺ سرية ، واستعمل لهم رجلا من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم فى شىء ، فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لى حطبا ، ثم دعا بنار فأضرمها بنفسه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، وقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا ، إنما الطاعة فى المعروف»[(٢)] .

---

(١) يوسف الشال : خاتم المرسلين ، ص ٢٧٤ .

(٢) محمد لقمان الأعظمى ، مجتمع المدينة ، ص ١٨١ .

وإذا كان كل نظام جديد يراد له النجاح لابد له من تخطيط وتنظيم ومتابعة ، فقد تجلى هذا واضحا منذ بيعة العقبة الأولى ، فالرسول ﷺ لا يكتفى بالمبايعة ووضوح المبادئ ومناقشتها مناقشة حرة ، ثم يتركها للناس ، كلا ، وإنما يقسم المجموعة الكبرى إلى أسر صغيرة لا تتجاوز العشرة ، ويجعل على كل جماعة من هذه الجماعات الصغيرة نقيبا يتولى الإشراف على التنفيذ ومراقبة الالتزام ، وصحة التطبيق ودقة المتابعة، ويكون مسئولا مسئولية تامة عن جماعته . ثم أراد الرسول ﷺ أن يحدد لكل نقيب مهمته فقال لهم : «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى المسلمين »[1] .

وعلى الرغم من أن ابن أبى كان رأس الحربة فى حزب المنافقين ، إلا أن حسن القيادة ونفاذ بصيرتها جعلتا الرسول - من موقع قوة - يتسامح مع الرجل ، وخاصة فى أدنى مستويات الضعف ، ألا وهى المرض ، ثم الموت ، فطوال فترة مرضه التى استمرت عشرين يوما ، فى السنة التاسعة من الهجرة ، حرص الرسول ﷺ على أن يعوده، ودخل على ابن أبى وهو يجود بنفسه ، فسأله إن مات أن يحضر غسله ، وطلب من الرسول أن يعطيه قميصه ليكفن فيه ، فخلع قميصه الأعلى - وكان عليه قميصان - وحاول أن يناوله إياه ، فقال : بل الذى يلى جلدك ، فنزع قميصه الذى يلى جلده فأعطاه له ثم قال ابن أبى : صل على ، واستغفر لى ، فكان له ما أراد[2] .

وتعرضت الجماعة الإسلامية لمحنة كبيرة من جراء ما تم الاتفاق عليه فى صلح الحديبية ، حيث تصور كثيرون أن الرسول ﷺ قد فرط - والعياذ بالله - فى حقوق المسلمين ، وخاصة فيما يتصل بالبند الرابع الذى كان يؤكد على أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده - ولو كان مسلما - ومن جاء إليهم لا يردونه . لقد اعتبر الرسول الوصول إلى السلم هدفا يصغر إلى جانبه كل شىء ، وعد هذا فتحا مبينا - وقد أكد الوحى الإلهى هذا بالفعل - وقد كان محمد أبعد نظرا من رجاله ومن خصومه على حد سواء ، وإن بدا لأول وهلة أن قريشا ذهبت فى الصلح بالكفة الراجحة ، إلا أن الأيام أثبتت غير هذا ، فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة فى العام

---

(١) توفيق محمد سبع ، ص ٣٠٥ .

(٢) شوقى ضيف ، ص ٣٨٠ .

التالى ، واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام ، فأثر هذا تأثيرا كبيرا فى موقفها الداخلى والخارجى ، كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد صراحة ، وبخاصة خزاعة التى كان جزء كبير من الأحابيش فى بطونها ، وبذلك جذب محمد إليه جزءا كبيرا من هذه القوة ، فأضعف ذلك مركز قريش الحربى ، ثم إن محمدا قد أتيحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائيا على اليهود ببلاد العرب ، وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم ، وبدأت القبائل التى كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه[1].

وحرص الرسول ﷺ أن يحيط أمر عزمه على فتح مكة بالكثير من الكتمان قصدا منه فى كسب المعركة بغير إراقة دماء ، وتبدى هذا فى قراره بقسمة الجيش إلى أربع فرق، وإصدار أمره إليها جميعا ألا تقاتل وألا تسفك دما إلا إذا أكرهت على ذلك إكراها واضطرت إلى ذلك اضطرارا ، وفى استبدال قيس بأبيه سعد بن عبادة الذى نصبه أميرا على فرقة أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى حين بلغه قول سعد وهم يتأهبون : اليوم يوم الملحمة · اليوم تستحل الحرمة ، لما فى ذلك من نقض أمر النبى ﷺ ألا يقتل المسلمون من أهل مكة ، وكان قيس أخف من أبيه حدة وأكثر قدرة على امتلاك نفسه وضبط أعصابه[2].

كما يشهد بمقصد الرسول السلمى ما فعله حين علم بالقتال الذى نشب بين الجناح الأيمن بقيادة خالد بن الوليد وكانت مهمته أن يدخل من أسفل مكة ، فقد بادر بعض المشركين ممن كانوا يقيمون فى ذلك الحى من مكة إلى شن العدوان فأمطروا فرقة خالد بنبالهم وما لبثوا أن لاذوا بالفرار حين رد خالد سهامهم إلى نحورهم وسقاهم من الكأس المريرة التى أرادوا أن يسقوها القائد البطل ورجاله فسقط منهم الكثيرون صرعى وعلى الباغى دارت الدوائر · بيد أن نبى الرحمة أسف إذ رأى من ربوة عالية مطاردة فرقة خالد لمن هاجموها وكانت سائر الفرق قد دخلت مكة دون مقاومة ، وصاح مغضبا يذكر أمره ألا يكون قتال ، ثم ذكر حين علم بجلية الأمر أن الخيرة فيما اختاره الله ·

---

(١) إبراهيم أبو الخشب ، ص ٢٨٦ ·

(٢) حسن فتح الباب ، القيم الخلقية والإنسانية ، ص ١٧٤ ·

تكوين الرجـال :

وإذا كان لابد لتـربية الأمـة من قيـادة مؤمنة واعيـة توجه وتنظم وتـرعى وترشد وتعين وتعلم ، فإن ما يكمل المسألة هو أن تكون بجوار هذه القـيادة مجموعة من البنى البشرية أحسن تكوينها وربيت على المبادئ نفسها التى يبشر بها القائد الرسول .

وكان من الطبـيعى أن يسـعى الرسول فى خطوات تربيتـه الأولى لهـذا النفر من البشر - كما مر بنا فى الجزء الخاص بالدعوة - أن يقرأوا القرآن الكريم ويتعلموه ، فهو دستور الحياة الإسلامية ، وما كان على الرسول الكريم إلا أن يستجيب لتوجيه المولى عز وجل : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨] ، وهو توجـيه مـحدد المعالم ، فكان يطبقه تطبيقا دقيقا ، فى حكمة النبيين وسلوك المرسلين ، يتفرس الرجال ويعرض عليهم الإسـلام ، ويحاول ما استطاع إلى بلوغ الغرض مـختلف السبل ، ولا يألو جـهدا ولا يقـصر عن غـاية ، فى وداعة عـهدها أهل مكة فـيه منذ تطلعت إلـيه أنظارهم [١].

والتربية على يد الرسـول ﷺ فى مبدئها كانت تتعـمق الجذور ، وتقيم الأساس الصحيح للبناء ، حماية لفطرة الإنسان حتى يظل كيانه الذى خلقه الله عليه بريئا مما يرد من مستنقعات الشرك والوثنية فى شتى صورها وتعدد مظاهرها . وقد عنيت التربية أول مـا عنيت برد الإنسان إلى فطرته ، وتـركيـز الإيمان فى قلبه مـبرأ ، وتكوين العـقيـدة السليمة التى يقوم عليها بناء الإسلام الشامخ الذى شاء الله له أن يكون خاتم الرسالات وأن يكون رسوله ﷺ خاتم المرسلين .

واسـتطاع الرسـول ﷺ بتربيتـه للرعـيل الأول من المسلمين أن يتـغلغل الإيمان بالرسالة والمغالاة بصاحـبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسـه، فهو- عن حب واقتناع، لامن تكليف ورهبة - يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس ، عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبى عليه الصـلاة والسلام ، وهو آخذ بيد عمر ، فقـال عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلىّ من كـل شىء إلا نفسـى ! فقـال الرسـول ﷺ : «لا - والذى نفسى بيده - حـتى أكون أحب إليك من نفسك» . فقال عـمر : فإنه الآن لأنت أحب إلىّ من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : «الآن يا عمر ، الآن فقط تم إيمانك» [٢] .

---

(١) يوسف الشال ، خاتم المرسلين ، ص ١٠٧ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى ، وأحمد ، ٤/ ٢٢٣.

وينبه شيخنا الغزالى إلى معنى هام فى هذا الموقف ، فالرسول ﷺ لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه صورة اللحم والدم ، ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليموتوا كى يحيا ، كلا ، فمحمد أراد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة ، وأن يفتدوا فيه مثلها العالية ، وأن يصونوا - فى شخصه - معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة العامة [1].

كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ شديد الحب له قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه ، يعرف الحزن فى وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما غير لونك؟ فقال : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك . ثم إنى إذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ، وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبدا [2] ، فنزل قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء].

وبقلمه الفذ حقا ، يصور طه حسين موقفا بين أخ ظل على شركه وأخته التى عرفت طريق الحق ، أما الأخ فهو عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وأما الأخت فهى سهلة ، التى تزوجت أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، فقد لاحظ الأخ أنه حاول أن يقبل على أخته يضمها ويقبلها ، فنفرت منه ، ويستغرق فى الحديث وهى ذاهلة عنه ، فلما طلب منها تفسيرا كان جوابها أنه مشرك وهى لا تحب مس المشركين ، ولما قال لها مستهزئا أن حبهم لمحمد قد بلغ بهم أن صدوا إخوانهم ، كان جوابها : لو قد أحببت محمدا واستحببت لدينه لعرفت أن الصد عن الإخوان والآباء فى سبيله ليس شيئا . . . إنا نحب الله ورسوله أكثر مما نحب آباءنا وأمهاتنا وإخواننا ، وأكثر مما نحب الدنيا كلها وما فيها من كل شيء وأكثر مما نحب أنفسنا [3] .

ويشترك زوجها فى المناقشة ، ويسمع عبد الله أكثر عن دعوة الحق ، ويحدس أبو حذيفة أن شيئا ما بدأ يحدث لعبد الله ، إنها السكينة ، فيبادرهما عبد الله بقوله : إن لكم لألفاظا تديرونها فى أفواهكم وتقرعون بها آذاننا ، ولكنا لا نحصل لها معنى .

---

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٣) طه حسين : الوعد الحق ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٩٧ .

هذه تزعم أنكم تحبون محمدا أكثر مما تحبون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل الله على قلبى السكينة ، ما عسى أن تكون هذه السكينة ، وما عسى أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آبائكم وأنفسكم ؟ ، ويرد أبو حذيفة فى صوت رقيق : لم يصنع محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغى ، وجلّاها من الضلال، واستنزل عليها السكينة التى ملأتها أمنا ورضا وثقة وأملا وحالت بينها وبين الخوف والشك والقنوط[1] ، ويقرأ : ﴿ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٠) ﴾ [يونس] .

وصور التعذيب والتنكيل بمن أقبلوا على الإسلام وثباتهم على إيمانهم وتحملهم ما يصعب على بشر تحمله ، إنما هى دلالة على ما يمكن أن يفعله الإيمان بالله فى تربية شخصية تستهين بكل ما يمكن أن تتعرض له من عذاب فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وقد عرضنا من قبل لأمثلة من هذا ، ويصور طه حسين ببيانه الساحر صورة أخرى يصعب أن ننتقى منها أو نلخصها ، فلا يكون أمامنا إلا أن نقرأ ما كتب[1] :

« . . . ومر قوم آخرون من أصحاب النبى ﷺ بحى آخر من أحياء قريش فيرون، ويا هول ما يرون ! نارا عظيمة قد أججت ، ويرون رجلا قد شد وثاقه ، ويرون قوما يحملونه ويدنونه من النار حتى توشك أن تحيط به ، ثم يختطفونه اختطافا فيبعدون به عن النار ، ثم يقيمونه أمامهم مشدودا مقيدا ، ثم يتقدم أحدهم فيدفع برجله فى صدره دفعة تسقطه إلى ظهره وهم يتضاحكون ، ثم يعودون فيفعلون به مثل فعلهم الأول ، يقول قائلهم : اذكر آلهتنا بخير، وقع فى محمد (سبه) ودينه أو لتميتنك هذه النار ! فلا يسمعون منه إلا : أشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق . ومايزالون يقدمونه إلى النار ويؤخرونه عنها ، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردونه قائما حتى يغشى عليه . . . » ، إنه خباب بن الأرت . . نموذج من عشرات الأمثلة الفذة لتلك الشخصيات التى رباها محمد ﷺ فكان ما كان من قدرتهم على أن يحملوا الرسالة إلى أرجاء الأرض مبشرين ومنذرين» .

وتجلت روعة تربية الرعيل الأول من المسلمين أيضا فى قدرتهم على خوض المعارك الفكرية ، بالحجة والدليل وعفة اللسان والوصف الأمين الدقيق وعمق التحليل ،

(١) طه حسين ، الوعد الحق ، ص ١٠٩ .

فـالذين هاجروا لأول مـرة إلى الحبشـة ينيبـون عنهم جعفـر بن أبى طالب ليحـدث النجاشي، فاستطاع أن يقدم الإسلام بصورة فريدة من خلال أربع خطوط أساسية [١]:

الأول : عرض فيه كل مـساوئ الجاهلية وعوراتها وقـذرها بحيث أصبح هذا الدين الذى يدين به وفد قريش المناوئ والذى كان بقيـادة الداهية المعروف عمرو بن العاص ، تتقزز منه كل نفس بشرية .

الثانى : عرض فيه فى كلمات جامعة قواعد الإسلام العامة وأسسه التى تستهوى كل حصـيف عاقل ، بله ملك حكيم مـجرب محنك .لـقد كانت تلك فـرصة مواتية لجـعفر كى ينقلب داعية إلـى هذا الدين ، بعد أن كان الهدف سيـاسيا بحتا هو المحافظة على الوجود الإسلامى فى الحبشة .

الثالث : عرض فـيه للظلم المـاحق الذى نزل بالمسلمين نتيـجة تمسكهم بهـذا الدين وأبرز وضع المسلـمين فى صـورة قـديسين وحـواريين ، تنـزل بهم ضـربات المجـرمين الوثنيين وهذه الصورة ذات أثـر ساحـر فى نفوس النصـارى الذين عاشوا مفهوم التضحية والفداء.

الرابع : حيث الثناء الحصيف المتزن على الملك ، الذى لا يحمل المبالغة الكاذبة ولا التجاهل المهين ، بل وضعه فى صورة الأمل والملاذ لهؤلاء المستضعفين .

وامتثـالا للأمر بالهجرة إلى المدينة نجد أم سلمـة تركب البعير مع زوجها ومـعها الصبى الصـغيـر ، وأدركهم من كفـار قريش رهط من عـشيرة أم سلمـة يزعمـون أنها صاحـبتهم ، وأنهم أهلوها الأدنون ، وأن لهم الولاية عليـها ، وأن حقـهم أن يمنعوها منه، وهكذا سولت لهم القدرة والقوة ، ولـم يردعهم عند ذلك منطق أو عاطفة ، ولا دعا هذا أم سلمة أو زوجها يرجعان عن إيمانهما[٢] .

ومنعوها من زوجها ، ويرجـعوا بها إلى ديارهم ومعها طفلها ، فـجاءت عشيرة الزوج وأهله الأقربون - وهم جميعا من بنى مخزوم - فدفعهم الشعور الكاذب والشهوة الشرسة إلى ادعـاء الولاية على الطفل ، وزعموا أن من العار عليـهم أن يعيش فى ديار أهلها ، وهكذا كانوا يدفعون العار الذى يزعـمون ، بالجريمة ويأخذهم الشعور بالشرف الكاذب إلى وهدة الحضيض ، تقول أم سلمة راوية مـا حدث : فتجاذبوا ابن أبى سلمة بينهم حتى خلعـوا يده ، فتأوى أمـه إلى سفوح الجبـال ترسل الدمع وتمر عليها شـهور حتى ينقذها من ينقذها ويوصلها إلى المدينة .

---

(١) منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، ج١ ، ص ٩٥ .

(٢) محمد تاج الدين الدلتونى : أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٩٤ ، ص ٧٩ .

إنها التربية الربانية على يد الرسـول ﷺ التى سمت بالنفس الإنسانية إلى الذروة العليا من السمو ، فلم تدع صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى ، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه . لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ، ولم يبق عرافون ، ولم يبق شيء يحول دون أن تسمو الروح الإنسانية لتتصل بالله صلة خير ومعروف ، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافا مضاعفة . إنها الروح ، التى هى من أمر ربى . يستطيع الأغنياء أن يعذبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذه وشهواته وأن يهلكوه، لكنهم لن يصلوا إلى الروح ، ما دام صاحبها يريد بها سموا فوق سلطان المادة وفوق سلطان البشر ، إنما يجزى الإنسان عن أعماله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، يومئذ لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، ويومئذ لا ينفع الأغنياء مالهم ، ولا الأقوياء قوتهم ، ولا المتكلمين كلامهم ، إنما هى الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه[1].

إنه لمن عجائب هذا الحب للرسول ﷺ والإسلام أنه أضفى على الوجود كله ثوبا نورانيا شفيفا فى وقت كانت الأثرة الشحيحة شعار الحياة ، فكان كل واحد يقول : نفسى وإن هلك الناس ، فإذا تسامى بعض الشيء قال : قبيلتى ـ وهكذا بلغ التعصب للنفس وللقبيلة حدا لا يدرك مداه ، فإذا استطاعت الدعوة الجديدة أن تمهد للحب منذ أول لحظة قاعدة رحبة يزدهر فيها ويمرح فلا شك أنها دعوة الإخاء الإنسانى والزمالة العالمية[2] .

ولقد كان من ثمار هذا الحب أن صار محمد ﷺ لهم قدوة، ولا تكون القدوة إلا حيث يكون الحب، وإنهم ليمشون بالإجلال الصادق فى آثاره ، ويقتبسون بالإعجاب الرائع من أنواره، امتدت إليه أعينهم وأسماعهم فغشيهم الانبهار والإعجاب به ، وامتدت إليه قلوبهم فغزاها بجليل فعله ، وما من شيء أشار به أو نبه عليه إلا سارعوا فامتثلوه حتى لم يعد لنفوسهم حظ مع رسولهم .. تلك هى طلائع الدعوة الجديدة.. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يكن من بينهم انتهازى يعمل لنفسه، أو متسلق يرتفع على كاهل غيره ، أومخادع يسعى إلى منصب أو جاه ، ولقد كان

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ١٧٤ .

(٢) محمد توفيق سبع ، ص ٩٤ .

الوحى المبارك يراوحهم ويغاديهم ، ويتعهدهم بالتربية على عين الله فصاروا قادة العالم، ورادة الخير ومعلمى البشرية حقا[1] .

ولما بدأ الرسول ﷺ الاستقرار فى المدينة بعد الهجرة ، بدأ يعمق معانى الأخوة بين المسلمين ، وهو القائل : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ثم شبك بين أصابعه»[2] . وكان الرسول ﷺ جالسا إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل فقال : «اشفعوا فلتؤجروا ، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»[3] . وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ : «مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[4].

وأكد رسول الله ﷺ على أنه كلما عمق المؤمن أخوتّه وصدق ذاق حلاوة إيمانه ، يقول النبى ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؛ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[5] .

وأبرز كذلك ضرورة قيام الأخوّة بين المسلمين على أساس الأمن وعدم الاعتداء ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله ، وعرضه» [6] .

وكان المهاجرون ينزلون فى دور الأنصار ، فلما غنم ﷺ أموال بنى النضير ، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم فى منازلهم وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ، فقال سعد بن عبادة (رئيس

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ، بيروت ، دار المعرفة ، ج١ ، ص ٤٥ ، حاشية السندى.

(٤) أخرجه البخارى فى باب تعاون المؤمنين ، ج٨ ، ص ١٤ .

(٥) صحيح مسلم ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، ج١٦ ، ص ١٣٩ ، شرح النووى ، ط٣ .

(٦) أخرجه البخارى فى باب الإيمان ج١ ، ص ١٢ ، طبعة دار المعرفة .

الخزرج) وسعد بن معاذ (رئيس الأوس) : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال ﷺ : "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار[1] .

ولا عجب أن يصف الله الأنصار بالإيثار فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الحشر] ، فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله رأس شاة ، فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحد بعد آخر حتى تداولها سبعة أبيات (بيوت) ، حتى رجعت إلى أولئك ، فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

وعندما التحم الجمعان فى موقعة بدر ، وحمى وطيس المعركة ، إذا بالمعجزة البشرية تنفجر من أعماق الأرواح المؤمنة ، معجزة الإنسان حين يضحى برابطة الدم والقربى فى سبيل رابطة العقيدة ، فها هو ذا الولد ينبرى ليصارع والده بسيفه ، وهو يعلم أى كرب يلحق به ، إذا قتله ، وأى حزن يعانيه من بعده ، ولكنه الولاء الصادق لمبدأ يعلو على كل ولاء ويقوى حتى يغلب النوازع الفطرية . لقد تصدى عبد الرحمن ابن أبى بكر ، ولم يكن قد أسلم بعد ، لأبيه أبى بكر الصديق يريد أن يقتله ، فما هاب صاحب رسول الله الموقف ولا تردد ، بل أقبل مشهرا سيفه فى وجه ولده لولا أن دعاه الرسول ﷺ إلى الإبقاء على نفسه ، فإن الإسلام فى حاجة إليه[2] .

كما واجه أبو عبيدة بن الجراح مثل هذا الموقف حين التقى بأبيه فى ساحة القتال، فهم الأخير أن يقتله ، فقال له : يا أبت اغرب عنى حتى لا يقال إن أبا عبيدة قتل أباه، ولكن الجراح أصر على القتال فقال له أبو عبيدة إن رابطة الله وإيمانه أقوى من أبوة أبيه له ورفع سيفه فأرداه قتيلا .

وفى أول معركة يخوضها المسلمون فى بدر ضد قوى الكفر والوثنية ، تحددت موازين القوى :

فلم يكن الأمر بين كثرة وقلة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ، ويرى فى خصومه المسلمين صيدا سهلا ، وبين قلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار

---

(١) أخرجه الترمذى ، ج٤ ، ص ٥٩٨ ، باب ما جاء فى حب الله ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

(٢) بنت الشاطئ: مع المصطفى ، ص ١٧٧ .

الحق ورضوان الله ، ويرى الموت فى سبيل عقيدته التى آمن بها ، حياة ومجدا وانتصارا .

وحزب الله لم يتردد فى دخول المعركة حتى يقيس قوته إلى قوة عدوه ، ولم يتهيب القتال خوفا من كثرة مسلحة مزهوة بعددها وعدتها ، بل بادر جنود الإسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كل ما استطاعوا من قوة ، ورحبوا بالجهاد ، لا يبالى أحدهم حين يقتل مسلما كيف ولا أنى يقتل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى[1]

ويشتد وطيس المعركة ، فيقف الرسول ﷺ يعدل صفوف أصحابه وفى يده سهم يشير به إلى القوم ، ويمر بسواد بن غزية ، حليف بنى عدى بن النجار ، وهو متقدم فى الصف ، فيضربه بالسهم فى بطنه ويقول له : استو يا سواد بن غزية ، فيقول للرسول ﷺ: يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق ، فأقدنى (أى اقتص من نفسك) . وهنا يكشف الرسول عن بطنه ، ويقول له : استقد . فينحنى سواد عليها يقبلها ، فيقول له الرسول ﷺ : ما حملك على هذا يا سواد ؟ فيقول الرجل : يا رسول الله ، حضر ما نرى ، فلم آمن من القتل فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك[2]!! فلله در هؤلاء من طليعة تربت تربية ربانية . . .

وما كان رسول الله ﷺ يخرج بأصحابه إلى ميادين القتال إلا وهم يشعرون برحمته ومودته، فكان بحق نبى المرحمة ونبى الملحمة، ولابد قبل الملحمة من المرحمة[3]:

رأى رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله قد تأخر عن الرفاق ، إذ هم يمضون وهو متخلف عنهم ، وكان سبب تخلفه أن جمله ضعيف ، فسأله : مالك ؟ قال : يارسول الله ﷺ أبطأ بى جملى هذا ، فقال له الرسول ﷺ : أنخه ، وقطع جابر عصا من شجر بأمر الرسول فأخذها ونخسه بها نخسات ثم قال لجابر : اركب فركبه ، وقال جابر : والذى بعثك بالحق يواهق ناقته مواهقة ، أى يسارعها ولا يبطؤ .

وهكذا كانت مراعاة القائد لجنوده ، يتتبع الضعيف فيقويه ، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله .

---

(١) بنت الشاطئ : مع المصطفى ، ص ١٧٧ .

(٢) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف ، فى رحاب السيرة ، ١١٨ .

(٣) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج٢ ، ص ٦٧٥ .

ولا ينتهى حديث الجمل عند هذا ، بل إن النبى ﷺ يبتاع الجمل ، فيريد أن يهبه له جابر ، فيأبى إلا الشراء ، ثم يساومه . . طلبه الرسول بدرهم فأبى ، فزاده إلى درهمين فأبى ، فما زال يزيد حتى جعل ثمنه أوقية من الذهب ، ولكنه يهبه للرسول ﷺ ، بعد أن ساوم هذه المساومة ، ولكن الرسول ﷺ يرده إليه ، ومعه ثمنه وهو الأوقية من الذهب التى ارتضاها ثمنا له ·

وهناك قصة طويلة من قصص البطولة والاستشهاد فى أجلى صورها [1] ، فبعد أحد تظاهر قوم بأنهم يريدون أن يتفقهوا فى الدين وهم وفد (عضل والقارة) وهم من الهون بن خزيمة ، فبعث الرسول ﷺ نفرا ستة من الصحابة ، هم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنّة ، وعبد الله بن طارق ، وكان أمير هذه السرية مرثد بن أبى مرثد الغنوى ·

وانطلق هؤلاء الستة مع الركب العائد حيث يؤدون المهمة التى كلفهم بها الرسول ﷺ، ولكن الركب ما إن وصل إلى مكان يسمى الرجيع حتى أسفر الوفد عن نواياه الحقيقية ، فقد كان يريد صيدا مسلما يقدمه قربانا يبتغون به النفع من وثنى قريش ، ومن هنا فقد أحاط أعضاء الوفد بمجموعة الصحابة يحيطون بهم من كل جانب ، فأخذ الصحابة أسيافهم يقاتلون بها القوم الذين يقولون لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نكسب خيرا من وراء تسليمكم لأهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ·

ويدرك هؤلاء النفر الطاهر من الصحابة أن الغدر لا مواثيق له ولا عهود معه ، وأنى لهؤلاء أن يعرفوا عهد الله وميثاقه ؟ وهنا يواجههم عاصم بن ثابت ، أحد هؤلاء الستة قائلا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ·

وقاتلوا القوم حتى قتل عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى المرثد وخالد بن البكير ، ولم يبق من هذه السرية الفدائية إلا ثلاثة هم : خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، غلبوا على أمرهم فأسرهم القوم وأوثقوهم واتجهوا بالركب إلى مكة يدفعهم الأمل فى جزيل العطاء من مشركى قريش ، بعد أن يساوموهم على هؤلاء الأسرى الكرام · ولكن عبد الله بن طارق أحد هؤلاء الثلاثة ينزع يده من رباطه ويقول: والله لا أصاحبكم ، إن لى بهؤلاء أسوة (يعنى أصحابه الذين قتلوا يومئذ) ، ثم أخذ سيفه وقاتل القوم حتى تجمعوا عليه فقتلوه رميا بالحجارة !

---

(١) فى رحاب السيرة ، ص ١٣٥-١٤٣ ·

ثم ينطلق الركب الغادر إلى مكة ومعه خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة الذى ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ·

ودفع القوم بخبيب إلى بنى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم أحد · ·

ويجتمع قوم قريش ليشهدوا ماذا يفعل صفوان بن أمية فى زيد بن الدثنة ، وكان أبو سفيان حاضرا ، فقال لزيد وهو يقدم للقتل : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فيقول زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى ، فيقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا · · · · وقتل زيد بن الدثنة ، والقوم حوله يعجبون من ثباته وصلابة إيمانه !

ويقف خبيب بن عدى فى محبسه ينتظر مصيره المحتوم وسط أنواء الكراهية والحقد التى تعصف بالقلوب وتخلع الألباب ، ولكن للمؤمنين قلوبا راسخة كالجبال ، ونفوسا شامخة كالقمم ، لا تعرف الخوف ولا يعبث بها الهلع ولا تهزها أعاصير الحقد ·

ويخرج القوم بخبيب ليصلبوه على صليب ربما لم تصنع العرب صليبا قبله تقتل عليه إنسانا ، فيقول لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا · قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما · ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فكان خبيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ·

وتجمع القوم يشهدون مقتل خبيب وتقدم بعضهم يرفعونه على خشب الصليب ، فلما أوثقوه قال : اللهم قد بلَّغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا !

ومن المواقف الأخرى أنه لما تأكدت نوايا عبد الله بن أبىّ ومؤامراته التى أراد بها أن يكيد للرسول وللإسلام ، بعد أن تظاهر بإسلامه ، قدم ابنه عبد الله إلى الرسول ﷺ وقال له : يا رسول الله ، إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه، فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منى ، وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار ، وعفوك أفضل

ومنك أعظم . فقال رسول الله ﷺ : ما أردت قتله وما أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا . فقال : يا رسول الله ، إن أبى كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أمورا قد غلبه الله عليها[1] .

تكوين الأمة وتأسيس الدولة :

الأمة بالنسبة للتربية ، كالرحم بالنسبة لتكوين الجنين . . .

فالرحم البيولوچى هو الحضين الذى تتكون فيه المقومات البيولوچية للإنسان ، فإذا ما خرج من رحم أمه لا تتأتى له فرصة التكوين الإنسانى إلا من خلال هذا الرحم الذى هو الأمة ، فهى المجال الحيوى الذى يتعلم فيه ومنه عقيدته ويتلقى إيمانه ، ويتعلم ممارسة عبادات هذه العقيدة . ومن خلال الأمة وبها تتجسد تعاليم العقيدة .

والدولة هى المنوط بها قيادة العمليات المختلفة التى تقوم بها الأمة وتنظيمها وتوجيهها ومراقبتها وضبطها وتقديم كل ما يمكن تقديمه مما يعين الأمة وأفرادها على العمل فى الطريق الذى يمكّن لدين الحق على الأرض .

وإن قيام الدولة الفاضلة بعمل النبى ﷺ فى حياته فى المدينة ، والحواريين من بعد فيه تطبيق عملى للفضيلة والعدالة والمساواة ، وإذهاب روح التفاوت والعنصرية ، وبث الإيمان والفداء ، ورجاء ما عند الله تعالى ، ويكون ذلك حجة فى الأرض على الذين يدعون أن قيام دولة فاضلة على مبادئ الأخلاق ليس حلما لا يتأتى تطبيقه ، ولكنه عمل ثبت تحقيقه ، وقامت فى الوجود أعلامه ، وأن الذين يفرطون فى حقوق الإنسانية يسرفون على الناس فى ظلمهم زاعمين أن الفضيلة والأخلاق علاقات شخصية ولا تصلح أن تكون أساسا للعلاقات الاجتماعية والإنسانية عامة [2] .

وإنا نقول مقالة الذين يقولون أن الدين هو العلاقة بين العبد وربه ، ولكنا نعمم العلاقة بين العبد وربه ، فنجعلها عامة شاملة ، وليست خاصة بالصوم والصلاة ، وإنما علاقة العبد بربه تقتضى الرحمة بعباده ، والعدل بينهم أيا كان جنسهم ، وأيا كان لونهم، كما قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله » ، وأن كل عمل خير فيه صلاح الجماعة من عدل يقام ، وظلم يرفع ، وإعلان مساواة ، ورفق

---

(١) منير محمد الغضبان ، المنهج الحركى فى السيرة النبوية ، ص ٢٧٤ .

(٢) محمد أبو زهرة ، ج٢ ، ص ٤٨٠ .

بالناس ، كل هذا عبادة إذا قصد به وجه الله ، فالذين يفصلون بين عبادة الله وحده ، وحسن المعاملة ، وتنظيم المعاملات بين الناس ، يفصلون بين الدين وما يلزمه ، والحقيقة وما يترتب عليها ، والمقدمة والنتيجة ·

وعندما جاء ﷺ إلى المدينة كان بها مسلمون من مهاجرين وأنصار ، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج ، وكان بين هؤلاء وأولئك ما هو معروف من منازعات وصور شقاق لا حصر لها ، ثم كان بها اليهود ، يقيم منهم بنو قينقاع فى داخلها ، ويقيم بنو قريظة فى فدك ، وبنو النضير على مقربة منها ، ويهود خيبر فى شمالها · أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، وإن بقيت فى نفس الرسول ﷺ بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له من بعد أثره · أما المشركون من سائر الأوس والخزرج ، فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافا نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وهؤلاء · وأما اليهود فبادروا بادئ الرأى إلى حسن استقبال الرسول ﷺ ظنا منهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى حلفهم والاستعانة به على تأليف الجزيرة العربية حتى تقف فى وجه المسيحية التى أبعدتهم عن أرض فلسطين[١] ·

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة الرسول ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل · هنا يبدأ طور السياسى الذى أبدى الرسول فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشا ثم يطأطئ الرأس إجلالا وإكبارا · كان أكبر همه أن يصل بيثرب ، موطنه الجديد ، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز ·

فى بداية الأمر بادر الرسول إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعائر الإسلام التى طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التى تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلوب من أدران الأرض ، ودسائس الحياة الدنيا · وتم البناء فى حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح[٢] ·

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٣٣٦ ·

(٢) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ١٨٩ ·

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذى ربى بشـرا يسلكون سلوك ملائكة ، بشرا استطاعـوا أن يؤدبوا الجبـابرة ، فأصـبحـوا ملوك الدار الآخرة · فى هذا المسـجد أذن الرحمن لنبى يؤم بالقرآن خيرة من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء ·

إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى ، تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى ، فهـو ساحة للعـبادة ، ومدرسة للـعلم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفريضـة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هى لباب الإسلام ·

هو رمز لما يكترث له الإسـلام أعظم اكتراث ويتشبـث به أشد تشبث وهو وصل العباد بربهم وصلا يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهـار ، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر[1]·

كانت أهم قيمة بدأ الرسول يرسى دعـائمها تؤلف بين القلوب هى الإخاء بحيث تكون رابطة حضـارية تجمع بين المسلمين ، ومن أعظم صور المؤاخـاة فى صدر الإسلام المؤاخـاة بين المهاجـرين والأنصـار حين قدمـوا عليهم مـن مكة ، فقـد وسعـوهم فى منازلهم، وقاموا لهم بحقوق الضيافة ، بل بحقوق أخوة الإسلام ، أشهرا متعاقبة ، إذ نزل كل مـهاجـر عند شخص من الأوس أو الخـزرج · وتحـصى كتب السـيرة النبـوية المهاجرين ومن نزلوا عندهم وأسكنوهم معهم · ويذكر عبد الرحمن بن عوف المهاجر ، مدى إكرام سعـد بن الربيع النازل عنده له ، إذ يقول إنه عرض عليه أن يقـاسمه ماله ، ولم تهاجر معه زوجته ، فعرض عليه أن ينزل له عن إحدى زوجتيه !

ورأى الرسول ﷺ أن يؤكد هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد خمسة أشهر من مقدمـه إلى المدينة ليذهب عن المهاجرين وحـشة الغربة ويؤنسهم من مـفارقة الأهل والعشيرة ، فأضاف إلى ما تقتضيه الأخوة العامة بين المسلمين من الحق والمواساة التوارث بين المهـاجرين والأنصـار ، وآخى بذلك بين خمـسة وأربعين من المـهاجريـن وخمـسة وأربعين من الأنصار ، وقيل بل خمسين وخـمسين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة دون القرابات حتى نزلت الآية ٧٥ من سورة الأنفال : ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...** (٧٥) ﴾ ، فقدمت قرابة ذوى الأرحام على قـرابة الإسلام، بل ألغتها فى الميراث إلغـاء ، وظلت أخوة الإسلام قـائمة على الحق والمسـاواة ، وهو ما يجب لكل مسلم على أخيه بحيث يمكن أن يسمى الإسلام دين الإخاء[2]·

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٠ ·

(٢) شوقى ضيف ، ص ١٦٤ ·

وكان الأساس الاقتصادى من الأسس الهامة التى أقيمت الدولة عليها ، فقد كانت المدينة قرية صغيرة يقوم اقتصاد أصحابها من العرب على الزراعة ، لأن اليهود قد احتكروا فيها التجارة والصناعة ، ولذلك نستطيع أن ندرك أن ثروة الأوس والخزرج كانت محدودة ، وأنه كان لابد من العمل على تنظيم الحياة فى هذا المجتمع تنظيما يجعل معيشةأهله الأصليين والوافدين عليهم عيشة ميسرة بحيث يتيسر الرزق لهم جميعا، وبحيث لا يكون وجود المهاجرين عبئا ثقيلا على الأنصار ، خاصة وقد ارتفعت همهمة من قبائل اليهود ، أن محمدا قد جاء بعدد من الرجال والنساء لا يعملون شيئا ، وإنما يثقلون على أهل البلد ، ويقاسمونهم الطعام والرزق بلا مقابل ، ولذلك كان من أول توجيهات الرسول ﷺ للمسلمين جميعا هو ضرورة النزول إلى ميادين العمل المختلفة كسبا للرزق الحلال ، وله أحاديث كثيرة تحث على العمل[1].

وقد سارع المهاجرون إلى العمل لكسب قوتهم ، والحق أنهم جميعا كانوا لا يعرفون كيف يكسبون القوت فى يثرب إلا من الزراعة غالبا ، لكن أهل مكة لا عهد لهم بالزراعة ، ولكنهم أخذوا يتعلمون كيف يمسكون بالفأس ويضربون به الأرض ويلقون البذر ويستنبتون الحقول ويجرون فيها الماء ووجدوا من فلاحى يثرب عونا كبيرا[2]. وروى عن أم المؤمنين عائشة قولها : كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم ، وكان يكون لهم أرواح ، فقيل لهم :لو اغتسلتم[3] ، أى كانت لهم روائح فيها شىء من أثر العرق والعمل ، ولذا نصحوا بالاستحمام .

على أن المساحة المزروعة من حقول يثرب لم تكن تكفى كل هذا العدد ، فطالب الرسول ﷺ من صحبه الأغنياء الذين هاجروا بأموالهم ، أن يشتروا الأرض القابلة للزرع فيستصلحوها لتنتج من الثمرات ما يقيم ميزان الحياة الاقتصادية بعد تدفق عدد كبير من المهاجرين . وهكذا وجد عدد آخر من المهاجرين عملا فى الحقول الجديدة ، وسالت الأموال تنعش السوق والحياة الاقتصادية فى يثرب ، وكان من بين المهاجرين عدد كبير من التجار الحاذقين الأغنياء ، فاندفعوا يستثمرون أموالهم لا فى الأرض وحدها بل فى التجارة أيضا[4] .

---

(١) عبد المنعم عمر : خديجة أم المؤمنين ، ص ٣٧٦ .

(٢) صحيح البخارى ، رواية عن عروة ، حديث رقم ١٨٦٩ ، ج٢ ، ص١٨ .

(٣) عبد الرحمن الشرقاوى ، محمد رسول الحرية ، ص ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

بعد ذلك وضع النبى ﷺ دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة ، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم ، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة ، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية ، فإنما تقوم الدول أولا ، ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور ، ولكن الرسول ﷺ ما كاد يستقر فى المدينة وما كاد العام الأول من هجرته إليها ينتهى ، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين والطرف الثانى الأنصار ، وهم الأوس والخزرج ، والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب[1] ، وهذه الصحيفة مهمة جدا لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية ، وكذلك هى مهمة لفهم الحوادث التى نشأت بعدها ٠

فإذا ما استقرأنا المعالم الرئيسية للوثيقة فسوف نجد أن القسم الأول منها يتميز بتعميق الأخوة وإذابة الفوارق وإشعارهم أنهم أمة واحدة من دون الناس يتعاطفون بعضهم مع بعض ويتآلفون فى حياتهم ، ويتحمل كل بطن منهم نفقته ومسئولياته المادية والأسرية بما فيه من الدين والدية ، إلا إذا كانت هناك حاجة تستدعى تجمع الأطراف والبطون من المهاجرين والأنصار لإنقاذ أخ لهم ، وإلى هذا تشير فقرة (١٢) ٠

والفقرة الثانية وضحت حقوق اليهود الداخلية فى المعاهدة ، وأعلنت أنه لا يجوز لهم مساندة بعض المسلمين دون بعض ، لأنهم أمة واحدة ، وأنهم يتحملون بالتساوى ما نزل بهم وقت الحرب فى سبيل الله ، وكذلك بينت أنه لا يجوز لهم أن يجمعوا أحدا من قريش أو يحفظوا ماله له ٠ وبذلك تكون المعاهدة قد قطعت عليهم الأمل فى تفريق جماعة المسلمين ، وحالت بينهم وبين موالاة قريش[2]

والقسم الثانى من المعاهدة تناول التنظيم الداخلى للأمة بالنسبة للأفراد وتحمل التبعات وإقرار شخصية الأمة ، فأقر حرية الأديان ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وحملت المعاهدة الأطراف الملتزمين بها نفقات الحرب على حد سواء ٠٠ المؤمنين منهم واليهود ٠ وأما فى حالة السلم فكل طائفة تنفق على نفسها ٠ وأوجبت النصرة لمن يعتدى عليه من أهل المعاهدة جميعا ، كما أوجبت عليهم النصح والتناصح فيما بينهم،

(١) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة ، دار الفكر العربى، ١٩٦٥ ، ص ٣٨٧ ٠

(٢) محمد لقمان الأعظمى : مجتمع المدينة المنورة فى عهد الرسول ، ص ٧٠ ٠

وجعلت المدينة حرما آمنا ، وجعلت اليهود موالين للمسلمين ، وبذلك وحدت المعاهدة صفوف الأمة فى مواجهة العدو ، حيث حملت الجميع نفقات الحرب معه[1].

وهكذا نجد أن الصحيفة الدستور قد أعطت صفة للجماعة الإسلامية ، فقد قررت أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وكلمة الأمة هنا ليست اسما للجماعة العربية القديمة التى تربطها رابطة النسب ، بل هى تدل على الجماعة بالمعنى المطلق ، وبهذا التقرير ألغى النبى الحدود القبلية ، أو على الأقل لم يجعل لها وجودا رسميا بالنسبة للدولة ، أو بلفظ آخر ارتفع هو عن المستوى القبلى المحدود . وبهذا أصبح الإسلام ملكا لمن دخل فيه ، فدخلت بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة فى الإسلام دون أن يضع الرسول ﷺ أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك فى حياة العالم الإسلامى ، وهذا المبدأ مرن جدا ومرونته هى التى كفت المسلمين فى العصور الوسطى كثيرا من الشرور وكفلت للإسلام دائما حيوية جديدة وسيوفا تدافع عنه ، وهذه الفكرة كانت جديدة بالنسبة للعالم اليونانى والرومانى القديم . وللأمة فى هذه الصحيفة صبغة دينية أيضا ، فهى جماعة الله التى ترعى مبادئ الإسلام ومبادئ حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله هو الشهيد الذى يشرف عليها ، ومحمد يشرف عليها باسمه ، فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم لذلك أول من يجب عليهم الوفاء لهذا الاتحاد ، وهم فى الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التى يخولها لهم[2].

والأمة برغم أنها ضمت كل طوائف المدينة ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة ، فقد جاء فى الصحيفة أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى ، وبذلك بقى التشكيل الاجتماعى القبلى كما هو ، ومع أن الإسلام أنكر نظريا فكرة امتيازات المجتمع الوثنى فى العصر الجاهلى ، إلا أن نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه فى معاملة الغرباء ، كان أمرا مفيدا بحيث لم يكن بالإمكان نبذه أو الاستغناء عنه . وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٩٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩٦ .

وهكذا نجد أن أساسيات قيام الدولة قد توافرت فى دولة المدينة التى قادها الرسول ﷺ ، وهى مما أصبح متفقا عليه بين علماء السياسة والاجتماع ، هذه الأساسيات[1] هى :

١- وجود الأرض الآمنة ·

٢- الجيش ·

٣- الدستور ·

٤- الرابطة بين الأفراد·

٥- رئيس الدولة ·

ولو نظرنا إلى قيام الدولة فى المدينة لوجدنا توافر هذه الشروط آنذاك ، فالأرض الآمنة ، هى المدينة ، وقد أسلم أهلها فأصبحت أرضا يجد الرسول ﷺ وصحبه فيها الأمن والأمان ·

وأما عن الجيش ، وهو حصن الأمة ودرعها الواقى ضد المعتدين عليها ، أو المنتهكين لحرماتها ، فقد اكتملت عناصره الأساسية فى المجتمع المدنى · وعلى الرغم من أن الانخراط فى سلك الجندية لم يكن أمرا إجباريا فى عهد الرسول ، كما هو الحال فى عصرنا الحالى ، إلا أن الجيش آنذاك كان قويا ومتماسكا فمنذ شرع الله الجهاد فى سبيله والمسلمون ينضوون تحت لوائه ويسارعون إلى الميدان لا فرق بين كبير وصغير ·

وأما عن الدستور ، وهو الذى تعتمد عليه الدولة فى نظمها وتشريعاتها وعلاقاتها بالدول المجاورة ، فإن الرسول ﷺ على الرغم من تتابع نزول الوحى عليه فى المدينة ، قد أدرك حاجة الدولة الجديدة إلى دستور مؤقت ينظم أمورها ريثما يكتمل نزول الوحى، فكانت الصحيفة التى عرضنا لأمرها·

وأما الرابطة فقد اختلفت عن تلك التى يؤكد عليها علماء الاجتماع والسياسة ، فهم يلحون دائما على أن هذه الرابطة تقوم على اللغة والعادات والتقاليد والجنس ، لكن الرابطة التى أوجدها الإسلام على يد الرسول ﷺ فهى العقيدة التى قامت بدورها بتوفير قدر كبير مما هو مشترك بين أبناء الأمة ، بما فيها اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ والثقافة ·

---

(١) حسن عبد الحميد حسن : منهج الدعوة فى العهد المدنى ، ص ٦٣ ·

وبالنسبة لرئيس الدولة ، فقد حددت الوثيقة أن الرسول هو رئيس الدولة ، وهو مرجع أمورها[1].

لكن «وات» يأبى إلا أن يرى الأمور بتلك النظرة المجافية للحقيقة ، فهو يحلل فكرة الأمة فى الوثيقة الدستور ، بهدف نزع الصبغة الدينية عنها ، وخلاصة آرائه ، أن الأمة تضم مسلمى قريش ويثرب ومن تبعهم والذين يعتقد النبى بأنه أرسل إليهم · ولما كان دستور المدينة ينص على أن لليهود دينهم ، فإن وات يستخلص من هذا أن الأمة لم تعد أمة دينية خالصة ، وأمة لا تقوم على القرابة ولا على الدين بل على الإقامة فى منطقة واحدة · ويزعم أن الأمة كما تظهر من دستور المدينة لها أساس إقليمى ، وكانت الأمة تقيم علاقاتها الفعلية مع القبائل كما تفعل القبيلة القوية · ولا يبدو أنه وجد لفظا محددا للدلالة على الأمة الإسلامية بعد أن انضمت إليها مكة ، وتحالف معها كثير من القبائل ، ولم تعد فى ذلك الوقت تستعمل كلمة أمة فى القرآن ولا فى المعاهدات ، بل نجد عوضا عنها ألفاظا كالجماعة أو حزب الله[2] ·

وقد وضح لنا فيما عرضناه عن الوثيقة كيف أن الأمة الإسلامية قائمة فى الأساس على أسس دينية تحدد هويتها وإلا ذابت وتلاشت فى غيرها ، يقول عز من قائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... (١٤٣) ﴾ [البقرة].

وقد أكد الشيخ شلتوت هذا بتأكيده على أن الإسلام لم يعتبر فى تكوين الدولة الجنسية ولا العنصرية ولا التوطن فى بلد معين كما ألفته الأوضاع البشرية للدول ، ولقد رأى أن فى ذلك تحديدا وتضييقا ينافى عالميته وعمومه كدين سماوى أريد به خير البشر جميعا ، فسما عن جميع هذه الاعتبارات البدائية الشخصية ، ورفع درجة الجماعة الإنسانية عن أن يكون اتحادها وتعاونها راجعا إلى غير المبادئ والمثل العليا ، فرأى أن يوحد بين الجميع بالفكرة أو العقيدة التى يعتنقها الكل عن إيمان ورضا ، وتكون تلك العقيدة هى الوحدة المشتركة بينهم ، والروح السارية فيهم[3] ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ ·

(٢) عبد الله محمد الأمين : الاستشراق فى السيرة النبوية ، ١١٧ ·

(٣) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة ، دار الشروق ، ط٨ ، ١٩٧٥، ص ٤٣٣ .

إن مما لا شك فيه أن هناك عوامل طبيعية معروفة فى تكوين الأمم وإقامة الدول، ولو صادفها الرسول ﷺ فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن للخصم تعليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من العصور المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كان للإسلام أمة ، وكانت له دولة [1] .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا فتيتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النمو والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما ولم تتركا أثرا . فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فإن فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازا ثانيا ليس بأقل من الأول[2] .

إن العامل الخفى وراء هذا هو (الإيمان) الذى نفثه محمد ﷺ فى روع جماعته، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف به نفسياتهم ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

ولحظت الكاتبة البريطانية أرمسترونج بإعجاب وتقدير قيام المجتمع الإسلامى الذى شيده الرسول ﷺ على قاعدة المساواة : «ويقوم تنظيم المجتمع فى الأمة على أسس المساواة ، فعلى الجميع القيام بنفس الواجبات ، وبحيث لا تكون هناك صفوة أو نخبة أو بناء هرمى» ، ولاحظت كذلك أنه لابد من ناحية المبدأ ، أن يلقى جميع أبناء الأمة نفس المعاملة ، فإذا تعذر أن يسود الحب أو أن يدفع الناس إليه دفعا ، فمن الممكن إصدار التشريعات التى تكفل إقامة العدالة والمساواة : « وتؤكد الظواهر أن القرآن، ثم الشريعة فى مرحلة لاحقة ، قد ساعدا المسلمين فى الواقع على غرس روح المساواة العميقة»[3] .

---

(١) محمد فريد وجدى ، ص ١٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٣) كارين أرمسترونج ، ص ٣٤٠ .

وقد حرص الرسول ﷺ منذ لحظات قيام الدولة وتأسيس الأمة على أن تكون قاعدة الشورى هى القاعدة الحاكمة فى صنع القرار امتثالا لقوله عز وجل : ﴿وشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران :١٥٩]. ومع أن الوحى كان يراوحه ويغاديه إلا أنه كان يمارس الشورى فى شئون الحياة كلها سلما وحربا ، وبهذا كافح نزعات الاستبداد الفردى ، وأمن المجتمع آراء المتسلطين والشذاذ وأصبح الجميع شركاء فى إبداء الرأى وتطوير المجتمع ، ووسائل الحياة كلها[1].

ولقد درب أصحابه على هذا الأسلوب الفذ فتخرجوا جميعا فى مدرسة الشورى. . نبى ليس بالمسيطر ولا المتجبر ولكنه بشير نذير ، وليس له من الأمر شىء والأمر بينه وبين أمته على المشاورة ومكارم الأخلاق ، وإمام يطيع قبل أن يطاع ، ويتولى الحكم من أيدى المحكومين ، وأمة هى مرجع فى الكثير من الأمور ، ليس لأحد حق العسف والطغيان، وليس لأحد حق الفتنة والعصيان ، ولهم جميعا حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا سيادة لنسب ، ولا مال ، ولا لعلم ، ولا لإنسان ولا لطائفة ، ولكنهم جميعا بنية واحدة تأخذ حياتها من كل عضو وتمد كل عضو بحياته[2].

وفى الخطوات التمهيدية التى سبقت الإعداد لغزوة بدر شاور الرسول ﷺ صحابته ، فقام أبو بكر وعمر بن الخطاب فأدليا برأيهما وأحسنا ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(موضع فى اليمن) ، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، وأعجب الرسول بمقالة المقداد ودعا له» [3].

وأراد الرسول أن يستمع إلى المزيد من آراء سائر المسلمين ، وخاصة الأنصار حتى تكتمل الشورى ، فقال : أشيروا على أيها الناس ، فقد كان الأنصار يمثلون عدة الجيش الإسلامى ، وكانت بيعة العقبة معاهدة دفاعية ، وليست هجومية ، تنص على أن يمنعه أهل المدينة مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على قتال خارج مدينتهم .

---

(١) توفيق محمد سبع ، أضواء على الهجرة ، ٢١٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٣) على حسنى الخربوطلى : الرسول فى رمضان ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ ، العدد ٣١٢ ، ١٩٦٨ ، ص٧٣ .

وتقدم زعيم الأنصار ، سَعد بن معاذ إلى الرسول سائلا : والله ، لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ فأجاب الرسول ﷺ : أجل · فقال سعد : فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله[1]··

هكذا تكونت الأمة ، وهكذا تأسست الدولة ، من شخصيات من نوع خاص أصبحوا نواة صلبة لحضارة عبقرية استمرت عددا غير قليل من القرون ، ولم لا ؟

كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد ·

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق ·

كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل ·

كانوا يأخذون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقوانين ·

كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن ·

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح ·

كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل ·

كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم ·

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة ·

كانو مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى ·

البناء الأسرى :

ليس من شك فى أن الأسرة لبنة من لبنات الأمة ، التى تتكون من مجموعة أسر يرتبط بعضها ببعض ، ومن الطبيعى أن البناء المكون من لبنات يأخذ ما لهذه اللبنات من قوة أو ضعف ، فكلما كانت اللبنات قوية ذات تماسك ومناعة ، كانت الأمة المكونة منها كذلك ، قوية ذات تماسك ومناعة ، وكلما كانت اللبنات ذات ضعف وانحلال ، كانت الأمة كذلك ، ذات ضعف وانحلال · ومن هنا كانت العناية بتكوين

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص ٢٦٦ ·

الأسرة وتقويتها من أهم ما يـجب على المصلحين رعايته وأخذ الطريق إليه ، ولا يكون ذلك إلا بتوخى المبادئ القوية التى يشاد عليـها صرح الأسرة ، وتضمن بقاءها ونموها ، قوية مثمرة ، ثم بقوة الهيمنة على تلك المبادئ ومراقبة تنفيذها [1] .

ومن هنا فـقد حـرص الرسول ﷺ أن يقـدم للمـسلمين نموذجا من خـلال تلك الأسرة التى كونهـا بدءا بزواجه من السيدة خـديجة رضى الله عنها حتى وافـته المنية . كانت هذه الأسرة النبوية مزرعة لاستنبات العديد من القيم والأساليب التى يكفل العمل بها ، الاطمئنان إلى حد كبـير إلى أننا قد أرسينا دعائم شخصيـة إسلامية على أعلى ما يمكن تصوره من سلامة البنيان وصحة الأساسات ، وقوة الأركان .

ومجىء هـذه القضيـة فى نهاية الـفصل الحالـى لا نقصد به تـرتيبا مـن حيث الأهمية، فالحق الذى يجب أن يقال أن كثيرا من القضايا التى عرضنا لها فى هذا الفصل لا تكاد تتفاضل فيما بينها .

ونحن إذ نعـرض لأسرة الـنبى ﷺ ، لابد لنا أن نعـرج على هذا اللغط الذى حرص الكثيرون من المبشـرين على إثارته حول الرسول الكريم ، وإن كنا سنحاول بقدر المستطاع ألا نتطرق لتفاصيل حتى لا يخرج بنا الحديث عن الغرض الأساسى لتناول مثل هذه القضية فى كتاب مقصده الأساسى هو التربية

وهنا نجد أنه يندر أن يطرق خـصوم الإسلام موضوع الزواج دون أن يـعرجوا منه إلى زواج النبى ﷺ ويتذرعوا به إلى محاولة النـيل من شخصه الكريم ، والتشكيك من ثم فى دعوته المبـاركة ، ودينه القويم ، وأى صـورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كـما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح[2].

وليس هناك من تهافت يمكن أن يكون عليـه الظن مما يقدمه المستـشرقون فى هذا الشأن ، فلا حجة لدينا على صدق رسالة نبينا الكريم أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتـها فى معيشة نبى الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

---

(١) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٤١ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ١٩٠ .

فما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه ؟ لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية . ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوافر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه ، فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟ هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟ كلا ، لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش فى داره[1] .

هذا، ويمكن تقسيم حياة النبى ﷺ الأسرية إلى أربع فترات [2]:

الفترة الأولى : كان أعزب حتى سن الخامسة والعشرين .

الفترة الثانية ، عاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الثالثة والخمسين .

الفترة الثالثة ، تزوجه عدة زوجات بين الخامسة والخمسين والستين

الفترة الرابعة ، لم يتزوج من الستين ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثالثة والستين .

فالفترة الثالثة هى التى حدث فيها تعدد ، وهى تبدأ من السنة الثالثة للهجرة حيث بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى ، فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة .

وبالتالى فإنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلئ الشباب ، فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلى ؟

ثم إن المسألة ليست بكثرة الزوجات أو الاكتفاء بزوجة واحدة دليلا على سوية النزعة الجنسية ، ذلك أن صاحب الزوجات الكثيرات يجمع بينهن قد لا يكون شهوانا، لأن المعول على ما يكون فى نفسه من نوع الصلة والارتباط بهن ، فإن كان ذلك الارتباط ارتباطا تعلق بلذة المضاجعة قبل كل شىء ، فالرجل شهوان بسبب تعلقه بتلك

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢) منتقى النقول فى سيرة أعظم رسول ، ص ٤٤٦ .

اللذة ، لا بسبب كثرة عدد من فى عصمته من النساء [1] . أما إذا كان صاحب الزوجات الكثيرات مرتبطا بهن برباط لا يقوم على طلب اللذة قبل كل اعتبار ، بل يقوم ارتباطه بهن على الأواصر الإنسانية السامية من مودة ورحمة وبر ورعاية وحدب وتكريم للشخصية الآدمية فى المرأة ، فالرجل ليس بشهوان لعدم ابتناء صلته بالمرأة على اللذة البهيمية ، بصرف النظر عن عدد من فى عصمته من النساء .

وبهذا المقياس عينه ننظر إلى صاحب الزوجة الواحدة ، فإن كانت صلته النفسية الباطنة التى تربطه إليها صلة تراحم وإيثار وتكريم للشخصية الآدمية فى المرأة ، فالرجل ليس شهوانا بسبب نوع إحساسه وصلته الباطنة بالمرأة عموما ، لا بسبب اقتصاره على امرأة واحدة . أما إذا كان صاحب الزوجة الواحدة يصدر فى ارتباطه وتعلقه بها عن عنف طلب اللذة لذات اللذة ، فالرجل شهوان بهيم بصرف النظر عن عدم تعدد من تنصرف إليهن وتنصب عليهن شهوته الجامحة من أفراد النساء[2] .

لا ارتباط إذن بين المظهر والمخبر ، فقد يدل المظهر على الشيء ونقيضه ، فلا يكفى التعدد إذن أساسا للقول بجموح الشهوة وسيطرتها على الرجل ، بل ينبغى أن يلتمس المتلمسون لذلك الحكم أساسا آخر من شواهد حاله ، ومجموع سلوكه مع النساء ، كثر عددهن أو قل ، لأن المعول على نوع الصلة وبواعثها ، لا على كثرة العدد أو قلته أو انعدامه .

وإن من يستقرئ حالات الزواج التى قام بها الرسول ﷺ ، فسوف يلمس كيف أن التعدد كان لإيواء الضعيفات من أزواج المهاجرين اللائى لا مأوى لهن فى هذه الغربة التى انقطعن فيها عن أهليهن ، ولربط الصلات بينه وبين كبار أصحابه ، ولمنع تحكم الوثنيين فيمن تربطهم رابطة نسب من نساء المهاجرين الذين يقتلون أو يموتون أو يرتدون . وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ... ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

---

(١) نظمى لوقا : محمد ، فى حياته الخاصة ، القاهرة ، مكتبة غريب ، د.ت ، ص ٤١

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

ويستفاد من هذا النص أن زواج المهاجرات كان للرحم التى تربطه بهن عمومة أو خؤولة ، وأن ذلك يشمل قرابته لقريش ، فلا يضيعهن عند موت أرواجهن شهداء بل لابد أن يتولى هو إيواءهن فى ظله الظليل[1].

ويمكن أن نورد فيما يلى أمثلة لبعض الدواعى والأسباب السياسية التى كمنت وراء بعض زيجات الرسول ﷺ ، تأليفا للقلوب عليه ، وجمع القبائل حوله :

١ - فقد تزوج-صلوات الله عليه-بالسيدة جويرية بنت الحارث سيدة بنى المصطلق ، وكانت قد أسرت مع قومها وعشيرتها ، ثم بعد أن وقعت تحت الأسر أرادت أن تفتدى نفسها ، فجاءت إلى الرسول ﷺ تستعينه بشىء من المال ، فعرض عليها أن يدفع لها الفداء وأن يتزوجها فقبلت ذلك ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله ﷺ تحت أيدينا ؟ (أى أنهم فى الأسر) ، فأعتقوا جميع الأسرى منهم ، فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو ، وهذه الشهامة والمروءة أسلموا جميعا، ودخلوا فى دين الله وأصبحوا من المؤمنين[2] .

٢ - وكذلك تزوج ﷺ بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب التى أسرت بعد قتل زوجها فى غزوة خيبر فقال لها الرسول الكريم : اختارى ، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى ، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك ، فقالت يا رسول الله : لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى إلى رحلك ، ومالى فى اليهودية أرب ، ومالى فيها ولد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلى من العتق ، وأن أرجع إلى قومى[3] .

٣ - وكذلك تزوج ﷺ بالسيدة أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان)، وأبو سفيان كان فى ذلك الحين حامل لواء الشرك ، وألد الأعداء لرسول الله ﷺ، وقد أسلمت ابنته فى مكة ، ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وهناك مات زوجها، فلما علم الرسول ﷺ بأمرها ، أعلن أنه يريد أن يتزوجها، وتم ذلك لما عادت إلى المدينة ، ولم يعارض أبو سفيان فى ذلك ، ومن هنا تظهر لنا الحكمة فى هذا الزواج ، فقد كان سببا لتخفيف الأذى عن الرسول ﷺ وعن

---

(١) محمد أبو زهرة ، المرجع فى السيرة النبوية ، ج٣ ، ص ١١٠٥

(٢) محمد على الصابونى : شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، د٠م ، طبع على نفقة السيد حسن عباس الشربتلى ، ١٩٨٠ ، ص ٢٦ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ ٠

أصحابه المسلمين ، سيـما بعد أن أصبح بينهما نسب وقـرابة ، مع أن أبا سفيان كان وقت ذاك من ألد بنى أمية خصـومة لرسول الله ﷺ ، ومن أشدهم عداء له وللمسلمين ، فكان تزوجه بابنته سببا لتأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته[1].

وبطبيـعة الحال كانت أول أسـرة مسلمة هى أسرة الرسـول ﷺ ، حيث آمنت به زوجته الكريمة السيدة خديجة منذ اللحظات الأولى التى اختاره فيها سبحانه وتعالى نبيا، وكذلك على بن أبى طالب الذى كان صبيا صغيرا ضمه إلى أسرته ، فضلا عن زيد بن حارثة ، الذى اختار محمدا بن عبد الله على أبيه واختار أن يعيش فى كنفه ﷺ رقيقا، فاجتمع شمل الأسرة الكريمة على الإيمان ، ولقد جـاء تاجر اسمه يحيى بن عفيف زائرا مكة ، فوصف ما رآه قائلا[2]: جئت زمن الجاهليـة إلى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب فرمى ببصره إلـى السماء ، ثم استقبل الكعبـة ، فقام يستقبلهـا ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فخر الشاب ساجدا فسجدا معه ، فقلت . يا عباس . أمر عظيم . فقال : أتدرى من هذا ؟ فقلت : لا . فقـال : هذا محمـد بن عبـد الله بن عبد المطلب ابن أخـى . أتدرى من هذا الغلام ؟ قلت : لا . قـال : هذا على بن أبى طالب . أتدرى من هـذه المرأة التى خلفـهمـا ؟ قلت لا أدرى . قـال : هذه خـديجـة زوج ابن أخـى . وهذا حـدثنى أن ربك رب السمـوات والأرض أمر بهذا الـذى تراهم عليه . وايم الله ما أعلـم على ظهر الأرض كلها أحـدا على هذا الدين غيـر هؤلاء الثلاثة ، وكـانوا الثلاثة المطهرين الـسابقين إلى الإسلام ، ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع .

والحق أن عظمة السيـدة خديجة قد تجلت فى أنهـا صاحبة المال الوفيـر والتجارة الواسعـة ، هى التى سعت إلى أن يخطبـها الرسول الكريم ﷺ ، عـلى الرغم مما كان عليه من فقر ، ذلك أن تقـديرها للرسول كان تقديرا واقعيا دافـعا لها على أن تفكر فى شأنه تفكيرا آخر أكبر من كونه عاملا فى مالهـا يتجر لها فيه فيربح ويربح . إنها عرفت محمدا بما عـرفه به قومه : أمينا صدوق الحديث ، عزوفـا عن الدنايا ، طموحا لعوالى الأمور ، متساميـا بنفسه عن مغامز المروءة ، كسوبا للخير ، بـل هى قد عرفت محمدا أكثر مما عـرفه قومه ، عرفته عـاملا فى مالها وصحبـه فى سفره غلامها الأمـين ميسرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) محمد أبو زهرة ، المرجع فى السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٢٩٣ .

فحدثها عن أخلاق محمد فى السفر والعمل ، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم[1] .

لقد كان الله- سبحانه وتعالى- حفيا بأم المؤمنين خديجة، فهى أول من استقبل محمـدا يوم البعث حيث جـاء يرجف فؤاده ، وتضطرب نفسه من شـدة الفزع والروع الذى لحقـه عندما نزل الوحى لأول مـرة ، فما زالت تهـدئ من فزعـه ، وتطمئن من نفسه، وتذكـره بما أنعم الله به عليه من الخلق الكريم وحب الخيـر ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين من أمـثاله ، فهو لن يتخلى عنه ، وبذلك كـانت له أول وزيرة حكيمة ، تدبر معه الأمر وتصدقـه النصح ، وتشحذ من عزيمته ، تثبته وتعـاونه على تحمل أعباء الرسالة التى أوكلهـا الله إليه ، وكانت له المحـبة المخلصة التى توفر له الهـدوء والراحة والطمأنينة التى كـانت لازمة لنجاحـه فى تأدية هذه الرسالة ، وتُذهب ما به من ضـجر وتعب ، وتهـون عليه مـا يقابله من مـصاعب ومـا يلقاه من عناء المشـركين ، فكان لا يسمع منهم شـيئا يكرهه من رد عليـه واستهزاء به ، وتكذيب له مما كـان يؤلمه ويحزنه حتى يفرج الله عنه بفضل رعايتها وعطفها ورجاحة عقلها [2] .

وتجلت عظمـة السيـدة خديجـة زوجـة وأمة وإنسـانة كذلك فى إصـرارها على المشاركة فى تحمل آلام ومشقة ما تعرض له الرسول ﷺ طيلة سنوات الحصار الثلاث فى مكة . إنها تترك بيتها حيث عاشت طوال حيـاتها عيشة رغدة بفضل ثروتها الطائلة التى وفرت لها كل وسائل الترف ومكنتها من الاستـمتاع بكل ما يمكن للمال أن يحصل عليه من الطيبات التى كانت تجلبها تجارتها الواسعة من إنتاج العراق وفارس والهند عن طريق رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام . خرجت معـهم فى بداية شيخوختها بعد أن أشرفت على الحادية والستين من عمرها لتعـيش بعيدة عن كل وسائل الراحة التى كانت تتمتع بها فى بيتها ، وقد استعذبت ذلك دفاعا عن دينها ، وحتى لا تتخلى عن زوجها وحبيبها الذى نعمت بجواره أسعد ايام حيـاتها ، ولم تعبأ بما قد تتعرض له من مشقة ، وما قد يـجهد جسـمها الضعـيف من المتاعب ، وما يقابلهـا من مرارة الحرمان وقـسوة الطبيعة حبا فى الإسهام فى نشر دين الوحدانية[3] .

---

(١) محمد الصادق عرجون ، ص ٣٠٨ .

(٢) عبد المنعم عمر : خديجة أم المؤمنين ، ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

ولا يتسع المقام للحديث عن بقية زوجات الرسول ﷺ ، ولكننا سنكتفى بأمثلة لبعضهن ، من ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها ، إذ كان حسب عائشة أن تكون ابنة الصاحب الوفى الكريم ، ليفتح لها الرسول ﷺ من دنياه موصد الأبواب ، لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة ، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير [1] .

ولم تدهش مكة حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا ، ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الرسول ﷺ أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام ، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه ، ولو كان عبثا وبهتانا . لكن نفرا من المستشرقين تغافلوا عن فروق الزمان والمكان فسجلوا دهشتهم أن يتم زواج النبى بصبية صغيرة ، وهو أمر لم يكن مستنكرا فى زمنه ، بل ظل قريبا منه حتى وقت قريب فى ريفنا المصرى ، وفى بيئات عربية وإسلامية أخرى ، بل وعدد آخر من البيئات الأخرى غير الإسلامية .

كانت صغيرة السن ، أو طفلة - كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها - لكنها ، بشهادة مستشرق آخر . منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها ، ولو أن شابة عرفت ما هى مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبى بكر ، فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد . . [2] .

وأدق من هذا أن يقال أن عائشة قد اكتمل نموها فى هذا البيت ، ونضجت شخصيتها ، وتدرجت بين عينى الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب ، إلى شابة يافعة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجمل فتجيبها : إن كان لك زوج فاستطعت أن توعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى ، وتكره أن تلقى امرأة زوجها فى كآبة الحداد فتقول : لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج ! [3] .

---

(١) بنت الشاطئ : نساء النبى عليه الصلاة والسلام ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ٤٥ ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

وكان لأم سلمة شأن هام فى أحداث صلح الحديبية كان له أثره فى انكشاف الغمة ، فقد كان يوما امتحن الله فيه المسلمين بأمر شديد يضل فيه العقل الرشيد . والذى يتتبع أخبار الفتح النبوى يرى من أمر هذا الفتح عجبا حتى كاد بعض الصحابة يهلك غما !!وناهيك بأمر يشتد على عمر بن الخطاب حتى زجره أبو بكر ، وأى أمر أشد على المسلمين من قبولهم بشرط من شروط الهدنة ، يقضى بأن من أسلم من المشركين يرده الرسول ﷺ إلى قومه ، وأن من ارتد من المسلمين لا يردونه ؟ [1] .

فلما فرغ الرسول ﷺ من أمر الاتفاق ، وفيه أن يرجع الرسول بأصحابه على أن يعود فى العام المقبل قال لأصحابه : قوموا ثم احلقوا ، ولم يقم أحد ، حتى بعد أن كرر الأمر ثلاث مرات ! ودخل الرسول إلى بيته وكانت معه أم سلمة فى هذه السفرة - وقد أهمه الأمر - فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت : يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما[2]

فهذا موقف من المواقف الخالدة التى فعل فيها الرأى وسداد المشورة ما لا تفعله القوة فى صور مختلفة ، وهو أيضا من المواقف الحاسمة فى تاريخ الأمم والجماعات . إن هذا الرأى من أم المؤمنين يدل على خبرتها بسياسة النفوس حين تصطدم بالعواطف ، وتذهب العقول وراء الإحساس البشرى إلى شعاب الهوى ، فالصمت والإعراض عن القول ، وحسم الأمر بالعمل والمضى فى الطريق المرسوم ، أفسد مسالك الشيطان وغوايا الأنفة ، وردها إلى الإيمان والتسليم ، وهل يسوغ لمسلم أن يضن بنفسه عن فعل فعله الرسول ﷺ ويأنف من القيام به ؟[3] .

وفى فترة من فترات الضعف الإنسانى شعرت زوجات الرسول أنهن يتحملن ما تصورن أنه فوق طاقتهن من المعيشة وفق منهج الرسول الصارم المتقشف ، وأكثرهن اعتادت فى صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين ، فإذا بهن يتململن من الحياة الجديدة ويطلبن الرغد والنعومة ، واجتمعن على

---

(١) محمد تاج الدين الدلتونى ، أم المؤمنين ، أم سلمه رضى الله عنها ، ص ٨٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ما بينهن من خلاف - ليسألن الرسول مزيدا من النفقة ! ولم لا ؟ إنهن فى بيت أعظم رجل فى العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن[1].

وحزن الرسول ﷺ لهذا التوجه . إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار المؤمنين والمؤمنات معلقة به من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الأعداء المتربصين ، فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد الصبور ، فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شىء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه . لذلك رفض النبى الاستجابة لرغبات نسائه فى توسيع النفقة ، وكره منهن هذا التطلع ، فقرر مقاطعتهن ، حتى شاع بين الناس أن النبى طلق نساءه جملة .

وهنا نزل الوحى الإلهى : ﴿ **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً** (٢٨) ﴾ [الأحزاب]، وكان هذا الدرس كافيا ليمحو آخر ما فى أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات المشتهاة ، فاخترن - جميعا - البقاء مع النبى ﷺ على قاعدته العتيدة ما قل وكفى خير مما كثر وألهى[2] ، وعشن معه للجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة والتواضع والخدمة وبهذا التفانى فى خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس ، رفع الله درجاتهن ، فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن فى ظله المتاع ، بل صرن شريكات فى حياة فاضلة غالية[3] .

وكانت معاملته ﷺ دستورا تربويا لكل مسلم لابد أن يقتدى به فى تعامله مع أهل بيته ، وهنا نجد أنه ﷺ كان يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن كان ألين الناس ضحاكا بساما ، كما قالت عائشة رضى الله عنها

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحايين فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : تكلم ولا تقل إلا حقا ، ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته ، فيعجب له ويهم أن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما تجترئ الزوجات الأخريات ، وإذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك ![4]

---

(١) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ٤٨١

(٢) أخرجه أحمد ، ٥/ ١٩٧ .

(٣) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٤٨٢

(٤) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، ص ١٣ .

وكان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : خدمتك زوجتك صدقة[1]

وقد أنجب الرسول ﷺ من السيدة خديجة أربع بنات هن : زينب - رقية - أم كلثوم - فاطمة .

وأنجبت له ولدين : أولهما ، القاسم ، وبه كان يكنى ، ولد قبل النبوة ، وتوفى وهو ابن سبعة عشر شهرا على الأرجح ، والثانى عبد الله ، ولد بعد النبوة ولم يعمر إلا قليلا فمات صغيرا . وأنجبت له مارية القبطية إبراهيم الذى عاش ستة عشر شهرا فقط ، ولم تنجب أية زوجة أخرى .

وقد ماتت معظم بنات الرسول فى فترات مختلفة ، وبقيت له فاطمة ، فكانت سلوته وعزاءه عن إخوتها وأخواتها ، ولهذا كان ﷺ شديد المحبة لها ، كثير التعلق بها، يغضب لغضبها ويرضى لرضاها[2]

ومع ما لها رضى الله عنها من مكانة فى قلب النبى ، فقد قال ﷺ فى حديث المرأة المخزومية التى سرقت فى عهده «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ، وحاشاها- رضى الله عنها- أن تفعل ذلك، ولكنه عدل الإسلام وعظمته [3]

وما كان الرسولﷺ يخصها بشىء دون غيرها، بل كان أحيانا يعطى الناس، ولا يعطى فاطمة، مع شدة حاجتها. كانت-رضى الله- عنها تطحن بالرحى فى بيتها حتى أثر الرحى بيديها، فعن على-رضى الله عنه- أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى فى يدها، وأتى النبى ﷺ سبى، فانطلقت فلم تجده ولقيت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة إليها، فجاء النبىﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا، نقوم، فقال النبى ﷺ: «على مكانكما»، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١

(٢) عبد الحميد محمود طهماز . السيدة خديجة أم المؤمنين ، دمشق ، دار القلم ، ١٩٩٠ ، ص١٢٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

صدرى، ثم قال : «ألا أعلمكما خيرا مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما ، أن تكبرا الله أربعا وثلاثين وتسبحاه ثلاثا وثلاثين ، وتحمداه ثلاثا وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم»[1]. وكان ﷺ يعظها ويخوفها من الله تعالى كما يعظ غيرها من الناس.

ومن الراجح أن العطف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد أحد من أبناء الرسول ﷺ كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر (إبراهيم) أملا فى أن يصبح بعده خليفته الأكبر. ولعل العطف الأبوى قد تمثل فى تشييع هذا الطفل الصغير أشد ما تمثله فى استقباله يوم ميلاده[2]. كانت أسباب كبيرة توحى إلى قلب محمد العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد. كان منها أن محمدا عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب ، فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف ويتوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وإن كان حب الذرية فطرة مركبة فى جميع الطباع ومحمد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة ، فاشتياقه إلى العقب من الذكور نزعة عربية تقترن بالنزعة الإنسانية والنزعة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التى ركبت فى النوع البشرى.

وعندما مات إبراهيم ، بدت صورة الألم على قسمات وجه الرسول ﷺ ، ووضعه فى حجره وقال : «إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا». ثم وجم وذرفت عيناه ، والغلام يجود بنفسه ، وأمه وأختها تصيحان ، فلا ينهاهما الرسول فلما استوى إبراهيم جثمانا لا حراك فيه ، زادت عينا محمد دمعا ، وهو يقول «يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك أشد من هذا». وبعد أن وجم هنيهة قال: «تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون»[3].

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن ، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه، فذكروه بما نهى عنه ، فقال : «ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء ، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة».

---

(١) رواه الستة

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، ص ١٦١.

(٣) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٤٦٦.

وكم كانت سعادة الرسول ﷺ بحفيديه الحسن والحسين ابنى فاطمة وعلى . وكان الحسن قد جاوز العامين من عمره بعد غزوة بنى قريظة سنة خمس ، فكان يستطيع أن يمشى وهو يتعثر مرحا فى أرجاء البيت ، وكان إذا جاء جده فرح فرحا عظيما ، فإذا وقف للصلاة سعى إليه وأمسك به ، فكان النبى ﷺ يفرج له رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر ، فإذا سجد كان يعتلى ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل[1].

وكان الحسين قد جاوز حينذاك منتصف العام الأول من عمره ، فكان يحبو تارة ويتعثر تارة أخرى ، وكان يحلو للرسول أن يداعب السبطين ، وقد روى جابر أنه دخل يوما على رسول الله ﷺ فرأى الحسن والحسين على ظهره وهو يمشى بهما على أربع ويقول : نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما .

وكان الطفلان ينموان نموا حسنا ، وكانا يختلفان أحيانا إلى المسجد ، وقد روى أبو بريدة : كان النبى ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : «صدق الله : ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** ... (١٥) ﴾ [التغابن]، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما»[2].

هذه القسمات ، وتلك الجوانب من حياة المصطفى محمد ﷺ إنما هى قطرة من بحر ، كلها ، وغيرها مما سار من سيرته ، إنما هى مقومات تربية من نوع خاص ، تربية ربانية ، وهى مع ربانيتها تربية تمثل النموذج القابل للتطبيق ، والمثل الأعلى الذى يجب على كل من ارتضى الإسلام دينا أن يرنو إليها بكل جوارحه ساعيا أن يربى نفسه ويربى غيره على نهجها .

---

(١) عبد المنعم عمر : خديجة أم المؤمنين ، ص ٤٨٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨١ .



الفصل الثالث

قضايا ومبادئ تربوية

مقدمة :

ما كان الإسلام الذى خاطب الناس بالعقل أن يعتمد فى دعوته إلى طاعة الرسول على مجرد (النصوص) ، ولكن الرسول ﷺ قدم لنا نحن المربين من خلال حياته العملية ، التى عرضنا لها فى الفصل الثانى ، ومن خلال أحاديثه التى نعتمد عليها فى الفصل الحالى ، والفصل التالى ، العديد من اللمحات والنظرات والمواقف ما يشكل فى جملته معينا رائعا ، نستطيع أن نغترف منه الكثير فى عالم التربية والتعليم ، ما دام القرآن الكريم - كما نؤكد دائما - هو الدستور الأساسى ، وما دام هذا الدستور الأساسى بحاجة إلى قوانين تفصل ما جاء فيه مجملا ، وتحدد مسارات العمل بمقتضاه، وتشير لكل مجال ما يجب عليه وفقا لذلك ٠

كذلك فإننا كثيرا ما نشير إلى أن العمل التربوى ، على وجه العموم ، إذا كان من الضرورى أن يهتدى (بفكر) ، قد نسميه (عقيدة) ، أو(فلسفة) أو(إيديولوجيا) أو (نظرية) ، أيا ما كانت التفرقة واختلاف المستوى ، فإن هذه القوة (الموجهة) تحتاج إلى خطوة ، بل إلى خطوات أخرى تتمثل فى (سياسة تعليمية) و (استراتيجية تربوية) ، ومن هنا فإن السنة النبوية هنا هى بمثابة (السياسة التربوية) ، وفى كثير من الأحيان - كذلك - (الإستراتيجية التربوية) لفلسفة القرآن التربوية ، إذا صح هذا التعبير ٠

وإذا كان الرسل جميعا فى شخصياتهم قدموا (المثل الأعلى) أو (الشخصية الكاملة) لقومهم ، إلا أن رسول الله محمد ﷺ يمتاز عن غيره من الرسل بميزة اجتماعية عملية تطبيقية ، ذلك أن الرسل الآخرين ، وهم حقا المثل العليا فى حياتهم ، قد أهمل أتباعهم تسجيل حياتهم الفاضلة تسجيلا ثابتا وصادقا وشاملا ، والسبب فى ذلك أن ذلك التسجيل لم يكن مباشرا ، وإنما تم بعد أجيال وقرون مما أوجد مرويات ، ولا سيما لدى اليهود الذين نسبوا لكثير من أنبيائهم أعمالا وخلقا لا تليق بإنسان عادى[1] ٠

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ١٩٨١ ، ص ٥

كذلك وجدنا مبالغة واضحة لدى النصارى فى احترام عيسى عليه السلام حتى جعلوه إلها أو جزءا من إله رغم أنه إنسان ، وهو كلمة الله ولدته السيدة الفاضلة العذراء مريم البتول · أما الرسول محمد ﷺ ، فهو الإنسان الوحيد فى تاريخ الإنسانية الذى سجلت أهم معالم حياته تسجيلا ، استخدمت فيه أصدق الوثائق المعتمدة حتى لدى علماء التاريخ المحدثين ، رغم أن الذين قاموا بتسجيل حياته الكريمة هم أهل بيته ومعاصروه كبارا وشبانا ، ثم جيلا بعد جيل ، رواية وكتابة وعملا وسلوكا ، تسجيلا شاملا لأبعاد الشخصية المحمدية فى كونه راعيا وتاجرا وزوجا ووالدا ورسولا نبيا ، وداعيا مكافحا صابرا ، ومخططا ومعلما ومرشدا ، ومهاجرا ، ومجاهدا وإماما ، وقاضيا ومسافرا ومسالما ورئيسا للمجتمع والدولة ، وقائدا للجيش · · ·

التقدير النبوى للتعلم للتأسيس الحضارى :

لم يكن التقرير الإلهى للأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس ، تقريرا مطلقا بغير شروط ، فلقد ارتبط دائما باستمرارية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بكل ما يتسع له معنى المعروف من دلالات ، وبكل ما يتسع له معنى المنكر من مضامين، فهذا هو حجر الأساس لقدرة الأمة على إقامة حضارة تفيض بخيراتها على المجموع البشرى ، وتتغذى فى مسيرتها بروافد متعددة تستهدى بهدى العقيدة ، وتستهدف إقامة العدل على الأرض ، أملا فى الحظوة بالمكان المرجو فى جنة الله التى بشر بها المؤمنين·

وأمر مثل هذا لابد أن ينبنى على معرفة ، إذ ما كانت مهمة الرسل إلا أن يأخذوا بأيدى البشر إلى رحاب المعرفة التى تنير لهم طريق الحق وتكشف لهم زيف الباطل · والمعرفة فى كليتها مما يولد الإنسان مفطورا عليه ، بل هو يحصلها ويراكمها طوال مسيرته الحياتية ، ومن هنا نجد ضرورة البحث عن هذه النداءات المستمرة ، وصور التقدير المتعددة للرسول ﷺ للمؤمنين برسالته بأن ينهلوا من معين المعرفة ، ويغترفوا بكل ما فطرهم الله به من قدرات على طلب العلم وتعلمه منذ لحظة امتلاكه القدرة على الوعى ، إلى أن ينتقل إلى رحمة الله ·

وتؤكد حياة الرسول ﷺ ونهجه التربوى ، أن ليست هناك تلك النفرة الكريهة بين الدين والعلم ، ولا بين البشر والله ، كما كان الأمر فى الثقافة الغربية ، وخاصة كما تجلت فى صورتها الإغريقية ، التى تأثرت بها مجالات هذه الثقافة فى عصور أخرى لاحقة ، سواء الوسيط منها أو الحديث ·

فلقد أثرت فى لاشعور الأوربيين تلك الأسطورة اليونانية النكدة ، أسطورة (بروميثيوس) ، سارق النار ، فشكلت مشاعرهم تجاه الله- سبحانه وتعالى- ، وانحرفت بهم عن نهجه وهداه ، هذه الأسطورة تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد ، علاقة ترى فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة ، ولا يهدأ أوارها حتى يشتعل من جديد[1].

والمعركة قائمة على النار المقدسة ، نار المعرفة ، البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ليعرفوا أسرار الكون كلها ويصبحوا آلهة ، والآلهة تنكل بهم فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها وتنفرد دونهم بالسلطان ·

تلك إذن طبيعة العلاقة بين البشر والله ، العلاقة التى اندست فى أوهام الأوربيين وصارت تصرف أفكارهم بغير وعى · العجز وحده هو الذى يخضعهم لمشيئة الله ، وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه ، فهم فى محاولة دائمة يطلبون القوة، ويطلبون المعرفة ، يحاولون دائما أن يقهروا هذا العجز أو يقهروا - بلغتهم - قوة الطبيعة ، أو بلغتهم اللاشعورية أيضا ، ينتزعوا الأسرار ، ينتزعونها من الإله الوثنى القديم الذى كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة ·

وبهذا الدافع الخفى المترسب فى أعماق النفس الغربية ، يحس الغربيون إلى حد كبير ، أن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر · وتظل المعركة هكذا دائرة ، عند كل فتح جديد من فتوحات العلم، يخفض الإله ويرفع الإنسان ، حتى تأتى اللحظة المنتظرة التى يتلهف الغرب إليها، اللحظة التى يخلق فيها الإنسان الحياة ويصبح فيها هو الله[2] ·

وفيما ينقله الرسول ﷺ من وحى ربه كثير مما يسير بالإنسان فى اتجاه آخر ، الحرص أشد ما يكون الحرص على ربط قلب الإنسان بالله دائما عن طريق المعرفة ، وتوجيه العقل - وهو يعمل فى استنباط الطاقة المادية فى الأرض - إلى حكمة الله من الخلق ، وآياته فى رحاب الكون ·

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار القلم ، د·ت ، ط٢ ، ج١ ، ص١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢١ ·

العلاقة الدائمة بين العبد والرب فى التربية النبوية ، هى علاقة المودة والحب والتطلع والرجاء ، والبشر لا يحتاجون إلى أن يصارعوا الله سبحانه فيحصلوا على المعرفة ، فهو قد أعطاها لهم واهبا منعما فياضا بالإحسان ، هو الذى وهب للناس السمع والأبصار والأفئدة كأدوات للمعرفة ، و﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]، وهو ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق] ، فالرد على هذه المواهب الجليلة كلها هو الشكر والعرفان ، والمودة والحب ، وليس العصيان والكفران [(١)] .

ولم يطلب الرسول ﷺ من المسلمين أن يسعوا إلى طلب المعرفة ، وإلى تحصيل العلم، وكأنهم يخزنون فى عقولهم وقلوبهم (شيئا) من الأشياء ، وإنما معرفة وعلما يمثلان طاقة تحريك ، وقوة دفع فى الحياة ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان هناك فهم ووعى بما نعرف وبما نعلم ، ومن هنا فقد حرص الرسول ﷺ على حث المسلمين على طلب العلم المقرون بالفهم والوعى ، فقد روى معاوية بن أبى سفيان قوله : سمعت النبى ﷺ يقول : «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله» [(٢)] .

و الفقه فسره العلماء بالعلم بالشىء والفهم له فى معظم المعاجم ، وهو التوصل بعلم الشاهد إلى علم غائب . والفقه بالشىء هو معرفة باطنه والوصول إلى أعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها لا يسمى فقيها ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⑥ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ⑦ ﴾ [الروم].

والرسوخ فى العلم يشير إلى معانى التفقه فى الدين وإلى معالم الخير الذى يشير إليه الحديث المشار إليه ، فعن أبى الدرداء وأبى أمامة قالا : سئل رسول الله ﷺ : من الراسخ فى العلم ؟ قال : « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام به قلبه وعف بطنه فذلك الراسخ فى العلم» ، وفى رواية أنس : «عف بطنه وفرجه»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) صحيح البخارى ، م١ ، كتاب العلم ، باب من يرد الله خيرا يفقهه فى الدين .

(٣) الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٤ ، ط٢ ، م٣، ج٣ ، ص ١٨٥ .

فالراسخ فى العلم هو الذى يتفقه فى الدين ويدرك أبعاد الآيات المحكمة والمتشابه، فيقول : ﴿آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾ [آل عمران] ، ولذلك لا يستوى فى منطق الإسلام عالم وجاهل: ﴿ ...قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ۝ ﴾ [الزمر]، فقد رفع الله الذين أوتوا العلم وقدمهم على غيرهم : ﴿ ... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ... ۝ ﴾ [المجادلة] ولعل السبب الرئيسى فى ذلك أن الإيمان الحقيقى لا يكون إلا مع العلم : ﴿ ...إنما يخشى الله من عباده العلماء... ۝ ﴾ [فاطر] ، لأن العلماء هم الذين يتفقهون فى الدين ويتدبرون هذا الكتاب المبين ، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية ، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته من خلال تمعن آياته الكونية والتعمق فيها [(١)].

وتفسيرا لقوله ﷺ أنه قاسم ، أى أنه أعلم أصحابه أنه لم يفضل فى قسمة ما أوحى الله إليه أحدا من أمته ، بل سوى فى البلاغ ، وعدل فى القسمة . ولقد كان بعض الصحابة - رضى الله عنهم - يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا الظاهر الجلى ، ويسمعه منه الآخر فيستنبط منه مسائل كثيرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومن خلال مواقف متعددة فى دراسة السيرة النبوية والحديث النبوى نعلم أن الرسول ﷺ كان ينمى فى أصحابه مهارات الفقه [(٢)].

وإذا كانت أغلب الأحاديث قد استخدمت مادة (ع ل م) وما اشتق منها للدلالة على المعرفة الأولية أو الأساسية أو على ما هو نقيض الجهل ، فإن مجموعة منها قد استخدمت هذه المادة لتفيد أن العلم هو الفهم ، أو هو فى حاجة إلى الفهم ، فإذا ما غاب هذا الأخير ، فما يعرف وما يطلع عليه لا يعد علما ، فقد روى عن زياد بن لبيد أنه قال ذكر النبى ﷺ شيئا ، فقال : «ذاك عند أوان ذهاب العلم» ، قلت يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم

---

(١) محمد لقمان الأعظمى : دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٩٩٧ ، ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

القيامة؟ قال : «ثكلتك أمك ، زياد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعلمون بشيء مما فيهما» [1]؟

فقد كان الصحابى الجليل يظن أن العلم يتمثل فى قراءته القرآن ونقله إلى الأجيال المتلاحقة ، فجاء الهدى النبوى ليبين أن العلم أعمق من القراءة ومن الاطلاع ، فهو فهم وتدبر وعمل ، وضرب مثلا يستطيع بفضله أن يستقرئ ما عليه اليهود والنصارى ، فهم يعرفون النصوص المنزلة وهم يحملونها معهم ، ولعل البعض منهم يجيد قراءتها ، ولكنهم يفتقرون إلى الفهم الذى هو الطريق إلى تحويل العلم إلى عمل لقد أدرك كثير من الصحابة هذا التوجيه النبوى ، فكان الواحد منهم يقول لطلابه : اجعل قراءتك القرآن علما ، فالعلم هنا هو الإدراك وهو الكفيل بأن يحمى القراءة من أن تكون قاصرة لا تتجاوز الحناجر ، فقد حذر الرسول ﷺ من هذا النوع من القراءة ، فقد روى عنه أنه قال «يخرج ناس من قبل المشرق ويقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه»، قيل ما سيماهم - الحديث [2] .

وعن أبى الدرداء أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، والحيتان فى جوف الماء» [3]

وبتأمل هذا الحديث نجد أنه يحمل عددا من الدلالات[4]:

أ- أن العلم طريق الجنة ، وذلك أن طالب العلم إذا أراد به وجه الله سبحانه وتعالى وطلب مرضاته ، فإنه يدل على الله من أقرب الطرق وأسهلها ، فمن سلك طريقه ولم يعرج عنه وصل إلى الله وإلى الجنة بأقرب الطرق وأسهلها بما يحصل له من علم نافع وعمل صالح .

ب- تواضع الملائكة لطالب العلم ، مما يدل على فضله وعلو شأنه .

---

(١) سنن ابن ماجه

(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى ، كتاب التوحيد

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم

(٤) سليمان بن قاسم العيد : المنهج النبوى فى دعوة الشباب ، الرياض ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ ص ١٤٠.

ج- استغفار من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء لطالب العلم ، وذلك لأن العلم سبب فى نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، فكان جزاؤه من جنس عمله ، فالاستغفار سبب لنجاته .

وجعل الرسول ﷺ العلم ركنا من أركان الخير ، وميز الناس به فقال : «الناس معادن ، فخيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» (١).

ونبه على أن طلب العلم الشرعى الذى يحتاج إليه المسلم ليقيم أمور دينه فريضة على المسلم فقال : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٢) ، قال : ليس هو الذى يطلبونه ، ولكنه فريضة على من وقع فى شىء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى يعلمه ، وأخبر محمد بن معاوية الحضرمى قال : سئل مالك بن أنس وأنا أسمع عن الحديث ، فقال : ما أحسن طلب العلم ، فأما فريضته فلا (٣) .

قال أبو عمر : قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ فى خاصته بنفسه ، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع ، واختلفوا فى تلخيص ذلك ، والذى يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه ، نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له ، لا شبه له ولا مثل ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . خالق كل شىء وإليه مرجع كل شىء ، المحيى المميت الحى الذى لا يموت (٤) .

هكذا فسر كثير من الرواة الحديث النبوى الشريف بأن الوجوب قاصر على طائفة من المسلمين ، وأنه يتعلق بالعلم الشرعى ، ونحن نقول - والله أعلم - بضرورة الالتزام بالنص ، والنص هنا لم يخصص جماعة بعينها ، وإنما أكد كل مسلم ، ولم يحدد فرعا بعينه من المعرفة لا يتعداه ، وإنما هو العلم بمطلقه .

وإذا كان الدافع الذى دفع هؤلاء المفسرين إلى ما قالوا هو شدة حاجة المسلم إلى العلم بدينه ليطبقه فى عمله وسلوكه ، فهذا حصر ، لكننا نزيد الآن بأن معاش المسلم

---

(١) ابن عبد البر (القرطبى الأندلسى) : جامع بيان العلم وفضله ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ١٩٦٨ ، ط٢ ، ج١ ، ص١٨ .

(٢) سنن ابن ماجه ، ج١ ، ص ٥٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص١١

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢

المعاصر أصبح الآن غير مقدور عليه إلا بعلم ومعرفة ، مما يوفر قدرا غالبا من الموجبات والضروريات .

وقد ناقش خالد محمد خالد هذه القضية متسائلا : أى علم يريده الرسول ؟ ليسرع بالإجابة بأنه أولا العلم الذى يفسر للناس أمور دينهم ، ويدفع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوثق أسباب اتصالهم بالله بارئهم وربهم ، يقول : تعلموا الفرائض، وعلموا الناس فإنى مقبوض . فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى على رأس كل أنواع العلم وصنوفه ، وذلك بما ينتظمه من تبيان لأحكام الشريعة وأسرارها ، وبما ينهض من أمر بمعروف ونهى عن منكر [(١)].

وبعد هذا يجىء العلم بكل أشكاله ، ما دام ينفع الناس ، وينمى عطايا الحياة ، فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد ، ويسهم فى دفع التقدم الإنسانى فى كل ضروراته وفى مجالاته التى تعود على الحياة الإنسانية بالنفع والخير ، علم ينال حظه الوافر من أحاديث الرسول وتعاليمه

وإذ يجعل الرسول ﷺ الطريق إلى العلم طريقا فى نفس الوقت إلى الجنة ، فإنه يعطى العلم بذلك من التقدير والاهتمام ما يجعله لا يقل شأنا عن تلك الفروض التى فرضها الإسلام على المسلمين ، وجعل الذين يؤدونها من أصحاب الجنة ، ومن هنا كان قوله : «ما من قوم يجتمعون فى بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده، وما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيه علما إلا سهل الله له طريقا إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه »[(٢)].

ولم يخصص الرسول ﷺ مكانا معينا يجب أن يلتزم به المسلمون، فلا يطلبون العلم إلا منه ، وإنما أزال الحدود وكسر القيود ، وجعل كل مصدر يحتوى على العلم الصحيح ، وجهة يجب أن يوجه إليها المسلمون . وإذا كان قد نسب إلى الرسول حديث غير صحيح يقول : اطلبوا العلم ولو فى الصين ، لكن السياق العام للسيرة النبوية وأحاديثه ﷺ يتقبل مضمون هذا الحديث غير الصحيح ، ولم يكن بالصين ومن الرسول علم ، ولكنه مثال لمدى ما امتلأ به المناخ الإسلامى من سعى إلى طلب العلم أينما كان .

---

(١) خالد محمد خالد : كما تحدث الرسول ، ص ٤٩٦

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص ١٦ .

وجعل الرسول العلم من الأمور التى يغتبط فيها ويتنافس فى مضمارها ، فقال ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين ، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، وآخر أتاه الله حكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها» [1].

ومعنى الحديث وهدفه يكمن فى الترغيب فى تحصيل العلم والتصدق بالأموال . وإذا وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) ﴾ [النساء] ، لرأينا النهى عن التمنى ، فكيف بالحسد ؟ والظاهر الذى يتراءى لكثير من السلف أن المقصود بالحسد المذكور فى الحديث هو الغبطة ، وأطلق الحسد عليها مجازا، وهو أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه ، والحرص على هذا يعد منافسة[2] ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين] .

والحديث هنا يشرح الآية المذكورة ويوجه المؤمن وجهة طيبة يكون بها البناء لا الهدم ، وذلك بفتح باب المنافسة ، باب الخير ؛ لأن الذين يتنافسون على شىء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم إنما يتنافسون فى ضئيل الشأن .

وكان الرسول ﷺ حريصا على دفع الناس وحثهم على الاختلاف إلى مجالس العلم ينهلون منها المعرفة ويتلقون على موائدها العلم الذى ينتفع به ، فعن أبى واقد الليثى [3] قال: بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس معه، إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد، فلما وقعا على مجلس الرسول، سلما:

فأما أحدهما ، فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها .

وأما الآخر ، فجلس خلفهم .

وأما الثالث فأدبر ذاهبا .

ولما فرغ رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا من الله فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

---

(١) مسند الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عباس ، ج٦ ، ص٦ ، الحديث رقم ٤١٠٩ .

(٢) محمد لقمان الأعظمى ، دراسات تربوية فى الحاديث النبوية ، ص٣٨٢.

(٣) أخرجه مالك وتلقاه عنه : البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

ويمكن أن نستنبط من هذا الحديث المعانى التالية [1]:

أولا - الجلوس فى المساجد حلقا للتعلم والتعليم ·

ثانيا - تعليم الناس ووعظهم وإرشادهم فى المساجد ، وهذان مما أجمع عليهما المسلمون فى جميع الأعصار والأمصار ، وجرى عليه عملهم ، وعلم عندهم بالضرورة، فلا يتعرض لهم فيها إلا ظالم من شر الظالمين ، له فى الدنيا خزى وله فى الآخرة عذاب عظيم ·

ثالثا - التحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسد فرجها ، فهى فى ذلك كصفوف الصلاة ، فيجوز التخطى لسد الخلل ، كما فعل الأول ، ويجلس خلفها إذا لم يكن موضع فيها كما فعل الثانى ·

رابعا - فضل الإقبال على مجالس العلم ، وكراهة الإعراض عنها إلا لعذر ·

خامسا - بيان أحكام الأعمال التى تقع أمام الناس حين وقوعها ليرسخ ويتعظ بما فيها ·

سادسا - لوم من زهد فى الخير ، ولم يحرص عليه ، وإن لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه فى تلك الحال ·

ولذلك اهتم الرسول ﷺ بالتعليم فى مجالسه المختلفة [2]، وحث المتعلمين على حضورها وملازمتها ، حتى تحفهم الملائكة بأجنحتها ، ويذكرهم الله فى الملأ الأعلى ، ففى الحديث عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : «ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة ، وتغشتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده» [3] ، وفى رواية : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ··»[4] ، فهم يجتمعون فى هذه المجالس لذكر الله تعالى الذى تطمئن به القلوب ، قال تعالى :

---

(١) عبد الحميد بن باديس : من هدى النبوة ، الجزائر ، مكتبة الشركة الجزائرية ، ١٩٦٦ ، ص١١٥

(٢) عبد الرحمن إبراهيم شريف الضامرى : مجالس النبى صلى الله عليه وسلم التربوية فى العهد النبوى ، رسالة ماجستير ، إربد ، كلية الشريعة ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٥ ، ص ٢٣

(٣) سنن ابن ماجه ، ٢ / ١٢٤٥

(٤) صحيح مسلم ، ٤ / ٣١٧ ، رقم ٣٧٩١

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]، ويجتمعون لتلاوة القرآن وتدارسه فيما بينهم ، والتدارس يعنى قراءة بعضهم على بعض، تصحيحا للنطق بألفاظ القرآن الكريم أو كشفا لمعانيه ودلالاته [١].

فاهتمام الرسول ﷺ بالتعليم فى المجالس العلمية ، وترغيبه للمتعلمين ، وحثهم على حضورها وملازمتها ، كل ذلك ليحقق بها لهذه الأمة الركن الأول من أركان الدعوة الإسلامية ، وهو العلم ، كما يتحقق بها مبدأ الجهر بالإسلام والإسلامية ، كما يتحقق بها موضوع الدعوة العريضة المفتوحة إلى الله عز وجل دون حذر أو خوف من أحد [٢]، ولن يتحقق الركن الأول من أركان الدعوة الإسلامية ، وهو (العلم) إلا بالتعلم ، فقد كان ﷺ يقول للمتعلمين : «إنما العلم بالتعلم»[٣]، لذلك كان ﷺ يجلس مع المتعلمين فى مجالسه التعليمية ، فيعلمهم بعض الكلمات كما تعلم الكتابة ، فعن سعد بن أبى وقاص قال : كان النبى ﷺ يعلمنا هذه الكلمات ، كما تعلم الكتابة: « اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » [٤].

وحث ﷺ المسلمين على أن يكون لكل منهم نصيب من العلم فقال : «اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك»[٥]، قال عطاء : قال لى مسعر: زدتنا خامسة لم تكن عندنا ، والخامسة أن تبغض العلم وأهله .

فهنا إحاطة بصورة العلاقات الممكنة بين الإنسان وبين العلم ، أربع منها علاقات إيجابية من شأنها أن توسع من دائرة المعرفة وتعمقها ، والخامسة علاقة سلبية يكون فيها البعض حربا على المعرفة أو مضيقين على فرصها ، والتربية النبوية ترشد إلى الأربع الأولى مادحة حاثة مرغبة ، أما الخامسة فتنهى عنها .

ومن هنا كان طبيعيا أن نجد لدى مسلمى الصدر الأول متعلمين من أجيال مختلفة، فالأب قد يشارك ابنه فى تلقى العلم على شيخ واحد لأنه يدرك أنه وإن كان أعلم منه أو هو عالم بالنسبة إليه ، إلا أنه يبقى متعلما وباحثا على المعرفة وساعيا إلى

---

(١) الكتانى : التراتيب الإدارية ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٧٠ ، ج٢، ص ٢٢١ .

(٢) عبد الرحمن الضامرى : مجالس النبى صلى الله عليه وسلم التربوية ، ص ٢٤ .

(٣) رواه البخارى معلقا ، الصحيح ، ١ / ٣٨ ، باب العلم قبل القول والعمل .

(٤) صحيح البخارى ، ٥ / ٢٣٤٧ ، رقم ٦٠٢٧ .

(٥) رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة .

الجلوس إلى من هو أعلم منه ، وطالبا من الله أن يزيده علما . فعلى هذا تربى المسلمون الأوائل[1] :

روى عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت أنه قال : خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار[2]. وقد يرى البعض أن لفظة علم هنا تفيد الحديث النبوى ، فعبادة بن الصامت قد صحب ابنه إلى حى من أحياء الأنصار ليأخذ معه أحاديث بطريقة مباشرة فيتحقق له علو الإسناد . وقد يجد هذا الشرح ما يدعمه ، ولكن التعمق فى ألفاظ الخبر ، وفى معانيه يبين أن العلم الذى طلبه عبادة بن الصامت وابنه لدى الأنصار أوسع من الرواية ، ففيه الفهم وفيه البيان وفيه قواعد السلوك وفيه وسائل تعليمية . فعبادة بن الصامت وهو الذى كان معلما لأهل الصفة وجامعا للقرآن فى عصر النبوة ، أدرك أن الإسلام يفرض عليه طلب العلم من المهد إلى اللحد . إنه عالم بالنسبة لابنه ولبعض معاصريه ، ولكن هذه الصفة لا تمنعه من أن يكون فى الوقت نفسه متعلما لأنه يعلم أن الحياة إذا لم يكن من أهدافها طلب العلم ، فإنها تصبح مذمومة ، وقد تقود صاحبها إلى الهلاك والعياذ بالله .

وكان رسول الله ﷺ يحض أصحابه على تفهم أمور دينهم ، ويأمرهم أن يسألوا عما يجهلونه ، ويمنعهم أن يفتوا من غير علم ، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عباس ، أن رجلا أصابه جرح فى عهد رسول الله ﷺ ، قد أصابه احتلام ، فأمر بالاغتسال مما اضر به ضررا بليغا ، فمات ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «قتلوه قتلهم الله !! ألم يكن شفاء العى السؤال ؟» [3] .

وتفسيرا للأمر روى جابر بن عبد الله أنه خرج مع مجموعة فأصاب رجل منهم حجر فشج رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه قائلا : هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما رويت المسألة للرسول قال بأنه كان يكفى أن يتيمم ، ويعصب على جرحه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده [4].

---

(١) محسن بن محمد بن سعيد عبد الناظر : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، بيروت ، مؤسسة الريان ، ١٩٩٨ ، ص ١١٣ .

(٢) النووى : شرح صحيح مسلم ١٨ / ١٣٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ج٥ ، ص ٢٢ ، حديث رقم ٣٠٥٧ .

(٤) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠ ، ط٣، ص٣٨.

ولم يقتصر حض الرسول ﷺ لأصحابه على طلب العلم الشرعى من خلال القرآن والسنة ، بل دعاهم إلى كل علم يفيد المسلمين ، حتى إنه أول من قدم المدينة وسمع من زيد بن ثابت بضع عشرة سورة من القرآن ، وهو صغير السن أعجب به ، وأمره أن يتعلم لغة اليهود ، فقال : «يا زيد تعلم لى كتاب يهود فإنى ما آمن يهود على كتابى» ، وفى رواية : «إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية». قال زيد : فتعلمتها فى سبعة عشر يوما [1].

وكان ﷺ كثيرا ما يدعو الله عز وجل فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع » [2]. وفى استعاذة الرسول ﷺ من العلم الذى لا ينفع دلالة على جانب كبير من الأهمية يؤكد هذا الحرص النبوى على وظيفية العلم ، علما بأن معيار النفع ، وإن كان يتغير بتغير الزمان والمكان إلا أنه لابد أن يحكم بالمرجعية الإسلامية وبنفع الأمة .

ويرتبط بهذا أيضا ما نقل عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»[3] ، فها هنا يتضح لنا إلحاح صريح على النفعية بالنسبة للعلم الذى يسعى المسلم فى طلبه ، محكوما بالمعايير الإسلامية التى لا تحصر النفع فى الدائرة الفردية الشخصية وحدها .

وفى ضوء هذا فإنه إذا كان مطلوبا من المسلم أن يسعى لطلب العلم الذى ينتفع به ، فإن دائرة النفع إذا اقتصرت على الأمور الدنيوية وحدها كان ذلك عملا مستهجنا فى التربية النبوية ، وفى ذلك قال ﷺ : «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[4] .

وعلى هذا الأساس من التوجه بالعمل إلى الله يكون التزود بالعلم والمعرفة ، ويكون التعلم . والحديث الشريف كما تتضح علاقته بالقرآن الكريم يروى قصة الخضر وموسى- عليه السلام- مبينا أن الإنسان يجب عليه ألا يغتر ، وألا يتكبر بالعلم الذى

---

(١) ابن سعد الواقدى : الطبقات الكبرى ، مطبعة بريل بليدن ، ١٣٢٢ هـ ، قسم ٢ ، ج٢ ، ص١١٥ .

(٢) سنن ابن ماجه ، ج١ ، ص ٥٦ ، عن أبى هريرة .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص ١٦ .

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه .

تمكن عقله من استيعابه والتربى به ، فهناك من هو أكبر منه علما ، وهناك من يستمد الإنسان منه كل مقومات العلم ومفاهيمه ، وهو الله الخالق المدبر[١]. وفى حديث الرسول ﷺ الذى يبين قصة الخضر مع موسى- عليه السلام- :جواز التمارى فى العلم إذا كان كل واحد يطلب الحق ولم يكن تعنتا ، والرجوع إلى قول أهل العلم عند التنازع، وأنه يجب على العالم الرغبة فى التزيد من العلم والحرص عليه ولا يقتنع بما عنده . كما لم يكتف موسى عليه السلام بعلمه ، وفيه وجوب التواضع لأن الله تعالى عاتب موسى عليه السلام حين لم يرد العلم إليه وأراه من هو أعلم منه والرحلة والسفر فى طلب العلم[٢].

وفى نفس السياق يجىء ما رواه جابر بن عبد الله من أن النبى ﷺ قال : «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار» [٣] .

فقد رسم هذا الحديث فضيلة ينبغى أن يتحلى بها طالبو العلم ، وذلك بالتحذير من الصفات الذميمة فبنهيه عليه الصلاة والسلام عن العلم الذى تكون غايته المباهاة ، أكد أن على طالب العلم أن لا ينظر إلى العلم نظرة ضيقة محورها شخصى ذاتى وإنما يتعامل مع العلم تعاملا شموليا يرى فيه قاسما مشتركا بين البشر ، فقد وضع غيره لبنة أو لبنات ، وسيأتى من بعده ويفعل نفس الشىء، وهذه الإضافة لا تكون سليمة ونافعة إلا إذا توافرت فيها جملة من الشروط ، من أهمها فهم الأصل الذى قامت عليه[٤] .

وهكذا تصبح العملية التعليمية فى حاجة إلى ترابط الأجيال وإلى التكامل بين أفرادها وخاصة أولئك الذين أنعم الله عليهم فجعلهم من أهل العلم ، والمتعلم لا يستطيع بلوغ هذه الأهداف إلا إذا ميز بين العقلاء والسفهاء ، فالأولون يطلبون العلم ليكونوا خلفاء فى الأرض ينجزون الوظيفة التى كلفهم الله بها والمتمثلة فى إعمار الكون باستثمار ما أودع الله فيه من نعم ظاهرة وباطنة ، فالمتعلم مطالب بأن يقتدى بهم وأن يشاركهم ، بل يسعى إلى منافستهم منافسة شريفة ، أما الآخرون فسلوكهم أنانى

---

(١) عبد الجواد بكر : فلسفة التربية فى الحديث الشريف ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٣ ، ص٢١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به .

(٤) محسن بن محمد بن سعيد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١١٦ .

وأهدافهم محدودة فى الزمان والمكان ، فعلى المتعلم أن يكون له من الصفات ما بفضله يحمى نفسه وعلمه منهم فلا يماريهم ولا يجعلهم مثله فى الحياة[1] .

وعندما أمر الإسلام المسلمين بالتعبد ، حرص أن يكون ذلك عن فهم ووعى وتبصر وعلم ، وإلا انتفى الغرض من ذلك ، ومن هنا فقد أكد الرسول أن المكثر من العبادة بغير علم منزلته أقل كثيرا من المسلم العالم ، فقال : «قليل من العلم خير من كثير من العبادة ، وكفى بالمرء علما إذا عبد الله ، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه ، إنما الناس رجلان ، عالم وجاهل ، فلا تمار العالم ، ولا تحاور الجاهل »[2].

ونقل عن أبى هريرة وأبى ذر قالا : باب من العلم يتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوع ، وباب من العلم يعلمه عمل به أو لم يعمل به أحب إلينا من مائة ركعة تطوع . وعن ابن وهب قال : كنت عند مالك بن أنس ، فجاءت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظر فى العلم بين يديه ، فجمعت كتبى وقمت لأركع فقال لى مالك : ما هذا ؟ قلت : أقوم للصلاة . فقال : إن هذا لعجب ، ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى كنت فيه إذا صحت النية فيه .

وكل هذه النقول والروايات وما جرى مجراها إنما هى تطبيق لما روى عنه ﷺ ، : «لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة» [3] .

ويجرى مجرى هذا السياق ما أخبر به صلوات الله عليه وسلامه أن من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يعود ، وهذا دافع إلى ضرورة طلب العلم والاستمرار فيه، فقال ﷺ: «من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع »[4].

وطلب العلم من الخير فيجب الازدياد منه ، فرسول الله ﷺ يقول : «لن يشبع المؤمن من خير سمعه حتى يكون منتهاه الجنة» [5] . وزاد حرص المسلمين على طلب العلم لمعرفتهم أن ذهاب العلم من علامات الساعة ، لقول الرسول ﷺ : «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل . . »[6].

---

(١) المرجع السابق ، ص١١٧ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣٠.

(٤) حديث حسن غريب ، سنن الترمذى ، ج٥ ، ص٢٩ .

(٥) حديث حسن غريب ، سنن الترمذى ، ص ٥١ .

(٦) رواه البخارى ، فى : ابن حجر : فتح البارى ، ج١ ، ص ١٧٨ .

ولعل تردد الحديث عن (الفهم) فى النصوص الإسلامية ، قرآنية ونبوية والإلحاح على ذلك يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ما سبق أن أشرنا إليه من أن طلب العلم لابد أن يكون مقترنا بحسن الفهم ، ذلك أن المراد من العلم فى الإسلام أن يكون معينا على تجنب سيىء الأفعال ، وملتزما الطريق المستقيم ، ومثل هذا وذاك مما لا يمكن توافره إلا بناء على اقتناع ، وفهم ، ودراية ، ولا يتأتى بمجرد الحفظ ، ومن هنا ورود كلمة (الفقه) فى عدد من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ ، حيث إن المراد بها ، الفهم والوعى والدراية ، قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا** ... (١٧٩) ﴾ [الأعراف] ، وكان رسول الله ﷺ يراعى هذا المبدأ ويؤكد عليه فيعيد حديثه إذا تكلم حتى يفهم عنه ، فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تُفهَم عنه [١].

كما كان ﷺ يترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فعنه ﷺ أنه قال : « يا عائشة ، لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين ، باب يدخل الناس وباب يخرجون [٢]» ، وبهذا يريد الرسول ﷺ أن يفهم الناس كل أمر من أمورهم ولا يقبلونه بدون مناقشة تمشيا مع قوله تعالى : ﴿ ... **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١١١) ﴾ [البقرة].

وقد تميز أصحاب رسول الله ﷺ (تلاميذ مدرسة النبوة) بحرصهم الشديد على تعلم العلم وتطبيقه لما رسخته فى نفوسهم المبادئ التى تلقوها خلال عصر النبوة من تقدير للعلم ، ومعرفة حقه لمكانته الرفيعة السامية التى ينبغى السعى إليها بدون ملل ولا كسل [٣] ، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «منهومان لا يشبعان ، منهوم فى علم لا يشبع ، ومنهوم فى دنيا لا يشبع»[٤] .

---

(١) رواه البخارى ، فى : ابن حجر ، فتح البارى ، ج١ ، ص ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٣) الشامانى الحربى : التعليم فى المدينة المنورة فى عهد النبى ﷺ ، رسالة ماجستير ، المدينة المنورة ، كلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز ، ١٩٩٠ ، ص ١٩٦ .

(٤) الحاكم : المستدرك ، ج١ ، ص ٩٢ .

من أجل هذا كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين أشد ما يكون الحرص على ملازمته، فعن أبى هريرة قال : إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة ، وإنى كنت ألزم رسول الله ﷺ [1]، ومن ذلك التفرغ لطلب العلم كما حدث لمن عرفوا بأهل الصفة، عن أنس بن مالك قال : كان إخوان على عهد رسول الله ﷺ ، فكان أحدهما يأتى النبى ﷺ ، والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبى ﷺ ، فقال : «لعلك تُرزَق به» [2] ففى هذا إشارة إلى أهمية التفرغ لطلب العلم إذا وجد ما يمول هذا التفرغ[3] .

فلنكن بناة بشر :

إن هذا الإلحاح المستمر على أن يسعى المسلم بكل ما أتاحه المولى عز وجل له من قدرة واستطاعة لطلب المعرفة أينما ووقتما أتيح له ذلك ، لابد أن يكون له وجهه الآخر، فلكى يكون الفرد منا متعلما ، يعنى ضرورة أن يكون هناك من يعلمه ويأخذ بيده ، وبالتالى يغدو المسلم عالما أو متعلما ، وفى اعتقادنا أن «أو» هنا ليست للتخيير المطلق، بحيث يكون الإنسان إما هذا أو ذاك ، وإنما المقصود بها ألا تمضى لحظة من لحظات عمر الإنسان إلا ومن الضرورى أن يسعى فيها ، إن لم يكن فى طلب المعرفة ، ففى تعليمها الآخرين أو العكس . ولا شك أن من يذيعون العلم بين الناس ويسعون إلى تربيتهم إنما هم بناة بشر ، وهذه الفئة بصفة خاصة هى التى يهم الدين أمرها ، لأن أصحابها هم الذين يمكنون لهذا الدين على الأرض ، ولا يكون التمكين للدين إلا ببشر يسلكون وفقا له وينتهجون نهجه ويتجهون صوب مقاصده .

وتتعدد الأحاديث والمواقف التى تؤكد أن الرسول ﷺ ، وقبل أن يدعو كل مسلم أن يقوم بدوره فى إذاعة العلم بين الناس وبذل الجهد فى سبيل تربيتهم ، حرص هو نفسه على أن يكون خير مرب وأفضل معلم ، وأعظم مرشد وموجه ، ولم لا ؟ أفليست مهمة الرسل أصلا ، كما سبق أن بينا هى التبليغ ، والهداية ، والتعليم ؟ ولنستعد معا تلك الآية الجامعة التى اعتمدنا عليها كثيرا والتى يقول فيها المولى- عز وجل- : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة].

---

(١) صحيح البخارى ، جذ ، ص٥٦.

(٢) سنن الترمذى ، ج٢ ، ص ٢٧٤.

(٣) سند الشامانى الحربى ، ص١٩٧.

وقد روى ابن ماجه فى سننه والدارمى فى سننه ، واللفظ لابن ماجه ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حُجره ، فدخل المسجد ، فإذا هو بحلقتين : إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله تعالى ، والأخرى يتعلمون ويعلمون ، فقال النبى ﷺ : «كل على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يُعلّمون ويتعلمون ، وإنما بعثت معلما ، فجلس معهم» [١].

والحق أنه لم يكن مجرد معلم مثل سائر المعلمين ، يقف بين مجموعة من التلاميذ يعلمهم ، ولكنه كان معلم تلاميذ عددهم يشمل كل من انضوى تحت راية الإسلام ، ولم يكن يقف فى قاعة درس ولا ساحة مسجد ، وإنما كل مكان وطئته قدماه ، ووصلت إليه دعوته ، كان قاعة تعليم ، وبيئة مربية . ومن تأمل حسن رعايته للعرب مع قسوة طباعهم ، وشدة خشونتهم ، وتنافر أمزجتهم ، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم ، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه ، والتفوا حوله ، وقاتلوا أمامه ودونه أعز الناس عندهم : آباءهم وأقاربهم ، وآثروه على أنفسهم ، وهجروا فى طاعته ورضاه أحباءهم وأوطانهم وعشيرتهم وإخوانهم ، وكان كل ذلك - وأعظم منه - منهم له ﷺ ، وهو لم يمارس الكتابة والقراءة ، ولا طالع كتب الماضين ، ولا أخبار المربين السالفين . . من تأمل هذا تحقق له بنظر العقل أنه ﷺ هو المعلم الأول ، والنبى المرسل [٢].

وروى مسلم [٣] فى قصة تخيير النبى ﷺ زوجاته الشريفات ، رضى الله عنهن، وقد بدأ بعائشة منهن فاختارته رضى الله عنها ، ورغبت منه ألا يخبر غيرها أنها اختارته، فقال لها ﷺ : «إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا»، وقد علق الغزالى على ذلك بأن فى إبهامه ﷺ وعدم مصارحته ومواجهته لعائشة بالزجر -إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف والتعريض ما أمكن ، من غير تصريح ، وبطريق الرحمة من غير توبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويرث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار [٤] .

---

(١) ابن ماجه ١ / ٨٣ ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم

(٢) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم وأساليبه فى التعليم ، حلب ، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط٢ ، ١٩٩٧ ، ص١٠ .

(٣) صحيح مسلم ، ٨١/١٠ .

(٤) عبد الفتاح أبو غدة ، ص١١ .

وروى مسلم أيضا [1] عن معاوية بن الحكم السلمى ، قال : بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ ، إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرمانى القوم بأبصارهم ! فقلت : واثكل أمياه !(أى وافقد أمى إياى فإنى هلكت) ، ما شأنكم تنظرون إلى ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوننى سكتُ . فلما صلى رسول الله ﷺ دعانى ، فبأبى هو وأمى ، ما رأيت معلما قبله ، ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرنى (ما نهرنى) ، ولا ضربنى، ولا شتمنى، قال : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» .

ولم يكن الرسول ﷺ فيلسوفا يضع النظريات ، وهو يقيم فى برج عاجى ، لا يعيش مع الناس والمبادئ التى يدعوهم إليها ، أو كان يترك لغيره متاعب الدعوة والتطبيق ، فلم يكن الرسول داعية مبادئ نظرية خيالية ، وإنما كان داعيا ومربيا ومرشدا إلى التوحيد الإيمانى عملا وتربية ، وإلى التعاون والنصيحة والشورى والعدالة والعلم والتعلم ، والجهاد فى سبيل الله ، والإعداد له ، ورعاية الأطفال ، واحترام النساء ، وإكرام الجار، وصلة الأرحام ، فكانت حياته بعد البعثة النبوية عملا متواصلا فى تربية الناس تربية مقصودة واعية وواضحة المعالم [2] .

فالرسول ﷺ لم يكتف بتقديم الوصايا وإنما ألزم نفسه بها ، بل كان يهتم بالتطبيق ، وهذه إحدى مميزات التربية الإسلامية ، وحتى ما يظهر أنه عبادة محضة روحية كالصلاة مثلا ، فإن هذه العبادة إنما يظهر كمالها وصدقها فى حسن المعاملة والبعد عن الفحشاء والمنكر فى سلوك الفرد المسلم ، وفى علاقاته مع الآخرين ، بمعنى أن التربية الحقة لا ينفصل المبدأ فيها عن التطبيق ، ولا تعزل الفرد عن المجتمع ، ولا تقطعه عن الحياة وسنن الله فيها .

وقد لخص الصحابى عبد الله بن رواحة دور المربى للرسول ﷺ فقال[3] :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

(١) صحيح مسلم ، ٥ / ٢٠.

(٢) عبد الحميد الهاشمى ، الرسول العربى المربى ، ص ٧٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦.

وتتوالى الأمثلة ، وتكثر المواقف ، وتبرز الشواهد ، وجميعها تؤكد على أنه ﷺ أراد من كل مسلم حصل علما أن يسرع بتعليمه للآخرين ، فعن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزى ، عن أبيه ، عن جده : عبد الرحمن بن أبزى قال [1]: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرا ، ثم قال : «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ؟! ولا يعلمونهم ؟ ولا يفطنونهم ؟ ولا يأمرونهم ؟ ولا ينهونهم ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ؟ ولا يتفقهون ؟ ولا يتفطنون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ، ويفقهونهم ، ويفطنونهم ، ويأمرونهم ، وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتفطنون ، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا» .

ثم نزل فدخل بيته فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قالوا : نراه عنى الأشعريين ، هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ذكرت قوما بخير ، وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟

فقال : «ليفقهن قوم جيرانهم ، وليفطننهم ، وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفطنون ، ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا» . فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضا . فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة ليفقّهوهم ، ويعلّموهم ويفطّنوهم ، ثم قرأ رسول الله هذه الآية : ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)**﴾ [المائدة].

وإذا كانت عملية (التعليم) تتطلب مهارة ودربة فى كيفية التعليم وأساليبه ، ومعرفة بجملة من القواعد والمبادئ ، إلا أننا لا نستطيع أن ننسى أن هذه العملية بصفة خاصة تتطلب فيمن يمارسها بعضا من السمات والصفات الشخصية التى تيسر له عمله ، ومن هنا فقد تميز رسول الله ﷺ بمجموعة من أبرز هذه الصفات والسمات التى أسست لدوره معلما ومربيا ، هى مثل أعلى من الضرورى لكل من يمارس العمل التربوى أن يسعى بكل ما يستطيع أن يوفرها فى شخصيته وفى سلوكه ، ألا وهى[2] :

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة ، ص ١٥ .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة، ص ٤٣ .

أولها – السكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم ، الداعية إلى التقديم والتسليم ، وكان أعظم مهيب فى النفوس ، حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه ، مع تعودهم على كبر الأكاسرة ، ومخالطة الجبابرة ، فكان ﷺ فى نفوسهم أكثر هيبة ، وفى أعينهم أعظم ، وإن لم يتعاظم بأبهة ، ولم يتطاول بسطوة ، بل كان موصوفا بالتواضع، ومعروفا بالسهولة .

ثانيها – الطلاقة الموجبة للإخلاص والمحبة الباعثة على المصافاة ، والمودة ، وقد كان صلوات الله عليه وسلامه ، محبوبا ، ولقد استحكمت محبة طلاقته فى النفوس ، حتى لم يبغضه أو يكرهه مصاحب ، وكان أحب إلى صاحبه من الآباء والأبناء .

ثالثها– حسن القبول ، الذى يحبب القلوب فيه ، فتسرع إلى طاعته ، وتبادر إلى موافقته ، ولذلك استحكمت مصاحبته فى النفوس ، حتى لم ينفر منه معاند ، إلا من ساقه الحسد إلى مخالفته .

وضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى ضرورة أن يكون المعلم بتلاميذه رفيقا ، فعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : «من أُعطِى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير» (١)، وعندما أنكرت السيدة عائشة سلام اليهود، وقالت : عليكم السام واللعنة ، قال لها النبى ﷺ موجها : مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله (٢).

ومن هنا نجده ﷺ يوجه المعلمين الذين كان يبعثهم للتعليم بأن يكونوا ميسرين لا معسرين ، فهذه وصيته لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى ، عندما بعثهما إلى اليمن، حيث قال لهما : «يسِّرا ، ولا تعسِّرا ، ويسِّرا ولا تنفِّرا» (٣) . وقد التفت الحافظ ابن حجر إلى ما يتضمنه هذا الحديث من مضامين تربوية عند شرحه لهذا الحديث فقال : فى هذا الحديث الأمر بالتيسير ، والرفق بالرعية ، وتحبيب الإيمان إليهم ، وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم ، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام ، أو قارب حد التكليف من الأطفال ، ليتمكن الإيمان من قلبه ، ويتمرن عليه ، وكذلك الإنسان فى تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها ، بل يأخذها بالتدريج والتيسير ،

---

(١) محمد ناصر الدين الألبانى : صحيح سنن الترمذى ، الرياض ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، ١٩٨٨، ، ج٢ ، ص١٩٥ .

(٢) صحيح البخارى ، ج٥ ، ص٢٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، ج٤ ، ص١٥٧٨ .

حتى إذا أنست بحالة وذامت عليها ، نقلها لحال آخر ، وزاد عليها أكثر من الأولى ، حتى يصل إلى قدر احتمالها ، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه[1].

وعندما كان الرسول ﷺ يواجه موقفا يشير إلى تصرف خاطئ لم يكن يعالج الأمر بالعنف ، بل بالملاينة والمناقشة ، من ذلك ما رواه أبو هريرة عن أعرابى دخل المسجد والرسول ﷺ جالس ، فصلى ، فلما فرغ قال : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا ، فالتفت إليه النبى ﷺ ، فقال : «لقد تحجرت واسعا »، فلم يلبث الأعرابى أن بال فى المسجد ، فأسرع إليه الناس ، فقال النبى ﷺ: «أهريقوا عليه سجلا من ماء ، أو دلوا من ماء» ، ثم قال: «إنما بعثتم ميسّرين ، ولم تبعثوا معسّرين» [2].

وهناك غير هذا المثل أمثلة أخرى ، تتبدى فى هذا الشاب الذى طلب الإذن له بالزنا[3] ، وآخر أدمن على الخمر [4] ، فى هذا وذاك نجده ﷺ يأخذ بعين الاعتبار مقدار ما كان عليه القوم من بداوة وغلظة عيش وضيق أفق وسذاجة تفكير ، وقرب عهد بالجاهلية فلا يبادرهم بالزجر والنهر والتوبيخ ، بل يعتمد على الأخذ بيد الواحد منهم خطوة خطوة إلى طريق الهداية ، دون تفريط فى وجوب التزام الحق . ولعل من الوسائل الذكية التى كان يتبعها فى هذا الشأن ، عدم توجيه لوم مباشر إلى المخطئ ، وإنما يقول على سبيل المثال : ما بال أقوام يفعلون كذا ... أو يقولون كذا ... ، وهو ما روته السيدة عائشة بقولها : كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شىء لم يقل : ما بال فلان يقول ؟ ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا [5]، فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله ﷺ الذى لا يمكن أن يخطر ببال مسلم أن يتقاعس فى اتباع أوامره وتوجيهاته المباشرة ، فكيف بنا نحن المربين ، آباء وأمهات ودعاة ومعلمين ، عندما نوجه مخطئا ونسعى لتصحيح انحراف ؟!

---

(١) ابن حجر : فتح البارى ، ج١٣ ، ص ١٦٣ .

(٢) الألبانى : صحيح سنن الترمذى ج١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل .

(٤) ابن حجر : فتح البارى ، ج١٢ ، ص ٦٧ .

(٥) محمد ناصر الألبانى : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٩٨٦، ج٢ ، ص٨٥٧.

ولما كان الأفراد يتباينون فيما بينهم فى القدرة على الفهم والتعلم ، حرص رسول الله ﷺ على أن يراعى هذا وهو يلقى بتعـاليمه وأحاديثه ، كـما كان يوصى بذلك من يبعثه معلمـا إلى إحدى المناطق ، من ذلك ما رواه أنس بن مالك [١] : أن نبى الله ﷺ - ومعـاذ بن جبل على رديفه على الرحل - قـال : يا معاذ ، قال : لبـيك رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ ، قال : لبيك رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ ، قال: لبيك رسول الله وسعديك . قال : «ما من عـبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبـده ورسوله ، صدقا من قلبـه ، إلا حرمه الله على النار» ، قـال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : «لا ، إذا يتّكلوا » .

ومعنى الحديث أن لا تبـشرهم بذلك ، فإنهم يمتنعون من العمل اعتـمادا على ما يتبادر من ظاهره من أن مجرد الشهـادة بالوحدانية والرسالة تكفى للنجاة من النار ، ولا ينتبهون إلى أن المراد الإتيان بالشهادتين مع أداء حـقوقهما من إطاعة الله وإطاعة رسوله فى الشرائع والأحكام [٢].

وفى الحديـث بيان وجوب أن يخـص بالعلم الدقيق قـوم فيـهم الضبط وصـحة الفـهم، وأن لا يبذل لمن لا يسـتأهله من الطـلبة ومن يخـاف عليه التـرخص والاتكال لتقصير فهمه . وقال العلمـاء فى شرح هذا : يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلوا ، أن أحاديث الرخص لا تشاع فى عـموم الناس ، لئلا يقصر فـهمهم عن المراد بها ، وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتـهادا فى العمل وخشية لله عز وجل ، فأما من لم يبلغ منزلته فلا يؤمن أن يقصر اتكالا على ظاهر هذا الخبر[٣] .

بل إن مراعاة التمايز والتنوع والاختلاف بين الناس يصل إلى درجة أن يكون أمرا ممنوعا على فرد ومبـاحا لآخر ، فعن عبد الله بن عـمرو بن العاص ، قال[٤]: كنا عند النبى ﷺ ، فجاء شاب فقال : أقبّل وأنا صـائم ؟ قال : لا ، فجاء شيخ فقال : أقبّل وأنا صائم ؟ قال : نعم ، فنظر بعضنا إلى بعض ، فـقال رسول الله ﷺ : قد علمت لم نظر بعضكم إلى بعض ، إن الشـيخ يملك نفسه ، أى لا يخشى عليه إفـساد الصوم

---

(١) صحيح البخارى ، ١ / ٢٢٥-٢٣٧.

(٢) ابن حجر : فتح البارى ، ١ / ٢٢٥ .

(٣) عبد الفتاح أبو غدة ، الرسول المعلم ، ص ٨٢.

(٤) مسند الإمام ابن حنبل ، ٢ / ١٨٠ ، و ٢٥٠ .

بالوقوع فى الجماع ، بخلاف الشاب فقد يجره التقبيل إلى الجماع أو الإنزال فيفسد عليه صومه» ، فاختلف الجواب لاختلاف حال كل من السائلين .

ومن هذا القبيل ، ما نلاحظه من اختلاف أجوبته ﷺ على سؤال بعينه سأله مسلمون مختلفون فى مواقف متعددة ، وهو المتعلق بأفضل الأعمال وأحبها وأقربها إلى الله ، فما كان الاختلاف هنا إلا بناء على مقتضى الحال :

فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص [1]، أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير ؟ (أى خصال الإسلام خير) ، قال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .

وعن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل رسول الله ﷺ ، فقال : أى المسلمين خير ؟ فقال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده »[2].

وعن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ - وفى رواية : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ - قال : الصلاة لوقتها ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه[3] .

وإذا كانت مسئولية أهل العلم نابعة من الدور العظيم الذى خص به العلم فى الحضارة الإنسانية عامة وفى الدين الإسلامى خاصة ، فحتى يكون هذا الدور فعالا ، فمن الضرورى توفير الشروط الأساسية التى يعين وجودها المتعلمين ، وطلاب العلم على الحصول على ما يمكن الحصول عليه من المعرفة .

ولا شك أن من أهم هذه الشروط هو أن نجعل العلم حقا مشاعا ، فكل فرد من أفراد المجتمع له الحق فى التعلم [4]، فقد جاءت أحاديث كثيرة تدعو إلى تعليم من لا يعلم ، وإلى التعامل بالمساواة فى الجوانب الإنسانية ، كما جاءت بعض الأحاديث لترسم حقوقا للمتعلمين ، فقد خرج ابن ماجه [5] عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله

---

(١) صحيح البخارى ، ١ / ٥٥ .

(٢) صحيح مسلم ، ٢ / ١٠ .

(٣) صحيح البخارى ، ٢ / ٩ .

(٤) محسن بن محمد بن سعيد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص١٣٤ .

(٥) ابن ماجه ، مقدمة / ٢٢ ، باب الوصية بطلبة العلم .

ﷺ قال : «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإن رأيتموهم ، فقولوا لهم : مرحبا ، مرحبا بوصية رسول الله ﷺ واقنوهم» (علموهم) ٠

ولعل أهم ما يتضمنه هذا الحديث ضرورة تهيئة الظروف المادية والمعنوية للمتعلمين ، فقد أكد الحديث على أن المتعلمين وخاصة الذين يقطعون المسافات هم وصية الرسول ﷺ ، ومن كان ذلك شأنه ، فلابد من أن يعامل بطريقة كان الرسول يعامل بها أمثاله ٠ وإذا عدنا للسيرة النبوية ، فإننا ندرك أن الرسول ﷺ قد خصص لطلاب العلم الظروف المناسبة للتعليم ، وما أهل الصفة إلا مظهر من مظاهر هذا الاعتناء ، فإذا سلمنا بما توصل إليه البحث الموضوعى من أن الصفة كانت تشبه السكن الجامعى ، قبل أن تكون مأوى للعجزة، اتضح أن الرسول هو أول من اهتم بتوفير الأسباب المادية للمتعلمين٠ نعم كان يكلفهم بأعمال ، كالعسس ، ولكنه عمل لا يعارض طلبهم العلم وتفوقهم فيه ٠ إن هذا الحق الذى ضمنه الرسول لطلاب العلم يقترن بحق آخر هو الطمأنينة النفسية ، فقد طلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يرحبوا بطلبة العلم ترحيبا يجعلهم يستأنسون ويبعدون عن أنفسهم الاضطراب والخوف ، ذلك أن طالب العلم فى حاجة إلى الأمن والأمان حتى يحفظ ، ويعى ، ويتعمق فى الفهم، ويسهم فى حلقات الدرس ، ويكون متطلعا ومتقبلا وفاحصا وناقدا [1] ٠

ويرتبط بهذا مراعاة المعلم لمبدأ العدل التربوى الذى هو فرع من الأصل العام ألا وهو العدل على وجه العموم ، ذلك المبدأ الذى ألح عليه الإسلام إلحاحا لابد أن يستلفت النظر ، لما له من دور متعدد الآثار الإيجابية فى سلامة البنى البشرية ، وصحة الأمة النفسية والاجتماعية ، فها هو- سبحانه وتعالى- يقول : ﴿ ...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]، ويقول : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء] ، فالله- سبحانه وتعالى- يأمر بالعدل فى القول والعمل ٠

ولعل من أبرز مظاهر العدل تحقيق المساواة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ٠ ٠ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴾ [الحجرات : ١٣]، ومصداقا لهذا قال ﷺ : «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود

---

(١) محسن بن محمد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١٣٥ ٠

على أحمر إلا بالتقوى»[1]، فمقياس المفاضلة فى الإسلام ليست للون أو الجنس أو المركز الاجتماعى الذى يتبوأه الإنسان وإنما المقياس هو تقوى الله تعالى ، وبذلك يتحقق مبدأ تكافوء الفرص ، إذ لا تكون هناك ميزة خاصة يختص بها أصحاب موقع اجتماعى أو مالى ، أو إدارى ، فهذا رسول الله ﷺ ، من هذا المنطلق يقول : «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك ، إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران» [2].

كذلك حث رسول الله ﷺ من يمارس مهمة التعليم على أن يشرك معه متعلميه، وينقل لنا أحد الصحابة صورة لشعورهم بمسئوليتهم نحو عملية التعلم والتعليم عن طريق المشاركة ، فعن أبى الدرداء قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» [3]، ولم يتصور ذلك أحد من الصحابة ، لكون كل فرد فى المجتمع قائما بواجبه التربوى ومشاركا مشاركة فعالة، فقال هذا الصحابى : كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ، فوالله لنقرأنه ، ولنقرأنه نساءنا وأبناءنا ، مما يمثل شعورا بالمسئولية من هذا النفر من المتعلمين .

ولما كان المتعلمون يتحمسون أكثر للتعلم عندما يشاركون فى اختيار الموقف التعليمى والتدبير له ، شجع رسول الله ﷺ صحابته على ذلك ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : جلست فى عصابة (مجموعة) من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العرى ، وقارئ يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله ﷺ ، فقام علينا ، فلما قام سكت القارئ فسلم ، ثم قال : ما كنتم تصنعون ؟ قلنا : يا رسول الله إنه قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله ، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم» [4]، ثم أمرهم أن يتحلقوا حوله، وقال لهم : «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس . . . » .

---

(١) مسند الإمام ابن حنبل ، ج٥ ، ص ٤١١ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى ، ج١ ، ص ١٩٠ .

(٣) حديث حسن غريب ، سنن الترمذى ، ج٥ ، ص٣١ .

(٤) سنن أبى داود ، ج٤ ، ص ٧٢، ٧٣ .

ومن حسن ممارسة المعلم لمهمته مراعاة الحالة النفسية التى يكون عليها طلاب العلم ، فعن ابن مسعود ، قال : كان الرسول ﷺ يتخولنا (يتعهدنا) بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا [١]، فالملل من طبيعة النفس البشرية ، فمداومة تحديث الناس، والإطالة عليهم فيه ، وإتيانهم فى غير الوقت المناسب ، كل ذلك من أسباب إملالهم · وإذا كان رسول الله ﷺ وهو الذى يتمنى المؤمنون لقاءه ، والحديث معه ، والاستماع لما يقول ، وهو الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، يخشى أن يمل الناس بالموعظة ، فكيف بمن هم دونه [٢]؟

ولحرص رسول الله ﷺ على أن يمارس كل منا صورة من صور تعليم الآخرين ، ودرجة من درجاته ، خاطب المسلمين بقوله [٣] : «نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع»، وأهمية هذا تتبدى لنا من احتمال أن يكون البعض ممن حضروا مجلسا تعليميا، لم يستوعبوا مسألة من المسائل الاستيعاب الصحيح، لكنهم عندما ينقلون ما سمعوا من العلم إلى آخرين ، فلربما فهم هذا الجديد ما لم يستوعبه الأول ·

وقد سمع منه فى هذه المجالس عدد كبير من الصحابة ، لذلك حرص ﷺ على أن يبلغ غائبهم ما تعلموه منه ، فكان يقول لهم حين يعقد مجلسا علميا : «إنى أحدثكم الحديث ، فليحدث الحاضر منكم الغائب» [٤]، ممن لا يستطيع الحضور إلى هذه المجالس لانشغاله بأموره الخاصة ، وذلك حرصا منه على تبليغ ما يعلمه لهم من القرآن وغيره ، وكثيرا ما كان يقول للمتعلمين فى مجالسه : «بلغوا عنى ولو آية»[٥].

وفى هذا السياق حذر ﷺ أن يحبس إنسان حصل على معرفة مفيدة داخل ذاته الخاصة ، دون أن يذيعها وينشرها ، ومن هنا جاء قوله : «من سئل عن علم فكتمه

---

(١) إسماعيل الجوهرى : الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت / دار العلم للملايين، ١٩٩٠ ، ط٤،٤.

(٢) سليمان بن قاسم العيد : المنهاج النبوى فى دعوة الشباب ، ص ١٥٤ .

(٣) أخرجه الترمذى ، الجامع ٤/١٤٢ ، رقم ٢٧٩٥.

(٤) عن الهيثمى ، نور الدين على بن أبى بكر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٦ .

(٥) سنن ابن ماجه ، رقم ٢٦٤ .

ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[1]، فإلى هذه الدرجة يبلغ التحذير من كتمان المعرفة ، فالعمل بما جاء به هذا الحديث يدفع كل مسلم عرف قدرا من العلم أن يسرع بتبليغه إلى آخرين لا يعرفون ، ولعمرى ، فكأننا هنا بالفعل أمام هذه المقولة الشهيرة ، ألا وهى المجتمع المعلم المتعلم .

ومن المعروف أن المربين القدامى والمحدثين ، بما فيهم من يسمون عمالقة التربية وأساطينها ، كانت نظرتهم لساحة الرؤية فى عملية التنشئة التربوية محدودة ومحصورة ضمن حدود جغرافية متحكمة ، أو قيود عنصرية مصطنعة أو هما معا [2]، فأساطين التربية اليونانية مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كانت جهودهم التربوية كلها ونظرياتهم فى حدود مدينة واحدة : أسبرطة ، أو أثينا ، وللصبيان والرجال فحسب دون اعتراف بوجود الفتيات والنساء فى كثير من الأحيان .

أما الرسول المربى محمد ﷺ ، فمنذ سنواته الأولى ، كان لا يعتبر مكة المكرمة هى الساحة التربوية المغلقة المحدودة ، كما أنه لم يعتبر الصبيان والرجال هم وحدهم المجال البشرى لعملية التنشئة التربوية الجديدة . لقد حاول تمديد ساحة العمل التربوى الإسلامى فى سنواته الأولى بإرسال أفواج من المهاجرين إلى الحبشة ، كما مر بنا ، حيث يجدون المأوى ، وحيث يجدون المناخ لنشر الفكرة ونموها هادئة وفى صمت ، وكانت الهجرة الأولى تضم عشرة رجال وخمس نسوة ، وتكررت المحاولة وزادت أعدادها من الرجال والنساء .

ثم حاول الرسول ﷺ بنفسه أن يتحسس الطائف بعيدا عن مكة حوالى مائة كيلومتر، وكانت رحلة قاسية ، ولكنها لم تضعف عزمه فى العمل التربوى الجاد .

ثم أرسل عن سابق تخطيط قاصد وفدا ، فأقام مركزا فى بلدة تبعد عن مكة المكرمة ما لا يقل عن مئات الأميال فى يثرب بالمدينة الطيبة المنورة .

وكانت أخيرا هجرته الشخصية واستقراره فى المدينة المنورة ، حيث أقام عمليا المجتمع الإسلامى المتكامل الذى كان يدعو إليه ، والذى أخذ ينمو ويتوسع ليشمل أرجاء الجزيرة العربية ، ثم إلى أطراف العالم المعروف آنذاك .

ولعله يكون من المهم التوقف بعض الشىء أمام موقف تعليمى غنى بالدلالات ، كان المعلم فيه هو رسول الله ﷺ ، وطالب المعرفة (أمى) ، لنرى كيف كان الرسول

---

(١) مسند الإمام ابن حنبل .

(٢) عبد الحميد الهاشمى ، الرسول العربى المربى ، ص ٣٢٨ .

ﷺ يقوم بمهمة التعليم لهذه الفئة من الناس ؟ نعرض لهذا الموقف ، كما هو الهدف فى كل ما نعرض مما يماثله ، لا لمجرد المعرفة ، وإنما سعيا أن يتخذه معلمونا ومربونا نموذجا يحتذى ، وقدوة يتأسون بها ·

أرسلت قبيلة سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله ، فانتظر ضمام بعيره حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ، ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه [1]·و كان ضمام رجلا جلدا ، أشعر ، ذا عينين غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب ، قال : أمحمدا ؟ قال : نعم ، قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك فى المسألة فلا تجدن فى نفسك · قال : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك · قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا ؟ قال : اللهم نعم · فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم[2] ·

وفى رواية أنه قال : يا محمد ، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال : صدق · قال : فمن خلق السماء ؟ قال: الله · قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله · قال : فمن نصب الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله · قال : فبالذى خلق السماء ، وخلق الأرض ونصب الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم· قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ؟ قال : صدق · قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ·

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ، ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين ، دخل الجنة ·

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ! قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون · قال : ويلكم ، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان،

---

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، ط٣ ، ص٤٥٥.

(٢) المرجع السابق ، ص٤٥٦.

إن الله بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا استنقذكم مما كنتم فيه ، وإنى أشهد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، قال : فوالله ما أمسى فى الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا أصبح مسلما .

ذلك وفد يمثل بساطة الأميين فى منطقهم ، وسلامة طويتهم ، فى جدلهم وتساؤلهم وخلو أذهانهم من العقد التى تعترض الحق فى سيله السمح ، ولا نكران فى أن جهاد الدعوة القديم له أثره فى الوصول إلى هذه النتائج السريعة[1] .

تقدير العلماء ودورهم فى البحث والتعليم :

قد نجد فى بعض المجتمعات أن الدولة تنفق الكثير على التعليم وتنشره بالفعل فى كل مكان ، ومع ذلك ، فإذا حاولنا أن نقيس كم العمل الذى يقوم به المواطنون الذين تخرجوا ، لوجدنا العائد ضعيفا للغاية ، ولو حاولت أن تكشف عن أسباب ذلك فقد تجد سببا هنا وسببا هناك ، ولكن السبب الذى يبرز بين الأسباب فائقا قويا ، هو ما قد لا يحظى به العلماء فى ذلك المجتمع من مكانة وتقدير .

كذلك فقد نجد عددا من المتعلمين يتركون الوطن الذى أنفق عليهم الكثير ليهاجروا إلى بلاد أخرى ، ولو فتشت عن الأسباب أيضا فسوف نجد من أهمها وأبرزها السبب نفسه : إنهم لا يشعرون بأن المجتمع يعطيهم حقهم من الاعتبار والتقدير ، ولعلنا نذكر تلك الفترة التى مرت بمصر ووجد فيها عدد من أساتذة الجامعات أنفسهم مطرودين منها أو معتقلين ، لا لشىء إلا لمجرد ملاحظات نقدية أبدوها على طريقة الحكم ، أو تجد أعمالا هامة يقصى منها مستحقو توليها من أصحاب العلم والدراية ليحل محلهم أناس آخرون بحجة أنهم أهل ثقة ويمكن الاعتماد عليهم !

من هنا نشعر بالإعجاب والتقدير لتلك المنزلة الرفيعة التى رفع الرسول الكريم إليها العلماء فأسبغ عليهم الكثير من آيات الاهتمام والتعظيم مما يغرس فى نفوسهم الثقة بالنفس والحماس للعمل ، ولنتأمل طائفة من الوقائع والأحاديث التى تؤكد لنا هذا المبدأ التربوى الهام . . .

فقد جاء فى الحديث الشريف قوله ﷺ : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥٧

الله» . ولسنا ندرى أى منزلة يمكن أن تعلو على هذه المنزلة التى يفضل فيها الرسول العظيم ﷺ ذلك المداد الذى يكتب به العلماء على الدماء التى يسكبها المجاهدون فى سبيل الله !! ولعلنا نفهم بطبيعة الحال أن المداد المستخدم هنا ، لابد أن يكون أيضا مستخدما فى سبيل الله .

وبالمعنى نفسه ، تجىء مرويات أخرى عن الرسول الكريم[1]:

- « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ».

- «للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة» .

وقد أوحت هذه المنزلة التى أحلها الرسول ﷺ للعلماء ، لبعض الشعراء أن يعبروا بأسلوبهم عن المعانى نفسها ، فقال أحدهم [2]:

أهلا وسهلا بالذين أحبهم	وأودهم فى الله ذى الآلاء
أهلا بقوم صالحين ذوى تقى	غُرّ الوجوه وزين كل ملاء
يسعون فى طلب الحديث بعفة	وتوقرٍ وسكينة وحياء
لهم المهابة والجلالة والنهى	وفضائل جلَّت عن الإحصاء
ومداد ما جرت به أقلامهم	أزكى وأفضل من دم الشهداء
يا طالبى علم النبى محمد	ما أنتم وسواكم بسواء

ومن الواضح أن الشاعر يكاد يقصر التقدير و علو المكانة هنا على علماء الحديث، ولكنا - اتساقا مع منطق الإسلام نفسه - نرجح أن التقدير و علو المكانة مما هو حق للعلماء على وجه العموم ما دامت دراساتهم وبحوثهم تسير على النهج الذى يؤكد شريعة الله ومبادئ الإسلام والقيم التى بشر بها رسول الله ﷺ ، فليست المسألة فقط هى (موضوع) العلم الذى يعمل به العالم ، وإنما هى كذلك ، بل وبالدرجة الأولى - دوافعه وأهدافه والنظام القيمى الذى يحكم ما يعمله .

وروى عن ابن عباس- رضى الله عنه- أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس : ياسيدنا ، مالنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت عابد ؟ فقال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد قائم يصلى ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك فانصرف ، فقال له إبليس:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص٣٧.

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

هل يقدر ربك أن يجعل الدنيـا فى جوف بيضة ؟ فقال : لا ، فقـال : أترونه كفر فى ساعـة ! ثم جاء إلى عـالم فى حلقة يضـاحك أصحـابه ويحدثهم فقـال : إنا نريد أن نسألك ، فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال : نعم ، قال : وكـيف ؟ قال : يقـول لذلك إذا أراده كن فيكون . قـال إبليس : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كبيرا[1] ؟

وإذا كان من الواضح أن هذه الرواية تنحو نحو الرمزية أكثـر منها تشير إلى واقعة - إلا إذا كانت منقـولة عن الرسول ﷺ ، وإن كـان ابن عبد البـر لا يقول ذلك - إلا أنها، على أية حـال تؤكد المعنى نفســه ، وتذهب المذهب نفسه ، وهو أن العالم أكـثر قدرة على السلوك وفقا للأسس السليمة للإيمان ، بينما العابد عن غير علم ، قد يخطئ فى ذلك .

وقد أكد الرسول ﷺ على شكل آخر من أشكال التكريم والتبجيل والتى عبر عنه بقوله: «إن فضل العالم على العابد كفـضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلمـاء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبـياء لم يورثوا دينارا ولا درهمـا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2]، وبتأمل هذا النص يمكن لنا أن نستنبط ما يلى :

أ - العالم أفضل من العابد ، وذلك لأن العـالم يتعدى نفعه شخصـه إلى كثيرين ، فهو يشبـه القمر الذى يضىء الآفاق ، ويمتد نوره فى أقطار العـالم ، وأما العابد ففعله يكاد أن يقتصر عليه وحده .

فالعبادة بالمعنى الاصطلاحى ، وإن كانت لها مقاصـد اجتماعية واقتصادية ، إلا أن آثارها تبـقى محـدودة فى الزمان والمـكان ، فى حين أن العلم لا يعرف الحـدود ولا يتقيـد بالفوارق الزمنية ، ثم إن الله تعـالى لما خلق الإنسان لم يخلقه فقط لـيجازيه أو يعاقبه يوم القـيامة بإدخاله الجنة أو النار ، فحكمة الله تعـالى أسمى من ذلك ، فخلق الإنسان له غـاية تتجاوز ملء الجنة وجهنم يوم القـيامة بالمتقين والكافـرين ، قال بعض العلماء إنه لا يخـامرنا شك فى أن الشريعة ما طلبـت من الناس الإيمان والإسلام لمجرد تعـميـر العـالم الأخـروى من جنة ونار ؛ لأن الله تعـالى قـادر على أن يخلق لهـذين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم٤/ ٥٧ .

الموضعين خلقا يعمرونهما إن شاء خلقهما ، ولكن الله أراد تعمير العالمين الدنيوى والأخروى ، وجعل الدنيا مختبرا تصقل فيه النفوس البشرية[1].

وقد أدرك كثير من السلف هذا الفضل فحرصوا على الاجتهاد فى العلم أكثر من حرصهم على الاجتهاد فى العبادة ، قال ابن عمر : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة [2]، وعن سفيان الثورى والشافعى : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم[3].

ب - أن العلماء ورثة الأنبياء ، وحسبنا بهذه الدرجة مجدا وفخرا ، وبهذه المرتبة شرفا وذكرا [4]، فكما أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، فليس هناك ما يمكن أن يكون فوق شرف وارث تلك الرتبة . وإذا لم يترك الأنبياء ميراثا ماديا لأهلهم وذويهم ، فإنهم تركوا للإنسانية ميراثا به تنمو المادة وبفضله تتقدم الحضارة ، وفى ظله تظهر القدرات الإنسانية ، وتكون الخلافة فى الأرض كما أراد الله تعالى . إن هذا الميراث يتمثل فى العلم ، أو قل فى الثوابت العلمية التى بفضلها تتطور العلوم وتنمو وتعطى أكلها . إنه ميراث شامل ودائم ، وهو إلى جانب ذلك متحرك ومتطور ، ولا يعرف الحدود ، ولا يخضع للملكية الخاصة الضيقة . إنه الميراث الذى باستطاعته أن يسعد البشرية وأن يجعلها تنتقل من طور إلى آخر ، وتتحكم فى كثير من العناصر تحكما تتحقق بفضله مشيئة الله تعالى وحكمته من خلق الإنسان ، فلا عجب إذا كان هذا الميراث بين كل الذين تتوافر فيهم شروط الحصول عليه[5].

وروى عن مالك بن أنس [6] أن النبى ﷺ قال : «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل» ، وأنه قال : «إن بين يدى الساعة أياما يرفع فيها العلم ، وينزل

---

(١) محسن بن محمد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١٥٣.

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم ، فى :(هشام نشابة محقق : التراث التربوى الإسلامى فى خمس مخطوطات ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٨)، ص١٠٤.

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) سليمان العيد : المنهاج التربوى فى دعوة الشباب ، ص ١٤٢.

(٥) محسن بن محمد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١٥٢.

(٦) صحيح مسلم ، كتاب العلم .

فيها الهرج » . وقال : «إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعا ،ولكن يقبض العلماء ، فيرفع العلم معهم ، ويبقى فى الناس رؤساء جهال يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون» .

ولا شك أن هذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أهمية العلم فى الحياة ، مما يدفع الناس الواعين بهذه الأهمية إلى طلبه والعمل به ، فاليوم الذى يرفع فيه العلم بين الناس ويفشو مكانه الجهل ، هو من أشراط الساعة ، وذلك لأنه بذهاب العلماء من بين الناس يبقى الجهال ، ولا نجاح لهم فى حكم الناس وإدارة شئونهم لأنهم إن أفتوا الناس أو أرشدوهم فعلوا ذلك دون علم أو معرفة فأخطأوهم فى فتواهم أو إرشادهم وأوقعوا من التمس منهم الصواب والهداية فى الخطأ والضلال ، وهذا لعمرى من أوضح الأدلة على أن الإسلام يدعو إلى الرئاسة المتنورة ، أو الرئاسة العالمة ، كما دعا إلى ذلك أفلاطون فى كتابه المعروف باسم (الجمهورية)[1].

وإذا كانت هذه هى مكانة العلماء ، ودرجة تقديرهم فى السنة النبوية الشريفة ، فلا يغيب عن الأذهان أنهم يستحقونها بمدى جهدهم وبعلمهم وسعيهم فى تحقيق مقاصد الشريعة ، وجهدهم هذا ، يتبدى فى عملين : الأول ، هو البحث والدراسة والكشف عن الجديد ، والثانى ، هو إشاعة وإذاعة ونشر ما توصلوا إليه ليعرفه سائر الناس ويتعلموه .

وبالتالى فإلى جانب المسئوليات العامة التى كلف الله بها الإنسان ، فإن لأهل العلم مسئوليات خاصة يتحملها كل منهم إذا كان قائما بالتعليم أو التعلم .

ولعل أهم هذه المسئوليات بذل الجهد لتطوير العلم وتنمية المعرفة ، فما سبق ، وما سوف يأتى من أحاديث ومواقف الرسول ﷺ، يؤكد المقولة التى تقرر أن العلم لا يعرف النهاية ، وأنه متجدد ومستمر ، وأنه ينمو بفضل ما يقدمه العلماء وما يتناولونه من مباحث وما يفتحونه من أبواب ، وما يثيرونه من قضايا فكرية، وما يصنعونه من آلات ومعدات ، وهذه الأمور لا تتحقق إلا إذا آمن أهل العلم بأن وظيفتهم لا تقف عند تبليغ العلم ونقله ، فذلك شرط ضرورى ، ولكنه غير كاف ، فهو فى حاجة إلى أن يضاف إليه الإبداع حتى تكون نهاية المتقدم بداية للمتأخر ، فهذا الواجب مرتبط

---

(١) عبد اللطيف الطيباوى: محاضرات فى تاريخ العرب والإسلام ، بيروت ، دار الأندلس ، ١٩٦٣، ص ٧٥ .

ارتباطا وثيقا باستمرارية العلم وبمواكبته للحداثة دون أن يكون منبتا ، فإذا أخل العلماء بهذا الواجب حكموا على العلم بالجمود ، وكانوا سببا من أسباب رفعه [1].

وتتجه مهمة العلماء دائما إلى ما فيه خير الأمة ، أو هذا هو المفروض ، ومن هنا كان حث الرسول ﷺ العلماء على الالتزام بهذا الهدف ، والتبشير بحسن العاقبة ، فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجر من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» [2] .

والمراد هنا ما يهدى به من الأعمال الصالحة ، وهو ألزم ما يكون للدعوة والتى هى صورة معينة من صور تربية الجماهير . إن النهوض بواجب الدعوة فى مواجهة الظروف القاسية أمر شاق من غير شك ، ولكنه شأن عظيم ، ومن يدعو إلى الخير فى مثل هذه الظروف كان له من الأجر والقربى إلى الله لا يضارعه عمل آخر ، قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [فصلت] .

وكان النبى ﷺ يروض نفوس العرب بالمنهج الربانى للانقياد إلى الأعمال الخيرة والاعتياد للسلوك الكريم والاندفاع نحو معانى الخير فى مناسبات متعددة وفى أوقات متقاربة ، عن أنس بن مالك قال : «أتى النبى ﷺ رجل يستحمله فلم يجد عنده ما يحمله فدله على آخر فحمله ، فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال : إن الدال على الخير كفاعله»، لإعانته عليه ، فإن حصل ذلك الخير فله ثوابه ، وإلا فله ثواب دلالته[3].

ولأن شخصية الرسول ﷺ هى النموذج وهى القدوة ، كان على علماء المسلمين أن يتمعنوا جيدا فى عدد من الخصال التى ميزته ﷺ وكانت تشكل أسسا هامة لدوره التعليمى ، ومن ثم فإن العالم المسلم ليس مجرد ناقل للمعرفة ، ولا هو مجرد باحث عنها ، كما أنه ليس مجرد مطور لها ، وإنما هو مع كل هذا نموذج إنسانى يفكر بكليته ويعمل بشمول شخصيته ، بحيث تصبح الجوانب الشخصية ركنا هاما وليست شأنا خاصا ينظر إليه وكأنه أمر ثانوى .

---

(١) محسن بن محمد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١١٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب العلم ، ج١٦ ، ص ٣٤٧ .

(٣) محمد لقمان الأعظمى : دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، ص ٣٩١ .

ولعل **أول** ما اتسمت به شخصية المصطفى ، هو حسن سيرته ، وصحة سياسته، فى دين نقل به الأمة عما ألفته من موبقات وسيئات أعمال وانحراف تفكير ، إلى عالم آخر يتطلب مجاهدة نفسية ومجاهدة بدنية ليصل بصاحبه فى النهاية إلى الفوز بالرضا الإلهى .

وثانى هذه الخصال هذه القدرة الفذة حقا التى مكنته ﷺ من أن يجمع بين فريقين من الناس ، فريق يجئ رغبة وحبا واقتناعا ، وفريق آخر يجىء رهبا لاختلاف الشيم والطباع فى الانقياد الذى لا ينتظم إلا بأحدهما ، ولا يستديم إلا بهما ؛ فلذلك صار الدين بهما مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا[1].

وثالثا ، أنه عدل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط ، وخير الأمور أوساطها.

ورابعا ، أنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا ، ولا إلى رفضها ، وإنما أمرهم فيها بالاعتدال ، فقال فى ذلك : «خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه »[2].

وخامسا ، ما منح من السخاء والجود ، حتى جاد بما يملك على قلته ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى ، حيث قالت فى ذلك السيدة عائشة : «توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير»[3] .

وسادسا ، اتسامه بالحلم والوقار ، فلا طيش يهزه ، أو حمق يستفزه ، وقد تناولته قريش - كما رأينا - بكل كبيرة ، وقصدته بكل جريرة ، وظل صابرا عليهم ، معرضا عنهم ، فلما ظفر بهم عام فتح مكة ، واجتمعوا إليه ، قال: « ما ظنكم بى ؟ قالوا: ابن عم كريم ! فإن تعف فذاك الظن بك ، وإن تنتقم فقد أسأنا ، فقال : بل أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف].

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص٥٣.

(٢) عن المرجع السابق ، ص٥٤.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن السيدة عائشة .

وحرص رسول الله ﷺ على انتقاء مجموعة من صحابته ليقوموا بمهام العلماء ، فعلى الرغم من عموم حسن خلق صحابته- رضى الله عنهم- ، إلا أن ذلك لم يكن مبررا كافيا كى يتصدوا لمهمة علمية تعليمية ، وهو فى اختياراته هذه كان يحرص على أمور أهمها [1]:

١- **كثرة العلم** ، فالمتأمل فى صحابة رسول الله يجد أن عددا غير قليل منهم والحمد الله كانوا حريصين على التعلم وتحصيل العلم ، مثل على بن أبى طالب ، وابن عباس، وابن عمر ، ومعاذ بن جبل ، وأبى هريرة ، وغيرهم، فقد سئل على بن أبى طالب : مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثا ، فقال : إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكت ابتدأنى [2] .

وأما أبو هريرة ، فقد حفظ من رسول الله ﷺ ما لم يحفظه غيره ، مع تأخر إسلامه، وقصر صحابته لرسول الله ﷺ ، وذلك لشدة حرصه ، وكثرة ملازمته للرسول ﷺ .

٢- **قوتهم ونشاطهم** ، ذلك أن الأمر العلمى التعليمى يتطلب صحة جيدة وقوة جسمية وحيوية ونشاطا ، لما يكون مطلوبا من العالم أن يبذله من كثرة السفر ارتحالا وراء المعرفة، وسهر الليالى ، وبذل المشقة ، والصبر ، والمثابرة .

٣- **قلة التعلق بالدنيا** ، ذلك لأن الاشتغال بالعلم يتطلب كثرة الإنفاق فى سبيل تحصيله ، وفى الوقت نفسه يحتاج أن يكون طالبه عفيف النفس لا يترخص ، ولا يذل نفسه أمام من يتصورون أنهم يستطيعون بما يملكون أن يوجهوا العمل العلمى فى اتجاه مصالح ذوى السلطة أو فى غير الحق ، أو من أجل الافتئات على الحقيقة ، وهذا أمر أشد ما نكون حاجة إليه فى عصرنا الحاضر ، حيث تتعدد الاحتياجات المعاشية وتتنوع، وبخاصة من كانوا من ذوى الأولاد والمطامع الدنيوية ، مما يفتح الباب أمام الإغراء .

كذلك حرص رسول الله ﷺ على أن يؤكد على من يمارسون مهاما علمية أن يخلصوا النية ويبتغوا مرضاة الله ، فعن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»[3] ، ولما كانت المحاسبة الإلهية بناء على النية ،

---

(١) سليمان العيد : المنهاج النبوى فى دعوة الشباب ، ص٣٥٩.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ،٢.

(٣) صحيح البخارى ، ج١ ، ص٣٠.

فهذا من شأنه أن يدفع كل عالم على الحرص على أن تنعقد نيته على خير الأمة ، وألا يستصغر تصرفا يأتيه ، وإنما يحيط كل ما يفعل ويؤسسه على النيـة الطيبة والعزم على سلوك طريق الحق ، فـعن ابن مسعـود عن النبى ﷺ أنه قال : «لا تزول قـدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمـره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم[1]، وفى حديث أبى ذر الأسلمى : ... وعن علمه فيما فعل» [2].

ففى هذين الحديثين حث قوى على الإخلاص فى العمل الذى يكتسبه الإنسان ، وأنه من الإخلاص أن يعمل بما يقول ، وأن تتفق أعماله مع أقواله .

أما التقوى وحـسن الخلق ، فهما مدخلا العمل التـربوى على وجه العموم ، لما هو معروف من أن العملية التربوية هى عمليـة خلقية بصفة خاصة ، والعمل العلمى إن لم يرتبط وينضبط بالأخلاق فمن الممكن أن ينقلب على رأس الإنسـان ليحيل حياته إلى جحيم . ومن هنا كـان إلحاح الرسول ﷺ فى إعداده الصحـابة على الالتزام الخلقى ، فمن ذلك قوله ﷺ : «اتق الله حيثما كنت وأتبع السـيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن»[3] .

لكن متسائلا قد يتساءل : كـيف يكون كل هذا ، وهناك الكثير مما سيأتى بيانه ، ورسول الله نفسه كان لا يعرف القراءة والكتابة ؟

والإجابة عن هذا تتلخص فى أمرين :

أولهما ، أن المعجزة الكبرى للإسلام - كما سبق أن شرحنا وبينا بالتفصيل[4] - هى فى القرآن المجيـد بكل مظاهر الإعجاز ، وأظهرها لغته ومـا فيه من علم ، فلو أن الرسول ﷺ كان يعـرف القراءة والكتابة لكان هذا فرصة لا تعوّض للناكـرين الجاحدين للحق للطعن بالقول بأن القرآن من إنشائه وصنعـه ، أو على الأقل فإن ما عرفه الرسول ﷺ يكون قـراءة من كتب الآخـرين . من هنا كـانت حكمة الله- عـز وجل- فى أن

---

(١) الألبانى : صحيح سنن الترمذى ، ج٢ ، ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٠.

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٩١.

(٤) سعيد إسماعـيل على : القرآن الكريم ، رؤية تربوية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٠ ، الفصل الأول.

يكون خاتم المرسلين لا يقرأ ولا يكتب ليبقى الاحتمال الصحيح ، وهو أن ما جاء به من قرآن ، إنما هو من لدن عليم خبير ، هو الخالق العظيم سبحانه وتعالى ·

ثانيها ، أن هناك فرقا بين (الجهل) و (الأمية) ، فليس كل أمى جاهلا ، وليس كل جاهل أميا ، الأمى هو من لا يقرأ ولا يكتب ، والجاهل من لا يعلم ما ينبغى أن يعلم ، وليس العلم كله منوطا بقراءة وكتابة ، وليس كل ما هو مكتوب مقروء علما يكون الجهل به وصمة تنتقص من قدر من لا يقرأ ولا يكتب[١].

والبشرية اخترعت القراءة والكتابة فى وقت متأخر نسبيا من تاريخها المعروف ، بعد أن قطعت فى مدارج الحضارة والتعلم والخبرة أشواطا عسيرة شاقة ، فإذا كانت البشرية وهى تقعد القواعد من بناء حضارتنا وتوطد لها الأساس لم تكن قد عرفت القراءة والكتابة ، فكان البشر كلهم أميين ، فهل كانوا لهذا السبب جهالا كلهم بغير استثناء ؟ محال عقلا أن يكونوا كلهم جهلاء ، بل كانت لهم معرفة ، وكان ثمة تفاوت بين آحادهم وعشائرهم فيما تيسر لهم من الخبرات والمعارف [٢].

فليس هناك إذن تلازم بين الجهل والأمية ، أو بين علم وقراءة وكتابة ·

إن القراءة لا تعدو أن تكون بابا للتلقين عند أكثر الناس ، ومثلها كمثل فتحة الفم ، يدخل منها الطعام ، ولكن هضم الطعام وتمثله حتى يصير دما وحرارة سارية فى العروق والخلايا أمور تتوقف على المعدة والأمعاء والكبد ، وما إلى ذلك من الجوارح فى جسم الحيوان والإنسان ، فدخول الطعام فى الفم وهضمه شىء آخر ،وحصول الفائدة أو الأذى منه شىء ثالث ·

كذلك القراءة ، قد يتلقن منها الناس أمورا تدخل عن طريق العين ، ولكن هضم هذه الأمور يتم عن طريق العقل ، فهو الذى يحلل المعلومات كما تحلل المعدة الغذاء كى يحتفظ بالنافع منها وينبذ ما يتأذى منه أو ما لا يتفق مع طبيعته[٣] ، فالقراءة إذن شىء ، والفهم أو التمييز شئ آخر ، وحصول الفائدة والأذى شىء ثالث .

والتفاوت فى الإفادة كبير جدا بين القارئين فى الموضوع الواحد ، بل فى الصحيفة الواحدة · هذا التفاوت الضخم شبيه بحقل واحد مزروع بالبرسيم ، مثلا ،

(١) نظمى لوقا : محمد فى حياته الخاصة ، القاهرة ، مكتبة غريب ، د٠ت ، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١.

(٣) المرجع السابق ، ص٢٤.

أتاه فأكل منه حمار ، وأتته فأكلت منه نحلة ، طعامهما واحد بالضرورة ، ولكن شتان بين ما يخرج من جوف الحمار بعد هذا الطعام ، وما يخرج من جوف النحلة.

فالمعول إذن على العقل الذى يهضم المعلومات - أيا كان مصدرها من قراءة أو سماع - ويرتبها ويقيس عليها ويستدل منها ، فذلك العقل مختلف جدا عن عقل تصل إليه المعلومات فلا يمحصها ولا يهضمها ولا يرتبها ولا يقيس عليها ولا يستولد منها ، تدخل إليه المعلومات لتظل جامدة على حالها،

تحفظ منها ذاكرته ما تحفظ وتنسى ما تنسى ، فهى أشتات جزئية مثل مجموعة حبوب فى زجاجة وقد يكون العقل النابه لأمى دون قارئ ، وقد يكون لأمى دون أمى آخر ، وقد يكون لقارئ دون قارئ آخر [١] .

لكن قارئنا يمكن أن يسأل : هل تنقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه ، فى نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة؟

ويجيب شيخنا الغزالى بالنفى بطبيعة الحال على مثل هذا التساؤل[٢]، ذلك أن الأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق التى يتعلم بها أمثالنا - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم فى طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما تعودنا من أساليب .

ولعل هذا ما يدفعنا إلى طرح تساؤل آخر يجلى المسألة أكثر ، فما العلم الذى به ترقى النفس الإنسانية حقا ؟ هل هو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين ؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، فهناك ببغاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعى ، وقد نرى أطفالا صغارا يلقون - بإتقان وتمثيل - خطبا دقيقة لأشهر الساسة والقادة ، ومع ذلك فلم يتحول الأطفال بما حفظوا من كلام الزعماء إلى رجال كبار ، ولا أصبحت الببغاوات بشرا .

وقد شبه القرآن الكريم أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحمير ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... (٥) ﴾ [الجمعة] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦.

(٢) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ٧٠ .

وقد بلونا أناسا ظلوا يتعلمون قرابة عشرين عامـا تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عـشواء ، فإذا عرضت القضية نفسـها على أمى سليم الفطرة ، نقى العقل ، صدع فيـها بالحق لأول وهلة ، ومعنى ذلك أن هناك من تبـذل فى إقامة عوجـه العقلى عشرين سنة ، حـافلة بالبحث والدرس ، فتعجز عن الوصـول به إلى مرتبة رجل أوتى رشده بأصل الخلقة[١] .

ونحن موقنون من مطالعـة سيرة مـحمد ﷺ بأنه طراز رفـيع من الفكر الصائب والنظر السديد ، وأنه - قبل رعى الغـنم وبعده ، وقبل احتراف التجـارة وبعدها - كان يعيش يقظ القلب فى أعماء الصحراء ، صاحيا بين من عميت قلوبهم وعاشوا غافلين ·

إنه وإن كان أميا لا يعـرف القراءة والكتابة ، المحصورتين فيـما هو مسطور على صفحات الورق ، فـقد كان له من الحكمة والذكاء وبعد النظر والفطنة مـا جعل حواسه تستقبل من المعارف والمعلومات ما تكون نتائجه مكونة لمرب عظيم ، وهذه قراءة من نوع أكثر اتساعا تكون فيه الدنيا كلها كتـابا غير مسطور ، ولكنه مشهود ، لا يستطيع قراءته حق القراءة إلا لمن أوتوا الكثير من سلامة الـفطرة ورفعة الذوق ، وعمق الفهم ، وقوة الإيمان ·

لقد كان الرسول ﷺ مـستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى تـربية البشر وبناء الإنسان :

-كانت له فصاحة اللسان واللغة ·

-وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة ·

-وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته المبالغة على نجاحها [٢] ·

الشخصية المؤمنـة :

لابد أن يكون لكل تربية هدف مركزى يعد المخطط التصميمى لما ينبغى أن تكون عليه الشخصـية المبتغاة ، ويصبح وكأنه هو المعين الأسـاسى الذى يغترف التربويون منه سائر عناصر وجوانب العملية التربوية ·

---

(١) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٧١ .

(٢) عباس محمود الـعقاد : عبقرية محمد ، القاهرة ، دار الهـلال ، سلسلة كتاب الهلال ، يونية ١٩٥٢ ، ص ٢٨ .

والمستقرئ للعديد من جوانب التربية الإسلامية ، يستطيع أن يلمس أن (الشخصية المؤمنة) هى هذا الهدف المركزى ، والقضية الأم لكل قضاياها ومسائلها ووسائلها ووسائطها ، والذى يلخصه قول المولى عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذرايات].

وإذا كانت عبادة الله هى القضية المركزية للتربية الإسلامية ، وهى خلاصة العقيدة الإسلامية ، فهل هناك من ضرورة لمثل هذه العقيدة أن تكون مرتكزا لتربية فعالة؟

الحق أن الخبرة البشرية طوال التاريخ تؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة قويمة بغير عقيدة يؤمن بها ، فهو بفطرته يستشعر حاجة طبيعية للإيمان ، تتطلب إشباعا ملحا يشبع فى نفسه السكينة والراحة ، وهو بدون عقيدة يفقد راحته النفسية والعقلية ، لأن وجوده يصبح بغير معنى ، وحياته بغير غاية ، خاصة عندما تنعدم لديه الآمال فى حياة أخرى باقية يعوض فيها عما يلقاه من آلام ومتاعب فى الحياة الدنيا [1] .

وقد ارتكزت الدعوة الإسلامية على تلك النزعة الفطرية لدى الإنسان للتدين والإيمان التى ولد بها ، وجعلها الله كامنة فى نفسه ، وتظهر بالدعوة الرشيدة والتربية الواعية ، والهداية المستنيرة إلى دين الحق . وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى هذه الحقيقة ، وذلك بتأكيده على وجود إحساس غريزى بالإيمان بالله العلى القدير ، خالق الكون ، وهو الإحساس الذى يشعر به المرء عندما يتحرر من الميول والنزعات أو من تشتت الفكر بسبب الأعمال الرتيبة الجامدة ، أو عندما تدهشه مشكلة أصل الوجود ، أو عندما تجابهه المشاق والصعاب ، أو يحالفه سوء الطالع وتلم به النكبات فلا يستطيع التغلب عليها وحده [2].

كذلك فإن النظرة العامة إلى الوجود التى يأخذ بها الإنسان ويعتقد بحقائقها ، ويتخذ منها عقيدة له وفلسفة لحياته ، هى الأصل الذى تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته السلوكية ، وهى المحرك الخفى لأفكاره وسلوكه ، وهى أساس اختلاف

---

(١) عبد الحميد الصيد الزناتى : أسس التربية الإسلامية ، ليبيا - تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

الحضارات والثقافات [1]، وهو ما ركز عليه القرآن الكريم فى نظرته الواقعية العميقة لمسألة التغيير السلوكى والبناء الراسخ للشخصية ، حيث نبه إلى أن مركز الثقل فى أى عمل تاريخى موفق ، هو تغيير النفس ، انطلاقا من ضبط قناعاتها مع السنن التى فطر الله الخلق عليها كما فى قوله- سبحانه وتعالى- : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (11) ﴾ . [الرعد]

ولا شك أن أول ما يغير فى النفس ويضبط ، هو معتقدها وتصورها عن الله والكون والحياة ، قبل أى شىء آخر ، فهو أولوية الأولويات ، والمضغة التى إذا صلحت صلح البناء كله [2]، فالإصلاح العقيدى ، هو الأرضية الصلبة التى تشاد عليها صروح الرقى الفكرى والروحى والأخلاقى والعمرانى كلها ، وتنطلق منها مسيرة الشخصية الإنسانية نحو عالم الصحة والسواء والفاعلية .

وقد تركزت تربية الرسول ﷺ فى تلك الأركان الأساسية للمنظومة العقيدية الإسلامية ، وهى التى تلخصها العناصر التالية[3]:

أ - المعرفة بالخالق سبحانه - بأسمائه وصفاته ، والمعرفة بدلائل وجوده ، ومظاهر عظمته فى الكون والطبيعة ، وهذه المعرفة لا تكون إلا عن طريق التربية والتعليم، ومن شأنها أن تفجر لدى الإنسان المشاعر النبيلة ، وتوقظ حواس الخير، وتربى عادة المراقبة لله تعالى فى كل شىء ، وتبعث على طلب معالى الأمور ، وأشرفها وتنأى بالإنسان عن محقرات الأعمال ، وسفاسف الأمور، والمعاصى ، والمنبهات .

ب - المعرفة بعالم الغيب ، وما فيه من قوى الخير التى تتمثل فى الملائكة وقوى الشر التى تتمثل فى إبليس وجنوده من الشياطين ، وهذه من شأنها أن تدعو الإنسان إلى الوعى الكامل ، واليقظة التامة ، فلا يتصور منه إلا ما هو حسن ، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة .

---

(1) الطيب برغوث : منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى حماية الدعوة ، واشنطن ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٦ ، ص ٢٤٢ .

(2) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(3) السيد سابق : العقائد الإسلامية ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٩ ، ص ٨-١٠ .

ج - المعرفة بالكتب المنزلة من الله- سبحانه- لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام ، والحسن والقبيح ، وهذه المعرفة إنما هى عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه الله للإنسان، كى يعمل بالسير عليه إلى كماله الروحى والمادى .

د - المعرفة بأنبياء الله ورسله - عليهم السلام - الذين اختارهم سبحانه ليكونوا أعلام الهدى ، وقادة الخلق إلى الحق ، وهذه المعرفة إنما يقصد بها ترسم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم ، والتأسى بهم ، باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة، والحياة القويمة التى رضيها الله لعباده ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (٩٠)﴾ [الأنعام].

هـ المعرفة باليوم الآخر ، وما فيه من بعث ، وجزاء ، وثواب ، وعقاب ، ، وجنة، ونار ، وهذه المعرفة أقوى باعث للإنسان على فعل الخير وترك الشر .

و - المعرفة بالقدر الذى يسير عليه نظام الكون بحكمة الله فى الخلق والتدبير ، وهذه تزود الإنسان بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب ، وتصغر دونها الأحداث الجسام [(١)].

وتتوجه أحاديث الرسول الكريم فى جوانب مختلفة من قضية الإيمان ، فمنها على سبيل هذه الصيغة التى تتجلى فيها عظمة الرسول من خلال هذه البصيرة الفذة بطبيعة الإنسان التى تنحو به دائما نحو ما يحب ، وحتى يتجه بكليته إلى الإيمان يؤكد الرسول ﷺ لنا أن الإيمان به من الحلاوة ما يفوق ما يمكن أن يعطيه لنا أى مصدر آخر من حلاوة ، فيقول : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»[(٢)] .

يقول الإمام النووى : إن هذا حديث عظيم ، أصل من أصول الإسلام ، وقال العلماء أن المقصود بحلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشاقات فى رضا الله- عز وجل- ورسوله ﷺ ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا ، ومحبة العبد ربه- سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك محبة الرسول ﷺ[(٣)] .

---

(١) سند الحربى : التعليم فى المدينة المنورة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ص ٩٦ .

(٢) مسند الإمام ابن حنبل ، ج٣ ، ص ١٠٣ ، ١١٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج٢ ، ص١٣ .

وحلاوة الإيمان تتطلب أن يقطع المؤمن مراحل الحلاوة المشار إليها فى الحديث بالطريقة التالية[1]:

أولا - المحبة الخالصة لله وللرسول بأن يعطى محبته وولاءه لله ؛ لأن الله سبحانه يستحق هذه المحبة وهذا الولاء لكونه الخالق الأوحد ، ولما أسبغ على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة ، ولأنه سخر الكون لمصلحة الإنسان ، ويستحق هذه المحبة وهذا الولاء لافتقار العبد إليه واعتماده فى كل الأحوال عليه .

ثانيا - أن يختار الإنسان طاعة الله ورسوله على هوى النفس وغيرها .

ثالثا - أن يتوجه الإنسان بقلبه وما يمكن أن يكون فيه من طاقات حب إلى الرسول ﷺ، لكونه الأسوة الحسنة لمن يتطلع إلى المعالى ويستشرف الجلال والكمال ، وهذا مصداق لقوله- عز وجل- : ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...**(٣١)﴾ [آل عمران] .

ولعل مما يمكن روايته بهذا الصدد نموذجا لما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من حب له ، قصة نسيبة بنت كعب الأنصارية ، فقد قتل أخوها وأبوها وزوجها شهداء يوم أحد، فقالت لما أخبرت بذلك : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، فهى لم تتوقف عند خبر كل هذا العدد ممن هم أقرب إليها من حيث روابط الدم والرحم ، بل كان همها الأول أن تطمئن أولا على رسول الله ، فلما أجابوها بأنه بخير والحمد لله ، أرادت أن تطمئن برؤيته فطلبت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك هينة [2].

ويبشر ﷺ المؤمنين بأن مكانهم الجنة ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان[3] فها هنا يرسم الرسول ﷺ صورة جليلة للإيمان ، ذلك أن الإيمان طاقة تظل فاعلة لا ينتهى مفعولها ، ولا ينضب معينها ، ومن هنا فإن نقطة البدء فى ترشيد الفطرة الإنسانية ، حتى تخرج من الأكمام إيمانها ، إدراك أن هذا الخلق وذاك الكون لم تنجبهما صدفة عمياء ، بل هما من صنع أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين[4].

---

(١) محمد لقمان الأعظمى : دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧ .

(٣) أخرجه الترمذى وصححه .

(٤) خالد محمد خالد : لقاء مع الرسول ، القاهرة ، دار ثابت ، ١٩٩١ ، ط٢ ، ص ٣٢ .

ويؤكد الرسول هذا فى حديث آخر [1] يقول فيه : «من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل» .

وقوله ﷺ على ما كان عليه من العمل يصلنا بالشكل الخارجى للإيمان ، وهو لا يقل فى ضرورته عن ضرورة الإيمان ذاته ، فالله سبحانه حينما يتحدث فى قرآنه العظيم عن الإيمان يتبعه بالحديث عن العمل ، وحين يتحدث عن المؤمنين ، ينعتهم بأنهم الذين يعملون الصالحات، يقول ﷺ: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها ، وكان بعد ذلك قصاص، كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله تعالى»[2] .

وهكذا تحدث الرسول ﷺ مزكيا دور العمل الصالح فى الدلالة الصادقة على وجود الإيمان ، فالذين يكتفون بمجرد الإيمان بالله ، ثم ينكصون عن طاعته ، ويخف ميزانهم أو يخلو من الأعمال الصالحات ، يظل إيمانهم كسحابة صيف سرعان ما تنقشع إذا طلعت عليها شمس قوية ، وهنا نلتقى بالمفهوم الإسلامى الذى يوضح أنه : «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» ، ومعنى أن يَقِرّ الإيمان فى القلب أى يتمكن منه فيملأ على صاحبه عقله ووجدانه وكل حواسه ، ويصير مهتديا به، وأن تكون النتيجة الطبيعية أن يجىء سلوكه ، وتجىء تصرفاته متوافقة مع هذا الذى وقر فى قلبه من الإيمان .

وقد ارتبطت أهداف التربية الإيمانية التى حرص عليها الرسول بتهذيب سلوك المتعلمين فى مجالسه العلمية ، وتزكية نفوسهم وتوجيهها نحو المعالى لتستقيم حياتهم على الإيمان وحب بعضهم بعضا ، ففى مجلس علمى يوجه الرسول المتعلمين إلى ذلك بقوله : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»[3] ، ومثل هذا الحديث عندما يتمثله أفراد الأمة فى سلوكهم تصبح الأمة بالفعل ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض ، ويتم التلاحم الاجتماعى .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٣) صحيح البخارى ، رقم ١٣ .

وقال ابن مسعود : دخلت على النبى ﷺ ، فقال : «يا ابن مسعود ! أى عرى الإيمان أوثق ؟» قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : «أوثق عرى الإسلام الولاية فى الله والحب فى الله والبغض فى الله»[1]، فكأن الحب للخالق عز وجل يجب أن يكون هو الحاكم فى كل صغيرة وكبيرة ، فإن أحببنا عملا ، يكون ذلك لأن الله يحب لنا أن نفعله ، وإذا كرهنا عملا ، فلأنه سبحانه وتعالى يبغض منا أن نفعله ، وهكذا الشأن فى علاقاتنا بكل الناس ، وعاطفة مثل هذه عندما تكون هى مركز الطاقة العاطفية ، فسوف يترابط الناس جميعا بخيوط قوية تشكل نسيجا مجتمعيا يحقق مراد الله ، فيصبح هو المجتمع الأمثل ، خير رحم تتخلق فيه الشخصية المؤمنة ، مثلما رأينا ولمسنا فى مجتمع المدينة فى عصر النبوة بصفة خاصة ..

وفى مجلس تربوى ، يسأل أحد المنهومين لمزيد من المعرفة ومزيد من الهداية والإرشاد السلوكى ، موجها سؤاله إلى رسول الله : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»[2].

إن هذا الحديث ، على قصره ، هو مجمع تربوى إذا صح هذا التعبير ، فهكذا تتوثق الروابط بين (الإيمان) وبين (الاستقامة) ، فالإيمان يمثل مرحلة التأسيس ووضع القواعد ، ومرحلة الاستقامة السلوكية تمثل مرحلة البناء السلوكى .

وإذا كانت قد ترددت معانى الطاعة كلما تم تناول قضية الإيمان ، فمن المهم التأكيد هنا على أن العبادة لله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تعنى بأى حال من الأحوال طاعة القهر والسخط ، لكنها طاعة الرضا والحب . كما أنها ليست طاعة الجهل والغفلة، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة[3] .

إننا نرى فى بعض الأحيان فصولا دراسية منضبطة لا تسمع فيها همسا ، والتلاميذ صامتون مطيعون ، لكننا - تربويا - لا نسعد بهذا فى كل الأحوال ، ذلك أن السؤال المهم هو : هل يفعل التلاميذ ذلك عن حب واقتناع أم عن رهبة وخوف ؟

كذلك فنحن نرى فى حياتنا اليومية ، وخاصة فى الريف ، عددا من الحيوانات التى تطيع الفلاح وتسير حيث يريد لها أن تسير وتحمل له ما يريد لها أن تحمل ..

---

(١) الهيثمى ، مجمع الزوائد .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ٣٨ .

(٣) محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٢٠٧ .

إنها طاعات بعيدة عن معنى العبادة التى شرع الله للناس ، لأن هذه العبادة لا تعنى إلا الطاعة المرتبطة بالمعرفة والمحبة ، أى الناشئة عن الإعجاب والعرفان للجميل .

والإيمان بهذه الصورة هو الإيمان المنتج ، الذى يصنع العجائب ، ويبنى الدول ، ويقيم الحضارات ، وهو الذى يجعل الفرد يستحلى التكاليف المنوطة بعنقه ، فيقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفسه ، وليست واجبات الدين الذى يعتنقه !

إن الرسول ﷺ عندما قام يصلى حتى تورمت قدماه ، لم يكن يغالب الألم فى بدنه مثلما يغالبه تلميذ أذنب ، فأمر بأن يقف عدة ساعات معذبا مهانا .. كلا ! إن استعذاب الرسول للمناجاة ، واستغراقه فى الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبا على مظاهر الألم الناتج من طول الوقوف[1] !! .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى ، يوم لا ظل إلا ظلى»[2]، وهذا يعنى أن فضيلة الحب تقف على رأس فضائل الحياة وشعائر الدين . والحب عندما يتحدث عنه رسول الله ليس الارتباط بغرض زائل أو منفعة رخيصة ، إنما هو الحب الذى يتسامى بنفسه وبالمحبين تساميا يجعله رفيع المكان فى عالم القربات .إنه الحب من أجل الله ، وفى الله ، وحين يتحدث الرسول عن الحب ، يبدأ بتطهير منابعه ، فينحى عنه كل دواعى الوصولية والغرض[3] .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : «يقول الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتزاورين فىّ» ، ولنتصور كيف يوجب الله على نفسه هذه المثوبة الجليلة ، يوجب على نفسه حب المتحابين فيه ومن أجله ، وفى هذا تكريم للحب فى الله أى تكريم ، بل إن الحب فى الله ليرتفع عند الرسول ﷺ حتى يجعله شرطا للإيمان ، فيقول : «والذى نفسى بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»[4] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢) رواه مسلم ومالك .

(٣) خالد محمد خالد ، لقاء مع الرسول ، ص ٦٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

وإذا كان الحب فى الله ولله يقتضى التوفر على عبادته سبحانه وتعالى ، فمن الضرورى أن نعى أنه لا يمكن لعبادة أن تكون بغير علم ، فالطهارة والأذان ، والصلاة، وغيرها فى حاجة إلى العلم حتى تعرف لدى الناس ، وحتى تنجز حسب الإرادة الإلهية . والعبادة إذا افتقرت إلى العلم ، فإنها تكون عرضة إلى النقص وإلى التحول إلى مجرد حركات أو أعمال أو حتى طقوس لا يفهم القائم بها أهدافها ، ولا يكون لها تأثير على سلوكه وعلاقاته بربه وبنفسه وبمجتمعه وبالطبيعة[1] .

والتكاليف فى الإسلام ، وحتى الشرعية ، تتفاوت من حيث الدرجة بصفة مطلقة ، وحسب الظروف التى يوجد فيها الفرد أو الجماعة ، فبدون علم يبقى أمر هذا التفاوت محجوبا ، فلا ترتب التكاليف ترتيبا تفاضليا مبنيا على الأمر الإلهى أو على مقاصد الشريعة ، فقد يقدم بعضهم الإكثار من الصلاة النافلة على العلم والتفقه فى الدين ، لأنه لم يعلم أن الرسول ﷺ قد قال : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» . ولقد أدرك ابن عباس أن الجهاد يتأخر فى بعض الحالات ، من حيث الفضل، على بناء المساجد التى تقوم إلى جانب وظيفتها التعبدية ، بنشر العلم وفهمه وتطبيقه ، وفهم ابن عباس هذه الأفضلية لأنه فهم مقاصد التكاليف الشرعية ، ولأنه عاصر أحداثا وسمع أقوالا من الرسول ﷺ تفيد أن المسلم مطالب بأن يتعلم ترتيب أعماله حسب مقاييس منطقية يأخذ بعين الاعتبار ما ينتج عنها من تقوى وخشوع وقرب من الله تعالى ومنافع للفرد والمجتمع والبيئة [2] .

عن ابن عباس ، قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال : «يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف»[3] .

فها هنا يوصى الرسول ﷺ هذا الغلام بقوله : احفظ الله ، أى احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه

---

(١) محسن بن محمد : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٣) الألبانى : صحيح سنن الترمذى ، ٢ .

بالاجتناب ، فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه . ونتيجة هذا لابد أن تكون من جنس العمل ، أى أن يحفظ الله من يحفظه ، فكيف يتم هذا ؟ يتم هذا بسبيلين [١]:

أولهما ، حفظ الله له فى مصالحه الدنيوية ، مثل حفظ البدن والولد والأهل والمال .

ثانيهما ، حفظه له فى دينه وإيمانه بأن يحفظه فى حياته من الشبهات المضلة ، ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان .

وتعد العبادة عملا مكملا لبناء العقيدة ، إذ العبادة تغذى العقيدة بروحها ، كما أنها المنعكس الذى يعكس صورة العقيدة ويجسمها ومن هنا كان القول بأنه لابد ، لكى يظل غرس العقيدة قويا فى النفس من أن يسقى بماء العبادة بمختلف صورها وأشكالها ، فبذلك تنمو العقيدة فى الفؤاد وتترعرع وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها [٢].

وهذا يعنى أن على المسلم واجب التصديق الكامل بكافة مستلزمات الإيمان ، ومن ثم عليه أن يجسد ذلك التصديق الإيمانى فى أداء العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وحج ، إذ إنه بدون أداء لهذه الشعائر الدينية يكون الإيمان ادعاء لا حقيقة له ، ذلك أن شهادة التوحيد تشكل بالاقتران مع هذه العبادات البناء الكامل للإسلام ، كما بين ذلك رسول الله بقوله : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان»[٣] . ولكل ركن من هذه الأركان الخمسة أهدافه العظيمة التى يحققها من أجل بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة ، ولهذا نجد أن النبى يؤكد فى تعليمه لأصحابه على تحقيق أهداف العبادة[٤].

ومن الأمثلة التى تبين منهجه ﷺ فى هذا النوع من التعليم ، تعليمه لوفد عبدالقيس ، حيث جاء أن وفد عبد القيس لما أتوا النبى ﷺ قال : «من القوم ؟ أو من

---

(١) سليمان العيد : المنهاج النبوى فى دعوة الشباب ، ص ٢٠٥ .

(٢) محمد نور عبد الحفيظ سويد : منهج التربية النبوية للطفل ، الكويت ، مكتبة المنار الإسلامية ، ١٩٨٨ ، ط٢ ، ص ١٢٣

(٣) صحيح البخارى ، ج١ ، ص١٢ .

(٤) سند الحربى ، التعليم فى المدينة المنورة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ص ٩٨ .

الوفد؟» قالوا : ربيعة ، قال : «مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ، ولا ندامى» ، فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر حرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ، وندخل به الجنة . وسألوه عن الأشربة ، فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : «أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس » . ونهاهم عن أربع : عن الحنتم ، والدباء ، والنقير ، والمزفت، وربما قال : المقير ، وقال : «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم»[1] .

ولأن العبادة ممارسة وسلوك واعتياد كان من الضرورى أن يبدأ بالتدريب على ممارستها فى مرحلة الطفولة بصفة خاصة ، وإذا كانت الطفولة ليست مرحلة تكليف ، لكن التكليف عندما تسبقه مرحلة تعويد وتدريب ، يصبح التكليف بعد ذلك أيسر . والعبادة لله- تعالى- تفعل فى نفس الطفل فعلا عجيبا ، فهى تشعره بالاتصال بالله- عز وجل- ، وهى تهدئ من ثوراته النفسية ، وهى تلجم انفعالاته الغضبية ، فتجعله سويا مستقيما ، وخاصة أن ثورة النزعات الشهوانية فى تلك الفترة تكون بسيطة إلى حد كبير مما يجعله أكثر طواعية للانقياد إلى الصراط المستقيم .

وإن رسول الله ﷺ ليبشر الأطفال الذين نشأوا على عبادة الله- عز وجل- بشارة عظيمة ، فيما رواه الطبرانى عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من ناشئ ينشأ فى العبادة حتى يدركه الموت ، إلا أعطاه الله أجر تسعة تسعين صديقا » . وروى ابن عبد البر فى التمهيد بسنده أن عمر بن الخطاب قال : تكتب للصبى حسناته ولا تكتب عليه سيئاته [2].

ولأن القرآن الكريم هو دستور الأمة ، ومنهاج التربية الربانية ، كان رسول الله ﷺ حريصا على تعليمه المسلمين ، وخاصة بالنسبة للصبيان الصغار ، ولا شك أن فى ذلك فائدة كبرى ، وهى لأجل أن يوجه الأطفال إلى اعتقاد أن الله- تعالى- هو ربهم وأن هذا كلامه تعالى ، ولأجل أن تسرى روح القرآن فى قلوبهم ونوره فى أفكارهم ومداركهم وحواسهم ، ولأجل أن يتلقن عقائد القرآن منذ الصغر ، وأن ينشأ ويشب

---

(١) صحيح البخارى ، ج١ ، ص ٢٩ .

(٢) محمد نور : منهج التربية النبوية للطفل ، ص ١٢٣ .

على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على مناهجه[1].

ولذلك اعتنى المربون فى هذه الأمة بتعليم الصبيان القرآن ، وذلك أصل من أصول الإسلام فينشئون على فطرة ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها ، كما قال القائل :

أتانى هواها قبل أن أعرِف الهوى فصادفَ قلبا خاليا فتمكّنا

وكان ﷺ يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم قراءة القرآن بينهم وتعليمهم أمر الدين وإقامة المؤذنين ، ويروى عن الرسول قوله : «من علم ابنه القرآن نظرا غفر له ومن علمه إياه ظاهرا - أى عن قلب - بعثه الله على صورة القمر ليلة البدر» ، ويقال لابنه : اقرأ ، فكلما قرأ آية رقّى الله- عز وجل- الأب بها درجة إلى آخر ما معه من القرآن- رواه الطبرانى عن أنس ، قال الهيثمى : وفيه من لم أعرفه وقال : «ما من رجل يعلم ولده القرآن فى الدنيا إلا توج أبوه يوم القيامة بتاج فى الجنة يعرفه به أهل الجنة بتعليم ولده القرآن فى الدنيا ». رواه الطبرانى ، عن أبى هريرة

وفى رواية عن الإمام أحمد : أنه يكسى والده حلتين لا تقوم لهما الدنيا - أى لا يقدر بهما الدنيا - قال : فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، وفى رواية الطبرانى : بتعليم ولدكما [2].

وإذا كان الناس يتباهون بما عندهم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فإن النبى ﷺ يبين لهم أن تعلم آيتين من كتاب الله تعالى خير لصاحبهما من ناقتين عظيمتى السنامين ، أو خير له من ناقتين عشراوين ، وبأعدادهن من الإبل ، عن عقبة بن عامر ، قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن فى الصفة فقال : «أيكم يحب أن يغدو فى كل يوم إلى بُطحان ، أو إلى العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطع رحمهما ؟» فقلنا : يا رسول الله ! نحب ذلك ، قال : «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله- عز وجل- خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل »[3].

---

(١) محمد بن علوى المالكى الحسينى : أصول التربية النبوية ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية ١٩٩٨ ، ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣) صحيح مسلم ، ج١ ، ص٣٢١ .

ومن أساليبه ﷺ لدفع المسلمين لتعلم القرآن ، أنه جعل ما مع أحد الصحابة من سور القرآن الكريم صداقا لامرأة مؤمنة خطبها ذلك الرجل من رسول الله ﷺ ، عن سهيل بن سعد قال : «أتت النبى ﷺ امرأة وقالت أنها وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال: مالى فى النساء من حاجة ، فقال رجل : زوجنيها... قال : ما معك من القرآن ؟ (حيث عرف منه أنه فقير لا يملك ثروة مادية) قال : كذا وكذا ، فقال : قد زوجتكما بما معك من القرآن»[1].

وعلى هذا الطريق ، جعل الرسول تعلم القرآن من المعايير التى يتم اختيار الأئمة فى ضوئها ، سواء فى إمامة المصلين أو إمامة المجاهدين ، ويدل على مراعاته فى إمامة المصلين ما يلى :

عن أبى مسعود الأنصارى قال : «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القرآن سواء فأعلمهم بالسنة» [2].

وعن عمرو بن سلمة قال : «إن أباه ونفرا من قومه وفدوا إلى رسول الله ﷺ حين ظهر أمره وتعلم الناس ، فقضوا حوائجهم ، ثم سألوه : من يصلى لنا أو يصلى بنا ؟ فقال : يصلى لكم أو بكم أكثركم جمعا للقرآن ، فقدموا على قومهم فسألوا فى الحى فلم يجدوا أحدا جمع أكثر مما جمعت ، فقدمونى بين أيديهم فصليت بهم وأنا غلام ..» [3].

ومن المؤكد أن كل هذا الذى سار على طريق التربية الإيمانية فى سيرة الرسول ﷺ ، وفى أحاديثه من شأنه يغرس بذور الإخلاص لله ، ومثل هذا الإخلاص لله فى المقاصد والمساعى يحقق الصلة المباشرة الدائمة بالله عز وجل ، ويزكى روح المؤمن ويطهر نفسه ، ويجعله عبدا صالحا فى دينه ودنياه لنفسه وأهله وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، يراعى ربه تعالى ويراقبه فى كل حركاته وسكناته ويتوجه إليه بكل خلجات نفسه وذكر لسانه واعتبار فكره ونبض قلبه وعمل يده وسعى قدمه[4].

---

(١) صحيح البخارى ، ج٦ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) صحيح مسلم ، ج١ ، ص ٢٧٠ .

(٣) مسند الإمام ابن حنبل ، ج٥ ، ص٧١ .

(٤) عبد الحميد الزناتى : أسس التربية الإسلامية فى السنة النبوية ،ص ٣٩٦ .

وقد أمرنا الله- عز وجل- بالإخلاص له فى صلاتنا ونسكنا ومحيانا ومماتنا ، أى فى جميع شؤون دنيـانا وأخرانا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ... (٥) ﴾ [البينة].

والإخلاص لله تعالى دليل على كمال الإيمان به ، والاعتـقاد فيه ، واليقين التام به ، ولذلك أمرنا رسول الله ﷺ بالإخـلاص لله- عز وجل- فى مشاعرنا وأحـاسيسنا ومواقفنا واتجـاهاتنا وأعمالنا ومناشطنا ، عن سهل بن معـاذ بن أنس الجهنى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وانكح لله، فقد استكمل إيمانه»[1] .

بث دماء قوة فى عروق الأمة :

بطبيعة الحال ، فإن كل ما بثتـه التربية النبوية كان لابد أن يصب فى مصب الأمة قوة ونهضة وتقـدما . وإذا كانت نقاط سابقة ونقاط لاحـقة قد تناولت أو سوف تتناول مظاهر لقوة الأمة ، على مختلف الأصعدة والمستويات ، العقيدية والعبادية ، والمعرفية، والأخلاقية .. إلخ ، إلا أننا نتجه فى الجزء الحالى إلى ذلك المظهر المباشر لقوة الأمة ، ألا وهو القوة المادية ، تلك القوة التى لا تتأتى إلا بعمل شاق وكد متواصل . ولا شك أن استـقراء الكتابات والأقـوال التى حفلت بها المصـادر الإسلاميـة ، منذ القرن الأول للهجرة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن العمل كان بؤرة اهتمام ومركز حديث ، لكن، ما ينبغى الاعتراف به أن ليس كل ما جاء عن العمل كان مترادف المعنى ، ذلك أن هناك كثيرين كانوا يعنون به السلوك الأخلاقى على وجه العموم ، والسلوك العبادى على وجه الخصوص ، لكننا هنا عندما نتناوله ، فإنما نتناوله باعتـباره عملا لكسب الرزق، وسبيلا من سبل التنمية الاقتصادية ، وتوجها للإنتاج وتكثير المال .

ذلك أن الإسلام لا يريد أتباعه كسالى متواكلين ، ينظرون إلى العمل نظرتهم إلى الشقاء والنقـمة ، ويغفلون عمـا فيه من خيـر وسعادة ونعمة ، بل يربيـهم على العمل وتقديره على أنه واجب الإنسـان فى الحياة ، وحق للحـياة فيـه ، فهو يأخذ من الحـياة

---

(١) سنن الترمذى ، ج٩ ، ص٣٢٣ .

ومن المجتمع ويرقى ، فعليه أن يعطى لقاء ما أخذ ، ليسهم فى مسيرة التقدم الحياتية سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع ، ومن هنا أمر الله عباده بالسعى فى مناكب الأرض ، ابتغاء فضله ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة].

والإسلام يحض على العمل ، لأنه تدريب على الصبر والمثابرة ، وتحفيز على تطوير المعرفة ، واكتساب للمهارات الفنية ، وتدريب على الأمانة والنظام وإعمال الفكر وتقوية الجسم وتقدم الأفراد والجماعات وبث دماء قوة فى عروق الأمة ، ولولا العمل المتقن ، القائم على معرفة وخبر ومكابدة ، لتوقف سير الإنسانية إلى تحقيق طموحاتها وآمالها فى الرقى والتقدم .

وقبل أن يوجه رسول الله ﷺ النصائح والتوجيهات بضرورة العمل ، انخرط هو فيه منذ سنوات عمره الأولى ، فقد كان ، كما هو معروف يرعى الغنم فى صغره وفى شبابه ، فقد رعاها فى بنى سعد مع أخيه فى الرضاعة ، ثم رعاها بمكة لأهل مكة على نصيب معين ، وكان يقضى بها زمانا خارج مكة ، لهذا قال : «ما من نبى إلا وقد رعى الغنم »، فقيل له : وأنت يا رسول الله ؟ قال : «وأنا»[1].

ثم مارس التجارة قبل النبوة ، إذ كانت السيدة خديجة كما سبق أن بينا قد اختارته ، بناء على ما ورد لها من الأنباء الطيبة عن حسن خلقه ، فخرج لها فى مال إلى الشام تاجرا ، وكان ذلك قبل أن يبعث نبيا.

وحينما تألبت قريش ومن انضم إليها من قبائل العرب واليهود وساروا إلى المدينة، أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، وعمل فيه بنفسه ، وكان يضرب بالمعول وينقل التراب وقد دارى بياض بطنه ، وكان المسلمون يرتجزون وهم يعملون برجل من المسلمين يقال له (جُعيل) ، فسماه رسول الله عمرا ، فقالوا :

سماه بعد جعيل عمرا ... وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله : عمرا ، وإذا قالوا : ظهرا ، قال رسول الله: ظهرا. وكان رسول الله يقول[2] :

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج١ ، ص ١٧٦ .

(٢) أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٩ ، ٣٨٧ .

لا هُم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وقد نقل عن حكيم بن حزام ، قال : «سألت رسول الله ﷺ فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، كالذى يأكل ولا يشبع . اليد العليا خير من اليد السفلى . قال حكيم : فقلت : يارسول الله ، والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا (أى لا أنقص ماله بالطلب منه) ، حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر - رضى الله عنه - يدعو حكيما إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه . ثم إن عمر - رضى الله عنه - دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا، فقال عمر : إنى أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم ، إنى أعرض عليه حقه من هذا الفىء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفى»[1] .

فها هنا صورة من صور التربية النبوية لظاهرة معروفة وهى طلب المال والإلحاح فى السؤال لقضاء الحاجات المادية ، وبطل الموقف رجل ينتمى إلى عشيرة الرسول ، وهو ممن تأخر إسلامهم ، وعد من المؤلفة قلوبهم ، فبعد أن ظل الرسول يعطيه ثلاث مرات خشى أن يتعود على السؤال ، فبدأ يوجهه إلى التخلى عن السؤال وطلب المال ، فاليد التى تسأل ، هى فى موضع أدنى ، بينما اليد التى تعطى هى فى الموقع العالى ، وبالتالى يكون البديل الطبيعى أن يكسب من عرق يده . عن أبى سعيد الخدرى قال : أن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعانهم حتى إذا نفد ما عنده قال : «ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن تصبَّر يصبِّره الله ، وما أعطى أحد من عطاء أوسع من الصبر» [2] .

---

(١) فتح البارى ، ج٣ ، حديث رقم ١٤٧٢ ، ص ٣٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وهكذا حرص الرسول ﷺ على أن ينفر أصحابه عن المسألة فى مناسبات مختلفة، عن ثوبان مولى رسول الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من تكفل لى ألا يسأل الناس شيئا أتكفل له بالجنة ؟ فقال ثوبان : أنا ، فكان لا يسأل أحدا شيئا»(١) .

وأتبع هذا بحثهم على العمل وإرشادهم إلى أن يطرقوا أبواب العمل ، فقد روى عن أبى هريرة قوله : قال رسول الله ﷺ : «لأن يحتزم أحكم حزمة من حطب فيحملها على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل رجلا يعطيه أو يمنعه» (٢) ، فها هنا يؤكد ﷺ أنه على الرغم من أن عملية الاحتطاب تتضمن مشقة بالغة ، وتجعل صاحبها محط نظرات الناس الممتلئة ازدراء ، فضلا عن كسبها القليل للغاية ، لكنها على أية حال أفضل من أن يمد المسلم يده لغيره يسأله أن يعطيه ، فهذا أمر ينقص من قيمة الشخصية المسلمة ، ويقلل من شأنها ، والمسلم مفروض أن يسير رافع الرأس بما أكرمه الله بنعمة الإسلام ، مما يوجب عليه أن يتسق مع هذا التكريم ، فلا يكون ضعيفا أمام الغير إن شاءوا أعطوه ، وإن شاءوا منعوه .

ولا يقف الرسول ﷺ عند حد النصح والإرشاد ، وإنما يقوم بما يشبه التدريب والتربية العملية ، فعن أنس بن مالك ، أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ يسأله فقال : «أما فى بيتك شىء؟» قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء . قال : «ائتنى بهما »، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله وقال : «من يشترى هذين ؟» قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الأنصارى، وقال : «اشتر بأحدهما طعاما إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فائتنى به»، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ، ثم قال له : «اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما »، فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما ، فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة . إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع»(٣) .

---

(١) عن : محمد لقمان الأعظمى ، دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، ص ٢٥١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج٧ ، ص١٣١ .

(٣) عن : محمد لقمان الأعظمى ، دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، ص ٢٥٥ .

ثم نجد أنفسنا أمام تكريم للعمل لا يضاهيه تكريم ، بل إننا لو استقرأنا كل أو معظم ما كتب تعظيما وتقديرا للعمل لما وجدنا ما يعدل هذا الذى يشير إليه حديث رسول الله ، يقول : «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها»(١)، فالفسيلة هى الواحدة من صغار النخل ، تغرس فى الأرض لتنمو وتكبر فتصير فيما بعد ذات أكمام.

والرسول كثيرا ما كان يحدث أصحابه عن يوم القيامة وأهواله ، ذلك اليوم الذى يصفه المولى - عز وجل - بقوله :﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** (٢) ﴾ [الحج]، فإذا كان الناس يمارسون أعمالهم فى الحياة وقامت القيام بغتة ، فماذا ينتظر الرسول أن يقول لهم ؟ نحن نتصور أنه سيقول : كفوا عما تعملون ، وفروا إلى الله مستغفرين نادمين ، فإذا أخلف الله الظنون ، وقال للذين قامت عليهم الساعة : أتموا ما بأيديكم من عمل ، فذلك أروع ما يقال فى هذا المقام حقا ، وذلك أعظم ما يضفى على العمال تلك الهالة الضخمة من علو الشأن(٢) .

ولقد روى أن رجلا مر بأبى الدرداء وهو يغرس غرسة فقال : أتغرس هذه وأنت شيخ كبير ، وهذه لا تثمر إلا فى كذا وكذا عاما ؟ فقال أبو الدرداء : وما على أن يكون لى أجرها ، ويأكل منها غيرى ؟ . .

لقد أحب رسول الله ﷺ العمل وعشقه وداوم الحث عليه والدفع إليه ، وفى ذلك مظهر واضح لتكامل شخصيته وتكامل دينه ورسالته ، فالرسول ﷺ الذى دأبه النسك والعبادة ، والذى لم يعرف الدنيا إلا معبرا إلى الآخرة يحفل بالعمل ويحتفى به حفاوة تكاد تجعله ، بل هى تجعله، نسكا وعبادة وفريضة من فرائض الدين ، فهو يرى أن العمل جهاد فى سبيل الله(٣)، فذات يوم والرسول ﷺ جالس بين نفر من أصحابه مر بهم شاب يتفجر بأسا ونشاطا ومقدرة مسرع الخطى مفتول العضلات وبهر منظره بعض الأصحاب فقال قائلهم متعجبا : يا رسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فماذا كان موقف النبى ﷺ ؟ قال : «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا ، فهو فى

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) خالد محمد خالد : لقاء مع الرسول ، ص ٢١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان».

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ لم يأنف من أن يعمل بيده مع عبد ليعينه على التحرر ، جاء فى حديث سلمان الفارسى عن تحرره من رق سيده اليهودى : قال لى رسول الله : «كاتب يا سلمان» ، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : «أعينوا أخاكم» ، فأعانونى بالنخل ، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية (فرخة النخلة الصغيرة) ، فقال لى رسول الله ﷺ : «اذهب يا سلمان فاحفر لها »، فإذا فرغت جئته فأخبرته فخرج معى إليها ، فجعلنا نقرب إلى الودى ويضعه بيده حتى فرغنا .

فأديت النخل ، وبقى على المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من الذهب فقال : ما فعل الفارسى المكاتب ؟ فدعيت له ، فقال : خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان ، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها ، وتحررت ، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرا ، ثم لم يفتنى معه مشهد[1].

وإذا كان العمل الشائع فى بيئة عصر النبوة كان رعى الغنم والتجارة ، فإن الزراعة أيضا كانت مجال عمل على درجة كبيرة من الأهمية وخاصة فى بيئة المدينة المنورة ، ولهذا كانت المواقف المختلفة ، والأحاديث المتعددة التى تدفع وتحث على إعمار الأرض وفلاحتها وإحيائها ،عن عطاء بن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير لهو له صدقة ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة» [2].

إن الله- عز وجل- الذى قال فى محكم تنزيله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ [النحل] ، فمهمة الإنسان المؤمن تعمير الأرض بحثا وزراعة واكتشافا وإحياء ، ففى سلوك هذا الطريق ، إذ يسد الإنسان

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج١، ص ٢٣٤ .

(٢) صحيح البخارى ، ج١٠ ، ص ٤٣٨ .

به رمقه وينعم بحياته ، هو سبيل أيضا لعبادة الله لأن كل ما تحفل به الأرض من نعم هى من آيات الله .

وحتى يشجع الرسول ﷺ المسلمين على مزيد من التعمير ، قال ، فيما ترويه عنه السيدة عائشة - رضى الله عنها - «من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها» (١).

وإذا كان حديث الرسول يؤكد على التنمية التى كان يعبر عنها بالتعمير من أجل بث دماء القوة فى اقتصاد المسلمين حتى يكونوا على قدر من القوة ما يدفع عنهم خطر الأعداء ، وحتى يفىء ناتج هذا التعمير على المجتمع ، فإنه يبرز ذلك البعد الأخلاقى فى المنظور الاقتصادى الإسلامى ، فالمسألة ليست مجرد زيادة فى مصادر الثروة الطبيعية ، ولكن لابد أن تكون التنمية فرصة لغرس قيم التضامن الاجتماعى ، والترابط بين أفراد الأمة ، بل والحرص على أن ينال من الخير الناتج عناصر أخرى فى البيئة من حيوان وطير .

وينقلنا هذا إلى هذا الجانب بصفة خاصة الذى أصبح قضية ملحة فى عصرنا الحاضر ، ذلك الجانب الخاص بالتربية البيئية التى جار الإنسان مع الأسف الشديد على كثير من عناصرها جشعا وطمعا فى غنم عاجل ، بينما المحصلة بعيدة المدى تضر ولا تفيد ، من هنا فإن الحرص الذى رأيناه فى أحاديث الرسول ﷺ على عناصر البيئة الطبيعية هو مما يصب فى مزيد من القوة المادية الإنتاجية ، فعن جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال فى الماء الراكد (٢).

ويتصل بهذا تلك المعاملة التى أمرنا رسول الله ﷺ بها تجاه الحيوانات ، لا تلك التى ننتفع بأكلها فقط ، بل بتلك الأخرى ، مثل الكلاب والقطط ، فمن حيث القطط فقد روى عن الرسول قوله : «عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»(٣) .

وعن عمران بن حصين قال : «بينما كان رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، وامرأة من الأنصار على ناقة ، فضجرت فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الحرث والزراعة ، ج ١٠ ، ص ٤٣٨

(٢) صحيح مسلم ، ج٨ ، ص ١٦٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

«خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة» ، قال عمران : فكأنى أراها الآن تمشى فى الناس ما يعرض لها أحد [1].

ولأن العمل فى الإسلام هو عمل مفروض أن يبتغى به وجه الله ، وبالتالى فهو ليس لمجرد النفع الفردى ، وإنما هو كذلك من أجل تقدم الأمة ، كان لابد أن يربط بالقدرة على البذل والعطاء والتعود على ذلك ، أيا كانت الصورة ، ما دام الهدف هو ابتغاء وجه الله وخير الأمة ، روى أبوموسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال : «على كل مسلم صدقة» ، قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» ، قال: قيل: أرأيت إن لم يستطعه ؟ قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف...»، قال : قيل له: أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : «يمسك عن الشر فإنها صدقة » [2].

فما دام المسلم لابد أن يكون صاحب يد عليا ، كان من الضرورى أن يكون عطاء، حتى إذا وصل إلى هذه الدرجة السفلى من انعدام القدرة عن العطاء والعمل ، فإنه إن كف عن فعل الشر ، فهو بذلك إنما يعطى الأمة شيئا ذا قيمة ، فهى سوف تسلم من عوامل الهدم والتخريب .

ولما كان العمل الاقتصادى يحتاج إلى قيمة الأمانة والصدق كان هذا الحرص من الرسول ﷺ فى تربية المسلمين على البعد تماما عن الغش ، فهو صورة من صور الكذب المادى البغيض ، الذى يسلب من مسلم حقا ويعطى آخر حقا ليس له ، ولعمرى أن هذا المرض الاجتماعى لهو من أخطر عوامل التخريب فى اقتصاديات التنمية ، فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ مر على صُبرة طعام فأدخل يده فنالت أصابعه بللا ، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ! ، قال : أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ؟ من غش فليس منى» ، وفى رواية : «ليس منا من غش»[3] .

وكذلك حرص الرسول ﷺ على أن يغير من النظرة الخاطئة التى كان الناس ينظرون بها إلى بعض المهن والحرف والصناعات ، والتى كان بعض العرب يترفع عن الاشتغال بها ، أو حتى على القرب من أصحابها، وينظر إلى هؤلاء نظرة ازدراء

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) صحيح مسلم ، ج٢، ص ٦٩٩ .

(٣) صحيح مسلم ، ج١ ، ص ٩٩ .

واحتقـار ، فجاءت توجيـهات الإسلام تشيـد بمكانة هذه المهن ، والصناعات ، وتكرم أصحابـها ، فكان الرسول ﷺ يجالس العـاملين فيها ويواكـلهم ويشاربهم ويحث على التعـامل معـهم وحسن هذا التـعامل ، ويشجع منتـجاتهم من أجل رفع مـعنوياتهم ، فيقبلون أكثر عليها وينتجون أكثر(١).

كذلك استـطاع الرسول المعلم عن طريق التعليم أن يحـرر الاقتصاد فى مـجتمع المدينة من آفة اقتصادية ألا وهى الربا ، وما يرتـبط بها من ظهور فئة المرابين الذين كانوا يأكلون أمـوال الناس بالباطل ، حـيث كان الربا فـاشيـا فى المجتـمع الجاهلـى . وقد تضافرت الآيات القرآنيـة ، والأحاديث النبوية على تحريمه والتشنيع على مـتعاطيه ، بل توعد الله- سـبحانه وتعالى- من لم ينتـه عنه بالحرب (٢)، والرسول لعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه(٣) .

بل كان رسول الله ﷺ يذهب فى التهيئة إلى التأسيس لروح العمل فى الأمة إلى حد أن يشجع عـلى مشاركة بعض الأطفال علـى المشاركة فى عمليات الـبيع والشراء ، على أساس أن أمرا مثل هذا يمكن أن يكون فرصة تثرى حياة الأبناء بالعديد من الخبرات والقيـم والاتجاهات ، مع الأخـذ بعين الاعتـبـار بطبيـعة الحـال أن الأطفال فى صـدر الإسلام، لم يكونوا أمام ما هم أمامه الآن من حيث ضرورة التفرغ التام لطلب العلم ، فلكل جماعة ظروفها الزمانية والمكانية ، ومع ذلك فإن المشاركة يمكن ، بل لابد أن تتم فى عصرنا الحاضـر ، فى العطلات السنوية ونصف السنوية . روى أبو يعلى والطبرانى عن عمرو بن حريث أن رسول الله ﷺ مر بعـد الله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان أو الصبيان ، قال : «اللهم بارك له فى بيعه ، أو قال : فى صفقته»(٤).

ومع هذه الصـور والمواقـف والأحـاديث المتـعـددة الدالة على أهـمـيـة العـمل وضرورته، فإن ما يعد تتويجا له حقيقـة هو التأكيد على أن العمل كلما كان قائما على علم فإن ذلك يكون هو الأفضل ، وخاصة بالنسبة لتلك الأعمال التى يعد العلم بالنسبة لها مطلبا أساسيا ، قـال رسول الله ﷺ : «من تطبب ولم يكن منه طب قبل ذلك فهو ضامن»(٥)، فممارسـة الطب كعمل تتطلب من صاحبـها أن يتهيأ لها ، وأن يعـد نفسه

---

(١) سند الحربى : التعليم فى المدينة المنورة ، ص ٤٢٠ .

(٢) البقرة / ٢٧٨، ٢٧٩ .

(٣) سند الحربى : التعليم فى المدينة المنورة ، ص٤٢١ .

(٤) محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل ، ١٥٠ .

(٥) عن : محسن بن محمد ، العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، ص ١٠٠ .

الإعداد المناسب حتى يستطيع بعد ذلك أن يؤدى هذه الوظيفة دون أن يقع فى الأخطاء، وأما إذا مارس هذا العمل دون علم ، فإنه مطالب بأن يتحمل كل خطأ يرتكبه ، ذلك أنه يكون قد خالف قاعدة أصلية تتمثل فى أن العلم شرط من شروط العمل ودليله الذى يقوده إلى النجاح[1].

وقد نقل حديث عن الرسول ﷺ فى ذلك واصفا الذى يعمل دون أن يعلم : «وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل» [2]، فهذا الحديث الذى وصفه الترمذى بالحسن الصحيح يبين أن الله تعالى كما خلق الأرزاق ووسائلها ، خلق العلوم وطرق تحصيلها ، وهذه الأخيرة هى التى تجعل أعمال من اكتسب المال بعيدة عن الزلل والخطأ ، أو بها من الاعوجاج الشىء الكثير .

وإذا كان الإسلام قد حرم اكتناز المال وتعطيله عن أداء وظيفته فى الحياة وهو السلوك الذى يتنافى مع متطلبات التنمية فإن هذه القضية لا تعنى التخلق بالخلق المقابل للاكتناز وهو الإسراف والتبذير وإنفاق المال فى غير وجهه الصحيح ، ولا شك أن هذه من القيم التى تحتاج التنمية إلى دعمها وتربية الناس على أن يكونوا بين هذين السلوكين قواما [3] .

ومن هنا فقد حرص الرسول ﷺ على أن يوجه المسلمين إلى الادخار ، فقال : «أمسك عليك بعض مالك فإنه خير لك»[4]، وينبه إلى أنه يحمى من الفاقة ، بينما الإسراف يمكن أن يؤدى إلى فقر ، فقال ﷺ : «ما عال من اقتصد »[5]. ونهى أيضا فيما يروى أنس[6] عن صور من الإسراف والسفه فى الإنفاق ، مثل الأكل والشرب فى

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) عن المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) فوقية محمد ياقوت إسماعيل شهبة : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، بجامعة المنوفية ، شبين الكوم ، ١٩٩١ ، ص ١٠٥ .

(٤) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٢١هـ ، ج١، ص ٥٧ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ١٢٤ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

إناء من الذهب أو الفضة ، وعن حذيفة قال : «نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية من الذهب والفضة وأن نأكل فيها وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه»[1].

وحذر رسول الله ﷺ من مد الأيدى إلى المال العام ، ففى الحديث : «أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا لكم وهذا أهدى إلى ؟ أفلا يقعد فى بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى إليه أم لا ؟ فوالذى نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منه شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيرا جاء به له رغاء ، وإن كان بقرة جاء بها لها خوار . . . » [2]، كما حذر رسول الله ﷺ من التصرف فى مال المسلمين بالباطل فقال: «إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغيرحق فلهم النار يوم القيامة»[3] .

لكن مما يثير لبسا وسوء فهم ، عشرات الأحاديث التى ترغب فى الفقر وقلة ذات اليد وما جاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم ، وكذلك عشرات الأحاديث التى ترغب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل وترهب فى حبها والتكاثر عليها والتنافس . .

صحيح أن عبادة الدنيا أهلكت الأولين والآخرين ، وأنها من وراء جرائم مذهلة يقترفها الخاصة قبل العامة ، والرؤساء قبل الأتباع والأذكياء قبل الأغبياء ، ومع ذلك فالعلاج الصحيح - فيما يؤكد شيخنا الغزالى - بحق للداء العضال يكون بالتمكن من الدنيا والاستكبار على دناياها ، فلابد أن نملك الكثير من ثروة الدنيا وقوتها وأرضها وبحارها، ولجعل ذلك فى أيدينا لندعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم ، أما أن نعيش مثل الصعاليك فى الدنيا حاسبين أن الصعلكة طريق الجنة ، فهذا قصور فى التفكير يؤدى إلى التهلكة [4].

ولعل تأمل الواقعة التالية التى رواها أنس بن مالك يزيدنا إيضاحا . . .

---

(١) صحيح البخارى ، ج٧ ، ص١٩٤ .

(٢) السيوطى ، الجامع الصغير ، ج١ ، ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٤) محمد الغزالى : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ط٣ ، ص ١١٤ .

فقد اشتكى سلمان الفارسى فى مرض موته ، فعاده سعد بن أبى وقاص ، فرآه يبكى ، فلما سأله عن السبب ، فإذا به يشير إلى أن رسول الله ﷺ قد عهد إليهم عهدا وأنه قد تعدى هذا العهد ! فما هذا العهد ؟ قال : «عهد إلينا أنه يكفى أحدكم مثل زاد الراكب ، ولا أرانى إلا قد تعديت ! وأما أنت يا سعد ، فاتق الله عند حكمك إذا حكمت ، وعند قسمك إذا قسمت ، وعند همك إذا هممت !» ولما جمع مال سلمان بعد وفاته وجدوا أنه قد بلغ خمسة عشر درهما !!

هى صورة تهز المشاعر هزا عنيفا تقديرا وإعجابا وخشوعا أن نرى أميرا من أمراء الفتح الإسلامى يلقى ربه بمثل هذا التجرد والتبتل ..

لكن علينا أيضا أن نعمل التفكير ، فسعد بن أبى وقاص الذى حاور سلمان سمع من رسول الله ﷺ هذا التوجيه : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» مما يعنى أن الميراث الكبير ليس خطأ ، وسعد بن أبى وقاص هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، والعشرة كانوا من أغنياء المسلمين ولم يكونوا من الفقراء[1] !

إن المسألة ليست فى امتلاك الكثير من المال ، ولكن فى الوسائل التى تم بها اكتساب هذا المال ، وفى أوجه إنفاقه .. قد يكون فرصة لإتاحة مزيد من فرص التنمية وإيجاد فرص عمل ، وقد يكون جزء غير قليل منه موجها إلى الإنفاق منه على العلم ومؤسساته والعلماء .

إن هذا النظر الصحيح إلى المال هو الطريق السليم إلى التنمية وقوة الأمة للتمكين لدين الله على هذه الأرض .

وإنك لعلى خلق عظيم :

ولو أننا أمعنا النظر فى العملية التربوية فسوف نجد أنها ، إذا كانت تستهدف تزويد المتعلم بكم من المعارف والمعلومات بنوعية تجعل منها قوة تطوير وتجديد وتغيير ، إلا أنها فى هذا كله لابد أن تقوم على أسس تمتد جذورها فى أعماق الإنسان ، وتنعكس سلوكا يتبدى فى المواقف المختلفة بما من شأنه أن يوثق الروابط بين أفراد الأمة ويشيع بينهم التآلف والتناغم والتكافل ، وأمر مثل هذا إنما هو شأن أخلاقى ، بدونه يمكن للمعرفة المتحصلة أن تسعى فى طريق يبذر الشر ويدفع إلى الهلاك والتدمير ، كما سبق أن أشرنا عند تناولنا لجوانب سابقة وخاصة ما يتصل بالعقيدة والعبادة . بل إن

(١) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

الدين نفسه ، إذا كان يقوم على عقائد وعبادات ، فإن السلوك هو الذى يؤسس للمجالين معا ، ومعروف أن إنسانا يعتقد ويمارس عبادات ، لكنه يكذب ويسرق وينمّ ويزور ويغتاب ويزنى ، فكأنه فى اعتقاده وفى عبادته يقوم بصورة أخرى من الكذب والتزوير .

ومن هنا كان ﷺ شغوفا بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه، فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقا بثناء الله- سبحانه وتعالى- عليه فى كتابه الكريم ، كقوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]، وقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... (١٥٩) ﴾ [آل عمران] ، وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) ﴾ [الحاقة]، وقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب].

وحسبه من التشريف الإلهى أن الله- تعالى- أقسم بحياته فى قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر] ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد ﷺ . وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبى طالب : إنه كان أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس قلبا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه[1] .

وقد تبين لنا من استقراء سيرة الرسول ﷺ أن حياته كانت مدرسة تربية خلقية سلوكية شاملة ، حتى الأنماط السلوكية التى لا تظهر فيها أول الأمر أسس المفاهيم الخلقية ، كانت فى حياة الرسول ﷺ موصولة بأسس المفاهيم الخلقية ، ولو من وجه من الوجوه ، فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاق راسخة فى النفس متمكنة فى أركانها .

ومن البديهى بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقى النبوى صورة مماثلة للكمال الذى وجه القرآن له ورغب فيه ، وهذا ما جعل السيدة عائشة أم المؤمنين تقول فى وصف خلق الرسول ﷺ : «كان خلقه القرآن»، أى كان خلقه مطابقا لما وجه له القرآن من فضائل[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص ٤٢

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق - بيروت ، دار القلم، ١٩٧٩ / ج١ ، ص ٣٩٦ .

ولذلك كان صلوات الله عليه مزكيا لمن آمن به واتبعه واقتدى به واهتدى بهديه ، بقوله وعمله وأخلاقه ، والتزكية (التطهير) من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة ، ولعلنا نستعيد ما وصفه به عز وجل فى سورة الجمعة ، إذ جعل الله من صفاته أنه يزكيهم ، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرد ، بل لابد فيها من أن يكون الرسول مثالا واقعيا حيا لما يدعو إليه مما تكون به تزكيتهم [1].

ولما كان الرسول ﷺ أعلى مثل فى كل صفاته الخلقية والسلوكية ، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وبذلك وصفه الله بقوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ... ۝٦ ﴾ [الأحزاب].

ومع وصول الرسول للقمة الأخلاقية ، إلا أنه كان يتطلع دائما إلى المزيد ، حتى أنه كان يقول فى دعائه : «اللهم كما حسنت خلقى (بتسكين اللام) فحسن خلقى (برفع اللام) . اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت»[2].

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته فقال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وكان لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل ، وينفرهم من الرذائل ، وله فى هذا أحاديث كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال قوله[3]:

«إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون».

وقوله : «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامى بالهواجر».

وقوله : «من سعادة المرء حسن الخلق».

وقوله : «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

وقوله : «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»[4].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ .

(٢) عن : أحمد الحوفى : من أخلاق النبى ، ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، د.ت ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : «خلق حسن».

وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال : «أحسنهم خلقا».

والذى يفهم من هذه الأحاديث ، ومن غيرها ، أن النبى ﷺ ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق ربط ، ولهذا جاءه رجل فوقف بين يديه وقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟ قال : حسن الخلق . فأتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من قبل شماله فقال : يا رسول الله ، ما الدين؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال : أما تفقه ؟ هو الا تغضب [1].

وشدد رسول الله على تربية الأبناء على الأخلاق الإسلامية ، وضمن هذا عددا من التوجيهات التى تشير إليها الأحاديث التالية [2] :

- روى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ ، قال : «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وأخرج عبد الرازق ، وسعيد بن منصور ، وغيرهما من حديث على رضى الله عنه ، : «علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوهم» .

- وأخرج البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه» .

- وروى ابن حبان عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «الغلام يعق (أى يذبح عنه) يوم السابع ويسمى ، ويماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أُدب ، وإذا بلغ تسع سنين عزل عن فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضُرب على الصلاة والصوم ، فإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه ».

ولابد أن نربط هذا بما قال به ﷺ فى حديث آخر : «من استطاع منكم الباءة فليتزوج»، أى أن المسألة ليست أمرا بالزواج بدءا من سن السادسة عشر ، وإنما هذا

---

(١) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٤٣ .

(٢) عبد الله علوان : تربية الأولاد فى الإسلام ، بيروت - حلب ، دار السلام ، ١٩٨١ ، ط٣ ، ج١ ، ص١٧٩.

السن هو بدء إمكان الزواج ، فالأمر فى هذا مرتبط بالاستطاعة ، والاستطاعة لها عناصرها على المستوى الفردى وعلى المستوى الاجتماعى العام .

وتبلغ قيم الأخلاق فى التربية النبوية إلى درجة علا تجعل منها ثروة حقيقية ، وفقا لمدى امتلاك قدر منها تحدد درجة الغنى ودرجة الإفلاس ، فعن أبى هريرة أن رسول الله قال : "أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»[1].

فها هنا تصوير للمعنى الدارج لدى الجمهرة الكبرى من الناس عن موازين الغنى والفقر ، فالميزان الأساسى هو كم المال الذى نملكه ، وبالتالى يكون المفلس هو الذى تخلو يداه من هذا المال ، لكن رسول الله ﷺ يؤكد هنا أن الميزان الأساسى هو تلك الأخلاقيات التى تحكم سلوك الفرد منا ، فإذا كان الفرد منا تكتب له حسنات عن قيامه بالعبادات المختلفة ، لكن إذا لم تترجم هذه العبادات إلى قيم خيرة تجعل لسانه عفيفا فلا يؤذى به الناس ، وتكف يده عن إلحاق الضرر بهم ، فالحساب الختامى نجد أنه يأتى الله وقد أصبح مديونا إلى كل من ألحق بهم الأذى ، وعند تسوية الحساب يجد أن ما أتى به من عبادات لم يكفه ، بل تحول إلى مديون ، مفلس .

فإذا ما أردنا التوقف أمام بعض المثل والقيم الأخلاقية التى حث عليها رسول الله ﷺ من خلال سلوكه وأحاديثه ، فإننا نسوق النماذج التالية :

- **الرحمة** : فالرحمة إشعاع من عواطف الحب والرأفة والإيثار يصدر من الرحيم ليبث فى الآخرين حبا ورأفة وإخلاصا وثقة وطمأنينة ؛ ولذلك كان من صلاة الملائكة لله- عز وجل- : ﴿ ...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ ﴾ [غافر].

وعن عمر بن الخطاب : قدم على رسول الله ﷺ بسبى ، فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها ، إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، قال

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج١٦، ١٣٥ ، ١٣٦ .

رسـول الله ﷺ : «أترون هذه المرأة طارحة ولدهـا فى النار ؟ قلنا : لا والله - وهى تقدر على ألا تطرحه - قال : فالله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1] .

لقد أراد الله أن يمتن على الـعالم برجل يمسح آلامه ، ويخـفف أحزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويستمـيت فى هدايته ، ويأخذ بناصر الضعيف ، ويقـاتل دونه قتال الأم عن صغارها ، ويخضـد شوكه القوى حتى يرده إنسانا سليم الفطـرة لا يستبد ولا يطغى ، فأرسل محـمدا عليه الصلاة والسلام ، وسكب فى قلبـه من العلم والحلم ، وفى خلقه من الإيناس والبر ، وفى طبعه من السهولة والرفق ، وفى يده من السخاوة والندى ، ما جعله أزكي عباد الله رحمة ، وأوسعهم عـاطفة ، وأرحبهم صدرا ، ولذلك قال فيه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيـظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... (١٥٩) ﴾ [آل عمران].

وقد لازمت رسـول الله ﷺ هذه الفضائل الرائـعة فى أشد المواقف تأزمـا عندما حاول المشـركون فى «أحد» اغتـياله، وألجاوه إلى حـفرة ليكب فيـها ، ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مـضرجين بدمائهم على الثرى، ونظر إليه بقية أصـحابه فإذا خده قد شق وسنه سقطت .. فى هذه الأزمـة قيل: ادع على المشركين ، فغلبه رفـقه وجعلت نفـسه العـاليـة تستـميح لأعـدائه العـذر ، فكان دعاؤه: «اللـهم اهد قومى فـإنهم لا يعلمون»[2] !!

وتجلت فضيلة الرحمة فى هذا الفيض الكبير الذى امتلأت به أحاديثه ﷺ توصية بالوالدين ، وعلى سبـيل المثال ، فقد هاجر رجل إلى الـرسول ﷺ من اليمن ، وأراد الجهـاد، فقال له الرسـول ﷺ : «هل باليمن أبواك ؟» قـال : نعم . قال : «هل أذنا لك؟» قال الرجل : لا ، فـقال الرسول ﷺ : «فارجع إلى أبويك فـاستأذنهمـا ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد » .

وجاء آخر إليه ليستشيره فى الجهاد ، فقال : «ألك والدة ؟» قال : نعم ، قال : «فالزمها ، فإن الجنة عند رجليها » .

وقدم عليـه رجل يطلب البيـعة على الهـجرة ، وقال : مـا جئتك حـتى أبكيتُ والدى ، فقال : «ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما» [3].

(١) رواه البخارى .

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ ، ط٨ ، ص ٢٠٤ .

(٣) مسند الإمام ابن حنبل ، ج ١٠ ، ص ٤٦ .

ومن مظاهر رحمة رسول الله ﷺ بالمؤمنين ، وكراهيته أن يتحملوا ما يعنتهم ويشق عليهم نهيه لهم عن الوصال فى الصوم ، وهو أن يواصل الصائم الليل والنهار ، ويتبع بذلك اليوم الثانى ، وفى هذا روى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : نهاهم النبى ﷺ عن الوصال رحمة لهم ، فقالوا : إنك تواصل ؟ قال : « إنى لست كهيئتكم، إنى يطعمنى ربى ويسقينى» .

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ ما رواه البخارى عن الحارث بن ربعى قال : قال رسول الله ﷺ : «إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوّز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه» .

ومن مظاهر رحمته ، وصيته للأئمة فى الصلاة أن يخففوا فى صلاتهم ، رحمة بالضعفاء والمرضى والشيوخ وذوى الحاجات الذين يقتدون بهم ، ويصلون معهم ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»[1].

- **الحياء** : فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله . . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . . والحياء شعبة من الإيمان »[2] .

ولعل أبرز ما يدعو الإنسان إلى الحياء أن نتأمل جيدا قوله سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق] ، فهذا عتاب هو بالفعل كما يصفه خالد محمد خالد، أشد من وخز الإبر[3] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر] ، وكذلك : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، فما دام الله يرى كل صغيرة وكبيرة ولا يخفى عليه شىء ، أفلا يستحيى من يفعل عكس مايأمره به؟ إن هذا هو ما يفسر معنى قوله ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، أى أن الأنبياء- عليهم السلام- قد سفهوا كل من غاب حياؤه وتدنت بهذا مروءته .

وإنما جعل الرسول ﷺ الحياء شعبة من الإيمان ، لأنه كلما قوى الإيمان بالله وبقدرته على أن يسمع كل شىء ، ويرى ، أورث هذا اليقين الحياء من الله فوقى المسلم

---

(١) عبد الرحمن الميدانى : الأخلاق الإسلامية ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) خالد محمد خالد : لقاء مع الرسول ، ص ١٠٥ .

الكثير من الخطايا والآثام . إن إيمان كل منا بأن الله ليس منه ببعيد ، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . . . هذا الإيمان يجعل كلا منا قرير العين بالطاعة ، مرتعد القلب من المعصية ، ويفجر فى نفسه الحياء تفجيرا[1] .

إن الإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم ، ومن حق هذه الصلة ، بل أثرها ، تزكية النفوس وتقويم الأخلاق ، وتهذيب الأعمال ، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست فى النفس عاطفة حية ، تترفع بها أبدا عن الخطايا وتستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور، أما الإلمام بالأمور الحقيرة دون تورع ، والوقوع فى الصغائر دون اكتراث ، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها ، ثم فقدانها لإيمانها [2] .

قال ﷺ : «الحياء والإيمان قرناء جميعا ، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر»[3] ، وعلة ذلك أن المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيئ إلى أسوأ ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ، ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل ، وقد روى عن رسول الله حديث يكشف عن مراحل هذا السقوط ، الذى يبتدئ بضياع الحياء وينتهى بشر العواقب :

«إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا ممقتا (مبغضا) ، فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا ، فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونا ، نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا ، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا ، نزعت منه ربقة الإسلام» [4] .

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه أمراض النفوس ، وتتبعه لأطوارها ، وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة إلى أخرى أشد نكرا ، فإن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حسابا ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مد يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه ، ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلبا يعطف عليه ، بل إنه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها [5] .

---

(١) خالد محمد خالد ، لقاء مع الرسول ، ص ١١٠ .

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم ، ص ١٥٩ .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) رواه الحاكم . .

(٥) محمد الغزالى : خلق المسلم ، ص ١٥٩ .

ولا ينبغى الخلط بين الخجل والحياء ، فنحن نشجع الأطفال على التخلص من الخجل ، ويتسموا بالجرأة ، ذلك أن الخجل هو انكماش الطفل وانطواؤه وتجافيه عن ملاقاة الآخرين ، أما الحياء فهو التزام الطفل مناهج الفضيلة وآداب الإسلام ، فليس من الخجل فى شىء أن نعود الطفل منذ نشأته على الاستحياء من اقتراف المنكر وارتكاب المعصية . وليس من الخجل فى شئ حين نعود الطفل على توقير الكبير ، وغض البصر عن المحرمات ، وكف الأذن أن تسترق سرا أو تكتشف خبثا . وليس من الخجل فى شىء حين نعوده على تنزيه اللسان بأن يخوض فى باطل ، وعلى فطم البطن عن تناول المحرمات ، وعلى صرف الوقت فى طاعة الله ، وابتغاء مرضاته [1].

وهذا المعنى من الحياء هو ما أوصى به رسول الله حين قال: - فيما رواه الترمذى - «استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : إنا نستحى من الله يا رسول الله - والحمد لله - قال : ليس ذلك .. الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد ذلك استحيا من الله حق الحياء».

وقد كان بعض المسلمين يتحينون طعام رسول الله فيدخلون بيوته ، ويجلسون منتظرين إنضاج الطعام ، ومستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض ، وكان رسول الله يضيق بطول جلوسهم ، وكثرة أحاديثهم ، ولكن حياءه يمنعه أن يأمرهم بالخروج ، لأن هذا الأمر يشق عليهم ، فتولى الله عن النبى إرشادهم ؛ ولهذا قالت السيدة عائشة : حسبك فى الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم [2]، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ...﴾ [الأحزاب :٥٣].

- **العدل** : العدل هو إعطاء كل ذى حق ما يعادل حقه ويساويه دون زيادة ولا نقصان، ومن أجل هذا كان الميزان رمزا لإقامة العدل [3] ، وقد أمر الله الذين آمنوا بالعدل وبالقسط ، فمن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة :٨].

---

(١) عبد الله علوان : تربية الأولاد فى الإسلام ، ج١ ، ٣٠٩ .

(٢) أحمد الحوفى ، من أخلاق النبى ، ص ٣٣٧ .

(٣) عبد الرحمن الميدانى : الأخلاق الإسلامية ، ج١ ، ص ٥٦٩ .

ولما كانت الولاية العامة من أعظم المسئوليات فى الحياة ، وكانت دواعى الإغراء بمجانبة سبيل العدل وخيانة الأمانة فيها من أشد الدواعى وأقواها ، كان ثواب الإمام العادل من أعظم الأجور عند الله ، وكانت فضيلة العدل من أعظم الفضائل ؛ ولذلك جاء ذكر الإمام العادل فى أول الأصناف الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [١].

ولا يخفى أن من ثمرات هذا العدل ترغيب أعداء الإسلام بالدخول فيه والإيمان بأنه هو الدين الحق ، وكم من حادثة عدل حكم فيها قاضى المسلمين لغير المسلم على المسلم اتباعا للحق فكانت السبب فى تحبيبه بالإسلام ثم فى إسلامه ، ومن تطبيقات المؤمنين لذلك ، ما كان من عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى إلى أهل خيبر لأمر خاص بثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض[٢] .

وقال ﷺ : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - عز وجل -، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٣].

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لا ينازع الأمر

---

(١) عن عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الإسلامية ، ج١ ، ص ٥٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨١ .

(٣) صحيح مسلم ، ج٦ ، ص ٧ .

أهله ، وعلى أن نقـول بالحق حـيث كنا ، وفى رواية أخـرى : ... وعلى أن نقـول بالعدل أين كنا لا نخاف فى الله لومة لائم»[1].

وعن ثوبان قال : قـال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة مـن أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك» [2].

ومن الأحاديث المؤسـسة لنظام حكم يقوم على العدل والإنصـاف ، ما روى عنه ﷺ حيث قال : «ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»[3] .

والحديث يوضح مدى مسئوليـة الوالى ومدى أمانته ، وقد ورد فى ذلك أحاديث أخرى ، وخصص ابن تيـمية كتابا فى الموضـوع بعنوان (السياسة الشرعـية فى إصلاح الراعى والرعيـة) ، وذكر فيه قـول النبى ﷺ : «من ولى من أمر المسلمين شيـئا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقـد خان الله ورسوله والمؤمنين» ، رواه الحاكم فى صحيحه، وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر ، وروى ذلك عنه ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «من ولى من أمر المسـلمين شيئا فولى رجـلا لمودة ، أو قرابة بينهما ، فـقد خان الله ورسوله والمسلمين». وهذا يعنى وجوب البحث عـن المستحقين للولايات من نوابه على الأمـصار من الأمـراء الذين هم نواب ذى السلطان والقـضاة ، ومن أمراء الأجناد ومـقدمى العـساكر الصـغار وولاة الأموال مـن الوزراء والكتاب .. إلخ، وعلى كل واحد مـن هؤلاء أن يستنيب وأن يستـعمل أصلح من يجـده ، وينتهى ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحج ... إلخ[4].

ولعل اتباع العدل بين الأبناء من السبل القويمة التى تؤكد تكافوء الفرص ، وتوثق الروابط بين الإخوة ، وتدخل الطمـأنينة فى النفس ، قال النعمان بن بشـير : «أعطانى أبى عطية، فقالت عُمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله، فأتى رسول الله

---

(١) سنن النسائى ، ج٧ ، ص ١٣٩ .

(٢) صحيح مسلم ، ج٦ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) مسند الإمام ابن حنبل ، ج٥ ، ص ٢٥ .

(٤) محمد لقمان الأعظمى : دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية ، ص ٣١٦ .

فقال : إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله، قال رسول الله : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ قال النعمان : لا ، قال الرسول فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، فرجع أبى فرد عطيته»[1].

وللعدل أثره الطبيعى فى المساواة ، ومن ذلك : قال للنبى ﷺ بعض سادات العرب مثل الأقرع بن حابس التميمى ، وعُيينة بن حصن الفزارى ، وعباس بن مرداس السلمى ، وغيرهم : اجعل لنا يوما ولهم - للفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء - يوما يجيئون إليك ولا نجيء ، ونجيء إليك ولا يجيئون ، وذلك لأنهم شكوا إلى النبى ﷺ التأذى برائحتهم ، فأجابهم رسول الله إلى طلبهم ، رغبة فى تقوية الإسلام بهم ومن هنا نزل قوله - عز وجل - : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)** ﴾ [الكهف].

التذوق الجمالى :

تحتل القيم الجمالية مكانة كبيرة فى حياتنا ، فالحياة بدون إحساس بالجمال تبعث على السأم والشعور بالملل ، ذلك أن للجمال قيمة روحية كبيرة ، ولو اقتصرت نظرتنا للحياة على جانبها النفعى فقط لأصبحت الحياة مادية آلية رتيبة ، ولسادتها النفعية والغرضية وحدها ، ولاستمر هذا السباق المحموم إلى زيادة السلع المادية على حساب الأبعاد الروحية والأخلاقية والجمالية للحياة ، لهذا تعد التربية الجمالية للإنسان أحد خطوط الدفاع الهامة إزاء السعار المادى[2]، وخاصة إذا ضبطت بالنهج الإسلامى .

ومن هنا يمكن القول بأننا فى حاجة ملحة إلى تنمية الإحساس بالجمال وتذوقه فى وجدان النشء ، مما يسهم فى تقدم مجتمعاتنا التى غشيتها مسحة صناعية آلية نتيجة التقدم العلمى الهائل الذى كان من نتائجه فى أمتنا بكل أسف ، إهمال تنمية التذوق

---

(١) أحمد الحوفى ، من أخلاق النبى ، ص ١١١ .

(٢) نادية يوسف كمال : التربية الجمالية ، البعد الغائب فى تربية الإنسان المصرى ، مجلة دراسات تربوية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ج٣٣ ، ١٩٩١ ، ص ٢٤٣ .

الجمالى ، وإذا كنا فى عصر تلح فيه علينا الدعوة إلى أنسنة الحضارة من أجل تحقيق سعادة الإنسان وتعظيم قدرته على إعمار الأرض ، فإنه ينبغى علينا الاهتمام بالقيم الجمالية ، وبذر إشعاعاتها فى كل محيط بالفرد ، حتى يتعود على الإحساس بها والسعى فى طلبها ، والنظر إلى التذوق الجمالى على أنه وسيلة رئيسية تعطى للحياة مذاقا حلوا ، ومعنى بهيجا ، ذلك أن الفرد ، إذا كان يحتاج إلى متطلبات الحياة الضرورية ، فإنه يحتاج أيضا إلى الإشباع الوجدانى وتعود الإحساس بالجمال وتنمية المشاعر الرقيقة(١).

والتربية الجمالية هى تنمية الإحساس الجمالى فى الإنسان للوصول إلى الابتكار والإبداع والتذوق.

وينمو الإحساس بالجمال بوسائل متعددة ، منها الفنون الجميلة كالرسوم والتصوير والموسيقى التى من شأنها أن تقيم جسور اتصال بين مراكز الاستقبال الحسى لدى الإنسان ، ومصادر البث الجمالى المتبدية فى مظاهر الكون المختلفة ، فالطبيعة مشحونة بعناصر الجمال التى أوحت إلى الإنسان بالمثل الجمالية التى يجب أن يترسم خطاها (٢).

هذا ، وتتصل التربية الجمالية بالتربية الخلقية ، فالفرد الذى تبلورت فى ذهنه العاطفة الجمالية وقدرها ، يتطلع إلى مثالية سامية ، مثالية (الحق والخير والجمال) ، فيصور الفضيلة فى شكل جذاب يناسب أن يصير خلقا فيه ، كما يصور الرذيلة فى شكل قبيح لا يستسيغ التخلق به .

وللتربية الجمالية صلة أيضا بالتربية الاجتماعية حيث إن الشعر والغناء يعبر عما يمس البيئة والمجتمع بما يساعد الفرد على الاندماج فى بيئته الاجتماعية ، كما يعد الطفل الإعداد الخاص الذى من شأنه أن يجعله أكثر تفاعلا مع البيئة والمجتمع .

إن الجمال الذى يظن بعض الناس مخاصمة الإسلام إياه، هو - إذا نحن تأملناه- بعض من آيات الله - سبحانه وتعالى - التى أبدعها فى هذا الكون وأودعها فيه. إنه بعض من صنع الله وإبداعه- سبحانه-، سواه وسخره للإنسان طالبا من الإنسان أن ينظر فيه ويستجلى أسراره، ويستقبل تأثيراته، ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته(٣) . وأينما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(٢) محمد على المرصفى : التربية الجمالية فى الإسلام ، القاهرة ، مجلة دراسات تربوية ، ج٣٩ ، ١٩٩٢ ، ص ٢١١ .

(٣) محمد عمارة : الإسلام والفنون الجميلة ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩١ ، ص ١٧ .

يمم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه ، فإنه واجد آيات الله التى خلقها زينة للوجود ودعاه إلى النظر فيها :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات].

﴿ ...وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت].

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ [الحجر].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق].

فهذه الزينة – التى هى من آيات إبداع الله سبحانه وتعالى ، هى زينة – وجمال يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها ، بل ويقول لنا إن خلقها ليس للحفظ فقط ، ولا للمنفعة وحدها ، وإنما أيضا للزينة التى أبدعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال[1].

ومثال ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التى أبدعها فى صورة الحيوان المسخر للإنسان ، ليست المنفعة المادية وحدها هى الغاية من هذا الخلق والتسخير، وإنما الجمال والزينة أيضا غايات يتغياها الإنسان فى هذا الخلق الذى خلقه الله : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل].

والسنة النبوية الشريفة تبين لنا كيف تعمل التربية الإسلامية على إنماء الجانب الجمالى فى الإنسان [2] فالإسلام يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله الجمال، ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته ، والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة فى محراب العبادة ، عن أبى حيان قال رسول الله ﷺ: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوبى مهنته» [3] ، وقال ﷺ: «لا

---

(١) محمد عمارة : الإسلام والفنون الجميلة ، ص ١٨ .

(٢) عبد الجواد بكر : فلسفة التربية الإسلامية فى الحديث الشريف ، ٢٤٥ .

(٣) أخرجه أبو داود .

يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال :إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمص الناس» (أى احتقارهم)[1].

فالثياب زينة الإنسان ، بينما العرى حياة بدائية أو ردة إليها ، وجمال الثياب فى نظافتها وبساطتها وليس فى غلائها . ولقد قدم الرسول العظيم ﷺ بذلك مثلا عمليا ، فلقد ذكر البراء : «أن الرسول ﷺ كان مربوعا - بين الطويل والقصير - ولقد رأيته فى حلة حمراء ، ما رأيت شيئا قط أحسن منه» [2] . إنها حلة حمراء ، وكان الرسول أبيض الوجه ممتلئا حيوية ودموية[3] .

ويذكر أيضا صحابى آخر يقول: «رأيت رسول الله ﷺ وعليه ثوبان أخضران»[4]، فتعدد الثياب وبساطتها مما تقتضيه التربية الجمالية الأصيلة فى كياننا التربوى .

والورد من أجمل مظاهر الحياة النباتية فى مجالها الفنى للإنسان ، فيه يتم - بقدرة الله - تناسق اللون والشكل والحجم والرائحة الزكية ، وفيه يتم التلاقى بين مجالات الفنون ، إضافة إلى ذلك ما يسبغه الورد من آثار نفسية وبيئية أيضا ، وفى ذلك نرى الرسول ﷺ لا يغفل حتى هذه الجوانب الدقيقة فيقول : «من عرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل ، طيب الريح»[5] .

ووضع الرسول ﷺ معايير وضوابط للجمال تتفق مع ما جاء فى القرآن حتى يمكن تربية الإنسان المسلم على حب الجمال والإحساس به دونما أن يكون جمالا زائفا يتمثل فى جمال الثياب مثلا والتكبر بها والتعالى على الناس ، وكانت حياته ﷺ معيارا لهذه المعايير والضوابط ، فلقد جاء الرسول ﷺ محطما لكل قيم الجمال الزائف فى الأوثان ليهدى إلى جمال الحق الذى يضفى على كل شىء فى الكون رونقا وبهاء وتناسقا ويثير فى الوجدان والعقل والحواس إيمانا وتقديرا لقدرة الخالق المبدع[6] .

---

(١) أخرجه أبو داود ومسلم والترمذى .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٧٠ .

(٤) رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح .

(٥) رواه مسلم ، عن أبى هريرة .

(٦) عبد الجواد بكر : فلسفة التربية الإسلامية ، ص ٢٤٤ .

ولقد كان منهج النبوة الذى تجسد فى سلوك الرسول ﷺ ، فى خاصة نفسه ، ومع أهله فى تشريعه للناس ، كان هذا المنهج - بصدد التربية الجمالية والسلوك الجمالى - البيان العملى والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآنى الذى شرع الله فيه منهج الإسلام فى هذا الميدان ، فهذا الرسول الذى جاء رحمة للعالمين ، كان النموذج الأرضى للإنسان الذى يستشعر كل آيات الجمال فى خلق الله ، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالى ليغدو سنة متبعة فى مذهب الإسلام وحضارة المسلمين [1].

يروى ابن عباس فيقول : «كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير ، ويعجبه الاسم الحسن» [2] .

والذين يتأملون هذا السلوك فى ضوء قضيتنا ، يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط ، وهو ضد التشاؤم الذى لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات ، وأيضا هو غير السذاجة التى لا يبصر صاحبها لا الإيجابيات ولا السلبيات ، فالتفاؤل موقف إيجابى من جماليات الحياة وإيجابيات المحيط[3] .

و لا يتطير ، لأن المتطير هو الذى لا يرى من الأشياء إلا جانب القبح ، على حين أن هذه الأشياء - كل الأشياء - من وجوه الخير الجمالى ، ما يطرد التطير والتشاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال .

ويعجبه الاسم الحسن ، أى أنه ، ﷺ قد بلغ فى استشعار آثار الجمال إلى الحد الذى جعله يلمحها حتى فى الأسماء ، فهو يدرك أثر العنوان فى الدلالة والإيماء على المضمون والموضوع .

ولحسن الحظ فإن النظرة الشاملة ، وأيضا الاستقرائية للأحاديث النبوية التى رويت خاصة بـ (الصور والتماثيل) تؤكد أن التحريم مرهون ومشروط ومعلل بكون هذه الصور والتماثيل مظنة العبادة والإشراك بالله ، كما أنها تفصح عن أن هذه الأحاديث التى تنهى عن الصور والتماثيل إنما كانت تعالج شئون جماعة بشرية هى قريبة عهد بالشرك والوثنية ، وحديثة عهد بالتوحيد الإسلامى ، وأن توحيدها لله- سبحانه- قد خرج بها من هذه الحالة خروج الدواء بالمريض من مرحلة العلة إلى بدايات طريق

---

(١) محمد عمارة ، الإسلام والفنون الجميلة ، ٢٦ .

(٢) رواه الإمام ابن حنبل .

(٣) محمد عمارة ، الإسلام والفنون الجميلة ، ص ٢٧ .

الشفاء[1]، فهى قد خرجت من الوثنية وعبادة الصور والتماثيل ، لكنها كانت لا تزال فى دور النقاهة، الأمر الذى استدعى تركيز الأحاديث النبوية على النهى عن اتخاذ الصور والتماثيل ، سدا للذرائع ، وتقديما لدفع المضرة على جلب المنفعة - وهى قواعد تشريعية إسلامية - وذلك كيلا تعود هذه الجماعة إلى مرض الوثنية والشرك من جديد[2].

فإذا جئنا إلى التجربة العملية - وأيضا الذاتية - لرسول الله ﷺ مع الصور ، وفى داخل بيته ، ومع أهله ، رأينا الأحاديث التى تحكى هذه التجربة شاهدة على ما نقول ، فعندما تكون الصور مظنة شبهة الإيحاء بتعظيمها ، أو تمثل شاغلا يصرف المصلى عن الحضور المستغرق فى صلاته ومثوله بين يدى مولاه ، أو مظنة شبهة الإيحاء بأن التوجه فى الصلاة إنما هو إليها ، عندما يكون الأمر كذلك ، أو نحوا منه ، أو موهما لشىء مما يحتويه ، يكون نهى الرسول عنها ودعوته لإزالتها ، فإذا ما تحولت هذه الصور عن أماكنها هذه فزالت عنها تلك المظنة والشبهة ، غدت مقبولة فى بيت النبوة ، بل وأصبحت مما يستخدمه الرسول ﷺ[3] .

فعائشة أم المؤمنين ، تروى الحديث فتقول : «قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد اشتريت نمطا (ثوبا من صوف - أو بساطا) فيه صورة ، فسترته على سهوة بيتى (الرف أو الطاقة أو الكوة) ، فلما دخل ﷺ كره ما صنعت ، وقال : تسترين الجدر يا عائشة ؟ فطرحته فقطعته مرفقين (وسادتين) ، فقد رأيته متكئا على إحداهما، وفيها صورة»[4].

فكراهة الرسول ﷺ هنا للصورة ، قد ارتبطت بكونها ترفا يستهدف مجرد ستر الجدر، وبكونها ، بهذا الوضع ، فى مثل هذا الموقع مما يستقبله المصلى ، فتشغله أو توهم بمظنة استقبالها فى الصلاة ، فلما انتقلت الصورة إلى الوسادة لم يكرهها رسول الله ، ولم ينه عنها ، بل استخدم الوسادة ، وفيها الصورة كما تقول عائشة فى الحديث[5].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٤) رواه الإمام ابن حنبل .

(٥) محمد عمارة ، الإسلام والفنون الجميلة ، ص ١٢٤ .

وينقل الشيخ الغزالى عن ابن حزم قوله فى عدم حرمة الغناء وآلاته : «وبيع الشطرنج والمزامير والعيدان والمعازف والطنابير -حلال كله ، ومن كسر شيئا من ذلك ضمنه ، إلا أن يكون صورة ، تمثالا مجسما - فلا ضمان على كاسرها ، وتضمين المعتدى على هذه الأشياء واجب لأنها مال من مال مالكها» .

وقال : «وكذلك بيع المغنيات - من الجوارى - وابتياعهن ، وأساس الجواز فى كل ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ [البقرة :٢٩] ، وقوله : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة] ، وقوله : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ » [الأنعام] ، يعنى أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وأنه لا تحريم إلا بنص ، وقد فصل الله ما حرم فى كتابه على لسان نبيه ، ولم يأت نص بتحريم شىء مما ذكره فى البيوع السابقة ، ثم ذكر ابن حزم أن أبا حنيفة يوجب الضمان على من كسر شيئا من آلات اللهو آنفا[١] .

وقال : واجتمع المانعون بآثار لا تصلح ، أو يصبح بعضها ولا حجة لهم فيها ، منها أن عائشة أم المؤمنين- رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال : «إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها» ، قال ابن حزم ، وهو يناقش سند هذا الحديث: «فيه من الرواة (ليث) ، وهو ضعيف ، وسعيد بن أبى رزين ، وهو مجهول لا يدرى من هو ؟ عن أخيه ! وما أدراك ما أخوه ؟ هو ما يعرف ، وقد سمى ، فكيف أخوه الذى لم يسم» ؟

وعن على بن أبى طالب قال ، قال رسول الله ﷺ : «إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ... منهن : «واتخذوا القينات والمعازف ، فليتوقعوا عند ذلك ريحا حمراء ، وشحا وخسفا »· قال ابن حزم فى رواة الحديث هذا : «لاحق بن الحسين وضرار بن على والحمصى مجهولون ، وفرج ابن فضالة متروك» .

كذلك فند ابن حزم عددا آخر من المرويات على نفس النسق[٢] .

والحق أن الغناء كلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، هناك أغان آثمة تلقى فى ليالى ظالمة مظلمة ، وإن كثرت فيها الأضواء ، لا تسمع فيها إلا صراخ الغرائز ، أو

---

(١) محمد الغزالى ، السنة النبوية ، بين أهل الفقه وأهل الحديث ، ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

فحيح الرغبات الحرام ، وهناك أغان سليمة الأداء شريفة المعنى تكون عاطفية ، وقد تكون دينية ، وقد تكون عسكرية تتجاوب النفوس معها ، وتمضى مع ألحانها إلى أهداف عالية [١].

ولو تأملنا لوجدنا حب الغناء والطرب للصوت الحسن يكاد يكون نزعة فطرية ، حتى إننا لنشاهد الطفل الرضيع فى مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ؛ ولذا تعودت الأمهات والمرضعات والمربيات الغناء للأطفال منذ زمن قديم ، بل نقول إن الطيور والبهائم تتأثر بحسن الصوت والنغمات الموزونة ، قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وهو من هو من الرسول ﷺ: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا أكرهت عميت» ، وقال أيضا : «إن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة »[٢].

ومن مظاهر تربية الرسول ﷺ الجمالية أنه لم يكن عابس الوجه مقطب الجبين ، ومكفهر المظهر، ذلك أن الضحك أيضا نزعة فطرية لها قيمة عظيمة فى حياة الفرد وحياة المجموع ، وكان العرب يحبون الضحك ويهشون للضاحكين ، فسموا أبناءهم بالضحاك ، وببسام ، وبطلق وبطليق وبشير ، وبجذلان وبفرحان [٣] .

وكانوا يمدحون الرجل بأنه ضحوك السن ، بسام العشيات ، هش إلى الضيوف، ويذمونه بأنه عبوس وكالح وقطوب[٤]. وإذا كان البشر حميدا ، فهل هناك أحمد من رسول الله الذى نشأ على الأخلاق الكريمة ورباه الله أسمى تربية وعلمه أحسن تعليم .

ذكر على بن أبى طالب أن رسول الله كان دائم البشر ، سهل الخلق ، وكان أكثر الناس ابتساما فى وجوه أصحابه ، وتعجبا مما تحدثوا به ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، وذكر غيره أن النبى ﷺ كان أضحك الناس وأطيبهم نفسا [٥] .

وقد وصفته السيدة عائشة - رضى الله عنها - بأنه إذا خلا فى بيته كان ألين الناس ، بساما ، ضاحكا، وهذا حق ، لكن بشره وضحكه لم يكن فى بيته وبين أهله

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٢) يوسف القرضاوى : فتاوى معاصرة ،- الكويت - المنصورة ، دار القلم ، دار الوفاء ، ١٩٩٣، ج٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣) أحمد الحوفى : من أخلاق النبى ، ص ٣٩٢ .

(٤) بسام العشيات : كناية عن ترحيبه بضيوفه إذا جاءوا إليه وقت العشية . كالح : عابس ، مكشر . قطوب : زاو ما بين عينيه .

(٥) أحمد الحوفى ، من أخلاق النبى ، ص ٣٩٣ .

فحسب ، بل كان أيضا فى غير بيته ، وفى غير أهله ؛ ولهذا روى عنه أنه قال : «لا خير فيمن لا يطرب ولا يطرب» .

قال حنظلة : كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب ، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فدنت منى المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ ، ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت فى نفسى، قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة ، فخرجت وجعلت أنادى : نافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول : نافق حنظلة، فقال رسول الله : كلا ، لم ينافق حنظلة ، فقلت : يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه ، فقال ﷺ : لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة ، لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ، ولكن يا حنظلة : ساعة وساعة»[1].

ومن سعة النفس ، أن ينهض الرجل بعظائم الأمور ، بل بأعظمها جدا ووقارا وهو إقامة الأديان وإصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ، ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفا على المتفكهين ، ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ ، فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة ، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شىء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وإن نهضت بأعظم الأعمال [2].

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة [3] . سافر أبو بكر إلى بصرى تاجرا ومعه نعيمان ، وسويط بن حرملة عامله على زاده ، فجاءه نعيمان وطلب إليه طعاما فأباه عليه حتى يأتى أبو بكر ، فأقسم نعيمان ليغيظنه . وذهب إلى قوم فقال لهم: تشترون منى عبدا لى ؟ قالوا : «نعم» قال إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده . أنا رجل حر .. إلى أشباه ذلك ، فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه ، فلا تشتروه ولا تفسدوا على عبدى ... قالوا : لا . بل نشتريه ولا ننظر فى قوله ، فاشتروه منه بعشر قلاليص ، ثم أراهم إياه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحفلوا بقوله،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .

(٢) عباس محمودالعقاد : عبقرية محمد ، ص ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩١ .

وجعلوا كلما قال لهم : "أنا حر ! إنه يتهزأ ولست أنا بعبده" سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة ... فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه . ثم قدموا على رسول الله ﷺ فضحك من فعلة نعيمان ، وجعل يذكرها كلما رآه !

ومن فكاهاته ﷺ [1]:

- جاءت إليه امرأة فقالت : يا رسول الله ، احملنى على بعير ، فقال : بل نحملك على ابن البعير ، فقالت : ما أصنع به ؟ إنه لا يحملنى ، فقال : ما من بعير إلا وهو ابن بعير !

- قال لامرأة من الأنصار : الحقى زوجك فى عينه بياض ، فأسرعت المرأة نحو زوجها خائفة ، فقال لها : ماذا دهاك ؟ فقالت : قال لى رسول الله ﷺ إن فى عينيك بياضا ، فقال : إن فى عينى بياضا ، لا لسوء .

- أتته عجوز أنصارية فقالت : يا رسول الله ، ادع لى بالمغفرة ، فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العُجُز ، فصرخت ، فتبسم النبى ﷺ وقال : أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) ﴾ [الواقعة] ؟!

وكان الفكهون من أصحابه يضحكونه ، حينما يحسن الإضحاك والضحك ، وكان يتقبل فكاهاتهم ، ويأنس إليهم ، لكن سماحة المصطفى ﷺ وتبسطه لم تزد المسلمين إلا تعلقا به ، وظل هو المهيب أعظم ما تكون الهيبة .

المؤمن القوى :

وإذا كان المؤمن القوى خيرا من المؤمن الضعيف ، فما معنى القوة هنا ؟ إن المنهج التكاملى للإسلام يفترض أن القوة هنا تشمل الجانبين : الروحى والجسمى ، ومن ثم فإن لنا أن ننظر بالدهشة إلى كثير من الجهود التى كانت توجه إلى الجانب الروحى مهملة الجانب الجسمى ، بل إن الكثير من أركان الإسلام وشعائره بحاجة إلى الجسم القوى حتى يمكن الوفاء بها ، وإلا فكيف يمكن الجهاد بغير جسم قوى ؟ وهل يمكن الصوم بغير صحة جيدة ؟ وهل يمكن القيام بالحج بغير قدرة جسمية ؟ .. وهكذا .

وكفى بجسد الإنسان تشريفا فى التربية الإسلامية أن خلقه الله- سبحانه وتعالى- وسواه بيده ، فكما هو معروف أن الصنعة تأخذ قدرها وقيمتها من صانعها ، ويحكى

---

(١) أحمد الحوفى ، من أخلاق النبى ، ص ٣٩٥ .

القرآن عن تسوية هذا الجسد فى أكثر من آية ليعطى صورة واضحة له تتناسب ووظيفة الإنسان فى الحياة على هذه الأرض التى استخلفه فيها .

وهذا الجسد الذى سواه الله بيده فى أحسن صورة ، وهو معيار لتفضيل إنسان على إنسان لما يتمتع به الإنسان من قدرات وإمكانيات جسمية معينة تؤهله للقيام ببعض الأعمال بصورة أفضل ، وهو ما نراه فى قصة طالوت الذى اصطفاه الله سبحانه وتعالى ملكا على بنى إسرائيل لما كان يتمتع به من بسطة في العلم والجسم [1]: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾ [البقرة] .

فقوم طالوت قد تصوروا أن مضمون القوة إنما يتمثل فقط بالمال ، ولكن الله عز وجل نبه إلى أن معيار القوة فى الإنسان يتمثل فى أمرين هما : قوة العلم ، وقوة الجسم ، فالجسم هو الذى يتحرك ويعمل وينشط ويسعى ، لكنه بحاجة دائمة إلى العقل الواعى المزود بالمعرفة ليرشده ويفعل دوره ، ويسدد خطاه ، ويضبط حركته .

ويتفق علماء المسلمين على ما قاله حجة الإسلام الإمام الغزالى من أن مقصود الشرع من الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم، ونفسهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة [2].

وفى هذه الأصول الخمسة نجد أن الجسم داخل فيها ، فكل ما يحفظه هو مصلحة، وكل ما يضره مفسدة يجب دفعها ، وكل تشريعات الإسلام وأحكامه ، وآدابه تحث على ذلك بتوجيهات وإرشادات واضحة ، فهذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص يريد بصومه الخير وهو السمو الروحى وتزكية النفس وتقواها ، ولكنه يبالغ فى ذلك حتى حرم جسده من حاجاته ، يقول له ﷺ : «فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . قلت : يا نبى الله ، إنى أطيق أفضل من ذلك . قال فإن لزوجك عليك حقا ، ولزوارك عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا »[3].

---

(١) محمود أبو سمرة : التربية الجسمية فى القرآن والسنة ، فى : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الفكر التربوى العربى الإسلامى ، تونس ، ١٩٨٧ ، ص ٥٣٨ .

(٢) أبو حامد الغزالى : المستصفى ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٣٢٣ هـ ، ج٢ ، ص ٢٧٨

(٣) رواه مسلم فى صحيحه ، ج٨ ، ص ٤١ .

وهذا عقبة بن عامر يقول قلت : يا رسول الله ، إن أختى نذرت أن تمشى إلى البيت حافية غير مختمرة ، فيرد عليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : «إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئا ، لتحج راكبة ولتكفر يمينها»[1].

وفى أحاديث الرسول ﷺ ذكر لألوان من الطعام والشراب لقيمتها وأهميتها ، ثم نجد أيضا تخصيص أنواع غذائية بعينها لحالات مرضية ، هذا بالإضافة إلى اعتبار الغذاء المناسب أول بند من بنود العلاج بالنسبة للمرضى ، فالطعام فى ضوء الطب النبوى غذاء ودواء ، وعندما نحاول أن نتحرى ما كان يأكله الرسول سوف نجد نماذج مختلفة تدل على وعى بالعناصر الغذائية ، فمثلا نلاحظ أنه ﷺ كان يشرب العسل ممزوجا بالماء على الريق ، ومن وصاياه فى جامع الترمذى : «وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزودنا منه ، فإنه ليس شىء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن»[2] .

وكان ﷺ يقبل على اللحم ويقول عنه : «هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة»[3].

وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان ينتبذ له أول الليل ويشرب النبيذ - إذا أصبح يوم ذلك ، والليلة التى تجىء ، والغد ، والليلة الأخرى ، والغد ، إلى العصر، وهذا النبيذ هو ماء فيه تمر بحلية ، ولم يشربه بعد ثلاث خوفا من تغيره إلى إسكار .

وكان يأتدم الخبز والثريد باللحم ، ويحب الفواكه ، ولا يأكل الطبيخ البائت الذى يسخن ولا المتعفن ، كما روى عنه الثقات أنه لم يكن يلتزم بنوع واحد من الغذاء، بل يستفيد من الأصناف المختلفة التى تقبل عليها نفسه[4].

ولسنا فى حاجة إلى بيان أثر (الغذاء الصحيح) لسلامة الجسم .

وحذر الرسول ﷺ من الزيادة فى الأكل على قدر الحاجة ، وقال فى ذلك : «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لابد فاعلا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه»[5].

---

(١) عن محمود أبو سمرة ، مرجع سابق ، ص ٥٤٠ .

(٢) نجيب الكيلانى : فى رحاب الطب النبوى ، مجلة المسلم المعاصر ، القاهرة ، العدد ٢٣ ، ١٩٨٠ ، ص ٥٧ .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) نجيب الكيلانى ، فى رحاب الطب النبوى ، ص ٥٨ .

(٥) أخرجه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن .

وشرح ابن قيم الجوزية هذا الحديث بأن مراتب الغـذاء بناء على هذا تنقسم إلى ثلاثة : أولها : مـرتبة الحاجة ، وثانيـها ، مرتبة الكفـاية ، وثالثها ، مرتبـة الفضلة ، فأخبر النـبى ﷺ أنه يكفيه لقيمات يقـمن صلبه ، فلا تسقط قوته ولا تضعـف معها ، فإن تجاوزها ، فليأكل بحيث يكون حجم ما يأكل مما يملأ ثلث البطن ، ويكون هناك ما يماثل هذا الثلث للماء ، أما الثلث الأخير فإن قيمـته تستبان إذا عرفنا أن البطن إذا امتلأ من الطعام ، فـإنه يضيق عن الشـراب ، فإذا أورد عليه الشـراب ، ضاق عن النفس ، ودخل فى سلسلة متاعب وكسل الجوارح[1].

وإذا كـان من المتـداول أن الصـحة تـاج على الرأس لا يراه إلا المرضى تصـويرا لقيمتها العليا بالنسبة للإنسـان ، فإن للرسول ﷺ من الأحاديث ما يؤكد ما عليه صحة الإنسان من قيـمة عليا ، فعن ابن عباس قـال : قال رسول الله ﷺ : «نعمتان مـغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» [2].

وروى عبد الله بن محصن الأنصارى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح معـافى فى جسده ، آمنا فى سربه ، عنـده قوت يومه ، فكأنما حيـزت له الدنيا[3] » .
ومن حديث أبى هريرة أيضا عن النبى أنه قال : «أول ما يسـأل عنه العبد يوم القيامة : من النعيم ، أن يقال له : ألم نُصح لك جـسمك ، ونُروك من الماء البارد ؟!»[4]، ومن هنا ، قال من قال من السـلف ، فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر]، قال : عن الصحة[5].

ومما يرتبط بهذه القضية ما كان الرسول ﷺ يحرص عليه من نظافة وعناية بمظهره العام ، فقد كان يغتسل فى كل أسـبوع ، ويحافظ على غسل يديه قبل الطعام وبعده ، وحث الرسول ﷺ على غسل اليدين بصفة خاصة عقب الاستيقاظ من النوم مباشرة لأن اليدين هما وسيلتا المرء لتناول طعامه ، وهمـا من أكثر الأعضاء تعرض للأوساخ ، لأن الإنسان يعمل بهما ويستعملهمـا فى مسك مختلف الأشياء وحملها ، عن أبى هريرة أن

---

(١) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، د٠م ، د٠ن ، د٠ت ، ص ٢٢ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه الترمذى .

(٥) ابن قيم الجوزية ، الطب النبوى ، ص ٢٠٢ .

النبى ﷺ قال : «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدرى أين باتت يده» (١).

وكان رسول الله يحرص على استعمال السواك فى كل أحواله . وفى هذا روى عنه قوله : لولا أن أشق على المؤمنين لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة (٢). وسئلت عائشة : بأى شىء يبدأ النبى ﷺ إذا دخل بيته ؟ قالت بالسواك (٣).

وكان يحافظ على تعهد أطراف بدنه بالنظافة وإزالة الأوساخ عنها من قص شاربه وأظافره ونتف إبطه وحلق عانته ، وفى حديث جامع ، عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : «عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء» ، قال زكريا : قال مصعب : ونسيت العاشرة إلا أن تكون «المضمضة» (٤).

وكان يأمر بالنظافة ويحث عليها ويحذر من الوساخة بقوله : «إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، وكريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود»(٥).

وكان أنس - رضى الله عنه - يقول : كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، ويكثر القناع (٦).

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن النبى كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ، ثلاثة فى هذه وثلاثة فى هذه .

وكان - عليه الصلاة والسلام- يعتنى بتخليل أسنانه بعد تناول الطعام ويقول : «حبذا المتخللون من أمتى». وقد قيل له : وما المتخللون يا رسول الله ؟ قال : «المتخللون فى الوضوء ، والمتخللون فى الطعام ». أما تخليل الوضوء ، فالمضمضة

---

(١) صحيح مسلم ، ج١ ، ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٥) قال الخافجى فى شرح الشفاء ، إنه ضعيف ينجبر بطرقه فيصير حسنا ، ومعناه صحيح .

(٦) القناع : خرقة توضع على الرأس حين استعمال الدهن لتقى العمامة منه .

والاستنشاق وبين الأصابع ، وأما تخليل الطعام ، فلأنه شيء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبها طعاما وهو قائم يصلي[1] .

وكان يراعي الأحوال والمناسبات ، فإذا جاء الوفود كان له حال آخر في مقابلتهم، فيتجمل بثوبه أو بجبته ، أو بما هو حاضر لديه مما يناسب القادم وحاله ، وإذا جاء العيد لبس حلة مخصوصة ، وكذلك الجمعة ، وكان يأمر بذلك ويقول : «أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس » .

ويقول : «إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2].

وكان يعتني بنظافة بيته ويحب أن يكون نظيفا ، ويحث الناس على ذلك ، ويقول : «نظفوا أفنيتكم»!

ومن غير شك فإن تلوث البيئة له أثره الضار على صحة الإنسان ، ومن هنا نلاحظ نهي الرسول ﷺ عن البزاق ، وخاصة في الأماكن العامة التي يرتادها عدد كبير من الأفراد ، وتطلبت الوقاية الصحية دفن البزاق في التراب في زمن الرسول ﷺ أو استعمال مناشف ورقية كما هو الحال في عصرنا الحاضر ، ونحوها [3] .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها» [4] .

وشدد رسول الله ﷺ في النهي عن التغوط في الطرق أو أماكن الظل ، وما إليها من الأماكن العامة التي يؤمها الناس ، حماية لهم من انتقال العدوى ، وتوقيا لانتشار الأمراض بينهم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «اتقوا اللعانين» ، قالوا : وما اللعانان يا رسول الله ؟ قال : «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»[5].

وأمر رسول الله ﷺ بعدم تلويث المياه ببول أو غائط ، أو غيرها من عوامل القذارة والأوساخ المؤذية للصحة والناشرة للأمراض بشرب أو اغتسال، عن جابر عن

(١) محمد بن علوى : محمد ﷺ ، الإنسان الكامل ، جدة ، دار الشروق، ١٩٨٢، ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣) عبد الحميد الزناتي : أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية ، ص ٢٦٨ .

(٤) صحيح مسلم ، ج٢ ، ص ٧٧ .

(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٦ .

رسول الله ﷺ أنه نهى أن يبال فى الماء الراكد[1]. وعن أبى هريرة عن النبى قال : «لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل به»[2] .

ووجه رسول الله ﷺ المسلمين إلى العناية بحسن تنظيف أوانيهم ومعداتهم وأدواتهم التى يستعملونها فى حياتهم وخاصة أدوات الطعام ،عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «طهروا إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولهن بالتراب»[3] ، ولنا هنا أن نفهم القصد والغاية ، وبالتالى فإن الوسيلة قد تختلف باختلاف الزمان ، فها هنا فى زماننا الحاضر نجد متوافرا بين أيدينا ما يصعب عده من وسائل التنظيف التى لم تكن متاحة من قبل ، يمكن الاعتماد عليها .

وليس من ريب فى أن للرياضة البدنية أثرا عظيما فى قوة الجسم ومناعته وإقداره على الجهاد والنضال ، ومن هنا كانت عناية الرسول العظيم ﷺ بها والحث على ممارستها ، ويتضح لنا هذا من خلال المجالات التالية :

أ - **الرمى** : فلم تخل الإرشادات الواردة فى أقوال الرسول عن لفت الأنظار إلى جملة من أنواع الرياضة البدنية ومنها الرمى ، وبه فسر النبى ﷺ القوة المأمور بإعدادها فى قوله تعالى : ﴿ وأعدُّوا لَهُم مَّا استَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال]، فقال : «ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى» ، وكرر النبى ﷺ عبارته للترغيب فى تعلم الرمى وإعداد آلاته ، وقد قال العلماء فى شرح الحديث[4]: فيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية بإعدادها ليتمرن بذلك الإنسان على الجهاد ، ويتدرب فيه ، ويروض أعضاءه ، وقد مر النبى ﷺ على نفر من أسلمة ينتضلون بالسوق ، فقال : «ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان»، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال لهم الرسول ﷺ : «ما لكم لا ترمون »؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : «ارموا وأنا معكم جميعا » . ومعنى ينتضلون : يترامون بالنبال ، ولا يكون الرسول ﷺ معهم - وهى معية رضا ومشاركة فى النية والقصد - إلا والذى يعملون فيه خير وصلاح ، يقره الدين ويحبب فيه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق٣٣٧ .

(٤) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، القاهرة ، دار الشروق ، د.ت ، ص ١٥٧ .

وحديث الرمى ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم فى كسب المعارك ، والرمى أعم من أن يكون بالسهام أو بالرصاص أو بالقنابل ، وعن فقيم اللخمى ، قال: قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين - تتردد بينهما - وأنت شيخ كبير يشق عليه ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه ، قال : وما ذاك ؟ قال سمعته يقول : «من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا» [1].

إن هذا يبين لنا كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم فى إصابة الهدف ، ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعا [2]،عن أبى نجيح السلمى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة »، فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعته يقول : «من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل (يساوى) رقبة محررة» [3] .

وفى سبيل المزيد من التشجيع والحث على الاشتغال بالرمى ، قال رسول الله ﷺ ، فيما رواه عقبة بن عامر : «إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة :

١- صانعه يحتسب له فى عمله الخير .

٢- والرامى به .

٣- ومنبله (الممد به) ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمودا به إلا ثلاثة :

١- تأديب الرجل فرسه .

٢- وملاعبته أهله .

٣- ورميه بقوسه ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها» [4].

---

(١) صحيح مسلم ، ج٢ ، ص ٥٢ .

(٢) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ٢٢٥ .

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود ، ج٢ ، ص ١٦٥ ، والنسائى ، ج٢ ، ص ٥٩ ، وابن حنبل، ج٤ ، ص ٣٨٤ .

(٤) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ٢٢٥ .

وعن ابن عمر، أن الرسول ﷺ افتقد رجلا ، فقال : «أين فلان ؟» فقال قائل : ذهب يلعب ، فقال رسول الله ﷺ ، فالنار فى اللعب، فقال له رجل : يا رسول الله، ذهب يرمى، فقال الرسول ﷺ: «ليس الرمى بلعب، الرمى خير ما لهوتم به»[1].

ولقد ثبت أن صحابة رسول الله ﷺ مارسوا الرمى دون انقطاع وشجعوا أبناءهم على ذلك ، عن ثمامة قال : كان أنس يجلس ويطرح له فراش ويجلس عليه ويرمى ولده بين يديه ، فخرج علينا يوما ونحن نرمى ، فقال : يا بنى ، بئس ما ترمون ، ثم أخذ القوس فرمى ، فما أخطأ القرطاس . وأيضا قال إبراهيم التيمى عن أبيه : رأيت حذيفة يعدو بين الهدفين بالمدائن فى قميص ، وقال الأوزاعى عن بلال بن سعد : أدركت قوما يشتدون بين الأغراض يضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا كان الليل كانوا رهبانا ، وقال مجاهد : رأيت ابن عمر يشتد بين الهدفين ويقول : أنا بها[2] .

ب - السباحة : وروى أيضا أنه ﷺ قال : «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى ، فذكر نوعين آخرين مع الرمى : الكتابة والسباحة ، والكتابة مع فائدتها الأصلية وهى تقييد العلوم والمعارف وتدوين ما يحتاج إلى تدوين ومحو الأمية ، فيها رياضة موضعية ، هى ترويض أصابع اليد وتمرينها على الحركة ، وإن ذلك ما يجعلها ذات قوة وتحمل . والسباحة ، مع أنها من طرق إنقاذ الغرقى ، واصطياد ما فى قاع البحر من معادن ، ومع أنها مران على الجهاد البحرى ، هى فى الوقت نفسه ترويض لأعضاء الجسم كله ، وهى بإطلاقها تشمل حركة الجسم فى الماء والتجديف وسائر ما عرف من أنواعها فى هذه الأيام .

وعن الزهرى قال : لما بلغ الرسول ﷺ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله عدى بن النجار بالمدينة تزورهم ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار النابغة فأقامت به عندهم شهرا ، فكان النبى ﷺ يذكر أمورا كانت فى مقامه ذلك . ونظر إلى النار فقال : «نزلت بى أمى وأحسنت العوم فى بير بنى عدى بن النجار »، فأخرج القاسم البغوى ، قال: «دخل رسول الله ﷺ وأصحابه غدير ماء فقال : يسبح كل رجل إلى صاحبه ، فسبح كل منهم إلى صاحبه ، فسبح ﷺ إلى أبى بكر واعتنقه ، وقال: لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، لكنه صاحبى»[3] .

---

(١) عن : محمود أبو سمرة : أهداف التربية الرياضية فى الدين الإسلامى ، رسالة ماجستير ، كلية التربية الرياضية ، جامعة حلوان ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

ج- العدو (الجرى) والمصارعة : وكما ورد الحث على الرمى والسباحة ، هكذا ورد أن النبى كان يرى أصحابه يتسابقون على الأقدام ويقرهم عليه ، وقد صح عن عائشة أنها قالت : «سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته ، ثم سابقنى فسبقنى ، فقال : هذه بتلك» .

وروى أن النبى ﷺ صارع رجلا معروفا بالشدة فصرعه النبى ﷺ، فقال : عاودنى فى أخرى، فصرعه الرسول ﷺ فى الثانية ، فقال : عاودنى ، فصرعه الرسول ﷺ فى الثالثة، فقال الرجل: ماذا أقول لأهلى ؟ شاة أكلها الذئب وشاة نشزت ، فماذا أقول فى الثالثة؟ فقال النبى ﷺ: ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك، خذ غنمك وانصرف!

وصارع النبى ﷺ كذلك أبا الأشدين كلدة بن أسيد بن خلف الجمحى فصرعه مرارا[1]، وكان أبو الأشدين هذا كافرا مستهزئا بالرسول الكريم وبالقرآن المجيد ، ويروى أنه لما نزل قوله عز وجل يصف النار وزبانيتها : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ [المدثر]، قال أبو الأشدين : اكفونى منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر . قال هذا إعجابا بنفسه واغترارا بقوته ، وكان قد بلغ من الشدة فيما زعموا أنه كان يقف بمفرده على جلد البقرة ويجاذبه عشرة رجال لينتزعوا الجلد من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ، ولا يتزحزح كله عنه . وقد تحدى كلدة النبى ﷺ ، ودعاه إلى المصارعة ، وقال لرسول الله : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه الرسول ﷺ مرارا ، ومع ذلك لم يؤمن !!

ولقد صارع رسول الله ﷺ من صارع ، وتغلب عليهم مرارا دون مباهاة منه أو افتخار ، وهذا هو التواضع الكريم ، وهذا هو الاطمئنان النبيل عند الفوز والانتصار[2].

د- المبارزة (اللعب بالحراب) : كما وردت فى أنواع الرياضة السابقة وردت أيضا المبارزة (اللعب بالحراب أو الشيش) ، فعن أبى هريرة قال : «بينما الحبشة يلعبون عند النبى ﷺ بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصباء فحصبهم»، فقال رسول الله : «دعهم يا عمر »، وقد قال بعض العلماء : «اللعب بالحراب فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو» .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

هـ-ركوب الخيل : وقد نوه القرآن بالخيل وذكر رباطها فى إعداد القوة وللجهاد ، وصح أن النبى ﷺ سابق بين الخيل وأعطى السابق ، وأنه كان يسابق على ناقته العضباء، وكانت لا تسبق ، وقد سبقت مرة ، فاشتد ذلك على المسلمين ، وقالوا : سبقت العضباء ، فقال رسول الله ﷺ : «إن حقا على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه» ، وهذا من العبر الخلقية التى يكتسبها الإنسان من تأخر القوى عن الضعيف فى ميدان السباق[1] .

والرياضة فى نظر الطب النبوى تساعد على تخليص الجسم من فائض أو زائد الأغذية ، لأن الاحتراق الناجم عن الحركة يقضى على المختزن الزائد فى الأنسجة من المواد الغذائية ، فالأكل مع التراخى والكسل وقلة الحركة يضر بالجسم ويؤدى إلى السمنة التى يعقبها مخاطر جمة ، وللغذاء مخلفاته وسمومه مثل الدواء تماما ، ولا خلاص من هذه التراكمات الضارة إلا بالرياضة المناسبة أو الصوم ، فالرياضة تكسب الجسم خفة ونشاطا ولياقة ، وتقوى العضلات والأربطة ، وتحمى من الأمراض البدنية والأمراض النفسية ، أو على حد تعبير ابن قيم الجوزية تؤمن جميع الأمراض المادية ، وأكثر الأمراض المزاجية (النفسية) إذا استعملت بالقدر المعتدل منه فى وقته ، وكان باقى التدبير صوابا [2].

كما يحدد الطب النبوى وقتا للرياضة فيشترط أن تكون بعد انحدار الغذاء ، وكمال الهضم ، وهو ما يتفق مع النظريات العلمية الحديثة ، أن الرياضة بعد الأكل مباشرة لها مضارها إذ إن الدم يتدفق بنسبة أكبر عقب الأكل مباشرة إلى المعدة ، فإذا مورست الرياضة فى تلك الفترة زاد العبء على القلب ، وخاصة المسنين ومرضى القلب - والمصابين بقصور الدورة الدموية التاجية وحاق بالقلب أضرار قد تكون بليغة[3] .

ومن عجب حقا أنه على الرغم من هذا الثراء الذى تحويه السنة الشريفة دالا على أهمية الإعداد الجسمى والتربية الصحية ، فإن استقراء الواقع التعليمى للمسلمين فى

---

(١) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٢٩ .

(٣) نجيب الكيلانى ، فى رحاب الطب النبوى ، مجلة المسلم المعاصر ، ج٢٤، ١٩٨٠ ،ص٧٤.

كثير من العهود السابقة يبين خلوا منه يكاد يكون بارزا . وفى رأينا أن هذا إنما كان بسبب مؤثرات أخرى تسللت إلى الثقافة الإسلامية تميل إلى إهمال ما يتصل بالبدن والعمل .

إن الإسلام دين جهاد وكفاح ونضال منذ بدء الحياة إلى انتهائها ، وقوام هذا وأصله ، القوة والتمكن ، القوة بكل مظاهرها وبكل مجالاتها .. هو الرغبة الدافقة فى كل شيء وإتيانه على الوجه الأكمل ، على أن يكون هناك مظهر آخر للقوة هو القدرة على الضبط فى غير جموح يطلق سعارها ، وفى غير كبت مغال فيه يميتها .

تعليم النساء :

من العبارات التقليدية التى يسوقها الكتاب والباحثون الذين يطرقون موضوعا كهذا الذى نتناوله الآن ، القول بأن المرأة هى نصف المجتمع ، إنها حقيقة اجتماعية لا شك فيها ، ولكن ، هل هى الأساس القاعدى لنا للمناداة بضرورة تعليمها وتمتعها بما يتمتع به شريكها الرجل من الحقوق والمزايا ، وما يلتزم به من الواجبات والتكاليف ؟ إننا لو اقتصرنا على هذه المقولة ، فإنما نمهد منذ البداية إلى فشل القضية وخسارتها ؛ لأننا بذلك نحصرها فى نطاق كمى بحت ، ومن قال إن مجرد العدد يرتب حقوقا وينشئ التزامات ؟ وهل يعز علينا أن نضرب الأمثال بالعديد من الكائنات الحية الأخرى التى ربما فاقت عددا وكما ، ومع ذلك لا يكسبها هذا الكم حقوقا معينة ؟

والقضية إذن قضية إنسانية بالدرجة الأولى ...

والقضية فى الحقيقة اجتماعية فى المقام الأول ..

والقضية فى لحمتها وسداها دينية بما لا يدع مجالا للشك[1]:

فأما أنها «إنسانية »، فلأنها تتصل بالمرأة ، المخلوق الوحيد الذى يشارك الرجل فى إنسانيته ، وهى ، وهو ، بحكم هذه الإنسانية يحتلان مركزا معينا بين سائر مخلوقات الله ، مركزا يجعلهما أصحاب حق فى كذا وكذا من الحقوق الإنسانية العامة المعروفة ، بحيث لا يكون من المقبول إنسانيا أن يقتصر أحد نوعى الإنسان بها دون الآخر .

---

(١) زينب حسن حسن : تعليم المرأة فى الفكر التربوى العربى الإسلامى ، ص ٩٥٠ .

(٢) محمد عزة دروزة : المرأة فى القرآن والسنة ، بيروت، المكتبة العصرية ، د.ت ، ط٢ ، ص٤٦ .

وأما أنها اجتماعية ، فلأنها تتصل بتلك الإنسانية التى بدونها يستحيل على الرجل أن يكون «الأسرة»، التى هى الخلية الأولى للمجتمع ، وفى رحمها يتشرب الناشئة تقاليد وعادات ومهارات ولغة المجتمع ومثله وآماله ، وبدونها يستحيل أن يتم التواصل البيولوجى بين أجيال البشرية بما تفرزه من مواليد جديدة تتحمل هى دون الرجل مشقة الفترة الأولى فى تكوينها .

وأما أنها دينية ، فهذا هو ما سنحاول بيانه من خلال السنة النبوية . .

وتساق بعض الأحاديث فى معرض نقص عقل المرأة وضعف خلقها (٣٥٣) ، منها حديث أخرجه ابن أبى أمامه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النساء سفهاء إلا التى أطاعت زوجها » .

وحديث رواه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا »، وفى رواية ، إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن ذهبت تقيمها ، كسرتها ، وكسرها طلاقها .

وحديث رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى يقول : «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل العاقل الحازم من إحداكن » . قلن : وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : «أليس شهادة المرأة كنصف شهادة الرجل ؟» قلن : بلى يا رسول الله . قال : «فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ؟» قلن : بلى يا رسول الله ، قال :«فذلك من نقصان دينها » .

وتعليقا على ذلك نقول: إن كتاب الله وسنة رسوله قررا أهلية المرأة لكل تكليف إيمانى واجتماعى وتعبدى ومالى وجهادى وأخلاقى كالرجل بدون أى تمييز ، ورتبا عليها كل ما رتباه على الرجل نتيجة لكل عمل تقوم به من ذلك ثوابا وعقابا وحدا فى الدنيا والآخرة بدون أى تمييز [1]، وهذه نقطة هامة من حيث إن مسئولية ناقصى العقل فى الواجبات والجرائم لا يصح أن يكون مثل تام العقل ، وعينا لها نصيبا فى الإرث ، وأمرا بأدائه لها ، وأوجبا أداءه لها ، وقررا لها الحق المطلق فى التصرف فى كل ما يدخل فى يدها من مال مهما كان عظيم المقدار دون أى تدخل أو إشراف أو إذن من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

الرجل مهما كانت صلته بها فتبيع وتشترى وتستملك العقار والأرقاء والأرضية وتزرع وتحصد وتستدين وتهب وتقبل الهدية وتوصى وتأخذ الوصية وتعتق وتكاتب وتؤاجر وتستأجر ، وجعلا أمرها بيدها إذا لم تكن قاصرة ، فتزوج نفسها بدءا ومراجعة وتفتدى نفسها من زوجها وتصالحه وتجادل عن نفسها رسول الله ﷺ ومن دونه .

كذلك فقد أوجبا عليها كل ما أوجبا على الرجل من التفكير فى آلاء الله والتدبر فى كتاب الله والتعلم والتعليم ، وقررا أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وبعضهم من بعض ، ونوه بالمؤمنات الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات الصائمات المتصدقات الحافظات لحدود الله والذاكرات الله على قدم المساواة مع الرجال[1]. واعترفا بشخصيتها فى نطاق الدولة ، وأخذت منها البيعة مستقلة عن الرجل مما فيه الدلالة على ذلك ، وأوجبا عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاون على البر والتقوى والتواصى بالحق والصبر والمرحمة .. إلخ ، ولا يصلح كل هذا إلا مع فرض الأهلية للمرأة ومساواتها عقلا وخلقا وقابلية ومواهب وجبلة .

والحديث الذى يذكر أن النساء سفهاء ليس من الأحاديث الصحيحة ، ويتحمل التوقف إزاء ما قرره الله ورسوله من كل ما تقدم ، وحتى لو صح ، فإنه يستثنى من يطعن أزواجهن ، وهن عادة الأكثرية الساحقة من النساء ، وقد يكون من الحكمة فيه ، إذا صح ، حث النساء على الطاعة ، وبيان كون نشوزهن هو من قبيل السفه وقصور العقل [2].

كذلك فإن الله عز وجل ، إذ قال : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥﴾ [النساء] ، فقد نسب لابن عباس أن المقصود بالسفهاء هنا هم النساء والصبيان !

لكن القرضاوى يرى أن هذا التفسير مرجوح ضعيف ، وإن نقل عن حبر الأمة ابن عباس ، ولو صحت نسبته إليه ، وإلى غيره من مفسرى السلف . والصواب الذى عليه جماهير الأمة أن تفسير الصحابى للقرآن ليس حجة فى نفسه ملزمة لغيره ، وليس له حكم الحديث المرفوع كما زعم بعض المحدثين [3]، ودعاء النبى ﷺ لابن عباس أن يعلمه الله تعالى التأويل ، لا يعنى منحه العصمة فيما يذهب إليه من تأويل ، إنما معناه

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) يوسف القرضاوى : فتاوى معاصرة ، ج٢ ، ص ٢٥٨ .

أن يوفقه إلى الصواب فى جل تأويلاته لا فى كلها . ولا غرو أن كان لابن عباس آراء واجتهادات فى التفسير وفى الفقه لم يوفقه عليها جمهور الصحابة ، ثم جمهور الأئمة من بعدهم [1].

ثم إن السفهاء اسم ذم ؛ لأن مضمونه خفة العقل وسوء التصرف ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يذم الإنسان على ما لم يكتسبه ؟ كيف تذم المرأة لأنها امرأة ، وهى لم تخلق نفسها ، بل خلقها بارئها ؟ وقد قال تعالى : ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران]، وفى الحديث : «إنما النساء شقائق الرجال» [2].

وأخيرا ، فكيف يصدق وصف السفه على عموم النساء ، وفيهن مثل خديجة ، وأم سلمة ، وعائشة ، من أمهات المؤمنين ، وغيرهن من الصالحات الفضليات ؟!

وروايات الحديث الذى يذكر أن المرأة خلقت من ضلع أعوج كلها جاءت فى سياق الإعلاء من قيمة المرأة واعتبارها ، حيث أورده مسلم بعد حديث أن خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، وليس فوق هذا من اعتبار حيث جعلت (المرأة) أعظم ما يكنزه الإنسان فى دنياه من كنوزها حين تكون المرأة صالحة . وفى أحاديث أبى هريرة يرد الأمر بالوصية بها فى بداية الحديث ، وفى نهايته . كذلك يرد - فى حديث البخارى - بعد الوصية بالجار الذى قال عنه النبى ﷺ : «ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه» [3] ، فسياقه فى عمومه سياق طيب يعطى معنى الحض على زيادة الاهتمام بها والإعلاء من قيمتها وتأكيد الوصية بها [4].

ولعل معنى الوصية بها بعد الوصية بالجار - فى حديث البخارى - يرجع إلى ما يراه جمع من المفسرين (منهم على وابن مسعود وابن عباس) أن الصاحب بالجنب فى قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء] إنما هو : المرأة التى تعيش مع الرجل فى المنزل جنبا إلى جنب [5]، وتصاحبه وتشاركه فى أموره كلها .

---

(1) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(2) مسند الإمام ابن حنبل ، ج٦ ، ص ٢٥٦ .

(3) صحيح البخارى ، عن عائشة ، كتاب الأدب ، باب الوصية بالجار .

(4) محمد بلتاجى : بحوث مختارة فى السنة ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٨ .

(5) محمد بلتاجى ، بحوث مختارة فى السنة ، ص ٢١٩ .

فإذا كان هذا الحديث قد صدر على سبيل توصية الرجال بالنساء خيرا ، ورعايتهن والإغضاء عما يقع من هنات ، فإن الأسلوب الذى جاء به متسق مع ما كان فى الأذهان من مركز المرأة قبل الإسلام والذى جاء الإسلام بتعديله وليس من شأنه أن يساق على سبيل التعميم لكل النساء ، إنما للقلة منهن فيما يتبادر لنا من روحه ونصه ، وليس فيه على كل حال نقص مما احتوته النصوص من تقرير أهلية المرأة لجميع الواجبات والتكاليف والحقوق المتنوعة أسوة بالرجل سواء بسواء[1].

وبالنسبة للحديث الثالث ، فإن وصف النبى ﷺ لأحوال النساء قد تضمن أن المرأة لا تصلى ولا تصوم أثناء الحيض الذى يتكرر كل شهر ، وهذا جعلها تنقص عن الرجل فى أمور الدين . وتضمن الحديث أنها فى الشهادة لا تتساوى مع الرجل؛ لأن الله قد جعل دليل شهادتها على النصف من دليل شهادة الرجل ، والسبب ، كما جاء فى القرآن الكريم هو قوله تعالى : ﴿ **أن تضلَّ إحْداهُما فتُذكّر إحْداهُما الأُخْرىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، أى خشية أن تنسى فتذكرها الأخرى التى حضرت موضوع الشهادة[2] وقد وصف النبى هذا بأنه نوع من نقصان العقل ، وهذا أمر نسبى ، لكن هذا النقص لا يراد به إنقاص مكانة المرأة ووضعها القانونى والاجتماعى ، فقد روى الخمسة أن النبى ﷺ قال : «إنما النساء شقائق الرجال» [3].

فاختلاف ذاكرة الرجل عن المرأة هو السبب فى جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل كما جاء فى القرآن الكريم ، وهذا ما وصفه النبى ﷺ بأنه نوع من نقصان العقل ، وهذا وصف معنوى لا يتساوى فيه النساء جميعا ، بل هو الوصف الغالب لأكثرهن والحكم الشرعى يبنى على الأمر الغالب . وهذا النقصان ليس له أثر فى الفقه الإسلامى إلا فى الشهادة على الأموال ، وذلك حفظا للحقوق ، كما هو الحال فى اشتراط أربعة شهود من الرجال لإقامة حد الزنا وشهادة المرأة وحدها فى الولادة [4] .

بل إن استقراء السيرة النبوية العطرة التى مرت بنا ، وما لاقاه المسلمون الأوائل من محن تبين مكانة مرموقة ومركزا عاليا للمرأة بالنسبة للرسول ﷺ . إن زوجة الرجل

---

(١) محمد عزة دروزة ، المرأة فى القرآن والسنة ، ص ٤٨

(٢) البهنساوى : السنة المفترى عليها ، ص ٢٣٠

(٣) ذكر هذا الحديث فى الصفحة السابقة .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣١

فى حياتهـا مع زوجها تكون عادة من أعرف الناس بدخـائل نفسيته الخاصـة ، وبسلامة سلوكه ، وإذن فشهادتها تكون من أصدق الشهـادات ولا سيما إذا كانت معروفة برزانة العقل وسداد الرأى .

والسيدة خديـجة بنت خويلد ، أم المؤمنين الكبرى ، كما مـر بنا ، وهى التاجرة التى حنكتهـا الأيام والتجارب ، وعـرفت الرجال بأعمـالهم ، حين كانت تستـأجرهم للسفر بعيـدا بتجارتها ، كما أنها هى التى عرفت الرسـول ﷺ قبل أن يبعث رسولا ، وقبل أن يـكون لها زوجا ، حين أرسـلته بتجـارتها إلى الشـام ، فعـرفت فيـه الصدق والأمانة . هذه السيدة ، كانت القلب الإنسـانى الأول الذى تفتح بالإيمان بصدق رسالة الرسول المربى الكريم [1].

وكما كانت المرأة أول قلب تفتح بالإيمان برسالة الرسول ﷺ ، كذلك كانت المرأة أول شهيدة قدمت دمها وحياتها فى سبـيل الله شهيدة طاهرة ، إنها السيدة سمية زوجة ياسر وأم عمار ، أسرة طيبة ، فقد كانت من السابقين الأولين . وقد لقيت هذه الأسرة الكريمة كل عنت وعذاب فى سبيل الله ، حتـى مات ياسر فى التعذيب ، وهنا أغلظت سمـية القول للظالم أبى جـهل ، فما كـان من جبروتـه إلا أن طعنها بحربة فـماتت ، فكانت أول شهيدة فى الإسلام ، رضى الله عنها وعن آل ياسر جميعا [2].

والمرأة عندما تقتنع بفكرة فإنها تقدم المثل الأعلى فى التضحية والفداء والإخلاص لها ، ويتـجلى ذلك فى وقت الشدائد والأزمـات ، وتلك أم عمارة نـسيبـة بنت كعب المازنية يوم أحـد تسقى المجاهدين ، فلمـا رأت الرسول ﷺ وقد أحاط به المشـركون ، وانهزم عنه الناس سـاعة الفتنة الطارئة ، عند ذلك وضـعت أم عمارة سقـاءها وأخذت سيفا ، وجعـلت تقاتل قتال الرجال فى أشده ، وإنها لحاجـزة ثوبها فى وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا، وظل فى رقبتها من هذه الجروح جرح أجوف ، وكان رسول الله فى ذلك اليوم يقول: «ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تدافع دونى»[3].

وقد جاءت الغالبية العظمى من التكاليف والتوجيهات فى القرآن الكريم والحديث الشريف بصيـغة الخطاب للمذكر من المؤمنين والمسلمين ، واختلفت الآراء فـيما إذا كان الحكم فيهـا يكون للذكر فقط أم للذكر والأنثى على حد سـواء . وفى هذا يقول الإمام

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

ابن حزم : «اختلف الناس ، فقالت طائفة إذا مـا ورد الأمر بصورة خطاب الذكور فهو على الذكور دون الإناث إلا أن يقوم دليل على دخول الإناث فيه ، واحتجوا بأن قالوا: إن لكل معنى لفظا يعبر عنه ، فخطاب النساء افعلن ، وخطاب الرجال افعلوا ، فلا سبيل إلى إيقاع لفظ على غير ما علق عليه إلا بدليل ، قال على (يقصد الإمام نفسه)، وبهذا نأخذ ، وهو الذى لا يجوز غيره . والدليل الذى استدلت به الطائفة الأولى هو أعظم الحجة عليهم ، وهو دليلنا على إبطال قولهم ، لأن لكل معنى لفظا يعبر به كما قالوا ولابد ، ولا خلاف بين أحد من العرب ولا من حاملى لغتهم أولهم عن آخرهم فى أن الرجال والنساء ، وأن الذكور والإناث إذا اجتمعوا وخوطبوا أخبر عنهم . وأن الخطاب والخبر يردان بلفظ الخطاب والخبر عن الذكور إذا انفردوا ولا فرق ، وأن هذا مطرد أبدا على حالة واحدة ، فصح بذلك أنه ليس لخطاب الذكور - خاصة - لفظ مجرد فى اللغة العربية غير اللفظ الجامع لهم وللإناث إلا أن يأتى ببيان زائد بأن المراد الذكور دون الإناث ، فلما صح ، لم يجز حمل الخطاب على بعض ما يقتضيه دون بعض إلا بنص أو إجماع . فلما كان لفظة افعلوا والجمع بالواو والنون وجمع التكسير يقع على الذكور والإناث معا ، وكان الرسول ﷺ مبعوثا إلى الرجال والنساء بعثا مستويا ، وكان خطاب الله تعالى وخطاب نبيه ﷺ للرجال والنساء خطابا واحدا ، لم يجز أن يخص بشيء من ذلك الرجال دون النساء ، إلا بنص جلى أو إجماع ، لأن ذلك تخصيص الظاهر ، وهذا غير جائز ، وكل ما لزم القائلين بالخصوص فهو لازم لهؤلاء»(١).

وبهذا المعنى نفهم قوله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم »، فإن الخطاب هنا موجه للذكور والإناث ، كما أن تنكير كلمة مسلم هنا نفهم منها الاستغراق كما يقول علماء المنطق والبلاغة بمعنى أن يستغرق كل المسلمين والمسلمات (٢).

وعلى ذلك ، فإن التربية ، إذا كانت هى ما يتلقاه الذكر والأنثى أساسا من أبويهما وبيئتهما من أخلاق وأعراف وتقاليد وآداب ، فإن الأصل الشرعى فيها هو وجوب تساويهما والاهتمام بهما - بنفس القدر والمستوى - بحيث يتلقى كل منهما حسبما يطيق ويؤهله سنه - هذه الأمور من منطلق إسلامى متميز وواضح . وهذا

---

(١) ابن حزم : الإحكام فى أصول الأحكام ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨ ، المجلد الأول ٣/ ٤١٢ .

(٢) منى على السالوس : الحقوق التعليمية للمرأة فى الإسلام ، رسالة ماجستير ، كلية البنات ، بجامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٦٦ .

واجب الأبوين والأهل ومسئوليتهم الكبرى ، كما قال ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده . . فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] .

وإهمال تربية البنت أو الابن تضييع لهما ، وقد قال ﷺ : «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت ، أو من يعول»[2] .

وقد جاءت النصوص فى ذلك عامة تتحدث عن الإنسان الذى يشمل المرأة والرجل ، أو عن الأولاد الذى يشمل الأنثى والذكر دونما فارق ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور] ، وحديث النبى ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع»[3] .

ولم يكن على الرسول ﷺ إلا أن يؤكد فى قوله وفى فعله ما يثبته القرآن من وجوب الإحسان للوالدين بالتسوية ، بل لقد خطا القرآن خطوة ثانية فيرشد إلى ما للوالدة من جهود مضنية فى تربية الأبناء ، ليس شىء منها للوالد ، وترى ذلك فى مثل قوله عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان]. وقد تبدى تأكيد السنة للقرآن ، ما جاء فى قول الرسول جوابا عن سؤال رجل : «من أحق الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟ قال : أمك. قال الرجل : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك» !!

والذى نحب أن ننبه إليه من هذا أن القرآن حينما جاء بوصايا احترام الوالدين معا، وبتخصيص الأم بنوع من العناية جاء منظما لما تقتضيه فطرة الخلق والتكوين ، وما تقتضيه عاطفة الحنو والشفقة التى أودعها الله فى قلب المرأة لولدها ، وبها احتملت ما احتملت فى الحمل والإرضاع والتربية الأولى والسهر على حفظ صحته وسلامته بما يخطو به فى مراحل الحياة الشاقة [4].

(١) صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية فى بيت زوجها .

(٢) محمد بلتاجى ، بحوث مختارة فى السنة ، ص ٢٠٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨ .

(٤) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٢٢١ .

ولم يكن بناء الإسلام وصاياه بالوالدين على ما تقتضيه الفطرة ، خاصا تشريعه ووصاياه فى دائرة الوالدين فقط ، بل إذا امتد بنا النظر وتعرفنا مقتضى الطبيعة والفطرة فى كل نواحى الحياة ، ثم طابقنا بين مقتضيات الطبيعة وبين تشريع الإسلام فى هذه النواحى ، وجدنا أن الشأن العام الذى لم يشذ ولم ينحرف هو أن التشريع الإسلامى ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ليس إلا تنظيما لما تقتضيه الفطرة والطبيعة ، فتنظيمه فى الأسرة ، وإن الأسرة هى المربية الأولى ، وهى المرضعة ، وهى الساهرة ، والرجل هو المربى الثانى ، وهو العامل الكادح ، وهو المنفق والمهيمن - فى عدل - تنظيم لمقتضى الفطرة[1].

وإذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها ، فهى فى نظر الإسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ [التوبة].

إن مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى أكبر مسئولية فى نظر الإسلام ، وقد سوى الإسلام بصريح الآيات بين الرجل والمرأة ، وإذن فليس من الإسلام أن تكف المرأة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اعتمادا على ظن أو وهم أنه خاص بالرجال دون النساء . وليس من الإسلام أن تلقى المرأة حظها من تلك المسئولية على الرجل وحده بحجة أنه أقدر منها عليه ، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب ، فللرجل دائرته وللمرأة دائرتها ، والحياة لا تستقيم إلا بتكاليف النوعين فيما ينهض بأمتهما ، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما ، انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم [2].

وانظر بعد ذلك كيف رفع الله شأن المرأة ، وكيف احترم رأيها ، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول وجمعها وإياه فى خطاب واحد ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة]، وكيف قرر رأيها وجعله تشريعا عاما خالدا ، لتعلم أن آية الظهار وأحكامه فى الشريعة الإسلامية ، وفى القرآن الكريم ، وأن سورة المجادلة لم تكن إلا أثرا من آثار الفكر

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٥ .

النسائى وصفحة إلهية خالدة نلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأى المرأة، وأن الإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة ينعم الرجل بشم رائحتها ، وإنما هى مخلوق عاقل مفكر ، له رأى ، وللرأى قيمته ووزنه [1].

وأوجب الإسلام التعاون بين الزوجين فى القوامة بالمراجعة والمشاورة ، فعن عمر ابن الخطاب ، قال : « . . . والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينا أنا فى أمر أتأمره (أشاور فيه نفسى وافكر) إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، قال : فقلت لها : مالك ولما ها هنا فيما تكلفك (تعرضك لما لا يعنيك) فى أمر أريده ؟ فقالت : عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ ، حتى يظل يومه غضبان »[2].

وعن عمر بن الخطاب قال : . . . « وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار ، إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبت على امرأتى فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، قالت : ولم تنكر ان أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعنى ذلك»[3] .

وليس من شك أن تحميلها المسئوليات يجعل لها أو عليها الحق فى أن تتعلم ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجه الذى حددت به وطلبت منها عليه ، وهو تحرى الخير والصلاح ، والبعد عن الشر والفساد ، ومن هنا أوجب الإسلام عليها - كما أوجب على الرجل - معرفة العقائد والعبادات ، ومعرفة الحلال والحرام فى المأكل والمشرب وسائر التصرفات ، ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا فى التكليف وأهليته سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها إلى مناط التكليف وهو البلوغ قبل أن يصل إليه الرجل[4].

---

(١) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٢٢٧ .

(٢) صحيح البخارى ، ج١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٣) صحيح مسلم ، ج٤ ، ص ١٩٢ .

(٤) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ٢٢٨ .

ولم يفرق الإسلام فى حق التعلم والتثقف بين الحرة والأمة ، بل إن رسول الله ﷺ لم يحث على تعليم الحرة ، ولم يرغب فى تثقيفها بمقدار ما حث على تعليم الأمة، ورغب فى تثقيفها وتأديبها ، وحيث إن الحرة لها من الحقوق ما ليس للأمة ، فالأمة قد لا يلتفت إلى الاهتمام بها وتعليمها ، فكان هذا التوجيه النبوى الكريم : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ... ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها ، فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» [1]، فكان الأجر الأول لصاحب الأمة على حسن تأديبها وتعليمها ، والأجر الثانى على إعتاقها وتزوجها [2].

وفى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم] ، فهو أمر من الله لكل مسلم بأن يبدأ بتعليم أهل بيته حيث ذكر ابن الجوزى عن على بن أبى طالب فى تفسير «قوا أنفسكم وأهليكم»، أنها بمعنى علموهم وأدبوهم[3].

واهتماما بتعليم النساء كان الرسول ﷺ يزوج المرأة على تعليمها شيئا من القرآن، فقد جاء رجل إلى رسول الله ليزوجه إحدى النساء ، فسأله عما عنده ، فلم يجد عنده سوى إزاره الذى يلبسه فسأله ﷺ «ما تحفظ من القرآن ؟ قال سورة البقرة أو التى تليها ، فقال النبى ﷺ قم فعلمها عشرين آية ، وهى امرأتك» وقال صاحب عون المعبود: وفيه دليل على جواز تعليم القرآن صداقا[4].

وجاء نسوة إلى الرسول ﷺ ، تعلن ، يا رسول الله : ما نقدر عليك فى مجلسك من الرجال ، فواعدنا منك يوما نأتيك فيه ، قال «موعكم بيت فلان» ، وأتاهن فى ذلك اليوم ، وذلك الموعد ، قال أبو هريرة : فكان مما قاله لهن :« ما من امرأة تقدم ثلاثا من ولدها ، إلا كان حجابا من النار ، فقالت امرأة : واثنتين ؟ فقال : واثنتين»[5].

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه

(٢) منى السالوس ، الحقوق التعليمية للمرأة فى الإسلام ، ص ٦٩

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها

(٤) المرجع السابق ، ص ٧

(٥) رواه البخارى

ولبيان المعانى التى ينطوى عليها هذا المظهر ، نقول: إن الرجال كانوا يلازمون النبى ﷺ ، فيحيطون به للتعلم ، فلا تستطيع النساء مزاحمتهم عليه ، وكن يجلسن فى آخر صفوف المسجد ، فإذا تحدث النبى بالعلم بعد الصلاة ، لا يتمكن من كمال السماع، وكانت لهن رغبة فى العلم مثل الرجال ، إذ كلهن يعلمن أنهن مكلفات بأحكام الشريعة مثلهم ، فإذا سألن الرسول أن يعين لهن يوما باختياره هو يخصهن به ، فأجابهن إلى ماطلبنه ووعدهن يوما بعينه ، ووفى لهن فلقيهن فى ذلك اليوم ، وجدهن فوعظهن وأمرهن بأشياء مما عليهن من أمر الدين ، وأخبرهن بأن كل واحدة منهن يموت لها ثلاثة من أولادها فى سبيل الله فإن ذلك التقديم يكون لها حجابا ووقاية من النار لعظم الأجر بعظم المصيبة ، فطمعت إحداهن فى فضل الله وخافت أن يكون هذا الفضل محصورا فيمن قدمت ثلاثة ، فسألت عمن قدمن اثنتين ، فأخبرها الرسول ﷺ بأنه لمن قدمت اثنتين أيضا [1].

وفى الحديث لمحة تربوية رائدة ، وهى تكمن فى أن المرأة طلبت إلى الرسول ﷺ أن تذهب إليه وبنات جنسها ، وذلك حين قالت : فاجعل لنا يوما نأتيك فيه ، ولكن رد الرسول عليها يتضمن أن عليهن أن يجتمعن فى يوم معين ، ويذهب إليهن الرسول ﷺ بنفسه ، فعلام يدل هذا ؟ إنه يعطى المرأة حقا ويسبغ عليها كرامة ، ويفيض عليها قداسة ، فالرسول ﷺ يذهب إليها ، وهى لا تجىء إليه .

وفى موقف مشابه إلى حد ما ، عن ابن جريج عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال : قام النبى ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ، ثم خطب ، فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه يلقى فيه النساء الصدقة (وفى رواية [2] عن ابن عباس فظن أنه لم يُسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة) . وقال ابن جريج لعطاء : أترى حقا على الإمام ذلك يذكرهن ؟ قال : إنه لحق عليهم ، وما لهم لا يفعلونه ![3] .

إن رسول الله ﷺ حين رأى أنه لم يسمع النساء - حيث الجمع كبير وصفوف النساء خلف صفوف الرجال - أتاهن فوعظهن أداء لحقهن فى التربية والتعليم ، ورحم

---

(١) عبد الحميد بن باديس : من هدى النبوة ، ص ١٣٣ .

(٢) صحيح البخارى ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٣) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١١٩ .

الله عطاء حيث رأى وجوب تذكير النساء وتعليمهن ، كما استنكر تخلف أئمة عصره عن أداء هذا الواجب[1] .

وإذا كان البعض يذهب إلى أن رعاية المرأة لأسرتها على أنه أمر يدخل بها فى عداد (الخادمات) ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقرر قداسة هذه المهمة إلى الدرجة التى جعلها تساوى فى قيمتها عند الله الكثير من الواجبات الأساسية فى الإسلام ، مثل الجهاد فى سبيل الله ، فقد حدثوا أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبى ﷺ فقالت[2] :

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك . إنا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك : الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى دينها من هذا؟ فقالوا يا رسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا!!

فالتفت النبى ﷺ إليها وقال : افهمى أيتها المرأة ، وأعلمى من خلفك من النساء، أن حسن تبعُّل (احسنت معاشرة زوجها) المرأة لزوجها ، وطلبها رضاءه ، واتباعها موافقته ، يعدل هذا كله» ، فانصرفت المرأة وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب وعرضت عليهن ما قاله لها الرسول ﷺ ، ففرحن وآمن كلهن .

وقد سمح الرسول ﷺ للمرأة أن تقوم ببعض الأعمال ، فإذا قسنا على ذلك إباحة قيامها اليوم بأعمال تتطلب العلم ، رأينا أن ذلك مما يحتم عليها التعلم ، من ذلك قوله لامرأة عبد الله بن مسعود التى اضطرت للعمل للإنفاق عليه وعلى أولادها : « لك فى ذلك أجر ما أنفقت عليهم ، فانفقى عليهم»[3] .

---

(١) عبد الحليم أبو شقة : تحرير المرأة فى عصر الرسالة ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٩٠ ، ج١ ، ص ١١٨ .

(٢) زينب عصمت راشد : المسئولية الاجتماعية للمرأة فى الإسلام ، فى : المركز الدولى للدراسات والبحوث السكانية ، مكانة المرأة فى الأسرة الإسلامية ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤٤ .

(٣) سعيد إسماعيل على: ديمقراطية التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٢ ،ص ٥٧ .

وعن عائشة قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت ، فخرجت ، فدخل النبى ﷺ فحدثته فقال : «من بلى من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار»[1].

وقد أورد الحافظ ابن حجر فى شرحه لحديث عائشة عدة أحاديث - بأسانيد متفاوتة - فى الإحسان إلى البنات من ذلك : « . . . فأنفق عليهن وزوجهن وأحسن أدبهن . . . » « . . . فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن » « يؤدبهن ويرحمهن ويكفلهن»، ثم قال : وهذه الأوصاف يجمعها لفظ (الإحسان) الذى اقتصر عليه حديث عائشة [2].

ومن المهم لفت الانتباه هنا إلى أمرين [3] :

أولهما : أن لفظ الإحسان الذى ورد فى الحديث يرشدنا إلى أن الإحسان إلى البنت يكون بتوفير أكبر فرصة لها لتنهل من الخلق القيم والعلم النافع ، وإذا كان الخلق القويم له معاييره التى تتسم بأكبر قدر ممكن من الثبات ، فإن العلم النافع يختلف نوعه وقدره من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، المهم أن يوفر للبنت القدرة على تحمل مسئوليتها عند الزواج .

ثانيهما : كم يكون أشرف وأكرم لتلك المرأة المذكورة فى حديث عائشة ، وكم يكون إحسانها أكبر إلى ابنتيها من كسبها الحلال الطيب بدلا من سؤال الناس والأكل من الصدقة ، وهى كما قال رسول الله ﷺ : « إنما هى أوساخ الناس»[4].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد خصص وقتا لتعليم المؤمنات ، فلم يكن هذا بمانع بطبيعة الحال أن يسألن فى أوقات أخرى متفرقة الرسول ﷺ فى أمور دينهن فيتعلمن من ردوده ما يثقفهن دينيا ، ومن هنا قالت السيدة عائشة : «نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » .

وها هى ذى أم سليم ، وهى بنت ملحان والدة أنس بن مالك ، تأتى رسول الله ﷺ - وأم سلمة حاضرة - فتقول : يا رسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق ، فهل

---

(١) صحيح البخارى ، ج١١ ، ص ٣٣ .

(٢) فتح البارى ، ج١٣ ، ص ٣٤ .

(٣) عبد الحليم أبو شقة : تحرير المرأة فى عصر الرسالة ، ج٢ ، ص ٣٥٢ .

(٤) صحيح مسلم ، ج٣ ، ص ١١٩ .

على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال النبى ﷺ : «إذا رأت الماء »، فغطت أم سلمة - تعنى وجهها - وقالت : يا رسول الله ، أو تحتلم المرأة ؟ قال : «نعم ، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها »؟ [١].

وعن عائشة أن أسماء (بنت شكل) سألت النبى ﷺ عن غسل المحيض فقال : "تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها (السدر ورق شجر النبق الذى يفرز مادة رغوة منظفة مثل الصابون) فتطهر فتحسن الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى تبلغ شئون رأسها (أصول شعر رأسها) ، ثم تصب عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة (قطعة من قطن أو صوف أو خرقة تطيب بالمسك) ، فتطهر بها »، فقالت أسماء : وكيف تطهر بها ؟ فقال : «سبحان الله تطهرين بها »، فقالت عائشة كأنها تخفى ذلك: تتبعين أثر الدم . وسألته عن غسل الجنابة ، فقال : «تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها ، ثم تفيض عليها الماء »[٢] .

وأباح الإسلام للمرأة أن تخرج للسؤال عن دينها ، وأمر زوجها ألا يمنعها إذا أرادت الخروج إلى المسجد ، لا يحق لزوجها منعها من ذلك لقوله ﷺ : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، وروى أن الزبير تزوج عاتكة بنت يزيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت تخرج إلى المسجد فيقول لها : لو صليت فى بيتك ؟ فتقول : لا أزال أخرج أو تمنعنى، فكره منعها لهذا الخير [٣] .

وخروج المرأة إلى المسجد هنا ليس للصلاة فحسب ، لأن صلاة المرأة فى المسجد ليست واجبة ، ولذلك كان يمكن للزوج أن يمنعها فى هذه الحالة من الخروج إلى المسجد، ولكن المسجد كان للصلاة والعلم ، وعندما فسر الشيخ المليبارى النشوز ، استثنى منه عصيان المرأة زوجها فى تعلم أمور دينها وسائر فروع العلوم الدينية التى تكلف بها كل مسلمة ، وقال : «يحرم منعها عنه إن لم يكن عالما ، وإلا علمها وجوبا» ووافقه فى ذلك الإمام الغزالى بقوله : «فإن لم يكن ذلك رأى إذا لم يستطع زوجها

---

(١) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ٥٤ .

(٢) صحيح مسلم ، ج١ ، ص ١٧٩ .

(٣) منى السالوس : الحقوق التعليمية للمرأة ، ص ٧٠ .

تعليمهـا أمور دينها أو الاستفتـاء لها فلها الخروج للسؤال ، بل عليـها ذلك ، ويعصى الرجل إذا منعها »[1].

وعن خروج المرأة للتفقـه فى الدين ، قال الإمام ابن حزم : «نعم ، هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجـال ، وفرض على كل امرأة التفقه فى كل ما يخـصها ، كما فرض ذلك علـى الرجال ، ففـرض على ذات المال منهن معـرفة أحكام الزكـاة وفرض عليهن كلهن مـعرفة أحكام الطهـارة والصلاة والصوم ، وما يحل ومـا يحرم من المآكل والمشارب والملابس ، وغير ذلك كالرجال ولا فرق . ولو تفقهت المرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك ، فهؤلاء أزواج النبى ﷺ وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك ، فمنهن سـوى أزواجه ﷺ ، أم سليم ، وأم حرام وأم عطيـة ، وأم كرز ، وأم شريك ، وأم الدرداء [2].

وسعى بعض الرجال إلى طلب العلم بالسنة من أمـهات المؤمنين ، فعن أنس بن مالك قال : «جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى يسألون عن عبادة النبى ﷺ» [3] . وعن ثمامة (يعنى ابن حزن القشـيرى) قال : «لقيت عائشة فسألتها عن النبـيذ فدعت عائشة جارية حبـشية فقالت : سل هـذه ، فإنها كانت تنبذ (تطرح التـمر أو الزبيب فى الماء لعمل النبيذ) لرسول الله ﷺ»[4].

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : « . . . فلما جاء النبى ﷺ قالت (أسماء بنت عميس) : يا نبى الله إن عمر قال : سبقـناكم بالهجرة (حيث كانت مهاجرة إلى الحبشة) فنحن أحق برسول الله ﷺ منـكم ، قال : فما قلت له ؟ قالت : قلت له : كلا والله كنتم مـع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جـاهلكم وكنا فى دار أو فى أرض البعـداء البغضاء بـالحبشة ، وذلك فى الله وفـى رسول الله ﷺ . . . ونحن كنا نؤذى ونخاف . . قـال : «ليس بأحق بى منكم ، وله وأصـحابه هجرة واحـدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» ، قالت : فلقد رأيت أبا مـوسـى وأصحاب السفينة يأتون أرسالا

---

(١) أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ، ج٢، ص ٣١ .

(٢) ابن حزم : الإحكام فى أصول الأحكام ، م١ .

(٣) صحيح مسلم ، ج٤ ، ص ١٢٩ .

(٤) المرجع السابق ، ج٦ ، ص ١٠٢ .

(أفـواجا) يسـألونى عن هذا الحـديث ما من الدنيـا شىء هم به أفـرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قـال لهم النبى ﷺ ، قال أبو الدرة : قالت أسمـاء : فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى[1].

تلك جوانب أسـاسية ، وقضـايا رئيسيـة تناولتها السنة النبـوية على طريق تربية الشخـصية المسلمـة تؤسس للعمل التربوى على وجـه العموم ، والإسـلامى على وجه الخـصوص ، وبقى عـلينا أن نتوقـف لنتسـاءل عن الأسـاليب والوسـائل والطرق التى انتهجها ﷺ من أجل تشخيص هذه المبادئ والأسس واقعا سلوكيا بين الناس ؟.

(١) صحيح البخارى ، ج٩ ، ص٢٥ .

الفصل الرابع
طرق التعليم وأساليبه

مقدمة :

عملية التعليم هى عملية " نقل " و " توصيل " لمضمون معين ، قد يكون معرفة من معلومات وبيانات وحقائق ، أو قيما واتجاهات وميول ، أو مهارات عملية ، إلى من نريد تعليمه إياها . وإذا كان من البديهى أن يكون الناقل أو الموصل حاصلا أو مالكا لما يريد نقله وتوصيله ، إلا أن ما لا يقل عن ذلك أهمية " الوسيلة " أو "الطريقة " أو " الأسلوب " الذى تتم به عملية النقل أو التوصيل ، فعملية نقل كمية من الزيت مثلا ، لا ينفع فيها أبدا أن تنقل من خلال وعاء من الورق ، ونقل جهاز دقيق به العديد من المكونات الإلكترونية يحتاج إلى عناية خاصة وشروط ومواصفات تختلف كثيرا عن نقل كمية من ألواح الخشب .. وهكذا .

من هنا فقد اهتم علماء التربية وعلم النفس اهتماما بالغا " بطرق " نقل وتوصيل المضمون التعليمى المراد تعليمه للآخرين ، إلى الدرجة التى يمكن أن يكون هناك اتفاق عليها من قبل الجمهرة الكبرى هؤلاء العلماء ، على أنه وفقا لمدى الجودة والإتقان فى عملية النقل والتوصيل ، يكون النجاح والتوصيل ، أى التعليم ، بحيث لا تكون المسألة فقط هى ما يكون عليه المضمون من قيمة ، ولكن ، " الوسيلة " و"الطريقة " التى ينتقل بها إلى آخرين .

ولما كانت مهمة الرسل على وجه العموم هى " تعليم " الناس مضمونا تعليميا تتطلبه الرسالة الدينية التى يكلفهم بها المولى- عز وجل- ، كان من الطبيعى أن يكون اختيارهم لحمل الرسالة مبنيا - ضمن معايير وخصائص أخرى متعددة - على قدرتهم على النقل والتوصيل . ومن هنا فإن ما سبق أن تناولناه من جوانب وقضايا متعددة تبرز وتوضح الأبعاد التربوية والمضامين التعليمية لرسالة محمد ﷺ ، لابد أن يتم توصيله للناس من خلال طرق وأساليب ، كان لها دورها الفعال فى استيعاب المسلمين لها وامتثالهم لما جاءت تحمله ، وهو الأمر الذى عليه مدار الفصل الحالى .

ولابد لنا أن نؤكد للقارئ قبل أن يقف على ما سوف نتناوله من طرق وأساليب، أن التداخل بينها أمر وارد لا ينبغى أن يؤخذ على أنه خلل فى العرض ، وعلى سبيل المثال ، فإذا كنا قد أفردنا للقصة جزءا خاصا ، فإن هذا لا يمنع أن نجد فى بعض القصص النبوى استخداما لوسيلة من الوسائل التعليمية أو لقاعدة من القواعد التربوية التى سوف نعرض لها ، وإذا كنا نعرض للمثل كطريقة قائمة بذاتها ، فإن من الأمثال ما ينمى التفكير ، ويثير حوارا ، وإن منها ما يمثل " حكمة " ، أو قاعدة من القواعد التربوية . وهكذا ، بل إن هناك تداخلا قد يحدث مع قضايا ونقاط عرضنا لها فى الفصل السابق بصفة خاصة أو غيره من فصول ؛ ولهذا فقد نستخدم الحديث النبوى أكثر من مرة ، نظرا لتعدد وتنوع معانيه ودلالاته .

ونعرض فيما يلى الطرق والأساليب المستخدمة للتعليم فى الهدى النبوى الكريم:

أولا : القصة :

منذ فجر الحياة البشرية ، عرف الإنسان بولعه الشديد بسماع القصص ، ولعل أكثر فترة يمكن أن نلاحظ فيها هذا ، فترة الطفولة بصفة خاصة ، حيث تكاد تختفى أية اهتمامات أو دوافع أخرى يمكن أن تكون هامة بالنسبة للطفل أمام فرصة أن يسمع أو يشاهد قصة . وبطبيعة الحال لا يقف الأمر عند حد مرحلة الطفولة فحسب ، بل يمتد إلى مختلف مراحل العمر ، فحتى الكبار ، يجدون أنفسهم مشدودين إلى "التمثيليات" و " المسرحيات " و " الأفلام " أكثر من المحاضرات والخطب والأحاديث والمقالات التى تعتمد على التوجيه المباشر .

من هنا فقد كان منطقيا أن يهتم التربويون بالقصة كأسلوب من أساليب التربية وطرقها من أجل نقل معلومات معينة أو غرس قيم ، أو تغيير اتجاهات .

وليست آثار القصة فى نفوس الأطفال محصورة خلال سردها أو سماعها أو قراءتها ، بل إنهم كثيرا ما يقلدون أقوال ما يجرى من القصة وما فيها من أحداث وأخلاق ، وسلوك فى حياتهم العملية الواقعية اليومية . ثم إن هذه الآثار للقصة تصاحب الفرد الإنسانى فى جميع مراحل النمو النفسى والتربوى والاجتماعى ؛ لذا فطالب الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية ، وكل إنسان ، سواء أكان أميا أم مثقفا ، فإنه يخضع لتأثير القصة ، وإن كانت تختلف مواضيع القصة وطبيعتها باختلاف مراحل النمو التكوينية ، وباختلاف المستويات العقلية والاجتماعية والمزاجية ، كما تختلف حسب مجالات الميول والاهتمامات[1]

---

(١) عبد الحميد الهاشمى . الرسول العربى المربى ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ١٩٨١ ، ص٢٤٥ .

وقد أبرز القرآن الكريم أهمية القصص الإيجابية وتأثيرها النفسى والأخلاقى فى التربية وتهذيب النفوس ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]. كما أبرز دور القصة فى التدبر والتفكير والاعتبار ، فقال المولى- عز وجل- : ﴿ ... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف].

ووردت فى القرآن عدة قصص : كقصة موسى والخضر عليهما السلام ، وقصة قابيل وهابيل ، وقصة قارون ، وقصة فرعون ، وقصة ذى القرنين ، وقصص عدد من الأنبياء- عليهم السلام- وغيرها . وركزت هذه القصص على الجوانب الروحية والخلقية التى تزكى الأرواح وتهذب النفوس ، وترقى الوجدان ، وتطهر الأبدان ، وترسخ الفضائل وحب الخير ، وتدعو إلى الهداية والصلاح فى الدارين : الدنيا والآخرة[١].

وكان رسول الله ﷺ أول من سلك نهج القرآن الكريم ، وترسم خطاه فى توظيف القصة من أجل نشر الوعى وتعميق مبادئ الإسلام فى النفوس ، حيث نجده ﷺ يتخذ من القصة أسلوبا مهما من أساليب الدعوة والتربية ، يحملها قيم الإسلام ومعانيه ، ويربى عليها الصحابة من رعيل الإسلام الأول ، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدة فى الفكر والتصور وطريقة فى السلوك وواقع الحياة، وفوق ذلك ، كان الرسول ﷺ يتلقى طلبا من الصحابة وغيرهم بأن يقص عليهم ، فقد كان المشركون ، مثلا ، يطلبون من رسول الله ﷺ أن يقص عليهم بعض الأخبار الماضية لتعجيزه أو لبيان صدق نبوته ، كما يوحى لهم بذلك أهل الكتاب، فكان- عليه الصلاة والسلام- يقص عليهم من القرآن، كما كان يفصِّل أحيانا بعض قصص القرآن[٢].

وبهذا فإن استخدام الرسول ﷺ القصة فى دعوته وتربيته ، كان يستجيب لمناخ بيئى يطلب القصة ويرغب الاستماع إليها ، وهذا الإقبال عنصر حيوى أعطى القصة

---

(١) عبد الحميد الزنانى : أسس التربية الإسلامية فى السنة النبوية ، ليبيا - تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٨ .

(٢) الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ، القاهرة ، البابى الحلبى ، ١٩٧٣ ، ط٢ ، ص١٩١- ١٩٢ .

أهمية بالغة فى نظر الرسول المعلم ، مما جعله يستعمل القصة فى حديثه إلى المسلمين من صحابته الكرام على نطاق واسع جدا ، وفى موضوعات شتى[١] .

ولابد أن ننبه القارئ إلى أننا عندما نتناول القصة فى الحديث النبوى ، فإننا لا نقصدها بمفهومها الحديث ، ولا بما ارتبط بهذا المفهوم من دلالة متطورة ، ولكننا نعنى بها ما نجده من نصوص قصيرة أو طويلة نوعا ما ، يتحقق فيها المدلول العام فى القصة، بحيث يأتى النص القصصى مصورا لحدث متكامل له بداية ووسط ونهاية[٢] .

والواقع أن الرسول المعلم كان حريصا على أن يتعهد أصحابه بالقصة ، روى الدارمى فى سننه : " عن عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت كردوسا ، وكان قاصا يقول : أخبرنى رجل من أهل بدر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " لأن أقعد فى مثل هذا المجلس ، أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ، قال : قلت أنا : أى مجلس يعنى ؟ قال : كان حينئذ يقص . . . "[٣] .

ومما يعزز هذا ما رواه الإمام أحمد فى مسنده : " حدثنا شعبة عن أبى التياح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبى أمامة قال : خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص ، فأمسك ، فقال رسول الله ﷺ : قص ، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب "[٤] .

ومما يؤكد اهتمام الرسول ﷺ بالقصة فى تربية وتعليم الصحابة أنه كان يكرر القصة الواحدة أكثر من مرة وفى أكثر من مجلس ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى تجدد الوافدين من الصحابة على مجلسه ممن كانوا يتناوبون فى التلقى عنه ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب مع صاحبه الأنصارى ، حيث اتفقا على أن يذهب أحدهما إلى

---

(١) محمد بن حسن الزير : القصص فى الحديث النبوى ، الرياض ، د . ن ، ١٩٨٥ ، ط٣ ، ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) سنن الدارمى ، القاهرة ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ١٩٥٩ ، ج٢ ، ص ٢٢٧ .

(٤) مسند ابن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥ ، ج٥ ، ص٢٦١ .

رسول الله ﷺ يستمع إليه ، ويذهب الآخر إلى عمله ، وعند اللقاء يخبر من استمع صاحبه بما استمع إليه من قصص رسول الله ﷺ[1].

وسعى الرسول ﷺ مما قصه من قصص أن يحقق عدة أهداف يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يلى[2]:

- **استخدامها كوسيلة تعليمية** : فقد كان الصحابة يتحلَّقون حول رسول الله ﷺ سائلين عن أحكام الدين الجديد التى كانت تتنزل تباعا حسب المواقف ، ومن هنا كان صعبا عليهم أن تكون كل الجلسات تعليمية تقوم على التلقين ، وتخلو من وسيلة تقوم على التشويق ، والرسول ﷺ بوصفه معلما مربيا ، أتاه الله الكتاب والحكمة ، كان أدرى الناس بطبيعة المتعلمين ، وفى الوقت نفسه لم يكن من عادته تضييع وقته ووقتهم فى اللهو أو فى القصص فارغة المضمون ، بينما كان يردد دائما : " اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع " .

- **استخدامها لهدف معرفى** : فكثير من القصص كان الصحابة يستنتجون منه بعض المعارف المجهولة لديهم من أخبار الأمم السابقة وعاداتها وتقاليدها وتشريعاتها واختلافاتها المذهبية .

- **استخدامها كمنهج من مناهج الدعوة** : فلم تكن مجالس الرسول ﷺ تخلو فى الغالب من وفود قادمة من الأمصار البعيدة أو القبائل التى أسلمت حديثا ، أو القادمة للدخول فى الإسلام ، وكان هؤلاء القادمون يجلسون ، فربما يطيلون الجلوس ، والصحابة معهم بطبيعة الحال ، وكان جلوسهم بهدف تعلم أصول الدين ، والرسول ﷺ يعلم ما للقصص من قدرة تأثيرية طيبة على القلوب أكثر من المواعظ المباشرة المجردة .

- **استخدامها لبيان القرآن وتوضيحه** : إذ هناك نوع من القصص النبوى حكاه الرسول ﷺ توضيحا لبعض قصص القرآن ، كقصة موسى وسبب خروجه إلى الخضر -عليهما السلام- ، ومما رواه من قصص تتعلق بالأنبياء : إبراهيم وأيوب ويعقوب وغيرهم، عليهم السلام .

---

(١) صحيح البخارى ، ١/ ٣٣ .

(٢) مصطفى رجب : الأهداف التربوية لبعض القصص النبوى ، د.م ، د.ن ، ١٩٩٢، ص٢٣.

- **استخدامها لغرس مكارم الأخلاق** : فالإنسان بفطرته يميل إلى تقليد غيره ، وتعليم الأخلاق بالمواعظ وحدها ، أضعف كثيرا من القصص ؛ لأن القصص تدل السامع على إمكانية انتهاج السلوك الخير اقتداء ببعض أبطال القصة ؛ لأنهم من البشر ذوى القدرات الخاصة ، فهذا الجانب يدل على عبقرية النبى فى المجال التربوى ، إذ إن توجيه الأب - مثلا - لابنه بأن يفعل كذا وينتهى عن كذا بالأمر المباشر لا يكون له التأثير نفسه لو ساق له قصة تبين الأثر الطيب للفعل المرغوب فيه ، والنتيجة السيئة للفعل المكروه .

هذا بطبيعة الحال ، فضلا عن عدد آخر من الفوائد التى يؤديها أسلوب القصة فى التربية ، والتى يمكن الإشارة إليها فيما يلى[1] :

١ - الاعتماد على التشويق ، وجذب الاهتمام ، وتركيز الذهن ، وإثارة المشاعر ، بما يشد السامع إلى مجريات القصة ، حتى يستجلى أحداثها ، ويتعرف على نتائجها .

٢ - تحفيز السامع ، أى الاتعاظ والاعتبار بما حدث لأبطال القصة ، والتأثر بالأعمال الخيرة التى توسلوا بها لله وصدقوا فى القيام بها خالصة لوجهه الكريم ، رغبة ورهبة ، وكانت سبب لنجاتهم من المحنة باستجابة الله- عز وجل- لدعائهم .

٣ - التركيز على عملية الإيحاء التى تعتبر من أهم الوسائل المؤثرة فى التوجيه والتربية .

٤ - والقصة لها دورها فى إشباع الخيال ، فهى تنقل السامع إلى الماضى إن كانت كذلك ، أو إلى مكان فى شرق الأرض أو غربها إن كانت فى الوقت الحاضر ، كما أنها تنقل الإنسان ليعيش مع شخصية أبطال القصة ومواقفهم ، فسامع القصة يعيش مع الأنبياء والمرسلين فى أحداثهم ، أو مع رجال الإسلام وأبطاله فى معاركهم ، أو مع العلماء والمحققين فى مجالسهم ، أو مختبراتهم أو حلقات دروسهم ، ومع الناس فى ذات أنفسهم أو داخل بيوتهم ، ومع أهلهم .

وقد تنوعت أشكال القصة النبوية وفقا لتنوع الغرض المقصود من حكيها ، ووفقا لمستوى السامعين ، وللظروف المحيطة ، فضلا عن أن التنويع من شأنه أن يعدد من السبل والوسائل مما يمكن أن يستوعب أكبر عدد ممكن من الذين يستمعون إليها ، فمن ذلك[2] :

---

(١) عبد الحميد الزناتى : أسس التربية الإسلامية ، ص ٢٢٠ .

(٢) محمد الزير : القصص فى الحديث النبوى ، ص ٣٣٣ .

أ - قصص وقعت للرسول ﷺ نفسه ، سواء قبل البعثة أو بعدها ، وأحداث هذا النوع تعد تجارب ذاتية وقعت للرسول فى فترات مختلفة من حياته ، وفى ظروف مختلفة ، وهى أشبه ما تكون بالمذكرات التى يسجلها الإنسان عن بعض ما يمر به فى حياته ، والرسول ﷺ فى هذا النوع يختار من أهم تجاربه الذاتية ، ويتخير أكثرها إثارة ليجعلها مادة قصصية ، ينسج منها وقائع ما يقصه على أصحابه ، مستهدفا من وراء ذلك ما يحققه عرض هذه التجارب من تعميق إيمان الصحابة بالرسول والرسالة ، حين تجسد هذه التجارب النادرة فى حياة الرسول ﷺ أمام المسلمين ، ممثلة فى هذه الصور القصصية .

ومثال هذا النوع ما رواه البخارى عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، ما أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : " لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة " ، وقص فى هذه القصة ما وجده من قومه من إعراض وصدود وهو يعرض نفسه عليهم ، فانطلق مهموما ، وإذ به يسمع صوت جبريل يناديه من السماء ، ويقول : إن الله- عز وجل- قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ويعرض ملك الجبال على رسول الله ﷺ أن يطبق عليهم الأخشبين (أى الجبلين) ، إن شاء الرسول ، فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن قال : " لا ، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئا "[١].

فهذه قصة تصور أدق ما يكون التصوير كيف يواجه الداعية ألوانا من المشقة والعذاب فى سبيل توصيل ما كلفه الله به ، ومع ذلك فهو يقابل كل هذا بصبر وثبات ومثابرة ، ولا تولد معاندته وجهود إيذائه فى قلبه غلا أو حقدا ، فقلبه يظل رقيقا ، يحمل من الرحمة بقومه ما يجعله يرجو الله أن يعينهم على البصر بالحق وسواء السبيل .

وهناك عدد غير قليل من هذا النوع ، لعل منها قصته ﷺ مع جبريل عندما نزل إليه أول مرة بمهمة الرسالة الإلهية ، وقصة الإسراء والمعراج وغيرهما .

ب - القصة التمثيلية ، فهناك قضايا كلية ، وحقائق عقلية مجردة ، كان الرسول ﷺ يهدف إلى تجليتها وتوضيحها أمام الصحابة الكرام ، وأمام غيرهم من المسلمين، كما كان يهدف أيضا إلى تأكيدها فى نفوس الجميع وتعميقها فى إحساساتهم ، وفى

---

(١) صحيح البخارى : ٤/١٣٩-١٤٠ .

سبيل ذلك اتخذ الرسول ﷺ القصة أسلوبا من أساليب التوضيح والبيان ، وكانت القصة التمثيلية خير ما يحقق هذا الغرض ويخدم الفكرة الذهنية بتجسيدها فى قالب قصصى محسوس يخرجها من إطار التجريد الذى لا يخلو من طابع الغموض وعدم التحديد ، ويضعها فى صورة تجعل السامعين والقراء أكثر قدرة على الفهم والاستيعاب، وأكثر قدرة على تمثل الفكرة وهضم أبعادها (1).

ومن نماذج هذا النوع ، تلك القصة الخاصة بفرحة الله بتوبة عبده ، قال ﷺ "لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن ، من رجل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنام ، فاستيقظ وذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده" (2)

والمتأمل فى هذه القصة يجد أن رسول الله ﷺ ، قد استخدم وسائل تعليمية من البيئة التى يعيش فيها المتعلمون ، وهم الرعيل الأول من الصحابة ، حيث كان استخدام الراحلة فى السفر مشهورا آنذك ، وقد استخدمه رسول الله ﷺ ، لتقريب الحقيقة وتصويرها، كما استطاع أن يصور الحالة النفسية التى انتابت الرجل فاقد الراحلة عندما يئس من راحلته ، وحالته - الرجل - عندما وجدها ، وهى صور تجذب المتلقى فيتأثر بمضمونها ودلالاتها (3)

وهذا اللون القصصى الذى ضربه رسول الله ﷺ للتمثيل ، وإن كان لا يمثل وقائع أو حوادث وقعت بالفعل من خلال أشخاص معروفين ولهم وجود تاريخى ، فإنه يمثل وقائع وأحداث يمكن أن تقع (4)، ويمكن أن نجد أمثاله فى واقع الحياة ، وذلك من حيث نوع المواقف والأحداث ، وسلوك الأشخاص ، وما يكشف عنه - اللون القصصى من مشاعر وتصرفات هى صورة من واقع الإنسان وسلوكه

---

(1) محمد الزير : القصص فى الحديث النبوى ، ص ٣٤٤

(2) مسند ابن حنبل : ٥ / ٢٢٥-٢٢٦ .

(3) طه طه مصطفى السيد القيم فى القصص النبوى ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة المنوفية ، شبين الكوم (مصر) ، ١٩٩٦ ، ص ٥٥

(4) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ، بيروت ، دار الشروق ، د ت ، ص ٢٣١

ج - **القصة الغيبية** [١] ، وقد اقترح " الزير " هذه التسمية على أساس أن هذا النوع تعد أحداثه بتفاصيلها ذات مصدر واحد هو مصدر الوحى ، فهذه القصص من قبيل الغيب الذى كشف الله عنه لنبيه ﷺ ، وهى غيب سواء كانت أحداثها وقعت فى الماضى البعيد كالقصص التاريخية أو كانت ستقع فى المستقبل فى نهاية الحياة ، وقبل قيام الساعة ، أو بعد قيامها ، أو كانت تحدث فى الواقع غير المنظور، ذلك أن تلك القصص وما تتضمنه من أحداث ومواقف مفصلة أو غير مفصلة ، ليست فى متناول الرسول ﷺ ولم تحدث أمامه ، كما أنه لم ينشئها من عند نفسه ، ولم يأخذها عن غيره من علماء الناس ومؤرخيهم بالنسبة لما حدث فى الماضى ، فلم يكن له من معلم من قومه الذين عرفوا بأميتهم واشتهروا بها ، كما لا يستطيع أحد أن يثبت أنه تلقى علما من قوم غير قومه ، ولو سجل التاريخ شيئا من ذلك لاتخذه الخصوم حجة يدعمون بها ما حاولوا أن ينثروه من شكوك .

فكأن " الغيبية " هنا ترجع إلى " مصدر المعرفة " لا إلى " طبيعة الموضوع " كما هو المألوف لدى الفلاسفة وعلماء المنطق .

والحق أننا نرى أنه قد يكون من الأوفق الالتزام بما هو معروف فى مناهج البحث والمنطق ، فلا نسمى القصة بالغيبية إلا إذا كانت تتصل بعالم الغيب ، أو نسميها بالقصص " النقلية " على غرار ما هو معروف من تصنيف العلوم إلى " عقلية " و" نقلية " على أساس أن الفئة الأولى هى التى توصل إليها الإنسان باجتهاده الخاص ، والثانية هى التى اعتمد فيها على القرآن الكريم والسنة النبوية .

ومن أمثلة هذا النوع ، وفقا لما حددناه ، قصة " الملائكة السياحين " الذين يطوفون فى الأرض يبحثون عن أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلي حاجاتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا [٢].

وقصة أخرى تبين أن ملكين عضلت بهما كلمة عبد حمد الله بها وهى قوله : "يا رب ، لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك " فصعدا إلى السماء وقالا : " ربنا ، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ .. فقال الله- عز وجل-: اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها "[٣] .

---

(١) محمد الزير : القصص فى الحديث النبوى ، ص ٣٥٤ .

(٢) صحيح البخارى : ٨/١٠٧-١٠٨ .

(٣) سنن ابن ماجه : ٢/١٢٤٩، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ .

ويتصل بهذا النوع أيضا القصص التى تناولت أمورا خاصة بالبعث واليوم الآخر. وقد كانت هذه قضية من أخطر القضايا ، وخاصة أن القوم فى ذلك الوقت كانوا على حال من البداوة والأمية بحيث يصعب عليهم تصور أن يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى وتكون هناك دار آخرة يحاسب فيها الإنسان وفقا لما قام به من أعمال فى الدنيا . ومن هنا كان إلحاح الرسول ﷺ فى رواية هذا النوع بصفة خاصة بصور وأشكال مختلفة، بل وتكرار بعض المشاهد .

إن هذا إنما يشير إلى أهمية الثواب والعقاب فى منهج التربية الإسلامية وأن الإيمان بالجزاء في الآخرة هو الذى يضبط سلوك الإنسان فى الدنيا ، وفقا لقوله- عز وجل- : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة].

ويدخل فى هذا أيضا بعض قصص رواها رسول الله ﷺ تتعلق بأحداث سوف تقع مستقبلا ، بذورها وبداياتها آيات فى القرآن الكريم ، ثم أخذ النبى ﷺ يفصلها بوحى من الله ، حيث لا قدرة لأحد على أن يستشرف مستقبلا إلا بعون من الله عز وجل ، وعلى سبيل المثال ، يروى القرآن قصة يأجوج ومأجوج فى قوله : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف] .

فيتحدث الرسول ﷺ عن يأجوج ومأجوج عند حفر السد ، وأنهم كلما حفروا منه جزءا فى يوم ، يفاجأون عند عودتهم إليه بأنه عاد كما كان وربما أشد . . وهكذا ، إلى أن يأتى يوم يحفرون فيه : " حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعيده الله أشد مما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله ، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس . . . "[1] ، ثم تصور القصة انتشارهم فى الأرض ،

---

(١) سنن ابن ماجه : ٢/١٣٦٣-١٣٦٦ .

وتحصن المسلمين منهم، وشربهم لكل ماء يقعون عليه . ثم تصور القصة ما يكون من لجوء المسلمين إلى الله بالدعاء ، فيرسل عليهم طيرا تهلكهم، ثم يخرج المسلمون من حصونهم[1].

ومن خلال هذه القصة يعرض ﷺ لظهور نموذج طيب لحاكم صالح ، يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ، ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه ، إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق ، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله [2] .

د - **القصة التاريخية** : ومادة هذه القصة مستمدة مما وقع من أحداث فيما مضى من الزمان ، لكن من الملاحظ أن القصة تقوم على انتقاء جوانب معينة من أحداث القصة وتسلط الضوء عليها ، والمعيار فى الاختيار هنا هو ما يكون لهذه الأجزاء من قدرة وإمكانية على المساهمة فى البناء الدينى والخلقى للإنسان ببث قيم مرغوب فيها والتحذير من اتجاهات سلوكية سلبية .وبالتالى فليس الغرض من القصة التاريخية هو نفسه الغرض المعروف من البحث التاريخى ، من حيث تسجيل الأحداث وتحقيقها وتحليلها والربط بين عناصرها والخروج بتفسير وأحكام .

ويمكن أن نسوق نموذجا لذلك قصة (الأقرع والأبرص والأعمى) التى رواها أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، بيانا لسلوكيات وجدت بين بنى إسرائيل فى عصور خلت .

قال رسول الله ﷺ[3] : «إن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم مَلَكًا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عنى الذى قذرنى فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى

(١) محمد الزير : القصص فى الحديث النبوى ، ص ٣٦٢ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، القاهرة - بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ط١١ ، ج١٦ ، ص ٢٢٩٣ .

(٣) صحيح البخارى : ٦/ ٥٠١ .

لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال " الإبل ، أو قال : البقر - شك الراوى- فأعطى ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأقرع ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى ، فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولد (بتشديد اللام) هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال (أى الأسباب) فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ، ثم بك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا ، ما أتبلغ به فى سفرى ، فقال الحقوق كثيرة ، فقال كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله ، فقال : إنما ورثت هذا كابرا عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فى دعواك فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله تعالى إلى ما كنت عليه

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك (لا أشق عليك فى شىء تأخذه) اليوم بشىء أخذته لله عز وجل ، فقال : «أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك» .

فمثل هذه القصة إنما تضع أيدينا على نماذج بشرية امتحنها الله بالغنى وعلو الشأن ، مثلما امتحنها بالفقر وسوء الحال ، فمنها من لا يشكر الله على ما أعطاه ، فيفيض منه على من ليس معه ، ومنهم من يشكره عز وجل ، ويحرص على أن يعطى من يحتاج ، إيمانا بأن المال مال الله وما نحن إلا مستخلفون فيه . ومثل هذه القصة لا تقف الدلالات التربوية عند حدودها المروية ، وإنما تمتد إلى كل ما يمكن يسير مسراها .

ولا شك أن من الأسباب التى جعلت رسول الله ﷺ يستخدم وسيلة القصة من ضمن وسائله فى التعليم ، ما تحققه القصة من فرصة أوسع أمام المعلم ، إذ تمكنه من بسط الكلام عما يهدف إليه فى حديثه من ناحية ، كما أنها من ناحية أخرى تتيح له إمكانية تجسيد القضايا والمفاهيم التجريدية الذهنية التى يطرحها على سامعيه فى صورة حسية من خلال التصوير القصصى للحدث ، كما نجد ، مثلا ، فى القصص التمثيلية بصورة واضحة ، وهذا يؤدى وظيفة مهمة جدا ، وهى أنه يعمق تلك المفاهيم ويؤكدها فى نفوس السامعين ، كما أن الأسلوب القصصى يجعل السامعين أكثر إقبالا على الدرس وتطلعا إليه ، مما يمكنهم من الاستيعاب الجيد ، والفهم المتعمق[١] .

وإذا كانت القصة التاريخية المقدمة فى الحديث النبوى تحمل أسماء محددة لها وجودها التاريخى الفعلى ، كحكاياته ﷺ عن بعض الأنبياء السابقين ، فرسول الله ﷺ يقدم صورة أخرى من القصة التاريخية غير محددة الأسماء ، على أساس أن "مضمونها " هو محور الحدث ، ودلالاته الدينية والتربوية هى " البطل " الحقيقى للقصة ، ومن ذلك القصة التالية[٢] .

" بينما ثلاثة يمشون أخذهم المطر ، فأووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم . قال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم ، فإذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى ، وإنى استأخرت ذات يوم فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما نائمين ، فحلبت كما كنت أحلب ، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أسقى الصبية ، والصبية يتضاغون (يتصايحون من الجوع) عند رجلى حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله ، فرأوا السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى بنت عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت منها ، فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فبقيت حتى جمعتها ، فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ، اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا فرجة ففرج .

---

(١) محمد الزير : القصص فى الحديث النبوى ، ص ٤٤٥ .

(٢) صحيح البخارى : ٣/١١٩-١٢٤ .

وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجيرا بفرق (مكيال بالمدينة يسع ستة عشر رطلا) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاتها ، فجاءنى فقال : اتق الله ، فقلت : اذهب إلى تلك البقر ورعاتها فخذ ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فخذ ، فأخذه ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقى ففرج الله " .

فها هنا تحمل القصة العديد من الدلالات التربوية ، مثل البر بالوالدين ، فهما اللذان ربيانا سنوات طويلة تحملا فيها الكثير ، فلا أقل من رد بعض الدين لهما بمراعاتهما وقد كبرا ، وكذلك مجاهدة النفس للسيطرة على الشهوات والأهواء مما من شأنه أن يقوى الإرادة ، فيصبح الإنسان أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والمشكلات والعثرات ، وأيضا الابتعاد عن المعاصى والذنوب خوفا من الله ، وأداء الأمانات إلى أهلها .

ثانيا : القدوة :

إن نظرية ما مهما تبلغ من صحة المنتهج ودقة الفكر ، وإن تعليما ما ، مهما يكن رائعا ويقع من الناس موقع الإعجاب ، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير ، كل أولئك لا يغنى غناء ولا يثمر ثمرة ولا يبقى على الدهر ، إلا إذا كان له من مثله يعلمه، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة ، فيقتدى الناس بدعوته عن طريق العمل ، بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة ، معظمين لأخلاقهم ، مكرمين طهارة قلوبهم وزكاء نفوسهم ، ونظافة أخلاقهم ، ورجاحة عقولهم ، وحصافة آرائهم ، وسداد أفكارهم .

ويقص علينا أحد المفكرين الإسلاميين[1] أن الباخرة " كركوديا " التى ركبها فى عودته من مصر والحجاز فى أوائل شهر رجب من عام ١٣٤٢هـ(فبراير ١٩٢٤) اجتمع فيها عرضا بالدكتور طاغور ، الشاعر ذائع الصيت ، وكان قافلا من سياحته فى أمريكا، فسأله بعض من كانوا برفقته : " ما بال نحلة (مذهب) " برهموسماج " أخفقت فى مساعيها ولم تنجح ، مع أنها نصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالمت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق ، وأن جميع

---

(١) السيد سليمان الندوى : الرسالة المحمدية ، دمشق ، مكتبة دار الفتح ، ١٩٦٣ ، ص ٤١

المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم أخيـار الناس وصلحاؤهم ؟ ثم إنها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعـارض المدنية الحاضرة أو مبادئ الفلسفـة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فـيها الظروف الراهنة والشئـون المألوفة الآن ، ومع ذلك كله ، لم تنل من الفوز شيئا ، ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ؟!

لقد أحسن الشاعر فى جوابه على هذا السؤال غاية ما يكون الإحسان ، إذ قال :
" إن النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس إليـها بسيرته الكاملة ، وهديه العالى ، ولم يكن لها لسان يدعو مـؤيدا بعمل يصدقه فتهوى إليه أفـئدة الناس وتطمح إليه أبصارهم ويكون لهم من الدعاة أسوة يأتسون بها وقدوة يقتدون بها " .

وكلام طاغـور هذا ، يدل على أن الدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسـيرة النبى ﷺ الذى بعث به وبما عـرفه الناس عنـه فى شئـون حيـاته وفى أخلاقـه وأعمـاله . . وبالجملة ، إن المجتـمع الإنسانى يحتاج أشد الحـاجة فى بلوغه الكمال وسلوكـه سبيل الرشاد ، إلى هداة ودعـاة ومربين طهرت حـياتهم وزكت نفوسـهم وصفت قلوبهم من وصمات الذنوب وشبهات الآثام ، ولعنات الجهل ، وتكون سيرتهم كاملة فى كل ناحية من نواحى الحيـاة الإنسانيـة ، ولم يجتمع ذلـك إلا فى أنبياء الله صلوات اللـه عليهم وسلامه ، وفى مقـدمتهم محمد ﷺ ، فـالذى يستقرئ حياته ، يجـد مطابقة تامة بين الرأى والعمل ، بين الفكر والتطبيق ، فكان حـقا ما تصفه السيدة عـائشة: «كان خلقه القرآن »، وأن يكون رسـول الله ﷺ متخلقـا بأخلاق القرآن الكريم ، فـقل إذن أنه قد وصل إلى ذورة ما يمكن أن يصل إليه إنسان فى سمو الخلق !!

والذى يجعل الأنبيـاء والرسل خير قدوة ، أنهم أصحـاب رسالة ، والرسالة فى منطلقها الأساسى الأول هو اصطفاء الله تعالى لإنسان تتوافر فيه سمات الصدق والذكاء والأمانة والمقدرة عـلى التبليغ ، ففى الرسالة عـامل هام هو الاصطفاء الإلهى المطلق ، الاجتباء الاختيارى الخالص[1]، فليست الرسالة مركزا اجتماعيا يسعى الإنسان إليه كمن يريد زعامة أمته أو قيادة شعبية بحتة ، ذلك أن القيادة هى نوع من العلاقة بين الشخص وبيئته ، وتكون لإرادته وبصـيرته قوة التأثير على أفراد جماعتـه ، وقيادتهم فى السعى لبلوغ هدف مشترك ، وهذا الهدف قد يكون شـريفا أو غير ذلك ، وقد يكون خلقيا أو قد لا يكون .

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٥٧ .

كذلك ، فالرسالة ليست كالعبقرية الصرفة ، ذلك أن العبقرية - نفسيا - تمثل أعلى نسبة من الذكاء الذى يتمتع به الإنسان ، والذى تقدره اختبارات الذكاء المتعارف عليها بدرجة (١٤٠) فما فوق ، بينما تعتبر الإنسان المتوسط ذا نسبة ذكاء تتراوح بين (٩٠-١١٠) درجة . كما أن عدد العباقرة فى أى مجتمع ربما لا يزيد عن ١٪ من مجموع الأفراد .

والشىء الأساسى فى الذكاء ، أنه قدرة عقلية وطاقة فكرية بحتة ، ولا تحمل معنى خلقيا أو فاضلا ، فالعبقري ، كما قد يكون عالما أو تاجرا أو مخترعا ، كذلك قد يكون مجرما مزمنا أو لصا محترفا ، أو زعيم جماعة من الأشرار .

لذا فالرسالة الإلهية تجمع بين محاسن القيادة فى سماتها الفاضلة الخلقية من روح التفاؤل ، ومحبة الآخرين وخدمتهم ، ورعاية مصالحهم الفاضلة . وتجمع مع القيادة محاسن العبقرية ، فى توفر الذكاء العملى واليقظة الفكرية ، والفطانة السلوكية ، وفى استخدام كل ذلك فى الخير والعلم والفضيلة ، إلى جانب العامل الأساسى والجوهرى ألا وهو عامل اصطفاء الله لذلك الإنسان المحدد المخصوص[1] .

ورسول الله محمد ﷺ عندما لا يأمر الناس بشىء ولا ينهاهم عن شئ إلا وهو يفعل بما يأمر ، وينصرف عما ينهى ، يبين لنا بذلك منهاجا تربويا أساسيا ، وهو أن يتمثل المعلم دائما ما يقول ويعلم ، وإلا ، فلا أثر لذلك . إن الذى يقف فى حجرة الدراسة عشرات الساعات ، يشرح الديمقراطية ، وأهمية الشورى ، وضرورة الحوار ، دون أن يمارس ذلك بالفعل مع طلابه ومع زملائه ، قليلا ما ينتج ، ونادرا ما يفيد ، إن مثله مثل الذى يشرح مضار التدخين ويدعو إلى الإقلاع عنه ، وفى فمه سيجارة .

ولعل أهمية القدوة هنا أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، يثبت بالبراهين العملية ، والتجارب الفعلية ، أن ما يدعو إليه هو أمر ممكن التنفيذ ، وآية ذلك أنه مشخص فى سلوكه ، ومن هنا كان القول " لا تنه عن خلق ، وتأتى مثله " .

وإذ يجعل الإسلام قدوته الدائمة فى شخصية رسوله ، فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال ، متجددة فى واقع الناس . إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدى فى سبحات الخيال . إنه يعرضها عليهم ليحققوها فى ذوات أنفسهم ، كل بقدر ما يستطيع أن يقبس ، وكل بقدر ما يصبر على الصعود ، ومن ثم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

تظل حيويتها دافقة شاخصة ، ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم فى حبه الأرواح دون تأثر واقعى ولا اقتداء[1] .

والإسلام إذ يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس ، فلابد للطفل من قدوة فى أسرته ووالديه لكى يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع ، ولابد للناس من قدوة فى مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة لكى يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال ، ولابد للمجتمع من قدوة فى قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم ، فتتحقق فى شخصه المبادئ ، وينسج على منواله المحكومون .

والقدوة التى هى معلمة ومربية للجميع ، كما لن نمل من التأكيد على ذلك ، هى شخصية الرسول التى تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه ، ومن ثم يقيم الإسلام منهجه التربوى على أساس أنه هو الذى يسير دفة المجتمع ودفة الحياة .

إنه لا يجعل التربية مجهودا فرديا يخفق أو ينجح ، وتذروه الرياح والأعاصير ، وإنما يجعله منهجا شاملا ومتكاملا ، يبدأ بقمة المجتمع المتمثلة فى ولى الأمر وينتهى بالطفل الرضيع ، حكم إسلامى ، ومجتمع إسلامى ، وتربية إسلامية ، وتلك مسألة بدهية ، فكل نظام يضع منهجه على أساس أنه هو الذى يقوم بتنفيذه ، والإسلام أولى النظم بتلك القواعد البدهية؛ لأنه لا يستطيع أن يعمل بأدوات غيره ، ولابد له أن يستخدم أدواته الخاصة ليتحقق منهجه المتفرد على مدار التاريخ ، وحين يتكون مجتمع إسلامى فإنه يشرب أطفاله مبادئ الإسلام عن طريق القدوة القائمة فى هذا المجتمع ، متمثلة فى الأسرة والوالدين[2].

وقد ركز القرآن الكريم فى عدد من آياته الكريمة على ضرورة الاقتداء بالرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ، ويقول : ﴿ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا... ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]، ففى هاتين الآيتين وجوب الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهو المعلم والمربى ، ووفقا للقاعدة الأساسية أن من يكون قدوة ، يكون أول ملتزم بما يتحدث

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار القلم ، د.ت ، ط٢ ، ج١ ، ص ٢٢٨

(٢) المرجع السابق ، ٢٢٩ .

به ويدعو إليه ، والتى تعبر عن معناها الآية القرآنية : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا لم تقُولُون ما لا تَفْعلُون (٢) كَبُر مقْتًا عندَ الله أن تقُولُوا ما لا تفعلُون (٣) ﴾ [الصف]، وكذلك يقول : ﴿ أتأمُرُون النَّاس بالْبرِّ وتنسوْنَ أنفُسكُمْ وأنتُمْ تتْلُون الْكتاب أفلا تعْقلُون (٤٤) ﴾ [البقرة].

ومن هذا المنطلق تكون طريقة القدوة فى التعليم الإسلامى ضرورة لإعداد الفرد المسلم على نهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام[1] ، ورسول الله هو مثال الكمال البشرى ، وهو القدوة لكل مسلم ، وقد حفظ لنا الحديث الشريف ، وسيرة الرسول - ولأجيال الإسلام القادمة - حياته ، وأعماله وأفكاره ، كأنه حى ، فالسنة النبوية تبين الرسول القدوة ، والمربى ﷺ فى كل لحظة وفى كل يوم ، قدوة وهو فى بيته ، وقدوة وهو فى المسجد ، وقدوة وهو فى ميدان القتال ، وقدوة وهو فى الطريق، وقدوة وهو يعاون الآخرين ، وقدوة فى مظهره الشخصى ، فهو قدوة سلوكية لكل إنسان فى كل مكان .

إن هناك طبيعتين فى الإنسان غير مجهولتين : الإعجاب بالعظمة + العرفان للجميل ، فعندما يرى الفرد منا آلة دقيقة أو جهازا عجيبا أو صورة رائعة أو مقالا بليغا، فإننا لا ننتهى من تبين حسنه حتى تنطوى جوارحنا على الإعجاب بصاحبه ، فإن الذكاء العميق والاقتدار البارز يجعلان الفرد منا ينحنى من تلقاء نفسه احتراما للرجل الذكى القدير !

وكذلك عندما يسدى إلينا معروف أو تمتد إلى الواحد منا يد بنعمة ، إننا نذكر هذا الصنيع لمن تطوع به ، وعلى قدر ضخامة ما نلنا من خير نجد أن لساننا يلهج بالثناء ويمتلئ فؤادنا بالحمد ، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى ، والضمير المحجبا !

ولقد جاء رسول الله ﷺ ليثير هاتين الطبيعتين ، نحو أحق شىء بهما ، ونتساءل مع شيخنا الغزالى : ألست تعجب بالعظمة وتحتفى بصاحبها ؟ ألست تقدر النعمة وتشكر مسديها ؟ إنك ترمق بإجلال مخترع الطائرة ، وكلما رأيتها تشق الفضاء ، زدت إشادة بعبقريته ، فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير فى جو السماء من

---

(١) عبد الغنى عبود : أنبياء الله والحياة المعاصرة ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٣ .

غير توقف ولا عوج ؟ ما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع وأودع فى تلافيف مخه الذكاء الذى وصل به إلى ما راعك واستثار إعجابك ؟[1]

أليس ربى ورب كل شىء أحق بأن نعرف عظمته ونفتح عيوننا على آثار قدرته ؟ فإذا عرفنا أن عظمته من عظمة الوجود الذى يحيط بنا ، خجلنا من التهجم عليه ونسبته بما لا يليق إليه ، وقلنا مع العارفين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران] .

إنك لو استضافك شخص كريم ، ورأيت البشاشة فى وجهه ، والسماحة فى قوله وفعله ، حفظت له - ما حييت - هذه المنة ، وسعيت جهدك كى تكافئه عليها ، وحدثت من تعرف بسجايا هذا المضياف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من المهد إلى اللحد ؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه ، ولا تكسى إلا من ستره ، ولا تأوى إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإنقاذه .

ومحمد ﷺ ، فى كل ما فعل وقال ، وصل الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا انبعثوا لطاعته ، كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة بتوقير العظيم وحمد المنعم .

وبالإضافة إلى ما نلمسه فى خبرتنا العملية ، فإن هناك عديدا من الدراسات والبحوث النفسية التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن القدوة لها تأثيرها الكبير فى تربية الطفل ، وفى تكوين قيمه وصورته عن ذاته ، فالذات ، وفقا لهذه الدراسات ، تتكون أساسا نتيجة استجابة الطفل لتوقعاته ممن حوله ومن إدراكه لتوقعات غيره ، وهو يكون توقعاته من الغير ، ويدرك توقعات الغير منه ، ومن خبراته الماضية معهم ، وتصرفهم حيال سلوكه فى المواقف المختلفة ، وهو لا يستطيع أن يتصرف بشكل يتوافق مع اتجاهات غيره وقيمهم إلا إذا تبنى تلك الاتجاهات والقيم كخطوة أولى فى تكوين الذات المتكاملة[2] .

ويحدث تكوين الذات وتمايزها عن ذوات الغير تدريجيا بمحاولة الطفل التخلص من العقاب والحصول على الثواب ، وعلى رضاء السلطة الضابطة له ، وتتحدد هذه

---

(١) محمد الغزالى : فقه السيرة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ .

(٢) لجيب إسكندر وآخرون : قيمنا الاجتماعية وأثرها فى تكوين الشخصية ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢ .

العمليـة فى بداية الأمر أساسـا بمحاولة الطفل أن يكون مـثل هذا الشخص أو ذاك وألا يكون مثل هذا أو ذاك من الأشخاص الذين يتعامل معهم أو الموجودين فى بيئته ، ولهذا السبب فـإن القدوة كـثيرا مـا تكون أقوى أثرا من أسـاليب الثواب والعقـاب والتوجـيه والإرشاد اللفظى .

وقد علم الله سـبحانه وتعالى - وهو يضع لعـباده المنهج السماوى المـعجز - أن الرسول المبعوث من قبله بأداء الرسالة السمـاوية لأمة من الأمم ، ينبغى أن يكون متصفا بأعلى الكمالات النفسية والخلقية والعقلـية حتى يأخذ الناس عنه ويقتدوا به ، ويتعلموا منه ويستجيبوا إليه وينهـجوا نهجه فى المكارم والفضائل والخلق العظيم ، ومن أجل هذا كانت النبوة تكليفا ، ولم تكن اكتسابيـة ، لأن الله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أدرى بمن يصطفى من البشر ليكونوا رسلا مبشرين ومنذرين للناس .

ويكفيه عليه السلام فخرا وشرفا وخلودا أن يعلن عن نفسه أن الله سبحانه صنعه على عينه ، وأدبه فأحسن تأديبه ليكون دائمـا نموذج المربين وقدوة المتعلمين ، فقد روى العسكرى وابن السمعانى عن الرسول قوله " أدبنى ربى فأحسن تأديبى "[١] .

ولقد عـبر الشـاعر العربى تعـبيـرا بليغا عن أهمـية القـدوة من الناحيـة التربوية فقال[٢] :

يا أيهـا الرجـــل المعلم غيـــره هلا لنـفـسـك كـان ذا الـتـعـليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كـيـمـا يـصح به وأنت سـقـيم

ابـدأ بنفســـك فانهـها عن غيـهـا فـإذا انتـهت عـنه فـأنـت حكيم

فهناك يقبل ما وعــظت ويقتـــدى بالـعلم مـنك وينـفع التـــعليم

وفى ترجمة الصحابى الجليل (الجُلندى ملك عُمـان) : ذكر وثيـمة فى كتاب " الردة " عن ابن إسحاق أن النبى ﷺ بعث إليه عـمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام فقال : " لقد دلنى على هذا النبى الأمى ، أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فـلا يبطر ، ويُغلب فلا يُهجر - أى لا يقول القبيح من الكلام - ، وأنه يفى بالعهد ، ويُنجز الوعد ، وأشهد أنه نبى "[٣].

---

(١) الحديث فى سنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .

(٢) عبد الله علوان : تربية الأولاد فى الإسلام ، بيروت ، دار السلام ، ج٢ ، ص ٦٣٤ .

(٣) عـبد الفـتاح أبو غـدة : الرسـول المعلم وأساليـبه فى التعليم ، حـلب ، مكتب المطبوعـات الإسلامية، ١٩٩٧ ، ط٢ ، ص ٦٦ .

ولقد أثبتت تجـربة (الإخاء) فى مجتمع المدينة التى سبق أن عـرضنا لها ، أنها كانت تجربة رائدة فـى تاريخ العدل الاجتماعى ، ضـرب الرسول فيه مـثلا على مرونة الإسلام وانفتاحه فى الظرف المناسب على أشد " أشكال " العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا ، ورد فيـه - وفقا للمنطق الإلهى لا يحـابى ولا يداجى - على كل القائلين بأن الإسلام جاء لكى يمثل (إصـلاحا) جزئيا للمسـألة الاجتماعيـة لأن " العصر " الذى تصوغه " وسائل الإنتـاج " لم يتح له أن يتحرك لصياغة عـالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الإنتاجية بعد بصياغته ولم تأمر بها [١].

لقد نجـحت التجربة لأن الأرضـية التى أقيـمت عليهـا ، والقيادة التى خططتـها ونفذتهـا استكملتـا كل شروط النجـاح ، فى مجتـمع شاب يحكمـه مبدأ الـعطاء قبل الأخذ، وتشده أواصر العقيدة وحدها ، ويوجهه الإيمان العميق فى كل حركاته وأعماله وفاعليته ، ويقوده الرسول " الأسوة " الذى ضرب بتجرده وإيثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم مثلا عاليـا ومؤثرا يحرك الحجارة الصم لكى تنبجس فـيتدفق منها الماء . وأنى لتجربة كهذه أن تفشل وتتعثر ، والـرسول يخوض مع أصحابه تجربة الفقر والجوع فى سنى الهجرة الأولى ، ويعانى كما يعانون ، بل أكثر مما يعانون ، دون أن يفكر يوما بأن يمتطى " منصـبه العالـى " ليسلك طريقـا آخر غيـر الذى يسلكه أتباعـه ، فيـثرى ويفتـقرون ، ويشبع ويجوعـون ، ويأخذ ويعطون ، أولم يشك له أصحابه يـوما الجوع ويكشفوا عن بطونهم التى شد كل منهم عليها حجرا لكى يؤكدوا له ما يعانونه ، فإذا به يبتـسم ، وقبل أن يتـكلم يكشف عن بطنه ، فـإذا بقطعـتين من الحـجارة قـد شـدتا عليه؟[٢].

روى البخارى عـن أنس بن مالك قال : «ما أعلم النبى رأى رغـيفا مرقـقا حتى ألحق بالله ، ولا رأى شاة سميطا قط» . وعن عائشة قالت : «إنا كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى بيوت رسول الله نار» ، فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيـشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وكانت عـائشة تقول: " كان لنا جيران من الأنصـار نعم الجيران ، كانوا يهدوننا بعض الطعـام " ، وصلى عليه الصلاة والسلام مرة جالسـا من شدة الجوع، ثم قدموا له عصيـر اللوز ، فقال : أخروه عنى ، هذا شراب المترفين[٣] !!

---

(١) عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

يقول رسول الله ﷺ : " من سن سنة حسنة فله أجـرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " .

إن هذا الحديث نص مـباشر فى وجـوب رعاية فضـائل الحياة وفى التـحذير من تحريفها ، وهذا طبيعى من رسول جاء يسمو بالحـياة ، كما أنه إدراك سديد لقيمة الحياة ودورها . لقد وجدت الحـياة قبل إنسان ، فهو ضـيف طارئ عليها ، وهى أبقى منه ، فليس من حقه أن يسىء إليها ، بل إن واجبه ألا تظل كيوم وفد عليها ، بل لابد من أن يضيف إليها الكثير من الخير والجمال ، فهذا هو دوره ، ومن أجل ذلك جاء .

ومن هنا فليس من حق إنسان ما قعد به ضعـفه عن اللحاق ببعض تلك الفضائل أن يهون من شأنها ، وأن يعطى للناس مبررات تركهـا والتخلى عنها حتى يصبحوا وإياه سواء ، وحتى لا يضحى عجزه عن إدراكهـا مأخذا عليه ، بل إن واجبه ألا يضيف إلى خطيئـة عجزه جـحوده . واجبـه أن يرفع الصوت عالـيا بقيـمة كبـيرة لهذه الفـضائل وحتميتها وتقديسها ، حتى ولو خانه التوفيق فى إدراك بعضها [1]

وحديث آخر يصـور أبلغ تصوير إيمان الرسول ﷺ بمسئوليـة كل فرد عن قوانين الحياة وفضائلها : " ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل " .

ويقول : " ما كرهت أن يراه الناس منك ، فلا تفعل إذا خلوت بنفسك "

إن هذا الحديث الكريم يهـيئ المدخل القويم والسوى لعلاقـات صحيحـة فاضلة تصل الإنسان بالمجتمع وبالبيئة لأنه إذا أصبحت نظرة الناس إليه ضمن الموازين التى تحدد سلوكه وتحكم أخلاقياته ، فمعنى ذلك أن علاقته الـباطنة بهم تقوم على الرغبة الحقيقية فى احترامهم وعلى الرغبة الحقة فى الظفر باحترامهم . ليس ذلك فحسب ، بل ويعنى ذلك أيضا أن ثمة ولاء مشتـركا بين ضمير المجتمع وضميـره لتلك القيم والفضائل التى تظلل المجتمع وتسوده . والإنسان الذى يحقق لنفسه هذا المستوى الرفيع يكون من أقدر الناس على إعطاء العلاقات الإنسانية حقها من المبادرة والتأييد [2].

ومن المعروف أن تأثير القدوة ينتقل إلى المقتدى بأحد سبيلين[3] :

---

(١) خالد محمد خالد : كما تحدث الرسول ، ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

(٣) سليمان بن قاسم العيد: المنهاج النبوى فى دعوة الشباب ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤١٥هـ، ص ٢٥١ .

أولهـما : التأثيـر العفوى غـير المقصـود ، وهنا يتوقف تأثير القـدوة على مدى اتصافه بصفـات تدفع الآخرين إلى تقليده دون قصده ، كتـفوق فى العلم أو الرئاسة أو الأخلاق ، وفى هذه الحالة يكون تأثيـر القدوة عفويا غير مـقصود ، وهذا يعنى أن من يرجو أن يكون قـدوة أن يراقب سلوكه ، ويعلم أنه مـسئول أمـام الله فى كل ما يتبـعه الناس به ، أو يقلده المعجبون ، وأن يطابق قوله فعله ، وأن يكون متزنا فى أداء واجباته وحقوق غيره عليه ، وكلما ازداد حذرا وإخـلاصا ازداد الإعجاب به فتزداد فائدته وأثره الطيب فى النفوس .

ثانيهما : التأثير المقصود، وهو أن ينوى بفعله اقتداء الآخرين به، ولكن هذه النية يجب أن لا تكون هى الباعثة على العمل أصلا، بل تكون فى شكل الفعل أو مكانه أو وقته، كما صلى رسول اللـه ﷺ على المنبر ليراه الناس ، وقال: "صنعت هذا لتأتموا، ولتعلموا صلاتى" [1]، والإفطار فى السفر ليـراه الناس، لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فـصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يده ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان" [2] .

وتتعدد المواقف النبوية التى كان فيها رسول الله المثل والنموذج والقدوة لنا ، فعن جابر بن عبد الله قال[3]: " أتانا رسول الله ﷺ فى مسـجدنا هذا ، وفى يده عرجون ابن طاب (عود من شـجر تمر) ، فرأى فى قـبلة المسجـد نُخامة (بلغم) ، فـحكها بالعرجـون ، ثم أقبل علينا فـقال : أيكم يحب أن يُعرض اللـه عنه ؟ قال : فخـشعنا (أطرقنا برؤوسنا وأبصـارنا إلى الأرض) ، ثم قال : أيكم يحب أن يعـرض الله عنه ؟ قال : فـخشعنا ، ثم قـال : أيكم يحب أن يعرض الله عنه ؟ قلـنا : لا أينا يا رسول الله . قال : فإن أحدكم إذا قام يصلى ، فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه ، فلا يبصقن قبل وجـهه ، ولا عن يمينه ، وليبصق عن يـساره تحت رجله اليسرى ، فـإن عجلت به بادرة ، فليقل بثـوبه هكذا ، ثم طوى ثوبه بعضـه على بعض - وفى رواية أبى داود : ووضع ثوبه على فيه ثم دلكه " .

---

(١) صحيح البخارى : ١/ ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق : ٢/ ٤٤ .

(٣) صحيح مسلم : ١٨/ ١٣٦ .

ومرة أخرى ، فنحن ننظر فى مقصد الحديث وهو النظافة ، ومن هنا فإن المسلم فى عصرنا الحاضر يجد المساجد أرضها غير ترابية ، وقد توافرت أدوات ووسائل التنظيف ، وأشهرها وأكثرها شيوعا " المناديل " ، من الورق أو القماش يبصق فيها

وتواصل رواية الحديث بأن رسول الله قال : أرونى عبيرا (أنواع من الطيب تجمع وتخلط بالزعفران) ، فقام فتى من الحى يشتد إلى أهله (أى يسعى ويعدو عدوا شديدا) ، فجاء بخلوق فى راحته ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فجعله على رأس العرجون ، ثم لطخ به على أثر النخامة

والحق أن مجالات القدوة ومظاهرها تمتد بامتداد حياة الرسول ، وتتنوع ستعدد مواقفها مما يجعل من العسير علينا بيانها ، فكل ما سبق أن دكرناه ، وما سوف يأتى أمثلة ولمماذج حية ، ومن هنا سنكتشف الحديث على بعد واحد يشكل محورا أساسيا فى العملية التربوية ، آلا وهو (الرفق بالمتعلمين)

لقد كان لنا فى تلك الطريقة التى سلكها عليه الصلاة والسلام فى معاملة من يدعوهم إلى الإسلام وفى التعامل مع المسلمين أثناء تعليمهم مبادئ الإسلام وقواعده مثالا يبين لنا كيف أن الرفق ولين الجانب وسيلة ناجحة تحمل ما تقول إلى العقول والقلوب دون أن تسبقها علامات الغضب والانفعال والضيق فتزعزع أركان التعليم وتهز أسس التربية ، وفى قوله عز وجل ﴿ **بالْمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ (١٢٨)** ﴾ [التوبة] إشارة إلى أن رحمته عليه الصلاة والسلام دائمة لا تنقطع عن مؤمنى أمته

وكان الرسول أحرص ما يكون على هداية قومه واستنقاذهم من غواية الشيطان وتوجيههم إلى الإيمان حتى لقد قال له ربه فى سورة الكهف ﴿ **فلعلَّك باخعٌ نَّفْسك علىٰ آثارِهِمْ إن لَّمْ يؤْمنوا بهذا الْحديث أسفًا** ﴾ [الكهف ٦] ، اى كدت تقتل نفسك حسرة على فرارهم من الإيمان والانتفاع بالقرآن ، كما يقول سبحانه وتعالى فى سورة يوسف مواسيا فى حرصه ﴿ **وما أَكْثرُ النَّاس ولوْ حرصْت بمُؤْمنين (١٠٣)** ﴾ [يوسف] ، وقال كذلك فى سورة النحل ﴿ **ولقدْ بعثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أن اعْبُدُوا اللَّه واجْتنبُوا الطَّاغُوت فمنْهُم مَّنْ هدى اللَّهُ ومنْهُم مَّنْ حقَّتْ عليْه الضَّلالةُ فسيرُوا في الأَرْض فانظُرُوا كيْف كان عاقبةُ الْمُكذِّبين (٣٦) إن تحْرِصْ علىٰ هُداهُمْ فإنَّ اللَّه لا يهْدي من يُضلُّ وما لهُم مِّن نَّاصرين (٣٧)** ﴾ [النحل].

وقال عز وجل أيضا : ﴿ **ولا يحْزُنك الَّذين يُسارعُون في الْكُفْر إنَّهُمْ لن يضُرُّوا اللَّه شيْئًا يُريدُ اللَّهُ أَلاَّ يجْعل لَهُمْ حظًّا في الآخرة ولَهُمْ عذابٌ عظيمٌ (١٧٦)** ﴾ [آل عمران]. ومع

هذا فقد رحمهم الله ولم يعذبهم بكفرهم كـما فعل بكفار الأمم السابقة ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]، فما أعظم فضل الله على رسوله !

وتتعدد المواقف والأحاديث . . .

- فعن عـائشة رضى الله عنهـا قالت : " ما ضـرب النبى ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادما قط ، ولا ضرب بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله عز وجل ، ولم ينل منه فانتقم من صاحبه ، إلا أن تنتهك محارمه فينتقم " .

- وعنها أيضا قالت : " ما خُيِّر رسـول الله ﷺ فى أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه " .

- كذلك قالت : " ما رأيت رسول الله ﷺ منـتصرا من ظلامة ظلما قط ، إلا أن ينتهك من محارم الله شىء ، وإذا انتهك من محارم الله عز وجل شىء كان أشدهم فى ذلك " .

- وعن أنس بن مالك أنه قـال : " خدمت النبى ﷺ عـشر سنين فمـا قال فى شىء فعلت لم فعلت ؟ ولا لشىء لم أفعله لم لم تفعله ؟ " وزاد معمر : " وما سبنى سبة " .

وضرب الرسـول ﷺ مع صحابته النـموذج الأعلى للمعاملة الـطيبة التى تتمـيز بطيب المعـشر والصدر الواسع والـقلب الممتلئ بالمحـبة للناس أجمـعين ، والمربى الذى يستقـرئ صورا من هذه المعاملة يسـتطيع أن يجد فيها أمـثلة حية لما يجب أن تـتميز به معاملة المربى على وجه العموم ، لمن يربيهم من حيث الرفق والحنان والحب[1] .

- ما أسر أحـد إلى النبى خبرا ، فنحى النبى رأسـه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه .

- وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يرسلها الآخر . وإذا استقبل الرجل فصافحه ، لا ينزع يده من يده حـتى يكون الرجل هو الـذى ينزع ، وإذا لقى الرجل بكلمـة ، لم يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو المنصرف .

- وكان لا يقطع على أحد حديثه ، حتى يتجوز فيقطعه بنهى أو قيام .

(١) احمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ، القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧٣ .

- وكان يبدأ من لقيه بالسلام .

- وإذا لقى أحدا من أصحابه بدأ بالمصافحة ، ثم أخذ بيده فشابكه ، ثم شد فقبض عليها .

- وإذا قدم عليه أحد وهو يصلى خفف صلاته ، وأقبل عليه فقال : ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته .

وكان يوجه نصحه لأصحابه فى رفق ، ولا يشافه أحدا بما يكره ، دخل عليه رجل تبدو صفرة الزعفران على جسمه ، فكرهها النبى ، ولكنه لم يقل شيئا ، فلما خرج الرجل قال النبى لبعض جلسائه : لو قلتم له يدع هذه الصفرة .

وبال أعرابى فى المسجد والنبى ﷺ حاضر ، فسارع بعض الصحابة إلى منعه ، فقال النبى ﷺ: " لا تزرموه (لا تقطعوا بوله) ، وهريقوا على بوله سجلا من ماء ، فإنما بعثم ميسرين لا معسرين ، ثم قال : إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من القذر والبول والخلاء " [١].

وكان يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه وآثره بالوسادة التى تحته ليجلس عليها ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبل . جاء جرير بن عبد الله البجلى إلى مجلس الرسول ﷺ وهو مكتظ فلم يجد مكانا ، فقعد على الباب ، فلف رسول الله رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا ، فأخذه جرير ووضعه على وجهه وهو يقبله ويبكى ، ثم رده إلى النبى ﷺ وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى[٢] .

إن مما لا شك فيه أن " تربية " الرسول الكريم قد هيأته بالفعل إلى أن ينهج هذا النهج ، لقد صبر وصابر ، واحتمل أن يلقى عليه روث البهائم ، وأن يُرمى بالأحجار من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه ، وأن تتبادره السهام فى غزوة أحد حتى ينغرز المغفر فى جبهته وتنكسر رباعيتاه ويسيل دمه ، ثم يسأل بعض أصحابه : ألا تدعو على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : " إنما بعثت هاديا ولم أبعث لعانا . . . " ، ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة ممزوجة بالإشفاق والأمل ، وتتحرك شفتاه بهذه الكلمات الخالدة : " اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون "[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٤ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : النبى محمد ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢٧ .

وقد تتـدافع فى صدر الرسول دوافع الغيظ والألم وتتـحرك فى نفسه الرغـبة فى الانتقـام من المعتدين الظالمين ، فـتصرف السمـاء هذه الرغبة إلى مـا هو أليق بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسـالته الرحيمة ، تصرفـه إلى التسامح والعفو ، فـالعفو والتسامح من شـريعة الإسلام ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى].

وفى غزوة أحد ، كما سبق أن عرضنا ، نالت قريش من المسلمين فقتل عدد كبير من خيار الصحابة ، وأصيب الرسول بجـراحات فى جسده الشريف ، ولم تقف قريش عند هذا الحد ، بل مـثلت بقتلى المسلمين ، وتولت هند بن عتـبة كما مر بنـا كبر هذا الإثم . ولما رأى الرسول ﷺ ما فعلت قريشٌ بعمه وبصحابته من تقتيل وتمثيل ، قال : لئن كان لنا غلـبة على قريشٍ لنمـثلن بقتلاهم أكـثر مما فعلوا بـنا . . فنزل قول الله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] .

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين ، إنها ترضى فى نفسه جانب البشرية فلا تسد عليه منافذ التنفـيس لعواطفه وانفعالاته ، فتأذن له بأن يعاقب ، ولكن بمثل مـا عوقب به ، فذلـك هو شرع الله مع الأعـداء والأولياء : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ . لا حرج فى هذا ، وهنا يتنبه الرسول ﷺ إلى أنه قد بعد شيئا عن هذا الأدب السـماوى فى تلك العزمة التى عزمهـا للانتقام من قريش . إنه لا يعاقب بمثل مـا عوقب به ، بل بأكثر ممـا عوقب به ، وهذا ما تأباه شريعـة العدل الذى يمسك "محـمد" بميزانه المستقـيم . ولو انتهت الآية عند هذا الموقف لكان فيـها العظة البالغـة للنبى ﷺ فى أن يدع عزمتـه فى الانتقام مـن قريش حتى بمثل مـا كان منهم ، فذلك هو الذى يراه مناسبـا لهذا العتاب الخفى الذى شـعر به من الآية الكريمة ، والذى لا يشعر به إلا قلب متصل بالملأ الأعلى[1].

لكن الآية لم تقف عند هذا الحد ، بل أظهرت المفهوم الذى فهمه النبى ﷺ منها ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ ، فجاءت الدعـوة عامة للنبى وأتباع النبـى بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبـالغتهم فى هذا الأذى بالتمثـيل بالقتلى . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يختص النبى بتـوجيه خاص ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ

(١) عبد الكريم الخطيب : النبى محمد ، ص ٤٢٨ .

عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [النحل] عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم فى هذا الموقف الذى فقد فيه سبعين شهيدا .

ثم يختتم المشهد بهذه الخاتمة التى تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]، ومن التقوى والإحسان .. العفو عن الجاهلين وملاقاة إساءتهم بالإحسان والغفران :﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] .

وليس معنى ذلك انتهاج سبيل اللين فى كل المواقف ، فهناك مواقف تستدعى شدة بل وتستدعي حزما وحسما ، عن أنس بن مالك ، قال رسول الله ﷺ : " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " ، فلما عبروا عن دهشتهم بتساؤلهم : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ فقال : " تأخذون فوق يده " . والذى يلفت الانتباه هنا هو التساؤل عن كيفية نصر الظالم ، فربما ظنه القارئ مجاراة لعدوانه كما كان العرب يقولون :

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم لم أنصر أخى حين يظلم

وكما يصنع أولو العصبية والجهالة المتهالكون فى الحزبية ، ينصرون شيعتهم بالحق والباطل ، وليس نصر الظالم كذلك ، بل تمنعه من الظلم ، فإذا أراد استلاب مال منعته من ذلك ، وإن أراد اغتصاب حق حلت بينه وبينه ، وإن أراد البطش ببرىء ضربت على يده ، وإنما سمى رسول الله ذلك نصرا وإعانة مع معاكسة وعداوة لأن ظلمه إضرار بنفسه فى حياته الحاضرة [١].

ومن هنا فإن التهاون مع الطلاب المقصرين ليس " رفقا " بهم ، بل هو فى الحقيقة ظلم لهم ، لأن ذلك " يعودهم " على الانحراف والتقصير .

ومن هنا أيضا فإن أخذ الطلاب المنحرفين بالشدة رفق بهم ، لأن ذلك سيردهم إلى الطريق الصحيح ، ويستحقوا رضا الله بدلا من سخطه .

ثالثا : ضرب المثل :

المثل (بفتح الميم) هو المثل (بكسر الميم) ، وهو لغة : جملة من القول مقتطفة من كلام ، أو مرسلة بذاتها ، تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة دون تغيير يذكر، مثل : " الصيف ضيعت اللبن" و " الرائد لا يكذب أهله "[٢].

---

(١) محمد عبد العزيز الخولى : الأدب النبوى ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٧

(٢) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، ص ٨٨٨

والواقع أن المثل وإن تضمن معنى الشبه ، فإن هذا لا يدعو إلى ربطه بالمثل (بكسر فسكون) كذلك وإذا تجاوزنا معنى الشبه إلى العظة والعبرة والآية، والحجة، والحديث نفسه، وما أشبه ذلك - عدا الصفة - نجد أن كل هذه المعانى مما ذهب إليه مفسرو القرآن الكريم فى تفسير المثل لم تتضمنها أكثر المعاجم اللغوية قبل لسان العرب[1].

وذكرت لضرب المثل معان عدة ، ففى كتب التفسير وحدها ، بل فى قسم منها ما يزيد على عشرة معان نذكر منها : التبيين ، التمثيل ، الجعل ، الوصف ، الذكر ، الوضع ، الاتخاذ[2]، ومن ذلك ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...** ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]، وقوله : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] .

والأمثال فى كل أمة مصدر مهم للغاية لفئات عدة من الباحثين ، : الأخلاقى ، والاجتماعى ، والمؤرخ ، والتربوى ، فمن خلالها يستطيع الباحث أن يرى عقل الأمة مكشوفا ، وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وطريقة تفكيرها ، وقيمها الأخلاقية ، ومعاييرها الاجتماعية ، وآمالها ، وأساليب تربية الأبناء ، والمفاهيم الحاكمة فى العمل التربوى .

وربما فاقت الأمثال غيرها من أساليب التعبير النثرى والشعرى فى الانتشار والشيوع ، وجريانها على ألسن العامة والخاصة ، فى كل زمان ومكان ، وهى ذات سلطة واضحة على النفوس ، وكأنها قانون ، إذا ذكرت أمام السامع لا يملك نقاشا لها ومعارضة ، فهى تجىء مقرونة فى أغلب الأحوال بالحجة والبرهان ، معبرة عن حكمة الشعب عبر الزمان كله ، لا أحد يعرف لها صاحبا .

ومن هنا فلا غرابة أن يستعين بها عدد غير قليل من المربين كأسلوب من أساليب التربية ، وأن يكون الرسول ﷺ أبرز من اعتمد عليها فى هذا الشأن ، مع اختلاف واضح ، وهو أن المثل على وجه العموم إذا كان مجهولا مؤلفه ، إلا أننا هنا أمام أمثال معروف نسبها للرسول ، مما يكسبها مزيدا من قوة ، إذ تقترن كثير مما ذكرنا من ميزات، بميزة قائلها : رسول الله الذى لكل ما يقول ويفعل قوة الإلزام على كل من آمن بالله ربا وبمحمد رسولا .

---

(١) محمد جابر فياض : الأمثال فى القرآن الكريم ، هيريندن ، فيرجينيا ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٣ ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

والنبى ﷺ أفصح من نطق بالضاد ، جاء فى بعض الأحاديث : " ... فقال أعرابى : يا رسول الله ما رأيت الذى هو أفصح منك ، فقال النبى ﷺ : " وما يمنعنى وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين "[1].

ومع ذلك لم يتوان ﷺ فى أن يتمثل بأمثال غيره من الأنبياء قبله فقال : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت " ، بل إنه تمثل أيضا بأقوال العرب فى جاهليتهم ، فقد جاء فى الحديث أن أبا سفيان قال له معاتبا : " ما كدت أن تأذن لى حتى كدت أن تأذن لحجارة الجلهمتين " ، فرد عليه الرسول قائلا : " وما أنت وذاك يا أبا سفيان ، أنت كما قال القائل : كل الصيد فى جوف الفرا " ، ولم يقتصر تمثله على النثر دون الشعر ، فقد تمثل بقول لبيد : " ألا كل شىء ما خلا الله باطل " [2] .

ومما يجعل لضرب المثل قوة مربية ، أنه كثيرا ما يربط المعانى المجردة ، أو الجديدة التى لا سابق خبرة للسامع بها ، بأمر آخر مما يقع فى خبرته ، وبعملية قياس عقلى بسيطة سريعة ، يمكن أن يصل إلى المعنى المراد بكل سهولة ويسر . وفى الصفحات القليلة التالية يمكن أن نسوق نماذج متعددة من أحاديث نبوية قامت على ضرب المثل ، وقد راعينا فى اختيارها استخدام كلمة المثل صراحة أو التشبيه ، علما بأن هناك كثيرين يضعون ضمن المثل ، ما يساق على سبيل الحكمة والموعظة ، وهو الأمر الذى لا نعارضه ، كل ما هنالك أننا رأينا أن نفرد له جزءا خاصا مع أحاديث أخرى تسير كلها فى اتجاه ما يمكن تسميته بالوعظ والإرشاد ، وإن كنا نسلم بأن كل قول وعمل لرسول الله هو أيضا وعظ وإرشاد .

فمما أورده أبو داود [3] عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُترُجة (ثمر معروف فى جزيرة العرب له منافع كثيرة) ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مر ولا ريح لها .

---

(١) محمد جابر فياض العلوانى : الأمثال فى الحديث النبوى ، هيريندن ، فيرجينيا ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٣ ، ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) صحيح البخارى : ١/٥٢٦ .

ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شيء ، أصابك من ريحه . ومثل جليس السوء كصاحب الكير (لدى الحداد) ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه " .

وفى هذا التشبيه النبوى الكريم أبلغ ترغيب فى الخير ، وأبرز تحذير عن الشر ، بأقرب أسلوب يدركه المخاطبون ، وفيه إرشاد إلى الرغبة فى صحبة الصلحاء والعلماء ومجالستهم ، فإنها تنفع فى الدنيا والآخرة ، وفيه أيضا تحذير من صحبة الأشرار والفساق[1] . ومن هنا كانت إشارة ابن القيم بأن رسول الله ﷺ جعل فى هذا الحديث الناس أربع فئات ، أولها : أهل الإيمان والقرآن ، وهى الفئة التى تمثل أفضل شريحة من الناس ، والثانية ، فتضم أهل الإيمان الذين ، مع إيمانهم ، إلا أنهم لا يقرأون القرآن ، فهم أقل شأنا من الفئة السابقة ، وإن كانوا يعدون من السعداء . لكن هناك فئتان أخريان ، كلتاهما من الأشقياء ، فإحداهما يقرأ أفرادها القرآن ، لكنهم يفتقدون الإيمان ، فهم إذن من المنافقين ، أما الأخرى فأصحابها لم يؤت أحد منها إيمانا ولا إيمانه[2] .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة (اقترعوا على مواضع السفينة)، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا ، ونجوا جميعا»[3] .

وفى رواية قال : « مثل المدهن (الذى يرائى وينافق) فى حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم فى أسفلها ، وصار بعضهم فى أعلاها، فكان الذين فى أسفلها يمرون بالماء على الذين فى أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : مالك ؟ قال : تأذيتم بى ، ولابد لى من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه ، وأهلكوا أنفسهم» .

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ، هامش ص ١١٤ .

(٣) سميح عباس (تقديم وتحقيق) : الحكم والأمثال النبوية من الأحاديث الصحيحة ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٤ ، ص ٢٣٣ .

والحديث برواياته المتعددة بين أن الناس بالنسبة لنواهى الله عز وجل ، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، فمنهم من يرعى حقوق الله ، ويغار على شرع الله ، وهذا هو النوع أو القسم الأول ، وقد مثل له ساكن الدور الأعلى . والنوع الثانى ، هو الواقع فى حدود الله والغارق فى المعاصى ، ومثله رسول الله بساكن القاع ، لشدة تدنيه وعدم استعلائه على المعاصى . أما النوع الثالث ، فهو المرائى أو المنافق الذى لا تجده مع الحق نصيرا وإن ادعى عكس ذلك[1].

ولعل هؤلاء الذين يريدون أن " يخرموا " قاع السفينة حتى يحصلوا مباشرة على ما يريدو من الماء مثلهم مثل هؤلاء الذين لا تتعدى أبصارهم موضع أقدامهم ، إنهم هؤلاء الذين لا يفكرون إلا فى " الخلاص الفردى " ، دون أن يعوا بأن التفكير فى هذا النوع من الخلاص المزعوم قد يكون سريع الفائدة ، لكنه كارثة على الجميع ، ومن هنا كان من الضرورى الضرب على يد الذين يسعون إلى سلوك هذا السبيل ، ففى ذلك إنقاذ للأمة بكل من فيها ، بما فيها هذا الصنف من السذج محدودى الأفق ، قصيرى النظر .

ولأن الدنيا هى مزرعة الآخرة ، يجد المسلم لزاما عليه أن يجد فيها بما يتفق وأوامر الله ونواهيه ، ومن هنا يسوق الرسل المثل بصورة تجعل المسلم يسلم بأنه مهما أوتى ومهما تعددت به مجالات الاهتمام ، فلابد أن يظل يوم البعث " منبها " و"إنذارا" بألا يأتى إلا ما يرضى الله عز وجل ، فعن أبى بن كعب عن النبى ﷺ أنه قال[2] : " إنى ضربت للدنيا مثلا ولابن آدم عند الموت مثل رجل له ثلاثة أخلاء ، فلما حضره الموت قال لأحدهم : إنك كنت لى خلا ، وكنت لى مكرما مؤثرا ، وقد حضرنى من أمر الله ما ترى ، فماذا عندك ؟ فيقول خليله له : وما عندى وهذا أمر الله قد غلبنى عليك ولا أستطيع أن أنفس كربتك ، ولا أفرج غمك ولا أؤخر سعيك ، ولكن ها أنذا بين يديك ، فخذ منى زادا تذهب به معك فإنه ينفعك .

ثم دعا الثانى ، فقال : إنك كنت لى خليلا ، وكنت آثر الثلاثة عندى ، وقد نزل بى من أمر الله ما ترى ، فماذا عندك ؟ قال ، يقول : وماذا عندى وهذا أمر الله قد غلبنى ، ولا أستطيع أن أنفس كربتك ، ولا أفرج غمك ، ولا أؤخر سعيك ، ولكن سأقوم عليك فى مرضك ، وإذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك ، وسترت

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) صحيح مسلم : ١٩٩٩/٤-٢٠٠٠ .

جسدك وعورتك . قال : ثم دعا الثالث فقال : نزل بى من أمر الله ما ترى وكنت أهون الثلاثة على ، وكنت لك مصغيا ، وفيك زاهدا فماذا عندك ؟ قال : عندى أنى قرينك وحليفك فى الدنيا والآخرة ، أدخل معك قبرك حين تدخله ، وأخرج منه حين تخرج منه ، ولا أفارقك أبدا ، فقال النبى ﷺ : هذا ماله ، وأهله ، وعمله ، أما الأول الذى قال خذ منى زادا فماله ، والثانى أهله ، والثالث عمله " .

فالحديث فيه أن أمر المؤمن أو الإنسان عموما بين ثلاثة[1]:

أولها المال ، فهو لا يستغنى عنه فى الدنيا ويحب ملازمته ليل نهار ، إلا أن المال يأتى عند الموت فيتركه .

والثانى : أهله ، فهو يرغب فى قربهم ، ويعتز بكثرتهم ، ويفخر بأصلهم ، ويشتد عوده ويقوى بسلطانهم ، إلا أنهم يحملونه بأيديهم إلى قبره ، ويتركونه لمصيره، فما هم له بناصرين ، ولا بحاجزين عنه العذاب إن كان من المفرطين فى الدنيا .

والثالث : هو ذلك الصاحب الذى لا يتركه أبدا حتى عند الممات ، وهو عمل الإنسان من صنعه ، نماه وكبره وحرص عليه ، فإن كان عمله فى الدنيا خيرا كان له نعم الصديق فى قبره ، يؤنسه ويهون عليه وحشة القبر ، وإن كان عمله شرا كان له فى الآخرة بئس الصاحب ، يبكته على ما كان منه فى الدنيا ، ويبشره بعذاب أليم .

ولأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وهو أحرص على المسلمين من أنفسهم ، يكثر من دعوتهم إلى اتباع ما يقول ، سواء بالموعظة والأمر المباشر ، أو بالقصة ، أو بالمثل ، كما نرى فيما يرويه أبو موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال [2]: " إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " .

---

(١) سميح عباس : الحكم والأمثال النبوية ، ص ٢٣٧ .

(٢) صحيح البخارى : ١/ ١٧٥ .

والمتأمل فى هذا الحديث القائم على أسلوب المثل يجد أن رسول الله قد ضرب لما جاء به مثلا بالغيث العام الذى يأتى الناس فى حال حاجتهم إليه ، وكذا حال الناس قبل مبعثه ﷺ ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت ، فكذا علوم الدين تحيى القلب الميت . ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التى ينزل بها الغيث :

فمنهم العالم العامل المعلم ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة ، شربت فانتفعت فى نفسها ، وفى الوقت نفسه أنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه ، غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه فى قوله ﷺ الذى أشرنا إليه من قبل : " نَضَّر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه " .

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ، ولا يعمل به ، ولا ينقله إلى غيره ، فهو بمنزلة الأرض الملساء التى لا تقبل الماء .

وإنما جمع فى المثل بين الطائفتين الأولين المحمودتين لاشتراكهما فى الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها [1].

وفى الاتجاه نفسه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : جاءت الملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا ... مثلا ، قال : فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا ، وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعى دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى ، لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة . فقالوا : أولها له يفقهها ، فقال بعضهم: إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فالدار : الجنة ، والداعى محمد ﷺ فمن أطاع محمدا ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا ﷺ فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس " [2].

---

(١) ابن حجر : فتح البارى ، ١/ ١٧٧.

(٢) صحيح البخارى ، فى الاعتصام بالكتاب والسنة .

وفى رواية أخرى : قال : « إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتا ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار : الإسلام ، والبيت : الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها » .

ونظرا لأهمية نشر العلم وإذاعته بين الناس ، كانت عناية رسول الله ﷺ بضرب الأمثال ترغيبا فى ذلك ، فعن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله : " مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ، وينسى نفسه كمثل السراج ، يضىء للناس ويحرق نفسه " [1] .

ونحن فى كثير من الأحيان نستخدم مثل هذا التمثيل ، ولكن فى اتجاه عكسى ، فنحن نضربه لهذا الذى يحرص على كثرة أداء الخدمات للناس ونفعهم وبذل الخير لهم، وقلما ينتبه إلى مصلحته الخاصة ، فنقول إنه مثل الشمعة تحرق نفسها لتضىء للآخرين، لكن التمثيل فى الحديث المشار إليه يقصد فئة من الناس تتحمس لنصح الآخرين وتوجيههم إلى فعل الخير ، بينما هم لا يفعلون مثل هذا الخير ، فهو هنا أيضا مثل المصباح ، ففى الوقت الذى يستفيد منه الآخرون بما يصدر عنه من ضوء ، لا يفيد نفسه، بل يقع فى جب الاحتراق .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئة من الناس التى لا تنتفع مما تعلم ، فشبه الله الفرد فيها بأن مثله مثل الحمار ، يمكن أن يحمل كتبا علمية قيمة ، وينقلها إلى آخرين يستفيدون منها ، لكنه يظل على حاله دون تأثر بما فيها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ... ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] .

وإذا كان من شروط الإسلام الإيمان بسائر الرسل الذين أرسلهم الله- عز وجل- فى أوقات ماضية مختلفة ، فلا غرابة أن نجد بعض أحاديث الرسول ﷺ يتمثل فيها تعاليم عدد ممن سبقه من الأنبياء والمرسلين ، فها هو يقول : " إن يحيى بن زكريا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ، ١٦٨١ ، ١٦٨٥ .

السلام أمره الله تعالى أن يأمر قومه بخمس كلمات ، وأن يضرب لهم مثلا ، فقال : «إن الله تعالى أمرنى أن آمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ومثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله فذهب العبد فعمل لغيره ، فأيكم يحب أن يؤتى إليه ذلك؟» .

وأمرنى أن آمركم بالصلاة ، ومثل ذلك مثل رجل دخل على ملك فهو يناجيه حوائجه ، وهو يسمع له ويقضى له الحوائج .

وأمرنى أن آمركم بالصدقة ، ومثل ذلك مثل رجل قتل قتيلا فهرب من وطنه مخافة أن يؤخذ به فبعث إلى أهله فقال : ما ينفعكم إخراجى من وطنى فأنا أؤدى إليكم دية قتيلكم نجوما ، وأرجع إلى وطنى ، فرضوا بذلك ، فما زال يؤدى نجومه حتى فك رقبته .

وآمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل لقى العدو فى جُنة حصينة ، فما وجد فى الجُنة خللا يصل إليه سلاح العدو .

وآمركم بذكر الله ، ومثل ذلك رجل أتاه فوج من عدو من ناحية فهو يحاربهم، ثم أتاه فوج آخر من ناحية أخرى ، وأتاه فوج من كل ناحية ، فلما رأى ذلك ترك محاربتهم ، ودخل الحصن ، وأغلق الباب على نفسه وكذلك ذكر الله تعالى »[1].

وعندما يستخدم رسول الله ﷺ رموزا يدور حولها حديثه الداعى إلى الالتزام بأوامر الله ونواهيه ، يلحقها بتفسير لما قصده بكل رمز من تلك الرموز ، فهى عملية أشبه بالقياس المنطقى حتى يسهل على السامعين الوصول إلى حكم يفهموه ويقتنعوا به، فمن ذلك قوله ﷺ :

« ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سور فيه أبواب مفتحة، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس، ادخلوا الصراط لا تعوجوا . ومن فوق الصراط داع ينادى ، فمن أراد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط : الإسلام ، والستور : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، والداعى : القرآن، والداعى من فوق : واعظ بالله» »[2] .

---

(١) سنن الترمذى : ٥/١٤٨-١٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ٥/١٤٤ ، ومسند ابن حنبل : ١/١٨٣ .

وحتى يكون هناك تواصل بين رسالات الرسل والأنبياء يحرص رسول الله من وقت إلى آخر أن يؤكد للمسلمين هذا الترابط بين رسالة الإسلام وما سبقها من رسالات، ومن هذا ما رواه جابر بن عبد الله عنه ﷺ : " مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ، ويتعجبون منها، ويقولون : لولا موضع اللبنة ! قال رسول الله ﷺ : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء "[1] .

ويتصل بهذا ، الحديث الذى رواه أبو موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : «مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا له نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا ، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا ، حتى إذا كان حين صلاة العصر ، قالوا: لك ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه ، فقال لهم : أكملوا بقية عملكم فإن ما بقى من النهار شيء يسير ، فأبوا فاستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور »[2] .

فها هنا نرى أن دين الله واحد ، وأن الأنبياء دعوتهم واحدة ، فالعمل الذى قام به اليهود من أول النهار حتى نصفه هو العمل نفسه الذى أداه من بعدهم حتى صلاة العصر ، وهو العمل نفسه الذى أتمه من جاء أخيرا من العمال من بعد العصر إلى الليل، يعنى أمة محمد ﷺ ، فى آخر الزمان[3] .

وعلى الرغم من أن كل ما يدعو إليه الإسلام هو من مصلحة الإنسان إلا أن الأفراد كما نعلم ليسوا سواء فى تلقيه والإقبال عليه ، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا الحديث الذى يقوم على تصنيف القلوب إلى فئات أربع من حيث تمكن الدعوة الإسلامية منها ، وذلك عن طريق ضرب المثل ، يقول ﷺ[4] : « القلوب أربعة : قلب

---

(١) صحيح مسلم : فى الفضائل ، باب ذكر كونه خاتم النبيين .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الإجارة .

(٣) سميح عباس : الحكم والأمثال النبوية ، ص ٢٤٧ .

(٤) مسند ابن حنبل : ١٧/٣ .

أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق مثل القرحة يمدح القيح والدم ، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » .

ويشير رسول الله إلى طرفى القوة فى هذه الدنيا ، ألا وهما : المال ، والعلم ، فى أى اتجاه ينفق كل منهما ؟ وماذا تكون النتيجة عندما يكونا معا ؟ هنا أيضا نجد سنة الاختلاف بين الناس ، والتباين فى الاتجاهات والمشارب ، يقول ﷺ[1] : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ؛ رجل آتاه الله مالا وعلما ، فهو يعمل بعلمه وماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا وهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته الله علما ولا مالا وهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، فهما فى الوزر سواء » .

والترغيب والترهيب أسلوب تربوى شهير ، كما سنبين بتفصيل أكثر فيما بعد ، لكن القدرة على الحساب الدقيق لكل من العنصرين هى الفيصل فى مدى القدرة على استخدامه بما يؤدى إلى تنمية مستقيمة للشخصية ، ورسول الله الذى وصفه المولى- عز وجل- هو خير من يبين لنا الاستخدام الصحيح للترغيب والترهيب ، فهو يمنى الذين يسعون على الطريق المستقيم برضا الله- عز وجل- وما يترتب على هذا من توفيق فى الدنيا والآخرة ، وعلى العكس من ذلك ، يتوعد الذين يديرون ظهورهم لكل ما جاء يدعوهم إليه بأن حساب الله لهم سوف يكون عسيرا ، وهذا ما يمكن أن نتبينه بصورة واضحة فى هذا الحديث القائم على ضرب المثل[2]:

مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفارة غبراء ، لا يدرون ما قطعوا منها أكثر أم ما بقى منها ، فحسرت ظهورهم ، ونفد زادهم ، وسقطوا بين ظهرانى المفارة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك ، إذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا لحديث عهد بالريف فانتهى إليهم ، فقال : يا هؤلاء ، ما شأنكم ؟ قالوا : ما ترى ! حسرت ظهورنا ، ونفدت أزوادنا ، وسقطنا بين ظهرانى هذه المفارة،

---

(١) سنن ابن ماجه : ٢/١٤١٣ .

(٢) مسند ابن حنبل : ١/٢٦٧ .

لا ندرى ما قطعنا منهـا أكثر أم ما بقى عـلينا ؟ فقال : ما تجـعلون لى إن أوردتكم ماء رواء ، ورياضا خـضراء ؟ قـالوا : حكمك ، قال : تعطونى عـهودكم ومواثـيقكم ألا تعصونى ، ففعلوا فمال بهم فأوردهم ماء رواء ورياضا خضرا ، فمكث يسيرا ثم قال : هلموا إلى رياض أعشب من رياضكم هذه ، وماء أروى من مائكم هذا · وقالت طائفة منهم : ألستم قد جعلتم لهذا الرجل عهودكم ومواثيقكم ألا تعصوه ؟ وقد صدقكم فى أول الحديثه فـآخر حديثه مثل أوله ؟ فـراح وراحوا معه ، فأوردهم رياضا خـضرا وماء رواء ، وأتى الآخرين العدو من ليلتهم فأصبحوا ما بين قتيل وأسير " ·

ويطول بنا الحديث لو حاولنا استقصاء كافة أحـاديث الرسول فى ضرب المثل ، ونختم الجزء الحالى بهذا الحديـث الذى يحض المسلمين على الترابط والتعاون والتآزر ، فعن النعمان بن البشير قال: قال رسول الله ﷺ: " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[(١)] ·

إنه يشيـر إلى أن تداعى المسلمين للمسلم ، يعنى مـشاركته فـى الألم ، فتشبـيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح ، وفيه تقريب للفهم ، وإظهار للمعانى فى الصور المرئيـة ، وفيـه تعظيم حقـوق المسلمين ، والحض على تعـاونهم ، وملاطفـة بعضـهم بعضـا · وفضلا عن ذلك ، فـإن تشبيه الرسـول الإيمان بالجسد وأهله بالأعـضاء ، لأن الإيمان أصل ، وفروعه التكاليف ، فـإذا أخل المرء بشىء من التكاليف فإن هذا الإخلال يشين الأصل ، وكذلك الجـسد أصل كالشجرة ، وأعـضاؤه كالأغصـان ، فإذا اشتكى عضو من الأعـضاء اشتكت الأعضـاء كلها ، كالشـجرة إذا ضرب غصن من أغـصانها اهتزت كلها بالتحرك والاضطراب[(٢)].

الوسائل التعليمية :

لأن عمليـة التعليم هى عـملية اتصال ، كـان من المهم للغاية أن يسـتعين المعلم بوسائط يضـمن من خلالها أن تصل رسـالته إلى المتـعلمين ، هذه الوسائط لها أسـماء متعددة وقد اخترنا هذا الاسم التـقليدى لأننا نتناول تربية كانت تتم فى صدر الإسلام ، أى منذ أكثر من أربعـة عشر قرنا ، بحيث يصـبح من المبالغ فيه استخـدام مصطلحات معاصرة ·

---

(١) صحيح مسلم : فى البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ·

(٢) سميح عباس : الحكم والأمثال النبوية ، ص ٢٤٤ .

وتعتبر الوسائل والطرق التى عرضنا لها ، وتلك التى لم نعرض لها بعد من الوسائل التعليمية ، لكننا نتناول هنا ما يمكن أن يندرج تحت اسم " الأدوات " بالمعنى الحسى المعروف .

وقد أصبح الرأى مستقرا على أن للوسائل التعليمية دورا على قدر كبير من الأهمية فى العملية التعليمية ، يمكن تلخيصه فى النقاط التالية :

- تقدم للمتعلم أساسا ماديا للتفكير الإدراكى الحاسى ، ومن ثم فهى تقلل من استخدام المتعلمين لألفاظ لا يفهمون لها معنى .

- تثير اهتمام المتعلمين كثيرا .

- تجعل ما يتعلمونه باقى الأثر .

- تقدم خبرات واقعية تدعو المتعلمين إلى النشاط الذاتى .

- تسهم فى نمو المعانى ، ومن ثم فى نمو الثروة اللفظية للمتعلم .

- تقدم خبرات لا يسهل الحصول عليها عن طريق أدوات أخرى ، وتسهم فى جعل ما يتعلمه المتعلم أكثر كفاية وعمقا .

ومن المعروف أن البيئة التى عاشها المسلمون فى صدر الإسلام كانت على درجة من البساطة والبدائية بحيث لا يمكن تصور استخدام وسائل تعليمية متخصصة ، وفضلا عن ذلك فإن رسول الله ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومن هنا كانت استعانته ﷺ بأدوات ووسائل تتسق مع ما توافر فى هذه البيئة وما لم يتوافر ، فكان اعتماده أكثر على وسائل حسية مما هو فى جسم الإنسان نفسه ، أى بالإشارة إلى هذا العضو أو ذاك، وبصفة خاصة اليدين .

وكان النبى ﷺ كثيرا ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل وتثبيت المتنبه ، ومن أمثلة ذلك[1] :

قوله فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره : " التقوى ها هنا " ، وأشار إلى صدره ثلاث مرات ، فهذه الإشارة إلى الصدر فى بيان حقيقة التقوى ومحلها أبلغ كثيرا من قوله : التقوى محلها القلب ، فهذه الكلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعا ، أو يلقون سمعا ولا يحضرون مع السمع قلبا يعى .

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٩ ، ط٧ ، ص ١٤٩م

ومثله حديث جابر عن مسلم : « بعثت أنا والساعـة كهاتين ، وأشار بإصبعيه : السبابة والوسطى وفرق بينهما » ، فهذه الإشارة بإصبعيه فى بيان قرب مبعثه من الساعة لها من الوقع فى النفس غير ما يقوله : بعثت قرب الساعة ·

وكذلك حـديث البخـارى وغيره : « أنا وكـافل اليتيم فى الجـنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفـرج بينهما » ، من حديث سهل بن سعـد · فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشـريف بأكثر مما تعطيه عـبارة معتـادة مثل : كافل اليتـيم قريب من الرسول ﷺ فى الجنة ·

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له : « ألا أدلك على مـــلاك ذلك كله » ؟ قـال : بلـى ، قـال : « كف عليك هـذا » ، وأشـار إلى لسانه[1]· إن هذه الإشارة الحسـية إلى اللسان تجعل معاذا وكل من حـضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان ، وآفاته التى تكب الناس فى النار على مناخرهم [2] ·

وهكذا يحرص رسـول الله ﷺ على أن يجمع فى تعليمـه بين البيان بالعـبارة ، والإشارة باليدين الكريمتين ، توضيـحا للمرام وتنبيها على أهمية مـا يذكره للسامعين أو يعلمهم إياه ·

ومن ذلك ، مـا رواه مسلم من حديـث جابر بن عبـد الله ، الطويل فى حـجة النبى ﷺ قوله : « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فيحل وليجعلها عمرة » فقام سراقة بن مالك بن جُعشم فقـال : يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسـول الله أصابعه واحدة فى الأخرى وقـال : «دخلت العمرة فى الحج ، دخلت العـمرة فى الحج . لا ، بل ، لأبد أبد »[3] ·

وفى حديث الثلاثة الذين تكلموا فى المهـد الذى رواه البخارى ومسلم ، واللفظ للبخارى ، عن أبى هريرة ، فذكر فيه رسول الله ﷺ : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وغلام جُريج الراهب ، ثم قال :

---

(١) سنن الترمذى : فى الإيمان ، ٢٦١٩ .

(٢) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١٥٠ .

(٣) صحيح مسلم : ٨/١٧٨ .

" كانت امرأة ترضع ابنا لها من بنى إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة (أى هيئة جميلة وملبس حسن) ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها فأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه " .

قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يمص إصبعه .

ثم "مُرّ بأمة ، تُجَر ويُلعب بها ، وتُضرب ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : سرقت ، زنيت ، ولم تفعل ، وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل "[١] .

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه (أى يبلغ به العرق إلى وسطه) ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاما ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه (فمه) "[٢].

وإذا كنا قد رأينا رسول الله ﷺ يستخدم أصابعه الشريفة ، فإنه قد يستخدم أحيانا أصابع المتعلم لتوضيح المعنى المراد ، فقد أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلّم من يعمل بهن؟ " فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدى ، فعد خمسا وقال: " اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب "[٣] .

وكان- صلوات الله عليه- وسلامه يشير بأصابعه أحيانا مثل القبة، فعن جبير بن مطعم قال : "أتى رسول الله أعرابى فقال : يا رسول الله ، جهدت النفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله ﷺ : «ويحك ، أتدرى ما تقول ؟» وسبح رسول الله ﷺ ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : «ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك .

---

(١) صحيح البخارى : ٦/ ٣٤٤-٣٤٨ ، ٦/ ٣٧١ ، مسند ابن حنبل : ٢/ ٣٠٨ .

(٢) صحيح مسلم : ١٧/ ١٩٦ .

(٣) سنن أبى داود : ٤/ ٤٧٨ .

ويحك، أتدرى ما الله ؟ إن عرشه لهكذا (وقال بأصابعه مثل القبة عليه) وإنه ليئط (يُصوت) به أطيط الرحل بالركب (أى كصوته) »[1].

وجاءت مجموعة من الأحاديث تبين أن رسول الله ﷺ كان يستعين بالإشارة عند التبليغ ، فقد جاء في حديث ابن عباس "أن النبى ﷺ سئل فى حجته فقال : ذبحت قبل أن أرمى ؟ فأومأ بيده ، قال : ولا حرج ، قال : حلقت قبل أن أذبح ؟ فأومأ بيده، ولا حرج"[2].

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : " يقبض العلم ، ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج " قيل : يا رسول الله ، وما الهرج ؟ قال : هكذا بيده ، فحرفها كأنه يريد القتل [3] .

لقد صدر الحديث الأول فى حجة الوداع ، وقد اجتمع فيها عدد كبير من الصحابة- رضى الله عنهم- يتعذر تبليغهم العلم والجواب على أسئلتهم عن طريق السمع فقط ، فلما سئل رسول الله ﷺ استعان بالإشارة اليدوية ليجيب بطريقة بصرية، تقوم العين فيها بتبليغ العقل المعلومة ليتولد عن ذلك الفهم والإدراك ، والابتعاد عن الشك ، فلا يظن الحاضر أنه سمع مقطعا من جواب رسول الله دون آخر ، ولا يتبادر إلى ذهن بعضهم أنه تلقى ما لم يتلقه الآخرون ، فالبصر فى مثل هذه المناسبات أقدر من السمع على الاستيعاب ، خاصة إذا اتخذ المعلم لنفسه مكانا مميزا يسمح لجميع الحاضرين برؤية إشاراته وحركاته[4] .

أما الحديث الثانى ، فقد صدر فى مجلس من مجالسه ﷺ ، فالسمع الجيد فيه ممكن ، ولكن الإشارة أبلغ ومدلولها أرسخ ، فالشرح اللفظى والتفصيل البيانى لتعريف الهرج والمرج قد لا يؤثران فى النفوس تأثير الإشارة المعبرة التى لن ينساها من شاهدها، ولن تغيب عن الأبصار مهما تباينت المواقف .

وإلى جانب الحالتين المتقدمتين ، أى الإشارة للتبليغ فى الحشد الكبير ، والإشارة المقدمة على الشرح والبيان ، نجد رسول الله ﷺ قد استخدم الإشارة فى ظروف يكون

---

(١) المرجع السابق : ٤/ ٢٤٣ .

(٢) صحيح البخارى : ٣/ ٢٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) محسن بن محمد بن سعيد عبد الناظر : العلم وأهله فى الحديث النبوى الشريف ، بيروت ، مؤسسة الريان ، ١٩٩٨ ، ص ١٩٨ .

المرء فيها مطالبا بالإمساك عن الكلام ، أو التنقيص منه ، فقد جاء فى قصة القتال الذى كان بين بينى عمرو بن عوف ، وأفاد أن الرسول قدم المسجد والصحابة يصلون بإمامة أبى بكر الصديق ، فأخذوا فى التصفيق ، فلما رأى أبو بكر التصفيق لا يمسك عنه التفت فأومأ إليه ﷺ بيده (الحديث)[1].

وتارة كان ﷺ يثير انتباه المخاطب بأخذ يده أو منكبيه ، ليزداد اهتمامه بما يعلمه، وليلقى إليه سمعه وبصره وقلبه ليكون أوعى له وأذكر ، روى البخارى ومسلم[2]، واللفظ للبخارى عن عبد الله بن سخبرة أبى معمر قال : سمعت ابن مسعود يقول : "علمنى رسول الله ﷺ ، وكفى بين كفيه ، التشهد ، كما يعلمنى السورة من القرآن :

«التحيات لله ، والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباده الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» .

فها هنا عبارة تصور شدة اهتمام رسول الله ﷺ بتعليم هذا التشهد ، وفى الحديث من أمور التعليم : أن المعلم ينبغى له أن يبدى الاهتمام البالغ بالأمر الهام يعلمه للمستفيدين ، وأن يشعرهم بذلك ، ليلقوا إليه بسمعهم وبصرهم وقلوبهم ، وليكونوا على كمال التيقظ فيما يتحملونه عنه ، فيضبطوا لفظه وفعله وإشارته وعبارته ، دون زيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل أو تهاون[3] .

ومن هذا الباب أيضا ، ضرب النبى ﷺ على فخذ بعض أصحابه فى بعض الأحيان للتنبيه وجمع الذهن على ما يقوله ، فقد روى مسلم[4] عن التابعى الجليل أبى العالية ، قال : « أخر - الأمير - ابن زياد الصلاة ، فجاءنى عبد الله بن الصامت ، فألقيت له كرسيا فجلس عليه ، فذكرت له صنيع ابن زياد ، فعض على شفتيه وضرب فخذى ، وقال : إنى سألت أبا ذر كما سألتنى ، فضرب على فخذى كما ضربت على فخذك ، وقال : إنى سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى ، فضرب على فخذى كما

(١) سنن النسائى : ١٠/١٥ .

(٢) صحيح البخارى : ١١/٥٦ .

(٣) أبو غدة : الرسول المعلم ، هامش ٣ ، ص ١٧٦ .

(٤) صحيح مسلم : ٥/١٥ .

ضربت على فخذك ، وقال : صل الصلاة لوقتها ، فإن أدركتك الصلاة معهم فصل ، ولا تقل : إنى قد صليت فلا أصلى ، فإنها زيادة خير » .

كما ورد أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأس المخاطب للدلالة على القرب الشديد[1]، إذ كلما أظهر المعلم مودة ومحبة للمتعلم كلما ساعد ذلك على مزيد من الفهم والاقتناع ، بل وثبات مضمون التعلم فترة طويلة ، فقد أخرج أبو داود عن عبد الله بن حوالة الأزدى أنه قال : " بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا ، فرجعنا فلم نغنم شيئا ، وعرف الجهد فى وجوهنا ، فقال : اللهم لا تكلهم إلى فأضعف عنهم ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها ، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم - ثم وضع يده على رأسى ، أو قال على هامتى - ثم قال : يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام ، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدى هذه من رأسك" [2].

واستخدم رسول الله الحصى ، وهو من الوسائل الدارجة فى البيئات الفقيرة ، وكانت تستخدم للعد ، حتى اشتق منها اسم " الإحصاء " ، فعن بريدة قال : " قال النبى ﷺ : هل تدرون ما هذه وهذه ؟ ورمى بحصاتين ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال " هذاك الأمل ، وهذاك الأجل "[3] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أخذ بثلاث حصيات ، فوضع واحدة ، ثم وضع أخرى بين يديه ، ورمى بالثالثة ، فقال : هذا ابن آدم ، وهذا أجله ، وذاك أمله[4].

وعن أبى سعيد الخدرى قال : " دخلت على رسول الله ﷺ فى بيت بعض نسائه فقلت : يا رسول الله ، أى المسجدين الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : «هو مسجدكم هذا (لمسجد المدينة)» .

وعندما أراد النووى شرح مضمون هذا الحديث ، ذكر أن أخذ الرسول الحصباء

---

(١) حسن بن على البشارى : استخدام الرسول ﷺ الوسائل التعليمية ، الدوحة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، سلسلة كتاب الأمة (العدد ٧٧) جمادى الأولى ١٤٢١هـ ، ص ٨٤ .

(٢) سنن أبى داود : ٣٥٨/٢ .

(٣) سنن الترمذى : ١٤٠/٥ .

(٤) مسند ابن حنبل : ٣٣٥/٣ .

وضـربه فى الأرض إن هو إلا مظهر المبـالغة فـى الإيضاح لبـيان أنه مـسجـد المدينة ، والحصباء بالمد ، الحصى الصغار(١) .

وعن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر . .

حدثنا عن الأمـانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فـعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (الأثر اليسـير) ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل (قشرة رقيقة يجـتمع فيها ماء من أثر العمل) ، كجمر دحرجـته على رجلك فنفط (ما يـتركه العمـل بفأس من بثور فى يد العـامل ، ملأى بالماء) منتبرا (مرتفعا) وليس فيه شىء (ثم أخـذ حصى فدحرجه على رجله) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانـة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقـال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفـه ، ما أعقله ، وما فى قلبـه مثقال حـبة من خردل من إيمان "(٢) .

وأشار النووى إلى أن أخـذ رسول الله ﷺ الحـصاة ودحرجـته لهـا ، فإنما يريد بذلك زيادة البيان وإيضاح المذكور .

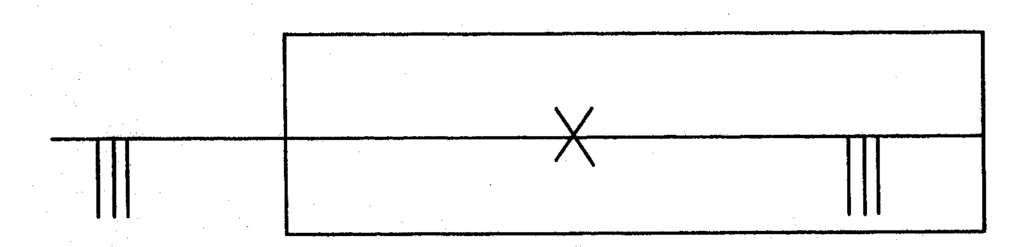
ولعل فى اسـتخدام رسـول الله ﷺ للخطوط يخطهـا على الأرض لدلالة على مدى وعيه ﷺ بما لهذه الوسيلة من فعـالية فى تقريب المعانى إلى هؤلاء البسطاء ، ففى هذه الوسيلة تجتمع حاستان ؛ أولهما السمع ، فمن خلاله يسمعون الشرح ، والثانية ، البصـر ، الذى من خلاله يرون الخطوط ، واجتـماع أكثر من حـاسة فى عمليـة التعلم يزيدها ترسخا وتعـمقا ، فمن مثل ذلك مـا رواه البخارى عن عبد الله بن مـسعود أنه قال: خط النبى ﷺ خطا مربعا وخط خطا فى الوسط خارجا منه ، وخط خططا صغارا إلى هذا الذى فى الوسط من جـانبه الذى فى الوسط ، وقـال : «هذا الإنسان ، وهذا أجله محـيط به أو قد أحاط به ، وهذا الذى هو خارج ، أمله ، وهذه الخطط الـصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا ، نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» (٣)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : ٩/ ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣)صحيح البخارى : ٨١/ ٤ .



شكل (١)

فهذا الرسم الذى خطه الرسول ﷺ وسيلة توضيحية كثيرا ما يلجأ إليها المعلمون لتوضيح ما يبثونه من علم وما يسعون إلى بلوغه من أهداف تربوية ، فالقضايا التى أثارها الرسول تتصل بالإنسان وأجله ، وما يريد تحقيقه فى الحياة الدنيا وما يعترضه من مصاعب[١]

لقد مثل لأجل الإنسان ، أى للفترة الزمنية التى يقضيها فى هذه الحياة الدنيا بالخط المربع وهو من الخطوط المغلقة ، أى التى لها بداية ولها نهاية ، فكل نقطة من نقاطه يمكن أن تكون المنطلق والنهاية فى نفس الوقت . أما الأمل ، أو ما يخطط الإنسان إلى تحقيقه أو يأمل فى الوصول إليه وإنجازه ، فهو شبيه بنصف المستقيم الذى يبدأ ببداية الإنسان ولكنه لا يعرف النهاية ، ذلك أن الإنسان يستطيع أن يضع لنفسه ما شاء من أمل يتحقق بعضه ويبقى البعض الآخر على مستوى الأمل مع انقضاء الأجل . أما الخطوط الصغيرة فهى الآفات التى لا تدخل فى الأمل ، ولكنها تصيبه أو قد تكون الأيام التى يقضيها الإنسان لتوصله فى النهاية إلى توديع هذا العالم ، فالذى لم يمت بالسبب مات بالأجل .

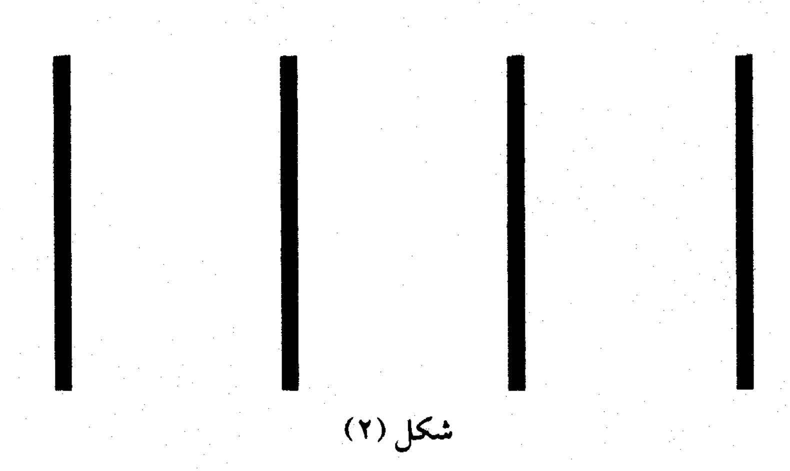
إن البعد التربوى لهذا الرسم واضح المعالم ، فبفضله تتضح العلاقة القائمة بين الأجل والأمل والأعراض ، وحركة كل منها ، فإذا ما أدرك الإنسان هذه وتلك وفهم ما يدخل تحت إرادته وما يخرج عنها حمى نفسه من آفات كثيرة وأقبل على الحياة يحبها حبا مشروعا ، فيقى نفسه من الخوف واليأس ، واشتد عنده عود الأمل والسعى إلى استثمار الوقت وصرفه فيما ينفع ويفيد ، وآمن بأن الحياة مطية إلى الآخرة ، فلابد من حسن استثمارها والاستعداد أثناءها إلى حياة دائمة ، أعد الله فيها لعباده المؤمنين العالمين

---

(١) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ٢٠٠ .

العاملين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب أحد ، ذلك أنهم انطلقوا إلى آخرتهم من دنياهم انطلاقا كانوا فيه خلفاء فى الأرض بالطريقة التى أرادها الله وأمر بها[1] .

ومن الرسوم الأخرى ، رسم خاص بأربع شخصيات من النساء المؤمنات ، يمثلن التكامل الإنسانى ، متقاربات فى درجة السمو ، متواريات فى الفضل ، ولكل منهن شخصيتها الممتازة ، ومن هنا تجىء الخطوط الأربعة متساوية الطول والشكل متوازية [2] .



شكل (٢)

فعن ابن عباس قال[3] : خط رسول الله ﷺ أربعة خطوط ، ثم قال : «أتدرون ما هذا ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال الرسول ﷺ : «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، - امرأة فرعون - ومريم بنت عمران» .

وعن ابن مسعود قال[4] : « خط رسول الله ﷺ خطا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، قال : ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبعُوهُ ولا تتَّبعُوا السُّبُل فتفرَّق بكُمْ عن سبيله ... (١٥٣) ﴾ [الأنعام] .

---

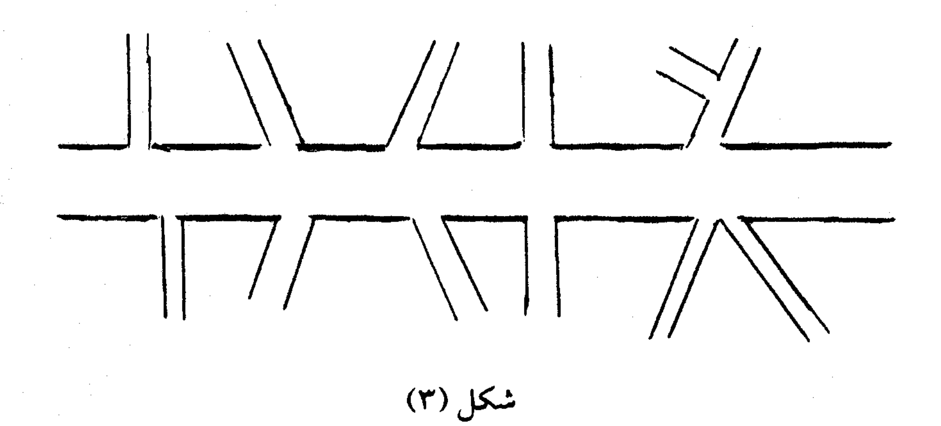
(١) المرجع السابق ، ص ١ ٢

(٢) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢١٩ .

(٣) مسند ابن حنبل ، مع منتخب كنز العمال ، ج١ ، ص ٢٩٣ .

(٤) مسند ابن حنبل : ١/ ٥٨٣ .

ويشير القرضاوى [1] إلى أن النبى ﷺ يفسر لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشر فى سورة الأنعام ، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل ، يخط عليه بيده بدل اللوح ، وهو هنا يرسم صراط الله المذكور فى الآية الكريمة فى صورة خط مستقيم ؛ ولهذا قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ويرسم السبل الأخرى التى حذرت الآية من اتباعها فى صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله ، ثم يشير إليها قائلا : « هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم يختم هذا التوضيح العملى بقراءة الآية الكريمة فتقع أعظم موقع فى نفس السامع المشاهد وعقله ، فهنا اشتراك البصر مع السمع فى استيعاب معنى الآية ، وفهم مراد الله تعالى منها .



شكل (٣)

فهذا رسم يوضح مضمون الرسالة التى أراد رسول الله ﷺ أن يبلغها لنا[2] .

ويعتبر التكرار من الوسائل الهامة كذلك فى المساعدة على التعليم ، وخاصة المواضيع التى تغمض على المتعلم ولا تتضح له إلا بمزيد من الشرح والتفسير المكرر حتى يستوعب حقائقها ويفهم جوانبها ويعى ما ترمى إليه . وهناك مواضيع كثيرة لا غنى فى تعلمها عن استعمال وسيلة التكرار حتى ترسخ فى أذهان المتعلمين مع مراعاة مستوى

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١٤٨ .

(٢) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٢١ .

ذكائهم وقدراتهم العقلية ، ومن ذلك مثلا القواعد والمبادئ الأساسية لمختلف العلوم كالرياضيات واللغة وغيرها ، وغنى عن البيان أنه كما أن لكل أمر حدودا إذا تعداها يمكن أن تحدث نتيجة عكس ما نريد ، فكذلك بالنسبة للتكرار ، له حدوده ، فإذا زاد التكرار عن هذه الحدود بذر مللا ، وربما مقاومة[1] .

وقد اهتمت السنة النبوية الشريفة بوسيلة التكرار لفاعليتها فى شرح وتثبيت كثير من القواعد والتعاليم الدينية ، خاصة فى مثل هذا المجتمع الأمى الذى كان يتحدث إليه . وكان رسول الله ﷺ يكرر فى تعليمه للمسلمين وتوجيههم ، ويعجل حتى يعوا عنه ما يقول ، ويفهموا ما يطرحه عليهم ، ويستوعبوا ما يوجههم إليه ويتيقنوا مما يأمرهم به . عن ابن عمر قال النبى ﷺ : " هل بلغت " ثلاثا[2] ، وعن أنس عن النبى ﷺ أنه : " إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا " [3].

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ بن جبل[4] : " أن رسول الله ﷺ خرج بالناس قبل غزوة تبوك ، فلما أن أصبح صلى بالناس صلاة الصبح ، ثم إن الناس ركبوا ، فلما طلعت الشمس نعس الناس على أثر الدلجة (السفر من أول الليل) ، ولزم معاذ رسول الله ﷺ يتلو أثره . . .

ثم إن رسول الله ﷺ كشف عن قناعه ، فالتفت فإذا ليس من الجيش رجل أدنى إليه من معاذ ، فناداه رسول الله ﷺ فقال ، يا معاذ ، قال : لبيك يا نبى الله ، قال : ادن ، دونك ، فدنا منه حتى لصقت راحلتاهما إحداهما بالأخرى ، فقال رسول الله ﷺ ما كنت أحسب الناس منا كمكانهم من البعد ، فقال معاذ : يا نبى الله ، نعس الناس فتفرقت بهم ركابهم ترتع وتسير ، فقال رسول الله ﷺ : وأنا كنت ناعسا .

فلما رأى معاذ بشرى (ارتياحه) رسول الله ﷺ إليه وخلوته له ، قال : يارسول الله ، ائذن لى أسألك عن كلمة قد أمرضتنى وأسقمتنى وأحزنتنى ، فقال نبى الله ﷺ : «سلنى عما شئت» . قال : يا نبى الله ، حدثنى بعمل يدخلنى الجنة لا أسألك

---

(١) عبد الحميد الزناتى : أسس التربية الإسلامية ، ص ٤٧٩ .

(٢) صحيح البخارى : ١/ ٣٤

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٤) مسند ابن حنبل : ٥/ ٢٤٥-٢٤٦ .

عن شىء غيرها (غيره) ، قال نبى الله ﷺ : بخ بخ بخ ، لقد سألت عن عظيم ، لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير ، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير ، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير ، فلم يحدثه بشىء إلا قاله ثلاث مرات ، يعنى أعاده ثلاث مرات ، حرصا لكيما يتقنه ·

فقال نبى الله ﷺ : تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتقيم الصلاة ، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا حتى تموت وأنت على ذلك ، فقال : يا نبى الله ، أعد لى ، فأعادها له ثلاث مرات ·

ثم قال نبى الله ﷺ : إن شئت حدثتك يا معاذ برأس هذا الأمر ، وقوام هذا الأمر ، وذروة السنام ، فقال معاذ : بلى بأبى وأمى أنت يا نبى الله فحدثنى ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قال :

إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ·

وإن قوام هذا الأمر ، إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ·

وإن ذروة السنام منه الجهاد فى سبيل الله ·

إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا ، وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل " ·

وقد علق محسن عبد الناظر على بعض الأحاديث التى يتضح فيها التكرار بملاحظتين على درجة كبيرة من الأهمية[1] :

١- أن هذا النوع من التكرار مركز على الفهم ، ذلك أن أول مراحل هذا الأخير تتمثل فى السماع السليم الذى بواسطته تصل المعلومات إلى الفكر ، لذلك نجد القرآن الكريم يبدأ بالسمع قبل البصر كلما قرن بينهما · لقد أثبتت التجارب التربوية دور السمع فى التعليم ، لذلك صنعت الآلات التى تزيد فى قدرة هذه الحاسة على استيعاب ما يلقى عليها وأقيمت مخابر اللغات التى يخضع فيها المتعلمون لما سمى " بالحمام الصوتى " الذى يعينهم على السماع الجيد ، وهذا الأخير يسهم فى جودة النطق · وهكذا تنطلق العملية التعليمية الحديثة واهتمت به الدراسات المخبرية والآلات الدقيقة ·

---

(١) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٩٦ ·

٢- إن الفهم الذى كان من أهم أهداف التكرار ، فى حاجة إلى أن يصاحبه تريث فى الكلام حتى تخرج الحروف والمقاطع بطريقة يستطيع السامع بفضلها التفاعل مع ما يلقى عليه ، فقد روى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال : كان أبوهريرة يحدث ويقول : اسمعى يا ربة الحجرة ، اسمعى يا ربة الحجرة ، وعائشة تصلى ، فلما قضت صلاتها قالت لعروة : ألا تسمع إلى هذا ومقالته آنفا ، إنما كان النبى ﷺ يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه[1]. لقد كان أبو هريرة يحدث ويسعى إلى أن تبلغ أحاديثه عائشة لأنه يؤمن أن إقرارها لما يحدث به يزيده قوة ، لكن أم المؤمنين ، وإن لم تنكر عليه شيئا مما حدث به ، لم ترض عن طريقته فى التحديث ، فقد لاحظت أنه لم يتأس بالرسول ﷺ فى الكم الذى يحدث به ، وفى التريث عند الكلام ، وفى مساعدة المتعلم على الحفظ والاستيعاب ، فذكرت بطريقة الرسول ﷺ فى التحديث ، وأكدت أنها تمتاز بالابتعاد عن الإكثار من المعلومات وعن التسرع فى النطق[2]

وقد كانت هناك " وسائل " أخرى غير هذا الذى ذكرنا يضيق المقام عن تناولها

من أجل تعلم جيد ، لابد من تفكير سليم :

والذى يتابع الطريقة التى اتبعها الرسول الكريم ﷺ فى دعوته للناس يدهش كثيرا لذلك التشابه الكبير بين طريقته وطريقة التفكير السليم ، فهذه الطريقة تقتضى منا ، إذا أردنا بحثا أن نمحو من أنفسنا كل رأى وكل عقيدة سابقة لها فى هذا البحث ، وأن نبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات ، فإذا وصلنا إلى نتيجة من ذلك ، كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ، ما لم يثبت بالبحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر .

وها هى ذى طريقة محمد صلوات الله عليه وسلامه وأساس دعوته . فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها ؟

نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدأوا يفكرون فيما أمامهم . لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم ، فأى صنم هو الحق ؟ وأى صنم هو الباطل ؟ وكان فى

---

(١) صحيح مسلم : ١٦/٥

(٢) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٩٧ .

بلاد العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة[1] ومجوس[2] ، يعبدون النار ، وكان فيها الذين يعبدون الشمس ، فأى هؤلاء على حق ؟ وأيهم على الباطل ؟ فلنترك هذا كله جانبا ، ولنمح أثره من نفوسنا ، ولنتجرد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة ، ولننظر ، والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيان ، مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالا ، فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض ، وأممه بعضها ببعض ، والإنسان يتصل بالحيوان والجماد ، وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك ، وذلك كله يتصل فى سنن مطردة لا تحويل لها ولا تبديل ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، ولو أن إحدى موجودات الكون تحولت أو تبدلت ، لتبدل ما فى الكون ، وما دام ذلك لم يحدث ، فلابد لهذا الكل من روح تمسكه ، منه نشأ ، وعنه تطور ، وإليه يعود ، هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الإنسان ، أما سائر ما فى الكون ، فهو خاضع لهذا الروح كإنسان سواء ، والإنسان ، والكون ، والزمان ، والمكان وحدة ، وهذه الروح مصدرها وجوهرها ، إذن فلتكن لهذا الروح وحده ، العبادة ، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة ، وفى الكون كله ، يجب أن تلتمس من طريق النظر والتأمل فى سننه الخالدة ، وإذا ، فما يعبد الناس من دون الله أصناما وملوكا وفراعنة ونارا وشمسا ، إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كرم به من القدرة على استنباط سنة الله من طريق النظر فى خلقه .

إن الرسول ﷺ بطريقته هذه فى إقناع الناس وتعليمهم مبادئ الإسلام ، إنما يقدم لنا الطريقة الصحيحة للتربية والتعليم ، ففى هذه الطريقة الإسلامية العلمية سمو بالعقل الإنسانى وتحطيم لقيوده[3] .

---

(١) اللفظة آرامية الأصل ، تدل على التطهير والتعميد ، وتطلق على فرقتين :

أ- جماعة المناوئين أتباع يوحنا المعمدان .

ب- صابئة حران الذين عاشوا زمنا فى كنف الإسلام ولهم عقائدهم وعملاؤهم ، وورد ذكرهم فى القرآن ثلاث مرات بجانب اليهود والنصارى مما يؤذن بأنهم من أهل الكتاب ، وفى هذا ما يصدق على المناوئين ، وإن تستروا وراء صابئة حران الوثنيين (الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة، ط٢، ص ١١١٢) .

(٢) كلمة إيرانية الأصل . منها (المجوسية) ، وردت فى القرآن غير مرة ، تطلق على أتباع الديانة الزرادشتية ، عدهم كثير من المسلمين من أهل الكتاب . انقرضت المجوسية أو كادت بعد فتح المسلمين لفارس ، وإن تركت آثارا فى الحركة الفكرية الإسلامية (الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٦٥٣) .

(٣) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٦ ، ص ١٦٥، ١٦٦ .

إن هذا يتسق تمام الاتساق مع فطرة الإنسان التى فطره المولى عز وجل عليها ، ذلك أن هذا الإنسان ليس آلة صماء تتحرك دون أن تحركه الغرائز العمياء ، والهوجاء ، بل إنه إنسان مفكر عاقل ، وانطلاقا من ذلك نجد أن التربية الفكرية للإنسان ليست حشوا للذهن بالمعلومات ، ولا تلقيا ببغائيا لخبرات غيره ، ولكنها صقل للحواس وتدريب لها ، وفضلا عن ذلك ، فهى تستهدف تشجيعها للقدرات العقلية بأن تعمل بنجاح وثقة ملاحظة وتجريبا ، بمعنى أن التربية الناجحة هى التى تعمل على إيقاد المصباح الذاتى فينا ، أو لإثارة الدوافع النفسية للاطلاع وحل المشكلات والتفكير السليم[1] .

ولقد درب الرسول الكريم أصحابه أن يستخدموا عقولهم فى مواجهة المشكلات وأن يجتهدوا فى ذلك - فلكل مجتهد نصيب - وألا يكونوا إمعة ، ونسوق مثلا لذلك :

لما ازداد عدد المؤمنين ، وتوسعت أطراف المدينة المنورة بمن حل فيها من المهاجرين وغيرهم إلى جانب الأنصار ، قامت مشكلة دينية اجتماعية ، وهى : كيف يمكن دعوة المؤمنين للمسجد إذا حان وقت الصلاة ؟ فلابد من عمل شىء[2] .

اجتمع رسول الله وأصحابه يتذاكرون ، وبدأت الاقتراحات لحل المشكلة تتوالى[3] : قال بعض الصحابة : إذا حان وقت الصلاة فإننا نرفع راية فى مكان مرتفع ليراها الناس ، بيد أن هذا الاقتراح لم ينل قبولا ، لا من الرسول ، ولا من الصحابة، لأنه لا يحل المشكلة ، ولا يحقق الغرض المطلوب ، ورفع الراية لا يوقظ النائم ولا ينبه الغافل !

وقال آخرون : نشعل نارا على مرتفع الهضاب ، وهذا اقتراح لم يلق قبولا لسبب جوهرى اجتماعى ، وهو أن ذلك شعار المجوس عبدة النار ، وينبغى للأمة الموحدة أن يكون لها شعارها المميز والخاص .

وأشار قوم باستخدام بوق لدعوة الناس إلى الصلاة ، كذلك لم ينل هذا الاقتراح قبولا ، لأن اليهود كانت تستخدم البوق ، ويجب الحفاظ على شخصية الأمة من الذوبان والضياع .

واقترحت جماعة أخرى دق الناقوس ، ورفض الاقتراح ، لأنه تقليد للنصارى ، والمفروض أن تكون للأمة الإسلامية ذاتيتها المتميزة .

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

ثم أخيرا أشار بعض الصحابة بالنداء ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادون بها بشعار إسلامى خاص ، فقبل هذا الرأى بشكل مبدئى لأصالته الفكرية المؤمنة ولتحقيقه العملى للغرض المطلوب فى دعوة الناس .

أما صيغة النداء ، فقد تواردت فيها اتفاقات ، فهذا عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصارى ، وهو بين النائم واليقظان ، إذ قال له شخص : ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قل : الله أكبر (مرتين) ، ثم قل : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قل : حى على الصلاة (مرتين) ، حى على الفلاح (مرتين) ، ثم كبر ربك (مرتين)، ثم قل : لا إله إلا الله . ثم أتى عبد الله إلى النبى ليخبره بذلك فيقول له الرسول : " لقن بلالا ، فإنه أندى صوتا منك " . ويقوم بلال يؤذن ، فلما سمعه الناس هرولوا، وفيهم عمر بن الخطاب يجر رداءه وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى . فقال رسول الله ﷺ: « الحمد لله لقد جاء الوحى بذلك » .

ومن مظاهر سعى رسول الله كذلك لتنمية التفكير السليم أن دعوته استهدفت تربية وهداية تقوم على بث الوعى وندرة الاعتماد على المعجزات .

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة ، أن الغيب من علم الله ، يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء : ﴿يسْأَلُونك عن السَّاعة أَيَّان مُرْساها قُلْ إِنَّما علْمُها عند ربِّي لا يُجلِّيها لوقْتها إِلاَّ هو .... (١٨٧)﴾ [الأعراف]، و ﴿ قُل لاَّ أَمْلكُ لنفْسي نفْعًا ولا ضرًّا إِلاَّ ما شاء اللَّهُ ولوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغيْب لاسْتكْثرْتُ من الْخيْر وما مسَّني السُّوءُ إِنْ أَنا إِلاَّ نذيرٌ وبشيرٌ لِّقوْمٍ يُؤْمنُون (١٨٨)﴾ [الأعراف]، و ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لكُمْ عندي خزائنُ اللَّه ولا أَعْلَمُ الْغيْب ولا أَقُولُ لكُمْ إِنِّي ملكٌ إِنْ أَتَّبعُ إِلاَّ ما يُوحىٰ إِلَيَّ قُلْ هلْ يسْتوي الأَعْمىٰ والْبصيرُ أَفلا تتفكَّرُون (٥٠)﴾ [الأنعام] ، و ﴿ وعنده مفاتحُ الْغيْب لا يعْلمُها إِلاَّ هو ...(٥٩)﴾ [الأنعام]، إلى غير ذلك من آيات تؤكد المعنى نفسه .

وآية الآيات ، مسألة المعجزات ، فى التربية المحمدية ، فليست المعجزة عسيرة إذا أرادها خالق الكون كله ، وخالق السنن التى تجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ، ولا تنفع المكابر المبطل إذا أصر على التمادى فى باطل[1]: ﴿ولو فتحنا

(١) عباس محمود العقاد : مطلع النور ، فى (الإسلاميات) ، القاهرة ، دار الشعب ، د . ت ص٨٢ .

عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ⟨١٤⟩ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ⟨١٥⟩ ﴾ [الحجر] ، و ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ⟨٢٠⟩ ﴾ [يونس].

وكان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك ما سبق أن عرضنا له عندما كسفت الشمس عند موت ابنه إبراهيم ، فقال الناس إنها كسفت لموته ، فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه إليه ، بل أنكر عليهم ذلك الظن ، ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة ، فقال معقبا : « إنما الشمس والقمر آياتان من آيات الله ولا تكسفان لموت أحد ... » . وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى ، وهى إعادة بناء الإنسان فى تمام وعيه وإدراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديما على التأثير فى العقول عن طريق الحس المخدوع .

وبدا لقريش أن تدعو محمدا إلى مجلس زعمائها ، كما سبق أن بينا ، لعله يلين عما يدعو إليه ، وعرضوا عليه من جاه الدنيا وما يسيل له اللعاب ، فأبى فكان منهم أن قالوا [1]:

« يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم " قصى بن كلاب " ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول » .

ورد الرسول ﷺ على مقترحاتهم : « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهذا حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

---

(١) بنت الشاطئ : مع المصطفى فى عصر المبعث ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة إقرأ (٣٢٣) ، ١٩٦٩ ، ص ٥٤ .

قالوا : « فإذ لم تفعل هذا لنا ، فخـذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقـول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقـصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق ، كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم».

وقال نبى الله كلمتـه : « ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسـأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشـيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا ما جئـتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »[1] .

وقال رجال فى المدينة ، لو أنه كـان كما يزعم لنا حقا ، فما مـرضت ابنته رقية وصحبه ، ولما فقد بعض أصدقائه ، ولما دهم مدينته الوباء ، ومضوا يتهامسون : إن هو إلا ساحر ، كما قالت عنه قريش ، وقد بطل هنا سحره . وسمع هو ما قاله المرجفون فى المدينة لبعـض من اتبعه ليـفتنوهم عنه ، وأدرك أن الشك قد بـدأ يغزو قلوب بعض الأتباع ، فلئن كان صـادقا فيمـا جاء به ، فلماذا لا يقوى بعد على أن ينـتشل ابنته من الحمى ؟ ولماذا لم يستطع أن ينقذ حياة بعض أتباعه الذين سقطوا فى الوباء ؟

والإجابة واضـحة : لأنه لم يبعث إلا بشيـرا ونذيرا ، وكانت دعوته تسـتهدف تربية وهداية بالوعى ، لا بالمعجزات[2].

وربما كان الرسول ﷺ فى عيشه وكفاحه أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل أكثر من غيره لأن النبى ﷺ - وكذا المصلحون فى المجتـمع - أشد حاجة إلى رجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلى ، لأن ما يصادفـه من مشاكل الحياة وما يعترض طريقه من صـعاب ، تتطلب سـرعة البت فى حل تلك المشكلات وإزالة هذه الصـعاب والعقاب، ولا يكفى فى سرعـة البت هذه ، حسن استعداد المرء وصفـاء عقله وسلامة فطرته ، فكم فى الفـيافى ورؤوس الجـبال وبطون الأودية من خـصوبة عـقل ، وجودة طبع ، قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة فى معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسـول ، وكذلك المصلح أكـثر من غيره ، لا نجد بين من اختارهم الله لرسـالته إلا من صهرهم الزمن وعـركتهم الحوادث ، فجـمعوا ، مع صفاء الطبع وعلـو الأصل وغزارة العقل ، قوة الجلد ، ووفرة النصـب ، والصبر على

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) عبد الرحمن الشرقاوى : محمد رسول الحرية ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال.

نوائب الدهر ، ومقارعة الخطوب [1] . ونحن نعلم أنه لا يكفى ليكون الرجل قائدا مصلحا فى كل ضرب من ضروب الحياة أن يكون حسن السيرة ، تقيا ورعا فحسب ، بل لابد أن يكون قوى الفكر ، سريع البديهة ، قوى الحجة ، صارم العزيمة ، شديد الشكيمة فى تنفيذ الحق ، فطنا ، يقظا لا يخدع .

وروى الرواة عددا من أحاديث رسول الله تنبئ بحرصه ﷺ على شن الحملة على الأوهام والخرافات والشعوذات التى كانت سوقها رائجة فى العصر الجاهلى ، فمن ذلك قوله عليه الصلاة السلام : " اجتنبوا السبع الموبقات " ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : " الشرك بالله والسحر ... الحديث "[2] .وقال كذلك : " ومن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن علق شيئا وكل إليه "[3]، أى علق على نفسه تميمة أو حرزا ، أو نحوه ، مما يزعمون أنه يقى من الجن أو العين أو المرض .

ومما يروى عنه أيضا ﷺ قوله : " ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له أو سحر أو سُحر له ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول ، كفر بما أنزل على محمد ﷺ "[4] ، وأيضا :

« من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوما »[5] .

وعن ابن مسعود موقوفا : " من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا يؤمن بما يقول كفر بما أنزل على محمد ﷺ "[6].

والكاهن هو الذى يخبر عن بعض المضمرات ، فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها ، ويزعم أن الجن تخبره بذلك . والعراف ، كالكاهن ، وقيل : هو ساحر ، وقال البغوى : العراف هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على

---

(١) عبد الجليل عيسى أبو النصر : جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ، دار البيان ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠ .

(٢) رواه الشيخان من حديث أبى هريرة «اللؤلؤ والمرجان » (٥٦) .

(٣) سنن النسائى : من رواية الحسن عن أبى هريرة فى تحريم الدم (٤٠٧٩) .

(٤) عن : يوسف القرضاوى ، الرسول والعلم ، ص ٥٩ .

(٥) رواه أبو داود (٣٩٠٤) .

(٦) رواه مسلم فى السلام (٢٢٣٠) .

مواقعها ، كالمسروق : من الذى سرقه ؟ ومعرفة مكان الضالة ، ونحو ذلك[1] . ومثل الكاهن والعراف ، المنجم ، وهو الذى يدعى معرفة الغيوب المستقبلة عن طريق النجوم وما من أسرار وتأثيرات فى العالم الأرضى ، وبعضهم يسمى المنجم كاهنا .

وقد شاعت فى بعض الكتابات أحكام تصف المحدثين بأنهم خصوم العقل ، وبأنهم لا يهتمون إلا بالنقل . وبطبيعة الحال فمن العسير إنكار أن بعض المنتسبين إلى الحديث قد اتبعوا أساليب ساعدت على انتشار مثل هذا الوصف ، مما دفع بعض الأئمة إلى تأليف كتب تؤكد على أنه لا تعارض بين النقل والعقل ، ولا خصومة بين نعمتين من نعم الله تعالى . ولو تفكر أولئك الذين أهملوا وظيفة العقل فى نقل النصوص ، بعض الأحاديث النبوية ، ولو استقرأ الذين عمموا حكمهم على الحديث وأهله ، تلك الأحاديث ، لأدركوا أن رسول الله ﷺ كان يتبع أصولا فى نقل المعرفة وأنها أصبحت فى العصور المتأخرة أساسا فى التربية وفى البحث العلمى .

ولعل أبرز ما يمكن الإشارة إليه فى هذا المجال أن بعض الأحاديث جاءت متضمنة دعوة تبين أن كل معلومة لا تستند إلى دليل وبرهان لا يمكن اعتمادها ولا يصح أن تكون مصدرا للأحكام وللمعرفة ، فقد روى عن رسول الله أنه قال : " إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا "[2].

ومن هنا فقد أصبح من المتفق عليه أن من أخطاء التفكير التى يقع فيها كثير من الناس إصدار الأحكام واستنتاج النتائج مع عدم توفر الأدلة الكافية التى تؤيد صحة هذه الأحكام أو الاستنتاجات ، ولذلك كثيرا ما تكون أحكامهم واستنتاجاتهم خاطئة[3] .

ويتصل بهذا أيضا ما حذر منه رسول الله ﷺ حيث نرى البعض يرضى لنفسه أن يعطل عقله ، ويسلم لغيره بأن يفكروا له ، من غير أن يتوقفوا ليفحصوا آراء هذا الغير والتساؤل عن مدى صحتها أو كذبها ، ومن هنا نجده ﷺ يقول فيما يرويه حذيفة : "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا "[4].

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ٥٩

(٢) عن : محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٦٠

(٣) محمد عثمان نجاتى : الحديث النبوى وعلم النفس ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ١٥٠ .

(٤) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وقد نهى الرسول ﷺ الناس عن أن يتحدثوا فيما لا يعلمون ، قال عليه الصلاة والسلام: «وما ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم »[1].

وحذر الرسول ﷺ من الظن ، وهو القول الذى لا يستند إلى دليل على صحته، والذى يحتمل الصدق والكذب ، قال ﷺ : " إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث" [2].

ففى هذين الحديثين نهى واضح للناس عن القول فيما لا يعلمون ، وعن الظن الذى لا يؤيده دليل ، وفى هذا توجيه للناس بضرورة تحرى الصدق والقول الحق الذى تؤيده الأدلة ، ويصف الرسول الظن بأنه أكذب الحديث ، تنفيرا لأصحابه منه وترغيبا لهم فى تحرى الصدق فى القول ، وقال الرسول ﷺ أيضا : « من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه . . . » الحديث[3] .

والفتوى هنا فى الحديث عامة فى أى أمر من أمور الدين أو الدنيا ، وفى هذا الحديث نهى صريح عن الفتوى أو إصدار الآراء والأحكام فى أمور الناس وبخاصة ما كان منها ذا أهمية فى حياتهم دون أن تكون لديهم الأدلة الكافية التى يستندون إليها فيما يصدرون من فتاوى وأحكام[4] .

ولم يحذر رسول الله ﷺ من إصدار الفتاوى والأحكام دون أن تكون هناك الأدلة الكافية على صحتها فحسب ، وإنما حذر أيضا من قبول أقوال الغير ونقلها إلى الآخرين دون التأكد من صحتها ، فعن أبى مسعود أنه قيل له : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى زعموا ؟ قال سمعته يقول : « بئس مطية الرجل »[5] . وفى هذا الحديث تحذير للناس من قبول ما يسمعون من الآخرين دون التثبت من صحته ، فكثير من الناس يميلون إلي تصديق كثير مما يسمعون ، ويقومون بنقله إلى الآخرين على اعتبار أنه حقيقة[6] .

---

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار .

(٢) أخرجه مسلم ، والبخارى ، والترمذى ، ومالك ، وأحمد .

(٣) أخرجه أبو داود ، وابن ماجه .

(٤) محمد عثمان نجاتى : الحديث النبوى وعلم النفس ، ص ١٥١ .

(٥) أخرجه أحمد .

(٦) محمد عثمان نجاتى : الحديث النبوى وعلم النفس ، ص ١٥٢ .

ويتصل بهذا أوثق الصلة ما نسميه اليوم فى أدبيات البحث العلمى بالأمانة العلمية، فالأمانة عامة من لوازم الإيمان ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ ﴾ [المؤمنون]، كما أن الخيانة من لوازم النفاق ، فمن آيات المنافق البارزة أنه إذا اؤتمن خان[1]، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « تناصحوا فى العلم فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله ، وإن الله سائلكم يوم القيامة»[2]، وما ذلك إلا لأن الخيانة فى المال - مهما عظمت - محدودة الضرر ، أما الخيانة فى العلم فقد تدمر مجتمعا بأسره .

ومن أمانة العلم أن ينسب القول لمن قاله ، والفكرة لصاحبها ، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسه ، فإن هذا لون من السرقة وضرب من الغش والتزوير، وفى هذا قال سلفنا : "من بركة القول أن يسند إلى قائله"، ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التى عن طريقها وصلت الآراء والأقوال فى مختلف العلوم ، ولم يكن الإسناد فى الحديث وعلوم الدين وحدها ، بل شمل علوما أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها[3].

لكن ، هل يستقيم القول بنظرية (الجبر) بالنسبة للسلوك الإنسانى مطلقا مع التفكير السليم ؟

إن البشر جنس محكوم ومختار فى آن واحد ، إنه محكوم بالإمكانات التى فى كيانه والملابسات التى من حوله ، ومختار فى موقفه من هذه وتلك ، ونريد أن نقول مصارحين وحاسمين مع الشيخ الغزالى [4] إننا لن نسأل أبدا عما لا إرادة لنا فيه ، ولكننا نسأل يقينا عما نملك فيه حرية الاختيار .

إن لله المثل الأعلى ، وعلمه بكل شىء مستيقن ، وعلمه السابق الذى لا يتخلف ليس سببا فى نجاة ولا هلاك ، إنه لا يتخلف لأنه علم الله الذى يستوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل ، والظن بأن نجاة من نجا وهلاك من هلك هو أثر إكراه الله لهذا

---

(١) رواه البيهقى كما فى الترغيب ، ج١ ، حديث ٢١٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، ٣٨ .

(٣) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ٦٧ .

(٤) محمد الغزالى : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ١٤٧ .

وذاك هو من الظن السوء[1] . ومن هنا يجب الحيطة والحذر فى قراءة ما يروى عن رسول الله ﷺ فيما يفيد الجبر المطلق ، فقد روى الترمذى عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

قال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره ، فاستخرج منه ذرية فقال : هؤلاء خلقت للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة ، استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله الله النار » .

وهذا السياق يكاد يكون نصا فى الجبر ; ولهذا يرفضه الشيخ الغزالى ونشاركه نحن كذلك فى الرفض [2] . .

والمبرر فى هذا الرفض أن التفسير المنسوب لعمر يسير فى اتجاه مضاد للتفسير البديهى المفهوم من الآيات البينات ، فالآيات تقول للمشركين عن رب العزة : لا وجاهة لكم عندى ، ليس لكم عذر قائم ولا حجة ناهضة ، إننى منحتكم عقلا يفكر وفطرة تبعث على التوحيد والاستقامة ، وأنزلت ما يمنعكم من تقليد الآباء الجهلة ، فلماذا تجاهلتم هذه المعالم كلها ، وهمتم على وجوهكم فى طرق الشر والغواية . . أفبعد هذا التفصيل والتوضيح تبعدون عنى ولا ترجعون إلى ، وقراءة بقية الآية تبين ذلك .

كذلك فإن القول بمثل هذه الصورة من الجبر يؤدى بالضرورة إلى الاستغناء عن العمل التربوى ، فالتربية غرضها الأول والأساسى : تغيير السلوك المعوج ، والتأسيس للشخصية السوية ، أى الاعتماد على فرضية تؤكد قابلية الشخصية الإنسانية للتغير والمطاوعة والتشكيل .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٧ .

وهكذا فإن " كل أثر مروى يشغب على حرية الإرادة البشرية فى صنع المستقبل الأخروى يجب ألا نلتفت إليه ، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهدرها حديث واهى السند ، أو معلول المتن "[1] .

وتجىء " الحكمة " النبوية لتعزز من تنمية التفكير ، والتعليم الجيد ، ذلك أن الحكمة قول مختصر ، يحمل فى طياته " مبدءا " ، وفكرة على درجة شديدة من التركيز ، بينها وبين المثل شبه كبير إلى الدرجة التى دفعت البعض أن يجمع بينهما ، لكننا فرقنا على أساس أن المثل فيه تشبيه معنى مجرد بأمر حسى ، لكن الحكمة ، فهى كما نقول " عصير مركز " - إذا صح التشبيه - للخبرة البشرية والتأمل العقلى ، والبصر القلبى ، وهو ما توافر إلى أقصى حد يمكن تصوره فى الحكمة النبوية ، ولعل ما نسوقه منها ، على سبيل المثال لا الحصر ، يؤكد لنا هذا بكل وضوح .

فرسول الله ﷺ لا يمل أبدا من تنبيه المسلمين إلى ضروة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن هنا فهو يقول فى هذه الحكمة[2]: « إذا عُملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها ، كان كمن شهدها» . ولعل هذا ما تؤكده الآية القرآنية القائلة : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾** ﴾ [المائدة].

وفى الاتجاه نفسه يجىء قول الرسول ﷺ ، فيما رواه أبو رقية تميم بن أوس الدارى[3]: « الدين النصيحة » ، قلنا لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » . فكأن المطلوب من كل مسلم أن يصبح مربيا لكل مسلم ، فالنصيحة هنا ليست كلاما يتفوه به ، وإنما هى أمر بمعروف ونهى عن منكر ، مصحوب بالضرورة بأسوة حسنة ، وبقدوة من حامل النصيحة نفسه ، كما سبق أن أكدنا مرارا .

والإنسان بطبيعته يحب الحياة وينشد أن يطول به العمر ، لكن لا ينبغى أن تصبح المسألة مجرد طول فى الزمان ، وإنما لابد أن يصحبه عمق فى الإيمان ، هذا العمق يجعل صاحبه محسنا لعمله ، متقنا له ، فعن هذا الطريق يعز شأن الإسلام وترتفع

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٢) رواه أبو داود ٤٣٤٧ ، والطبرانى فى الكبير ١٧/١٣٩/ ٣٤٥ .

(٣) صحيح مسلم ، فى الإيمان ، باب أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون .

ألويته ، ويعز شـأن الأمة الإسلامية ، ومن هنا يـقول ﷺ فيما يرويه عـبد الله بن بُسر المازنى[1]، عندمـا سأله أعـرابى : أى الناس خـير : « طوبى لمن طال عـمره وحـسن عمله» .

ولأن الإسلام دين علم وتفكيـر وتربية ، كان من الطبيـعى أن يعتمد نهـجا يقوم على التعقل ، بعيدا عن الانفعالات الجامحة ، ومن هنا يؤكد رسول الله ﷺ للمسْلمين أن معـيار القوة فى الشـخصية الإنسـانية لا ينبغى أبدا أن يعـتمد على " العـضلات " الجسمـية، ولكن على مدى قدرة المرء فى ضبـط انفعالاته والتحكم فى سورة غـضبه ؛ ولهذا يجيء قوله ﷺ ، فيما يرويه عنه أبو هريرة[2] : " ليس الشديد بالصُّرعة ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " .

ومن الاتهامـات التى تتردد كثيـرا عن العرب القول بأنهم " ظاهرة صـوتية " ، تعبيرا عن اعتـمادهم أكثر على الثرثرة اللفظية وكثرة الكلام بـغير أن يتحول هذا الكلام إلى إجراءات وتحرك عملى ، والغريب أن لو استمع الجـميع جيدا وقرءوا الحديث التالى المعبر عن حكمـة غاية فى العمق ، لما وقعنا تحت طائلة هذا العـيب الشائع ، ففى هذا الحديث الحكمة يطالبنا رسول الله ﷺ بأن يقتصر مـا نتحدث به على ما هو خير ، فلا يتضـمن طعنا وسبا ، أو شـقشقة لفـظية ، ذلك أن الكلام الخيـر ليس هو فقط المنمق العبارات ، ذا الرنين اللفظى العالى وإنما هو المرشد إلـى سبل الخير ، قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "[3] .

رابعا : الحـوار والتساؤل :

والحوار والمناقـشة شكل من أشكال تلاقح العقول ، مما لابد مـعه أن تنتج أفكار جديدة وتتضح علاقات كـانت مجهولة ، وتبرز تفسيرات توضح ما كـان مستغلقا على الفهم ، ويقدم معلومات كانت غائبة عن بعض أطراف الحوار .

ونحن هنا لا نفصل كلية بين الحوار والتسـاؤل ، حيث سنرى أن عددا غير قليل من الحوارات النبوية كانت عن طريق تساؤل يطرح على مستمعيه .

بل إن فصلنا بين القضية الحالية والقضية التى انتهينا من عرضها خاصة بالتفكير ،

---

(١) مسند ابن حنبل : ٢/ ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق : ٢/ ٢٣٦ .

(٣) صحيح البخارى : ٨/ ٢١٣ ، ومسلم ١/ ٤٩ .

لا يعكس فصلا تاما كذلك ، وسوف نرى بعض الحوارات قائمة على ما سبق أن أشرنا إليه فى هذا الجزء السابق من تعليم يقوم على استخدام القياس المنطقى .

ويمكن القول بأن الإسلام هو دين الحوار ، فقد ورد فى قصة خلق آدم عليه السلام أنماط من الحوار : حوار بين الله والملائكة ، وحوار بين الله تعالى وآدم ، وحوار بين الله عز وجل وعدو الإنسان إبليس ، ومن خلال ذلك يتأكد الإنسان أن الحوار من الوسائل الثابتة فى كل عملية تعليمية أو جدلية أو اكتشافية[1] .

ومن هنا كان فى استخدام الرسول ﷺ للحوار ، سبيلا ناجعا للغاية فى تعليمه الصحابة أو فى إخبارهم بما نزل عليه من ربه ، فقد روى زيد بن ثابت ، قال أملى على النبى ﷺ : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها على ، قال: يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى ، ثم سرى عنه ، ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥][2].

فما صدر عن عبد الله بن أم مكتوم كان من الجدل المقبول ، فصاحبه لم يسع إلى معارضة النص المنزل أو التشكيك فيه أو الاحتجاج عليه ، وإنما كان يود أن يعمل عملا يستطيع القيام به مكان الجهاد ويناسب قدراته الجسمية فيؤجر أجر المجاهدين[3] ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى رواية البراء بن عازب من أن عبد الله بن أم مكتوم جاء فشكا ضرارته[4]، وما جاء فى رواية البخارى عن قبيصة من أنه قال : إنى أحب الجهاد فى سبيل الله ، ولكن بى من الزمامة ما ترى : ذهب بصرى[5].

ولم يجب الرسول ﷺ عبد الله بن أم مكتوم ، بل ترقب الوحى الذى نزل ليستثنى أولى الضرر من القاعدين من المؤمنين استثناء فيه عدول عن الاعتماد على القرينة إلى التصريح باللفظ[6].

(١) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخارى ، تفسير القرآن ، سورة النساء .

(٣) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٨٣ .

(٤) صحيح البخارى ، تفسير القرآن ، سورة النساء .

(٥) ابن حجر : فتح البارى ، ٢٠٩/٨ .

(٦) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٨٣ .

واستخدم رسول الله ﷺ الحوار فى التنمية العقلية للمسلمين عامة ، فمن ذلك ما رواه أحمد، واللفظ له ، والطبرانى[1]، عن أبى أمامة الباهلى : " أن فتى شابا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه ! "

هنا تجلت عبقرية الرسول التربوية فقال : ادنه . فدنا منه قريبا فجلس ، وهنا دار الحوار التالى:

سأل رسول الله الفتى الشاب : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك .

قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . ثم سأل : أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لبناتهم .

ثم سأل : أفتحبه لأختك ؟ قال الفتى الشاب : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم .

قال : أفتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم .

قال : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم .

قال : فوضع رسول الله ﷺ يده عليه ، وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه ، قال : فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شىء.

فها هنا نرى كيف استأصل رسول الله ﷺ من نفس الفتى تعلقه بالزنى ، عن طريق الحوار والمحاكمة النفسية والموازنة العقلية ، دون أن يذكر له الآيات الواردة فى تحريم الزنى والوعيد للزانى والزانية ، نظرا منه أن هذا أقلع للباطل - فى ذلك الوقت - من قلب الشاب بحسب تصوره وإدراكه [2] .

والحوار أو المحاورة ، محاولة كل من طرفى الحديث أو أحدهما أن يقنع الآخر بمنطقه ووجهة نظره ، وإذن فالمحاورة فى أغلب صورها مباراة أو منافسة أداتها اللسان ، وهى فى كل أحوالها تمثل موقف المحاور ورأيه وحجته ، وفوق ذلك فإنها تمثل

---

(١) مسند ابن حنبل : ٥/ ٢٥٦ .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١٠١ .

شخصيته ومقدار عقله وتفكيره ، فأما شخصيته فتبدو من خلال طريقته فى المحاورة ، ومدى حرصه على بلوغ هدفه ، ومدى قدرته على محاصرة منافسه أو خصمه ، وأما عقله وتفكيره فيبدو من خلال حجته التى يسوقها ومن خلال ترتيب أفكاره وتسلسل المقدمات والنتائج فى حديثه[1] .

فالعقل إذن يمثل جانبا هاما يقوم عليه الحوار والجدل ، وعن طريقه يتمكن الفرد من رؤية الصواب والخطأ ، كما يتمكن من التمييز بين الحسن والقبيح ، والحق والباطل، بالحجة والبرهان والإقناع ، لا بالقسر والإكراه أو التقليد الأعمى . وإذا كانت شرائع الإسلام تقوم على الإيمان الصحيح ، والذى يقوم هو الآخر على العلم ، إذ كلما علم الإنسان وآمن بما علم ازداد إيمانه ، فهناك فرق بين الإيمان المجمل والإيمان المفصل ، فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال بأن كل ما أمر الله به فهو خير ، وكل ما نهى عنه فهو شر ، وبين من يعرف بالأدلة العقلية أو بالتجربة الحسية الخير الكامن فى أمور معينة نهى الله عنها[2].

والحوار هو المظلة الكبيرة التى انضوت تحتها صور وأشكال متعددة لتنمية الفكر وإثارة العقل ، سواء عن طريق استخدام القياس ، أو السؤال :

فمن حيث القياس ، هذا الحوار الذى أوردناه عن الذى كان يريد الزنا ، وكذلك: روى البخارى[3] عن ابن عباس : « أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ، فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : نعم ، حجى عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ قالت : نعم ، فقال : اقضوا الله الذى له ، فإن الله أحق بالوفاء » .

ومن ذلك أيضا ، ما رواه مسلم[4] عن أبى ذر الغفارى : « أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور(ذهب أهل الغنى بالثواب)، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم !

---

(١) عبد الحليم حفنى : أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ط٢ ، ص١٦ .

(٢) رضا سيد هاشم : دراسة تحليلية لتربية الشباب فى السنة النبوية ، رسالة ماجستير ، كلية التربية (بنها) ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٩ ، ص ٣١٤ .

(٣) صحيح البخارى : ٤/ ٥٥ .

(٤) صحيح مسلم : ٧/ ٩١ .

قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة (أى فى معاشرة الرجل زوجته) . قالوا : يارسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر " .

فها هنا نجد أنه ﷺ قد استخدم القياس المنطقى بين أمرين ، حتى اتضح لهم الحكم ، وفهموا ما لم يكن يدور فى خلدهم ، وهو أن مثل هذا الاستمتاع المشروع يكون به للمرء أجر وثواب ، لما يترتب عليه من الآثار الحسنة[1] .

وفى هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات ، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذى أمر الله تعالى به ، أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة ، فالصحابة الكرام تعجبوا من هذا الأمر ، وهو أن الإنسان يأتى أهله ويقضى شهوته ويتمتع ثم يثاب على ذلك ، وكان يكفى أن يقول لهم ﷺ أن الله قضى بذلك وحكم ، وهذا أكبر دليل وأعظم حجة لأن قول الله تعالى وقول الرسول ﷺ هو الحجة والدليل ، ولكنه لم يكن ليكتفى بذلك بل ذكرهم نظير هذه المسألة مما هو معلوم لديهم ومسلم عندهم ، وبهذا يترك لهم الفرصة ليفكروا وينظروا ، ويقيسوا الأشباه بالنظائر وينتقلوا من الغائب إلى الحاضر ، فقال لهم أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ، فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر[2] .

ومن أشكال الحوار النبوى فى التربية الخلقية والاجتماعية ، النموذج الذى حكاه أبو هريرة فى قصة الرجل الذى ولد له غلام أسود[3] ، وكان يشك فى أبوته لمجرد أن لونه مغاير للون أبيه ، فنجد الرسول المعلم ﷺ لا يقبل قول الرجل على علاته ، ولم ينكر عليه مقالته إنكارا مباشرا ، بل حاوره بطريق إقناعى ذاتى ، فضرب له المثل الحسى الذى يعرفه فى حياته اليومية ، ليرشده إلى خطأ فكرته التى ظنها يقينا فيوجه إليه

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١١١ .

(٢) محمد بن علوى المالكى الحسينى : أصول التربية النبوية ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة ٢٩ ، الكتاب الثانى ، ١٩٩٨ ، ص ٦١ .

(٣) صحيح البخارى : ٥/ ٢٠٣٢ .

السؤال قائلا : " هل لك من إبل " ؟ فيجيب الرجل : نعم ، ويقول الرسول ﷺ : " ما ألوانها ؟ " فيجيب الرجل : إنها حمر ، فيتابع الرسول سؤاله : " هل فيها من أورق؟" ، فيجيب الرجل : نعم ، وهنا يأتى السؤال الجوهرى الحساس الذى يزلزل الشك فى نفس هذا الرجل ، يقول رسول الله ﷺ : " فأنى ذلك " ؟ ، وهنا يدرك الرجل خطأ اتهامه لزوجته ، ويقول مجيبا : " لعله نزعه عرق " ، يرد النبى المعلم على الفور: " لعل ابنك هذا نوزعه ؟ " ، فيبعد التهمة عن الزوجة ، ويحفظ للولد النسب، ويزيل الشك من نفس الزوج ، ويذهب قانعا .

أما السؤال ، فقد كان تعليميا بدرجة واضحة ، ففى كثير من المواقف ، نجد أن الرسول يعلم أن من يسألهم لا يعرفون الإجابة ، لكن بدء التعليم بطرح سؤال ، مما يثير انتباه المتعلم ، ويشعره بأن هناك ثغرة فى بنية المعرفة يهمه أن يسدها ، فيزداد إصغاء وانتباها ، وبالتالى استيعابا لما تأتى به الإجابة على التساؤل الذى جهله .

ومن أمثلة ذلك ما وجهه رسول الله ﷺ من أسئلة إلى المسلمين فى حجة الوداع، قال أبو بكرة نُفيع بن الحارث أن النبى ﷺ قال فى حجة الوداع : " أى شهر هذا ؟ "قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : "أليس ذا الحجة ؟ " قلنا : بلى ، قال : " فأى بلد هذا ؟ " قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : "أليس البلدة ؟ " قلنا : بلى . قال: " فأى يوم هذا ؟ " قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال : " أليس يوم النحر ؟ " قلنا : بلى . قال : " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا "(١) .

ويسمى محسن عبد الناظر هذا النوع من الأسئلة بأنها " تنشيطية " ، فالجواب عن هذا النوع من الأسئلة ليس صعبا ، بل كثيرا ما يكون واضحا ، ومن شدة وضوحه تشرئب الأعناق إلى صاحبه ظانة أنه سيأتى بأمر جديد لم يتعودوا عليه ولم يتقدم لهم، وإذا بالجواب يتكون من جانبين : أحدهما معلوم لا يختلف عما جال بذهن المستمعين ولما هو متداول عندهم ، والآخر حكم شرعى أو توجيه نبوى هيئت له الظروف حتى يعلق بالأذهان ، فهو يشمل أسسا بنى عليها الدين ، وقامت عليها أركان بناء الفرد والمجتمع ، والتعامل مع الكون بصفة عامة(٢) .

---

(١) أخرجه الشيخان (النووى ، ج١ ، ص ٢٣٧ ، الحديث رقم ١١/ ٢٢٥) .

(٢) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٨٧ .

وفيما يلى نص نبوى رائع يقدم لنا جانبا هاما من آداب السائل[1]، وهو الحديث المعروف بحديث جبريل ، رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلا ·

قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ·

قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال ﷺ : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره · قال : صدقت ·

قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك · قال : صدقت !

قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ·
قال: فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال ﷺ : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ·

ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال رسول الله ﷺ : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟
قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم[2] ·

إن هذا الحديث ، على إيجازه ، جامع شامل لجوانب حياتنا : إيمانا وإسلاما وإحسانا ، عقيدة وعبادة وسلوكا خلقيا واجتماعيا ، ويشير الأسلوب النبوى الرائع هنا إلى أهم الآداب فى شخصية السائل[3] :

– **حسن اختيار المكان** ، فرسول الله فى المسجد ، وحوله أصحابه ، والمسجد مكان عبادة وعلم ، فهو مدرسة ·

– **حسن اختيار الزمان** ، فى رابعة النهار ، ويقظة الناس ، والرسول ﷺ مع ثلة من الأصحاب ، وليس فى داره أو مع أهله ، أو ساعة نومه وطعامه ·

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٣٤ .

(٢) رواه مسلم ·

(٣) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٣٥ .

- **السائل فى أحسن صورة فى ثياب نظيفة بيضاء** ، واللون الأبيض سيد الألوان، تظهر عليه أمارات الإهمال ، كما أن صيانته تتطلب يقظة واهتماما .

- **السائل يمثل الشباب** ، فهو شديد سواد الشعر .

نعم إن التعلم مجاله فسيح من المهد إلى اللحد ، ولكن تظل مراحل الفتوة والشباب أشد مراحل

التقبل والتركيز فى عمليات الانتباه والحوار ، وهذه من أساسيات التعلم .

- **العالم يجب أن ينفق علمه لمن لا يعلم** لأنه عنده أمانة لديه ، ولأن العلم يزيد بالإنفاق ، ثم إن كتمان العلم واحتكاره ليس من شيم النفوس المؤمنة .

- **اقتراب السائل من المسئول** ، وذلك لوضوح كلام السائل ، وسماع الإجابة بوضوح أيضا ، وهذا الاقتراب نوع من الألفة والصداقة ، وهذه عوامل هامة فى نجاح كل تعلم وتعليم .

- **أهمية إصغاء المسئول لما يقدمه السائل** ، فذاك تقدير للسائل وتشجيع له .

- **على السائل ألا يكتفى بإلقاء السؤال** ، بل لابد من إصغاء كامل للإجابة .

- **للسائل أن يعدد أسئلة يقدمها بشىء من الترتيب** ، فذاك دليل نضوج السائل إذا تعددت الأسئلة ، فقد سأل السائل - مثلا - عن أمور كثيرة : عن الإسلام ، ومظاهره، وعن الإيمان ، ومجالاته ، وعن الإحسان ، وحقيقته ، ثم عن الساعة ، وأماراتها [١] .

ويؤكد رسول الله ﷺ فى كثير من حواراته التربوية على إثارة التنافس بين المتعلمين من أجل ترسيخ أمور العقيدة فى نفوسهم وتعليمهم أمور دينهم من خلال التسابق إلى فعل الخيرات والصالحات من الأعمال ، وجاءت السنة النبوية حافلة بمثل هذه الحوارات التى أثارت المنافسة بين المتعلمين ، وهذا الأمر فهمناه من خلال الحديث الذى يرويه عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ قال : فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبد الله : فوقع فى نفسى (تصورت) أنها النخلة ، ثم قالوا : حدثنا ما هى يارسول الله ؟ قال: "هى النخلة "[٢].

---

(١) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٣٥ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب العلم .

ففى هذا الحوار عن طريق التساؤل ، أثار النبى أذهان الصحابة إلى ضرورة التأمل فى هذه الشجرة التى تشبه المسلم ، ثم تسابق الصحابة فى محاولة معرفة هذه الشجرة ، وهذا أسلوب يعد من أنجع الوسائل التربوية التى تجعل المتعلمين يحركون أذهانهم وأفكارهم للوصول إلى الجواب قبل بعضهم ، وفى هذا الحوار استخدم رسول الله ﷺ التمثيل من أجل إثارة الدافعية عند المتعلمين للوصول إلى حقيقة هذا المثل ، فبين النبى أن هذه الشجرة وما تمتاز به من الصفات الجميلة عن بقية الشجر تجعلها مماثلة للمسلم الملتزم بتعاليم الإسلام والأخلاق الحميدة والصفات النبيلة ، التى تجعله جميلا ومتميزا عن بقية الناس[1]

ورأى ابن حجر أن هذا الحديث قد اشتمل على فوائد متعددة عد منها : أدب الحديث فى المجالس إذا حضر من هو أعلم منا سنا ، وفيه أدب العالم والمتعلم فى مجلس العلم ، وهذا نفهمه من موقف ابن عمر عندما أخبر والده بمعرفته الشجرة ، لكن الحياء منعه من التصريح لشعوره بأنه صغير السن فى مجلس كبار ، وفيه أن الأب دائما يسعى لأن يكون فلذات كبده أفضل الناس خلقا وعلما ، وفيه الإشارة إلى حقارة الدنيا فى عين ابن الخطاب عندما تمنى لو أن ولده أجاب لكان خيرا له من حمر النعم مع عظم مقدارها وغلاء ثمنها[2].

لكن هناك وجهة نظر أخرى إزاء موقف ابن عمر رضى الله عنهما[3] ، ذلك أن ترك الحياء فى مثل هذه الحالة مستحب ، فالعلم فى حاجة إلى الشجاعة وإلى التغلب على الحياء فى العلم ، ولذلك عنون البخارى لهذا الحديث فى كتاب العلم بقوله : «باب الحياء فى العلم »، وقرن هذا العنوان بقول مجاهد لا يتعلم العلم مستحى ولا مستكبر ، وبقول عائشة : نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين، ثم عنون له فى كتاب الأدب بقوله : ما لا يستحيى من الحق للتفقه فى الدين . وكأن البخارى بتخريجه الحديث فى كتابى العلم والأدب وبالعنوانين المذكورين ، وبذكر ما قاله مجاهد وعائشة قد رسم للمتعلمين السلوك الواجب اتباعه عندما يسألون .

---

(١) فراس محمد سليمان الربابعة الحوار النبوى فى العهد المدنى ، رسالة ماجستير ، إربد ، جامعة اليرموك ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٩ ، ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، هامش ص ٢٨

(٣) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٩١

ومن ثم فالواجب يدعوهم إلى التفكير وإلى استخدام القوى التي وفرها الله للإنسان والتفطن لكل ما يحتويه السؤال من قرائن ، واستخدام كل الوسائل ، ثم بعد ذلك يكون الإقدام على الجواب دون حياء أو تكبر ، فهذا وذاك يحجبان العلم ويمنعان انتشاره ونماءه . وقد أدرك عمر بن الخطاب ما فى الحياء المخل من نقائص ، فتمنى أن لو تركه ابنه ، فقد أجابه لما قاله : ابتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة ، ما منعك أن تتكلم ؟ ولما سمع منه تعليله المتمثل فى أنه كره أن يتكلم فى حين سكت أمثال أبى بكر ، لم يظهر موافقته على هذا التعليل ، بل بين له أن الحياء فى مثل هذه المواقف ليس مطلوبا ، وأن الشجاعة والجواب أفضل ، قال عمر : لأن تكون قُلْتَها أحب إلى من كذا وكذا .

من أجل هذا كان صحابة رسول الله ﷺ دائمي التساؤل عن كل ما يريدون فهمه من أمور الدين بصفة خاصة ، فعن أبى ثعلبة الخُشنى قال[1] : " أتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله ، إنا بأرض قوم أهل كتاب ، افنأكل فى آنيتهم ؟ وبأرض صيد ، أصيد بقوسى ، وبكلبى الذى ليس بمعلم ، وبكلبى المعلم ، فما يصلح لى ؟

قال : أما ما ذكرت من أنك بأرض أهل الكتاب ، فلا تأكلوا فى آنيتهم ، إلا أن لا تجدوا بدا (لا تجدوا سواها) ، فاغسلوها وكلوا فيها . وأما ما ذكرت من أنك بأرض صيد ، فما صدت بقوسك فذكرت الله ، فكل . وما صدت بكلبك المعلم فذكرت الله ، فكل ، وما صدت بكلبك الذى ليس بمعلم ، فأدركت ذكاته فكل(أى صيد الكلب الذى ليس بمعلم ، لا يحل أكله إلا إذا أدركته قبل أن يموت ، فذكيته أى ذبحته ، فحينئذ يحل لك أكله) .

ورواية أبى داود هذا لفظها : « يا رسول الله ، إنا لمجاور أهل الكتاب ، وهم يطبخون فى قدورهم الخنزير ، ويشربون فى آنيتهم الخمر ، فقال رسول الله ﷺ : إن وجدتم غيرها فكلوا فيها واشربوا ، وإن لم تجدوا غيرها ، فارحضوها بالماء (أى اغسلوها غسلا جيدا) ، وكلوا واشربوا »[2] .

وأحيانا ما كان رسول الله ﷺ يجيب السائل بأكثر مما سأل ، إذا رأى أن به حاجة إلى معرفة الزائد عن سؤاله ، وهذا من مظاهر رأفته ، ومن رائع رعايته بالمتعلمين والمتفقهين، فعن أبى هريرة قال : "سأل رجل - من بنى مُدلج - النبى ﷺ فقال :

---

(١) صحيح البخارى : فى كتاب الذبائح والصيد .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١٤٢ .

يارسول الله ، إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ : هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته "[1] .

فها هنا نرى أن رسول الله ﷺ قد أجاب ذلك المُدلجى البحَّار عن حكم التوضؤ بماء البحر ، بأن ماءه طهور يصح التوضؤ به ، ثم أشفق ﷺ على ذلك البحار أن يتشبه عليه حكم ميتة البحر ، وهى شىء يقع له أثناء إبحاره ، فبين له أن ميتة البحر حلال أكلها والانتفاع بها ، فقال له زيادة على سؤاله : " الحل ميتته "[2].

ووعيا بهذه القيمة التربوية للتساؤل ، قال الإمام ابن شهاب الزهرى : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال ، يعنى أن الذى يستخرج ما فى صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم ، وفى هذا فائدة للعالم نفسه ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر ، وفائدة للمتعلم ليعرف ما يجهل ، ويؤكد ما يعلم ، ويستوثق مما يستريب فيه[3] ، وهذا شأن الطالب النابه ، لا يقرأ أو يسمع إلا ليعى ويفهم ، وإلا سأل وراجع ، وروى البخارى عن أبى مليكة : إن عائشة كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه[4].

ومن أسمى ما تشير إليه السنة النبوية دلالة على عظمة رسول الله ﷺ التربوية اهتمامه بتساؤلات المسلمين على وجه العموم ، بغض النظر عن الوضع الاجتماعى للسائل ، عاليا كان أو منخفضا ، فهو يولى السائل عناية ورعاية خاصة ، وتقديرا واحتراما وإكراما وإعظاما فيكسبه بذلك ثقة كبيرة وشعورا بالطمأنينة الكاملة بحيث لا تمنعه هيبة النبى العلمية من إلقاء السؤال على أى كيفية ولا تصده رتبته ﷺ عن التعبير بما فى مكنونات الضمير ملقيا بقياده ، ساعيا فى طلب رشاده وأنظار المربى الكامل ، ﷺ تحوطه من كل جانب وتحميه من كل منتقد أو عاتب[5].

---

(١) موطأ الإمام مالك : ١/ ٢٢ .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١٤٣ .

(٣) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١١٣ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب العلم .

(٥) محمد بن علوى الحسينى : أصول التربية النبوية ، ص ٥٧ .

عن جابر بن عبد الله قال : " جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ثيابنا فى الجنة ننسجها بأيدينا ؟ فضحك القوم ، فقال رسول الله : مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ لا يا أعرابى ، ولكنها تشق عنها ثمار الجنة "[1].

وقد صور البعض الإسلام بأنه يكره كثرة التساؤل ، ويستندون فى ذلك إلى بعض ما ورد فى الكتاب والسنة من ذم السؤال ، لكن تأمل هذه النماذج تأملا متعمقا يؤكد لنا أن الأسئلة المذمومة هى التى تحمل على السؤال عما لا حاجة إليه ، وعلى السؤال عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها ، وعلى الإكثار من الأسئلة غير المهمة ، مع الإعراض عن تعلم ما يحتاج إليه من الشرائع والعمل بمقتضاه، وعلى السؤال للمراء والجدال دون التعلم والتفقه[2].

وقد سأل كثير من الصحابة ، كما مر بنا ، عن أمور لهم لم يستبن لهم المراد منها حتى أجيبوا عنها ، كسؤالهم عن آية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ... (٨٢) ﴾ [الأنعام] قائلين : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فأجيبوا : أن المراد بالظلم فى الآية : الشرك ، كقوله تعالى على لسان لقمان : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] ، وأمثال ذلك كثير ، ومن لم يسأل أضاع على نفسه علما كثيرا ، قال الشاعر[3] :

إذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى   يسائل من يدرى ، فكيف إذن تدرى ؟

وهكذا لابد من حمل ما ورد من ذم من سأل عن المشكلات على من سأل تعنتا، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) ﴾ ، وفى حديث عائشة : « فإذا رأيتم الذين يسألون عن ذلك فهم الذين سمى الله فاحذروهم » ، ومن ثم أنكر عمر - رضى الله عنه- على صبيغ بن عسل التميمى لما رآه أكثر من السؤال عن مثل ذلك ، وعاقبه[4] .

وقد أورد الإمام الشاطبى فى كتابه (الموافقات) عرضا جيدا متعمقا لأنواع السؤال وأحكامه ، مما يكشف الكثير من جوانبه ، وهو مما يضيق المقام عن بيانه .

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الصغير ، ص ٤٧ .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، هامش ص ١٣٦

(٣) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١١٣ .

(٤) ابن حجر : فتح البارى ، ١/ ١٩٧ .

ومن المحدثين ، ناقش عبد الفتاح أبو غدة ، كما أشار فى كتابه (الرسول المعلم) هذه المسألة بإسهاب فى رسالته (منهج السلف فى السؤال عن العلم وفى تعلم ما يقع وما لم يقع) التى طبعت فى بيروت عام ١٤١٢هـ ، ولم يتح لنا مع الأسف فرصة الاطلاع عليها .

ولعل هذا يفسر ما رواه أبو هريرة عندما قال[١]: " خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، حتى كأنما فقئ فى وجنتيه الرمان، فقال : أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر . عزمت عليكم (أى أقسمت عليكم) أن لا تنازعوا فيه " .

فمثل هذه المسألة من المسائل التى تقع فى عالم الغيب ، الذى لا يملك الإنسان من وسائل الإدراك ما مكنه أن يصل فيها إلى الحقيقة ، والسؤال فيها والمناقشة مضيعة للوقت ، وتبديد للجهد ، بلا طائل ، بل إن الخوض فيها كثيرا ما يوقع الإنسان فى المحظور .

لقد حفل تاريخ الفكر بالبشرى بالعديد من المحاولات التى بذلها عشرات الفلاسفة ، شرقا وغربا ، لمحاولة الوصول إلى الحقيقة فى المسائل الغيبية التى سميت "بالميتافيزيقا " ، فما وصلوا إلى شئ ، فإذا ما وصل أحد إلى رأى يراه مصورا للحقيقة حتى يأتى من بعده ليفند ما يقول ويحاول هو أن يصور رأيه بأنه هو الحقيقة ، فيجيء آخر ، وهكذا ، حتى لقد دفع هذا بعض الفلسفات الحديثة والمعاصرة ، فى الغرب خاصة ، إلى إنكار عالم الميتافيزيقا كلية ، نتيجة هذا العجز البشرى الواضح ، من غير أن يمعنوا النظر فى الأمر وهو أن الفشل فى الوصول إلى رأى حاسم ليس نتيجة عدم وجود هذا العالم ، وإنما نتيجة قصور وسائل الإدراك الإنسانى عن إدراكه ، مما يوجب الالتزام بتوجيه الإسلام بعدم الخوض فيه ، فعالم الإنسان نفسه به من القضايا والمسائل والمشكلات ما هو أكثر إلحاحا وحاجة إلى مواجهته .

خامسا : الممارسة والبيان العملى :

أصبح مما هو مسلم به منذ فترة طويلة أن التعلم بالعمل هو الطريقة الأكثر توفيقا من غيرها ، ذلك أننا ها هنا نضيف إلى استخدام حاستى السمع والبصر ، حواس أخرى ، كاللمس ، مثلا ، وربما الشم ، والتذوق ، ووفقا للقاعدة التربوية المعروفة ، كما أثبتت بحوث ودراسات التعلم بصفة خاصة ، وكذلك دراسات وتجارب تكنولوجيا

(١) سنن الترمذى : ٨/ ٢٩٥ .

التعليم ، تتحصل الطريقة على درجات أعلى فى الفعالية بالقدر الذى تهمل المتعلم يستخدم أكثر عدد من الحواس .

ولعل أهم صور الممارسة والبيان العملى التى استخدمها رسول الله ﷺ ، هى أركان الإسلام ، الا وهى (العبادات) ، فهى ليست مجرد " حركات " شكلية تؤدى كغاية فى حد ذاتها ، وهى ليست مجرد " طقوس " و " شعائر " تشغل حيزا من مكان وفترة من زمان ، وإنما هى " وسائط " تقرب الإنسان من الخالق عز وجل ، وتسمو بهذا المخلوق إلى أرفع ما يطمح إليه من المستويات الدنيوية والدينية ، وتوثق بين أفراد الأمة بعضهم ببعض .

ولعل التوقف عند هذه العبادات لمعرفة التوجيه التربوى النبوى لكل منها ما يعيننا على فهم هذا :

أ - **الصلاة** : فالصلاة هى هذا الاتصال بالله إيمانا به والتماسا للعون منه ، وليس القصد منها حركات الركوع والسجود وتلاوة ما يتلى من القرآن ، أو تلاوة التكبير والتعظيم لله جل شأنه ، دون أن تمتلئ النفس إيمانا به والقلب تقديسا له ، والفؤاد سموا إليه ، وإنما القصد منها ومما فيها من تكبير وتلاوة وركوع وسجود هو إلى هذا السمو والتقديس والإيمان ، وإلى عبادته عبادة خالصة لوجهه نور السموات والأرض ، فالمؤمن الصادق الإيمان هو من يتوجه بقلبه إلى الله ساعة الصلاة ، يشهده على تقواه ، ويستعينه على أداء واجب الحياة ، ويستمد منه هدايته ، ويستلهمه توفيقه لإدراك سر الكون وسننه ونظامه(١).

ويضع النبى بسلوكه وقوله الضوابط لأداء الصلاة ، منعا للمغالاة والتزمت : «أتى رجل النبى ﷺ فقال إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل منا ، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبا فى موعظة منه يومئذ ، قال : فقال : أيها الناس ، إن منكم منفرين ، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز (يخفف) ، فإن منهم المريض وذا الحاجة »(٢).

ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، كان الهدى النبوى يؤكد أن من لم تنهه صلاته عن فعل السوء فلا صلاة له ، ومن هنا كان قوله ﷺ : « من جاء

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٥٢٥ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الأدب .

مسجدى هذا ، لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلمه "[1] . نعم هذا هو المقصد الشرعى، وبالتالى فمن لم يثبت بقوله وسلوكه هذا خسر صلاته .

وإذا كانت الصلاة نفسها ممارسة عملية لها دورها الهام فى التربية الإسلامية ، فإن تعليمها من حيث التوقيت والوضوء وأدائها من أبرز العبادات فى هذا الشأن أكثر من غيرها ، مما يجعلنا نتوقف عند ذلك بعض الشيء كمثال ، دون أن نتوقف الوقفة نفسها أمام بقية العبادات .

فمن حديث سليمان بن بريدة ، عن أبيه ، عن النبى[2] : " أن رجلا سأله عن وقت الصلاة ، فقال له : " صل معنا هذين ، يعنى اليومين " (أى أنه يريد له أن يرى الممارسة العملية والمشاركة والملاحظة ، على أساس أن هذا أقوم فى التعلم) .

فلما زالت الشمس أمر بلالا فأذن ، ثم أمره فأقام الظهر ، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية ، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس ، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق ، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر

فلما كان اليوم الثانى أمره فأبرد بالظهر ، فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها (أى فأطال الإبراد وأخر الصلاة) ، وصلى العصر والشمس مرتفعة فوق الذى كان ، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق ، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل ، وصلى الفجر فأسفر بها . ثم قال : أين السائل عن وقت الصلاة ؟ فقال الرجل : أنا بها يا رسول الله ، قال : وقت صلاتكم بين ما رأيتم " .

أما بالنسبة للوضوء ، فمن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده[3] " أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف الطهور ؟ فدعا رسول الله ﷺ بماء فى إناء فغسل كفيه ثلاثا ، ثم غسل وجهه ثلاثا ، ثم غسل ذراعيه ثلاثا ، ثم مسح برأسه فادخل إصبعيه السباحتين فى أذنيه ، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه ، وبالسباحتين باطن أذنيه ، ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا ، ثم قال : هكذا الوضوء ، فمن زاد على هذا أو نقص ، قد أساء وظلم ، أو ظلم وأساء " .

---

(١) الحكيم الترمذى : الأمثال من الكتاب والسنة ، تحقيق على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر ، د . ت ، ص ٣٨ .

(٢) صحيح مسلم : ٥/ ١١٤ .

(٣) سنن أبى داود : ١/ ٣٣ .

ب - الصوم : والناس جميعا ليسوا سواء فى القدرة على ما أمر به الله من التقوى ، فقد يثقل جسمنا روحنا وتطغى ماديتنا على إنسانيتنا إذا لم تدم رياضة الروح، ولم نتوجه بقلوبنا لله أثناء صلواتنا ، واكتفينا بأوضاع الصلاة من ركوع وسجود وتلاوة، لذلك وجب جهد الطاقة أن نكف عما يجعل الجسم يثقل الروح ويجعل المادية تطغى على الإنسانية ، ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلة لبلوغ مرتبة التقوى[1]، ومن هنا جاء قوله ﷺ فى حديث قدسى : " يقول الله عز وجل : الصوم لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى ، والصوم جنة ، وللصائم فرحتان : فرحة حين يفطر وفرحة يحن يلقى ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك "[2].

ج - الزكاة : وإذا بلغ الإنسان من طريق هذه الرياضة الروحية أن اهتدى إلى سنن الكون وأسراره ، وأن عرف مكانه ومكان نبى الإسلام منه ، ازداد لإخوانه بنى الإنسان حبا ، وتحاب بنو الإنسان جميعا فى الله ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ورحم قويهم ضعيفهم ، ونزل غنيهم لفقيرهم عن حظ من ماله ، وهذه هى الزكاة والمزيد عليها هو الصدقة[3]

فهى إذن قد شرعت للتعاطف والتراحم بين الناس ، وهى حق حيث إن المال مال الله فى أصله ، كان مباحا للجميع ، وإذا كانت إرادة المولى عز وجل قد اقتضت أن يدخل جزء كبير منه إلى يد البعض ، فإن هذا لا يعنى أنهم مالكوه الحقيقيين ، وما دام المالك هو الله ، والله رب العالمين ، كان منطقيا أن يوجه جزء منه إلى الآخرين من الفقراء الذين اقتضت ظروفهم ألا يحصلوا على ما يكفيهم والزكاة تطهير للمال ، ولكى تقبل يجب أن تكون من كسب طيب ، وهى لا تنقص المال ، بل تنميه ، نقل عنه ﷺ قوله : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه (الجحش أو المهر)حتى تكون مثل الجبل " [4].

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٥٢٦ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب التوحيد ، ج٩ ، ص ١٧٥.

(٣) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٥٢٩.

(٤) عن : محمد عبد المنعم القيعى نظرات فى السنة ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٢ ، ص ١٣.

د - الحج : والإخاء الذى تشيعه الزكاة يزيد الناس بعضهم لبعض محبة ، وليس يجوز فى الإسلام أن تقف هذه المحبة عند حدود قارة من القارات ، بل يجب الا تعرف حدودا ألبتة . لذلك يجب أن يتعارف الناس من أطراف الأرض جميعا ليزداد بعضهم فى الله محبة ، ولتزيدهم محبتهم هذه بالله إيمانا ، ووسيلة ذلك أن يجتمعوا من أطراف الأرض فى صعيد واحد ، وخير مكان يجتمعون فيه هو المكان الذى انبثق فيه نور هذه المحبة ، وهذا المكان هو بيت الله بمكة ، وهذا هو الحج ،والمؤمنون إذ يجتمعون فيه ، وإذ يؤدون شعائرهم ، يجب أن تكون حياتهم مثلا أثناءه مثلا ساميا للإيمان بالله ، وإخلاص القصد فى التوجه إليه [١] .

وعن أبى هريرة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "[٢] .

ومن أبرز ما يمكن أن يؤكد اعتماد الرسول ﷺ على منطق العمل والممارسة والبيان العملى ثبوت إقراره لمبدأ التجربة فى الأمور الدنيوية الفنية ، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها ، فما أثبتت التجربة نفعه فى هذا فهو مطلوب شرعا وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعا .

وأوضح مثال لهذا المبدأ ، موقفه- عليه الصلاة والسلام- من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك ، ولم يكن له بذلك عهد ، حيث نشأ بمكة وهى واد غير ذى زرع ، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين ، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له . وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحى والدين الذى لا يجوز مخالفته فتركوا التأبير فى ذلك الموسم ، فخرج التمر رديئا ، فلما علم الرسول ذلك ، بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحى الإلهى ، بل من باب المشورة الدنيوية، حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة ، ثم قال لهم فى النهاية : «أنتم أعلم بأمر دنياكم» ، فهذه الشئون الدنيوية الفنية المحض متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقا لمصلحتهم ، وليس من شأن الوحى أن يتدخل فيها ، فهم بها أدرى وأعلم [٣] .

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٥٣٢ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الحج ، ج٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ٥٢ .

والقصة فى صحيح مسلم ، ومسند أحمد وغيرهما ، رواها عدد من الصحابة ، منهم طلحة بن عبيد الله ، ورافع بن خديج ، وعائشة ، وأنس رضى الله عنهم .

ولقد جاءت بعض الأحاديث مشيرة إلى أن الإنسان يمر فى الحياة بتجارب متعددة، وأنه إذا ما توقف عندها وتأملها واستثمرها ، فإنها تساعده على اكتساب العلم، فالمرء هنا يتعلم باستمرار ، ومدرسته هى التجارب التى يمر بها يوميا ، فهذا الصنف من البشر هم الذين يقال فى الواحد منهم : فلان حنكته التجارب ، وهم الذين كانوا دليلا لعلماء التربية الذين بشروا بالتربية الطبيعية أو بالتعلم عن طريق الممارسة اليومية ، أى استثمار التجارب التى يمر بها الإنسان استثمارا ينمى المعرفة ، ويسهم فى بناء الشخصية علميا [1] . لقد أشار حديث نبوى إلى هذا النوع من التربية ، فقد روى عن أبى سعيد الخدرى أن الرسول ﷺ قال : " لا حليم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة "[2]، وأخرج الإمام البخارى الجزء الثانى من الحديث موقوفا على معاوية بن أبى سفيان ضمن باب من أبواب الأدب ، قال : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وقال معاوية : لا حكيم إلا ذو تجربة . ثم خرج حديث أبى هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» [3] .

إن تخريج البخارى لهذا الحديث فى كتاب الأدب تعبير عن الجانب السلوكى الذى ركز عليه المسلمون ، وهم يتناولون هذا الحديث بالشرح . فقد ركزوا على قضايا الحلم والجزاء والعقاب ، حيث أشاروا إلى أن الحلم لا يحصل إلا بعد أن يرتكب صاحبه الأمور ، ويقصدون بذلك أن الشخص السلبى الذى لا يتعامل مع غيره ، ولا يمر بتجارب لا يمكن أن يكون حليما ، فالحلم لا يكون إلا من الشخص الذى يرتكب الأمور ويعثر فيها فيعتبر بها ويتعظ ، ويستبين مواضع الخطأ ويتجنبها [4] .

كذلك فإن رسول الله ﷺ كان يحث دائما على طلب العلم النافع ، والعلم النافع هو الذى ينعكس على عمل صاحبه وقوله بحيث يكون هناك اتساق بين ما يقول وما يعمل ، ولعمرى فإن هذه مشكلة كبرى فى المجتمعات الإسلامية فى عصرنا الحالى، ومظهر ، وربما سبب ، لتخلفها ، ذلك أننا كثيرا ما نقرأ ونسمع تصريحات

---

(١) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ١٧٢

(٢) سنن الترمذى ، البر والصلة

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الأدب

(٤) ابن حجر : فتح البارى ، ١٠/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

وخطب منمقة مزوقة تمتلئ بالكلام العذب الجميل ، لكن بينها وبين واقع الناس بونا شاسعا حتى فقدت الكلمة تأثيرها ، وأصبحت مجرد ثرثرة لا طائل من ورائها ، وإلى هذا يشير المولى- سبحانه وتعالى- في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] .

ومن قرأ الأحاديث النبوية فى هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذى يتهدد هذا الصنف من حملة العلم الذين سماهم الغزالى : " علماء الدنيا " . .

فعن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه (أمعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ، ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه "[1] .

وعن أنس : وإنى سمعته يقول - يعنى رسول الله - : « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض (جمع مقص) من نار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون »[2] .

ولم يكن رسول الله ﷺ يقتصر فى أسلوبه لغرس الإيمان فى نفوس المسلمين ، وتعليمهم قضاياه وحدوده ومزاياه ، على الدروس الجماعية الدورية ، اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية ، بل كان يستغل المناسبات التى تقتضى موقفا تعليميا معينا دون النظر إلى عدد المستفيدين فردا أو جماعة ، فيلقى فى ذلك الدرس الخاص ، والتوجيه المناسب لهذه الحادثة ، أو هذا الموقف ، أو هذه الحالة ، ليأخذ منه المتعلمون درسا لا ينسى ، وذلك لارتباطه بهذا الواقع المشاهد ، أو صلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها، وهنا يرسخ فى الذهن ويثبت فى القلب ، ولا يحتاج إلى تطويل أو تكرار ، وهكذا كان رسول الله لا يدع فرصة من هذه الفرص تمر على الناس دون أن يجعل منها درسا بليغا ، أو موعظة مؤثرة ، كثيرا ما تدمع منها العيون وتوجل منها القلوب[3] .

من تلك المناسبات ما ورد عن البراء بن عازب ، المشهور فى عذاب القبر ونعيمه، حيث يقول: خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى

---

(١) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، ١٨٨٢ .

(٢) عن يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ٧٨ .

(٣) سليمان بن قاسم العيد : المنهاج النبوى فى دعوة الشباب ، ص ٢٠ .

القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله ، وكأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت (يضرب) فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : " استعيذوا بالله من عذاب القبر " مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : " إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط (كل ما يخلط بالطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة) من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء . . . »[1].

فهنا نرى الرسول يستغل مناسبة الجنائز ليعطى أصحابه دروسا فى العقيدة تتعلق بالمناسبة ذاتها من خروج الروح وما يصاحبها ، ومن عذاب القبر ونعيمه ، وما ينتظر الإنسان يوم القيامة من الجزاء ، حتى يستعد كل إنسان لهذا الوقت العصيب .

وروى البخارى عن جرير بن عبد الله البجلى ، قال[2] : " كنا جلوسا ليلة مع النبى ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها ، فافعلوا ، ثم قرأ ﴿ . . . وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] .

وهكذا نجد رسول الله ﷺ ينتهز فرصة مشاهدة الصحابة للقمر ليلة البدر ، فبين لهم أن رؤية الله تعالى فى الآخرة ستكون للمؤمنين فى الجنة بهذا الوضوح وتلك السهولة واليسر[3] .

ويفسر ابن حجر عبارة « لا تضامون فى رؤيته » ، أى لا تضامون (بتشديد الميم) فى رؤيته باجتماع فى جهة ، فإنكم ترونه سبحانه فى جهاتكم كلها ، وهو متعال عن الجهة ، والتشبيه برؤية القمر ، للرؤية ، ودون تشبيه المرئى ، تعالى الله عن ذلك[4] .

---

(١) مسند ابن حنبل : ٤/ ٢٨٧، ٢٨٨ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب مواقيت الصلاة .

(٣) عبد الفتاح أبو غدة : الرسول المعلم ، ص ١٦١ .

(٤) ابن حجر : فتح البارى ، ١٣/ ٣٥٧ .

ومن شواهد السنة النبوية فى التركيز على هذا الأسلوب أيضا ، حث رسول الله المسلمين على الممارسة الفعلية لأعمال الخير وإشرافه بنفسه على قيامهم به لا الاقتصار على التوجيه إليها أو الإشادة بها ، وهو ما أوضحته مواقف كثيرة وأحاديث متعددة سبق لنا ، أن عرضنا لها ، سواء فى الفصل الحالى أو فى فصول سابقة[1].

وحتى يكون العمل محققا لمقاصد الشريعة ومصلحة الأمة ، حرص رسول الله ﷺ على التنبيه إلى ضرورة أن يقترن العمل بالنية الطيبة والإخلاص ، وصدق الطوية ، ومن هنا جاء قوله : " إنما الأعمال كالوعاء إذا طاب أسفله طاب أعلاه ، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه "[2] ، فالأسفل هنا هو ما يكون داخل الإنسان العامل ، من دوافع ومقاصد ونوايا ، وما علا ، فهو الجزء الظاهر من العمل الذى يراه الناس.

وإذا كان الرسول ﷺ قد أكد ، كما عرضنا من قبل مدحا لمن سن سنة حسنة ، وتحذيرا لمن سن سنة سيئة ، فإن مما لا شك فيه أن المقصود بالسنة هنا ، حسنة كانت أو سيئة هو الممارسة الفعلية بحيث تصبح طريقة متبعة ، ولا تقتصر على مجرد التوجيه اللفظى ، والإرشاد النظرى.

وهناك أيضا هذا الموقف الذى نرى فيه مسلما لا يحسن أداء الصلاة ، فيطلب منه رسول الله ﷺ أن يعيدها مرة ومرتين وأكثر ، إلى أن يطمئن إلى فهمه لخطواتها وحسن أدائه لها أداء يتسم بالدقة المطلوبة ، فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبى فرد النبى السلام ، فقال : « ارجع فصل ، فإنك لم تصل » ، فصلى ، ثم جاء فسلم على النبى ، فقال « ارجع فصل فإنك لم تصل»، فصلى ، ثم جاء فسلم على النبى فقال « ارجع فصل ، فإنك لم تصل » ثلاثا ، فقال : والذى بعثك بالحق فما أحسن غيره فعلمنى ، قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها »[3]

---

(١) عبد الحميد الزناتى : أسس التربية الإسلامية ، ص ٢١٥ .

(٢) عن : محمد بن علوى المالكى : أصول التربية النبوية ، ١٢٠ .

(٣) صحيح البخارى : ١/ ٢٠٠ .

ولعل أبرز وأوضح ما يؤكد القيمة التربوية للممارسة العملية أنها هى الطريق الوحيد لتكوين العادات ، والسلوك الإنسانى فى جملته هو جملة من العادات ، بحيث لا تصبح الفضيلة الخلقية ، مثلا ، مجرد فعل طارئ ، يحدث مرة وينتهى ، وإنما لابد من تكراره المرة بعد الأخرى حتى يصبح عادة ، فإذا بالإنسان ، وبغير تفكير ، يكرر الفعل الفاضل ، حتى لقد سمى البعض العادات بأنها الطبيعة الثانية للإنسان .

وبطبيعة الحال ، فإن فعل الخير كثيرا ما يتطلب مشقة نفسية ، لكن كلما تحمل الإنسان هذا الفعل مرة ومرتين وثلاثا ، فإنه فى كل مرة تالية للأولى سوف يجد أن المشقة تتضاءل شيئا فشيئا ، ولنأخذ على ذلك فضيلة مثل فضيلة الصبر ، فإن من استطاع اكتساب هذه الفضيلة وتنميتها عن طريق التدريب الذى يتعرض له فى حياته ، وذلك بأن تمر فى حياته أمور متعددة تتطلب منه صبرا وسعة صدر ، فقد يضجر الإنسان فى الأول منها ، ولكنه فى الثانى يكون ضجره أخف ، ثم تتنازل نسبة الضجر عنده ، وتتصاعد نسبة الصبر ، حتى يغدو من الصابرين ، ومن أصحاب فضيلة خلق الصبر[1] .

ومن هديه فى منهج تعليمه ﷺ ، أن ينتقل بالحاضر من صورة واقعية محسوسة إلى صورة ذهنية علمية تتعلق بالإيمان والأخلاق أو السلوك ، ومثال ذلك ما رواه مسلم[2] من أن رسول الله رأى امرأة من السبى وقد اندفعت وراء طفلها ناسية حالتها ، فأخذته ووضعته على ثديها وكأنها ليس بها شيء فقال : أرأيتم رحمة هذه الأم بولدها؟ قالوا : نعم ، قال : فالله أرحم بعبده وأفرح بتوبة عبده من فرح هذه الأم بولدها[3] .

ومن ذلك أيضا ما جاء عن جابر[4] أن رسول الله ﷺ مر فى السوق والناس على جانبيه ، فمر بجدى أسك (أى صغير الأذن) ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : الأخلاق الإسلامية ، دمشق / بيروت ، دار القلم ، ج١ ، ص١٩٩.

(٢) صحيح مسلم : ١٧/ ٧٠ .

(٣) محمد بن علوى : محمد ﷺ، الإنسان الكامل ، جدة ، دار الشروق، ١٩٨٢ ، ص ٢٧٧

(٤) صحيح مسلم : ١٨/ ٩٣.

ثم قال: أتحبون أنه لكم - أى بلا شىء - ؟ فقالوا : والله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال ﷺ : فوالله إن الدنيا أهون من هذا عليكم !

وهكذا جعل الرسول من ذلك الجدى الميت المعيب درسا عمليا ، وموعظة نبوية فى بيان قيمة الدنيا وحقيقتها ، وأنها لا تستحق هذا التكالب والحرص الشديد والتحاسد والتباغض ، فينتقل من قضية (الجدى) المحسوسة إلى قضية ذهنية علمية[1]

لقد جاء رسول الله ﷺ ، المعلم ، المربى ، فيما جاء به ليصلح عمليا بعض المفاهيم أو المعايير الاجتماعية المجحفة لدى بعض الناس ، أولئك الذين لا يقدرون الفرد حق قدره ، إلا بمظهره ولباسه ، ولا يزنُونَه إلا بمقدار ما لديه من عظم مال وعقار دون أن يخبروا خلقه وسلوكه وعقله ، هذه المعايير الاجتماعية الظالمة ، قد حرص الإسلام منذ يومه الأول أن يظهر خطأها حين جعل الناس سواء ، وجعل مجال التنافس فيما بينهم بالعمل النبيل والسلوك المستقيم[2]

وفى سبيل تصحيح تلك المعايير الخاطئة ، وإقامة مفاهيم إسلامية سليمة ، نقف عند الموقف النبوى التالى [3]

مر رجل على رسول الله ﷺ ، وهو جالس مع بعض أصحابه ، فإذا رجل يمر وعليه مظاهر العجرفة والتكبر والغرور بما لديه من متاع ، فقال الرسول لأصحابه الحاضرين ما تقولون فى هذا ؟

إنه لفت للأنظار إلى موطن التوجيه والدرس النبوى العملى ، لأنه كان يعلم ذلك المعيار الاجتماعى الخاطئ ، وهو يريد أن يظهر زيفه وخداعه[4]

قال الحاضرون ، وقد أخذوا بمظهره حرى به إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع !

لقد أعطاه الحاضرون كل المحاسن والمزايا لمجرد أنه ذو مظهر براق ، دون أن يعلموا شيئا عن خلقه وسلوكه وعقله

وهنا يسكت الرسول المربى ، يسكت دون تعليق ، لأن الدرس العملى لم ينته بعد ، إنه فى شقّه الأول ، ثم يكون ، فيمر رجل من عامة الناس ، فقال ﷺ : " ما

---

(١) محمد بن علوى محمد ، الإنسان الكامل ، ص ٢٧٧ .

(٢) عبد الحميد الهاشمى الرسول العربى المربى ، ص ١٧٨ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب النكاح

(٤) عبد الحميد الهاشمى الرسول العربى المربى ، ص ١٧٩ .

تقولون فى هذا " ؟ قال الحاضرون : " حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع " !

حقا ، إنه مسكين ، إنه ضحية ميزان اجتماعى سطحى خاطئ ، ولكن الرسول المربى ، وقد أتم وضع مقدمات الدرس التربوى والتى استقاها من مواقف الحياة لدى الحاضرين أنفسهم ، عمد إلى تقييم تلك الموازين فقال : " هذا - ويشير إلى الفرد العادى - خير من ملء الأرض مثل هذا . . . " !

إنه أصرح رد عملى فى موقف من مواقف الحياة يقرر : إن الفرد لا يقدر بمظهره، ولا يوزن بماله ، فكم من فقير فى ماله ، أو ضعيف فى جسمه ، أو حتى ناقص فى بعض حواسه ، ويحمل بين جنبيه قلبا ذكيا ، وعقلا منتجا ، ونفسا راضية مرضية ، لقد أراد الرسول الكريم أن يشير بيديه إلى بعض الموازين الاجتماعية والنفسية الخاطئة لدى بعض الناس ، ثم أراد أن يصحح تلك الموازين ، ويضع مكانها معايير السلامة النفسية والخلقية والروحية ، فالفرد الثانى لا يسمو على الأول لمجرد أنه فقير ، والأول غنى ، إذ ليس الغنى عيبا ، كما أن الفقر ليس عيبا ، بيد أن الأول كان مغرورا، بينما كان الثانى غنى النفس ، فالغنى الشاكر لله ، المتواضع لعباد الله ، له فضل ، لأن اليد العليا خير ، والفقير العصامى المكافح له فضل ، والقياس السليم فيهما هو العمل الصالح والخلق النبيل ، والتعاون الوثيق ، وتلك هى حياة المجتمع الأمثل [1].

حرص رسول الله ﷺ على أن يقوم دائما بتصويب سلوك المسلمين ، لم يقتصر على ممارسة الشعائر الدينية ، والقيم الاجتماعية المركزية ، بل كان أحيانا ما يتوقف أمام بعض التصرفات الجزئية ، اتساقا مع ما هو معروف من أن معظم النار من مستصغر الشرر ، من ذلك ما قاله كلدة بن الحنبل: " أتيت النبى ﷺ فدخلت عليه ولم أسلم ، فقال النبى ﷺ : " ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل " ؟[2]

ففى هذا الحديث لم يكتف رسول الله بأن قال لكلدة ما يجب عليه أن يفعله ، وإنما طلب منه القيام فعلا بالسلوك الذى يريد منه أن يتعلمه ، فهذا مثال واضح لمبدأ المشاركة الإيجابية والممارسة العلمية فى عملية التعلم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذى (النووى ، ج١ ، ص ٦٧٤ ، الحديث رقم ٤/ ٨٧٣) .

وقال عبد الله بن مسعود : " كنا تعلمنا من النبى ﷺ عشر آيات من القرآن ، لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعلم ما فيه ، فقيل لشريك : من العمل ؟ قال : نعم[1]. ويزيد رسول الله الأمر تأكيدا وتدعيما : " إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه "[2].

إن هذا يعنى ، بما لا يدع مجالا للشك أن التعلم لا يتم إلا ببذل الجهد والمشاركة الإيجابية الفعالة فى عملية التعلم ، كما أن الإنسان لا يتعلم الحلم إلا بالممارسة العملية الفعلية للحلم فى كثير من المواقف الواقعية فى الحياة حتى يصبح الحلم سجية مستقرة يصدر عن الإنسان دون تكلف وعناء[3] .

ويبلغ الأمر برسول الله أن تُعرض عليه المسألة ، ويكون هو بطبيعة الحال الأقدر على الفتوى والحكم ، لكنه يحرص على ما يمكن تشبيهه " بالتربية العملية " حيث يفوض الأمر إلى أحد الصحابة ، ثم يعرض عليه الأمر بعد ذلك فيؤكد ما إذا كان الصحابى قد أخطأ أو أصاب ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر بن العاص قال[4] : " جاء رجلان يختصمان إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: اقض بينهما ، قال : وأنت ها هنا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : على ما أقضى ؟ قال : إن اجتهدت فأصبت فلك عشرة أجور ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد" .

كذلك فقد روى عقبة بن عامر الجُهنى قال[5] : " جاء خصمان إلى رسول الله ﷺ يختصمان فقال لى : قم يا عقبة اقض بينهما ، قلت : يا رسول الله ، أنت أولى بذلك منى ، قال : وإن كان ، اقض بينهما ، فإن اجتهدت فأصبت فلك عشرة أجور، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد " .

---

(١) عن : محمد سعيد رافت : الرسول المعلم ونهجه فى التعليم ، الرياض ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) أخرجه الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .

(٣) محمد عثمان نجاتى : الحديث النبوى وعلم النفس ، ص ١٨٩ .

(٤) مسند ابن حنبل : ٢/ ١٨٥ .

(٥) المرجع السابق ، ٤/ ٢٠٥ .

وكان رسول الله ﷺ ينتهز فرصة تناول الطعام جماعة ، إذا تواجد أطفال كى يعلمهم ما يجب أن يتعلموه من آداب الأكل ، ففى وقت الطعام يحاول الطفل عادة أن ينطلق على سجيته ، ويضعف أمام شهوة الطعام فيتصرف أفعالا شائنة أحيانا ، ويخل بالآداب أحيانا أخرى ، وإذا لم يجلس الوالدان معه باستمرار أثناء الطعام ويصححا له أخطاءه ، فإن الطفل سيبقى فى براثن العادات السيئة المنفرة ، كذلك فإن عدم الجلوس معهم فى أثناء طعامهم سيفقد الوالدين وقتا مناسبا لتلقى الطفل وتعلمه[1] .

وقد أكل النبى ﷺ مع الأطفال ، وشاهد ولاحظ جملة من الأخطاء فقدمها بأسلوب حيوى أثار به عقل ونفس الطفل إلى التصحيح ، وهكذا كان . أخرج البخارى ومسلم عن عمر بن أبى سلمة قال : «كنت غلاما فى حجر النبى ﷺ ، فكانت يدى تطيش فى الصحفة فقال لى رسول الله ﷺ : يا غلام ! سم الله تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت طعمتى بعد» .

ولا شك أن تعليم رسول الله المسلمين القرآن الكريم يعد من أبرع وأدق ما يمكن التنويه به فى مجال التدريب العملى ، فرسول الله ﷺ كان أميا ، والكثرة الغالبة من المسلمين كانوا كذلك ، هنا كان من الضرورى أن يكون هناك أسلوب مميز فريد كى يتعلم المسلمون ويحفظوا القرآن وفق الأصول المفروضة ، فكيف كان يتم ذلك[2]؟

كان ﷺ يقرأ الآيات على مسمع من الصحابة كما سمعها وتعلمها من جبريل -عليه السلام- ، مجودة الحروف محررة المخارج ، فعن عائشة قالت : " لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة خرج رسول الله ﷺ فاقترأهن على الناس . . . "[3] .

وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : " لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] " .

وكان ﷺ إذا قرأ الآيات على الصحابة وضح مقاصدها وأحكامها وما قد يشكل على الصحابة من معانيها ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] .

---

(١) محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل ، الكويت ، مكتبة المنار الإسلامية ، ١٩٨٨ ، ط٢ ، ص ٣١٤ .

(٢) على محمد صالح الزيوت : أساليب تعليم القرآن الكريم فى عهد النبى ﷺ والصحابة ، رسالة ماجستير ، إربد ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٨ ، ص٧٥ .

(٣)صحيح مسلم : ١/ ٦٨٦ .

عن أبي هريرة قال : " كنا جلوسا عند النبى ﷺ ، فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الجمعة] ، قال : قلت : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا - وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان - ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء "(١).

وحتى يحفظ الصحابة ما نزل من القرآن الكريم فى صدورهم ، كان ﷺ يكرر تلاوة القرآن الكريم فى الصلوات والجمع والعيدين ، ويؤكد هذا نحو ما روى عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : " ... وما أخذت (ق والقرآن المجيد) ، إلا على لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس "(٢) .

ومما لا شك فيه أن تحفيظ الصحابة للقرآن كان مقرونا بالفهم والوعى ، ذلك أن هذا شرط أساسى لإمكان التطبيق والتنفيذ ، فالإنسان لا ينفذ ويطبق إلا ما يقتنع به ، وهو لا يقتنع إلا بما يفهمه ويعيه جيدا .

قواعد ومبادئ تربوية عامة :

وتضمنت السنة النبوية ، فضلا عما سبق ، عددا غير قليل من القواعد والمبادئ التربوية العامة التى تُفعل من العمل التربوى وتعززه ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ - **الترغيب والترهيب** : فهو وسيلة هامة وأساسية فى إثارة دافعية الناس إلى العمل الحسن ، وتنفيرهم من العمل السيئ ، فهكذا طبيعة الإنسان ، ينجذب إلى العمل بوسائل الإغراء من إثابة ومن مكافأة ، وينفر وينصرف عن العمل إذا كان يرتبط به ما يسبب له الألم والعقاب .

وارتكاب الخطأ لا يحتم أن يظل الإنسان موسوما به ، فباب التوبة والغفران مفتوح كصورة من صور (الترغيب) ، بل إن الإنسان ، حتى إذا أخطأ فيمكن له أن يعود إلى صواب الطريق إذا استغفر ربه ، وعندما قال رسول الله : " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين "(٣) ، قال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : " لا يحصل العلم حتى يرتكب - أى الإنسان - الأمور ، ويعثر فيها ، فيتعبر بها ، ويستبين مواضع الخطأ

---

(١) صحيح البخارى : ٦/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) صحيح مسلم : ١/ ٣٤٥ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب الادب .

ويجتنبها " ، وكـذلك من جرب الأمور علم نفعها وضررها ، فلا يفـعل شيئا إلا عن حكمة[1]، كمـا سبق أن بينا فى الجـزء السابق مـباشـرة عن فضل التـجربة والممـارسة العملية .

وليست هذه دعوة إلـى ممارسة الخطأ ، وضرورة المرور بالخطيئـة ، ولكنها دعوة إلى التخفيف من مـشاعر اليأس التى قد تنتاب البعض عندمـا يرى نفسه وقد تردى فى هوة الخطيئة ، وبالتالى فكأن الإنسان بحاجة إلى الخبرة وإلى الممارسة حتى يتعظ ، ولو لم يكن باب التوبة مفـتوحا لشق عليه سلوك مثل هذا الطريق الذى يتـعلم منه الكثير ، حتى ولو بالخطأ والانحراف أحيانا !

قال ﷺ : " من قـرأ القرآن وعـمل به ألبس والداه تاجا يوم القـيامـة ، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه ، فما ظنكم بالذى عمل به ؟ "[2]

فهذا (ترغيب) فى قراءة القرآن والعمل به .

ومن أساليب التـرهيب ، عن أبى هريرة قال[3] : قال رسـول الله ﷺ : "قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القـيامة ، رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه فلم يعطه أجره " .

ولأن " التوحيد " هو المحور الرئيسى للإيمان ، رغب فيه الرسول ترغيبا شديدا، مبشرا الموحد بثواب الجنة إلى الدرجة التى تجعل منه شـجرة باسقة تخفى ما قد يقوم به من سيئـات هى من الأمور الفاحشة ، فعن أبى ذر أن النبى ﷺ قـال : " أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مـات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة " ، قلت : " وإن زنى وإن سـرق " ؟ قال : " وإن زنى وإن سـرق " ، قلت : " وإن زنى وإن سرق " ؟ قال : " وإن زنى وإن سرق " ، ثم قال فى الرابعة : " على رغم أنف أبى ذر "[4].

---

(١) عبد الجواد بكر : فلسفة التربية فى الحديث الشريف ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٣ ، ص ٣٤٥ .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الإجارة .

(٤) أخرجه الشيخان ، والترمذى .

وليس معنى هذا بطبيعة الحال غض النظـر عن مثل هذه الفواحش ، فالسنة يفسر بعضهـا بعضا ، والسنة محكومـة بالقرآن ، وهناك من النصوص القاطعـة بتحريم الزنى والسرقة ، ولكن المسألة هنا مسألة مقارنة بين (الشرك) وبين غيره من الفواحش ، فهو أفدحها بلا جـدال ، وهو أكبر الكبائر ، كذلك فإن هذا كان فى أول الدعـوة الإسلامية ترغيبـا للناس فى دخول الإسلام ، فضلا عن أن الإيمان بـالله وحده لا شريك له ، له مستتبعاته فى السلوك والعمل ، فالزانى لا يزنى وهو مـؤمن ، والسارق لا يسرق وهو مؤمن .

ولعل هذا ما يلقى الضـوء على حديث آخر يرغب فـيه ﷺ فى القيـام بفروض العبادات والانصـراف عن الكبائر ، فعن أبى هريرة أن رسـول الله ﷺ قال : " ما من عبـد يصلى الصلوات الخمس ، ويصـوم رمضان ، ويخـرج الزكاة ، ويتجـنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة فقيل له : ادخل بسلام "[1].

وقد جمع أئمة الحديث أحاديث التـرغيب والترهيب من السنة النبوية الشريفة فى كتب مستقلة ، وأوفى تلك الكتب على وجه التقريب ، جمعا لأحاديث هذا الصنف ، وأكثرها فائدة ، وأقربها منالا كتـاب (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف) للإمام الحافظ أبى بكر محمد زكى الدين عبد العظيم المنذرى .

٢ - **التيـسير على المتـعلم والرفق به:** فالإسلام لا يقـبل العسر ، ولا يرضى أن يتحمل الإنسان فوق طاقتـه ، ولا بأن يشدد على نفسه أو على غيره [2]. وقد سبق أن مرت بنا أحـاديث تؤكد فى مجملهـا على أن التربية النبـوية تحمى من الغلو وتحث على الاعتدال ، مع الأخذ بعين الاعتبار القدرات الإنسانية فى العبادات وفى غيرها ، وبما أن التعلم فيه جانب تعبدى ، ويتطلب استخدام القدرات البشرية ، فإن رسول الله ﷺ بين أن القائمين عليه مطالبون بالتيسير والابتعاد عن الغلو .

ومن هنا فإن رسـول الله ﷺ كان يتبع طريقة تـعليمية لا ترهق المتـعلمين ، فلا تدعـوهم إلى أن يقضـوا كامل وقـتـهم فى الطلب ، بل هى تتـرك لهم أوقاتا للراحـة ولتجديد النشاط ، فـقد عقد البخارى فى كتاب الـعلم بابين ، عنون للأول بباب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفـروا ، وللثانى باب من جعل لأهل العلم

---

(١) أخرجه النسائى .

(٢) محسن عبد الناظر : العلم وأهله ، ص ٢٠٢

أياما معلومـة ، وخرج فى الأول حديثين ، جاء فى أولهـما أن ابن مسعـود قال : كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة[1] . وجاء فى الثانى أن أنس بن مالك روى عن النبى ﷺ أنه قال : "يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا"[2] . أما الباب الثانى ، فإنه نقل حوارا دار بين عبد الله بن مسعود وبين رجل طلب منه أن يجعل لهم درسا كل يوم فأجابه الصحابى جوابا يستمد أصله بما رواه عن الرسول فى الحديث الأول من الباب الأول .

وهكذا يتضح أن رسول الله ﷺ كانت له مواقف وهداية تتفق مع ما توصل إليه علماء التربية من أن طاقة الإنسان عـلى التعلم عنصر من العناصر التى يجب أن يخضع للدراسات الكمية ، ذلك أن تحمل هذه الطاقة وقدرتهـا على الاستيعاب تختلف حسب الأعمـار والظروف والمادة العلمية المقدمـة ، لذلك وجدنا واضعى المقـررات والبرامج ، وتوقيت الدروس يأخـذون بمبدأ توزيع الدروس على فـترات حتى لا يكلـف المتعلم بما يفوق طـاقته ، وحـتى لا يصاب بالسـآمة ، فـدور المعلم هنا مهم فى اخـتيـار أوقات التعليم، وفى استثـمارها ، فقد كان رسول الله يقدم العلـم كلما رأى طالبه قادرا على الفهم والإدراك[3] .

ومن التيسير أن يكون المعلم بمن يعلمه رفيقا رحيما ، وأن يتعامل معه كما يتعامل الأب مع أبنائه ، ومن هنا كـان وصف الله سبحـانه للمعلم الأول رسـول الله بقوله : ﴿ **لقـدْ جَـاءكُم رسُـولٌ مِّنْ أنفُـسكُمْ عـزِيزٌ عليْـه مـا عنتُّمْ حـرِيصٌ عليْكُم بِالْمُـؤْمنِين رءُوفٌ رحِيمٌ...** ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، ووصف الـرسول ﷺ نفسـه مؤكدا : « إنما أنـا لكم مثل الوالد لولده»[4] .

وقال فى حـديث آخر : « علمـوا ولا تعنفوا فـإن المعلم خيـر من المعنف»[5] ، وذلك أن الله يريد بعبـاده اليسر ولا يريد بهم العسـر ، وهو يحب الرفق فى الأمر كله ويجزى على الرفق ما لا يجـزى على العنف ، وما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ، ولا

---

(١) صحيح البخارى : ١/١٦٢ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب العلم

(٣) محسن الناظر : العلم وأهله ، ص ٢٠٣ .

(٤) رواه النسائى فى الطهارة .

(٥) عن : القرضاوى ، الرسول والعلم ، ص ١٢٤ .

وخل العنف فى شىء إلا شانه ، وأحق الأشياء بالرفق التعليم ، فعلى العلماء - كما قال البعض - ألا يعنفوا متعلما ، ولا يحتقروا ناشئا ، ولا يستصغروا مبتدئا ، فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة فيما لديهم[1] .

٣ - مراعاة الفروق الفردية : فمما هو معروف من سنة الله فى خلقه هذا التباين والاختلاف فى الألوان والألسنة والمشارب والقدرات ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ومن آياته خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالمِينَ (٢٢)﴾ [الروم].

وقد أشار الحديث النبوى إلى شئ من هذا فى قوله ﷺ : "إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب "[2] .

وقريب من هذا قوله ﷺ فى حديث آخر : " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " [3] ، فكما أن معادن الأرض من فضة وذهب وغيرهما من المعادن الأخرى تختلف فى طبيعة تركيبها وقيمتها، فكذلك الناس يختلفون فى طبيعة جبلاتهم ، وفى طباعهم وأخلاقهم وخصالهم وقدراتهم ، ومن كان من الناس فى مستوى عال وطيب فى هذه الصفات فى الجاهلية ، فإنه سيظل محتفظا بمستواه العالى والطيب فى الإسلام إذا تفقه فى الدين[4] .

ولا ينبغى أن يتطرق إلى ذهن القارئ أن الاختلاف بين الناس يسير فقط على طريق الحتم الوراثى ، فمهمة الرسل نفسها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الظروف البيئية والثقافية لها دورها الهام ، إذ سعى الأنبياء والمرسلون إلى الأخذ بيد من ضلوا الطريق ليهدوهم إلى الطريق المستقيم . ونص الحديث نفسه على " التفقه فى الدين " يعزز مهمة التغيير والتربية .

وعن ابن عمر قال [5] : كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا : " فيما استطعتم " ، وهى الكلمة نفسها على وجه التقريب التى جاءت فى

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) أخرجه الترمذى بسند صحيح .

(٣) أخرجه الشيخان وأبو داود .

(٤) محمد عثمان نجاتى : الحديث النبوى وعلم النفس ، ص ٢٥٦ .

(٥) أخرجه الشيخان .

حديث رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ حيث قال : " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ... الحديث "[1].

ومن الواضح أن كلمة " ما استطعتم " تعنى أنه لا يطالب الجميع بنوعية واحدة ومستوى واحد من العمل ، ولكن بالقدر الذى تسمح به إمكانات وقدرات كل واحد .

ولقد سبق لنا أن أوردنا بعض الأحاديث ، ونحن بصدد (المثل) تبين تأكيد رسول الله ﷺ على أن الناس فى تلقيهم ما يدعوهم إليه يختلف باختلاف ما هم عليه من قدرات ، وذلك مثل حديث : " مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعمل كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ... الحديث " .

ولأن الناس هكذا مختلفون متباينون ، كان الهدى الإلهى لرسله أن يحادثوا الناس بما يفهمون ، كل على قدر ما يستطيع ، وفى هذا أشار رسول الله ﷺ بقوله[2]: " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم " .

ويجمل القرضاوى مظاهر متعددة لمراعاة رسول الله للفروق الفردية بين الناس فى المسارات التالية[3] :

- اختلاف وصاياه ﷺ باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية .
- اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين .
- اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم .
- اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.
- قبوله من بعض الأفراد موقفا أو سلوكا لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف .

ومن الأمثلة التى يمكن أن نشير إليها هنا ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال[4]: "أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ ، فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : فهل من والديك أحد حى ؟ قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : فتبتغى الأجر من الله ؟ قال : نعم ، قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما " .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .

(٢) أخرجه أبو داود عن عائشة .

(٣) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١٣٨ .

(٤) صحيح مسلم : ١٠٤/١٦ .

نقرأ هذا فى الوقت الذى نعلم فيه أن الرسول ﷺ كان دائم الحض على الجهاد فى سبيل الله والهجرة ، بيد أنه لما أدرك ما عليه الذى سأله من حال لأبويه ، آثر أن يكون برهما أهم وأفضل ، وأنه أيضا صورة من صور الجهاد .

٤ - المداعبة والممازحة : فالحياة ممتلئة بكثير من صور الكد والجدية والمشقة ، مما يجهد الإنسان ، ومن هنا يحتاج من حين لآخر أن يسمع ما يدخل فى باب الممازحة والمداعبة بشكل يبعد عن الإسفاف ، فمثل هذا مما يخفف الأعباء النفسية ، وخاصة فى مجال تعليم التلاميذ الصغار ، دون أن يعنى هذا الاقتصار عليه ، فالإنسان أيا كان سنه يظل دائما فى حاجة إلى مثل هذا .

وكان رسول الله ﷺ يستخدم هذه القاعدة التربوية النفسية فى التعليم ، من غير أن يدفعه هذا إلى الخروج عن جادة الحق ، فمن ذلك ما رواه أنس بن مالك ، قال[١] :

"كان رسول الله ﷺ يدخل علينا ، ولى أخ صغير يكنى أباعمير ، وكان له نُغر طائر (وهو يشبه العصفور أحمر المنقار) يلعب به ، فمات ، فدخل عليه النبى ﷺ ذات يوم فرآه حزينا فقال : ما شأنه ؟ قالوا مات نغره ، فقال يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ "

وقد أشار أبوغدة إلى جملة فوائد يمكن أن نحصلها من هذا الحديث [٢]

- تخصيص الإمام بعض الرعية بالزيارة .
- مخالطة بعض الرعية دون بعض
- جواز حمل العالم علمه إلى من يستفيده .
- جواز الممازحة وأن ممازحة الصبى الذى لم يميز ، جائزة .
- جواز تكنية من لم يولد له ولد .
- جواز لعب الصغير بالطير دون تعذيب له ، وجواز تمكين الولى إياه من ذلك
- جواز إنفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات .
- معاشرة الناس على قدر عقولهم ومداركهم .
- جواز السؤال عما السائل به عالم من غير أن يكون استهزاء لقوله (ما فعل النغير) بعد علمه بأنه مات .

---

(١) صحيح البخارى : فى كتاب الأدب .

(٢) عبد الفتاح أبو غدة ، هامش ص ١٦٣ .

كذلك روى عن أنس قال[1] : " إن رجلا استحمل رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ "

فهذا الرجل يسأل رسول الله أن يعطيه بعيرا من إبل الصدقة ليحمل عليه متاعه ، فلما قال له الرسول أنه سيعطيه ولد الناقة تصور أنه يقصد صغيرها وهو بطبيعة الحال لن يمكنه من تحقيق غرضه ، فإذا بالرسول يداعبه مبينا أن الجمل ، حتى ولو كان كبيرا يحمل الكثير من الأحمال سوف يظل ابن ناقة !!

ولأن المفاكهة قاعدة من قواعد التربية النبوية ، لابد أن نضع بعين الاعتبار ما اتسمت به من قسمات وما أشارت إليه من معوارين حتى لا يسىء مرب استخدامها اعتمادا على إجازة السنة لها ، فمن ذلك[2] :

أ- أنها غير كثيرة ، فكثرتها تجعلها تهريجا عابثا ، ذلك أن فائدتها بعد حد العمل الرصين ، وليست هى كل العمل ، فالدعابة أشبه ما تكون بالملح للطعام ، ومن غير المتصور طبعا أن يكون الطعام كله ملحا وإنما هو القليل من الملح الذى يجعل للطعام مذاقا جيدا مقبولا ، فالدعابة كذلك لابد أن تكون بقدر محسوب حسابا جيدا .

ب- أن تكون الدعابة طبيعية بنت وقتها ، وبذلك تكون أقرب إلى النفس ، أما الدعابة المتكلفة المصطنعة ، فإنها ثقيلة الظل ممجوجة ، تعافها الطباع السليمة .

ج- أن يكون الباعث عليها صفاء النية وروح الدعابة ، فلا يجوز بحال أن تكون ستارا لإشباع غل تعانيه نفوس مريضة أو أداة تشهير ، أو انتقام عن طريق السخرية والإيقاع .

د- أن تكون موجهة لمن له علاقة خاصة ، فيحسن تقبلها ، أو فهمها أو إدراك غايتها .

هـ أن تكون الدعابة ملتزمة بالآداب ملتزمة وحدود الخلق النفسى والاجتماعى ، فهى بذلك لا تسف ولا تنحدر ولا تنحرف .

٥ - **العدل والمساواة بين المتعلمين** : فبطبيعة الحال تؤدى التفرقة بين المتعلمين إلى بذر مشاعر كراهية وحسد وحقد لدى الذين يرون تميزا للآخرين عليهم بغير حق ،

---

(١) سنن أبى داود : ٤/ ٣٠٠ .

(٢) عبد الحميد الهاشمى : الرسول العربى المربى ، ص ٢٨٥ .

والشعور بالظلم الذى يمكن أن يتولد لدى المتعلمين ، فضلا عن أن هذا معوق رئيسى لحسن التعلم .

وتحفظ لنا السنة النبوية العديد من المواقف التى تشير إلى أولوية هذه القضية فى تربية رسول الله للمسلمين ، فعن النعمان بن البشير أن أباه أتى به إلى الرسول فقال[1]:
" إنى نحلت (أعطيت) ابنى غلاما كان لى ، فقال رسول الله ﷺ : أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال : لا ، فقال الرسول : لا تشهدنى على جور ، ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء ؟ قال : بلى ، قال رسول الله ، فلا إذن " .

وفى رواية لمسلم فقال : أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال لا ، قال : اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم ، فرجع أبى فى تلك الصدقة .

ويستدل من هذا أن غياب التسوية فى المعاملة بين الأبناء فيه ظلم تحرمه الشريعة .

لكن هذا لا ينفى على وجه الإطلاق إمكان التفرقة فى إعطاء الهدايا أو المديح بناء على عمل وإنجاز وتفوق . ومن قرأ كتاب المناقب ، أو الفضائل فى صحيح البخارى، أو صحيح مسلم ، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصا تحمل الثناء على واحد ، أو جماعة من أصحاب النبى ﷺ ، ولم يكن النبى يلقى ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطا أو مجاملة ، بل كانت تقديرا لمن يستحق التقدير ، وتكريما لمن هو أهل للتكريم ، كما أثنى على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من كبار الصحابة فى مواقف شتى[2].

ومن هنا يصبح من الضرورى لكل معلم أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه ، وينوه بكل من له موهبة أو قدرة ، لينمى فيه الطموح بالحق ، والتفوق بالعدل ، ولينبه الآخرين على فضلهم فينافسوهم فى الخير إن استطاعوا ، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا ، وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر فى شأن أحد تلاميذه ، قد تصنع منه نابغة من نوابغ العلم[3] .

٦ - **التدرج** : فنحن نلاحظ أن من سنن الحياة الطبيعية ، فى تناول الطعام مثلا ، نتناوله جزءا جزءا ، حتى يتيسر العمل للجهاز الهضمى ، فكذلك فى تناول المعرفة ،

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

لابد من أخذها بالتدريج ، حتى يستطيع العقل أن يستوعبها ويفهمها فهما جيدا ، وتشتد الحاجة إلى هذا بطبيعة الحال أكثر كلما سرنا قدما على طريق التقدم الحضارى ، حيث تتضخم المعرفة وتتشعب مما يجعل من العسير على أحد استيعاب كل أو معظم أطرافها ، فيجد من الضرورى وضع أولويات ، ويحصل الأهم فالمهم ، فالعادى .. وهكذا .

ولعل فى نزول القرآن الكريم " منجما " ، على سنوات طويلة ، يسر على المسلمين تلقيه وحفظه وفهمه ، وخاصة أن هذا أيضا أتاح لهم الفرصة أن يروا تلك العروة الوثقى بين بعض ما كان يجرى من وقائع وأحداث وبين ما كان ينزل فيها من الآيات .

وعن جندب بن عبد الله قال[1]: " كنا مع النبى ﷺ ، ونحن فتيان حزاورة (يقاربون البلوغ) فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا "

فها هنا تدرج فى عملية التعلم وفقا لسلم أولويات ، فكان من الطبيعى أن يتعلم هؤلاء الإيمان أولا ، وبعده يتعلمون القرآن .

كذلك روى ابن عباس [2]: " أن النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن ، فقال : إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " .

فعملية التدرج فى التعليم تخضع لمقتضيات ، فلما كان معاذ مبعوثا ليعلم قوما فى منطقة أخرى بعيدة ، وليسوا مثلما كان أهل مكة وثنيين ، فلا بد من القاعدة الأولى أولا ، ثم ينتقل إلى ما بعدها .. وهكذا ويتوج العملية التعليمية بهذا المبدأ الحاكم : العدل !

وهكذا ينبغى أن تكون الدعوة ويكون التعليم

والتدرج ذو شقين : شق يتعلق بالكم ، وشق يتعلق بالكيف : فالأول يعنى أن يعطى المتعلم من العلم المقدار الملائم له ولا يكثر عليه المعلم ، ويحمله ما لا يطيق فينوء

(١) سنن ابن ماجه ، ١/ ٢٣ .

(٢) صحيح البخارى : ٣/ ٣٥٧ .

به ويضيعه كله ، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة فيضيع بذلك الكثير والقليل ، والعلم متين كالدين ، فيجب أن يوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

والثانى الذى يتعلق بالكيف والنوع ، فهنا يجب على المعلم أن يبدأ مع طلابه بالواضح قبل الغامض ، وبالبسيط قبل المركب ، والجزئى قبل الكلى ، وبالعملى قبل النظرى [1] .

إنها حقا نماذج مضيئة من أفضل وأفعل وأبرع ما عرفنا من طرق وأساليب التعليم، اتبعها المعلم الأول ، والمربى الكامل ، محمد صلوات الله عليه وسلامه ، هاديا لنا ، مرشدا للطريق المستقيم ، الذى يجب أن نلتزم بهدايته وإرشاده ، حتى يجيب الله دعوانا ونحن ندعوه بقراءة الفاتحة " اهدنا الصراط المستقيم " .

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ١٣٧ .

الفصل الخامس

تعليم السنة وتعلمها

ضرورة دينية وتربوية :

عندما ظهر رسول الله ﷺ فى الجزيرة العربية ، قدم نفسه إلى العالم على أنه نبى مرسل من قبل الله عز وجل إلى الناس كافة ليؤكد لهم الحقيقة التى بعث بها الأنبياء السابقين وليحملهم المسئوليات نفسها التى حملها هؤلاء الأنبياء أقوامهم، موضحا أنه آخر نبى مرسل فى سلسلة الرسل الذين تعاقبوا مع الزمن ، ثم زاد نفسه تعريفا لهم فأوضح أنه ليس إلا بشرا من الناس ، يسرى عليه جميع سمات البشرية وأحكامها ، ولكن الله ائتمنه - بواسطة الوحى - على تبليغ الناس رسالة تعرفهم بهوياتهم الحقيقية وتنبههم إلى موقع هذه الدنيا من خريطة المملكة الإلهية ، زمانا ومكانا، وإلى مصيرهم الذى سيلقونه حتما بعد الموت ، كما تلفت نظرهم إلى ضرورة انسجامهم فى سلوكهم الاختيارى مع هوياتهم التى لا مفر منها ، أى أن عليهم أن يكونوا عبيدا لله بتبعيتهم رسولهم الاختيارى ، كما تحققت فيهم هذه العبودية بالواقع الاضطرارى [1]، ثم أكد لهم بكل مناسبة أنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يبدل شيئا من مضمون هذه الرسالة التى حمله الله مسئولية إبلاغها إلى الناس جميعا ، بل أكد البيان الإلهى ذاته هذه الحقيقة قائلا ﴿ **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)** ﴾ [الحاقة]

وإذا فإن محمدا ﷺ لم يقدم نفسه إلى العالم زعيما سياسيا ، أو قائدا وطنيا ، أو رجل فكرة ومذهب ، أو مصلحا اجتماعيا ، بل لم يتخذ لنفسه خلال حياته كلها أى سلوك قد يوحى بأنه يسعى سعيا ذاتيا إلى شئ من هذا

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الذى يفرضه المنطق علينا ، عندما نريد أن نتعلم ونعلم حياة رجل هذا شأنه ، أن ندرس حياته العامة من خلال الهوية التى قدم نفسه إلى العالم على أساسها لنستجلى فيها دلائل الصدق أو عدمه على ما يقول . وهذا يلزمنا بلا ريب أن ندرس جميع النواحى الشخصية والإنسانية فى حياته ، ولكن ، على

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطى : السيرة النبوية ، كيف كتبت وكيف تطورت وكيف يجب فهمها اليوم ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد (٨) ، محرم ١٤٠٠هـ/ نوفمبر ١٩٧٩، ص٤٦ .

أن نجعل من ذلك كله قبسا هاديا ، يكشف لنا ببرهان علمى وموضوعى عن حقيقة هذه الهوية التى قدم نفسه إلى العالم على أساسها[1].

وللحياة النبوية ، فى تسجيلها التاريخى ، مميزات هامة تجعلها ذات مستوى خاص عند مقارنتها بسجل الحياة لغير رسول الله من الناس الآخرين ، وأهم تلك الخصائص ما يلى[2] :

١ - أنها أصح سيرة لتاريخ إنسان عموما ، ولتاريخ نبى أو رسول خصوصا ، فلقد استخدم العلماء أصح الطرق العلميـة فى الثبوت والصدق ، فغير قليل من أحداث السيرة جاءت أساسا فى القرآن الكريم الذى تم نقله مرويا حفظا فى الصدور وكتابة جيلا بعد جيل ، وكذلك ما تبقى من السيرة جاء جزءا رئيسيا فى كتب الحديث الصحيحة التى خضعت لمعايير الصحة فى السند ونقد الرجال والرواة وعدالتهم ، ولاسيما أن الرواة كانوا هم الصحابة الكرام أنفسهم الذين عايشوا رسول الله ﷺ .

أما حياة الرسل الآخرين ، فقد رويت وسجلت بعدهم بأجيال ، فأصابها التحريف والاختلاف والتناقض أحيانا . كذلك الزعماء الذين سجلت حياتهم إما عن طريق صديق مجامل ، أو عدو حاقد ، ولم تخضع لمعايير نقل الأخبار فى النقد والصحة والعدالة ، وهذه مفخرة علمية منهجية فى توثيق المعلومات التاريخية بالطرق العلمية في مناهج البحث ، يعتز بها علماء السيرة النبوية منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .

٢- لقد تم تسجيل حياة الرسول تسجيلا يكاد يكون كاملا ، لأن أحاديث السيرة رويت إما عن أمهات المؤمنين فى منزله أو عمن تربى فى أسرته ، كعلى بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، إلى جانب بقية الصحابة الذين كانوا معه فى أكثر ساعات النهار ، ولاسيما فى مواعيد الصلوات الخمس اليومية ، إلى جانب أسفاره ، فكانت السيرة سجلا كاملا شاملا لجميع مواقف حياته ﷺ زوجا ووالدا وإماما وقاضيا ومسافرا ومقيما ومسالما ومجاهدا .

٣- حياة الرسول ﷺ هى حياة واضحة صريحة فى جميع مراحلها ، ولادة وفتوة وشبابا ورشدا ، وفى أعمال المعايشة قبل زواجه وبعده ، وفى حياته العادية قبل البعثة ، وفى رحلاته إلى الشام ، وبعد النبوة ، وقبل الهجرة ، فليس هناك مراحل منسية أو مهملة أو غامضة .

---

(١) محمد سعيد رمضان : السيرة النبوية ، كيف كتبت ، ص ٤٧ .

(٢) مصطفى السباعى : السيرة النبوية ، دروس وعبر ، دمشق / بيروت ، ١٩٧٧ ، ص١١ .

٤- تمثل حياة الرسول ﷺ سيرة إنسان كامل فى الإنسانية ، وهذه ميزة فريدة خاصة بسجل حياة الرسول الكريم ، بينما نجد حياة موسى عليه السلام ، أو حياة عيسى عليه السلام ، قد حرف جوانب منها ، بعض الكتاب لإسباغ جزء من الألوهية أو ما شابه ذلك عليها .

كما أن حياة محمد ﷺ لم تكن مجموعة من الخوارق المادية والمعجزات الحسية، فلقد واجه الرسول عناد المشركين بصبر وجلد ، وخاصة الحروب ، فاعد لها وواجهها فى ميدانها ، وأصابته جروح فى وجهه ،وكسور فى رباعيته ، كما جرى فى (أحد)، وتآمر عليه المشركون فى مكة فخرج ليلا من داره ، واختبأ بالغار أياما ، واختار الطريق جنوبا ، وهو مهاجر يريد الشمال ، ومال فى سيره نحو الساحل وهو يريد الداخل ، فحياة الرسول حياة عملية ترسم معالم الأسوة الحسنة للعمل الإيجابى البناء .

٥- أنها حياة صادقة تشف أتم الشفافية عن صفاء الإنسانية وتكاملها فى شخصية الرسول ، إلى جانب وحدتها المتناسقة فى جميع مجالات الحياة المنزلية الخاصة والاجتماعية العامة ، ومجال الدعوة والإرشاد والتربية . وهذه ميزة فريدة فى حياته الطاهرة المباركة عليه الصلاة والسلام ، بينما نجد فى حياة الزعماء العالميين المشهورين صفحات من أوائل حياتهم مطموسة ، أو غير مشرقة ، أو أن نجد عظمتهم تنحصر فى الحياة الاجتماعية ، بينما حياتهم الخاصة خربة متهافتة ، أو أن عظمتهم من الناحية العلمية أو الفنية أو الصناعية فحسب ، بينما الجوانب الأخرى من حياتهم تكاد تكون تحت المستوى ، أو فى نطاق الاعتراض وعدم القبول .

ولعل ما يعزز القيمة التربوية العظيمة للسنة النبوية أنها تمثل منهجا متوازنا [١] : يوازن بين الروح والجسد ، بين العقل والقلب ، بين الدنيا والآخرة ، بين المثال والواقع، بين النظر والعمل ، بين الغيب والشهادة ، بين الحرية والمسئولية ، بين الفردية والجماعية ، بين الاتباع والابتداع ؛ ولهذا كان ﷺ، إذا لمح من بعض أصحابه جنوحا إلى الإفراط أو التفريط، ردهم بقوة إلى الوسط، وحذرهم من

---

(١) يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع السنة النبوية ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠٠ ، ص٢٧ .

مغبة الغلو والتقصير ، ولهذا أنكر على الثلاثة الذين سألوا عن عبادته ﷺ ، فكأنهم رغبوا فيما هو أكثر ، فعزم أحدهم أن يصوم الدهر فلا يفطر ، والآخر بأن يقوم الليل فلا يرقد ، والثالث ، أن يعتزل النساء فلا يتزوج ، وقال حين بلغه قولهم : " أما أنى أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى "[١]، فإذا كان رسول الله هو من هو من حيث الإيمان والتقوى ، فإن هذا لم يكن مانعا له من أن يمارس حياته بصفته إنسانا . وكان من دعائه: " اللهم أصلح دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى من كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر "[٢].

والسنة كذلك تقدم للإنسان منهجا تكامليا[٣] ، يتكامل فيه الوحى مع العقل ، والتشريع مع التربية ، فللتربية دورها فى التكوين والتأسيس والتوجيه ، وللتشريع دوره فى الصيانة والإلزام والتأديب والعقاب ، فلا تغنى التربية وحدها بلا تشريع ، ولا يغنى التشريع وحده بغير تربية ، وكان رسول الله هو القائم على التربية والتشريع معا .

ومن الواضح من خلال ما مر بنا أن السنة قد اتسمت بالواقعية فى منهجها[٤] ، لا تتعامل مع الناس على أنهم ملائكة أولو أجنحة ، بعيدين عن نبض الحياة البشرية ، وما تعج به من احتياجات ومشكلات ، بل على أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، لهم غرائزهم وشهواتهم ، ولهم ضروراتهم وحاجاتهم ، كما أن لهم أشواقهم الروحية العليا وتطلعاتهم إلى الملأ الأعلى ، فهم خلقوا من طين وحمأ مسنون، كما أن فيهم نفحة من روح الله . ومن هنا راعت السنة واقع الإنسان وضعفه إذا سقط فى المعصية ، فلم تسد فى وجهه باب التوبة ، بل فتحته أمامه ليقرعه مستغفرا منيبا إلى ربه كما فى الحديث : " إن الله يبسط يديه بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها "[٥] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟ ص ٢٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٥) رواه مسلم وأحمد عن أبى موسى .

ولا يخفى على كل ذى عقل سليم ، ودين مستقيم ، فى ضوء هذا ، وغيره مما سبق أن أوضحنا فى الفصلين الثالث والرابع ، بوجوب تعليم السنة وتعلمها والحض على ذلك ، لأن أصل الشريعة التى تعبدنا بها إنما هى متلقاة من جهة نبينا صلوات الله عليه وسلامه ، ورحم الله سلفنا من الأئمة المرضيين والأعلام السابقين من أهل الحديث وفقهائهم ، قرنا بعد قرن ، فلولا حرصهم واهتمامهم بنقله ، وتوفرهم على سماعه وحمله ، واحتسابهم فى إذاعته ونشره ، وبحثهم عن مشهوره وغريبه ، وتنقيتهم لصحيحه من سقيمه ، لضاعت السنة ، ولاختلط الأمر والنهى ، وعسر على الإنسان أن يقوم بما يجب أن يقوم به من الاستنباط والاعتبار[1]. وفى هذا قال ﷺ : " أيها الناس إنى قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وسنتى ، فلا تفسدوه ، وإنه لا تعمى أبصاركم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ، ما أخذتم بها " . وعن ابن عباس قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : "اللهم ارحم خلفائى ، قلنا : يا رسول الله ، من هم خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى ويعلمونها للناس " [2] .

كذلك قال رسول الله ﷺ : " من حفظ عن أمتى أربعين حديثا من أمر دينه بعثه الله يوم القيامة فى زمرة العلماء والفقهاء " .

وعن أحدهم قال : سمعت أبى يقول : ما الناس إلا من قال : حدثنا وأخبرنا ، ولقد التفت "المعتصم" إلى أبى فقال له : كلم (ابن أبى داود) ، فأعرض عنه أبى بوجهه وقال : كيف أكلم من لم أره على باب عالم قط ؟ [3] .

ولما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم الهمدانى عن قضاء (الرى) ، ورد (بخارى) لتجديد مودة كانت بينه وبين أبى الفضل البلعمى (توفى ٣٢٩هـ) فنزل فى جوارنا فحملنى معلمى أبو إبراهيم : إسحق بن إبراهيم الخُتلى إليه وقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبى بما سمعت من مشايخك .

قال : ما لى سماع .

---

(١) القاضى عياض : الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صخر ، القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٠ ، ص٦-٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

قال : فكيف وأنت فقيه ، فما هذا ؟

قال : لأنى لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسى إلى معرفة الحديث ، ومعرفة الرجال ، ودراية الأخبار وسماعها ، فقصدت (محمد بن إسماعيل البخارى) ببخارى صاحب التاريخ ، والمنظور إليه فى معرفة الحديث ، وأعلمته مرادى وسألته الإقبال على فى ذلك فقال لى : يا بنى لا تدخل فى أمر إلا بعد معرفة حدوده ، والوقوف على مقاديره .

فقلت له : عرفنى - رحمك الله - حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لى : اعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا فى حديث إلا بعد أن يكتب أربعا ، مع أربع ، كأربع مثل أربع ، فى أربع عند أربع ، عن أربع لأربع[1]!

وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع ، فإذا تمت كلها ، هان عليه أربع، وابتلى بأربع ، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله فى الدنيا بأربع وأثابه فى الآخرة بأربع .

قلت له : فسر لى ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف بشرح كاف ، وبيان شاف ، طلبا للأجر الوافى .

فقال : نعم ، أما الأربعة التى تحتاج إلى كتبتها (كتابتها) فهى : أخبار رسول الله ، وشرائعه ، والصحابة ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم ، مع أسماء رجالهم وكناهم ، وأمكنتهم وأزمنتهم ، كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع الرسل (التوسل) ، والبسم (البسملة) مع السور ، والتكبير مع الصلوات، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات فى صغره وإدراكه ، وفى كهولته وفى شبابه ، عند فراغه وعند شغله ، وعند فقره وعند غناه بالجبال والبحار ، والبلدان والبرارى ، على الأحجار والأصداف والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذى يمكنه نقلها إلى الأوراق ، عمن هو فوقه ، وعمن هو مثله ،وعمن هو دونه ، وعن كتاب أبيه بتيقن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله - تعالى - طالبا لمرضاته والعمل بما وافق الكتاب منها ونشرها بين طالبيها ومجتنبيها والتأليف فى إحياء ذكره بعده[2] .

ثم لا تتم هذه الأشياء إلا بأربع من كسب العبد ، أعنى : معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هى : من إعطاء الله ، أعنى القدرة والصحة والحرص

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

والحفظ . فإذا تمت له هذه الأشياء ، هان عليه أربع : الأهل والولد والمال والوطن ، وابتلى بأربع : شماتة الأعداء وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، ولذة العلم ، وحياة (حبرة السرور) الأبد . وأثابه فى الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ، وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، ويسقى من أراد من حوض نبيه ، وبجوار النبيين فى أعلى عليين فى الجنة .

فقد أعلمتك يا بنى - مجملا - جميع ما كنت سمعته من مشايخى متفرقا فى هذا الباب مجمعا ، فأقبل الآن على ما قصدتنى له أو دع .

قال : فهالنى قوله ، فسكت متفكرا وأطرقت نادما ، فلما رأى ذلك منى قال : وإلا تطق احتمال هذه المشاق كلها ، عليك بالفقه الذى يمكنك تعلمه وأنت فى بيتك قار ساكن ، لا تحتاج إلى بعد الأسفار ، ووطء الديار ، وركوب البحار .

قال : فلما سمعت ذلك نقض عزمى فى طلب الحديث وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت متفقها ، فلذلك لم يكن عندى ما أمليه على هذا الصبى يا إبراهيم[1] .

لكننا فى عمليتى (التعلم) و (التعليم) لابد أن نكون على وعى بقضية هامة مثار جدل بين الفقهاء ، ولا نستطيع أن نزعم أهلية لنا فى المشاركة فى مثل هذا الجدل والنقاش ، ومن ثم فإننا نحدد أنفسنا بمجمل رأى للشيخ محمود شلتوت ، وكذلك برأى آخر يقبل بعض ما قاله الشيخ ويصحح بعضا آخر منه ، ويضيف إليه باجتهاده الخاص ، وهو الدكتور يوسف القرضاوى .

يقول الشيخ شلتوت ، إننا ينبغى أن نلاحظ أن كل ما ورد عن النبى ﷺ ودون فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام[2] :

أحدها : ما سبيله سبيل الحاجة البشرية ، كالأكل والشرب والنوم والمشى والتزاور ، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية ، والشفاعة ، والمساومة فى البيع والشراء .

ثانيها : ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية ، كالذى ورد فى شئون الزراعة والطب وطول اللباس وقصره .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة ، دار الشروق، ١٩٧٥ ، ط٨ ، ص٤٩٩ .

ثالثها : ما سبيله التدبير الإنسانى أخذا من الظروف الخاصة ، كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية ، وتنظيم الصفوف فى الموقعة الواحدة ، والكمون ، والكر والفر ، واختيار أماكن النزول ، وما إلى ذلك مما يعتمد على وحى الظروف والدربة الخاصة ·

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعا يتعلق به طلب الفعل أو الترك ، وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعا ولا مصدر تشريع[1]

رابعها : ما كان سبيله التشريع ، ومن أمثلته ما يصدر عن الرسول على وجه التبليغ بصفة أنه رسول ، كأن يبين مجملا فى الكتاب ، أو يخصص عاما ، أو يقيد مطلقا ، أو يبين شأنا فى العبادات ، أو الحلال والحرام ، أو العقائد والأخلاق ، أو شأنا متصلا بشىء مما ذكر ·

وهناك من فصل أكثر فى تصنيف أفعال الرسول ﷺ الدنيوية ، والتى يقصد بها "ما فعله النبى ﷺ بقصد تحصيل نفع فى البدن أو المال ، له ولغيره ، أو دفع ضرر كذلك ، أو ما دبره فى شأن نفسه خاصة أو شئون المسلمين عامة ، لغرض التوصل إلى جلب نفع أو دفع ضرر "[2].

وبناء على ذلك يصنف هذه الأفعال إلى الفئات التالية[3] .

الفئة الأولى : الأفعال الطبية ، وهى ما يتصل ببدنه شخصيا أو أبدان الآخرين من الناس ، بغرض دفع مرض حاضر أو متوقع · وفى هذا الصدد نجد الرسول قد تناول أو أعطى غيره أطعمة وأشربة متنوعة ، بقصد حفظ الصحة ، أو دفع أمراض معينة ، مثل ألبان الإبل وأبوالها[4].

الفئة الثانية : الأفعال فى المجال الزراعى ، بأن يزرع نباتات بعينها ، أو أن تتم الزراعة بطريقة معينة ، أو يسقى المزروعات كذلك ، أو يفعل بالنبات شيئا بقصد أن يكون إنتاجه أكثر ، أو تحسينه أو ما إلى ذلك ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠ ·

(٢) محمد سليمان الأشقر أفعال الرسول فى الأمور الدنيوية ، مجلة المسلم المعاصر ، الكويت ، العدد الثالث عشر ، محرم / صفر/ربيع أول ١٣٩٨هـ (١٩٧٨) ، ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ·

(٤) صحيح البخارى : ١٠/١٧٨ .

الفئة الثالثة : خاصة بالمجال الصناعى ، بأن يصنع بمادة شيئا ما بغرض تغيير شكلها إلى شكل آخر ، سعيا نحو مزيد من النفع ، أو يحلل مادة إلى حالات أبسط ، أو يركب مادة مع أخرى بغرض الحصول منهما على مادة جديدة تكون أكثر نفعا من الأصل .

الفئة الرابعة : المجال التجارى بأن يعمل فى البيع والشراء ، فى أشياء بعينها فى ظروف خاصة ، بغرض الحصول على مكسب ينتج من فروق الأسعار .

الفئة الخامسة : أنواع أخرى من المكاسب ، مثل رعى الغنم ، أو العمل للغير بأجر [1].

الفئة السادسة : التصرفات التى سلكها رسول الله فى أوقات الحرب مثل استخدام المنجانيق والسيوف والرماح والسهام ، وتربية الخيل للقتال ، وحفر الخنادق ، وترتيب الجيوش وتدريبها .

الفئة السابعة : الأنشطة التى قام بها رسول الله ﷺ فى مجال الإدارة المدنية ، من اختيار وتعيين الولاة والكتاب والحراس والحجاب والسفراء ، وكذلك الأعلام والشعارات، والمرافق من الطرق والحصون وما إليها[2] .

ونظن أنه بعد هذا البيان نرى من اللازم هنا أن نبرز حقيقتين ، نحسب أن لا خلاف عليهما ، أو لا ينبغى الخلاف ، وهما [3] :

أولا : أن جمهرة السنة - سواء كانت أقوالا أو أفعالا ، أو تقريرات - هى للتشريع ومطلوب فيه الاتباع للنبى ﷺ الذى جعل الله الهداية فى اتباعه ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف] .

ثانيا : أن من السنة ما ليس للتشريع ، ولا يجب الطاعة فيه ، وهو ما كان من أمر الدنيا المحض ، وهو الذى ورد فى الحديث الصحيح " أنتم أعلم بأمر دنياكم " ، وهو الذى ورد فى تأبير النخل .

---

(١) محمد الأشقر : أفعال الرسول ، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣) يوسف القرضاوى : الجانب التشريعى فى السنة النبوية ، فى ندوة : السنة النبوية ومنهجها فى بناء المعرفة والحضارة ، عمان (الأردن) ، ١٩٨٩ ، ص ٤٧ .

وإذا كانت هاتان الحقيقتان متفقا عليهما ، فإن الخلاف إنما هو فى تطبيق هذا المبدأ على بعض الأحاديث ، أو فى بعض المجالات ، مثل الأحاديث المتعلقة بالأكل والشرب والملبس والزينة ، والاكتحال ، والطب ، ووصف أدوية معينة ، ونحو ذلك : هل هو من " أمر دنيانا " الموكول إلينا ، ونحن أعلم به ، لأن الوحى لم يجئ ليلزم الناس فيه بتكليف بأمر أو بنهى ، أم هو من " أمر ديننا " الذى يجب أن نتلقاه من الوحى ونلتزم بطاعته فيه ؟

ويكمل هذا ، ما صدر عن الرسول ﷺ من تشريعات ، ولكن ليس لها صفة العموم والدوام ، بل قصد بها علاج أوضاع معينة فى ظروف معينة ، وهو ما يترجم عنه بوصف الإمامة والرئاسة أو القضاء ، وأصله كالمتفق عليه ، ولكن الخلاف فى التطبيق على الجزئيات المختلفة .

ويعقب القرضاوى على رأى الشيخ شلتوت تعقيبا عاما يجب الإشارة إليه[1] ، إذ ليس كل ما يتعلق بالأكل والشرب والنوم والمشى والجلوس والتزاور ونحوها سبيله سبيل الحاجة البشرية ، بل ينبغى أن نفرق هنا بين ما ثبت (بفعله) ﷺ ، وما ثبت (بقوله) . (فالفعل) لا يدل على أكثر من المشروعية ، ولا يدل على وجوب ولا استحباب فى نفسه ، كما فى قضية الأكل باليد ، وما شابهها ، ولكن من فعل ذلك تشبها بالرسول الكريم وحبا لكل ما صدر عنه ، فهو حسن مأجور بنيته .

وأما (القول) فى هذا المجال ، فقد يدل على الإرشاد ، وقد يدل على الاستحباب فى الأمر أو الكراهية فى النهى ، وقد يدل على الإيجاب فى الأمر أو التحريم أو النهى ، تبعا للقرائن ، كالتشدد فى الأمر ، والوعيد فى النهى ، كما ورد فى قضية الأكل بالشمال ، ولبس الحرير ، والأكل أو الشرب فى آنية الذهب والفضة ونحوها ، مما دلت عليه الأدلة على تحريمه [2]، مثال ذلك : يقال فيما سبيله سبيل التجربة والعادة ، كالذى ورد فى الطب وطول اللباس وقصره ، فبعض ما ورد فى الطب يحمل طابع التجربة ، ولهذا لا يؤخذ مأخذ العموم لكل الناس ، وكل الأحوال .

---

(١) يوسف القرضاوى : الجانب التشريعى فى السنة النبوية ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

وبعضها يحمل طابع التشريع والتوجيه ، مثل : " يا عباد الله ، تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد . . الهرم "[1] و " تداووا ولا تداووا بحرام "[2].

وإذا كان هناك من يبنون موقفهم من ضرورة الالتزام بما فعله رسول الله حتى فى المجالات الدنيوية كافة ، على أساس انه ﷺ معصوم من خطأ الاعتقاد فى أمور الدنيا، وكل ما اعتقده فى ذلك فهو مطابق للواقع[3] ، فإننا نميل إلى الرأى الذى يذهب إلى أنه لا يجب أن يكون اعتقاده عليه الصلاة والسلام فى أمور الدنيا مطابقا للواقع ، بل قد يقع الخطأ فى ذلك قليلا أو كثيرا ، ولا ينال ذلك بأى حال من الأحوال من موقعه العظيم الذى أكرمه الله به؛ لأن موقع النبوة منصب على العلم بالأمور الدينية ، من الاعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والأمور الشرعية .

أما إذا اعتقد عليه الصلاة والسلام أن فلانا مظلوم فإذا هو ظالم ، أو أن دواء معينا يشفى من مرض معين فإذا هو لا يشفى منه ، أو أن تدبيرا زراعيا أو تجاريا أو صناعيا يؤدى إلى هدف معين ، فإذا هو لا يؤدى إليه ، أو يؤدى إلى عكسه ، أو أن تدبيرا عسكريا أو إداريا سينتج مصلحة معينة ، أو يدفع ضررا معينا ، فإذا هو لا يفعل، فإن ذلك الاعتقاد لا دخل له بالنبوة ، بل هو يعتقده من حيث هو إنسان ، له تجاربه الشخصية ، وتأثراته بما سبق من الحوادث ، وما سمع أو رأى من غيره مما أدى إلى نتائج معينة ، فكل ذلك يؤدى إلى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر ، ثم قد ينكشف الغطاء فإذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد[4]، وقد أيد هذا الرأى القاضى عبد الجبار ، والقاضى عياض ، والشيخ محمد أبو زهرة .

وعلى أية حال ، ففى نطاق الحديث الصحيح الثابت عنه ﷺ حث على التبليغ، والتبليغ فى مجال الحديث النبوى إنما هو تربية وتعليم ؛ لأن المسألة ليست مجرد "إخبار" ، بل وعى مصحوب بسلوك ، ومن هنا فقد دعا رسول الله لمن قام بهذا التبليغ بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، فعن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال: " . . فإن

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود فى الطب عن أبى الدرداء (٣٨٧٤)

(٣) محمد الأشقر : أفعال الرسول الدنيوية ، ص ٦٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦١ .

دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا . . . ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب "[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : " بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "[2].

ولم يكتف رسول الله ﷺ بمجرد الأمر والدعاء لمن يقوم بواجب تبليغ السنة وتعليمها، بل شجع من يسمع منه السنة ، ويسر السبل لحفظها ، فأباح الكتابة لمن رغب فيها من الصحابة ، بشرط أن يكون عنده من الوعى والخبرة ما يمنعه من خلط السنة بالقرآن ، روى البخارى - بسنده - عن أبى هريرة ، أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبى ﷺ ، فركب راحلته ، فخطب ، فقال : " إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل - شك أبو عبد الله - وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين . . ألا وإنها لم تحل لأحد من قبلى ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار . . ألا وإنها ساعتى هذه حرام : لا يختلى (لا يقطع ويجز) شوكها ، ولا يعضد (يقطع) شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين ، إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال : اكتبوا لأبى فلان "[3]

مبادئ وشروط تعليم السنة :

حرص علماء الحديث أن يضعوا القواعد والمبادئ والشروط التى يكفل السير عليها لعملية تعليم السنة أعلى قدر ممكن من الكفاية والفعالية ، ويمكن إجمال هذه القواعد والمبادئ والشروط فيما يلى :

١ - هل ينبغى تحديد سن معينة لمعلم السنة ؟ نحن نعلم أن " السن " يحتل مكانا هاما فى عادات العرب وقيمهم ، على أساس أنه يدل على مقدار ما توافر للإنسان من الخبرة والحكمة وسداد الرأى ، ومن هنا رأينا البعض يؤكد على ضرورة أن يكون المتصدى لتعليم السنة كبير السن ، فها هو القاضى الفاضل ابن خلاد يقول : " الذى

---

(١) صحيح البخارى : ١ / ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ٤ / ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ١ / ٢٨ .

يصح عندى من طريق الأثر ، والنظر فى الحد الذى إذا بلغه الناقل حسن به أن يحدث، هو أن يستوفى الخمسين لأنها انتهاء الكهـولة ، وفيها مجتمع الأشد " . ثم يذكر أنه لا مانع إذا بدأ ذلك بسن الأربعين : " وليس بمنكر أن يحدث عند استيفاء الأربعين لأنها حد الاستواء ومنتهى الكمال . نبئ رسـول الله ﷺ وهو ابن الأربعين ، وفى الأربعين تتناهى عزيمة الإنسان وقوته ويتوفر عقله ويجود ربه " [1].

والحق أنه من الصعب قبول هذا الرأى فى الوقت الحـالى ، صحيح أن التقدم فى السن يصقـل المعلم ويزيد من حصيلـة خبرته ، لكن يجب أن نفـرق بين الظروف التى عاشها قائل الرأى السابق وظروف اليوم ، ذلك ان سبل التعلم سابقا كانت نادرة وشاقة ومحصورة بين عدد قليل من الناس ، لعدم ظهـور (الطباعة) ، ومن هنا كان التعويل على (الخبرة) و (الممـارسة) . لقد كان من المعتـاد مثلا أن يقطع طالب العلم آلاف الكيلومتـرات لمجرد أن يحصل على كتـاب أو يسمع حديثـا ، وهذا يستغرق منه وقـتا طويلا ، أما الآن فـمن السهل أن يحـصل الإنسان فى أيام ، وفى سـاعات ، بل وفى دقائق ، مـا كان يستغـرق أسابيع وشهـورا . ثم إن وسائل التعليم بلغت من الانتـشار والجمـاهيرية مما يمكن الإنســان من تكثيف التعليم ، وبـالتالى فإن صـغر السن الآن لا ينبغى أن يكون - كما كان فى الماضى - دلالة قصور وآية عدم نضج .

ونحن لا نتفـرد بهذا الرأى ، فهناك من العـلماء الأفاضل من سـبقـونا وسجلوا اعتراضهم على الرأى السـابق ، ومنهم القاضى عياض [2] ، فقد قال : " واسـتحسانه هذا لا يقوم له حجة بما قال ، وكم من السلف المتقدمين ، ومن بعدهم من المحدثين من لم ينته إلى هـذا السن ولا استوفى هذا العـمر ، ومات قـبله ، وقد نشـر من الحديث والعلم مـا لا يحصى . هذا " عـمـر بن عبـد العزيـز " توفى ولـم يكمل الأربعين ، و" سعيـد بن جبير " لم يبـلغ الخمسين ، وكذلك إبراهيم النخـعى ، وهذا " مالك بن أنس " قد جلس ابن نيـف وعشرين ، وقـيل ابن سبع عشـرة ، وكذلك " محـمد بن إدريس الشافعى " ، قد أخذ عنه العلم فى سن الحداثة .. وقد أنشد بعض البغداديين:

إن الحداثة لا تقصـــر   بالفتى المرزوق ذهنـــا
لكن تـــذكى قلبــه   فيفوق أكـبر منه ذهنا

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، تحقيق وشرح نور الدين عتر ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٤ ، ص٢٣٦ .

(٢) القاضى عياض : الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

أما ابن الصلاح ، فلا يستنكر ما ذكره ابن خلاد ، بشرط أن يحمل على أنه "قال فيمن يتصدى للتحديث ابتداء من نفسه من غير براعة في العلم تعجلت له قبل السن الذى ذكره [1]، فهذا إنما ينبغى له ذلك بعد استيفاء السن المذكور ، فإنه مظنة لاحتياج إلى ما عنده ، وأما الذين ذكرهم عياض ممن حدث قبل ذلك ، فالظاهر أن ذلك لبراعة منهم فى العلم تقدمت ، ظهر لهم معها الاحتياج إليهم فحدثوا قبل ذلك ، أو لأنهم سئلوا ذلك إما بصريح السؤال وإما بقرينة الحال " [2].

لكن هناك نصوصا متعددة تشير إلى حرص علماء الحديث على ضرورة مراعاة النضج الجسمى والعقلى ، سئل الأوزاعى عن الغلام يكتب الحديث قبل أن يبلغ الحد الذى تجرى عليه الأحكام ، فقال : "إذا ضبط الإملاء جاز سماعه ، وإن كان دون العشرة " [3] . ولقد رفض الإمام أحمد تحديد سن معينة تعتبر حدا فاصلا فى تلقى العلم ، معتبرا فى ذلك بالنضج ، فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : " سألت أبى : متى يجوز سماع الصبى فى الحديث ؟ قال . إذا عقل وضبط . قلت : فإنه قد بلغنى عن رجل سميته أنه قال : لا يجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة لأن النبى ﷺ رد البراء ، وابن عمر ، واستصغرهم يوم بدر . فأنكر قوله هذا وقال . بئس القول ، يجوز سماعه إذا عقل ، فكيف يصنع بسفيان ووكيع "[4]، وهذا يدل على أن العامل الأساسى فى تحديد هذه السن هو النضج ومدى توافره حتى يتمكن الطالب من الفهم والاستيعاب .

وإذا كان علماء المسلمين قد اهتموا بالسن التى يبدأ عندها تعليم السنة ، فقد اهتموا كذلك بالحد الذى يجب أن يتوقف عنده عن التعليم ، أما ما قيل بهذا الصدد ، فهو السن الذى يخشى عليه فيه من الهرم والخوف ، ويخاف عليه فيه أن يخلط ويروى ما ليس من حديث ، هذا كقاعدة عامة ، والناس فى بلوغ هذا السن يتفاوتون بحسب اختلاف أحوالهم . وهكذا إذا عمى وخاف أن يدخل عليه ما ليس من حديثه ، فعند ذلك يجب أن يتوقف .

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٣٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٨.

(٣) الرامهرمزى (الحسن بن عبد الرحمن) : المحدث الفاصل بين الراعى والداعى ، بيروت ، ١٩٨٤دار الفكر ، ط٣ ، ص ١٩٢ .

(٤) السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : فتح المغيث ، بيروت ، دار الإمام الطبرى ، ١٩٩٢ ، ط٢ ، ج٢ ، ص ١٤٥.

ولأن ابن خلاد قد جعل بداية التعليم عند سن الخمسين ، فلابد أن يعد بالسن الأقصى ، ومن هنا فقد جعله فى الثمانين " لأنه حد الهرم ، فإن كان عقله ثابتا ، ورأيه مجتمعا يعرف حديثه ويقوم به وتحرى أن يحدث احتسابا رجوت له خيرا "(١) .

والمسألة نسبية ، فقد ذكر ابن الصلاح عن عدد من معلمى السنة تجاوزوا هذا السن دون أن يعتزلوا ، منهم أنس بن مالك ، وسهل بن سعد ، وعبد الله بن أوفى ، من الصحابة ، ومالك ، والليث ، وابن عيينة ، وعلى بن الجعد ، فى عدد جم من المتقدمين والمتأخرين ، وفيهم غير واحد حدثوا بعد استيفاء مائة سنة ، منهم الحسن بن عرفة ، وأبو القاسم البغوى .

٢- ضرورة توافر شرط المظهر الحسن : فالمعلم يجلس أمام عدد من الطلاب ، أنظارهم متعلقة به ، مما يحتم عليه أن يكون على هيئة طيبة تريح الناظرين وتجعلهم يقبلون على سماع ما سوف يقول ، فالإنسان إنسان مهما كان ، ولنتنبه كيف لو أن أحدا قدم إلينا قطعة من اللحم على ورقة ملقاة فى الشارع ، لنفرنا منه ولتقبلنا شيئا أقل قيمة من آخر قدمه لنا على طبق نظيف ، وبطريقة مهذبة . وقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس" ولذا كانت النصيحة الأساسية لعلماء الإسلام هى : " أن يكون العالم أثناء عملية التعليم على أكمل هيئة وأفضل زينة ، ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التى تجعله عند الحاضرين من الموفقين "(٢). وقد روى عن عبد الله بن الحسن قال : كان لرسول الله ثوبان ينسجان فى بنى النجار ، وكان يختلف إليهما ، يقول : " عجلوا بهما علنا نتجمل بهما فى الناس " . كذلك روى عن عمر بن الخطاب قوله : " إنه ليعجبنى أن أرى القارئ النظيف " .

ومن آيات المظهر الحسن ، أن يستخدم المعلم السواك قبل عملية التعليم ، فقد روى عن على بن أبى طالب عن الرسول الكريم قوله : " إن أفواهكم طرق للقرآن فطهروها بالسواك " .

وكذلك (تقليم الأظافر) ، فقد حكى سليمان بن فروخ أبو الواصل أنه أتى أبا أيوب فصافحه فرأى فى أظافره طولا ، فقال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن خبر

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٣٩

(٢) عبد الكريم السمعانى : كتاب أدب الإملاء والاستملاء ، تحليل وتحقيق شفيق محمد زيعور ، بيروت ، دار إقرأ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٧ .

السماء فقال : "يسألنى أحدكم عن خبر السماء ، ويدع أظافره كأظفار الطير يجمع فيها الجنابة والتفث " .

وتهذيب الشعر عام هنا ، فقد روى ابن عمر أن النبى ﷺ رأى رجلا ثائرا شعر الوجه والرأس فقال النبى : " ما على هذا ؟ " فانطلق الرجل فجاء وقد أخذ من شعر لحيته ورأسه ، فلما رآه النبى ، قال : أليس هذا أحسن ؟ [(١)].

ثم هناك " استعمال الطيب " ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يكره أن يخرج الرجل إلى الصحابة تفل الريح [(٢)]، فكان يمسى من الليل طيبا، ثم يخرج إلى أصحابه .

والنظر فى المرآة ضرورى للاطمئنان على المظهر الحسن ، فعن ابن عمر أنه قال : إن رسول الله ﷺ كان ينظر فى المرآة وهو محرم وعن عائشة قالت كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب ، فخرج يريدهم ، وفى الدار ركوة فيها ماء ، فجعل ينظر فى الماء ويسوى شعره ولحيته ورأسه ، فقلت يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ فقال " إذا خرج أحدكم إلى إخوانه ، فليهيئ من نفسه ، فإن الله يحب الجمال " [(٣)]

٣ - **مراعاة أحوال الطلاب** : فقد وضع صحابة رسول الله وتابعوهم نصب أعينهم ما عليه الطلاب من أحوال حيث إنهم هم " الأوعية " التى ستتلقى فيض العلم والسنة ، فكانوا لا يعلمونهم إلا ما يتناسب مع قدراتهم ، ويشرحون الأحاديث ويوضحون الظروف التى قيل فيها الحديث لإدراكهم - كما سبق أن بينا - أن هذا يقرب معناه إلى أذهانهم يروى عن ابن مسعود أنه قال : " إن الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث ، فيكون عليه فتنة " ، وفى رواية عنه : "ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم "

وعن حماد بن زيد قال : قال أيوب : " لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم" [(٤)].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١

(٢) تفل تفلا ، بكسر الفاء : تغيرت رائحته ، ويقال : تفل فلان ، ترك الطيب فتغيرت رائحته المعجم الوسيط ، ج١ ، ص ٨٦ .

(٣) السمعانى : كتاب أدب الإملاء ، ص ٩٥

(٤) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، بيروت، دار الفكر ، ١٩٨٠ ، ط٣، ص١٥٤ .

وعن أبى طفيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : " أيها الناس ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ حدثوا بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون [١] .

٤ - **لا ينبغى أن يقوم المعلم بالتعليم وهناك من هو أجدر منه بذلك** : والمثل المعبر عن ذلك قولهم : " لا يفتى ومالك فى المدينة " ، وهذا يعنى أن يقوم بواجب التدريس من هو أحق بذلك من حيث العلم والقدرة ، وفى ذلك يقول ابن الصلاح أن إبراهيم والشعبى كانا إذا اجتمعا ، لم يتكلم إبراهيم بشىء ، وزاد بعضهم : تكره الرواية ببلد فيه من المحدثين من هو أولى منه لسنه أو لغير ذلك ، وروى عن يحيى بن معين قال : " إذا حدثت فى بلد فيه مثل أبى مسهر فيجب للحيتى أن تحلق " ، وعنه أيضا أنه قال : " إن الذى يحدث بالبلدة وفيها من هو أولى بالتحديث ، فهو أحمق" .

وينبغى لمعلم الحديث إذا التمس منه ما يعلمه عند غيره فى بلده أو غيره ، بإسناد أعلى من إسناده أو أرجح من وجه آخر ، أن يعلم الطالب به ويرشد إليه ، فإن الدين النصيحة ، ولا يمتنع من تحديث أحد لكونه غير صحيح النية ، فإنه يرجى له حصول النية من بعد [٢].

قال السيوطى فى الاقتراح : ينبغى أن يكون هذا عند الاستواء فيما عدا الصفة المرجحة ، أما مع التفاوت بأن يكون الأعلى إسنادا عاميا ، والأنزل عارفا ضابطا ، فقد يتوثق فى الإرشاد إليه لأنه قد يكون فى الرواية عنه ما يوجب خللا[٣] .

ثم يقول : الصواب ، إطلاق أن التحديث بحضرة الأولى ليس بمكروه ، وفى خلاف الأولى ، فقد استنبط العلماء هذا الرأى من أحد الأحاديث ، وقوله : سألت أهل العلم فأخبرونى أن الصحابة كانوا يفتون فى عهد النبى ﷺ ، وفى بلده ، وقد عقد محمد بن سعد فى الطبقات بابا لذلك ، وأخرج بأسانيد فيها الواقدى أن منهم أبا بكر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت. وروى البيهقى فى المدخل بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال لسعيد بن جبير : حدث ، قال : أحدث وأنت شاهد ؟ قال : أو ليس من نعم الله عليك أن تحدث وأنا شاهد ، فإن أخطأت علمتك ؟

---

(١) السمعانى : كتاب أدب الإملاء ، ص ١٣٣.

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٣٩.

(٣) جلال الدين السيوطى : تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ، تحقيق وتعليق ، عزت على عطية ، وموسى محمد على ، القاهرة ، دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٥ ، ج٢ ، ص ١٩٢.

والحق أن هذه مسألة بالفعل بحاجة إلى تدقيق الفهم وحسن الإدراك ، فإذا كانت القضية هى : من الذى يتصدى للتعليم ؟ فإن الإجابة بالقطع هى : الأعلم ، لكن عندما يتصدى هذا (الأعلم) للتعليم ، فليس معنى هذا أنه قد احتكر ما يعلم ، فللآخرين أن يناقشوا ويدلوا بآرائهم .

٥ - **ينبغى ألا تعلم السنة إلا لمن هو أهل لها** : وليس المقصود بهذا أن تحتكر السنة فى عدد من الناس ، وإنما المقصود به أن يكون هناك تناسب بين المادة المتعلمة وقدرات المتعلم ، وفى هذا انسجام تام مع ما يوجبه علماء القدرات العقلية فى العصر الحاضر ، وفى هذا يقول الزهرى : " ... وهجنت نشره (أى الحديث) عند غير أهله" [(١)].
وكان الأعمش يرى أن إضاعة الحديث التحديث به عند غير أهله ، وكثيرا ما كان يقول: " لا تنثروا اللؤلؤ على أظلاف الخنازير " ، أى لا تحدثوا الحديث لغير أهله .

ورأى الأعمش شعبة بن الحجاج يحدث يوما ، فقال له : ويحك يا شعبة ، أتعلق الدر فى أعناق الخنازير ؟ قال ابن سعيد : حدثنى الشعبى بحديث .. فرويته عنه فأتاه قوم فسألوه عنه فقال : ما حدثت بهذا الحديث قط ، فأتونى فأتيته ، فقلت : أو ما حدثتنى ؟ قال : أحدثك بحديث الحكماء ، وتحدث به السفهاء ؟ وكان يقول : إنما كان يطلب العلم من جمع النسك والعقل ، فإن كان عاقلا بلا نسك ، قيل : هذا لا يناله ، وإن كان ناسكا بلا عقل ، قيل هذا أمر لا يناله إلا العقلاء [(٢)].

ومن أجل التأكد من أهلية الطالب ، لجأ بعض العلماء المسلمين إلى اتخاذ عدد من أساليب الحيطة والحذر ، وروى عمرو بن المهلب الأزدى قال : " كان (ابن قدامة) لا يحدث أحدا حتى يمتحنه ، فإن كان غريبا قال له : من أين أنت ؟ وإن كان من أهل البلد قال : أين مصلاك ؟ ويسأل كما يسأل القاضى عن البينة ، فإذا قال له ، سأل عنه، فإن كان صاحب بدعة ، قال : لا تعودن إلى هذا المجلس ، فإن بلغه عنه خير أوفاه وحدثه فقيل له : يا أبا الصلت ، لم تفعل هذا ؟ قال : أكره أن يكون العلم عندهم يصيروا أئمة يحتاج إليهم فيبذلوا كيف شاءوا " [(٣)].

٦ - **الوفاء بالمواعيد المحددة للتدريس** : إننا لعمرى هنا بإزاء آفة يتحدث عنها كل الناس الذين لهم صلة بالتعليم ، وخاصة الجامعى ، ويشكو منها طلاب كثيرون ،

---

(١) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

فبعض الأساتذة يفهمون الحرية التى تكفلها الحياة الجامعية بأن من معانيها أن يحضر الأستاذ المحاضرة أو لا يحضرها ، وقد يكون مضطرا إلى ذلك لكثرة المشاغل ، لكننا نجد للعلماء المسلمين حديثا فى هذا الشأن يجعل الموعد المتفق عليه بين المعلم والطلاب أمرا مقدسا لا ينبغى الإخلال به ، وفى ذلك يروون عن رسول الله ﷺ قوله : " اكفلوا لى ستا أكفل لكم الجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم " (١).

وروى عن عبد الله بن الحمساء قال : بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث فبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، قال : فنسيت يومى والغد ، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ، قال : فقال : يا بنى ؛ لقد شققت على ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك !!

كذلك ، عن أنس أنه قال : قال رسول الله : الوعد ، الرق ، فإذا وعد أحدكم أخاه فليلتمس العتق . وسأل أحدهم أحمد بن حنبل : كيف تعرف الكذابين ؟ قال : بمواعيدهم . ونصح سليمان بن داود ابنه قائلا : يا بنى ، إذا وعدت فلا تخلف ، فتستبدل بالمودة بغضا ، وفى ذلك قال شاعر عربى(٢) :

إذا اجتمع الآفات ، فالبخل شرها ... وشر من البخل المواعد والمطل

فلا خير فى قول إذا كان كاذبا ولا ... خير فى قول إذا لم يكن فعل

٧ - **البعد عما يؤدى إلى إملال الطلاب** : فقد نصح المربون المسلمون بألا يطيل المعلم مجلس التعليم ، بل يجعله متوسطا ، حذرا من أن يسأمه الطلاب ، وأن يؤدى ذلك إلى فتورهم عن التعلم وكسلهم ، فقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : من أطال الحديث وأكثر القول ، فقد عرض أصحابه للملال وسوء الاستماع ، ولأن يدع من حديثه فضلة يعاد إليها ، أصلح له أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له (٣) .

ويعد نشاط الطالب وإيجابيته من الأسس التى حرص عليها المحدثون فى إعدادهم العلمى للطلاب ، وذلك حتى يظل الطالب متيقظ الذهن ، متفتح المدارك ،

---

(١) السمعانى ، كتاب أدب الإملاء ، ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

يستطيع أن يسمع ويفهم ويحفظ ، وقد حاولوا تحقيق ذلك فى دروسهم باستخدام وسائل مختلفة ، منها عدم إطالة وقت الدرس وذلك حتى لا يشعر الطالب بالملل ، ويصل إلى درجة ركود وكد ذهنى لا يمكنه من مواصلة درسه بفاعلية ونشاط ، ولذلك فضلوا أن يكون وقت الدرس مناسبا ، وإذا تبقى شىء يعود إليه المعلم فى الدرس التالى(١).

ولقد عرضنا لبعض المواقف النبوية الكريمة فى هذا الشأن من قبل ، ومن هنا نجد ابن عباس يقول لأحد من طلبوا منه النصيحة حتى يحسن تعليم الحديث للناس ، قال : حدث الناس كل جمعة ، فإن أنت أوتيت فمرتين ، فإن أوتيت فثلاث مرات ، ولا تملل الناس ، فتقطع عليهم حديثهم أن تملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهون (٢) .

ومن هنا وجب العمل على تنويع أساليب التعليم ، وكذلك موضوعاته ، ولهذا نصح بإدخال بعض الحكايات والنوادر ، حتى يرفه المعلم عن الطلاب ، ويجدد نشاطهم، فقال على بن أبى طالب : "روّحوا القلوب ، وابتغوا لها طرف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان " . وروى عن رسول الله ﷺ أنه كان يحدث أصحابه عن أمر الآخرة ، فإذا رآهم قد كسلوا ، يعرف ذلك فى وجوههم ، أخذ بهم فى أحاديث الدنيا. كذلك عن مكحول أنه قال : كان عمر رضى الله عنه يحدث الناس ، فإذا رآهم قد تثاءبوا وملوا ، أخذ بهم فى غراس الشجر (٣) .

وكان الصحابة أحيانا يتناولون فى مجالسهم بعض الشعر وأيام الجاهلية ليسروا عن أنفسهم فيبدلوا الموضوع ليستعيدوا نشاطهم ، فعن أبى خالد الدالى قال : كنا نجالس أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أيامهم فى الجاهلية " (٤). وكان الزهرى يحدث ثم يقول : " هاتوا من أشعاركم ، هاتوا من

---

(١) عبد المعطى محمود عبد المعطى أبو طور : معالم تربية المحدثين فى القرن الثالث ، رسالة ماجستير ، القاهرة ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٩٨ ، ص ١٢٢ .

(٢) السمعانى : كتاب أدب الإملاء ، ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ضبط عبد الرحمن محمد عثمان ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ١٩٦٨ ، ط٢ ، ج١ ، ص ١٠٥ .

أحاديثكم ، فإن الأذن مجاجة ، وإن للنفس حمضة " [1]. ويروى عن ابن عباس أنه كان يقول : " إذا فاض من عنده بالحديث بعد القرآن والتفسير ، " احمضوا ، أى خوضوا فى الشعر وغيره " [2].

آداب تعلم السنة :

ليست القواعد والمبادئ أساسية بالنسبة لمن يقوم بمهمة (التعليم) وهو المعلم فحسب ، ولكنها لا تقل عن ذلك أهمية بالنسبة لمن يقوم بمهمة (التعلم) وهو الطالب، ومن هنا فقد اهتم العلماء والفقهاء والمربون الإسلاميون بوضع القواعد والمبادئ والآداب التى ينبغى أن يسير عليها كل من يبغى تعلم السنة النبوية ، وذلك حتى يؤتى تعلمه أكله المرجو من ذلك :

١ - **بذل الجهد فى تحصيلها** : فعلى قدر ما عليه هذا المبدأ من بساطة ظاهرية ، إلا أنه من الناحية التربوية على قدر عال من الأهمية ، ذلك أنه يتضمن عنصر (الإيجابية) ، و (الفاعلية) من جانب الطالب ، فذلك أدعى إلى حسن التعلم وجودة التحصيل ، بل إن ذلك هو السبيل إلى أن تمتزج المعلومات التى يحصل عليها طالب العلم بقيمه واتجاهاته وميوله ، فتكتسب مزيدا من القدرة على التأثير على سلوكه ، ولهذا ركز العلماء المسلمون على ضرورة بذل الجهد فى سبيل تحصيل السنة ، فقال ابن الصلاح : " وإذا أخذ فيه (الحديث) فليشمر عن ساق جده واجتهاده " ، ونقل السيوطى عن صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز " [3].

وقال يحيى بن أبى كثير : لا ينال العلم براحة الجسم . وقال الشافعى : لا يطلب العلم من يطلبه بالتململ وغنى النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح . ويجب ألا يتبادر أن المقصود هنا هو أن طلب العلم يؤدى إلى الانكسار وضعف الشخصية ، وإنما المقصود هو ألا يستنكف طالب العلم من بذل مختلف الجهود للوصول إلى المعرفة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ١٥٧ .

(٣) محمد محمد السماحى : المنهج الحديث فى علوم الحديث ، القاهرة ، مطبعة الأزهر ، ١٩٥ ، ص ٢٦٨ .

ومن المفضل لطالب العلم أن يسعى لاستيعاب ما يقرأ أو يسمع كاملا دون (انتقاء) لأجزاء وترك أخرى ، قال ابن المبارك : " ما انتخبت على عالم قط إلا ندمت"، وروى عن يحيى بن نعيم أنه قال : " سيندم المنتخب فى الحديث حين لا تنفعه الندامة "(1) .

لكن ، إذا ضاقت به الحال عن الاستيعاب واحتاج إلى الانتقاء والانتخاب ، تولى ذلك بنفسه إن كان أهلا مميزا عارفا بما يصلح للانتقاء والاختيار ، وإن كان قاصرا عن ذلك استعان ببعض الحفاظ ليقوم بمهمة الانتقاء له ، وقد كان جماعة من الحفاظ متصدين للانتقاء على الشيوخ والطلبة تسمع وتكتب بانتخابهم ، منهم إبراهيم بن أرمة الأصبهانى ، وأبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بعُبيد العجل ، وأبو الحسن الدارقطنى ، وأبو بكر الجعابى .

ويرتبط بذل الجهد ارتباطا وثيقا " بحسن النية " ، هذا الشرط الأساسى فى كل الأعمال التى يشرع المسلم فى سلوكها ، وفقا لقول المصطفى ﷺ " الأعمال بالنيات" ، وطلب العلم ربما يكون فى مقدمة الأعمال التى اشترط فيها علماء السنة من طالبها أن يحسن نيته فى طلبها بأن يقصد بذلك وجه الله تعالى ، والعمل بها ، وإحياء الشريعة ، وتنوير قلبه وتحلية باطنه ، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله (2).

وقد روى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا ، لن يجد عرف الجنة يوم القيامة " (3) .

وقال ابن الصلاح : ومن أقرب الوجوه فى إصلاح النية فيه ، ما روينا عن أبى عمرو بن نجيد أنه سأل أبا جعفر بن حمدان ، وكانا عبدين صالحين ، فقال له : بأى نية أكتب الحديث ؟ فقال : ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ؟ قال : نعم ، قال : فرسول الله ﷺ رأس الصالحين (4).

---

(1) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٤٩ .

(2) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم ، فى : أحمد عبد الغفور عطار ، آداب المتعلمين ، ورسائل أخرى فى التربية الإسلامية ، بيروت ، د.ن ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠٦ .

(3) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم

(4) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٢٠٧ .

ومن هنا فـقد أبرز " ابن جـماعـة " هذا الشرط ضـمن الآداب التى أوجب أن يتحلى بها طالب العلم ، ونقل عن سفيان الثورى قوله : ما عالجت شيئا أشد على من نيتى ، ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحـصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له وتصـديره فى المجالس ونحـو ذلك ، فيـستبـدل به الأدنى بالذى هو خير .

ونقل أيضا عن أبى يوسف قوله : يا قوم ، أريدوا بعلمكم الله تعالى ، فإنى لم أجلس قط أنوى فيـه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتـضح ، والعلم عبادة من العـبادات وقربة من القرب ، فإن خلصت فيه النية قبل وزكا ونمت بركته ، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضـاع وخسرت صفقتـه ، وربما تفوته تلك المقاصد ولا ينالها فـيخيب قصده ويضيع سعيه [١].

وتأكيدا لواجب الكد وبذل الجهد فى تحصيل العلم كتب ابن الجوزى : " تأملت عجبا ، وهو أن كل شىء نفيس خطير يطول طريقـه ، ويكثر التعب فى تحصيله ، فإن العلم لما كـان أشرف الأشـياء لم يحـصل إلا بالتعب والسـهر والتكرار وهجـر اللذات والراحـة ، ولذلك قال ابن القـيم : " وأمـا سعـادته فـلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية ، وقد أحسن القائل فى ذلك [٢]:

فقل لمرجى معالى الأمور   بغير اجتهاد رجوت المحالا

ومن مظاهر الجدية فى طلب علم الحـديث أن يكثر الطالب التردد على مـجالسه دون فـتور ، ولذلك قـالوا : " إذا جـاء الرجل يطلب الحـديث ولم يجئ فى المجلس الآخر ونعله معلقة فى يده فأيس من خيره "[٣] ، ومعنى ذلك أن طالب الحديث إن لم يكثر المجىء والذهاب والمواظبة على حضور مجالس الحـديث فلا خير فيه . ومما يصور حال المحـدثين من ناحيـة الجد والاجتـهاد فى طلب العلم نـصيحـة السمعـانى لطلاب الحديث عن طريق الإملاء البكور " خوفا من فوات المجلس بتـأخير الحضور وأن يتعذر

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢٠٥ .

(٢) عادل بن عبد الله السعيدان : إيقاظ الهـمة لطلب علم الكتاب والسنة ، القاهرة ، مكتب التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامى ، ١٩٩٠ ، ط٢ ، ص ٢٢ .

(٣) الخطيب البـغـدادى : الجـامع لأخـلاق الراوى وآداب الـسـامع ، الرياض ، مكتـبـة المعـارف ١٩٨٣، ص ١٥١

عليه مع ذلك إعادته من قبل شيخ لعل التمنع عادته ، مستعملا فى فعله ما يأثره الراوون عن سفيان بن عيينة ويزيد بن هارون " [1] .

٢- **حسن اختيار المعلم** : ولعل من مميزات التربية الإسلامية حقا من حيث التطبيق ، لا مجرد الفكر والنظرية ، أن المعلم لا يفرض على الطلاب ، وإنما هم الذين يختارونه ، وفى ذلك تحقيق هدفين هامين : الأول ، أن الطالب لن يقبل إلا على من يرتاح له ويستفيد منه ، وبالتالى يتوافر العنصر الأساسى فى حسن التعلم وجودة التحصيل ، الثانى : أن فى ذلك محكا خطيرا للمعلمين ، فمن سيقبل عليه الطلاب ستثبت أحقيته بالتعليم وجدارته بالتدريس ، ومن ثم فلا يستطيع أن يثبت فى الميدان المعلمون الضعفاء علما الأدنى خلقا .

من أجل هذا نصح العلماء طالب السنة بالسماع من (أسند شيوخ مصره) ، أى أكثر الأساتذة تخصصا وعلما وفهما للموضوع الذى يسعى طالب المعرفة إلى تحصيله والإحاطة به فيما يقول ابن الصلاح [2] ، محكما فى ذلك المعايير المعروفة فى اختيار المعلمين ، سواء فى ذلك المعايير الاجتماعية أو الخلقية أو التربوية ، فإذا حصل على ما يستطيع من معلم عظيم ، ولم يجد بالبلدة آخر ، فليرحل وراء عظماء المعلمين أينما كانوا ، قال السيوطى : " ويبدأ بأفرادهم ، فمن تفرد بشىء أخذه عنه أولا "[3] .

ومن الشروط التى نصح ابن جماعة طالب العلم أن يراعيها فيمن يختار من المعلمين الذين يأخذ السنة عنهم " ممن كملت أهليته ، وتحققت شفقته ، وظهرت مروءته ، وعرفت عفته ، واشتهرت صيانته ، وكان أحسن تعليما وأجود تفهيما "[4] . ثم إنه يحذر الطالب ألا يرغب فى زيادة العلم مع نقص فى ورع أو دين أو عدم خلق طيب ، فعن بعض السلف : " هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم " . ومن هنا كان من الأسس التى يبنى عليها الطالب اختياره لمعلمه : ارتفاع المستوى الأخلاقى للمعلم " العدالة " ، فمعلم الحديث ينبغى أن يمثل النموذج للشخصية

---

(١) السمعانى : كتاب أدب الإملاء ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٤٦ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .

(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢١٣ .

الإسلامية فى علاقته بربه وعلاقته بمجتمعه ، وبالتالى لابد أن يكون صحيحا " فى بيعه وشرائه وأمانته ورد ودائعه ، وإقامة الفرائض وتجنب المآثم "(١).

ولا شك أن اهتزاز أى معيار من معايير أخلاقيات المعلم فى أى شأن من شئون الحياة يؤدى مباشرة إلى امتناع الطلاب عن الجلوس أمامه (٢).

ومن الوسائل التى استخدمها الطلاب للتأكد من المستوى الأخلاقى للمعلم : الملاحظة المباشرة لأحوال المعلم : " كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن رجل نظروا إلى صلاته وإلى سمته وهيئته " (٣) ومنها أيضا السؤال الدقيق عن أحواله : " كنا إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال لنا : أتريدون أن تزوجوه ؟ "(٤).

كذلك حذر ابن جماعة من التقيد بالمشهورين وحدهم ، فقد عد الغزالى وغيره ذلك من الكبر على العلم وجعله عين الحماقة ، لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، ويغتنمها حيث ظفر بها . إن المؤمن يخاف الجهل خوفا شديدا ، كما يخاف الإنسان عامة من الأسد ، وإذا كان الخائف من الأسد لا يدفع عنه أى نصيحة أو فكرة لأحد تفيده فى الخلاص من الأسد ، كذلك بالنسبة للجهل ، يمسك بكل معلومة يمكن أن يكتسبها من أحد (٥).

٣ - **مداومة المذاكرة** : فمن المعروف عن الإنسان أنه سريع النسيان ، ومن ثم فإن الاكتفاء بمجرد السماع عن المعلم لا يكفى فى حد ذاته لأن يحتفظ المتعلم بما تعلم ، وإنما لابد من مداومة المذاكرة بعد انتهاء الوقت المخصص للتعليم ، حيث كان المعلمون يخصصون أوقاتا معينة يحددونها للطلاب بعد صلاة الفجر مثلا حتى الضحى ، أو بين الظهر والعصر ، حتى إذا انتهوا من ذلك بدأوا يذاكرون ما تعلموه ، وفى ذلك يقول أنس : " كنا نكون عند النبى ﷺ فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه " (٦).

---

(١) الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ، بيروت ، المكتبة العلمية ، د.ت ، ص٩٣.

(٢) عبد المعطى محمود : معالم تربية المحدثين ، ص ١١٦.

(٣) عن : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ، ص ٩٣.

(٥) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢١٣ .

(٦) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٦٠.

وكان التابعون وأتباعهم يذاكرون حديث رسول الله ﷺ جماعات وأفرادا ، عن أبي صالح السمان ، قال : حدثنا ابن عباس يوما بحديث فلم نحفظه فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه · وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عطاء قال : " كنا نكون عند جابر ابن عبد الله فيحدثنا ، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه " · وعن مسلم البطين قال: " رأيت أبا يحيى الأعراج - وكان عالما بحديث ابن عباس - اجتمع هو وسعيد بن جبير في مسجد الكوفة ، فتذاكروا حديث ابن عباس " · وقال مرة عبد الرحمن بن أبي ليلى : " إحياء الحديث مذاكرته ، فتذاكروه ، فقال عبد الله بن شداد : يرحمك الله ! كم من حديث أحييته من صدرى قد كان مات " [1].

وكان بعضهم يتخذ التحديث بما سمع وسيلة إلى حفظه ، فإذا لم يجد من يحدثه حدث خادمه أو بنيه ، وفي هذا يروى عن الإمام الزهرى أنه كان يبتغى العلم من عروة وغيره ، فيأتى جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها : حدثنى فلان بكذا وفلان بكذا ، فتقول : مالى ولهذا ؟ فيقول : قد علمت أنك لا تنتفعين به ولكن سمعت الآن فأردت أن أستذكره · ولا يجد إسماعيل بن رجاء من يذاكر الحديث معه فيجمع غلمان المكاتب ويحدثهم كيلا ينسى حديثه [2].

ومن هنا فقد طلب ابن جماعة من طالب العلم أن يقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقى من عمره ، فإن بقية العمر لا قيمة له ·

ورأى ابن جماعة أن أجود الأوقات للحفظ ، الأسحار ، وللبحث الأبكار ، وللكتابة وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة الليل ، واستشهد بقول الخطيب : أجود أوقات الحفظ الأسحار ، ثم وسط النهار ، ثم الغداة ، قال : وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع · قال : وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بعيد عن الملهيات[3]

لكن مما يجب التأكيد عليه ، أن المسألة في كثير من الأحيان تخضع للظروف والملابسات والعادات الخاصة بكل متعلم ، ومن ثم تحكمها النسبية من حيث واقع الحال وإمكان العمل ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢٠٨ .

ومما يجب ملاحظته هنا ، التزام المعلم بما نسميه اليوم بالعلاقات الإنسانية ، ذلك أنه لشدة حرص الطلاب على حضور حلقات تعليم الحديث ، كانوا يداومون على ذلك، وبالتالى ، كان المعلم يعرف جميع الطلاب بأسمائهم ، فإذا ما تغيب أحدهم ، لفت ذلك انتباهه ، فيسأل زملاءه عنه ، بل وربما أرسل إلى المتغيب واحدا منهم ليعرف حقيقة الامر ، إذا لم يكن بينهم من يعرفه .

٤ - **التطبيق العملى** : الدين المعاملة ، ذلك هو الحق الذى ينبغى أن نضعه نصب أعيننا ، وهذا يعنى أن ما يتعلمه الطلاب من السنة النبوية ، على عظمته وقيمته التى يشق علينا أن نصل إلى الإحاطة بها جميعا ، ليس هدفا فى حد ذاته ، وإنما الغرض من تعلمها ، أن نغير من سلوكنا ، ولن يتم هذا إلا بالتطبيق العملى لما نتعلمه، فقد روى عن العبد الصالح بشر بن الحارث الحافى أنه قال : يا أصحاب الحديث ، أدوا زكاة هذا الحديث ، اعملوا من كل مائتى حديث بخمسة أحاديث [١] وقد استعان السيوطى بأقوال عدد من العلماء تأكيدا لضرورة العمل بما يحمله الحديث النبوى من مضامين ، فمن ذلك [٢]:

قول إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به .

وقال عمرو بن قيس المُلائى إذا بلغك شىء من الخير فاعمل به ولو مرة ، تكن من أهله .

وقال وكيع : إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به .

وقال أحمد بن حنبل : ما كتبت حديثا إلا وقد عملت به ، حتى مر بى أن النبى ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا ، فاحتجمت وأعطيت الحجام دينارا !

٥ - **التزام الدقة والحرص فيما يتعلم** : ذلك لأن محبة تعلم السنة ، تدفع المتعلم إلى السعى وراء مظانها المختلفة ، وهنا من المحتمل أن يقع الطالب فى خطأ غير هين ، وهو أن يتعلم أحاديث لا تتوافر فيها الشروط والمواصفات المتفق عليها ، ومن هنا قال ابن الصلاح : ولا يحملنه الحرص والشدة على التساهل فى السماع والتحمل والإخلال بما يشترط عليه فى ذلك . وقال السيوطى : فإن شهوة السماع لا تنتهى ونهمة الطالب لا تنقضى ، والعلم كالبحار التى يتعذر كيلها ، والمعادن التى لا ينقطع نيلها [٣] .

---

(١) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

ومن مظاهر التزام الدقة ، ذلك الحرص الشديد على تلقى الحديث من الثقات ، فقد روى من طريق عياش بن عباس عن واهب بن عبد الله المعافرى قال : قدم رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار على مسلمة بن مخلد فألفاه نائما ، فقال : أيقظوه، قالوا : بل نتركه حتى يستيقظ ، قال : لست فاعلا ، فأيقظوا مسلمة ، فرحب به ، وقال : انزل ، قال : لا ، حتى ترسل إلى عقبة بن عامر لحاجة لى إليه ، فأرسل عقبة فأتاه فقال : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من وجد مسلما على عورة فستره فكأنما أحيا موءودة من قبرها ؟» قال عقبة : قد سمعت رسول الله يقول ذلك[1].

ومن صور الدقة (التسجيل) و (التدوين) ، فلربما ذهبت الذاكرة بما سمع ، وربما احتاج إلى نصوص فى مناقشة أو نقد يتعلق بالموضوع ، ومن هنا تجىء حكمة ما سبق أن أشرنا إليه من النصح بعدم " الانتقاء " فيما يسمع ويدون ويكتب ، لذا نجد النواوى يقول : " وليكتب وليسمع ما يقع له من كتاب أو جزء بكماله ولا ينتخب " ، أى لا يقتصر على تسجيل جزء دون آخر ، يقول السيوطى فى شرحه : " فربما احتاج من ذلك إلى رواية شىء منه لم يكن فيما انتخبه فيندم " ، فليست المسألة إذا أن النصيحة تعلقت بأن يجمع الطالب (كل ما هب ودب) ، وإنما التسجيل الكامل لكل هذه المبررات .

٦ - **تقدير المعلمين واحترامهم** : وتلك نتيجة منطقية للمبدأ السابق الذى بينا فيه أن الطالب هو الذى يختار (الأستاذ) ، إذ إن هذا يؤدى بطبيعة الحال إلى أن يحظى المعلم بحب تلاميذه وتقديره واحترامهم ، وذلك مبدأ أساسى فى التعلم والتعليم ، لأن الإنسان عادة لا يتعلم إلا ما يشعر بقيمته ، وإذا فقد المعلم تقدير تلاميذه واحترامهم ، قل شعورهم بأهمية ما يعلمهم إياه ، وفى ذلك يقول ابن الصلاح : " وليعظم شيخه ومن يسمع منه ، فذلك من إجلال الحديث والعلم ولا يشق عليه ولا يطول بحيث يضجره ، فإنه يخشى على فاعل ذلك أن يحرم الانتفاع " [2].

وبلغ حرص طلاب السنة على مشاعر الأساتذة والمعلمين واحترامهم أن ابن عباس، وهو ما هو عليه مما نعلمه من القرابة لرسول الله ﷺ ، أنه كان يذهب إلى من عنده علم السنة ويظل منتظرا بباب المنزل حتى دون أن يطرق الباب ، إلى أن تتيح الفرص للعالم أن يشعر به فيدعوه للدخول !

---

(١) السيوطى : تدريب الراوى (طبعة المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ١٩٥٩) ، ج٢ ، ص ١٤٣

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٤٧ .

ويدخل فى باب الاحترام والتقـدير ، ما ينصح به على بن أبى طالب " الا تكثر عليه بالسـؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، ولا تـلح عليه إذا كسل ، ولا تأخـذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله مـا دام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم لخدمته "(١).

ويلفت نظرنا إلى هذا النص الهام لعلى بن أبى طالب ، أن احترام المعلم وتقديره لا يعنى بأى حال من الأحوال أن يلجأ الطلاب إلى تلك الوسائل والأساليب التى تشيع فيها روح التـملق والنفاق ، فتملق المعلم لا يعنى احتـرامه ، لكن هذا أيضا لا يعنى أن يتباعد الطلاب عن أسـاتذتهم فلا يقدمون لهم يد العون فيما قـد يكونون بحاجة إليه . ولا شك أن بين هذا وذاك شعرة دقـيقة ، بين تملق الأستاذ وبين خـدمته ، وذلك يرجع إلى حسن تقدير كلا الطرفين .

قـال البخـارى : مـا رأيت أحدا أوقـر للمـحدثين من يحـيى بن مـعين ، وفى الحديث: تواضعـوا لمن تتعلمون منه ، رواه البـيهقى مرفوعـا من حديث لأبى هريرة ، وضعفه وقال : الـصحيح وقفه على عمر ، وأورد فى الباب حـديث عبادة بن الصامت مرفـوعا : " ليس منا من لم يجل كبـيرنا ويرحم صغـيرنا ، ويعرف لعـالمنا" . قال : سمـعت السلف يقولون : من لا يعـرف لأستاذه لا يفلـح (ويتحرى رضـاه) ويحذر سخطه " ولا يطيل عليه بحيث يضجره " ، بل يقنع بما يحدثه به ، فإن الإضجار يغير الأفهام ويـفسد الأخلاق ، ويحـيل الطباع . وروى عن ابن سيرين أنه سـأل رجلا عن حديث ، وقد أراد أن يقوم ، فقال : " إنك إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما سرك منى من خلق " (٢).

ومن الملاحظ وجود وفرة فـى الكتابة عن وجوب احترام الطلاب لمعـلميهم ، مما يعد مؤشرا على أولوية هذه القضية ، فمن ذلك ما روى عن أن ابن عباس ، مع جلالته ومرتبته الـتى أشرنا إليها ، كان يأخذ بركـاب زيد بن ثابت الأنصارى ، ويقول : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . وقال أحمد بن حنبل لخلف الأحمر : لا أقعد إلا بين يديك ،

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث (طبعة المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ، ١٩٦٦) ، ص ٢٢٣

(٢) السيوطى : تدريب الراوى ، طبعة المدينة المنورة ، ص٣٤٨ ، هامش (١) .

أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه ، ووصل الأمر بالشافعى أن يروى أنه كان يصفح الورقة بين يدى مالك صفحا رقيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها ، وكذلك قال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلى هيبة له ![1]

وحضر بعض أولاد الخليفة المهدى عند شريك ، فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث ، فلم يلتفت إليه شريك ، ثم عاد ، فعاد شريك بمثل ذلك ، قال : تستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال : لا ، ولكن العلم أجل عند الله من أن أضيعه [2].

٧ - **إشاعة ما يتعلمه الطالب** : وذلك مبدأ آخر من المبادئ التربوية الهامة ، وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل فى فصل سابق ، وهذا فى حد ذاته يحمل دلالة على أهمية الموضوع ما دام العلماء المسلمون يكررونه ويلحون عليه فى مناسبات مختلفة ولعمرى، فهذا ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات عصرنا الحاضر " جماهيرية العلم " و " شعبيته " ، بمعنى الا يقتصر على قلة تحتكر العلم وتدعى به الرفعة والسمو بين الناس ، يصيرون به " أرستقراطية " ، ولو أنها ليست فى منزلة غيرها من صور الأرستقراطية المرذولة ، إلا أنها " مكروهة " على أية حال ، ومن ثم ، فإن طالب السنة مطالب بألا يتكتم ما تعلم ، بل لابد من إذاعته ونشره ، حتى تعم الفائدة . قال فى ذلك ابن الصلاح : " ومن ظفر من الطلبة بسماع شيخه فكتمه عنهم كان جديرا بألا ينتفع به ، وذلك من اللؤم الذى يقع فيه جهالة الطلبة الوضعاء ، ومن أول فائدة الحديث . . الإفادة " .

وروى أيضا عن مالك أنه قال : من بركة الحديث إفادة بعضهم بعضا ، وروى كذلك عن إسحق بن إبراهيم بن راهويه أنه قال لبعض من سمع منه فى جماعة : انسخ من كتابهم ما قد قرأت ، فقال : إنهم لا يمكنوننى ، قال : إذا - والله - لا يفلحون . قد رأينا أقواما يمنعون هذا السماع ، فوالله ما أفلحوا ولا أنجحوا [3]. وروى ابن عبد البر ، قال ، عن داود عمربن زهير العنبى ، قال : سمعت فضيل بن عياض يقول : أول العلم ، الإنصات ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلى بثلاث ، إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينسى ، أو يتبع السلطان . وروى الخطيب فى ذلك بسنده عن ابن عباس رفعه :

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) ابن الصلاح ، علوم الحديث ، طبعة المدينة المنورة ، ص ٢٢٤ .

"إخوانى ، تناصحوا فى العلم ، ولا يكتم بعضكم بعضا ، فإن خيانة الرجل فى علمه أشد من خيانته فى ماله"(١) .

٨ - **دراسة أسباب ورود الحديث** : وهذا مماثل لما هو معروف فى علوم القرآن ، بعلم أسباب النزول ، أى الظروف والملابسات والمواقف التى نزلت فيها الآية أو الآيات القرآنية المجيدة ، على أساس أن الوعى بهذه المتغيرات يوفر فهما أعمق ، فهى أشبه "بالمذكرة التفسيرية " التى تصاحب أحكام القضاء ، فدراسة الأسباب التى قيل فيها الحديث تربطه بالخبرة التى هى أصله ، وتصل بالضرورة إلى حسن العمل به ، وهو هدفه ، وبذلك تتوثق الصلات والروابط بين المعرفة والخبرة والمستقبل ، فما من حديث إلا وقيل لمناسبة ، وما من حديث إلا وقد قيل حلا لمشكلة وإزالة غموض لابس موقفا .

وأسباب النزول والورود - وهى من البيان النبوى - هى كذلك أشبه ما تكون بوسائل إيضاح ، لتنزيل النص على الواقع ، ولتكون أداة معينة على التنزيل فى كل زمان ومكان ، لكن هذه الوسائل من أسباب النزول والورود ، لا تعتبر قيدا للنص ، تجمده فى نطاق المناسبة ، بمقدار ما تمنح من فقه للتنزيل على الواقع ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ذلك أن أسباب النزول والورود ، أو البيان النبوى ، هو أشبه بالتجربة المخبرية فى العلوم التجريبية ، التى تعتبر الأساس للانطلاق منها ، والتصنيع فى ضوئها ، واعتمادها فى التطبيقات المختلفة والمتعددة ، داخل المجتمع التى تعتمد جميعها تلك التجربة المخبرية ، ولا تخرج عليها (٢).

إن الناظر المتعمق يجد أن من الحديث ما بنى على رعاية ظروف معينة خاصة ليحقق مصلحة معتبرة ، أو يدرأ مفسدة معينة . ومعنى هذا أن الحكم الذى يحمله الحديث ، قد يبدو عاما ودائما ، ولكنه عند التأمل مبنى على علة ، يزول بزوالها كما يبقى ببقائها ، وهذا يحتاج إلى فقه عميق ونظر دقيق ، ودراسة مستوعبة للنصوص ،

---

(١) قال ابن الجوزى : موضوع ، تفرد به عبد القدوس بن حبيب عن عكرمة ، وتعقبه السيوطى بأن له طرقا أخرى عن ابن عباس ، فأخرجه الطبرانى من طريق سعد عن عكرمة عن ابن عباس ، قال الهيثمى : رجاله موثوقون ، وأبو سعد هو البقال : مسعد بن المرزبان ، صدوق مدلس ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية برجال اختلف فى توثيقهم ، كما ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة . انظر السيوطى : تدريب الراوى ، ص ٣٤٩ .

(٢) عمر عبيد حسنة : تقديمه لكتاب : محمد رافت سعيد : أسباب ورود الحديث ، الدوحة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، سلسلة كتاب الأمة (٣٧) يناير ١٩٩٤ ، ص ١٧ .

وإدراك بصير لمقاصد الشريعة وحقيقة الدين ، مع شجاعة أدبية ، وقوة نفسية للامتثال إلى الحق ، وإن خالف ما ألفه الناس وتوارثوه ، وليس هذا بالشيء الهين ، مثال ذلك حديث " أنتم أعلم بأمر دنياكم " الذى يتخذ منه البعض تكأة للتهرب من أحكام الشريعة فى المجالات الاقتصادية والمعرفية والسياسية ونحوها ، لأنها - كما زعموا - من شئون دنيانا ، ونحن أعلم بها ، وقد وكلها الرسول إلينا ، وليس هذا ما يعنيه الحديث الشريف[1] .

ذلك أن مما أرسل به الله به رسله ، أن يضعوا للناس قواعد العدل وموازين القسط ، وضوابط الحقوق والواجبات فى دنياهم ، حتى لا تضطرب مقاييسهم وتتفرق بهم السبل، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .... ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] . ومن هنا جاءت نصوص الكتاب والسنة التى تنظم شئون المعاملات من بيع وشراء وشركة ورهن وإجارة وقرض وغيرها ، حتى أن أطول آية نزلت فى كتاب الله ، نزلت فى تنظيم كتابة الديون . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة] .

والحديث " أنتم أعلم بأمر دنياكم " يفسره سبب وروده ، وهو قصة تأبير النخل وإشارته عليه الصلاة والسلام عليهم برأى ظنى يتعلق بالتأبير ، وهو ليس من أهل الزراعة ، وقد نشأ بواد غير ذى زرع ، فظنه الأنصار وحيا أو أمرا دينيا ، فتركوا التأبير، فكان تأثيره سيئا على الثمرة ، فقال : " إنما ظننت ظنا ، فلا تؤاخذونى بالظن . . . إلى أن قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم " فهذه هى قصة الحديث التى تفسره وتكشف عن أبعاده .

ومن الأمثلة الأخرى ، ذلك الحديث الذى رواه أبو داود فى الجهاد [2]، والترمذى فى السير [3] : " أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين - لا تتراءى نارهما " . والفهم الخاطئ لهذا الحديث ، تحريم الإقامة فى بلاد غير المسلمين بصفة عامة ، مع تعدد الحاجة إلى ذلك فى عصرنا ، للتعلم ، وللتداوى ، وللعمل ، وللتجارة ، وللسفارة ، ولغير ذلك .

---

(١) يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع السنة ، ندوة السنة النبوية بعمان / الأردن ، ١٩٨٩ ، ص٩٧ .

(٢) سنن أبى داود فى الجهاد ، حديث ١٦٤٥ .

(٣) سنن الترمذى فى السير ، حديث ١٦٠٤ .

ويصحح القرضاوى هذا بمعرفة سبب ورود الحديث ، والذى جاء فيه : " بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس منهم بالسجود ، فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فأمر لهم بنصف العقل (أى الدية) ، وقال : " أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قالوا : يا رسول الله ، لم ؟ قال : لا تتراءى نهارهما " ، أى لا يتجاوران ولا يتقاربان بحيث ترى نار كل منهما نار الآخر ، وهو كناية عن بعد ما بينهما[1] .

فجعل لهم نصف الدية وهم مسلمون ، لأنهم أعانوا على أنفسهم ، وأسقطوا نصف حقهم ، بإقامتهم بين المشركين المحاربين لله ولرسوله ، فكانوا كمن هلك بجناية نفسه ، وجناية غيره ، فسقطت حصة جنايته من الدية ، فقوله ﷺ: " أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين " ، أى برىء من دمه إذا قتل ، لأنه عرض نفسه لذلك بإقامته بين هؤلاء المحاربين لدولة الإسلام .

ومعنى هذا أنه إذا تغيرت الظروف التى قيل فيها النص ، وانتفت العلة الملحوظة من ورائه من مصلحة تجلب ، أو مفسدة تدفع ، فالمفهوم أن ينتفى الحكم الذى ثبت من قبل بهذا النص ، فالحكم يدور مع علته وجودا وعدما [2] .

وقد تكون المشكلة ، أو الإشكالية التى يعانى منها العقل المسلم بشكل عام ، أو المعادلة الصعبة ، التى لابد من حلها وتصويبها ، حتى يستقيم الحال ، أن الكثير من الذين يفقهون النص ، يجهلون العصر ، وأن معظم الذين يفهمون العصر ، يجهلون فقه النص ، وأنه على الرغم من أن خطاب التكليف فى الكتاب والسنة إنما يتنزل من خالق الإنسان ، العالم بأحواله وحاجاته الأصلية ، التى فطر عليها ، فإن فهم العصر ، محل تنزيل الحكم ، هو من فقه الحكم أيضا ، ومن هنا فإن فهم أسباب النزول والورود، يشكل مدخلا أو منهجا للفقيه والباحث ، ولإدراك أهمية فهم العصر ، والظروف والملابسات التى تحيط بالحكم الشرعى ، وليس فقط فهم أبعاد النص[3] .

إن فهم العصر ، لا يتأتى إلا بإدراك السنن والقوانين الاجتماعية ، والتمكن من آليات الفهم الاجتماعى ، والتى لها علومها ومعارفها ، والتى لم يمتد بها المسلمون بالأقدار المطلوبة ، بحيث أصبح خطابهم فى توصيل الإسلام ، وبيان أحكامه إلى الناس ، يقتصر على مطالبتهم بما يجب أن يكون ، دون معرفة ما هو كائن ، وما

---

(١) يوسف القرضاوى ، كيف نتعامل مع السنة ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) عمر عبيد حسنة ، مقدمته لكتاب : محمد رأفت سعيد ، أسباب ورود الحديث ، ص ٢٤ .

يناسبه من الأحكام فى هذه المرحلة ، ودون معرفة وسائل وأوعية التحرك بالناس ، حتى نصل بهم إلى ما يجب أن يكون [1].

٩ - **حسن الفهم** : وفى هذا المبدأ رد واضح على هؤلاء الذين تقولوا على التربية الإسلامية فزعموا أن عنايتها بالحفظ والاستظهار أكثر مما هى موجهة إلى الفهم والإدراك، فقد أكد بعض العلماء ضرورة فهم الحديث وإدراك مراميه وأهدافه ، وفى الإلحاح على ضرورة معرفة أسباب وورود الحديث والظروف التى أحاطت به سبيل هام لحسن فهمه ، وكذلك فى إلحاحهم على ضرورة العلم بما نعلم تأكيد على أهمية الفهم والوعى لأنه يستحيل أن ننفذ ونطبق ما لم نع ومدرك .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعى إلا اليسير ، وتعجب السيدة عائشة من أبى هريرة حين جلس يروى ليس لأنها تتهمه بكذب ، بل لأن أسلوب تحدثه يهدر الملابسات التى قيلت فيها هذه الأحاديث بعدما طويت طيا فى سرده الموصول . وقد روى مسلم فى صحيحه أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة " ، ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعى منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها [2].

ومن حسن فهم الحديث بطبيعة الحال دراسة درجة الحديث ومصادر إسناده ومعانيه وجوانبه اللغوية ، وينقل لنا ابن الصلاح فى أهمية الفهم والوعى لما نتعلمه من الحديث ، قول الأديب الفاضل فارس بن الحسين[3] :

يا طالب العلم الذى	ذهبت بعدنه الرواية
كن فى الرواية ذا العنا	ية بالرواية والدراية
وارو القليل وراعه	فالعلم ليست له نهاية

إن السنة تعالج كثيرا من المشكلات الوضعية ، أو الجزئية والآنية ، ومنها من الخصوص والتفصيل ما ليس فى القرآن ، فلابد من التفرقة بين ما هو خاص وما هو عام، وما هو مؤقت وما هو جزئى ، فلكل منها حكمه والنظر إلى السياق والملابسات يساعد على سداد الفهم واستقامته لمن وفقه الله .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢) محمد الغزالى : فقه السيرة ، القاهرة ، دار/الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ٤١ .

(٣) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٢٤ .

ومن الواجب - لكى تفهم السنة فهما صحيحا ، بعيدا عن التحريف والانتحال وسوء التأويل - أن تفهم فى ضوء القرآن ، وفى دائرة توجيهاته الربانية ، المقطوع بصدقها إذا أخبرت ، وعدلها إذا حكمت . وإذا كان القرآن هو دستور الحياة الإسلامية، فإن السنة النبوية ، كما أشرنا مرارا ، هى شارحة هذا الدستور ومفصلته ، فهى البيان النظرى ، والتطبيق العملى للقرآن ، ومهمة الرسول أن يبين للناس ما نزل عليهم ، ولا يمكن للفرع أن يعارض الأصل ، ولهذا لا توجد سنة صحيحة ثابتة تعارض ما جاء فى القرآن (١).

ومن هنا فمن الطبيعى الشك فيما نسب إلى رسول الله من قوله : "شاوروهن وخالفوهن " فى شأن النساء ونعتبره باطلا ، وذلك لتعارضه مع قوله سبحانه وتعالى في شأن الوالدين مع رضيعهما : ﴿ ... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ... (٢٣٣) ﴾ [البقرة].

بل إن شيخنا الغزالى أكد أنه لا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر ، فالقرآن هو الذى يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته وحقوقه ، ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تطغى عبادة على أخرى، ولا تطغى كلها على عمله للحياة ومكانه فيها (٢)، والمرء الذى يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوضه عن فقدانها شيء آخر ، والصورة التى تستقر فى نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضطرب فيها النسب والألوان ، وربما لحقها اختلاف كبير .

كذلك لابد من الوعى بالأساس اللغوى للنص النبوى ، وهذا الأساس عام لكل نص فى كل لغة ، فلا يتوقع فهم لمن لا يعرف لغة " ما " لنص مكتوب بها(٣) . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تتميز به اللغة العربية - التى نزل بها القرآن الكريم :﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ [الشعراء] ، وتكلم بها النبى ﷺ فى بيانه ، وهو أفصح العرب - من أساليب متعددة منها الحقيقة

---

(١) يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع السنة ، ص ١١٣ .

(٢) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ٣٩ .

(٣) محمد رأفت سعيد : أسباب ورود الحديث ، ص ٣٤ .

ومنها المجاز ، وما طرأ على المفردات اللغوية على سعتها من تغيير فى الدلالات ، وما تتسع له اللغة العربية من الاشتقاق ، وغير ذلك مما تحفل به مراجع اللغة بنحوها وصرفها وفقهها وأساليبها وبلاغتها وآدابها - عرفنا كيف يخطئ فى الفهم ، ويقع فى التناقض ، من يجهل هذه الجوانب اللغوية فى التعامل مع النصوص الواردة بها ، وأهمها وأشرفها بعد كتاب الله تعالى سنة رسوله ﷺ .

ويتطلب حسن الفهم أيضا التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث ، ذلك أن بعض الناس خلطوا بين المقاصد والأهداف الثابتة التى تسعى السنة إلى تحقيقها، وبين الوسائل الآنية والبيئية التى تعينها أحيانا للوصول إلى الهدف المنشود ، فتراهم يركزون كل التركيز على هذه الوسائل ، كأنها مقصودة لذاتها ، مع أن الذى يتعمق فى فهم السنة وأسرارها ، يتبين له أن المهم هو الهدف ، وهو الثابت والدائم ، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة أو العصر أو العرف أو غير ذلك من المؤثرات (١).

ومن الأمثلة على ذلك تعيين السواك لتطهير الأسنان ، فالهدف هو طهارة الفم ، حتى يرضى الرب ، كما فى الحديث : " السواك مطهرة للفم مرضاة للرب " ، فيما رواه كثيرون عن عائشة رضى الله عنها ، ولكن : هل السواك مقصود لذاته أو كان هو الوسيلة الملائمة الميسورة فى جزيرة العرب ؟ فوصف لهم النبى ﷺ ما يؤدى الغرض ولا يعسر عليهم . ولا بأس أن تتغير الوسيلة فى مجتمعات أخرى ، لا يتيسر لها هذا العود، إلى وسيلة يمكن تصنيعها بوفرة تكفى مئات الملايين من الناس ، مثل "الفرشاة" ، وقد نص بعض الفقهاء على نحو ذلك (٢).

ولعل من الخطوات الأساسية فى دقة الفهم والاستيعاب العناية بالصحيحين : البخارى ومسلم ، ثم بسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وكتاب الترمذى ، وكذلك كتاب السنن الكبير للبيهقى والذى يقول عنه ابن الصلاح : " .. فإنا لا نعلم مثله فى بابه " ، ثم بسائر ما تمس حاجة صاحب الحديث إليه من كتب المسانيد ، كمسند أحمد، ومن كتب الجوامع المصنفة فى الأحكام المشتملة على المسانيد وغيرها ، وموطأ مالك هو المقدم منها . ومن كتب علل الحديث ومن أجودها كتاب العلل عن أحمد بن حنبل ، وكتاب العلل عن الدارقطنى . ومن كتب معرفة الرجال وتواريخ المحدثين ،

---

(١) يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع السنة ، ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠.

ومن أفضلهـا (تاريخ البخارى الكبيـر) ، و (كتاب الجرح والتعـديل) لأبى حاتم ، ومن كتب الضـبط لمشكل الأسمـاء ، ومن أكملها " كـتاب الإكمـال " لأبى نصر بن ماكولا[1] .

ومن المفروض أن طالب الحديث ، كلما مر به اسم مشكل ، أو كلمة من حديث مشكلة ، أن يقوم ببحثها فى مختلف المظان التى يمكن الانتفاع بها فى الموضوع .

١٠ - **التعليم لا يقوم على الحياء أو التكبر** : وهذا مبدأ يقوم على حـقيقة تربوية هامة ، وهى أن الإنسـان يظل ، إلى أن يتوفاه الله ، ساعـيا للحصول على المعرفة ، أو بمعنى آخر ، فـالإنسـان لا تزول عنه صفة " التلـمذة " إذا ما انتهى من مـراحل التعليم الرسمـية . صحـيح أنه قد يقف موقف المعلم والأسـتاذ فى كثـير من المواقف ، ولكن حيـاته لا تخلو أبدا من مواقف لابد أن يكون فيـها تلميـذا ، وعلى ذلك ، فإن هؤلاء الذين يتصورون أنهم قد حصلوا خاتمة العلم ، هم الذين يشعرون بالكبر والضيق إذا ما تعرضوا لموقف تعليمى يفترض أن يعلمهم فيه أحد ، وخاصة إذا كان صغير السن .

وقد أكد على هذا علماء الحديث فمن ذلـك على سبيل المثال قول ابن الصلاح : "ولا يكون ممن يمنعه الحياء أو الكبر عن كـثير من الطلب " . وقد روى عن مجاهد أنه قال : لا يتعلم مستحيى ولا متكبر . وأيضا عن عمر بن الخطاب وابنه رضى الله عنهما أنهما قالا : من رق وجهه رق علمـه ، وقال " وكيع " : لا ينبل الرجل من أصحاب الحديث حتى يكتـب عمن هو دونه ، فقيل له عن ذلك : وكيـف يكون ؟ فقال : لعل الكلمـة التى فيهـا نجاتى لم تقع لى . وروى البـيهـقى عن الأصمعى أنـه قال : من لم يحتمل ذل التعليم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا . وقد سبق أن مر بنا قول السيدة عائشة مـادحة نسـاء الأنصـار فى حـرصهن عـلى طلب العلم بالسنة : " نعم النسـاء نسـاء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين " . ونسـبت العبارة نفسها التى قال بها وكيع إلى ابن المبارك عندما قيل له أنه يكتـب عمن هو دونه ، فقال : لعل الكلمة التى فيها نجاتى لم تقع لى . وروى أيضا عن عمر قوله : لا تتعلم لثلاث ولا تتركه لثلاث: لا تتعلم لتمـارى به ، ولا ترائى به ، ولا تباهى به ، ولا تتركه حـياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بجهالة [2].

---

(١) ابن الصلاح : علوم السنة ، ص ٢٥١ .

(٢) السيوطى ، تدريب الراوى ، طبعة ١٩٨٥ ، ص ٢١٧ .

ولبعض العرب :

وليس العمى طول السؤال وإنما   تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقال الخليل : منزلة الجهل بين الحياء والأنفة [1].

وهناك العديد من النصوص الأخرى المشابهة ، والتى تشير كلها إلى أهمية الجرأة - بأدب - فى طلب العلم من أن يحول الحياء المفرط دون ذلك .

طرق تعلم السنة :

وبذل علماء الحديث الكثير من الجهد لا فى طلب العلم بالحديث من سبل مختلفة ، لكنهم حرصوا كذلك على التنظير لهذه السبل والطرق والتقعيد لها حتى تجئ الثمرة سليمة ، ويمكن أن نشير إلى أهم هذه الطرق والسبل فى الخطوط العريضة التالية :

١ - **السماع من شيخ** : وهو ينقسم إلى إملاء ، وتحديث من غير إملاء ، وسواء كان من حفظه أو من كتابه .

والإملاء أعلى الصور منزلة ، وتوثيقا للأحاديث ، لأن الشيخ والتلميذ يكونان معا أبعد عن الغفلة ، فالشيخ مشتغل بالتحديث والإملاء من الكتاب ، والطالب مشتغل بالكتابة عنه ، فهما بذلك أقرب إلى التحقيق وتبيين ألفاظ الحديث التى يمليها الشيخ ويكتبها التلميذ [2]. وقد جرت العادة فى هذه الصور أن تكون هناك مقابلة بين الأصل والكتاب بعد انتهاء السماع لتصحيح خطأ أو تأكيد للصواب .

وكان هناك حرص شديد على التفرقة فى استخدام ألفاظ مثل " حدثنا " و" أخبرنا " و " سمعت " و" أنبأنا " ، حيث إن لكل منها معنى معينا محددا ، وعلى سبيل المثال فـ " حدثنا وأخبرنا " أرفع من " سمعت " ، ذلك أنه ليس فى "سمعت " دلالة على أن الشيخ رواه الحديث أو خاطبه به ، وفى "حدثنا وأخبرنا " دلالة على أنه خاطبه به ورواه له أو هو ممن فعل به ذلك . سأل الخطيب أبو بكر الحافظ شيخه أبا بكر البرقانى الفقيه الحافظ عن السر فى كونه يقول فيما رواه لهم عن أبى القاسم عبد الله بن إبراهيم الجرجانى الأبندونى " سمعت " ، ولا يقول " حدثنا ولا أخبرنا " ، فذكر له أن أبا القاسم كان مع ثقته وصلاحه عسيرا فى الرواية فكان

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٢٣٢ .

(٢) رفعت فوزى عبد المطلب : توثيق السنة فى القرن الثانى الهجرى ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨١ ، ص ١٨٥.

البرقانى يجلس بحيث لا يراه أبو القاسم ولا يعلم بحضوره فيسمع منه ما يحدث به الشخص الداخل إليه ، فلذلك يقول : " سمعت " ولا يقول "حدثنا ولا أخبرنا " لأن قصده كان الرواية للداخل إليه وحده . أما قوله " قال لنا فلان ، أو ذكر لنا فلان" ، فهو من قبيل قوله : " حدثنا فلان " ، غير أنه لائق بما سمعه منه فى المذاكرة وهو به أشبه من " حدثنا " (١) .

أما عن مراسم هذه الطريقة وخطواتها ، فبعد قيام المعلم بالخطوات التمهيدية من الاستعداد العلمى والنفسى للتدريس ، يذهب إلى مكان حلقته ويستعد للطلاب لتلقى الدرس ، عندئذ يبدأ المعلم فيبسمل ويحمدل ، ويدعو الله أن يحميه من الزلل ، ثم يصلى على رسول الله ﷺ ، ويتبع ذلك بالترضى على صحابة رسول الله والترحم على الشيوخ ، ثم ينتقل إلى التحديث ، فيبدأ بالسند قبل كل شىء ، وبعد ذلك يذكر المتن ، وقد يحدث العكس . وبعد ذلك يعرف الرجال المذكورين فى السند من حيث درجتهم من الثقة أو القدح ، ثم ينتقل إلى ما قد يغمض فى النص من كلمات فيشرحها، وفى نهاية المطاف يقوم المحدث بدراسة فقه الحديث (٢)، وفى نهاية الحديث أو الدرس يدعو الله بما يختار من الأدعية .

وتقتضى طريقة السماع من المعلم أن يكون صوته مناسبا بحيث يسمعه جميع الحضور ، مع وضوح المخارج والتمكن من الأداء ، وتكرير الحديث ثلاث مرات حتى يفهم فيه ذكر الأصل الذى يرجع إليه هذا المبدأ فى التدريس ، وهو ما رواه أنس بن مالك عن النبى ﷺ ، فيما أشرنا من قبل . كما تتطلب هذه الطريقة من المعلم تقليل الأحاديث المروية ، وقد كان غير واحد من المتقدمين يقتصر على رواية الشىء اليسير ، ولا يتوسع فى التحديث ، فهشام بن عبد الملك (٢٢٧هـ) لم يكن يزيد على ثلاثة أحاديث فى تحديثه(٣) .

وكانوا يفتشون فى أحاديث كل راو ، فيحصون ما سمعه من الشيوخ الذين يروى عنهم وما لم يسمعه منهم ، يقول شعبة : لم يسمع الحكم بن عتيبة من مقسم إلا ستة أحاديث ، ويقول أيضا : لم يسمع قتادة من أبى العالية إلا ثلاثة أشياء ، وعدها يحيى

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) المكى أقلاينة : النظم التعليمية عند المحدثين فى القرون الثلاثة الأولى ، الدوحة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، سلسلة كتاب الأمة (٣٤) ، فبراير ١٩٩٣ ، ص ٥٨ .

(٣) الرامهرزى : المحدث الفاصل ، ص ٥٨٣ .

ابن معين : " قول على رضى الله عنه : القضاة ثلاثة ، وحديث لا صلاة بعد العصر ، وحديث يونس بن متى " (١).

وحتى يؤتى سماع الحديث ثمرته من وعى الحديث وضبطه يجب على السامع أن يكون يقظا وقت سماعه ، غير متساهل أو غافل أو نائم ، ولهذا رأى كثير من أئمة الحديث ترك رواية من يتساهل فى سماعه ، يقول أحمد بن حنبل : رأيت ابن وهب وكان يبلغنى تسهيله - يعنى فى السماع - فلم أكتب عنه شيئا . ويقول عثمان بن أبى شيبة إنه رأى ابن وهب فى مجلس ابن عيينة ، وهو ينام وقت السماع فتركه ، وروى مثل ذلك عن ابن المدينى حيث يقول : " قال لى ابن وهب هات كتاب عمرو بن الحارث حتى أقرأه عليك ، فتركته على عمد حين كان ردىء الأخذ " (٢).

وإذا كان على الطالب أن يسمع ، فهو فى الوقت ذاته مطالب بأن يدون ويكتب ما يسمع ، مما يحتاج الأمر معه إلى ضبط والتزام بقواعد لهذا الضبط ، لعل من أولها البدء بكتابة البسملة ، وأن يكتب اسم المعلم بعد التسمية وكنيته ونسبه ، وأن يكتب أسماء من كتب وسمع معه الدرس ، وأن يكتب الصلاة والتسليم على النبى كاملة ولا يختصرها ، وأن يكون الخط واضحا وليس " منمنما " ، وأن يضبط الأسماء بالتشكيل خوفا من التصحيف والإبهام ، وأن يجعل بين كل حديثين دائرة تفصل بينهما وتميز أحدهما عن الآخر . وإذا وقع الطالب فى خطأ أثناء الكتابة أو كرر كلمة يضرب عليها خطا بحيث يمكن قراءتها ولا يمحوها تماما ، وإذا نسى الطالب كلمة فى الإسناد أو المتن يكتبها بين السطرين أمام الموضع الذى سقطت منه إذا كان المكان يتسع لذلك ، وإذا لم يتسع كتبها فى الحاشية بحذاء السطر الذى سقط منه(٣)

وبعد مراعاة الطالب لكل الجوانب السابقة فى كتابة المادة العلمية ، جعل المحدثون من متممات طريقة الإملاء فى التدريس (العرض والمقابلة) ، أى مراجعة ما كتبه الطالب مقابلا بالنسخة التى كتب منها ، وذلك بأن يمسك نسخته ويمسك غيره الأصل ، فيقرأ أحدهما ويتابع الآخر ، وذلك للتأكد من مطابقة النسخة القديمة التى تسمى الأصل بالنسخة الجديدة التى تسمى الفرع ، وإصلاح ما يوجد من مفارقات من خطأ أو زيادة أو نقص ، وهذا العمل من المحدثين هو أعلى مراتب الضبط ، ولذلك لم

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٣) عبد المعطى محمود عبد المعطى : تربية المحدثين ، ص ١٣٤ .

يعترف المحدث بالكتاب إذا لم يعارض ، فعن هشام بن عروة قال : " قال لى أبى كتبت ؟ قلت : نعم . قال : عارضت ؟ قلت : لا ، قال : فلم تكتب !! " [١].

فلما تزايد عدد الطلاب فى مجلس الإملاء ، أصبح عسيرا على المعلم أن يوصل صوته بوضوح ودقة إلى جميع الحضور ، ومن هنا فقد احتاج إلى من يعاونه فى ذلك، وهو الذى أصبح اسمه معروفا بـ " المستملى " . وفى السنة سند لهذا ، فضلا عن الضرورة العملية ، فقد نقل عن رافع بن عمرو قال : أقبلت مع والدى نريد حجة الوداع ، ونبى الله ﷺ يخطب الناس بمنى على بغلة شهباء يوم النحر حتى ارتفع الضحا وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يعبر عنه والناس بين قائم وقاعد [٢].

وأكد السمعانى على أهمية أن يقعد المستملى على موضع مرتفع ، مثل دكة أو كرسى ، فإن لم يجد استملى قائما لأن المقصود من الاستملاء أن يبلغ جميع الحاضرين .

كما ينبغى أن يكون المستملى متيقظا محصلا ولا يكون بليدا .

وأن يكون جهورى الصوت [٣] .

وأن يتخير للاستملاء أفصح الحاضرين لسانا وأوضحهم بيانا وأحسنهم عبارة وأجودهم أداء .

٢ - **القراءة على الشيخ** : وأكثر المحدثين يسمونها (عرضا) من حيث إن القارئ يعرض على الشيخ ما يقرؤه ، كما يعرض القرآن على المقرئ ، وسواء كنت أنت القارئ أو قرأ غيرك وأنت تسمع أو قرأت من كتاب أو من حفظك ، أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو لا يحفظه لكن يمسك أصله هو أو ثقة غيره[٤] .

وقد كان الشيوخ من المحدثين يتخيرون من القراء من يجيدون القراءة ، حتى تكون قراءة الأحاديث صحيحة ليس فيها تحريف ، ولهذا عندما ذهب الشافعى إلى مالك ليقرأ عليه الموطأ ولم يكن يعرفه قال له : اطلب من يقرأ لك ، فقال له الشافعى: لا عليك أن تسمع قراءتى ، فإن خفت عليك قرأت لنفسى . قال الشافعى : فلما سمع

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) السمعانى : كتاب أدب الإملاء ، ص ١٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، صص ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ .

(٤) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٢٢ .

قراءتى قرأت لنفسى . فهذا يدل على أن الإمـام مالكا لم يكن يجيز لكل إنسان أن يقرأ عليه إلا إذا كان مجيدا للقراءة [1].

وتتطلب هذه الطريقة من المعلم تركـيز الانتباه مع الطالب لكى يصـحح له ما قد يخطئ فيه ، ولذلك يقول يحيى بن سـعيد القطانى : " القراءة أشد على من الإملاء ، لأنى إذا قرئ على جـعلت ذهنى كله فيه " . وتحـافظ هذه الطريقة على نشـاط المتعلم وإيجابيته فى العملية التعليمية ، فهو يقرأ ويفهم ويصوب كتابه ، ويضمن لمادته العلمية التى تكون الأساس فى تكوينه العلمى السلامـة من الزيف والخطأ ، ولذلك يقول يحيى ابن سعيد " إذا قرأت على المحدث كان أحب إلى لأنه يصحح لى كتابى " [2].

وتوفر القـراءة على الشيخ للـمتعلم الوقت ، فـمن الممكن أن يقوم بـجمع المادة العلمية من كتب ثم يعرضها على المعلم لمراجعتـها وتقويمها ، وهذا يشبه إلى حد ما ما نراه فى مجـال البحث العلمى فى الجامعـات فى العصر الحاضـر ، ومن ذلك أن رجلا سأل الحسن فقال : يا أبا سعـيد ، منزلى ناء والاختلاف يشق على ، ومعى أحاديث ، فإن لـم تكن ترى بأسا قـرأت عليك ؟ قال : مـا أبالى قرأت على أو قـرأت عليك ، فقال : فأقول حدثنى الحسن ؟ قال : نعم ، فقل : حدثنى الحسن[3].

وقد ذكـر الخطيب بعض الآداب التى يتعين على الطالب الالتزام بهـا فى مجلس القراءة والعرض ، منها اصطحاب الطالب لنسخته لمعارضتها بنسخة شيخه ، أو لمقابلتها بنسخ زملائه ، على أساس أن هذا يعد شرطا فى صـحة الرواية من الكتاب المسموع . وكذلك من الضرورى أن يكون للطالب قلم ، وأن يضـبط الأسماء والحروف المشكلة ، وأن يضرب على الكلمة الزائدة ، وأن يزيل التحرف ، ويغـير الخطأ والتصحيف ، وأن يغيـر بالضرب على الكلمة دون حكها ، بل يـخط من فوقها خطا جـيدا بينا يدل على إبطاله ، ويقرأ من تحته ما خط عليه[4].

وقد اختلفوا : هل القراءة مثل السماع فى المرتبة ، أو دونه ، أو فوقه ؟

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ١٩٨ .

(٢) عبد المعطى محمود عبد المعطى ، تربية المحدثين ، ص ١٣٦ .

(٣) السخاوى : فتح المغيث ، ج٢ ، ص ١٧١ .

(٤) الخطيب البغدادى : الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، تحقيق محمود الطحان ، الرياض ، مكتبة المعارف ، د ت ، ج١ ، ص ٢٧٥ .

يقول الخطيب إن حجة فضل القراءة على السماع ظاهرة ، لأن الراوى ربما سها وغلط فيما يقرأ بنفسه فلا يرد عليه السامع ، إما لأنه ليس من أهل المعرفة بذلك الشأن، أو لأن الغلط صادف موضع اختلاف بين أهل العلم فيه ، فيتوهم ذلك الغلط مذهبا له ، فيحمله عنه على وجه الصواب ، أو لهيبة الراوى وجلالته ، فيكون ذلك مانعا من الرد عليه ، وأما إذا قرئ على المحدث وهو فارغ السر ، حاضر الذهن ، فمضى فى القراءة الغلط ، فإنه يرده بنفسه ، أو يرده على القارئ بعض الحاضرين من أهل العلم لأنه لا يمنع من ذلك شىء فى معنى الخلال التى ذكرتها عند قراءة العالم بنفسه[١].

وإذا كان هؤلاء الذين يفضلون السماع على القراءة قد احتجوا بأن هذا كان فعل الرسول ﷺ ، فى غالب الأوقات ، والاقتداء به أولى ، فإن أبا حنيفة قد رد عليهم بأمرين [٢]:

الأول ، أن رسول الله كان مأمونا من السهو الخطأ فى تبليغ الوحى وبيان الأحكام ، ولهذا كانت قراءته ﷺ أولى ، أما غيره ، فيجوز عليه السهو والغلط ، فكانت قراءة المحدث وقراءة غيره سواء ·

الثانى ، أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن كاتبا ، ولا قارئا من المكتوب شيئا ، وإنما يقرأ ما يقرأ عن حفظ ، فكانت قراءته أولى ، فأما إذا كانت الرواية عن كتاب والسماع فى كتاب - كما هى العادة فى عصر أبى حنيفة - فهما سواء فى معنى التحديث بما فى الكتاب ·

ويمكن أن نوفق بالقول برجحان العرض فيما إذا كان الطالب ممن يستطيع إدراك الخطأ فيما يقرأ والشيخ حافظ غاية الحفظ ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك فالسماع أرجح[٣] · ومما يعزز هذا ، الحافظ ابن عبد البر ، فقد أخرج عن مالك أنه سئل : "أفيعرض عليك الرجل أحب إليك أو تحدثه ؟ " قال : " بل يعرض إذا كان يتثبت فى قراءته ، فربما غلط الذى يحدث أو ينسى " [٤].

---

(١) الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم أصحاب الرواية (مصور عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند) ، ١٣٥٧هـ ، ص ٢٤٧ .

(٢) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢٠١ .

(٣) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٩٧ ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ج٢ ، ص ٢١٧ .

٣ - **الرحلـــة** : كانت الرحلة فى طلب الحـديث قائمة في عـهده ﷺ ، فكان بعض من يسمع بالـرسالة الجديدة يسـافر إلى الرسول ليـسمع القرآن الكريم ، ويتـفهم تعاليم الإسـلام ، ثم ينصرف إلى قـومه بعد أن يعلن إسـلامه ، كـما فعل ضـمام بن ثعلبة، فالرحلة فى عهد الرسول كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد [١].

وأما فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعـهم فقد تمت رحلات كثيرة من العلماء فى طلب الحديث وضبطه ، أو للالتقاء بصحابى وملازمته للأخذ عنه لأن الصحابة فى عهد التابعين تورعـوا فى البلدان ونقلوا فى صدورهم الحديث النبـوى ، فكان من الضرورى لمن أراد أن يجمع حديث محمـد ﷺ من أن ينتقل من بلد إلى آخر وراء الصحابة الذين سـمعـوه ورأوه وأخذوا الأحكام عنه ، ثم رحـل أتباع التـابعين ، ولازموهم وأخـذوا عنهم، حتى تم جمع الحـديث فى مراجعه الكبـرى ، ومع هذا لم تنقطع رحلة العلماء فى سبيل المذاكرة والعرض على الشيوخ المشهورين .

روى ابن الصلاح عـن يحيى بن معين قـوله : " أربعة لا تؤنس مـنهم رشدا : حارس الدرب ، ومـنادى القاضى ، وابن المحـدث ، ورجل يكتب فى بلده ولا يرحل فى طلب الحديث " [٢].

وروى أيضا عن أحمد بن حنبل أنه قيل له . " أيرحل الرجل فى طلب العلم"؟ فقال : " بلى والله شديدا ، لقد كان علقمـة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضى الله عنه ، فلا يقنعهما حتى يخرجا إلـى عمر فيسمعانه منه " ، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال : " إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث " [٣].

أما بالنسبـة لأهداف الرحلة فى طلب الحديث ، فقد قـال الخطيب ، أن المقصود من الرحلة أمران :

أحدهما : تحصيل علو الإسناد وقدم السماع .

ثانيهما : لقاء الحفاظ والمذاكرة معهم والاستفادة بهم .

فإذا كان الأمران موجودين فى كل منهما ، فليحصل حديث بلده ثم يرحل .

قال : وإذا عزم على الرحلة فلا يترك أحدا فى بلده من الرواة إلا ويكتب عنه ما تيسر من الأحاديث ، وإن قلت ، فقد قال بعضهم : ضيع ورقة ولا تضيعن شيخا [٤].

---

(١) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٧٦.

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٤) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٢٠٩ .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على حرص المربين المسلمين على قيام العلاقة المباشرة بين المتعلم والمعلم ، ففرق كبير بين أن تقرأ لإنسان ، وأن تسمع له ، ففى قيام هذه العلاقة المباشرة تكون المناقشة والنقد والاستيضاح ، ومن ثم المزيد من الفهم والاستيعاب .

ولعل رحلة أبى أيوب الأنصارى تعد مثالا طيبا للرحلة فى سبيل التثبت من الحديث ، فقد رحل أبو أيوب من المدينة إلى مصر لمقابلة عقبة بن عامر وسؤاله عن حديث سمعه من النبى ﷺ ، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر خرج إليه وعانقه ثم قال له : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال : حديث سمعته من النبى ﷺ ولم يبق أحد سمعه منه غيرى وغير عقبة ، فابعث من يدلنى على منزله . فبعث معه من يدله على ذلك فخرج إليه عقبة وسأله عن سبب مجيئه فقال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن قال عقبة : نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من ستر مؤمنا فى الدنيا على خزيه ستره الله يوم القيامة " ، فقال أبو أيوب : صدقت ، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة[1].

وعن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت إليه شهرا حتى قدمت الشام ، فإذا بعبد الله ابن أنيس الأنصارى ، فأتيت منزله وأرسلت إليه جابرا على الباب فرجع إلى الرسول فقال : جابر بن عبد الله ، فقلت : نعم ، فخرج إلى فاعتنقته واعتنقنى ، قال : فقلت : بلغنى عنك أنك سمعت حديثا فى المظالم من رسول الله ﷺ لم أسمعه أنا ، فروى له الحديث .

وإذا كان من أهداف الرحلة طلب العلو فى الإسناد ، فهذا يعنى قلة عدد الوسائط فى سند الحديث مع اتصال السند ، ويحصل العلو بأن يسمع المحدث حديثا من راو عن شيخ موجود ، فيذهب المحدث إلى ذلك الشيخ ويسمعه منه ، وهكذا يقل عدد وسائط النقل فى السند [2].

---

(١) الحسينى هاشم : الرحلة فى طلب الحديث ، مجلة الأزهر ، القاهرة ، ج٩ ، السنة ٥٢ ، ذو الحجة ١٤٠٠هـ/نوفمبر ١٩٨٠ ، ص ١٦٠٧ .

(٢) الخطيب البغدادى : الرحلة فى طلب الحديث ، تحقيق نور الدين عتر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠ .

وللعلو فائدة ملحوظة هى أنه يبعد الإسناد من الخلل ، لأن كل رجل من رجاله قد يحتمل أن يقع من جهته خلل فى النقل ، فإذا قلت الوسائط تقل جهات الاحتمال للخلل ، فيكون علو السند قوة للحديث ، لذلك عنى المحدثون بالعلو عناية كبيرة ، والفوا فيه المصنفات وتجشموا لتحصيله المشقات حتى رحلوا إلى الأقطار النائية سعيا وراء علو السند ، وما إن يسمع أحدهم بحديث عن محدث فى عصره حتى يرحل إليه ليسمعه منه مباشرة [1].

كذلك تستهدف الرحلة : البحث عن أحوال الرواة ، وذلك لأن معرفة أداء الراوى للحديث كما سمعه هو المقصد الذى عليه مدار هذا العلم ، ومن أجله بذلت كل الجهود ، ووضعت قواعد النقد ، فكان من المهم تقصى أحوال الرواة وأخبارهم حتى يتميز ما يقبل منهم وما يرد ، ومن أمثلة الرحلة لهذا الغرض سعى الإمام يحيى ابن معين إلى أبى نعيم الفضل بن دكين ليختبر حفظه وتيقظه حتى شهد له أن قد بلغ الغاية فى ذلك [2].

وقد وضع المحدثون عددا من القواعد التى يجب على القائم بالرحلة طلبا للعلم، نذكر منها[3] :

أ- تكوين قاعدة علمية تمثل تهيؤا ذهنيا وأساسا فكريا ينطلق منه الطالب إلى آفاق أوسع ، وذلك بأن يبدأ بكتب أحاديث بلده ومعرفة أهله منهم ، وتفهمه وضبطه حتى يعلم صحيحها وسقيمها ويعرف أهل التحديث بها وأحوالهم معرفة تامة .

ب-أن يختار رفيق الطريق ، وأنيس السفر من زملائه الطلاب على أسس سليمة تضمن حسن المصاحبة وطيب المعاشرة ، والتشجيع المتبادل على تلقى العلم ، فيختار المجد الورع وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم ، ويفر من الكسلان والمعطل والثرثار والمفسد ، ومن هنا قالوا : اختر الرفيق قبل الطريق .

ج- أن يحرص الطالب على مشورة علماء بلده من المشايخ الذين يسمع منهم إذا سافر إلى بلد معين ، وذلك لتوافر عنصر الخبرة ومعايير التقويم ، ولم يكن المعلمون يبخلون بالنصح لطلابهم ، أو يحرصون على تكثير حلقاتهم بإثناء الطلاب عن الرحلة، بل كانوا يحثونهم عليها .

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

د- أن يجيد الطالب ترتيب الأولويات ، فيبدأ بسماع المهم عند كل عالم حتى يتمكن من جمع مادة علمية فى فترة زمنية قصيرة لا يشعر معها بمرارة الاغتراب .

ولا شك أن الارتحال طلبا للعلم له من الفوائد - فوق ما أشرنا - الكثير مما يصعب حصره ، لكن مما يمكن الإشارة إليه هو ما تؤدى إليه من توسيع الأفق بتوسيع دائرة الثقافة والعلم ، وذلك أن الإنسان يتأثر ببيئته ومحيطه ، وقد تتحكم فيه العادات الجارية ، فإذا رحل إلى بيئة أخرى ، واجه مشكلات جديدة تبحث ، أو آراء جديدة فى مسائل سبق له أن درسها ، فيتسع أفقه واجتهاده بدراسة الجديد من المسائل أو الجديد من الآراء ، ولربما أدى به هذا إلى تغيير فى رأى له أو فى اتجاه كان عليه من قبل[1] .

٤ - **الإجازة** : هى إذن المحدث للطالب أن يروى عنه حديثا أو كتابا أو كتبا من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأه عليه ، كأن يقول له : أجزتك أو أجزت لك أم تروى عنى صحيح البخارى ، أو كتاب الإيمان من صحيح مسلم ، فيروى عنه بموجب ذلك من غير أن يسمعه منه أو يقرأه عليه [2].

وقد ظهرت الإجازة كأسلوب من أساليب التعليم ، أو ما اصطلح عليه بتحمل الرواية عند المحدثين ، وذلك عندما تكاثرت الكتب والنسخ ، إلى حد لم يعد طالب العلم قادرا معه على سماعها أو قراءتها على الشيخ أو العالم . وهذا يعنى أن الضرورة دعت إلى تجويزها ، فإن كل محدث لا يجد ما يبلغ إليه ما صح عنده ، ولا يرغب كل طالب فى سماع جميع ما صح عند شيخه ، فلو لم يجز مثل هذا لأدى ذلك إلى تعطيل السنن ، واندراسها وانقطاع أسانيدها . والشيخ عندما يجيز للتلميذ أن يروى أحاديثه ، وقد أخبره بها جملة هنا فهو كما لو أخبره تفصيلا ، وإخباره بها غير متوقف على التصريح نطقا كما فى القراءة على الشيخ ، وإنما الغرض حصول الإفهام والفهم ، وذلك يحصل بالإجازة المفهمة[3]

فالإجازة فيها إخبار على سبيل الإجمال بهذا الكتاب أو الكتب أنه من روايته ، فتنزل منزلة إخباره بكل الكتاب نظرا لوجود النسخ ، فإن جماعة الوراقين قد قامت بنشر الكتب بصورة تقرب مما تقوم به المطابع فى عصرنا الحالى ، ولهذا لا يجوز لمن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢١٥

(٣) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢١٧ .

حمل بالإجازة أن يروى بها إلا بعد أن يصحح نسخته على نسخة المؤلف ، أو نحو ذلك مما نسخ وصحح على النسخ المقابلة المصححة[1].

ولم يكن حق إعطاء الإجازة مكفولا لأى عالم أو تعطى لأى متعلم ، بل وضع المحدثون شروطا وضوابط يجب أن تتحقق فى العالم والمتعلم حتى يتمكنا من ممارسة الإجازة كطريقة من طرق التدريس ، فاشترطوا فى المعلم : أن يكون ثقة فى دينه ، وأن يكون من المشهورين فى مجاله العلمى ، واشترطوا فى الطالب أن يشتهر بطلب العلم والحرص عليه والبذل له ، وذلك حتى لا يوضع العلم عند غير أهله ، ويدل على ذلك ما روى عن الإمام مالك فى شروط صحى الإجازة : "أن يكون المجيز عالما بما يجيز ، ثقة فى دينه وروايته ، معروفا بالعلم ، وأن يكون المجاز من أهل العلم متسما به حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله" [2].

ومن هنا فالإجازة إذا لم تكن محكومة ببعض الضوابط ، تصبح مكروهة ، ولهذا لم يمانع ابن عبد البر فيها " إذا كان الشىء الذى أجيز معينا أو معلوما محفوظا مضبوطا ، وكان الذى يتناوله عالما بطرق هذا الشأن ، وإن لم يكن ذلك على ما وصفت ، لم يؤمن أن يحدث الذى أجيز له عن الشيخ بما ليس من حديثه أو ينقص من إسناده الرجل والرجلين من أول إسناد الديوان ، فقد رأيت قوما وقعوا فى مثل هذا ، وما أظن الذين كرهوا الإجازة كرهوها إلا لهذا "[3]

وقد قسم ابن الصلاح الإجازة إلى أنواع ، نذكر منها [4]:

أولها : أن يجيز لمعين فى معين ، مثل أن يقول : " أجزت لك الكتاب الفلانى ، أو ما اشتملت عليه فهرستى هذه " ، وزعم بعضهم أنه لا خلاف فى جوازها ، وهذا باطل ، فقد تقدم أن هناك من خالف فى جواز الرواية بالإجازة من أهل الحديث والفقهاء والأصوليين .

ثانيها : أن يجيز لمعين فى غير معين ، مثل أن يقول : " أجزت لك أو لكم جميع مسموعاتى أو جميع مروياتى " ، والخلاف على هذا النوع أقوى وأكثر .

---

(١) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢١٦ .

(٢) القاضى عياض : الإلماع فى أصول الرواية وتقييد السماع ، ص ٩٥ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ج٢ ، ص ٢٢٠ .

(٤) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٤١ .

ثالثها : أن يجيز لغير معين بوصف العموم ، مثل أن يقول : " أجزت للمسلمين أو أجزت لكل احد ، أو اجزت لمن ادرك زمانى ، وما أشبه " ، وهذا النوع ضعيف جدا .

رابعها : الإجارة للمجهول أو بالمجهول ، ويلحق بها الإجارة المعلقة بالشرط ، وذلك مثل أن يقول : " أجزت لمحمد بن خالد الدمشقى " ، ويكون هناك أكثر من واحد يشترك فى هذا الاسم ، أو يقول : " أجزت لفلان أن يروى عنى كتاب السنن" ، وهو يروى جماعة من كتب السنن المعروفة بذلك ، لكنه لا يحدد أيها يقصد ، فهذه إجارة فاسدة لا فائدة لها .

وخامسها : الإجارة للمعدوم ، ولنذكر منه الإجارة للطفل الصغير ، ومثاله أن يقول : " أجزت لمن يولد لفلان " !

٥ - المناولة : وهى فى اللغة : العطية ، ومنه النول ، أى العطاء ، وفى الاصطلاح : إعطاء الشيخ الطالب شيئا من مروياته مع إجازته به صريحا أو كناية ، أو مع عدم الإجارة [١]، فهنا نجد أن العلاقة بين المعلم والمتعلم تتلخص فى أن كلا منهما حاضر للموقف التعليمى ، ويقتصر نشاط المعلم على إعطاء إذن للرواية للمتعلم [٢].

والأصل فيها ما علقه البخارى فى العلم من أن رسول الله ﷺ كتب لأمير السرية وقال : لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا ، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبى ﷺ [٣] ، وقال السهيلى أن البخارى احتج به على صحة المناولة ، فكذلك العالم إذا ناول التلميذ كتابا له جاز له أن يروى عنه ما فيه .

وكذلك قال البلقينى : وأحسن ما يستدل به عليها ما استدل به الحاكم من حديث ابن عباس " أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى[٤].

ويقسم علماء الحديث المناولة إلى ثلاثة أنواع :

---

(١) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٧٣

(٢) عبد المعطى محمود : معالم تربية المحدثين ، ص ١٣٨ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى ، ج٢ ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

أولها : المناولة المقرونة بالإجازة ، مثل أن يدفع الشيخ إلى الطالب أصل سماعه أو فرعه ويقول : " هذا سماعى أو روايتى عن فلان فاروه عنى ، أو أجزت لك روايته عنى " ، ثم يملكه إياه ، أو يقول : " خذه وانسخه وقابل به ثم رده إلى " ، أو نحو هذا [١].

ثانيها : أن يجىء الطالب إلى الشيخ بكتاب أو جزء من حديثه فيعرضه علّيه ، فيتأمله الشيخ وهو عارف متيقظ ، ثم يعيده إليه ويقول له : " وقفت على ما فيه وهو حديثى عن فلان أو روايتى عن شيوخى فيه فاروه عنى ، أو أجزت لك روايته عنى "[٢]، فهذه الصورة من المناولة مقرونة بالإجازة من غير تمكين من النسخة ، وهذا لا يمتاز فى ظاهره عن الإجازة ، لكن المشايخ من أهل الحديث يرون له مزية على الإجازة ، ووجه هذه المزية فيما يرى د. عتر أن فى المناولة تأكيدا لمعنى الإخبار الذى اشتملت عليه الإجازة وتقوية لأمره[٣] .

ثالثها : المناولة المجردة عن الإجازة ، بأن يناوله الكتاب كما تقدم ذكره أولا ، ويقتصر على قوله : " هذا من حديثى أو من سماعاتى " ، ولا يقول : " اروه عنى، أو أجزت لك روايته عنى " ، ونحو ذلك ، فهذه مناولة مختلة لا تجوز الرواية بها .

وفى كل هذه الصور الثلاث ، روعى ما يضمن للحديث أن ينتقل من الشيخ إلى التلميذ نقلا صحيحا لا تغيير فيه ولا تبديل ، ففى الصورة الأولى يعطى الشيخ التلميذ نسخة قد وثق منها ، لأنها كتابه الذى يحفظه عنده أو نسخة منه قد وقف عليها وصحح ما قد يقع فيها من أخطاء أثناء عملية النقل .

وفى الصورة الثانية ، لا يعتمد على نقل التلميذ ، وإنما يأمره بالمقابلة ، ثم يأخذ ما نقله ليستوثق من صحة النقل والمقابلة .

وفى الصورة الثالثة ، يتأكد من صحة ما يقوله التلميذ من أنها من حديثه ومن روايته ، فيقف عليها ، ويعرفها ، ويحققها قبل أن يجيزها له ، ففى جميعها - كما نرى تحقق من الشيخ بما فى الكتاب الذى يناوله ، وهذا ما شرطه الإمام أحمد بن حنبل

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(٣) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢١٨ .

حين سئل عن " المناولة " فقال : ما أدرى ما هذا ، حتى يعرف المحدث حديثه وما يدريه ما فى الكتاب[1] .

وقد ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل أن أباه قال : " إذا أعطيتك كتابى وقلت لك اروه عني وهو من حديثي فما تبالي أسمعته أم لم تسمعه فأعطانا المسند ولأبى طالب مناولة " [2]. وإذا كانت المبادرة فى هذا النص قد أتت من المعلم دون طلب من المتعلم فإن هناك نصوصا كثيرة تدل على جمع الطالب للأحاديث عن معلم معين ، ثم يطلب منه إجازة روايتها له ، ويتعين على المعلم فى تلك الحال أن يقرأ تلك الأحاديث ويراجعها ويصححها قبل أن يعطى الإجازة [3].

ومن الإجازات التى اتخذت هذه الصورة (المناولة) إجازة محمد بن يحيى الذهلى وصورتها : " أتانى سعيد بن عمرو ، وأبو عثمان البرزعى بهذه الأحاديث المتضمنة هذه الرقعة وسألنى أن أجيزها ليوسف بن زيادة ، ومحمد بن مهدى ، ومحمد ابن يحيى بن منده ، ومحمد بن هارون ، وأحمد بن على الجارود ، ومحمد بن عبد الله بن سمك ، وعلى بن الحسن ، وهذه أحاديثى قد سمعتها من هؤلاء الرهط المسمين فى هذه الرقعة قد أجزتها لهم فليرووها عنى إن أحبوا ذلك . . . وكتبه محمد ابن يحيى بخطه "[4] .

٦ - المكاتبة : وهى أن يكتب الشيخ إلى الطالب وهو غائب شيئا من حديثه وبخطه أو يكتب له ذلك وهو حاضر ، ويلتحق بذلك ما إذا أمر غيره بأن يكتب له ذلك عنه ، وهذا القسم ينقسم أيضا إلى نوعين[5]:

أحدهما : أن تتجرد المكاتبة عن الإجازة .

ثانيهما أن يقترن بالإجازة بأن يكتب إليه ويقول : " أجزت لك ما كتبته لك ، أو ما كتبت به إليك" .

---

(١) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢٠٧ .

(٢) السخاوى : فتح المغيث ، ج٢ ، ص ٢٩١ .

(٣) عبد المعطى محمود : معالم تربية المحدثين ، ص ١٣٨ .

(٤) الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ، ٣٢٨ .

(٥) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٥٣ .

وفى صحيح البخارى ، فى الإيمان والنذور : وكتب إلى محمد بن بشار ، وليس فيه بالمكاتبة عن شيوخه غيره .

وقد وردت أحاديث كثيرة بالمكاتبة ، فى أثناء السند ، منها : ما روى عن رواد قال : كتب معاوية إلى المغيرة أن أكتب إلى ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فكتب إليه الحديث فى القول عقب الصلاة [1].

وعن ابن عون قال : كتبت إلى نافع ، فكتب إلى أن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق [2]، الحديث .

وأخرجا عن سالم أبى النضر ، عن كتاب رجل من أسلم من أصحاب النبى ﷺ، كتب إلى عمر بن عبيد الله حين سار إلى الحرورية يخبره بحديث " لا تتمنوا لقاء العدو " [3] .

وحتى يكون الكتاب مصونا عن التغيير فى الطريق إلى من كتب إليه ، ينبغى أن يشده المرسل ، ويختمه بخاتمه ، وقد فعل ذلك غير واحد من السلف وخاصة فى القرن الثانى الهجرى ، ومن هؤلاء ابن جريج الذى كتب إلى ابن أبى سمرة بأحاديث من أحاديثه ، وختم على الكتاب . وكتب قتيبة بن سعيد إلى الإمام أحمد بن حنبل ، وقال له : كتبت إليك بخطى ، وختمت الكتاب بخاتمى ، ونقشه " الله ولى سعيد " ، وهو خاتم أبى ، وفعل ذلك الإمام مالك بن أنس[4].

ومن صور المكاتبة فى القرن الثالث الهجرى ، كتاب أبى بكر بن عياش إلى يحيى بن يحيى وجاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى بكر بن عياش إلى يحيى بن يحيى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، عصمنا الله وإياك بالتوفيق والسداد الذى يرضى لعباده الصالحين ، وسلمنا وإياك من جميع الآفات ، جاءنا أبو أسامة فذكر أنك أحببت أن أكتب إليك بهذه الأحاديث فقد كتبها ابنى إملاء منى بها إليك ، فهى حديث منى لك عمن سميت لك فى كتابى هذا فاروها وحدث بها عنى "[5] .

---

(١) رواه البخارى فى الصلاة بهامش فتح البارى ، ج٢ ، ص ٤٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ج٦ ، ص ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ج٦ ، ص ٣٧٤ .

(٤) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢١٤ .

(٥) الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ، ص ٣٤٠ .

٧ - **إعلام الشيخ** : أى إعلام الراوى للطالب بأن هذا الحديث أو هذا الكتاب سماعه من فلان ، أو روايته ، مقتصرا على ذلك من غير أن يقول : " اروه عنى أو أذنت لك فى روايته " أو نحو ذلك . وهو جائز عند بعض العلماء ، وحجة من يصحح هذا النوع أن العبرة فى ثبوت الكتاب أو الحديث لراويه ، والإعلام يثبت الكتاب لصاحبه ، والحديث لراويه(١).

كذلك يرى بعض آخر ممن يقولون بصحة (إعلام الشيخ) أن اعترافه للتلميذ بالكتاب ، وإقراره بأنه سماعه ، كتحديثه له بلفظ ، وقراءته عليه وإن لم يجزه له . ويقول الرامهرمزى : إنه بعد أن يعترف الشيخ بأن الكتاب كتابه أو سماعه ، فإن التلميذ ليس بحاجة إلى الإذن له بروايته قياسا على أن التلميذ إذا سمع من الشيخ أحاديث ، فإنه تجوز له رواية هذه الأحاديث ، أذن له الشيخ أو لم يأذن (٢).

ومن المهم التنويه بأن هذا الأسلوب تم فى أضيق الحدود ، وفى الحالة التى يتأكد فيها الشيخ أن التلميذ من العلماء المجيدين .

٨ - **الوصية بالكتب** : وهى أن يوصى الراوى بكتاب يرويه عند موته أو سفره لشخص(٣) .

ولا تشير المصادر إلى من جوزها إلا إلى محمد بن سيرين ، وأبى قلابة عبد الله بن زيد الجرمى (١٠٤هـ) حيث أوصى عند موته بأن تدفع كتبه إلى أيوب السختيانى (١٣١هـ) ، وقد استفتى أيوب محمد بن سيرين : أيحدث بهذه الكتب أو لا ؟ وقد أفتاه ابن سيرين أولا بالإيجاب ، ثم توقف وترك المسألة له ثانية وقال : لا آمرك ولا أنهاك(٤) .

وإذا كان القاضى عياض ، قد قال : لأن فى دفعها له نوعا من الإذن وشبها من العرض والمناولة ، وهو قريب من الإعلام (٥)، إلا أن ابن الصلاح أكد أن " . . هذا

---

(١) همام عبد الرحمن سعيد : الفكر المنهجى عند المحدثين ، الدوحة ، مطابع الدوحة الحديثة ، ١٤٠٨هـ ، ص ٧٩ .

(٢) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ٢٢٦ .

(٣) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٧٧ .

(٤) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢٢٧ .

(٥) القاضى عياض : الإلماع إلى معرفة أصول الرواية ، ص ١١٥ .

بعيد جدا ، وهو إما زلة عالم ، أو متأول على أنه أراد الرواية على سبيل الوجادة "[1] التى سوف نعرض لها فى النقطة التالية . وإذا كان البعض قد احتج لذلك فشبهه بقسم الإعلام ، وقسم المناولة ، ، إلا أن ابن الصلاح يؤكد " ولا يصح ذلك " ، لأن الوصية إنما تفيد تمليك النسخة ، فهى كالبيع ، وذلك أمر آخر غير الإخبار بمضمونها .

٩ - **الوجـــادة** : وهى مصدر (وجد يجد) ، مثال الوجادة : أن يقفَ على كتاب شخص فيه أحاديث يرويها بخطه ولم يلقه ، أو لقيه ولكن لم يسمع منه ذلك الذى وجده بخطه ولا له منه إجازة ولا نحوها ، فله أن يقول : " وجدت بخط فلان أو قرأت بخط فلان ، أو فى كتاب فلان بخطه : أخبرنا فلان بن فلان " ، ويذكر شيخه ويسوق سائر الأسناد والمتن معا .

وإذا أراد أن ينقل من كتاب منسوب إلى مصنف ، فلا يقل : " قال فلان كذا وكذا " إلا إذا وثق بصحة النسخة بأن قابلها هو أو ثقة غيره بأصول متعددة ، وإذا لم يوجد ذلك ونحوه ، فليقل : بلغنى عن فلان أنه ذكر كذا وكذا " أو " وجدت فى نسخة من الكتاب الفلانى " وما أشبه هذا من العبارات [2].

وهذا النوع موجود منذ عصر الصحابة وعصر التابعين ومن بعدهم ، حيث كثرت الكتب وكثر الرواة الذين لم يكن من السهل عليهم اللقاء بالمحدثين وأخذ الأحاديث عنهم سماعا أو قراءة أو مناولة أو كتابة أو إجازة ، ففى عصر الصحابة وجدنا رواية عن ابن عمر أنه وجد فى قائم سيف أبيه عمر بن الخطاب صحيفة فيها : " ليس فيما دون خمس من الإبل صدقة . . . " إلى آخره .

وفى عصر التابعين وجدنا أكثر من رواية عن بعض الصحف التى انتقلت من الصحابة إلى التابعين عن طريق الوجادة ، فعن ابن عائذ قال : وجدنا فى نسخة عن معاذ بن جبل " أن النبى ﷺ نهى أن يدخل على المغيبات "[3] .

لكن ، فيما بعد ، وجدنا أئمة الأحاديث التى تروى عن طريق الوجادة يعيبونها ويعيبون رواتها لأنها تكون عرضة للتحريف والزيادة بما ليس منها ، وهم يهدفون أن تنقل سنة رسول الله ﷺ نقلا موثقا لا تبديل فيه[4].

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ١٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢٢٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

ويلفت " عتر " النظر إلى طرافة يجب التنبه إليها ، وهى الفرق بين صحة الرواية وبين وجوب العمل ، فلا تصح الرواية بالوجادة للكتاب أى لا يصح أن يقول : أخبرنى فلان ، أو حدثنى أو غير ذلك ، لعدم وجود طريقة التحمل التى تسمح بذلك، لكن يجب العمل بمضمونه عند حصول الثقة بنسبة الكتاب إلى صاحبه ، لأن ذلك هو الذى يوجب العمل[1].

دور الصحابة والتابعين فى تعلم السنة وتعليمها :

كانت رغبة صحابة رسول الله فى سماع حديثه عظيمة ، وهل هناك أحب إلى المرء من أن يسمع حكم مربيه وأحكامه وتشريعاته ؟ وهل من شىء أعز على المسلم من أن يحيى آثار منقذه من الضلال ورائده إلى الخير ؟

لقد عرضنا للكثير من جهد رسول الله لتعليم الصحابة ، ونزيد على ما سبق أنه ﷺ كان يقول : " ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم ، وما علمنى. "[2]، فعلمهم القرآن ، كما علمهم الأدعية والأذكار الأخرى ، قال سعد بن أبى وقاص : كان النبى ﷺ يعلمنا هذه الكلمات ، كما تعلم الكتابة : " اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر "[3].

وحرص رسول الله ﷺ على تعليم أصحابه ، حتى وهو فى الصلاة ، فكان إذا سمع أمورا ينكرها أثناء صلاته ، بادر بعد الصلاة إلى عقد مجلس تعليمى عارض يعلمهم فيه الأحكام المترتبة على تلك الأمور ، ثم يوجههم التوجيه الصحيح[4]، من ذلك أنه سمع جلبة رجال ، وهو يصلى ، فلما انتهى من الصلاة ، تساءل : " ما شأنكم " قالوا : استعجلنا إلى الصلاة ، قال ﷺ : " فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة ، فعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا "[5].

---

(١) نور الدين عتر : منهج النقد فى علوم الحديث ، ص ٢٢٣ .

(٢) صحيح مسلم : ٤ / ٢١٩٧ .

(٣) عبد الرحمن إبراهيم شريف الضامرى : مجالس النبى صلى الله عليه وسلم التربوية فى العهد المدنى ، رسالة ماجستير ، إربد ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٥، الفصل الثانى .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٥) صحيح مسلم : ٤ / ٢٠٧٣ .

وكان المتعلمون من أهل " الصفة " هم أكثر الصحابة ملازمة للنبى ﷺ ، ومصاحبته بحضور مجالسه ، وكان هؤلاء فريق من الفقراء والغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد الرسول ﷺ ، وكانت لهم فى آخره صفة ، وقد كان رسول الله ﷺ يتعهدهم بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ويقص عليهم ، فانقطعوا للعلم والعبادة ، فكأن الصفة كانت بمثابة " القسم الداخلى " حيث كانوا ينامون فيها ، وهم كانوا يجمعون بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ، ذلك أنهم إذا وجدوا عملا ذهبوا يطلبون الرزق ، وبقوا يترددون إلى مدرستهم فى النهار لطلب العلم وأداء العبادة [١].

لقد كان الصحابة مندفعين بإخلاص إلى سماع حوادث رسول الله ﷺ وسيرته وحديثه ، فهذا أبو بكر يقف عند عارب والد البراء فيشترى منه رحلا وهو للناقة كالسرج للفرس ، ثم يقول له: "مرالبراء فليحمله إلى منزلى ، فيقول : لا حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه، فقص عليه خبر الهجرة"[٢].

وهذا على ، أمير المؤمنين يلتقى بكعب الأحبار فيقول له كعب : يا على ، أسمعت رسول الله ﷺ فى المنجيات ؟ قال : لا ، ولكن سمعته يقول فى الموبقات . فقال كعب لعلى : حدثنى بالموبقات حتى أحدثك بالمنجيات ، فقال على : سمعت رسول الله ﷺ يقول " الموبقات : ترك السنة ، ونكث البيعة ، وفراق الجماعة ، فقال كعب لعلى : كف لسانك ، وجلوس فى بيتك ، وبكاؤك على خطيئتك "[٣] .

وعرف عن الصحابة تشددهم فيما يروى لهم من الأحاديث التى لم يسمعوها من رسول الله ، ﷺ ، يقول البراء بن عازب مبينا هذا : " ما كل الحديث سمعناه من رسول الله ﷺ ، كان يحدثنا أصحابنا ، وكنا مشتغلين فى رعاية الإبل ، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله ﷺ ، فيسمعونه من أقرانهم ، ومن هو أحفظ منهم ، وكانوا يشددون على من يسمعون منه "[٤].

---

(١) أكرم ضياء العمرى : المجتمع المدنى فى عهد النبوة ، المدينة المنورة ، الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ص٩٩ ، وأيضا :

- عبد الرحمن النحلاوى : أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٣ ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) رفعت فوزى : توثيق السنة ، ص ٢٩ .

ومن مظاهر هذا التشدد ، أن بعض الصحابة كان يستحلف راوى الحديث غير مبال بمنزلة هذا الراوى فى الإسلام ، أو منزلته من رسول الله ﷺ ، وقد استحلف بعضهم عليا ، وهو أمير للمؤمنين . وكان هذا مذهب على بن أبى طالب ، يستحلف من يروى له عن رسول الله ، يقول الحاكم : " وأما أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه ، فكان إذا فاته عن رسول الله ، ﷺ ، حديث ، ثم سمعه من غيره ، يحلف المحدث الذى يحدث به ، والحديث فى ذلك عنه مستفيض مشهور . . . وكذلك جماعة من الصحابة والتابعين "(١).

ولم يكن دافع هذا أنهم يكذبون راوى الحديث ، وإنما خوفا من أية شبهة لا تكون قصدا وإنما تتسرب من خلال الطبيعة البشرية ، وخاصة النسيان الكلى أو الجزئى أو احتمال تداخل الأحاديث أو المواقف ، فهو أمر من قبيل " كى يطمئن قلبى " ، ذلك لأنه قد يترتب على الحديث تحليل حرام أو تحريم حلال . فضلا عن أن هذا يؤمن العملية التربوية لتقوم على أسس من الصدق والموضوعية والأمانة .

وكان بعض الصحابة يخشى السهو والنسيان ، ويحذر أن يغير لفظا من ألفاظ الحديث عن وضعه ، فيمتنع عن التحديث ، أو يتعلل بذلك مكتفيا بغيره ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : قلت للزبير : " إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان " ، فكان رده أنه لم يكن يفارق رسول الله ، لكن ما يجعله بهذه الصورة من قلة الرواية هى هذا الحديث الذى سبق أن أوردناه والخاص بتوعد من يكذب على رسول الله بالنار . ومن هنا فقد قال مجاهد : " صحبت عبد الله بن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثا واحدا "(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى قال : كنت جالسا بالمدينة في مجلس الأنصار ، فأتانا أبو موسي فزعا أو مذعورا ، قلنا : ما شأنك ؟ قال : إن عمر أرسل إلى أن آتيه ، فأتيت بابه ، فسلمت ثلاثا ، فلم يرد على ، فرجعت ، فقال : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إنى أتيتك ، فسلمت على بابك ثلاثا ، فلم يردوا علي ، فرجعت ، وقد قال رسول الله ﷺ : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا ، فلم يؤذن له ، فليرجع " ، فقال عمر : أقم عليه البينة ، وإلا أوجعتك ! فقال أبى بن كعب : لا يقوم معه إلا أصغر القوم ، قال أبو سعيد ، قلت : أنا أصغر القوم ، قال : فاذهب به .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) صحيح البخارى : ١ / ٢١ .

لقد احتاط عمر فى قبول الخبر - من واقع المسئولية - ليحذر من لا يتيقن من الحفظ والضبط ، وليتعرف على حفظ أبى موسى ، وأنكر أبى بن كعب من عمر هذا الاحتياط مستبعدا أن يكون الأمر غير ذلك[1].

وقام عدد كبير من الأنصار بتعليم المسلمين ، ومنهم عبادة بن الصامت ، قال : " علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن . . . " الحديث[2]. ومنهم كعب بن مالك ، فقد روى البيهقى : "وكان كعب بن مالك رضى الله عنه يقوم بتعليم القرآن فى المدينة "[3] ومنهم أسيد بن حضير ، قال : إن النبى ﷺ أعطاه عبدا من العبيد الذين فروا من ثقيف أثناء الحصار ، وبعثه إلى أسيد بن الحضير وأمره أن يمونه ويعلمه[4].

ولم يقتصر دور الأنصار على نشر العلم داخل المدينة ، بل كان رسول الله ﷺ يبعثهم خارجها لكى يقوموا بتعليم الناس ، إذ إن المدينة أصبحت مركزا للدعوة والتربية، فلابد أن يشع نورها حولها ، فقد روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك " أن رعلا وذكوان وعصية وبنى لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ النبى ﷺ فقنت شهرا يدعو فى الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبنى لحيان . . . "[5].

وعندما بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى اليمن كان معاذ حريصا أشد ما يكون الحرص على أن يدعو الناس ويعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويحكم بينهم بشرع الله تعالى ، لا يفتر عن مهمته تلك ، يستغل كل لحظة من لحظات وجوده فى اليمن فى تعليم الناس ، وفى القضاء على الأفكار والعادات الجاهلية ، يعلم الرجال والنساء ، وإن كان تعليمه للرجال هو الأمر الواضح والراجح ، أما تعليمه للنساء فدليله ما رواه

---

(١) الإمام الذهبى : الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة ، تحقيق : عزت على عطية، و موسى محمد الموشى ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٢ ، ج١ ، المقدمة ، ص ١٥ .

(٢) مسند ابن حنبل ، ج٥ ، ص ٣١٥ .

(٣) سنن البيهقى ، ج٦ ، ص ١٢٦ .

(٤) حمودة على حمودة شراب : جوانب تربوية فى مواقف الأنصار الدعوية ، رسالة ماجستير ، إربد ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٦ ، ص ١٤٨.

(٥) صحيح البخارى ، برقم ٤٠٩٠ .

شهر بن حوشب الأشعرى عن عائذ بن عبد الله أن معاذا قدم اليمن فلقيته امرأة من خولان معها بنون لها اثنا عشر فتركت أباهم فى بيتها ، أصغرهم الذى قد اجتمعت لحيته، فقامت فسلمت على معاذ ورجلان من بنيها يمسكان بضبعيها ، فقالت : من أرسلك أيها الرجل ؟ قال لها معاذ : أرسلنى رسول الله ﷺ ، قالت المرأة : أرسلك رسول الله ﷺ ، وأنت رسول رسول الله ﷺ ، أفلا تخبرنى يا رسول رسول الله ؟ فقال لها معاذ : سلينى ما شئت ، قالت : حدثنى ما حق المرء على زوجته ؟ قال لها معاذ : تتق الله ما استطاعت وتسمع وتطيع ، قالت : أقسمت بالله عليك لتحدثنى : ما حق الرجل على زوجته ؟ فقال لها معاذ : أوما رضيت أن تسمعى وتطيعى وتتقى الله ؟ قالت : بلى ، ولكن حدثنى ما حق المرء على زوجته ، فإنى تركت أبا هؤلاء شيخا كبيرا فى البيت ، فقال لها معاذ : والذى نفس معاذ بيده ، لو أنك ترجعين إليه فوجدت الجذام قد خرق لحمه ، وخرق منخريه ، فوجدت منخريه يسيلان قيحا ودما ثم ألقمتنيهما فاك لكيما تبلغى حقه ما بلغت ذلك أبدا "(١).

واشتهر أبو موسى الأشعرى بالتعليم ومارسه أثناء وجوده فى اليمن قبل الهجرة وبعدها ، واشتهر بتعليم قراءة القرآن الكريم ، ويعد رائد مدرسة إقراء القرآن فى البصرة، ولابد أن قد كان له دور كبير فى تأسيس مدرسة الإقراء فى اليمن . ويروى عن أبى رجاء العطاردى قوله : كان أبو موسى الأشعرى يطوف علينا فى هذا المسجد مسجد البصرة يقعد حلقا، فكأنى أنظر إليه بين بردين أبيضين يُقرئنى القرآن الكريم ، ومنه أخذت هذه السورة : " اقرأ باسم ربك الذى خلق " ، قال أبو رجاء : فكانت أول سورة أنزلت على محمد رسول الله ﷺ (٢).

وكان عمر بن الخطاب قد بعثه واليا على البصرة ، ومعلما لأهلها كتاب الله وسنة رسوله ، وقد ذكر الحسن البصرى رواية عن أبى موسى قوله : " إن أمير المؤمنين عمر بعثنى إليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ وأنظف لكم طرقكم" . ويروى عن أنس بن مالك قوله : بعثنى الأشعرى إلى عمر فأتيته ، فسألنى عنه فقلت : تركته يعلم الناس ، قال : أما إنه كيس فلا تسمعها إياه .

---

(١) مسند ابن حنبل ، ٥ / ٢٣٩ .

(٢) أحمد أحمد على الأنسى : البعثات التعليمية إلى اليمن ومنها فى عهد النبى ﷺ وأثرها فى مسيرة التعليم الإسلامى ، رسالة ماجستير ، إربد ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٥ ، ص ٧٠ .

ولم يكتف الصحابة بدراسة الحديث فيما بينهم ، بل حثوا على طلبه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم ، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها، ومن هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال : " تفقهوا قبل أن تسودوا " ، وقال أيضا : " تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن " . وكان أبو ذر مثلا رائعا لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله ﷺ يروى عنه أنه قال : " لو وضعتم الصمصامة - السيف الصارم - على هذه ، وأشار إلى قفاه ، ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تجيزوا على لأنفذتها " ، وما كان أبو ذر بدعا فى الصحابة ، إنما كان أحد الألوف الذين ساهموا فى حفظ السنة [1].

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال : " ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة (نحيتم جانبا هؤلاء الصغار) ؟ لا تفعلوا ، وأوسعوا لهم فى المجلس وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم إياه ، فإنهم صغار قوم أوشكوا أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم " .

فعمرو بن العاص يشدد على ضرورة الاهتمام بتربية الصغار وتنشئتهم على مبادئ الإسلام وهديه ، وهو ينبه بصريح كلامه ، أن هؤلاء الصغار هم الذين سيتولون أمر الجماعة فيما بعد ، تماما مثلما يتولاه اليوم الكبار الذين كانوا بالأمس صغارا .

وكان ابن عباس يحض طلابه على مذاكرة الحديث ، فيقول : " تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم ، فإنه بمنزلة القرآن ، القرآن مجموع محفوظ وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم ، ولا يقل أحدكم حدثت الأمس لا أحدث اليوم ، بل حدث أمس ، وحدث اليوم ، وحدثه غدا ... كما كان يقول : إذا سمعتم منى شيئا فتذاكروه بينكم " [2].

وكان لنساء الأنصار دور ملحوظ فى تعلم السنة من نبعها الأول الا وهو رسول الله ﷺ وذلك عن طريق حضور مجالسه التعليمية ، وعن طريق توجيه أسئلة تشكل الإجابة عنها طرقا للمعرفة النبوية ، فعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود " قالت : كنت فى المسجد فرأيت النبى ﷺ فقال : تصدقن ولو من حليكن . وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام فى حجرها ، قال ، فقالت لعبد الله : سل رسول الله ﷺ ، أيجزى عنى أن أنفق عليك وعلى أيتامى فى حجرى من الصدقة ؟ فقال : سلى أنت

---

(1) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٤٧ .

(2) المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

رسول الله ﷺ ، فانطلقت إلى النبى ﷺ ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتى ، فمر علينا بلال فقلنا : سل النبى ﷺ : أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام لى فى حجرى ، وقلنا : لا تخبر بنا ، فدخل فسأله ، فقال : من هما ؟ قال : زينب ، قال : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله ، قال : نعم ، ولها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة »(١).

ولم تقتصر مشاركة الصحابيات الأنصاريات على حضور مجالس العلم فحسب، وإنما تحملن رواية الأحاديث النبوية الشريفة الخاصة بالنساء وغيرها كأخبار السيرة والوعظ والترغيب والترهيب ، ورواية أحاديث رسول الله ﷺ هى تحمل وإبلاغ أمانة الدين والعلم ، وهو واجب مهم قمن به على وجه جيد ، مثلما قامت به نساء أخريات من غير الأنصار .

والحق أن هذا الموقف الحماسى لكل من شهد سنوات الإسلام الأولى لتعليم السنة ونشرها ، لم يفتر بانقضاء هذه السنوات ، كما يحدث لكثير من التعاليم والنظريات ، إذ تشهد فتراتها الأولى نشاطا ضخما ، حتى إذا اختفى صاحبها من مسرح الأحداث بدأ الفتور وتواصلت الأنشطة ، فقد سار التابعون وأتباعهم على نهج الصحابة ، فكانوا يوصون أولادهم وتلاميذهم بحفظ السنة وحضور مجالس العلم ، فقد أوصى عروة بنيه بهذا ، كما أوصى طلابه ، وكان علقمة يشجع طلابه على مذاكرة الحديث ودراسته ، كما كان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول : إحياء الحديث مذاكرته فتذاكروه ، واشتهرت بين العلماء عبارة لها مغزاها : « تذاكروا الحديث ، فإن الحديث يهيج الحديث »(٢) .

ونقل لنا بعض من بذل الكثير فى تعلم الحديث ، أن آباءهم كانوا يحثونهم دائما على ذلك ويعدونهم الجزاء الطيب ، وأنهم يعلمون أن تعلم السنة ، فى حد ذاته ، كسب ضخم ، ومع ذلك فلا بأس من أن يزيد الكسب ويعظم الربح ماديا وروحيا ، فها هو النضر بن الحارث يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : قال لى أبى : يا بنى، اطلب الحديث ، فكلما سمعت حديثا وحفظته ، فلك درهم ، فطلبت الحديث على هذا .

---

(١) صحيح البخارى ، ج٣ ، برقم ١٤٦٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٩.

صحيح أن الطفل فى هذه الحالة يتعلم الحديث لهدف الحصول على الدرهم ، ولكن لا ضرر هنا على الإطلاق ، ذلك أن تكرار التعلم وتعويد الطفل على طلب الحديث ، لا يلبث فترة أن يصير له عادة ، فيسعى إلى التعلم دون انتظار لدرهم . ثم إن مداركه تكون قد نضجت ، فيبصر ما فى السنة من قيم روحية ، وكيف أنها تعينه على الحياة الدنيا ، وتهيئ له الطريق السليم للآخرة .

وهذا ما حدث بالفعل ، إذ سرعان ما وجدنا باب التنافس يفتح على مصراعيه ، تسابق الكثيرون على ورود منهل الحديث ، حتى يحظى كل فرد باكتساب شرف ذلك ، فالذكى من حفظ أحاديث فى كذا ، والمجد من أسرع إلى صحابى وأخذ عنه قبل وفاته، والمفلح من حظى بحب شيخه وتمكن من الانفراد به ، والكتابة عنه والقراءة عليه، ثم العرض والتصحيح بين يديه[1] .

وقد قيض الله لهذه الأمة أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية ترعرعوا بين يدى رسول الله ﷺ ويدى الصحابة الكرام ، واجتهد القائمون على التعليم منهم فى ذلك العصر فى تعليم تلاميذهم وجلسائهم ، واعتنوا عناية عظيمة بالنشء الجديد ، فترى إسماعيل بن رجاء - من أقران الأعمش - يجمع الصبيان ويحدثهم ، ومر رجل بالأعمش - سليمان بن مهران - وهو يحدث فقال له : تحدث هؤلاء الصبيان ؟ فقال الأعمش : هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك .

وكان مطرف بن عبد الله يقول مخاطبا التلاميذ الصغار الذين يستمعون الحديث : لأنتم أحب مجالسة من أهلى . وكان سفيان الثورى يقول : لو لم يأتونى (يقصد طلاب الحديث) لأتيتهم فى بيوتهم . وكانوا يعلمونهم الحديث والأدب فيه ، واحترامه وإجلاله . وكانت لحلقات العلم مكانة جليلة ، وكان طلاب الحديث يوقرون أساتذتهم ويفخرون بخدمتهم والأخذ عنهم ، وكان سلوكهم مع أساتذتهم فى غاية الأدب والاحترام ، سواء أكان هذا فى التلقى عنهم أم فى مناقشتهم ، ويؤثر عن كثير من الصحابة والتابعين نصائح لطلاب العلم فى هذا الشأن [2].

ويمكن تلخيص الحوافز التى هيأها الله للصحابة والتابعين لتدفعهم إلى تحصيلها والقيام بنشرها فيما يلى [3] :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٣) محمد السيد ندا : حفظ السنة ، مجلة الأزهر ، القاهرة ، ربيع الآخر ١٤٠٦هـ ، ج٤ ، س ٥٨ ، ص ٥٤٣ .

وكان بالبصرة : أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وأبو برزة الأسلمى من الصحابة ، والحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين وغيرهم من التابعين .

وكان بمصر من الصحابة : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعقبة بن عامر الجهنى ، ومن التابعين : يزيد بن أبى حبيب ، وأبو الخير بن عبد الله المزنى .

وكان بالشام من الصحابة : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وشرحبيل بن حسنة ، ومن التابعين : أبو إدريس الخولانى ، ومكحول أبى مسلم ، ورجاء بن حيوة .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى تلك الحركة العلمية الرائعة التى قام بها علماء الحديث منذ وفاة الرسول ﷺ ، من أجل مقاومة " الوضع " ، فقد أثمرت هذه الجهود التى توالت ونمت وتطورت ، عن بنية كلية من مجموعة من القواعد والمعايير العلمية الدقيقة التى يؤدى الالتزام بها إلى حسن وضع الحديث موضعه الذى يستحقه ، وعرف هذا بالحركة النقدية ، والتى كانت عبارة عن فحص وتمحيص ونخل للحديث ، متنا وسندا ، قبل تقبله ، وألزم العلماء المشتغل بالحديث بهذه الموازين قبل تدوينه[1].

وعلى الرغم من أن كل من اهتم بتدوين الحديث من علمائنا قد التزموا القواعد النقدية - فيما يقبل ويرفض - نجد أنهم جعلوا من هذه القواعد إطارا عاما لا يخرجون عليه ، ولا يشذون عنه ، ولكنهم فى داخل هذا الإطار يتحركون الحركة الاستقلالية ، التى تكفل للعالم حرية الفكر ، وحرية التقدير ، وحرية الرأى ، فتهيئ للنتاج العلمى النمو والثراء والازدهار والتلاؤم . ومن هنا يلاحظ الدارس المتأمل أنه لا يكاد يوجد اثنان من المحدثين يتشابهان فى المنهج التفصيلى ، أو الطريقة الراصدة ، إذ التجديد المستمر هو السمة البارزة الواضحة التى يتسم بها العمل فى ميدان التحديث وتدوين الحديث ، ولكنه تجديد وتمايز يدور فى داخل الإطار العام المكون من القواعد النقدية العامة مكتوبة كانت أو غير مكتوبة [2].

---

(١) إبراهيم عوضين : التعريف بالسنة وعلومها ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مركز السيرة والسنة ، ١٩٨٩ ، ١٥٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥.

السنة النبوية فى تعليم الأمة فى العصر الحديث :

فى مختلف الدول العربية والإسلامية يتم تعليم التربية الإسلامية فى مراحل التعليم قبل الجامعى على وجه التقريب ، وبطبيعة الحال فإن الوزن الذى تحتله هذه التربية ليس واحدا ، فهذا بلد يزيد من جرعتها وآخر يقلل منها . ومما يؤسف له أن "الامتحانات" لها تأثير كبير فيما تحتله التربية الإسلامية لدى التلاميذ وأولياء أمورهم ، فإذا كانت درجاتها تدخل فى المجموع الكلى لدرجات التلميذ علا قدرها وكثر الاهتمام بها ، والعكس أيضا صحيح .

وعلى أية حال فإن تعليم السنة يأتى فى معظم البلدان جزءا من المقرر الخاص بالتربية الإسلامية ، والتى تسمى أحيانا بالتربية الدينية ، حيث يتم تدريس كل من الأحاديث والسيرة النبوية .

ويستهدف تدريس السنة فى التعليم ما قبل الجامعى إلى ما يلى[1]:

١ - تعرف الطلاب على السنة النبوية من حيث طبيعتها ، أنواعها ، مصادرها ، تدوينها ، رواياتها ، رتبتها .. إلخ ، وتحقيق هذا الجانب على قدر كبير من الأهمية ، ذلك لأننا نجد عددا غير قليل لا يعرفون أساسيات التعامل مع السنة ، وذلك بالوعى بالمعانى الصحيحة لكل من : الحديث الصحيح ، حديث حسن ، حديث غريب ، هذا رواه مسلم ، أو البخارى ، أو متفق عليه ، رواه الشيخان، فضلا عن أن كثيرين أيضا قد لا يعرفون كتب الصحاح وأصحابها ، وإن كان البخارى يحظى بشهرة ومعرفة تفوق غيره .

٢ - التعرف على مكانة السنة النبوية ومرتبتها من التشريع .

٣ - الوعى بالفرق بين الحديث النبوى والحديث القدسى ، والفرق بين الحديث القدسى والقرآن الكريم .

٤ - التعرف على الأحاديث المردودة ، وعلل الرد فيها ، ومعارضتها بصحيح السنة .

٥ - التدريب على استخدام مصادر الحديث المختلفة ، وسهولة التعامل معها .

٦ - إتقان قراءة الحديث وضبط حركاته وسكناته ، وإظهار المعنى فى قراءته[2].

---

(١) فتحى على يونس وآخرون : التربية الدينية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٩٩ ، ص٣١٠ .

(٢) حسن شحاتة : تعليم الدين الإسلامى بين النظرية والتطبيق ، القاهرة ، الدار المصرية للكتاب ، ١٩٩٤ ، ص ١٦٠ .

١ - إدراكهم أن الإسلام سبيل سعادتهم ، وشعورهم بالحاجة إلى معرفة السنة ، وحرصهم عليها لتصحيح عبادتهم والوقوف على أمور دينهم الذى هو سبب سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

٢ - فرط حبهم لرسول الله ﷺ ، لدرجة أن فاق حبهم له لآبائهم وأولادهم ، بل وأنفسهم تصديقا لقوله ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أولاده ووالده والناس أجمعين " ، فإن هذا الحب كان يدفعهم إلى التردد على مجلسه حال حياته لمطالعة أنواره ، والاستمتاع بعذب حديثه ، وترديد ما يسمع منه والتغنى بذكره ، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره .

كما كان هذا الحب يدفعهم إلى تتبع أخباره وتقصى أحواله عند تعذر اللقاء به لسفر ونحوه فى حال حياته أو لتوديعه الدنيا وانتقاله إلى الرفيق الأعلى بعد مماته ، إذ لا سبيل إلى تخفيف لوعة الحب فى هذه الحالة إلا باستنشاق أخباره واستقصاء أحواله ، وتشنيف المسامع بعذب حديثه ، ولله در من قال[1]:

حدث وشنف بالحديث مسمعى لحديث من أهوى حلى مسامعى

لله ما أحلى مكرره الذي حلو ويعذب فى مذاق السامع

بسماعه نلت الذى أملته وبلغت كل مطالبى ومطامعى

ولعل هذا ما دفع ابن الصلاح إلى أن يوجب على طالب تعلم الحديث أن يكون على دراية كافية بصحابة رسول الله بصفة خاصة ، وبلغ الاهتمام بهذا الأمر أن أصبح " علما " ألف الناس فيه كتبا كثرة ومن أجلها وأكثرها فائدة " كتاب الاستيعاب " لابن عبد البر ، لولا ما يعيبه من إيراده كثيرا مما شجر بين الصحابة وحكاياته عن الإخباريين والتخليط فيما يروونه [2] .

وهناك كتب أخرى بطبيعة الحال هامة فى معرفة الصحابة نذكر منها [3] :

١ - كتاب " أسد الغابة فى معرفة الصحابة " للإمام المحدث الحافظ عز الدين على بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، فلقد جمع فى كتابه هذا بين الكتب التى هى غاية ما انتهى إليه الجمع فى الصحابة حتى عهده ، فاجتمع له

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤٤ .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق ، هامش المحقق ، ص ٢٩٢ .

من الصحابة ٧٥٠٠ ، وعُنى فى مقدمته بترتيبه على الأحرف ترتيبا أدق من كتاب الاستيعاب ، لكنه لم يسلم من بعض الثغرات ، حيث تبع من قبله ، وخلط من ليس صحابيا بهم ، وأغفل كثيرا من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة فى كتبهم ·

٢ - كتاب (الإصابة فى تمييز الصحابة) للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، فقد جمع فى كتابه ما كتبه السابقون ، وأعاد النظر فى مراجع الصحابة الأولى من كتب السنة وتاريخ الرواة والسير والمغازى ، فاستخرج منها أسماء صحابة فاتت غيره· وقد رتب الكتاب على أحرف المعجم وقسم كل حرف أربعة أقسام ، عنى فيها بتمييز من ثبت لقاؤه للنبى ﷺ ممن لم يثبت ، ونبه فيه على ما ذكر فى الكتب السابقة على سبيل الوهم والغلط ·

٣ - كتاب (حياة الصحابة) للعلامة الداعية المحدث الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى - الهندى ، المتوفى سنة ١٣٨٣هـ ، تناول فيه سيرة الصحابة من حيث كونهم مثلا عليا فى تطبيق هذا الدين ، ومن حيث كونهم قدوة تحتذى فى العلم والعمل والتقى والورع ، فجمع فيه أخبارهم مرتبة على الأبواب لا الأسماء ، مثل : " باب تحمل الشدائد فى الله " ، " باب الهجرة " ·· وهكذا ·

ولم يكن النشاط الفعال للصحابة والتابعين فى حفظ السنة قاصرا على قطر دون قطر ، أو بلد دون بلد ، بل ، لقد كانوا منتشرين فى كل قطر ، وكانت مدارسهم فى كل بلد ، ويتحدث الحاكم النيسابورى أبو عبد الله عن مدارس الحديث فى بلاد الإسلام، وأشهر رجالها من التابعين ، فى استفاضة يستحيل معها أن نلخصها هنا ، وإنما يكفينا أمثلة للتوضيح[1]:

فمن مشاهير الرواة ورجال الحديث بمكة ، عبد الله بن السائب المخزومى ، وعثمان بن طلحة ، وابن عباس من الصحابة ، ومن التابعين : مجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ·

ومن مشاهير رجال الحديث بالمدينة من الصحابة : أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأبو سعيد الخدرى ، وعائشة· ومن التابعين : سعيد بن المسيب ، والزهرى ، وعروة بن الزبير ، وغيرهم من كبار رجال الحديث ·

وكان بالكوفة من الصحابة : على ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، والنعمان بن بشير · ومن التابعين : إبراهيم النخعى ، وشريح الكندى ، وعامر الشعبى ، وغيرهم·

(١) الإمام الذهبى : الكاشف ، ج١ ، المقدمة ، ص ٢٤ ·

٧ - سلامة الفهم لمعانى الحديث ، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية ، وعلى آى القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث النبوية الأخرى التى توضح الصورةالذهنية للحديث المشروح ، وتحدد أبعادها ، وتوسع آفاقها .

٨ - التأكيد على الجانب العقلى ، والتحليل المنطقى ، أثناء شرح الأحاديث ، إضافة إلى الاستعانة بالنصوص وواقعية الحل .

أما بالنسبة للسيرة النبوية ، فإننا نؤكد على الأمور التالية[1]:

أولا - أن السيرة النبوية معين لا ينضب لكل العناصر التى تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، ومن ثم فهى وافرة العطاء قوية التأثير . وإذا نظرنا إلى الجانب النفسى لتلميذ التعليم قبل الجامعى بصفةٍ خاصة ، الذى يتلقى هذه التربية ، نجد أن السيرة بما تعرض من نماذج ، فيها إشباع قوى لكثير من حاجات هؤلاء التلاميذ ، ففى مواقف السيرة النبوية ، قد يجد التلميذ نفسه ، وقد يجد فيه علاجا لمشكلة عنده ، كما يجد فيها ما يطمح إلى تحققه فى الشخصية الإنسانية ، ومن هنا تأتى أهمية التركيز على الأبعاد الإنسانية بصفة خاصة فى تعليم السيرة .

ثانيا - أن السيرة النبوية فيها حديث عن رسول الله ، وذكر لمناقبه ومآثره ، وعظيم أخلاقه ، والحديث عن رسول الله أمر محبب ويملأ النفس تقديرا واحتراما ، وطوف بالقارئ أو بالسامع فى عوالم نموذجية ، تمتلئ حبا وإيمانا وشفافية وإخلاصا ، ولذلك يكون التأثر به أقوى وأشد ، وكذلك الحديث عن صحابته أو بعض أئمة الإسلام .

ثالثا - أن النماذج التى تعرض على التلميذ ليست مثاليات نظرية ، وإنما مواقف عملية ، فيها النقاء الخلقى وحسن التصرف ، وجمال السلوك ، مما يجعل تأثر التلميذ بها أمرا قويا . هذا بالإضافة إلى أن التلميذ فى هذا السن ، بما يحدث لديه من تغيرات نفسية وبيولوجية تهز كيانه ، فى حاجة ماسة إلى أن يجد أمامه نماذج بشرية قادرة على أسره وتوجيهه نحو المسار الخلقى الصحيح ، وأن تحميه من مسالك الفساد وضروب الانحراف .

---

(١) محمد صلاح الدين على مجاور : تدريس التربية الإسلامية ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٦، ص ٣١٤ .

رابعا – أن مواقف السيرة تمثل مواقف عالية من الإنسانية التى لا ترقى إليها مواقف أخرى ، وعرض هذه المواقف فى سموها وعلوها ، تعطى التلميذ انطباعا بمحاولة التشبه والتأثر ، وبخاصة إذا كان السلوك صادرا عن رسول الله ﷺ أو عن أحد صحابته وحوارييه[1] .

هذا، وقد لا يكون المجال متسعا لبيان كيفية تدريس كل من الأحاديث والسيرة النبوية ، فهناك كتب متخصصة فى ذلك ، لكن اكتمال الصورة يقتضى منا تقديم أفكار موجزة لما يمكن أن يكون عليه تدريس هذين المجالين ·

فبالنسبة للحديث يمكن أن يسير تدريسه وفق الخطوات التالية [2]:

١ – التمهيد ، ويتضمن سبب ورود الحديث ·وهذه الخطوة على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنها خطوة مهمة لجذب انتباه التلاميذ واهتمامهم للدرس ، وتشويقهم لمناقشة القضايا التى يتناولها نص الحديث · ويمكن أن يتم ذلك بأكثر من طريقة ، كأن يناقش مع الطلاب فكرة الحديث وموضوعه ، أو يربط مضمونه بأية مواقف ترتبط به[3] .

٢ – عرض الحديث ·

٣ – قراءته قراءة نموذجية وفقا القواعد المتفق عليها ، مثل[4]:

– التأنى ·

– النطق السليم الواضح ·

– تكرار الحديث بكامله إن كانت عامة مفرداته صعبة وغريبة على الطلاب ، وإلا اكتفى بتكرار الكلمات النادرة والغريبة ·

– حسن الوقف والوصل والاستفهام والتعجب ، مع رفع الصوت تارة ، وخفضه تارة أخرى وتغييره بما يساعد على إثارة انتباه الطالب وجذبه للسماع والتأثر ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

(٢) محمد صالح سمك فن التدريس للتربية الدينية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية، ١٩٧٣ ، ص ٩٦

(٣) فتحى يونس وآخرون : التربية الدينية الإسلامية ، ص ٣١٢ .

(٤) يوسف محمد صديق : النظرية التربوية فى طرق تدريس الحديث النبوى ، الدمام ، دار ابن القيم، ١٤١٢هـ ، ص ٨٧ .

- شرح المفردات والتراكيب الغامضة ، والاستعانة بكل وسيلة نافعة فى تثبيت ذلك فى أذهان الدارسين .

٤ - إعطاء التلاميذ وقتا محددا لقراءة الحديث قراءة صامتة ، للتفكير فى محتواه والإلمام بما قد يكون فيه من ألفاظ صعبة أو معنى يحتاج إلى بيان .

٥ - مناقشتهم فى تفسير الكلمات والعبارات الصعبة وتدوين معانيها على السبورة .

٦ - دفع التلاميذ بطريقة غير مباشرة ، بالمشاركة فى مناقشة وشرح الحديث شرحا تفصيليا .

٧ - استنباط الآداب والأحكام التى يشتمل عليها الحديث وتدوينها على السبورة .

٨ - قراءة الحديث قراءة نموذجية مرة ثانية ، يعقبها قراءة التلاميذ واحدا بعد واحد حتى يتقنوا قراءته ويجيدوا حفظه .

٩ - التقويم ، وفى هذه الخطوة يطلب المعلم من التلاميذ الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المرتبطة بالدرس ، حتى يتبين المعلم ما قد يكون هناك من إيجابيات فيدعمها فى الدروس التالية ، أو من سلبيات ، فيبحث عن أسبابها ويسعى إلى تلافيها . هذا ويمكن أن تكون الأسئلة مقالية أو موضوعية ، فى صور متعددة .

أما بالنسبة للسيرة النبوية ، فهناك عدة أساليب يمكن للمعلم أن يختار أيا منها ، علما بأن اختياره أسلوبا معينا لا يعنى بالضرورة الالتزام به دائما ، إذ قد يقتضى الموقف أسلوبا معينا أكثر من غيره ، بل قد يقتضى الموقف استخدام أكثر من أسلوب فى الدرس الواحد.

فمن هذه الأساليب ، أن يستخدم المعلم الطريقة الزمنية التقليدية ، أى يتناول سيرة رسول الله وفقا لترتيبها الزمنى ، منذ زواج عبد الله من آمنة بنت وهب ، وما تلا ذلك من أحداث بالترتيب . لكن من الضرورى فى هذه الحالة الا يغلب طابع السرد ، فمثل هذا يمكن أن يبعث مللا فى نفوس التلاميذ ، فضلا عن أن الدراسة التاريخية العلمية تقتضى إبراز السياقات المجتمعية المختلفة للأحداث ، والتفكير فى عللها ، ومناقشة ما ترتب عليها من نتائج ، والربط المستمر بين الأحداث حتى لا تبدو قطعا متناثرة .

ومن هذه الأساليب أيضا أن يتمحور تناول السيرة حول قضايا ومشكلات ، وهو الشكل الذى اتبعناه على وجه التقريب ونحن نعرض للسيرة فى كتابنا الحالى ، بدون

الالتزام بالترتيب الزمنى ، إلا داخل القضية المختارة إذا كانت تقتضى ذلك ، فاختيار - مثلا - بعد الجهاد المسلح يقتضى تناول الغزوات بترتيبها الزمنى ، لكن قضية مثل السيرة كقدوة أخلاقية ، فلا يشترط هنا ترتيبا زمنيا ، وإن كان هذا لا يعنى أيضا التغافل عن السياق الذى وجد فيه الحدث الذى يبرز هذه القيمة أو الفضيلة الأخلاقية أو تلك .

ومن الممكن الاعتماد على أسلوب القصة ، وهذا يفضل أكثر فى سنوات التعليم الإبتدائى ، وخاصة الأولى ، بكل ما هو معروف عن هذا الأسلوب من حيث مراعاة الشكل الفنى للقصة بقدر الإمكان ، مع التركيز على ما تحمله من معان ودلالات .

ولا يعنى قولنا أن القصة أنسب لتلاميذ التعليم الابتدائى ، ألا تستخدم إلا فى هذه المرحلة ، فالقصة على وجه العموم من الأشكال التى تأسر مختلف الأعمار .

ومن الملاحظ فى مناهج بعض البلدان الربط بين السيرة وبين التهذيب ، اتساقا مع قوله ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، بحيث يكون الهدف الأساسى من تعلم السنة وتعليمها هو التأسى برسول الله ﷺ ، والتخلق بقدر المستطاع بأخلاقه .

على أنه من الضرورى عدم تحويل السيرة إلى مجموعة من النصائح والعظات المباشرة ، وإنما مثل هذه العظات والمبادئ الأخلاقية والعبر ، تترك للتلاميذ أنفسهم كى يُعملوا عقولهم فى استنباطها من وقائع الحياة النبوية ، مع قدر من التوجيه والإرشاد ، فدروس السيرة بصفة عامة دروس اقتداء فاهتداء ، والسيرة المقصودة هى السيرة النبوية ، وتاريخ الصحابة ، تاريخ إيمانهم ومحنتهم وحسن بلائهم ، وتاريخ جهادهم وفتوحهم وزهدهم واستقامتهم ، فهو تاريخ يملأ القلب إيمانا وحماسة ، ويبعث على التقليد وفهم نتائج التربية الإسلامية ، فهى التى صنعت نفوسهم على التضحية والإيثار والوفاء والعزة والكرامة [1].

---

(١) حسن شحاتة : تعليم الدين الإسلامى ، ص ٢٠٢ .

استخدام تقنيات المعلومات لخدمة تعليم السنة وتعلمها :

إننا نعيش اليوم فى عصر التطور المذهل للمعرفة الذى بدأ بظهور وسائل الطباعة وأساليب حفظ وتبويب وفهرسة واسترجاع المعلومات ، ثم جاء عصر الكمبيوتر بإمكانات ضخمة وأحجام تخزين هائلة وسرعة فى الوصول للمعلومات مذهلة . ولا شك فى أن ظهور هذه الأدوات فى العالم الغربى قد أتاحت له قفزات سريعة على سلم الرقى المادى ، ومن المنتظر أن تسرع خطواته أكثر وأكثر حين ينتقل من نظم قواعد البيانات إلى نظم قواعد المعارف ، ومن هنا تبرز لنا أهمية تطويع (الكمبيوتر) لخدمة السنة النبوية ، فالأمر ليس رفاهية فكرية وإنما هو فى حقيقته ضرورة حضارية[1] .

والكمبيوتر يتميز بعدد من المميزات التى يمكن أن تعيننا على حسن الاستفادة بالسنة النبوية بأفضل الطرق وأكثرها كفاءة ، وهذا يتجلى لنا من خلال ما يلى :

أ - قدرة الكمبيوتر على تخزين أحجام هائلة من المعلومات ، إذ لا شك أن حجم الحديث النبوى يظهر بوضوح إذا نظرنا إلى

- مجموعة مصادر الحديث تعد بالمئات بين مطبوع ومخطوط .
- تباين أساليب المصنفين فى جمع الأحاديث (تقسيم فقهى - مسانيد معاجم ...) .
- اختلاف أساليب تبويب الأحاديث داخل النوع الواحد من المصنفات .
- حاجة كل حديث إلى قدر كبير من المعلومات موزعة بين آلاف الكتب والمراجع بين شرح وتحليل ووصف للسند أو المتن وتراجم الرواية وتعقب لأقوال علماء الجرح والتعديل ، وطرق روايته ، وخرائط إسناده وخصائص كل سند ، والموضوعات التى يتناولها الحديث ، والاستدلالات الفقهية والاستنباطات التشريعية والحضارية .

ب - سرعة الكمبيوتر فى الوصول للمعلومة ، فسرعة أداء الكمبيوتر تقاس حاليا بما يمكن أن يفعله من عمليات حسابية أو منطقية فى جزء من الألف مليون من الثانية وهو ما يعرف بالنانو ، وإن كان د. أحمد زويل قد وصل إلى ما هو أكثر تقدما من هذا بكثير !

---

(١) السيد محمود المراكبى : تطويع تقنيات المعلومات لخدمة السنة النبوية ، فى (ندوة السنة النبوية ومنهجها فى بناء المعرفة والحضارة ، عمان / الأردن) ص ٣

ج - قدرة الكمبيوتر على التبويب والفهرسة ، فمن أهم مميزاته هى قدرته على ترتيب الملفات بعدة صور فى ثوان محدودة ·

د - إمكانات توحيد البيانات ، حيث يتم تخزين المعلومة مرة واحدة ، مع القدرة على التعامل معها من عدة زوايا حسب حاجة كل مستخدم على حدة ·

وإن التحليل الموضوعى الفقهى تحليل تقليدى يحقق حاجة الباحثين من منظور فقهى ، ومما لا شك فيه أن السنة النبوية مشتملة على العلوم المتنوعة التى تخدم الجوانب المختلفة للحياة ، فهى إذن كفيلة أن يجد فيها الإنسان المعاصر بغيته ، وذلك لا يتم إلا بتحليل موضوعى حديث يتناسب ومصطلحات العصر الحديث فى مختلف العلوم والفنون [1] ·

وتحقيق ذلك يتمثل فى تكوين لجان تضم الباحث المتخصص فى العلوم المعاصرة والعالم الشرعى ، فالأول يشرح النظرية العلمية بدقائقها ، والعالم الشرعى يأتى بالنصوص التى تشير إلى ذلك ، أو العكس ، حيث يشرح العالم الشرعى الحديث النبوى الشريف ، ويستلهم منه الباحث المتخصص الدقائق العلمية التى يستدل عليها من الحديث ، وهذه الدورة لن تتوقف ما دامت الحياة تسير ·

ويساعدنا الكمبيوتر فى تخزين هذه النتائج من خلال تقسيم عصرى ذى مداخل يتبعها تقسيمات عصرية يندرج تحتها مستويات أقل ·· وهكذا ، بالأسلوب نفسه الذى للتقسيم الموضوعى الفقهى ·

ومن الجهود المبكرة التى بذلت على هذا الطريق ، الجهد الذى قامت به لجنة موسوعة الحديث الشريف فى جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية منذ أواخر الثمانينيات من القرن العشرين ، بعمان ، الأردن ، وذلك لإنجاز الدليل التصنيفى لعلوم التربية الإسلامية ، آخذة بعين الاعتبار رسم صورة متكاملة للتربية والحاجات التربوية من المنظور الإسلامى ·

وقد تبين للجنة ، عند البدء فى العمل أن الكتب التى عنيت بالتربية الإسلامية ، لم تتعرض للتصنيف التربوى القائم على حصر الموضوعات الرئيسية وتفريعها وفق منطق " المكانز التصنيفية " ، مما جعل الحاجة ماسة للقيام بهذا المشروع ، وكانت البداية من خلال التحليل التربوى لأحاديث صحيح الإمام البخارى ، حيث قام باحث بقراءة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠ .

أحاديث البخارى المثبتة على ألفين وستمـائة بطاقة ، ثم عهد إلى لجنة تربوية متخصصة أن تقـوم بتأليف دليل تصنيـفى فى العلوم التـربوية ، وقد قـامت هذه اللجنة بتحـديد إجراءات العمل على النحو التالى[1] :

أ - حصـر المفاهيم والمصطلحـات التربوية من كتب علم النـفس والتربية والقـواميس والفهارس المتخصصة .

ب - حصر مفاهيم التربية الإسلامية كما وردت فى كتب المهتمين بالتربية الإسلامية .

وعلى سبيل المثال ، فـقد قسمت اللجنة مجالات التصنيف ومحـاوره إلى خمسة محاور رئيسية هى : (التصـور الإسلامى - الأهداف العامة والقيم والمبادئ - المنهاج - المعلم والمتـعلم - مـؤسسـات التـربيـة والتعـليم) . وداخل كل محـور ، عـديد من الموضوعات الفرعية ، ومثال ذلك مـا جاء بصدد المحور الأول (التصور الإسلامى) ، إذ اشتمل على مـوضوعات مثل : (التـصور الإسلامى للألوهية - التـصور الإسلامى للكون - التـصور الإسـلامى للإنسان - التـصور الإسلامـى للحيـاة الدنيا - التـصور الإسلامى للحياة الآخرة) .

وبالنسبة لمحور مؤسسات التربية والتعليم ، قسم إلى موضوعات فرعية ، مثل : (الأسرة - المدرسة - مجتمع الأتراب - المجتمع المحلى - وسائل الإعلام - البعوث - الوفود - الدولة) .

والحق أن من الصعب على الكاتب أن يوفى هذا الموضوع حقـه كاملا ، فالجهود فيه منذ ذلك الوقت أخذت تتوالى وتتفرع وتثرى .

---

(١) همام عبد الرحيم سعيد : بناء المكانز الموضوعية فى الحديث وأهمية ذلك للأعمال الموسوعية ، فى (ندوة السنة النبوية) .

٣٧٧,١	سعيد إسماعيل على.
س ع س ن	السنة النبوية : رؤية تربوية / سعيد إسماعيل على. - القاهرة: دارالفكر العربى، ٢٠٠٢م.
	٥١٥ص ؛ ٢٤سم. ([سلسلة] أصول الفقه التربوى الإسلامى ؛ ٢).
	يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
	تدمك : ٤ -١٥٢١-١٠-٩٧٧.
	١- التربية الإسلامية. ٢- السنة النبوية. أ- العنوان. ب- السلسلة.

تصميم وإخراج فنى

حسام حسين أنيس



رقم الإيداع	٢٠٠١/١٧٤٦٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977- 10-1521-4